

وحي القلم

تأليف
مصطفى صادق الرافعي



المكتبة العصرية
بيروت

وَحْيِ الْقَلَمِ

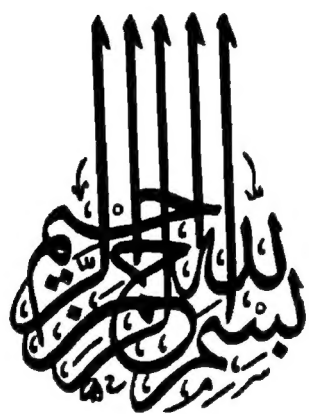
وَحْيُ الْقَلَمِ

تأليف
مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ

راجعته واعتنى به
د. دُرُويشُ الجَوَيْدِي

الجزء الثالث

المكتبة العصرية
مستيد - بيروت



السَّمُ الرُّوحِيّ الْأَعْظَمُ وَالْجَمَالُ الْفَنِّي فِي الْبَلَاغَةِ النَّبَوِيَّةِ

لَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ هَذَا الْفَضْلَ وَهَمَمْتُ بِهِ، عَرَضَتْ لِي مَسْأَلَةٌ نَظَرْتُ فِيهَا جَوَابَهَا، ثُمَّ قَدَرْتُ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ فِلَاسَفَةِ الْبَيَانِ فِي أَوْرِبَا لِعَهْدِنَا هَذَا رَجُلًا يُحَسِّنُ الْعَرَبِيَّةَ الْمُبِينَةَ، وَقَدْ بَلَغَ فِيهَا مَبْلَغُ أُنْعَمَتِهَا عِلْمًا وَذَوْقًا، وَدَرَسَ تَارِيخَ النَّبِيِّ ﷺ دَرَسَ أَلْرُوحِ لِأَعْمَالِ أَلْرُوحِ، وَتَفَقَّهَ فِي شَرِيعَتِهِ فَفَقَّ أَلْحِكْمَةَ لِأَسْرَارِ أَلْحِكْمَةِ، وَأَسْتَوْعَبَ أَحَادِيثُهَا وَاعْتَبَرَهَا بِفَنِّ أَلْفَنَاءِ الْبَيَانِي الَّذِي يَبْحَثُ فِي خَصَائِصِ أَلْكَلَامِ عَنْ خَصَائِصِ أَلْنَفْسِ؛ وَتَمَثَّلَتْ أُنِّي لَفَيْتُ هَذَا أَلْرَجُلَ فَسَأَلْتُهُ: مَا هُوَ أَلْجَمَالُ الْفَنِّي عِنْدَكَ فِي بَلَاغَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ وَمَاذَا تَسْتَخْرِجُ لَكَ فِلَسَفَةَ الْبَيَانِ مِنْهُ؟ وَمَا سِرَّهُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ؟

وَلَمْ يَكُذْ يَخْطُرُ^(١) لِي ذَلِكَ حَتَّى أَنْكَشَفَ الْخَاطِرُ^(٢) عَنْ وَجْهِ آخِرٍ، وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى هَذَا السُّؤَالِ بَعِينُهُ قَدْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ لِأَبْلَغِ أَوْلَثِكَ أَلْعَرَبِ الَّذِينَ رَأَوْا أَلنَّبِيَّ ﷺ، وَآمَنُوا بِهِ، وَاتَّبَعُوا أَلنُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، وَقَدْ صَحِبَهُ فَطَالَتْ صُحْبَتُهُ، لَا يَفُوتُهُ مِنْ كَلَامِهِ فِي الْمَلَأِ شَيْءٍ، وَخَالَطَهُ حَتَّى كَانَ لَهُ فِي الْإِحَاطَةِ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ كِبَعُضِ أَلتَّارِيخِ، فَتَدَبَّرَ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ سِرُّ أَلْجَمَالِ فِي بَلَاغَتِهِ ﷺ، وَمَا مَرْجِعُهُ الَّذِي يَرُدُّ إِلَيْهِ؟

لَوْ دَارَ أَلسُّؤَالُ دَوْرَتِيهِ فِي هَذِهِ أَلسَّلِيلَةِ^(٣) أَلْعَرَبِيَّةِ أَلْمُحْكَمَةِ الَّتِي رَجَعْتُ أَنْ تَكُونَ فِلَسَفَةً تُشْعِرُ وَتُحَسِّنُ، وَفِي تِلْكَ أَلْفِلَسَفَةِ الْبَيَانِيَّةِ أَلْمُلْهِمَةُ الَّتِي بَلَغَتْ أَنْ تَكُونَ سَلِيلَةً تَدْرُسُ وَتَفَكِّرُ لَمَّا خَلَصَ مِنْ كِلْتُمَا إِلَّا بِرَأْيٍ وَاحِدٍ تَلْتَقِي عَلَيْهِ حَقِيقَةُ الْبَيَانِ مِنْ طَرَفَيْهَا: وَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ أَلْجَمَالُ الْفَنِّي فِي بَلَاغَتِهِ ﷺ، إِنَّمَا هُوَ أَثَرٌ عَلَى أَلْكَلَامِ مِنْ رُوحِهِ أَلنَّبَوِيِّ أَلْجَدِيدَةِ عَلَى الدُّنْيَا وَتَارِيخِهَا.

(١) يخطر لي: يطرأ على بالي.

(٢) انكشف الخاطر: ظهر وبان.

(٣) السليقة: الموهبة اللغوية.

وبعد، فأنا في هذه الأصفحات لا أصنع شيئاً غيرَ تفصيلِ هذا الجوابِ وشرحه، باستخراج معانيه، واستنباط^(١) أدلّته، والكشفِ عن أسرارِهِ وحقائقِهِ؛ ولقد درستُ كلامَهُ ﷺ، وقضيتُ في ذلك أياماً أتبعُ السَّرَّ الَّذِي وَقَعَ فِي التَّارِيخِ الْكَفَرِ الْمُجْدِبِ فَأَخْصَبَ بِهِ وَأَنْبَتَ لِلدُّنْيَا أَزْهَارَهُ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَمِيلَةِ، فَكَانُوا نَاساً إِنْ عَيْتَهُمْ شَيْءٌ لَمْ تَعْنَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ دُونَ الْمَلَائِكَةِ؛ وَكَانُوا نَاساً، دَارَتْ أَلْكَرَةُ الْأَرْضِيَّةُ فِي عَدَجِهِمْ ثَلَاثَ دَوَرَاتٍ: وَاحِدَةٌ حَوْلَ الشَّمْسِ، وَثَانِيَةٌ حَوْلَ نَفْسِهَا، وَثَالِثَةٌ حَوْلَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَلَامَ النَّبَوِيَّ يَتَكَلَّمُ فِي نَفْسِي وَيُلْهِمُنِي مَا أَفْصَحَ بِهِ عَنْهُ، فَلِكَأَنِّي بِهِ يَقُولُ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ: إِنِّي أَصْنَعُ أُمَّةً لَهَا تَارِيخٌ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ، فَأَنَا أَقْبَلُ مِنْ هُنَا وَهَنَاكَ، وَأَذْهَبُ هُنَاكَ وَهَنَا، مَعَ الْقُلُوبِ وَالْأَنْفُسِ وَالْحَقَائِقِ، لَا مَعَ الْكَلَامِ وَالنَّاسِ وَالْوَقْتِ.

إِنَّ هُنَا دُنْيَا الصَّحْرَاءِ سَتَلِدُ الدُّنْيَا الْمَتْحَضِرَةَ الَّتِي مِنْ ذُرِّيَّتِهَا أَوْرِبَا وَآمَرِيكَا؛ فَالْقِرَآنُ وَالْحَدِيثُ يَعْمَلَانِ فِي حَيَاةِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِنُورِ مُتَمِّمٍ لِمَا يَعْمَلُهُ نُورُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَغْزُونَ الدُّنْيَا بِأَسْلِحَةٍ هِيَ فِي ظَاهِرِهَا أَسْلِحَةُ الْمُقَاتِلِينَ، وَلَكِنَّهَا فِي مَعَانِيهَا أَسْلِحَةُ الْأَطْبَاءِ؛ وَكَانُوا يَحْمِلُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، ثُمَّ مَضُوا إِلَى سَبِيلِهِمْ وَبَقِيَ الْكَلَامُ مِنْ بَعْدِهِمْ غَازِيَا مُحَارِباً فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ حَزْبٌ تَغْيِيرٍ وَتَحْوِيلٍ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ الْإِسْلَامُ عَلَى مَا دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ.

هَذَا مَنْطِقُ الْحَدِيثِ فِي نَفْسِي، وَقَدْ كُنْتُ أَقْرؤه وَأَنَا أُمَثِّلُهُ مَرْسَلاً بِتِلْكَ الْفَصَاحَةِ الْعَالِيَةِ مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ يَمُرُّ إِعْجَازُ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا يَخْرُجُ بِهِ الصَّوْتُ الْبَشَرِيُّ إِلَى الْعَالَمِ، فَلَا أَرَى ثُمَّ إِلَّا أَنَّ شَيْئاً إِلَهِيّاً عَظِيماً مُنْصِلاً بِرُوحِ الْكَوْنِ كُلِّهِ أَتْصَالَ بَعْضُ السَّرِّ بِبَعْضِ السَّرِّ، يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ إِنْسَانِيٍّ هُوَ هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي يَجِيءُ فِي كَلِمَاتٍ قَوِيَّةٍ رَاضِيَةٍ، فَتُهَا فِي بَلَاغَتِهَا كَالشَّبَابِ الدَّائِمِ.

كُنْتُ أَتَأَمَّلُهُ قِطْعاً مِنْ أَلْبْيَانٍ فَأَرَاهُ يَنْقُلُنِي إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي أَتَأَمَّلُ فِيهَا رَوْضَةٌ تَتَنَفَسُ عَلَى الْقَلْبِ، أَوْ مَنْظَرٌ يَهْزُ جَمَالَهُ النَّفْسَ، أَوْ عَاطِفَةٌ تَزِيدُ بِهَا الْحَيَاةَ فِي الْكَدِّ، عَلَى هَدْوٍ وَرُوحٍ وَإِحْسَاسٍ وَلَذَّةٍ؛ ثُمَّ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُضْلِحُ مِنَ الْجِهَاتِ

(١) استنباط: استخراج.

الإنسانية في نفسي، ثُمَّ يَرْزُقُ اللَّهُ مِنْهُ رِزْقَ النُّورِ فإذا أنا في ذوقِ ألبانٍ كأنما أرى المتكلمَ ﷺ وراءَ كلامه .

وأعجب من ذلك أنني كثيراً ما أقِفُ عندَ الحديثِ الدقيقِ أنعرِفُ أسرارَهُ، فإذا هو يشرحُ لي ويهديني بهديه؛ ثُمَّ أَجِئُهُ كأنما يقولُ لي ما يقولُ المعلمُ لتلميذه: أفهمت؟

وقفتُ عندَ قولِهِ ﷺ: إِنَّ قوماً رَكِبُوا في سفينةٍ، فَأَقْتَسَمُوا، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ، فَتَقَرَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأْسٍ، فَقَالُوا لَهُ: مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: هُوَ مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ! فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدِي نَجَا وَنَجَوَا، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا.

فكانَ لهذا الحديثِ في نفسي كلامٌ طويلٌ عن هؤلاء الذين يخوضون^(١) مَعَا الْبَحْرَ وَيَسْمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَجْدُودِينَ، وَيَنْتَحِلُونَ ضروباً مِنَ الْأَوْصَافِ: كَحَرِيَّةِ الْفِكْرِ، وَالْغَيْرَةِ، وَالْإِصْلَاحِ؛ وَلَا يَزَالُ أَحْذَهُمُ يَنْقُرُ مَوْضِعَهُ مِنْ سَفِينَةِ دِينِنَا وَأَخْلَاقِنَا وَآدَابِنَا بِفَأْسِهِ، أَيِ بَقْلِهِ... زاعماً أَنَّهُ مَوْضِعُهُ مِنَ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ يَصْنَعُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، وَيَتَوَلَّاهُ كَيْفَ أَرَادَ، مُوجِّهاً لِحِمَاقَتِهِ وَجَوْهاً مِنَ الْمَعَاذِيرِ وَالْحُجَجِ، مِنَ الْمَدَنِيَّةِ وَالْفَلَسَفَةِ، جَاهِلاً أَنَّ الْقَانُونَ فِي الْعَاقِبَةِ دُونَ غَيْرِهَا، فَالْحُكْمُ لَا يَكُونُ عَلَى الْعَمَلِ بَعْدَ وَقُوعِهِ كَمَا يُحْكَمُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْأُخْرَى؛ بَلْ قَبْلَ وَقُوعِهِ؛ وَالْعِقَابُ لَا يَكُونُ عَلَى الْجَزْمِ بِقَتْرُقِهِ الْمُجْرِمُ كَمَا يُعَاقَبُ اللَّصُّ وَالْقَاتِلُ وَغَيْرُهُمَا، بَلْ عَلَى الشَّرْعِ فِيهِ، بَلْ عَلَى تَوَجُّهِ النَّيَّةِ إِلَيْهِ؛ فَلَا حَرِيَّةَ هُنَا فِي عَمَلٍ يُفْسِدُ خَشَبَ السَّفِينَةِ أَوْ يَمْسُهُ مِنْ قَرَبٍ أَوْ بَعْدٍ مَا دَامَتْ مُلْجَجَةً فِي بَحْرِهَا، سَائِرةً إِلَى غَايَتِهَا؛ إِذْ كَلِمَةُ (الْخَرْقِ) لَا تَحْمِلُ فِي السَّفِينَةِ مَعْنَاهَا الْأَرْضِيَّ، وَهَنَّاكَ لَفْظَةً (أَصْغَرُ خَرْقٍ) لَيْسَ لَهَا إِلَّا مَعْنَى وَاحِدٍ وَهُوَ (أَوْسَعُ قَبْرِ)...

ففكرتُ في أعظمِ فلاسفةِ الدُّنْيَا مَهْمَا يَكُنْ مِنْ حَرِيَّتِهِ وَأَنْطِلَاقِهِ، فَهُوَ هَهُنَا مَحْدُودٌ عَلَى رَغْمِ أَنْفِهِ بِحُدُودٍ مِنَ الْخَشَبِ وَالْحَدِيدِ تَفْسِيرُهَا فِي لُغَةِ الْبَحْرِ حُدُودُ الْحَيَاةِ وَالْمَصْلَحَةِ وَكَمَا أَنَّ لَفْظَةَ (الْخَرْقِ) يَكُونُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي الْبَحْرِ الْقَبْرِ وَالْفَرْقُ وَالْهَلَاكُ، فَكَلِمَةُ (الْفَلَسَفَةِ) يَكُونُ مِنْ بَعْضِ مَعَانِيهَا فِي الْاجْتِمَاعِ الْحِمَاقَةُ وَالْعَقْلُ وَالْبَلَاةُ، وَكَلِمَةُ الْحَرِيَّةِ يَكُونُ مِنْ مَعَانِيهَا الْجَنَائِيَّةُ وَالزَّيْعُ وَالْفَسَادُ وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ

(١) خاض البحر: ركب منه مغامراً.

اللغوي فالقلم في أيدي بعض الكتاب من معانيه ألفاس، والكتاب من معانيه المخرب، والكتابة من معانيه الخيانة؛ قال لي الحديث: أفهمت؟

هكذا يجب تأمل الجمال الفني في كلامه ﷺ، فهو كلام كلما زده فكرياً زادك معنى، وتفسيره قريب، قريب كالأروح في جسمها البشري، ولكنه بعيد بعيد كالأروح في سرها الإلهي، فهو معك على قدر ما أنت معه، إن وقفت على حد وقف، وإن مددت مد، وما أدبت به تأدى^(١)، وليس فيه شيء مما تراه لكل بلغاء الدنيا من صناعة عبث ألقول، وطريقة تأليف الكلام، واستخراج وضع من وضع، وألقيام على الكلمة حتى تبيض كلمة أخرى... والرغبة في تكثير سواد المعاني، وترك اللسان يطيش طيشه اللغوي يتعلق بكل ما عرض له، ويحذو الكلام على معاني ألفاظه، ويحتلب له منها ويستكرهها على أغراضه، ويطلب لصناعته من حيث أدرك وعجز، ومن حيث كان ولم يكن؛ إنما هو كلام قيل لتصير به المعاني إلى حقائقها، فهو من لسان وراء قلب، وراء نور، وراء الله - جل جلاله -؛ وهو كلام في مجموع كانه دنيا أصدرها ﷺ عن نفسه العظيمة، لا تبرح ماضية في طريقها السوي على دين الفطرة؛ فلا تسع لخالاف، ولا يقع بها التنافر؛ والخالاف والتنافر إنما يكونان من الحيوانية المختلفة بطبيعتها، لقيامها على قانون التنازع تعدو به وتجترم^(٢)، وتأثم، فهي نازلة إلى الشر، والشر بعضه أسفل من بعض؛ أما روحانية الفطرة فمتسقة^(٣) بطبيعتها، لا تقبل في ذاتها افتراقاً ولا اختلافاً؛ إذ كان أولها العلو فوق الذاتية، وقانونها التعاون على البر والتقوى؛ فهي صاعدة إلى الجهير، والخير بعضه أعلى من بعض.

فكلامه ﷺ يجري مجرى عمله: كله دين وتقوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة؛ وإنه بخيل إلي وقد أخذت بطهره وجماله أن من الفن العجيب أن يكون هذا الكلام صلاة وصياماً في الألفاظ.

أما أسلوبه ﷺ فأجد له في نفسي روح الشريعة ونظامها وعزيمتها، فليس له إلا قوة قوة أمر نافذ لا يتخلف، وأن له مع ذلك نسقاً هادئاً هدوء اليقين، مبيناً بيان الحكمة، خالصاً خلوص السر، واقعاً من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها؛

(١) تأدى: وصل إلى الغاية المرجوة منه.

(٢) تجترم: تقع في الجريمة.

(٣) متسقة: متجانسة.

وكيف لا يكون كذلك وهو أمرُ الروح العظيمة الموجهة بكلمات ربها ووحيه، ليتوجه بها العالم كأنه منه مكان المَحْوَر: دورته بنفسه هي دورته بنفسه وبما حوله، روح نبي مُصلح رحيم، هو بإصلاحه ورحمته في الإنسانية، وهو بالنبوة فوقها، وهو بهذه وتلك في شمائله وطباعه مجموع إنساني عظيم لو شبه بشيء لَقِيلَ فيه: إنه كمجموع ألقارات الخمس لِعمران الدنيا.

ومن درس تاريخه ﷺ وأعطاه حقه من النظر والفكر والتحقيق، رأى نسقا من التاريخ العجيب كنظام فللك من الأفلاك موجة بالنور في النور من حيث يبدأ إلى حيث ينتهي، فليس يمتري عاقل مميّز أن هذه الحياة الشريفة، بذلك النظام الدقيق، في ذلك التوجه المحكم - لا يطبقها بشر من لحم ودم على ناموس الحياة إلا إذا كان في لحمه ودمه معنى النور والكهرباء على ناموس أقوى من الحياة.

ولم يكن مثله ﷺ في الصبر والثبات واستقرار النفس وأطمئنانها على زلازل الدنيا، ولا في الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معاني البقاء الأرضي؛ فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة؛ فلا يكون شأنه شأن غيره من الناس: تدفنهم معاني التراب وهم أحياء فوق التراب، أو يحذلهم الجسم الإنساني من جميع جهاتهم بحدود طباعه ونزعاته؛ وبذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام منبع تاريخ في الإنسانية كلها دائما، ولرأس الدنيا نظام أفكاره الصحيحة.

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة رهط^(١) مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوْوَا الْكَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَأَنحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَتْ عَلَيْهِمُ الْغَارُ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ! فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَأَن لِّي أَبْوَابُ شِخَانٍ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا^(٢) مَالًا فَتَأَى^(٣) بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرَخَّ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لِهَمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكُرِهْتُ أَنْ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدْحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ

(١) رهط: أفراد.

(٢) يقصد أنه كان لا يسقى أحداً من عائلته قبل والديه. والغبوق ما يشرب في العشي.

(٣) تأى: بعد.

ألفجر^(١)، فأستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إِنْ كُنْتُ فعلْتُ ذلك أبتغَاء وجهك ففرج عنا^(٢) ما نحن فيه من هذه الصخرة! فأنفَرَجَتْ شيئاً لا يستطيعون الخروج.

قال النبي ﷺ: وقال الآخر: اللهم كَانَتْ لي بنتٌ عمٌ كَانَتْ أحبُّ النَّاسِ إليَّ، فأردْتُهَا عن نَفْسِهَا^(٣) فامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى الْمَثَ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السَّنِينَ فجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عَشْرِينَ وَمِائَةً دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا! ففعلْتُ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أَحِلُّ لَكَ أَنْ تَفْضَ^(٤) الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ! فَتَحَرَّجْتُ^(٥) مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الْأَذْهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا. اللهم إِنْ كُنْتُ فعلْتُ ذلك أبتغَاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه! فأنفَرَجَتْ الصخرةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

قال النبي ﷺ: وقال الثالث: اللهم إِنِّي أَسْتَاجِرُكَ أَجْرَاءً فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَرْتُ^(٦) أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ جِبْنٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَذْ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ، مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ! فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي! فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ! فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَأَسْتَأْذَنُ فَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئاً. اللهم فَإِنْ كُنْتُ فعلْتُ ذلك أبتغَاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه! فأنفَرَجَتْ الصخرةُ فخرجوا يمشون. أَنتَهَى الْحَدِيثُ.

وأنا فليستُ أدري، أهذا هو النبي ﷺ يتكلَّم في الْإِنْسَانِيَّةِ وَحَقُوقِهَا بِكَلَامٍ بَيِّنٍ صَرِيحٍ لَا فِلْسَفَةَ فِيهِ، يَجْعَلُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ مِنَ الْنِيَّةِ هُوَ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ مِنَ الدِّينِ؛ أَمْ هِيَ الْإِنْسَانِيَّةُ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ بِهَذَا الْبَيَانِ الْعَالِيِّ، فِي شِعْرِ مِنْ شِعْرِهَا ضَارِبَةٍ فِيهِ الْأَمْثَالُ، مُشِيرَةً فِيهِ إِلَى الرُّمُوزِ، وَاضِعَةً إِنْسَانَهَا بَيْنَ شِدَّةِ الطَّبِيعَةِ وَرَحْمَةِ اللَّهِ، مُحْكِمَةً عُنَاصِرَ رَوَايَتِهَا الشُّعْرِيَّةَ، مُحَقِّقَةً فِي بَيَانِهَا الْمَكْشُوفِ أَغْمَضَ مَعَانِيهَا فِي فِلْسَفَةِ الْحَاسَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ حِينَ تَتَّصِلُ بِأَشْيَائِهَا فَتُظْهِرُ الْضَّرُورَةَ الْبَشَرِيَّةَ وَتَخْتَفِي الْجُحْمَةَ، وَفِلْسَفَةَ الْأَرْوَاحِ حِينَ تَتَّصِلُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ذَاتِهَا فَتُظْهِرُ الْجُحْمَةَ وَتَخْتَفِي الْضَّرُورَةَ - مَبِينَةٌ أَثَرُ هَذِهِ وَتِلْكَ فِي طَبِيعَةِ الْكَوْنِ، مَقَرَّةٌ أَنَّ الْحَقِيقَةَ

(٤) تَفَضَّ: تَفَتَّحَ.

(١) بَرَقَ الْفَجْرُ: اُنْبَلَجَ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ.

(٥) تَحَرَّجَ: احْتَرَسَ وَخَشِيَ.

(٢) فَرَجَ عَنَا: اكْشَفَ عَنَا.

(٦) ثَمَرَتْ: جَعَلَتْهُ يَنْمُو.

(٣) أَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا: رَاوَدْتُهَا.

الإنسانية العالية لن تكون فيما ينال الإنسان من لذيته، ولا فيما ينجح من أغراضه، ولا فيما يقنعه من منطق، ولا فيما يلوح من خياله، ولا فيما يتنظم من قوانينه؛ بل هي أسمى على هذه الحقائق الكاذبة كلها، وهي الرحمة التي تغلب على الأثرة فيسميها الناس برأ، والرحمة التي تغلب على الشهوة فيسميها الناس عفة، والرحمة التي تغلب على الطمع فيسميها الناس أمانة؛ وهي في ضبط الروح لثلاث من الخواص: حاسة الدعة التي يقوم بها حظ الخمول، وحاسة اللذة التي يقوم بها حظ الهوى، وحاسة التملك التي يقوم بها حظ القوة.

وتزيد الإنسانية على ذلك في نسي شعرها أنها تثبت أن البر من العفة والأمانة هو على إطلاقه كالأساس لهما؛ فمن نشأ على بر أبويه كان خليقاً أن يتحقق بالعفة والأمانة، وأن العفة من الأمانة والبر هي مساكنهما وجامعتهما في النفس، وأن الأمانة من البر والعفة هي كمال هذه الفضائل، وكلهن درجات لحقيقة واحدة، غير أن بعضها أسمى من بعض في الشأن والمنزلة، وبعضها طريق لبعض يجر سبب منها سبباً منها، وأن الرحمة الإنسانية التي هي وحدها الحقيقة الكبرى إنما هي هذا الحب، بادئاً من الولد لأبويه، وهو الحب الخاص؛ ثم من المحب لحبيته، وهو الحب الأخص، ثم من الإنسان للإنسانية، وهو الحب مطلقاً بعمومه وبغير أسبابه المُلجئة من الحاجة والغريزة؛ وهي درجات كدرجات أحياء نفسها من طفولتها إلى شبابه إلى الشيخوخة، ومن عاطفة إلى الرغبة إلى العقل.

ثم إنه ما دام كمال الفضيلة هو الأمانة، فما قبلها أنواع منها؛ فبر الولد أمانة أطبع المتأذب، وعفة المحب أمانة الكريم، والثالثة أمانة الخلق العالي، وهي أسماهن، لأنها لن تكون خلقاً ثابتاً إلا وقد خضع لقانونها الطبع والقلب، ودخل في أسبابها الأدب والكرم؛ فالأمانة الكاملة في هذه الفلسفة هي الأمانة للإنسانية العامة المتصلة بالمرء من أبعد جهاته، دون الإنسانية الخاصة بكل شخص من أب، أو أم، أو قريب؛ ودون التي هي أخص وهي إنسانية الحب.

ونرى في لفظ الحديث أن كل رجل من هؤلاء الذين مثلوا رواية الإنسانية الفاضلة في فصولها الثلاثة، لا يقول إنه فعل ما فعل من صالح أعماله إلا (ابتغاء وجه الله)، وقد تطابقوا^(١) جميعاً على هذه الكلمة، وهي من أدق ما في فلسفة

(١) تطابقوا: توافقوا.

الإنسانية في شغلها ذلك، فإن معناها أن الرجل في صالح عمله إنما كان مجاهداً نفسه، يمنعها ما تعرض عليه من حظها أو لذتها أو منفعتها، أي منخلها من طبيعتها الأرضية المنازعة لسواها، المنفردة بذاتها، متحققة بالطبيعة السماوية التي لا يرحم الله عبداً ألا بها، وهي رحمة الإنسان غيره، أي اندماجه باستطاعته وقوته، وإعطاؤه من ذات نفسه، ومعاونته كُفْ أذاه.

والحديث كالتص على أن هذه الرحمة في النفس هي الدين عند الله، لا يصلح دين بغيرها، ولا يقبل الله صرفاً ولا عدلاً من نفس تخلو منها؛ وإذا كانت بهذه المنزلة، وكانت أساس ما يفوض على الإنسان من الخير والحق، فهي من ذلك في معنى الحديث أساس ما يصلح هذه الإنسانية من الشر والباطل؛ وبهذا كله تكون الغاية الفلسفية التي ينتهي إليها كلامه ﷺ، أن تنشئة الناس على الكبر والعفة والأمانة للإنسانية هي وحدها الطريقة العملية الممكنة لحل معضلة الشر والجريمة في الاجتماع البشري. وأنظر كيف جعل نهاية السمو في رحمة المال الذي يصفونه بأنه شقيق الروح، فكأن الإنسان لا يخرج فيها لغيره من بعض ماله، بل ينخلع من بعض روحه؛ وهذا يقرّر لك فلسفة أخرى: أن السعادة الإنسانية الصحيحة في العطاء دون الأخذ، وأن الكراثة هي في الأخذ دون العطاء؛ وذلك آخر ما أنتهت إليه فلسفة الأخلاق؛ فما المرأة إلا ثمرة تنضج بموادها، حتى إذا نضجت وأخلوكت كان مظهر كمالها ومنفعتها في الوجود أن تهب حلاوتها فإذا هي أمسكت الحلاوة على نفسها لم يكن إلا هذه الحلاوة بعينها سبب في عفتها وفسادها من بعد. أفهمت؟

وما دُمتا قد وصفنا رحمة المال، فإننا نتم الكلام فيها بهذا الحديث العجيب في فن تمثيله وبلاغته: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من تديهما إلى تراقيهما؛ فأما المنفق فلا يُنفق إلا سبغت^(١) أو وفرت على جلدِهِ حتى تُخفي بانه^(٢) وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسّعها فلا تتسع. انتهى.

فأنت ترى ظاهر الحديث، ولكن فنه العجيب في هذا الحديد الذي يُراد به

(٢) بانه: أصبعه.

(١) سبغت النعجة: اتسعت.

طبيعة الخير وأكرمة في الإنسان، فهي من أشد الطبائع جموداً وصلابةً واستعصاءً متى أعترضتها حظوظ النفس الحريصة وأهواءها، ومع ذلك فإن السخاء بأعمال ييسر منها وينتهي في الطبع إلى أن يجعلها ليثة، فلا تزال تمتد وتوسع حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير في النفس الكريمة، فمن ألزم^(١) نفسه الجود والإنفاق راضها^(٢) رياضةً عقليةً كرياضة العضل بأثقال الحديد ومعاناة القوة في الصراع ونحوه؛ أما الشح^(٣) فلا يُناقض تلك الطبيعة ولكنه يدعها جامدةً مستعصيةً لا تلين ولا تستجيب ولا تتيسر.

وقد جعل الجبّة من الشدي إلى التراقي، وهذا من أبداع ما في الحديث؛ لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته، يستوي في ذلك الكريم والبخل، فهما على قدر سواء من هذه الناحية؛ وإنما اختلفا فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد، فههنا^(٤) ييسر الكريم بسطة الإنسان، أما البخل فهو «يريد» لأنه إنسان، والإرادة علم عقلي لا أكثر، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكثرة فيما يعانيه من يوسع جبّة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها، فهي مستعصية متمايكة، فهو يوسعها فلا تتسع.

ألا ترى كيف تتوجه الحجة، وكيف تدق الفلسفة وهي في أظهر البيان وأوضحه؟ وهل تحسب طبيعة البخل في دقائقها النفسية لو هي نطقت - بالغة من وصف نفسها هذا المبلغ من جمال الفن وإبداعه؟ وهو بعد وصف لو نُقل إلى كل لغات الأرض لزانها جميعاً، ولكان في جميعها كالإنسان نفسه: لا يختلف تركيبه، فلن يكون بثلاثة أعين، لا في بلاد شكسبير ولا في بلاد الزنوج.

إن كلام نبينا ﷺ يجب أن يُترجم بفلسفة عصرنا وآدابه، فستراه حينئذ كأنما قيل مرة أخرى من فم النبوة، وستراه في شرحه ألفلسفي كالأزهار الناضرة: حياتها بشاشتها في النور؛ وتعرفه إنسانية قائمة تُصحح بها أغلاط الزمن في أهله، وأغلاط الناس في زمنهم؛ وتجده يرف على البشرية المسكينة بحنان كحنان الأم على أطفالها، والناس الآن كالأطفال غابت أمهم، فهم في تنافر صبياني... وما الأم بطبيعتها إلا الميزان لاستبدادهم، والحكمة لطيشهم، والآلاف لتنافرهم^(٥)، والنظام لعبتهم^(٦)؛

(٤) ييسر الكريم: يمد يد المساعدة.

(٥) تنافرهم: تباينهم واختلافهم.

(٦) عيهم: لهم.

(١) ألزم: أجبر.

(٢) راضها: مرّنها وعودها.

(٣) الشح: البخل.

وبالجملة فحنان قلبها الكبير هو القانون لكل قضايا هذه القلوب الصغيرة .

وقد كتبنا في فلسفة الأدب وحقيقته، ومعانيه الإنسانية، وأن الأديب التام الأداة هو الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط، وأن علم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها الموجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها الموجهة إلى النفس؛ ولذلك فموضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار - وأن الأديب مكلف تصحيح النفس الإنسانية ونفي التزوير عنها، وإخلاصها مما يلتبس بها على تنابع الضرورات، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود، ونفي الكونية عن هذه الفكرة، والسمو بها إلى فوق، ثم إلى فوق، ودائماً إلى فوق .

فإذا تدبرنا هذا المقال، واعتبرت كلام النبي ﷺ على ما بينا وشرخنا، وأخذته من عصره ومن العصر الذي نعيش فيه، ونظرنا إلى الفاضل ومعانيه، واستبرأت^(١) ما بينها من خواص الفن بمثل ما نبهناك إليه من التأويل الذي مر بك، وعلمت أن كل حقيقة فنية لا تكون كذلك ألا بخاصة فيها، وأن سر جمالها في خاصتها - إذا جمعت ذلك لم تر مذهباً عن الإقرار بأن النبي ﷺ كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح، فهو أعظم أديب؛ لأن فنه الأدبي أعظم فمن يحقق للإنسانية حياة أخلاقها، وهو بكل ذلك أعظم إنسان . ﷺ

فالفن في هذه الألباغ هو في دقائقه أثر تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة التي يحتاج إليها الوجود الروحاني على هذه الأرض، ولذا ترى كلامه ﷺ يخرج من حدود الزمان، فكل عصر واجد فيه ما يقال له، وهو بذلك نبوة لا تنقضي، وهو حي بالحياة ذاتها، وكأنما هو لون على وجه منها كما ترى ألباوض مثلاً هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشري . . .

فإذا نظرنا في هذا الفن فانظره في حديثه، وفي عمله، وفي الدنيا التي ألفها من التاريخ تأليف القطعة البليغة النادرة من الكلام، ورد كل ما تدبرته^(٢) من ذلك إلى تلك الروح الجديدة على تاريخ الأرض؛ فلتعلمن حينئذ أن كل بليغ هو شمعة مضيئة صنعت لها مادة النور نوراً وجمالاً، بجانب هذه الشمس التي خلقت فيها مادة النور نوراً وجمالاً وحياة وقوة؛ هناك نور لذي عينين، وهنا النور لكل ذي

(٢) تدبرته: تدارسته .

(١) استبرأت: خلصت .

عينين؛ وذلك يتخايل كالحلم، وهذا يفصح كالحقيقة؛ وذلك ضوء من حوله الظلمة دانية، وهذا قد طرد الظلمة عن نصف الدنيا إلى نصف الدنيا؛ وأول نور بلا روح، والثاني هو روح النور.

تلك في رأينا هي الطريقة التي كان يفهم بها أصحابه ﷺ، كما يفهم الشاعر نور القمر في ليلة صيف بعمان من الزمان والمكان، ومن النفس والحالة، ومن الهيئة والشكل، ومن العين والفكر، ومن السماء والأرض؛ ففيه النور وزيادة، أي الحقيقة وما ترتفع به على نفسها؛ وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة الفن مع ألفن إعجاباً وخباً وأقياداً وطاعة حتى أنخلعوا^(١) من عصرهم ودنياهم، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم، وأنجذبوا إليه أشد أنجذاب عرفه التاريخ، وأصبحوا مصرفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص، وعادت أنفسهم وكأن تأثير الأرض يلتقي فيها بتأثير السماء فيغسل في سحب عالية فلا يكون فيها كما يريد الإنسان، بل كما يريد الله؛ ورجعت قلوبهم لا تلبس على دينها رأياً ولا هوى، وكأنما وُضِعَ لها هذا الدين حرساً على كل سمع وعلى كل بصر؛ وبألجملة فأولئك قوم كأنما تناولهم النبي ﷺ فأفرغهم ثم ملأهم، وما أنتقلوا إلى منزلتهم العالية في التاريخ إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه أشرية.

وناهيك من رجال يمثل لهم بهذا المثل الذي يضره لهم في الإيمان ليلغوه أو يفاربوه؛ فعن خباب بن الارت - رضي الله عنه - قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق بأثنين وما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشط بالحديد ما دون لحية من عظم أو عصب وما يصدّه ذلك عن دينه!

فانظر يا هذا، فإنه لو اجتمعت قوى الكون فجاءت يشد بعضها بعضاً فنزلت في عبارة من الكلام ليملا نفوس المؤمنين بقوتها لما وضعت إلا هذا الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير وأسنان المنشار في عظم الإنسان الحي ولحيه. وظاهر التمثيل على ما رأيت من العجب، ولكن له باطناً أعجب من ظاهره، وهو البلاغة كل البلاغة والبيان حق البيان، فإنما يريد ﷺ أن الحديد لا يأكل ولا يمزع

(١) انخلعوا: خرجوا.

من أولئك الأتقياء بإيمانهم عظماً ولحمًا وعَصَبًا، بل هو حديد يأكل حديدًا مثله أو أشد منه، فإنَّ للروح المؤمنة المسلَّطة على جسمها قوة تصنع هذه المعجزة، فيمرُّ الحديد في العظم واللحم والعَصَبِ يسلبها الحياة، ولكنها تسلبه شدته وجلده وصبره!

وكلُّ ما جاء من التمثيل في كلامه ﷺ ينطوي فيه من إبداع الفنِّ البَيانيِّ وإِعجازه ما يفوت حدودَ الكَلِفاءِ، حتى لا تشكُّ إذا أنت تدبَّرْتَهُ بِحَقِّهِ مِنْ النِّظَرِ وَالْعِلْمِ أَنَّ بِلَاغَتَهُ إِنَّمَا هِيَ شَيْءٌ كِبَالَاغَةِ الْحَيَاةِ فِي الْحَيِّ: هِيَ الْبَلَاغَةُ وَلَكِنَّهَا أَبْدَعُ مِمَّا هِيَ، لِأَنَّهَا الْحَيَاةُ أَيْضًا.

وأنت خبيرٌ أنَّ هذا النَّبِيَّ الْكَرِيمَ ﷺ كَانَتْ تَأْخُذُهُ عِنْدَ نَزُولِ الرُّوحِي عَلَيْهِ أَحْوَالٌ وَصِفَتٌ فِي كِتَابِ الْحَدِيثِ: قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَقْصُمُ^(١) عَنْهُ وَإِنْ جِئْتُهُ لَيَقْصِدُ^(٢) عَرَقًا وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهَا قَالَتْ: فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ^(٣) حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ^(٤) عَنْهُ مِثْلُ الْجَمَانِ^(٥) مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ. وَفِي حَدِيثٍ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَفَخَذَهُ عَلَى فَخْذِي، فَثَقُلْتُ عَلَيَّ حَتَّى خَفْتُ أَنْ تُرَضَّ^(٦) فَخْذِي. وَفِي حَدِيثٍ يَعْلَى بْنُ أُمَيَّةَ حِينَ قَالَ لِعِمْرَانَ: أَرْنِي النَّبِيَّ ﷺ حِينَ يُوحَى إِلَيْهِ -: فَأَشَارَ عَمْرٌو إِلَيْي، فَجِئْتُ وَعَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَوْبٌ قَدْ أَظْلَمَ بِهِ فَأَدْخَلْتُ رَأْسِي، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحَمَّرُ الرَّجُلِ وَهُوَ يَغْطُ^(٧)، أَيْ يَرُدُّ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ ثِقَلِ الْوَحْيِ. فَهَذِهِ كُلُّهَا أَحْوَالٌ تَصِفُ عَمَلَ الدِّمَاغِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ جَهْدِ الْقُوَى الْعَصَبِيَّةِ؛ لِيَرْتَفَعَ بِالْحَيَاةِ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَيَتْرَكَهَا لِرُوحِ وَحْدَهَا، لَا يُشَارِكُهَا فِي هَذَا الْوَحْيِ فَكَّرٌ وَلَا هَاجِسٌ^(٨)، وَلَا يَتَّصِلُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ حَيَاةِ الْحَيِّ، فَيَتَحَقَّقُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَجُودٌ آخَرٌ غَيْرُ وَجُودِهِ الْمَحْدُودِ بِجَسَمِهِ وَطَبَاعِهِ وَدُنْيَاهِ؛ وَيَخْرُجُ بِوَعْيِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَجَادِبِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ إِلَى مَا وَرَاءَ حُدُودِ الطَّبِيعَةِ مِنْ قُوَى الْغَيْبِ؛ وَبِذَلِكَ يَتَلَقَّى عَنْ رُوحِ الْكَوْنِ، ثُمَّ يَقْصُمُ عَنْهُ وَقَدْ وَعَى مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ. وَمَا وَصَفَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ أَنَّ فَخْذَهُ كَادَتْ تُرَضُّ - بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ رُوحَهُ ﷺ تَنْسَرِجُ مِنْ جَسَمِهِ سَاعَةً

(٥) الجمَان: اللؤلؤ.

(٦) تُرَضُّ: تحطم.

(٧) يَغْطُ: يَغِيبُ عَنْ عَالَمِ الْمَحْسُوسَاتِ.

(٨) هَاجِسٌ: فِكْرٌ طَارِئٌ.

(١) يَقْصُمُ الْبَرْدُ: يَقْلَعُ.

(٢) يَقْصِدُ عَرَقًا: يَجْرِي عَرَقُهُ.

(٣) بُرْحَاءُ الْحَمَى: شِدَّتُهَا.

(٤) يَتَحَدَّرُ: يَنْهَمِرُ.

الوحي فيقلُّ الجسم، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَخْفُ بِالرُّوحِ وَتَبْقَى وَظَائِفُ الْحَيَاةِ عَامِلَةٌ أَعْمَالُهَا بِعُسْرٍ وَبُطْءٍ، لِاتِّصَالِهَا بِشُعَاعٍ مِنَ الرُّوحِ دُونَ الرُّوحِ بِجَمَلِيَّتِهَا؛ وَلَسْنَا هُنَا بِصَدِيدِ الْكَلَامِ عَنِ الْوَحْيِ، فَلَهُ مَوْضِعٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي كِتَابِنَا (أَسْرَارُ الْإِعْجَازِ) وَإِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نَدُلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْتَهْيِئَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِلذَّكَاءِ الْجِهَازِ الْعَصْبِيِّ لَهَا أَثَرُهَا الْعَظِيمُ فِي فَنِّ بِلَاغَتِهِ ﷺ، وَبِهَا أَمْتَارٌ عَنِ كُلِّ بُلْغَاءٍ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْمَلْهَمَ^(١) مِنْ أَفْذَاذِ الْعَبْقَرِيِّينَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ إِنَّمَا يُبْلَغُ مَا يَبْلُغُهُ بَعْضُ هَذَا الَّذِي رَأَيْتَ، وَفِي بَعْضِ هَذَا أَبَدُ مَا وَرَثَتِ الدُّنْيَا مِنْ فَنُونِ الْبَيَانِ، وَكَأَنَّ فِي الدِّمَاغِ مَادَّةً فِي مَوْضِعٍ مِنْهُ يُعَيِّرُ بِهَا مَنْ تَخْتَارُهُمُ السَّمَاءُ لِحِكْمَتِهَا وَإِلْهَامِهَا، وَإِذَا كَانَ فَنُّ الْعَبْقَرِيِّينَ هُوَ أَسْمَى الْكَلَامِ الْإِنْسَانِي، لِمَا خُصَّوْا بِهِ مِنْ هَذِهِ الْتَهْيِئَةِ، فَإِنَّ فَنَّهُ ﷺ يَكُونُ وَلَا جَرَمَ مِنْ بَابِ الْأَكْبَرِ مِمَّا هُوَ أَكْبَرُ فِي إِلْهَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا.

ولهذه الْقُوَّةُ الْنَادِرَةُ كَانَ بَيَانُهُ قَوِيًّا عَلَى مَزْجِ مَعَانِيهِ بِالنَّفْسِ بِمَا فِيهِ مِنْ صُنْعَةِ الْحَيَاةِ، وَإِنَّمَا فَلَسَفَةُ الْبَيَانِ^(٢) الْفَنِّيُّ أَنْ تَمْتَدَّ الْحَيَاةُ مِنَ الْنَفْسِ إِلَى الْلَفْظِ، فَتَصْنَعُ فِيهِ صُنْعَهَا، فَتَفْصَلُ الْعِبَارَةَ الْفَنِّيَّةَ عَنْ كَاتِبِهَا أَوْ قَائِلِهَا وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ كَلَامِهِ، لِتَسْتَحِيلَ عِنْدَ قَارِئِهَا أَوْ سَامِعِهَا قِطْعَةً مِنَ الْحَيَاةِ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِ الْإِدْرَاكِ؛ فَالْبَيَانُ الْفَنِّيُّ هُوَ الْوَسِيلَةُ لِحَمْلِ الْوُجُودِ وَبِعَثَرَتِهِ فِي مَوَاضِعَ غَيْرِ مَوَاضِعِهِ، وَخَلْقِهِ خَلْقًا آخَرَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ وَبِذَلِكَ يُوَوَّلُ^(٣) قَوْلُهُ ﷺ: إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا. جَعَلَ نَوْعًا مِنَ الْبَيَانِ هُوَ السِّحْرُ، لَا الْبَيَانُ كُلُّهُ، فَالْحَدِيثُ كَالنَّصِّ عَلَى مَا تُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ الْأَوْرَبِيَّةُ الْيَوْمَ (بِالْبَيَانِ الْفَنِّيِّ)، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ فَنًّا هُوَ سِحْرٌ مِنْ عَمَلِ النَّفْسِ فِي اللَّغَةِ تُغَيِّرُ بِهِ الْأَشْيَاءَ، وَلَهُ عَجَبُ السِّحْرِ وَتَأْثِيرُهُ وَتَصَرُّفُهُ؛ وَهَذَا مَعْنَى لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، وَلَا يُذَكَّرُ مَعَهُ كُلُّ مَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ، وَبِذَلِكَ التَّأْوِيلِ يَكُونُ هَذَا الْحَدِيثُ قَدْ أَحْتَوَى أَسْمَى حَقِيقَةِ فَلَسَفِيَّةِ لِلْفَنِّ.

وَمِنْ أَثَرِ تِلْكَ الْقُوَّةِ أَيْضًا مَا تَرَاهُ مِنْ شِدَّةِ الْوُضُوحِ فِي كَلَامِهِ ﷺ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا هَذِهِ الْبَلَاغَةَ النَّبَوِيَّةَ الْعَجَبِيَّةَ قَانِمَةً عَلَى أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ هُوَ لَفْظُ الْحَقِيقَةِ لَا لَفْظُ الْكَلِمَةِ، فَالْعَيْنَايَةُ فِيهَا بِالْحَقَائِقِ، ثُمَّ الْحَقَائِقُ هِيَ تَخْتَارُ أَلْفَاظَهَا اللَّغَوِيَّةَ عَلَى مَنَازِلِهَا؛ وَبِذَلِكَ يَأْتِي الْكَلَامُ كَأَنَّهُ نَطَقَ لِلْحَقِيقَةِ الْمَعْبَرِ عَنْهَا، وَالْكَلِمَةُ الصَّادِقَةُ تُنْطَقُ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ فَصُورَتُهَا

(١) تَسْرَحُ: تَفَلَّتْ.

(٢) الْمَلْهَمُ: الْمَوْهُوبُ.

(٣) يُوَوَّلُ: يَفْسِّرُ وَيَتَحَوَّلُ.

اللغوية لا تكون إلا صريحة منكشفة عن معناها المضمي كأنما ألقى فيها النور.

وهو معلوم أنه ﷺ لا يتكلف ولا يتعمّل، ولم يكتب ولم يؤلف، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعاً يقبل التنقيح^(١)، أو تعرف له رقة من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان، أو كأن هذه البلاغة تنبثق بالكلام على طبيعة عاملة فيه بقواها الدائبة الثابتة، ففتها الجميل هو التركيب الذي تجيء فيه كما ترى الشجر مثلاً كاسياً من ورقه وزهره؛ فأنت منه بإزاء عمل جميل لأنك بإزاء حقيقة طبيعية قد انفردت في ذاتها، ومعنى انفرداها في ذاتها أنها كذلك هي، فليس فيها موضع لشيء غير ما هو فيها؛ ثم لا تنس أن النبوة أكبر السبب في ذلك كوضوح البياني العجيب؛ فإن الحياة لا تستغلق في البلاغة بإنسان إلا وهي غنية عنه؛ ولعل غموض بعض الفلاسفة وبعض الشعراء هو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون في الطبيعة. . . ألا ترى أن من أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة أحياناً هو نقض معناها إذ يتصنعون للفكر ويستجلبون له ويشققون فيه كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ، فهنا البديع اللفظي؛ وهناك «البديع المفكري»، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبهرجة.

ومتى كان النبي قسماً من الحياة، بل مادة لمعانيها الجديدة، فلن يكون بيانه إلا على ما وصفنا لك جمالا، ووضوحاً ومنفعة ودقة وسموً بقدر ذلك كله.

وهنا معنى نريد أن ننبه إليه ونتكلم في سره وحقيقته، فإنك تقرأ ما جمّع من الكلام النبوي فلا تُصيب فيه ما تُصيبه في بلاغة أدباء العالم مما فتته الكلام في المرأة، والحب، وجمال الطبيعة، وهو في بلاغة الناس كالقلب في الجسم: لا تخلو منه ولا تقوم إلا به، حتى تجد الكلام في المرأة وحدها شطر الأدب الإنساني، كما أن المرأة هي شطر الإنسانية، ولا يعرف له ﷺ في هذه الأغراض إلا كلمات بيانية جاءت بما يفوت الوصف من الجمال والدقة، متناهية في الحسن، طاهرة في الدلالة، يظهر في وجه بلاغتها ما يظهر في وجه العذراء من طبيعة الحياء والخفر: كقوليه في النساء: «رفقاً بالقوارير»، وقوليه لأسماء بنت زيد، وقد كساه قبطية^(٢) فكساها أمرأته «أخاف أن تصف حجم عظامها». قال الشريف الرضي في

(١) التنقيح: التصحيح.

(٢) ضرب من الأردية المصرية.

شرح هذه الكلمة: وهذه استعارة، والمراد أن القبطية برقيتها تلصق بالجسم، فتبين حجم الثدين، والرادفتين، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأجزاء، حتى تكون كالأظاهرة للحظة، والممكنة للمسه، فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه المحال كالواصفة لما خلفها، والمخبرة عما أستر بها؛ وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى، ولهذا الغرض روى عمر بن الخطاب في قوله: «إياكم ولبس القباطي، فإنها إلا تشف تصف». فكان رسول الله ﷺ أبا عذرة هذا المعنى، ومن تبعه فإنما سلك فجه.

قلنا: وهذا كلام حسن، ولكن في عبارة الحديث سزا هو من معجزات البلاغة النبوية لم يهتد إليه الشريف، على أنه هو حقيقة الفن في هذه الكلمة بخاصتها، ولا نظراً أن بليغاً من بلغاء العالم يتأني لِمِثْلِهِ، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يقل: أخاف أن تصف حجم أعضائها، بل قال: حجم عظامها، مع أن المراد لحجم الأجزاء في حجمه وتكوينه، وذلك منتهى السمو بالأدب، إذ ذكر «أعضاء» المرأة في هذا السياق، وبهذا المعرض، هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث^(١)، ولفظه «الأعضاء» تحت الثوب الرقيق الأبيض ننبه إلى صور ذهنية كثيرة هي أتي عددا الرضي في شرحه، وهي توميء إلى صور أخرى من ورائها، فتنة النبي ﷺ عن كل ذلك، وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة... وجاء بكلمة «العظام»، لأنها اللفظة الطبيعية المبرأة من كل نزعة، لا تقبل أن تلتوي، ولا تثير معنى، ولا تحمل غرضاً؛ إذ تكون في الحي والमित، بل هي بهذا أخص؛ وفي الجميل والقيح، بل هي هنا أليق؛ وفي الشباب والهرم، بل هي في هذا أوضح. والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام، فالمجاز على ما ترى، والحقيقة هي ما علمت.

ومن كلماته في الوصف الطبيعي قوله ﷺ وهو يذكر أوقات الصلاة: «العصر إذا كان ظل كل شيء مثله، وكذلك ما دامت الشمس حية، والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تمضي كواهل الليل» وكواهل الليل: أوائله وفروعه المتقدمة منه، كأذي يتقدم المطايا من أعناقها الممتدة بعض الامتداد؛ وقوله وقد سأله رجل متى يصلي العشاء الآخرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا ملا الليل بطن كل واد»؛ وقوله: «إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع»؛ وقوله: «إن رجلاً من أهل

(١) الرفث: هو ما بذو من الكلام.

الجنة أستاذن ربه في الزرع، فقال له: ألسنت فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع. قال: فبذر فبذر الطرف نباته وأستواؤه وأستحصاؤه فكان أمثال الجبال. وقوله: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها ثم خرج، فإذا يكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي! فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي^(١) فسقى الكلب فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر».

فهذا ونحوه من ألفن البديع النادر، وهو مع ذلك لا يأتي في كلامه ﷺ إلا في مثل ما رأيت، فلا يراود منه أستجلاب العيابة، ولا صناعة الخيال، فيظن من لا يميز ولا يحقق أن خلوة البلاغة النبوية من فن وصف الطبيعة والجمال والحُب، دليل على ما يذكّره أو يستجفيه^(٢)، ويقول: بدواة وسداجة ونحو ذلك مما تُشبهه الغفلة على جهلة المستشرقين ومن في حكيمهم من ضعاف أدبائنا وجهلة كُتّابنا؛ وإنما أنتفى ذلك عن النبي ﷺ لإتفاء الشغف عنه وكونه لا ينبغي له كما بسطنا في موضعه؛ فعمله أن يهدي الإنسانية لا أن يزين لها، وأن يدلّها على ما يجب في العمل، لا ما يحسن في صناعة الكلام، وأن يهديها إلى ما تفعله لتسمو به، لا إلى ما تخيله لتلهو به. والخيال هو الشيء الحقيقي عند النفس في ساعة الانفعال والتأثر به فقط، ومعنى هذا أنه لا يكون أبداً حقيقة ثابتة، فلا يكون إلا كذباً على الحقيقة.

ثم هو ﷺ ليس كغيره من بلغاء الناس: يتصل بالطبيعة ليستملي منها؛ بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها الأزلي ليُملي فيها، وقد كانت آخر ابتسامه له في الدنيا ابتسامته للصلاة يتהלّل لطهارة النفس المؤمنة وجمالها قائمة بين يدي خالقها، منسكباً في طهارتها روح النور، وكلّ إنسان إنمّا يبدو الكون في عينه على ما يرى ممّا يشبه ما في نفسه، فكلّ ما رآه المصلي الخاشع في صلاته يبدو له كأنه يصلي في ضرب من العبادة على نحو من الدين، وكلّ ما رآه السكران في سُكره يكاد يراه متخبطاً يعرّب ما يتماسك!

ثم إنّ الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحُب على طريقة الأساليب البيانية، إنّما هو باب من الأحلام؛ إذ لا بُدّ فيه من عيني شاعر، أو نظرة عاشق؛ وهنا نبي يوحى إليه، فلا موضع للخيال في أمره، إلا ما كان تمثيلاً يراود به تقوية

(٢) يستجنيه: يجده قاسياً جافياً.

(١) رقي: صعد.

الشعور الإنساني بحقيقة ما في بعض ما يعرض من باب الإرشاد والموعظة، كما مر بك من أمثله، وكقولهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذَنْبَهُ كَأَنَّهُ قَاعٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْكَافِرَ يَرَى ذَنْبَهُ كَذَبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ!» وهذا كلام أبلغ ما أنت واجد من تفسيره تلك النفس المؤمنة بإحساسها الرقيق، كأنه حاسة من الأنور كُتبت في شعورها، وتلك النفس الكافرة بإحساسها الغليظ، كأنه حاسة من التراب...

ويكاد المؤمن الذي يسمع هذا الوصف يذكره ذنبه - أن يحس بحركة جبل يهيم أن ينقلع فيميل عليه، أما الكافر فيسمعه يذكره ذنبه فإذا هي في خياله نقط سود تمر مرور الذباب، ليس منه ألحس به، كما يحس من يضرب على أنفه برجل ذبابة... وجعل الذباب يمر على أنفه دون عينه أو فيه، وذلك منتهى الجمال في التصوير، لأن الذباب إذا وقع على الفم أو العين ثبت وألح، فإذا وقع على قصبية الأنف لم يكذب يقف وممر مروره.

الكون في نظر النبي ﷺ آية الحكمة لا آية الفن، ومنظر المستيقن لا منظر المتخيل، ومادة العبودية لله لا مادة التآلة للإنسان، وبذلك حرم الإسلام أشياء وكره أشياء لا يكون الفن بغيرها فتاً، في ضروب من الشعر والتصوير والموسيقى والحب، لأنه إنما ينظر للإنسان واحداً وجمعاً، وحاضراً وآتياً؛ وواجباً ومنفعة، ولذة والمآ؛ وهذه كلها لا إطلاق فيها إلا من أجل القيد، على حين أن الفن لا قيد فيه إلا من أجل الإطلاق، وأساس الدين حظ الجماعة وقيودها، وأساس الفن الفرد وحرئته؛ وهذه الحياة لا تبدو في حالة تركيب وانتظام إلا إذا كانت لكل، فإذا كانت لفرد ظهرت في هيئة انحلال وانتفاض، وأصبحت في الكون كله كأنها عمر إنسان واحد.

ثم إن للفن الروا لا بُد منها لتصويره الجميل الذي تعجب به النفس، والشيطان هو اللون الأحمر فيها... أي هو أشدها زهواً وإشراقاً وجمالاً في التصوير الفني لكل ما في المرأة والحب والجمال وشهوات النفس، ولنا نذكر أن الحياة القوية حين تمارجها هذه الفنون تكسب مرحاً ونشاطاً ويكون لها رونق، وفيها متاع؛ ولكن الحياة لا تكون بها كذلك إلا من أنها تحتسي^(١) خمرها... فلها بعد من عاقبة هذه الفنون شبيه بما يكون للجسم القوي من عاقبة الخمر إذا

(١) تحتسي: تشرب قليلاً قليلاً.

تغلغلت الخمر في شِعَاب كبدِهِ وأحاطت رطوبتُها يابسة، كما وقع في أطوار كثيرة من تاريخ الأمم؛ فليس أَلْعَبَارُ في هذا التشبيه بما يعرض من تأثير الساعَةِ الزائلة بأفراحها وفُرَحَ حياتها، بل الشَّانُ لِلْعَاقِبَةِ الْمُحْتَمَةِ متى جاءت سَاعَتُهَا أَلْبَاقِيَةُ بِأَحْزَانِهَا وفُنْ هَلَاكِهَا، فالإِسْلَامُ فيما حَرَّمَ وكرَّه من ذلك لم يزد على أن أَرَادَ لِلْحَيَاةِ أنْ تحيا، لِأَنَّهُ لَا يُقَرُّ صُورَةٌ مِنْ صُورِ أَتْحَارِهَا.

وَمَنْ كَانَ أَكْبَرَ عَمَلِهِ إِنْشَاءُ الْحَقَائِقِ الْإِنْسَانِيَّةِ وتَقْرِيرُهَا شَرِيعَةً وَعَاطِفَةً وَأَعْمَالًا، فَلَا جَرَمَ كَانَ فَتْنُهُ غَيْرَ الَّذِي أَكْبُرَ عَمَلِهِ تَمْوِيهِ تِلْكَ الْحَقَائِقِ وَزُخْرَفَتُهَا لِيَقَعَ الْإِحْسَاسُ بِهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا، فَتَخَفَّ بِالْوَاقِعِ مِنْهَا عَلَى النَّفْسِ خِيفَةُ الْكُذْبِ فِي سَاعَةِ تَصْدِيقِهِ وَهَذَا هُوَ أَكْبَرُ عَمَلِ الشَّعْرِ.

وَهُنَا سِرٌّ دَقِيقٌ لَا يَتِمُّ كَلَامُنَا إِلَّا بِشَرْحِهِ، لِنَقْطَعَ الْقَوْلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى، فَيُظْهِرَ حَقُّهُ مِنْ بَاطِلِهِ قُلْنَا أَنْفَاءً إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنْ بُلْغَاءِ النَّاسِ: يَتَّصِلُ بِالطَّبِيعَةِ يَسْتَمْلِي مِنْهَا، بَلْ هُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بِمُضَدِّرِهَا الْأَزَلِيِّ لِيُمْلِيَ فِيهَا. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَا يَعْرُضُ لَهُ مِنْ زَيْغِ النَّفْسِ مَا يَعْرُضُ لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، فَأَحْكُمُ حُكْمَاءَ الدُّنْيَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَبَيَّنَ جُزْءٌ أَصْغَرًا مِنَ الْكَوْنِ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ إِذْ كَانَتْ حَوَاسُّ الْجِسْمِ غَيْرَ مُهَيَّاةٍ لِذَلِكَ، فَفَهُمْ جُزْءٌ مِنَ الْكَوْنِ فَهَمَّا صَادِقًا جُزْأً لَا يَتِمُّ إِلَّا بِفَهْمِ الْكَوْنِ بِأَجْمَعِهِ، فَهُوَ كُلُّهُ ذَرَّةٌ مُكْبِرَةٌ إِلَى مَا لَا يَنْتَهِي وَلَا يُحَدُّ، وَلَيْسَتْ النُّبُوَّةُ شَيْئًا غَيْرَ الْأَنْصَالِ بِالسَّيْرِ.

وَالْحَاضِرُ الَّذِي يَكُونُ فِي إِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ، هُوَ حَاضِرٌ لَيْسَ غَيْرُ، لِأَنَّهُ يَتَحَوَّلُ وَيَفْنَى، فَهُوَ مِنَ الزَّيْغِ الَّذِي يَعْتَرِي النَّفْسَ، وَمِنْهُ كُلُّ أَغْرَاضِ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ الْفَانِيَةِ، وَلِهَذَا كَانَ طَابِعُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ هُوَ تَجَرِيدُهُ مِنَ زَيْغِ الْهَوَى^(١) وَسَرْفِ الطَّبِيعَةِ، فَهُوَ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُ مُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ -، وَلَهُ فِي هَذَا الْبَابِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ وَلَا يُطِيقُهُ أَحَدٌ، وَيَجِبُ عَلَى مَنْ يقرأ سِيرَتَهُ وَشَمَائِلَهُ وَحَدِيثَهُ أَنْ يَبْحَثَ دَائِمًا عَنْ طَابِعِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا، فَإِنَّهُ سِيرَى حِينْتِذْ كَانَتْ يَدْرِسُهَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ لَا مَعَ النَّاسِ، وَسَيُظْهِرُ لَهُ مِنْ تَفْسِيرِهَا أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَسْتَطِعْ تَحْقِيقَ غَايَتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ الْعُلْيَا إِلَّا فِيهَا، وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ إِنْسَانًا، وَكَانَ أَيْضًا حَرَكَةً فِي تَقْدِمِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ وَأَنَّ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ أَنَّهُ أَطَاقَ فِي تَارِيخِهِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ الْبَشَرِيَّةُ فِي تَارِيخِهَا، وَأَنَّ كُلَّ أُمُورِهِ

(١) زَيْغُ الْهَوَى: مِيلُهُ.

ﷺ موضوعةً وضِعاً إلهياً كأنها صفات كَوْنُها الله وعلَّقها في التاريخ لمعاني الحياة،
تعلِّقُ الشمسُ في السماءِ لموادِّ الحياة.

إنَّ الشهواتِ والمصالحِ إنما هي حصرُ النفسِ في جانبٍ مِنَ الشعورِ محدودٍ
بلذاتٍ وهمومٍ وأحاسيسٍ تجعلُ غرضَ الإنسانِ في الإنسانِ نفسه، فهو كما يملأُ
مَعِدَتَهُ ويتأثَّرُ في الاختيارِ لها، يُريدُ من كلِّ ذلك أن يملأَ شخصه على هذه الطريقةِ
بِعَيْنِها، طريقةِ إشباعِ مَعِدَتِهِ . . . وبهذا تسخرُ منه حقائقُ الكونِ، لأنها لا تُحدُّ
بشخص، ولا تنحصرُ في أحد، وكلُّ مَنْ كَانَتْ حُدُودُهُ الإنسانيَّةُ جسمه ولذاتِ
جسمه، فهو في مقدارِ هذا الكونِ كالميتِ المحدودِ مِنَ الأرضِ كُلِّها بقبْرِه وترابِ
قبْرِه؛ وإنَّه ليجدُ جسمه وأكاذيبَ الطَّبِيعَةِ عليه، ولكِنَّه لَن يجدَ الرُّوحَ وحقائقها؛
وإذا لم يجدَ هذه فلنَ يعرفَ الكونَ وأسراره؛ وإذا فقدَ هذا فهو الحاضرُ الضيِّقُ
المشوهُ المكذوبُ، ومن ثَمَّ ففئةُ شهوةٍ إحساسيه وإن كانَ مخدوعاً، وشهوةُ نظره
وإن كانَ ملبساً عليه، وشهوةُ خياله، وإن كانَ التَّمَوُّيَّةُ والمزورُ والحاضرُ الضيِّقُ
المشوهُ المكذوبُ الخادعُ هو المسمَّى في لغةِ القرآنِ والحديثِ «بالدنيا»؛ فإذا اتَّسعَ
الإنسانُ لروحِهِ وأدركَ حقيقتها، ووعى ما بينها وبينَ الكونِ؛ وأخذَ يُحقِّقُ هذه
الروحَ السماويَّةَ في أعمالِهِ، وتخطَّى حدودَ جسمِهِ إلى فكرةِ الخلود؛ فهذا كلُّهُ هو
المسمَّى في لغةِ القرآنِ والحديثِ «بالآخرة»؛ فهما كلمتانِ في منتهى الإبداعِ مِنَ
الفنِّ والفلسفةِ؛ وعلى ذلك يُزوِّلُ قولُهُ ﷺ في خطبته: مَنْ كَانَ هُمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ
اللَّهُ شَمْلَهُ، وجعلَ غِنَاهُ في قلبِهِ، وأتتهُ الدنْيَا وهي راغمة^(١)؛ وَمَنْ كَانَ هُمُّهُ الدُّنْيَا
فَرَّقَ اللَّهُ أَمْرَهُ وجعلَ فقرَهُ بينَ عينِهِ، ولم يأتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلَّا ما كُتِبَ لَهُ.

وأنت إذا فَسَّرْتَ هذه الكلماتِ بما وصفنا لك ووجهتها على ذلك التأويلِ،
رأيتَ عجائبَ معانيها لا تنقضي، وأدركتَ سِرَّ قولِهِ ﷺ: «إِنِّي على عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ
عِلْمُنِي» فَاتَّسَعَ الذَّاتُ الإنسانيَّةُ ومادَّتها لِحَقائِقِ الكونِ، يجعلُ الإنسانُ كالكونِ
نفسه، مجتمعاً غيرَ مفرِّقٍ على همومِ الحياة؛ ويجعلُ الغنى معنى لا مادة؛ ولو
أمتلَكَ إنسانٌ مِنَ النَّاسِ كُلِّ ما طلعتَ عليه الشمسُ، وكانَ لَهُ كنزٌ في المشرقِ وكنزٌ
في المغربِ، لَمَّا بَلَغَ شيئاً قليلاً مِنَ لذَّةِ هذا المعنى في قلبِهِ؛ وفي هذه الحالةِ
تُصبحُ الدُّنْيَا العريضةُ التي يهلكُ النَّاسُ في تحصيلِها وليستَ إلَّا ضرورةً صغيرةً، قد

(١) راغمة: ذليلة، خاضعة.

تكون في ثوبٍ ولقيماتٍ ونحوها مما لا خطرَ له، وهذا هو إرغامها وهي مالكة المملوك، فإذا ضاق الإنسان عن روجه أصبحت النفس كالمُنخلِ يوضع الدقيق الناعم فيه ليخرج منه فيمسهكه كله ولا يمسك منه شيئاً، وُضِعَ بين عينيها معنى الفقر، فهي تعملُ أبداً لِمَتَلِيءٍ، ولا تمتليء أبداً؛ وإذا كان المُنخلُ متخذاً على الطريقة التي صُنِعَ بها، ففقره ولا جرمَ معلق عليه من ذات تركيبه. «أفهمت»؟

ولما كان النبي ﷺ متساوياً^(١) مع الحقيقة، متصلاً بها، محدوداً بربه لا بنفسه، كان لذلك خارجاً من حاضر ما نحن فيه، مُمتدّاً بِمَعْنَاهُ الْإِنْسَانِي الْكَامِلِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي وراءَ الحياة، فما نحصره نحن بطبيعتنا في بعض الأسماء لا يلتفت هو إليه بطبيعته؛ ومن ذلك أوصافُ الْغِنَى وَالْجَلِيلَةِ وَالنَّعِيمِ وَالْمَتَاعِ وَالْجَمَالِ وَالْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وما داخل الطبيعة من مثل معانيها، وما جرى هذا المجرى، فهذا كله يراه الناس من جهة الحاجة إليه والمطعم فيه؛ إذ كان ضعف إدراكهم وضيق وعيهم مما يبدع لهم أكاذيب الخيال، فتجىء من ذلك أوصافهم وفنون أوصافهم؛ أما النبي ﷺ فيرى ذلك من ناحية الغنى عنه والسمو عليه؛ إذ كان لا ينظرُ بطبيعة روجه العظيمة إلا أعلى النظرتين وأظهرهما، فأخر إدراكنا للحقيقة والطبيعة أول إدراكه هو الطبيعة والحقيقة، وما تعجز عنه الإنسانية تبدأ منه النبوة.

وعلى هذا فإن من أقوى البراهين على كماله ﷺ ونبوته واتساع روجه ونفاذ إدراكه لحقائق الكون - أنه لم يتبسّط في تلك الفنون كما يصنع البلغاء، ولم يأخذ مأخذهم فيها؛ إذ كانت كلها من أكاذيب القلب والفكر والعين.

وفي قانون الحقيقة أن الأشياء هي كل الأشياء وهي كما هي، أما في قانون الكذب فالأشياء كلها هي ما تختارُه أنت منها، وكما تختارُه.

بحسب الدنيا من جمالٍ فته ﷺ ما يُضِيفُ إلى الحياة عظمة الأشياء العظيمة، ويدفع الإنسانية في طريقها الواحد الذي هو بين الآبِ وَالْأُمِّ، طريق الأخ إلى أخيه، يكون في الدنيا بين الرجلين كما هو في الدّم بين القلبين رحمة ومودة؛ وبحسبنا من جمالٍ هذا ألف ما يهدي الإنسان إلى حقيقة نفسه؛ فيقره في الحقيقي من وجوده الإنساني؛ ويجعل الفضائل كلها تربيةً للقلب؛ يكبرُ بها، ثم يكبرُ، ثم لا يزال يكبرُ حتى يتسع لحقيقة هذه الكلمة الكبرى: الله أكبر.

(١) متساوياً: منسجماً.

قرآن الفجر

كُنْتُ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ سَنَتِي وَقَدْ جَمَعْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ حِفْظًا وَجَوْدُهُ بِأَحْكَامِ الْقِرَاءَةِ؛ وَنَحْنُ يَوْمُئِذٍ فِي مَدِينَةِ (دَمْنَهَوْر) عَاصِمَةِ الْبَحِيرَةِ؛ وَكَانَ أَبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَبِيرَ الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ، وَمِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَكِفُ كُلَّ سَنَةٍ فِي أَحَدِ الْمَسَاجِدِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ الْأَخِيرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ؛ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَلَا يَبْرَحُهُ^(١) إِلَّا لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ بَعْدَ انْقِضَاءِ^(٢) الصَّوْمِ؛ فَهَنَّاكَ يَتَأَمَّلُ وَيَتَعَبَّدُ وَيَتَّصِلُ بِمَعْنَاهُ الْحَقِّ، وَيَنْظُرُ إِلَى الزَّائِلِ بِمَعْنَى الْخَالِدِ، وَيُطِلُّ عَلَى الدُّنْيَا إِطْلَالَ الْوَاقِفِ عَلَى الْأَيَّامِ السَّائِرَةِ وَيَغِيرُ الْحَيَاةَ فِي عَمَلِهِ وَفِكْرِهِ، وَيَهْجُرُ تَرَابَ الْأَرْضِ فَلَا يَمُشِي عَلَيْهِ، وَتَرَابَ الْمَعَانِي الْأَرْضِيَّةِ فَلَا يَتَرَضُّ لَهُ، وَيَدْخُلُ فِي الزَّمَنِ الْمُتَحَرِّرِ مِنْ أَكْثَرِ قَبُودِ الْنَفْسِ، وَيَسْتَقِرُّ فِي الْمَكَانِ الْمَمْلُوءِ لِلْجَمِيعِ بِفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ؛ ثُمَّ لَا يَرَى مِنْ النَّاسِ إِلَّا هَذَا النَّوْعَ الْمُرْتَبَّ الْأَرْوَاحَ بِالْوُضُوءِ، أَلْمَدْعُوَ إِلَى دُخُولِ الْمَسْجِدِ بِدَعْوَةِ الْقُوَّةِ السَّامِيَةِ، أَلْمُنْحَنِيَّ فِي رُكُوعِهِ لِيَخْضَعَ لِغَيْرِ الْمَعَانِي الْأَدْلِيلَةِ، أَلْسَاجِدَ بَيْنَ يَدَي رَّبِّهِ لِيَدْرِكَ مَعْنَى الْجَلَالِ الْأَعْظَمِ.

وَمَا هِيَ حِكْمَةُ هَذِهِ الْأَمْكَنَةِ الَّتِي تُقَامُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ؟ إِنَّهَا أَمْكَنَةٌ قَائِمَةٌ فِي الْحَيَاةِ، تُشْعِرُ الْقَلْبَ الْبَشَرِيَّ فِي نِزَاجِ الدُّنْيَا أَنَّهُ فِي إِنْسَانٍ لَا فِي بَهِيمَةٍ.

وَذَهَبْتُ لَيْلَةَ قَبْتُ عِنْدَ أَبِي فِي الْمَسْجِدِ؛ فَلَمَّا كُنَّا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ أَيْقَظَنِي لِلسُّحُورِ، ثُمَّ أَمَرَنِي فَتَوَضَّأْتُ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ وَأَقْبَلَ هُوَ عَلَى قِرَاءَتِهِ؛ فَلَمَّا كَانَ السُّحُورُ الْأَعْلَى هَتَفَ بِالْأَدْعَاءِ الْمَأْثُورِ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ؛ أَنْتَ نَوْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ؛ أَنْتَ بَهَاءُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ؛ أَنْتَ زِينُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ؛ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَنْ عَلَيْهِنَّ؛ أَنْتَ الْحَقُّ وَمَنْكَ الْحَقُّ. . . إِلَى آخِرِ الْأَدْعَاءِ.

وَأَقْبَلَ النَّاسُ يَتَابُونَ^(٣) الْمَسْجِدَ، فَانْهَضْنَا مِنْ تِلْكَ الْعَلِيَّةِ الَّتِي يَسْمُونَهَا الدُّكَّةَ

(٣) يَتَابُونَ: يَدْخُلُونَ.

(٢) انْقِضَاءُ: انْتِهَاءُ.

(١) يَبْرَحُهُ: يَخْرُجُ مِنْهُ.

وجلسنا ننتظر الصلاة . وكانت المساجد في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت ، في كل قنديل دُبالَةٌ يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلاً يبيض^(١) بصيصاً كأنه بعض معاني الضوء لا الضوء نفسه ؛ فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها ، تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجوّ ، فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسرارَه الجميلة ، وتبدو في الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يوميء إليه ولا يبيّنه ، فما تشعرُ النفس إلا أنّ العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سِرٌّ يشف عن سِرٍّ .

وكان لها منظرٌ كمَنظَرِ النجوم يتم جمال الليل بالقائه الشُعَل في أطرافه العليا والباس الظلام زينتُه النورانيّة ؛ فكان الجالس في المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويحس في المكان بقايا أحلام ، ويسري حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد ؛ وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روح المسجد ، فتعتربه حالة روحانيّة يستكين فيها للقدر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه ، مجتمعاً في حواشيه ، منفرداً بصفاته ، منعكساً عليه نور قلبه ؛ كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار ، أو كأن الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض .

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغيب عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء ، شعوراً ندياً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنصّر من يئس ، ويرق من غلظة . وكأنما جاؤوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتوحاً بالجمال ؛ فإذا كان شاعر النفس التقى فيه النور السماوي بالنور الإنساني فإذا هو بتلاً في روجه تحت الفجر .

* * *

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد ، والقناديل معلقة كالنجوم في مناطها من الفلك ، وتلك الشرج^(٢) ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون عليهم وقاراً وواجههم ، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه وقد استبهمت الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس ، فيكون لكل شيء معنى الذي هو منه ومعناه الذي ليس منه ، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيّل .

لا أنسى أبداً تلك الساعة . وقد أبعث في جو المسجد صوت غرد رقيم ، يشق سُدفة^(٣) الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل :

(١) يبيض : ينير . (٢) الشرج : مفردة سراج وهو القنديل . (٣) سُدفة : ظلمة

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ مِنْ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ
خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ .

وكان هذا القارئ يملك صوته أتم ما يملك ذو الصوت المطرب؛ فكان يتصرف به أحلى مما يتصرف القمري وهو ينوح في أنغامه، وبلغ في التطريب كل مبلغ يقدر عليه القادر، حتى لا تفسد اللذة الموسيقية بأبدع مما فسر هذا الصوت؛ وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر، فاهتز بجوابها بأسلوبه في جمال التغريد.

كان صوته على ترتيب عجيب في نغماته، يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة، ويضطرب اضطراباً روحانياً كالحزن أعتراه الفرح على فجأة؛ يصيح الصيحة تترجح في الجوّ وفي النفس، وتتردد في المكان وفي القلب، ويتحول بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي، يلمس الروح فيرفض عليها بمثل الندى، فإذا هي ترف ريفاً، وإذا هي كالأهرة التي مسحها الطل.

وسمنا القرآن غصاً طرياً كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الأماء ويكسوها منه.

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم - سبحانه وتعالى - في كلامه، وبدا الفجر كأنه واقف يستاذن الله أن يضيء من هذا النور!

وكنّا نسمع قرآن الفجر وكأنما مجيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة؛ وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روح مرتفعاً على طبيعته الأرضية.

أما الطفل الذي كان في يومئذ فكأنما دعي بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤذيها إلى الرجل الذي يجيء فيه من بعد؛ فأنّا في كل حالة أخضع لهذا الصوت: ادع إلى سبيل ربك؛ وأنا في كل ضائقة أخضع لهذا الصوت: وأصبر وما صبرك إلا بالله!

اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال

ليست حقيقة الأمة في هذا الظاهر الذي يبدو من شعب مجتمع محكوم بقوانينه وأوضاعه؛ ولكن تلك الحقيقة هي الكائن الروحي المكتن في الشعب، الخالص له من طبيعته، المقصور عليه في تركيبه كعصير الشجرة: لا يرى عمله والشجرة كلها هي عمله.

وهذا الكائن الروحي هو الصورة الكبرى للنسب في ذوي الوشيجة من الأفراد، يند أنه يحقق في الشعب قرابة الصفات بعضها من بعض؛ فيجعل للأمة شأن الأسرة، ويخلق في الوطن معنى الدار، ويوجد في الاختلاف نزعة التشابه، ويرد المتعدد إلى طبيعة الوحدة، ويدع للأمة شخصيتها المتميزة، ويوجب لهذه الشخصية بإزاء غيرها قانون التناصر والحيمة؛ إذ يجعل الخواطر مشتركة، والدواعي مستوية، والأنواع متآزرة؛ فتجتمع الأمة كلها على الرأي: تتساند له بقواها ويشد بعضها بعضاً فيه؛ وبهذا كله يكون روح الأمة قد وضع في كلمة الأمة معناها.

والخلق القوي الذي ينشئ للأمة كائنها الروحي، هو المبادئ المنتزعة من اثر الدين واللغة والعادات، وهو قانون نافذ يستمد قوته من نفسه، إذ يعمل في الحيز الباطن من وراء الشعور، متسلطاً على الفكر، مُصَرِّفاً لبواعث النفس؛ فهو وحده الذي يملأ الحي بنوع حياته، وهو طابع الزمن على الأمم، وكأنه على التحقير رضع الأجداد علامتهم الخاصة على ذريتهم.

أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه؛ فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة؛ والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها، وعمقها هو عمق الروح ودليل الجس على ميل الأمة إلى التفكير وأبحاث في الأسباب والعلى، وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطموحها،

فَإِنَّ رُوحَ الْأَسْتِعْبَادِ ضَيِّقٌ لَا يَتَّسَعُ، ودأبه^(١) لزومُ الْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَاتِ الْقَلِيلَةِ.

وَإِذَا كَانَتْ اللَّغَةُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، وَكَانَتْ أُمَّتُهَا حَرِيصَةً عَلَيْهَا، نَاهِضَةً بِهَا، مُتَّبِعَةً فِيهَا، مُكَبَّرَةً شَأْنَهَا، فَمَا يَأْتِي ذَلِكَ إِلَّا مِنْ رُوحِ التَّسَلُّطِ فِي شَعْبِهَا وَالتَّمْطَاقَةِ بَيْنَ طَبِيعَتِهِ وَعَمَلِ طَبِيعَتِهِ، وَكَوْنِهِ سَيِّدَ أَمْرِهِ؛ وَمُحَقِّقَ وُجُودِهِ، وَمُسْتَعْمِلَ قُوَّتِهِ، وَالْآخِذَ بِحَقِّهِ؛ فَأَمَّا إِذَا كَانَ مِنْهُ التَّرَاخِي وَالْإِهْمَالُ وَتَرَكَّ اللَّغَةُ لِلطَّبِيعَةِ الْأَسْوَاقِيَّةِ، وَاصْغَارَ أَمْرُهَا، وَتَهَوَّنَ خَطَرُهَا^(٢)، وَأَيَّازُ^(٣) غَيْرِهَا بِالْحُبِّ وَالْإِكْبَارِ؛ فَهَذَا شَعْبٌ خَادِمٌ لَا مَخْدُومَ، تَابِعٌ لَا مُتَبَوِّعَ، ضَعِيفٌ عَنْ تَكَالُيفِ السِّيَادَةِ، لَا يُطْبِقُ أَنْ يَحْمِلَ عَظَمَةَ مِيرَاثِهِ، مُخْتَزِئٌ بِبَعْضِ حَقِّهِ، مُكْتَفٍ بِضُرُورَاتِ الْعَيْشِ، يُوَضِّعُ لِحُكْمِهِ أَلْفَانُونَ الَّذِي أَكْثَرُهُ لِلْجَرْمَانِ وَأَقَلُّهُ لِلْفَائِدَةِ الَّتِي هِيَ كَالْجَرْمَانِ.

لَا جَرَمَ كَانَتْ لُغَةُ الْأَمَةِ هِيَ الْهَدَفُ الْأَوَّلُ لِلْمُسْتَعْمِرِينَ؛ فَلَمَّا يَتَحَوَّلُ الشَّعْبُ أَوَّلَ مَا يَتَحَوَّلُ إِلَّا مِنْ لُغَتِهِ؛ إِذْ يَكُونُ مَنشَأُ التَّحَوُّلِ مِنْ أَفْكَارِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَأَمَالِهِ، وَهُوَ إِذَا انْقَطَعَ مِنْ نَسَبِ لُغَتِهِ انْقَطَعَ مِنْ نَسَبِ مَاضِيهِ، وَرَجَعَتْ قَوْمِيَّتُهُ صُورَةً مُحْفُوظَةً فِي التَّارِيخِ، لَا صُورَةً مُحَقَّقَةً فِي وَجُودِهِ؛ فَلَيْسَ كَاللُّغَةِ نَسَبٌ لِلْعَاطِفَةِ وَالْفِكْرِ؛ حَتَّى إِنْ أَبْنَاءَ الْأَبِ الْوَاحِدِ لَوْ اخْتَلَفَتْ السُّنَنُ فَنَشَأَ مِنْهُمْ نَاشِئٌ عَلَى لُغَةٍ، وَنَشَأَ الْآخَرُ عَلَى أُخْرَى، وَالثَّلَاثُ عَلَى لُغَةٍ ثَلَاثَةٍ، لَكَانُوا فِي الْعَاطِفَةِ كَأَبْنَاءِ ثَلَاثَةِ آبَاءٍ.

وَمَا ذَلَّتْ لُغَةُ شَعْبٍ إِلَّا ذَلَّ، وَلَا انْحَطَّتْ إِلَّا كَانَ أَمْرُهُ فِي ذَهَابٍ وَإِذْهَابٍ؛ وَمِنْ هَذَا يَفْرَضُ الْأَجْنَبِيُّ الْمُسْتَعْمِرُ لُغَتَهُ فَرْضاً عَلَى الْأُمَّةِ الْمُسْتَعْمَرَةِ، وَيَرْكَبُهُمْ بِهَا، وَيُسْعِرُهُمْ عَظَمَتَهُ فِيهَا، وَيَسْتَلْحِقُهُمْ مِنْ نَاحِيَّتِهَا؛ فَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ أَحْكَاماً ثَلَاثَةً فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ: أَمَّا الْأَوَّلُ فَحُبُّ لُغَتِهِمْ فِي لُغَتِهِ سِجْناً مُؤَبَّداً؛ وَأَمَّا الثَّانِي فَالْحُكْمُ عَلَى مَاضِيهِمْ بِالْقَتْلِ مَحَوّاً وَنِسْيَاناً؛ وَأَمَّا الثَّالِثُ فَتَقْيِيدُ مُسْتَقْبَلِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ^(٤) الَّتِي يَصْنَعُهَا؛ فَأَمْرُهُمْ مِنْ بَعْدِهَا لِأَمْرِهِ تَبِعٌ.

وَالَّذِينَ يَتَعَلَّقُونَ بِاللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ يَتَزَعَوْنَ إِلَى أَهْلِهَا بِطَبِيعَةِ هَذَا التَّعَلُّقِ، إِنْ لَمْ تَكُنْ عَصَبِيَّتُهُمْ، لِلِغَتِهِمْ قُوَّةٌ مُسْتَحْكِمَةٌ مِنْ قِبَلِ الدِّينِ أَوْ الْقَوْمِيَّةِ؛ فَتَرَاهُمْ إِذَا وَهَنَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْعَصَبِيَّةُ يَخْجَلُونَ مِنْ قَوْمِيَّتِهِمْ، وَيَتَبَرَّوْنَ مِنْ سَلَفِهِمْ وَيَنْسَلِخُونَ مِنْ تَارِيخِهِمْ، وَتَقُومُ بَأَنْفُسِهِمْ الْكَرَاهَةُ لِلِغَتِهِمْ وَأَدَابِ لُغَتِهِمْ، وَلِقَوْمِهِمْ وَأَشْيَاءِ قَوْمِهِمْ؛

(١) دأبه: عاداته.

(٢) خطرها: أمرها وأهميتها.

(٣) إشار: تفضل.

(٤) الأغلال: السلاسل.

فلا يستطيع وطنهم أن يوجي إليهم أسرار روحه؛ إذ لا يوافق منهم استجابة في الطبيعة، وينقادون بالحُب لغيره، فيتجاوزونه وهم فيه، ويرثون دماءهم من أهلهم، ثم تكون العواطف في هذه الدماء للأجنبي؛ ومن ثم تُصبح عندهم قيمة الأشياء بمصدرها لا بنفسها، وبالخيال المتوهم فيها لا بالحقيقة التي تحملها؛ فيكون شيء أجنبي في مذهبهم أجمل وأثمن، لأن إليه الميل وفيه الإكبار والإعظام؛ وقد يكون الوطن مثله أو أجمل منه، بيد أنه فقد الميل، فضعفت صلته بالنفس، فعادت كل مميزات فضعفت لا تميزه.

وأعجب من هذا في أمرهم، أن أشياء الأجنبي لا تحبل معانيها الساحرة في نفوسهم إلا إذا بقيت حاملة أسماءها الأجنبية، فإن سُمي الأجنبي بلغتهم القومية نقص معناه عندهم وتَصَاعَرَ وظَهَرَ في ذلة. وما ذاك إلا صغر نفوسهم وذلتها، إذ ينتخون لقوميتهم فلا يلهمهم الحرف من لغتهم ما يلهمهم الحرف الأجنبي.

والشرق مبتلى بهذه العلة، ومنها جاءت مشاكله أو أكثرها؛ وليس في العالم أمة عزيزة الجانب تقدم لغة غيرها على لغة نفسها، وبهذا لا يعرفون لأشياء الأجنبية موضعاً إلا من وراء حدود الأشياء الوطنية؛ ولو أخذنا - نحن الشرقيين - بهذا، لكان هذا وحده علاجاً حاسماً لأكثر مشاكلنا.

فاللغات تتنازع القومية، ولهي - والله - احتلال عقلي في الشعوب التي ضعفت عصبيتها؛ وإذا هانت اللغة القومية على أهلها، أثرت اللغة الأجنبية في الخلقي القومي ما يؤثر الجور الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه.

أما إذا قويت العصبية، وعزت اللغة، واثارت لها الحمية؛ فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمة يرتفق بها^(١)، ويرجع شبر الأجنبي شبراً لا متراً. وتكون تلك العصبية للغة القومية مادة وعوناً لكل ما هو قومي؛ فيصبح كل شيء أجنبي قد خضع لقوة القاهرة غالبية، هي قوة الإيمان بالمجد الوطني واستقلال الوطن؛ ومتى تعين الأول أنه الأول، فكل قوى الوجود لا تجعل الذي بعده شيئاً إلا أنه الثاني.

والدين هو حقيقة الخلقي الاجتماعي في الأمة، وهو الذي يجعل القلوب كلها طبقة واحدة على اختلاف المظاهر الاجتماعية عالية ونازلة وما بينهما؛ فهو بذلك

(١) يرتفق بها: تصحب رديقة.

الضمير القانوني للشعب، وبه لا يغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية، وفيه لا في سواه معنى إنسانية القلب.

ولهذا كان الدين من أقوى الوسائل التي يعول^(١) عليها في إيقاظ ضمير الأمة، وتنبيه زوجها، وأمتياج خيالها؛ إذ فيه أعظم السلطة التي لها وحدها قوة الغلبة على الماديات؛ فسلطان الدين هو سلطان كل فرد على ذاته وطبيعته؛ ومتى قوي هذا السلطان في شعب، كان حياً أياً، لا ترغمه قوة، ولا يعنو للقهَر.

ولولا الدين بالشرعية؛ لما استقامت الطاعة للقانون في النفس؛ ولولا الطاعة النفسية للقوانين؛ لما انتظمت أمة؛ فليس عمل الدين إلا تحديد مكان الحي في فضائل الحياة؛ وتعيين تبعته في حقوقها وواجباتها، وجعل ذلك كله نظاماً مستقراً فيه لا يغير، ودفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكمل، ودائماً نحو الأكمل.

وكل أمة ضعف الدين فيها اختلت هندستها الاجتماعية وماج بعضها في بعض؛ فإن من دقني الحكمة في هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية في هذه الأرض، وذلك لانتظام الغايات الأرضية في الناس فلا يأكل بعضهم بعضاً؛ فيغني الغني وهو آمن، ويفتقر الفقير وهو قانع، ويكون ثواب الأعلى في أن يعود على الأسفل بالمبرة، وثواب الأسفل في أن يصبر على ترك الأعلى في منزلته؛ ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة، التي لا يكبر عليها الكبير، ولا يصغر عنها الصغير؛ وهي الحق، والصلاح، والخير، والتعاون على البر والتقوى.

وما دام عمل الدين هو تكوين الخلق الثابت الدائب في عمله، ألمعتر بقوة، المطمئن إلى صبره، الكافر من الضعف، الأبي على الدل، الكافر بالاستعباد، المؤمن بالموت في المدافعة عن حوزته، المجزي بتساميه وبذله وعطفه وإثاره وفقاداته، العامل في مصلحة الجماعة، المقيّد في منافعه بواجباته نحو الناس - ما دام عمل الدين هو تكوين هذا الخلق - فيكون الدين في حقيقته هو جعل الجس بالشرعية أقوى من الحسن بالمادة؛ ولعمري ما يجد الاستقلال قوة هي أقوى له وأرد عليه من هذا المعنى إذا تقرر في نفوس الأمة وأنطبعت عليه.

وهذه الأمة الدينية التي يكون واجبها أن بشرف وتسود وتعتز، يكون واجب هذا الواجب فيها ألا تسقط ولا تخضع ولا تذلل.

(١) يعول: يعتمد عليها.

وبتلك الأصول العظيمة التي يُنشئها الدين الصحيح القوي في النفس، يتهبُّ النجاش السياسي للشعب المُحافظ عليه المنتصر له؛ إذ يكون من الخلال الطبيعية في زعمائه ورجاله الثبات على النزعة السياسية، والصلابة في الحق، والإيمان بمجد العمل، وتغليب ذلك على الأحوال المادية التي تعترض ذا الرأي لتفتنه عن رأيه ومذهبه: من مال، أو جاه، أو منصب، أو موافقة الهوى، أو خشية النقمة، أو خوف الوعيد^(١)، إلى غيرها من كل ما يستميل الباطل أو يُرهب^(٢) به الظلم.

ولا يذهب عنك أنَّ الرجل المؤمن القوي الإيمان الممتلئ ثقةً ويقيناً ووفاءً وصدقاً وعزماً وإصراراً على فضيلته وثباتاً على ما يلقي في سبيلها - لا يكون رجلاً كالناس، بل هو رجل الاستقلال الذي واجبه جزء من طبيعته، وغايته السامية لا تنفصل عنه، هو رجل صدق المبدأ، وصدق الكلمة، وصدق الأمل، وصدق النزعة؛ وهو الرجل الذي ينفجر في التاريخ كلما احتاجت الحياة الوطنية إلى إطلاق قنابلها للبُتْصِر.

والعادات هي الماضي الذي يعيش في الحاضر، وهي وحدة تاريخية في الشعب، تجمعهُ كما يجمعه الأصل الواحد؛ ثم هي كالدين في قيامها على أساس أدبي في النفس، وفي اشتمالها على التحريم والتحليل؛ وتكاد عادات الشعب تكون ديناً ضيقاً خاصاً به، يحصرهُ في قبيله ووطنه، ويحقق في أفرادهِ الألفة والشائبة، ويأخذهم جميعاً بمذهب واحد؛ هو إجلال الماضي.

وإجلال الماضي في كل شعب تاريخي هو الوسيلة الروحية التي يستوحي بها الشعب أبطاله، وفلاسفته، وعلماءه، وأدباءه، وأهل الفن منه؛ فيحون إليه وحي عظائمهم التي لم يغلبها الموت؛ وبهذا تكون صورهم العظيمة حيّة في تاريخه، وحيّة في آماله وأعصابه.

والعادات هي وحدها التي تجعل الوطن شيئاً نفسياً حقيقياً؛ حتى ليسعُر الإنسان أن لأرضه أمومة الأم التي ولدته، ولقومه أبوة الأب الذي جاء به إلى الحياة؛ وليس يعرف هذا إلا من أغرب عن وطنه، وخالط غير قومه، وأستوحش من غير عاداته؛ فهناك يُثبت الوطن نفسه بعظمة وجبروت كأنه وحدة هو الدنيا.

(٢) يرهَب: يخيف.

(١) الوعيد: التهديد.

وهذه الطبيعة الناشئة في النفس من أثر العادات هي التي تنبئ في الوطني روح التمييز عن الأجنبي، وتوحش نفسه منه كأنها حاسة الأرض تنبئ أهلها وتذيرهم الخطر.

ومتى صدقت الوطنية في النفس أقرت كل شيء أجنبي في حقيقته الأجنبية؛ فكان هذا هو أول مظاهر الاستقلال، وكان أقوى الدرائع إلى المجد الوطني.



وباللغة والدين والعادات، ينحصر الشعب في ذاته السامية بخصائصها ومقوماتها، فلا يسهل أنزاعه منها ولا أنساقه من تاريخه؛ وإذا ألجىء إلى حال من القهر لم يتخذل^(١) ولم يتضعض^(٢)، وأستمر يعمل ما تعلمه الشوكة الحادة: إن لم تترك لنفسها، لم تعط من نفسها ألا ألخز.....

(١) يتخذل: يهزم.

(٢) يتضعض: يتخلخل.

تجديدُ الإسلام رسالةُ الأزهر في القرنِ العشرين

(الأزهر)، هذه هي الكلمة التي لا يُقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمة (الهزم)؛ وفي كلنا اللفظتين يكمن سرٌ خفيٌّ من أسرار التاريخ التي تجعل بعض الكلمات ميراثاً عقلياً للأمة، ينسي مادة اللغة فيها ولا يَبْقَى منها إلا مادة النفس؛ إذ تكون هذه الكلمات تعبيراً عن شيء ثابت ثابت الفكرة التي لا تتغير، مستقر في أرواح القومية استقراؤه في الزمن، متجسّم من معناه كأن الطبيعة قد أفرذته بمادّته دون ما يُشاركه في هذه المادّة؛ فالحجر في الهزم الأكبر يكاد يكون في العقل زماناً لا حجراً وقتاً لا جنساً؛ والمكان في الأزهر يغيّب فيه معنى المكان وينقلب إلى قوّة عقلية ساحرة تُوجِد في المنظور غير المنظور.

وعندي أن الأزهر في زماننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث: «مضر كنانة الله في أرضه»، فعلماءه اليوم أسهم نافذة من أسهم الله يرمي بها من أراد دينه بالسوء، فيُمسِكها للهينة ويرمي بها للنصر؛ ويجب أن يكون هذا المعنى أول معانيهم في هذا القرن العشرين الذي أبشّر بملء عشرين قرناً من الجزاء على الأديان وإهمالها والإلحاد فيها.

أول شيء في رسالة الأزهر في القرن العشرين، أن يكون أهله قوّة إلهية معدّة للنصر، مهيأة للنضال، مسددة للإصابة، مُقدّرة في طبيعتها أحسن تقدير، تُشعر الناس بالاطمئنان إلى عملها، وتوحي إلى كل من يراها بالإيمان الثابت بمعناها؛ ولن يأتي لهم هذا إلا إذا انقلبوا إلى طبيعتهم الصحيحة، فلا يكون العلم تحرفاً ولا مهنة ولا مكسبة، ولا يكون في أوراق الكتب خيال (أوراق البنك). بل تظهر فيهم العظمة الروحانية أمرّة ناهية في المادّة، لا مأمورة منهية بها؛ ويرتفع كل منهم بنفسه، فيكون مُقرّر خلق في الحياة قبل أن يكون معلّم علم في الحياة، لينبث منهم مغناطيس النبوة يجذب النفوس بهم أقوى ممّا تجذبها ضلالات العصر؛ فما

يحتاج الناس في هذا الزمن إلى العالم - وإن الكُتُبَ والعلوم لثَمَلًا الدُّنيا - وإنما يحتاجون إلى ضمير العالم .

وقد عجزت المدينة أن توجد هذا الضمير، مع أن الإسلام في حقيقته ليس شيئاً إلا قانون هذا الضمير، إذ هو دين قائم على أن الله لا ينظر من الإنسان إلى صورته ولكن إلى عمله؛ فأول ما ينبغي أن يحمله الأزهر من رسالته، ضمائر أهله .

والناس خاضعون للمادة بقانون حياتهم، وبقانون آخر هو قانون القرن العشرين . . فهم من ثم في أشد الحاجة إلى أن يجدوا بينهم المتسلط على المادة بقانون حياته؛ ليرؤا بأعينهم القوى الدنيئة مغلوبة، ثم ليجدوا في هذا الإنسان أساس القدوة والاحتذاء، فيتصلوا منه بقوتين: قوة التعليم، وقوة التحويل .

وهذا هو سر الإسلام الأول الذي نفذ به من أمة إلى أمة ولم يقم له شيء يصده، إذ كان ينفذ في الطبيعة الإنسانية نفسها .

ومن أخص واجبات الأزهر في هذا القرن العشرين، أن يعمل أول شيء لإقرار معنى الإسلام الصحيح في المسلمين أنفسهم، فإن أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالتسب لا غير وما منهم إلا من هو في حاجة إلى تجديد إسلامه .

والحكومات الإسلامية عاجزة في هذا، بل هي من أسباب هذا الشر؛ لأن لها وجوداً سياسياً ووجوداً مدنياً؛ أما الأزهر فهو وحده الذي يصلح لإتمام نقص الحكومة في هذا الباب، وهو وحده الذي يسعى ما تعجز عنه؛ وأسباب نجاحه مهيأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزعامة الإسلامية، وكانت فيه عند المسلمين بقية ألوحى على الأرض، ثم كان هو صورة المزاج النفسي الإسلامي المحض؛ بيد أنه فرط في واجب هذه الزعامة، وفقد القوة التي كان يحكم بها، وهي قوة المثل الأعلى التي كانت تجعل الرجل من علمائه كما قلنا مرة: إنساناً تنخيره المعاني السياسية تظهر فيه بأسلوب عملي، فيكون في قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة ممتزعة من مثاليها، مشروحة بهذا المثل نفسه .

والعقيدة في سواد الناس بغير هذا المثل الأعلى هي أول مغلوب في صراع قوى الحياة .

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارهم إلى علماء الأزهر، فهم

يَتَّبِعُونَهُمْ، وَيَتَأَسَّوْنَ^(١) بِهِمْ، وَيَمْنَحُونَهُمْ أَطَاعَةً، وَيَنْزِلُونَ عَلَى حُكْمِهِمْ، وَيَلْتَمَسُونَ فِي سِيرَتِهِمْ التَّفْسِيرَ لِمَشْكِلَاتِ النَّفْسِ، وَيَعْرِفُونَ بِهِمْ مَعْنَى صِبْغِ الدُّنْيَا وَمَعْنَى كِبَرِ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ؛ وَكَانَ غِنَى الْعَالَمِ الدِّينِيِّ شَيْئاً غَيْرَ أَلْمَالِ، بَلْ شَيْئاً أَعْظَمَ مِنَ أَلْمَالِ؛ إِذْ كَانَ يَجِدُ حَقِيقَةَ الْغِنَى فِي إِجْلَالِ النَّاسِ لِفَقْرِهِ كَأَنَّهُ مُلْكٌ لَا فَقْرَ؛ وَكَانَ زُهْدُهُ قُوَّةً حَاكِمَةً فِيهَا الصَّلَابَةُ وَالشَّدَّةُ وَالْهَيْبَةُ وَالْأَسْمُ، وَفِيهَا كُلُّ سُلْطَانٍ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، لِأَنَّ فِيهَا كُلَّ النِّزَاعَاتِ الْأَسْتِقْلَالِيَّةِ؛ وَيَكَادُ الزُّهْدُ الصَّحِيحُ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْقُوَّةَ الَّتِي تَجْعَلُ عُلَمَاءَ الدِّينِ حَقَائِقَ مُؤَثَّرَةً عَامِلَةً فِي حَيَاةِ النَّاسِ أَغْنِيَاءَهُمْ وَفُقَرَاءَهُمْ، لَا حَقَائِقَ مَتْرُوكَةً لِنَفْسِهَا يُوحِشُ النَّاسَ مِنْهَا أَنَّهَا مَتْرُوكَةٌ لِنَفْسِهَا.

وعلماء الأزهر في الْحَقِيقَةِ هُم قَوَانِينُ نَفْسِيَّةٍ نَافِذَةٌ عَلَى الشَّعْبِ، وَعَمَلُهُمْ أَرْدُ عَلَى النَّاسِ مِنْ قَوَانِينِ الْحُكُومَةِ، بَلْ هُمْ التَّصْحِيحُ لِهَذِهِ الْقَوَانِينِ إِذَا جَرَتْ الْأُمُورُ عَلَى عِلَلِهَا وَأَسْبَابِهَا؛ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَقِّقُوا وَجُودَهُمْ، وَأَنْ يَتَنَاولُوا الْأُمَّةَ مِنْ نَاحِيَةِ قُلُوبِهَا وَأَرْوَاحِهَا، وَأَنْ يُعِدُّوا تَلَامِيذَهُمْ فِي الْأَزْهَرِ كَمَا يُعِدُّونَ الْقَوَانِينِ الدَّقِيقَةَ، لَا طُلَّاباً يَرْتَزِقُونَ بِالْعِلْمِ.

أَيْنَ صَوْتُ الْأَزْهَرِ وَعَمَلُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَاجِنَةِ بِمَا فِي السُّطْحِ وَمَا فِي الْقَاعِ... وَابْنُ وَخْيٍ هَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي مِيثَاقُهَا أَنْ تَجْعَلَ النَّبُوَّةَ كَأَنَّهَا شَيْءٌ وَاقِعٌ فِي الْحَيَاةِ الْعَصْرِيَّةِ لَا خَبَرَ تَارِيخِيٍّ فِيهَا؟

لَقَدْ أَصْبَحَ إِيْمَانُ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ عَادَةُ الْإِيْمَانِ لَا الْإِيْمَانُ نَفْسُهُ؛ وَرَجَعَ الْإِسْلَامُ فِي كِتَابِهِ الْفَقْهِيَّةِ وَكَأَنَّهُ أَدِيَانُ مُخْتَلِفَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ لَا دِينَ وَاحِدَ. فَرِسَالَةُ الْأَزْهَرِ أَنْ يُجَدِّدَ عَمَلَ النَّبُوَّةِ فِي الشَّعْبِ، وَأَنْ يُتَّقِيَ عَمَلَ التَّارِيخِ فِي الْكُتُبِ، وَأَنْ يُبْطِلَ عَمَلَ التَّوَنِّيَّةِ فِي الْعَادَاتِ، وَأَنْ يُعْطِيَ الْأُمَّةَ دِينَهَا الْوَاضِعَ الْمُسَمَّحَ^(٢) الْمَيْسَرُ، وَقَانُونَهَا الْعَمَلِيَّ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهَا وَقُوَّتُهَا.

وَلَا وَسِيلَةَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَزْهَرُ جَرِيئاً فِي قِيَادَةِ الْحَرَكَةِ الرُّوحِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، جَرِيئاً فِي عَمَلِهِ لِهَذِهِ الْقِيَادَةِ، آخِذاً بِأَسْبَابِ هَذَا الْعَمَلِ، مُلِحّاً فِي طَلَبِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، مُصِرّاً عَلَى هَذَا الطَّلَبِ؛ وَكُلُّ هَذَا يَكُونُ عَبَثاً إِنْ لَمْ يَكُنْ رِجَالُ الْأَزْهَرِ وَطَلَبَتُهُ أَمْثَلَةً مِنَ الْأَمْثَلَةِ الْقَوِيَّةِ فِي الدِّينِ وَالْخُلُقِ وَالصَّلَابَةِ، لِتَبْدَأَ الْحَيَاةَ

(٢) السَّح: السَّهْلُ النَّاتِجُ عَنْ طَبِيبِ الْخَاطِرِ.

(١) يَتَأَسَّوْنَ: يَتَّخِذُونَهُمْ قُدْوَةً حَسَنَةً.

الأنفسية فيهم، فإنها إن بدأت لا تقف؛ والمثل الأعلى حاكم بطبيعته على الإنسانية، مطاع بحكمه فيها، محبوب بطاعتها له.

والمادة المطهرة للدين والأخلاق لا تجدُها الأُمَّة إلا في الأزهر، فعلى الأزهر أن يُثبِت أن فيه تلك المادة باظهار عملها لا بالصاق الورقة المكتوب فيها الاسم على الزجاج...

ومن ثم يكون واجب الأزهر أن يطلب الإشراف على التعليم الإسلامي في المدارس، وأن يدفع الحركة الدينية دفعا بوسائل مختلفة، أولها أن يحمل وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة في جميع مدارسها، من مدرسة حريّة الفكر... فتازلا: والأمة الإسلامية كلها تشد رأي الأزهر في هذا.

وإذا نحن استخرجنا التفسير العملي لهذه الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾، دلّنا الآية بنفسها على كل تلك الوسائل، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية في العمل، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية في الدعوة.

العلماء ورثة الأنبياء؛ وليس النبي من الأنبياء إلا تاريخ شدايد ومحن، ومجاهدة في هداية الناس، ومراعاة^(١) للوجود الفاسد، ومكابدة^(٢) التصحيح للحالة النفسية للأمة؛ فهذا كله هو الذي يورث عن الأنبياء لا العلم وتعليمه فقط.

وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق، وأصبح وجوده هو المعنى المتمم للحكومة، المعاين لها في ضبط الحياة النفسية للشعب وحياطتها وأمنها وزفاهتها واستقرارها - اتجهت طبيعته إلى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين، بعد أن يكون قد حقق الذرائع إلى هذه الرسالة، من فتح باب الاجتهاد، وتنقية التاريخ الفقهية، ونهذيب الروح الإسلامي والسمو به عن المعاني الكلامية الجدلية السخيفة؛ ثم استخراج أسرار القرآن الكريم الكامنة فيه، لهذه العصور العلمية الأخيرة؛ وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوة التي تمسك الإسلام على سبيل بين القديم والجديد، لا ينكره هذا ولا يغيره ذاك، وبعد أن يكون الأزهر قد استفاض على العالم العربي بكتبه ودعائه ومبعوثيه من حاملي علمه ورسل إلهامه.

(٢) مكابدة: معاناة.

(١) مراعاة: مصراغة ومقاومة.

أما تلك الرسالة الكبرى فهي بث الدعوة الإسلامية في أوروبا وأمريكا وألبان، بلغات الأوروبيين والأمريكيين وألبانيين، في السنة أزهريّة مُرهفة مصقولة، لها بيان الأدب، ودقّة العلم، وإحاطة الفلّسفة، وإلهام الشعر، وبصيرة الحِكْمَة، وفدرة السياسة؛ السنة أزهريّة لا يُوجدُ الآن منها لسان واحد في الأزهر، ولكنها لن تُوجدَ إلّا في الأزهر؛ ولا قيمة لرساليّ في القرن العشرين إذا هو لم يوجدَها فتكون المتكلّمة عنه، والحاملة لرسالته، وما هذه أبعثات التي قرّر الأزهرُ أبعثاتها إلى أوروبا إلّا أول تاريخ تلك الألسنة.

إن الوسيلة التي نَشَرَت الإسلام من قبل لم تكن أجنحة الملائكة، ولا كانت قوة من جهنم؛ ولا تزال هي التي تنشره؛ فليس مُستحيلاً ولا متعذراً أن يغزو هذا الدين أوروبا وأمريكا وألبان كما غزا العالم القديم، ولم يكن السلاح من قبل إلّا طريقة لإيجاد إسلام في الأُمّة الغربيّة عنه، حتى إذا وُجدَ تولّى هو الدعوة لنفسه بقوة الناموس الطبيعي القائم على أن الأصلح هو الأبقى، وأنحازت إليه الإنسانية لإثبات قانون طبيعتها السليمة، ودين فطرتها القويّة؛ وقد ظلّ الإسلام ينتشر ولم يكن يحملُهُ إلّا التجار، كما كان ينتشر وحاملهُ الجيش؛ فليس علينا إلّا تغيير السلاح في هذا العصر وجعله سلاحاً من فلسفة الدين وأسرار حكيمته؛ فهذا الدين كما قلنا في بعض كلامنا: أعمال مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يُعطي الحياة في كل عصر عقلها العمليّ الثابت المستقرّ تُنظّم به أحوال النفس على ميزّة وبصيرة، ويدع للحياة عقلها العلميّ المتجدّد المتغير تُنظّم به أحوال الطبيعة على قُصْدٍ وهُدًى؛ وهذه هي حقيقة الإسلام في أحص معانيه: لا يُغني عنه في ذلك دين آخر، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نبع في الأرض ليعاني النور، بإزاء الشمس نبع النور في السماء.

ليس على الأزهر إلّا أن يوجدَ من الإسلام في تلك الأُمم ما يستمر، ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت، والثبات يوجد ما يدوم؛ وكان النبي ﷺ قد أشار إلى هذا في قوله: نَصَرَ اللَّهُ أَمراً سمع مني شيئاً قبله كما سمعه، فربّ مبلغ أوعى له من سامع.

أما والله إن هذا المبلغ الذي هو أوعى له من السامع لن يكون في التاريخ بأدق المعنى إلّا أوروبا وأمريكا في هذا الزمن العلميّ إذا نحن عرفنا كيف نُبلّغ.

أنا مستيقنٌ أنَّ فيلسوفَ الإسلامِ الَّذي سَيَنْتَشِرُ الدِّينَ على يدهِ في أوربا وأمريكا لن يخرجَ إلَّا مِنَ الْأَزْهَرِ، وما كَانَ الْأُسْتَاذُ الإمامُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عبده - رحمه الله - إلَّا أَوَّلُ الْتَطَوُّرِ الْمُنْتَهِي إلى هذه الغاية، وسيكونُ عملُ فلاسفةِ الْأَزْهَرِ استِخراجَ قانونِ السَّعادةِ لِتِلْكَ الْأُمَمِ من آدابِ الإسلامِ وأعمالِهِ؛ ثُمَّ مُخاطبةِ الْأُمَمِ بأفكارِها وعواطفِها، والإِفْضاء^(١) من ذلك إلى ضميرِها الاجتماعيِّ فَإِنَّ أَوَّلَ الدِّينِ هناك أسلوبُهُ الَّذي يظهرُ به.

* * *

هذه هي رسالةُ الْأَزْهَرِ في القرنِ العشرين، ويجبُ أن يتحقَّقَ بوسائلِها مِنَ الْآنَ؛ ومن سائلِها أن يُعالِنَ بها لِتَكُونَ مَوْثِقًا عليه. ويحسنُ بِالْأَزْهَرِ في سبيلِ ذلك أن يضمَّ إليه كُلَّ مفكرٍ إسلاميٍّ ذي إلهامٍ أو بحثٍ دقيقٍ أو إحاطةٍ شاملةٍ؛ فتكونُ لَهُ الْقَابُ عِلْمِيَّةٌ يَمْنَحُهُمْ إِيَّاهَا وَإِنْ لَمْ يَخْرُجُوا فيه، ثُمَّ يَسْتَعِينُ بِعِلْمِهِمْ وإلهامِهِمْ وآرائِهِمْ.

وبهذه الْأَلْقَابِ يمتدُّ الْأَزْهَرُ إلى حدودِ فِكْرِيَّةٍ بعيدة، ويصْبِحُ أَوْسَعُ في أثرِهِ على الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ويُحَقِّقُ لِنَفْسِهِ الْمَعْنَى الْجَامِعِيَّةَ.

وفي تلك السَّبِيلِ يجبُ على الْأَزْهَرِ أن يختارَ أياماً في كُلِّ سَنَةٍ يَجْمَعُ فيها مِنَ الْمُسْلِمِينَ (قِرْشُ الْإِسْلَامِ)؛ لِيَجِدَ مَادَّةَ الْنَفَقَةِ الْوَاسِعَةِ في نشرِ دينِ اللَّهِ، وليسَ على الْأَرْضِ مُسْلِمٌ ولا مُسْلِمَةٌ لا يَسْطُرُ يدهِ، فما يحتاجُ هذا التَّدْبِيرُ لِأَكْثَرِ من إقرارِهِ وتنظيمِهِ وإعلانهِ في الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ ومواسمِها الْكُبْرَى، وخاصةً موسمَ الْحَجِّ.

وهذا الْعَمَلُ هو نَفْسُهُ وَسِيلَتُهُ من أقوى الْوَسَائِلِ في تنبيهِ الشُّعُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وتحقيقِ الْمَعَاوَنَةِ في نشرِ الدِّينِ وَحِيَاظَتِهِ؛ وَعَسَى أن تكونَ لَهُ نَتَائِجُ أَجْتِمَاعِيَّةٌ لا مَوْضِعَ لِتَفْصِيلِهَا هُنا، وَعَسَى أن يكونَ (قِرْشُ الْإِسْلَامِ) مَادَّةً لِأَعْمَالِ إِسْلَامِيَّةٍ ذاتِ بَالٍ، وهو على أَيِّ الْأَحْوالِ صِلَةٌ رُوحِيَّةٌ تَجْعَلُ الْأَزْهَرَ كَأَنَّهُ مُعْطِيهِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لا آخِذُهُ.

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ أَوَّلَ رِسَالَةِ الْأَزْهَرِ في القرنِ العشرين، أَهْتَدَاءُ الْأَزْهَرِ إلى حَقِيقَةِ مَوْضِعِهِ في القرنِ العشرين: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) الإِفْضاء: الوصول والانتهاء.

الأسد

جلس أبو علي أحمد بن محمد الروذبادي البغدادي في مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبي الحسن بنان الحمالي الزاهد الواسطي شيخ الديار المصرية وكان يضرب المثل بعبادته وزهده، وقد خرج أكثر أهل مصر في جنازته، فكان يومه يوماً كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا؛ ما بقي أحد إلا اقتنع أنه في شهباب الحياة وأباطيلها كالأعمى في سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق؛ إذ ينظر كل أمرى في مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة، باللمس لا بالبصر، وبالتوهم لا بالتحقيق، وعلى دليل نفسه في الشيء لا على دليل الشيء في نفسه، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة؛ ثم يأتي الموت فيكون كالماء صب على الدقيق والتراب جميعاً، فلا يرتاب مبصر ولا أعمى، ويبطل ما هو باطل ويحق الذي هو حق.

وتكلم أبو علي فقال: كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيدي في بغداد، فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الري والجبالي في وقته يقول فيه: لا أذاقك ألكه طعم نفسك، فإنك إن دقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً! قال: فجعلت أفكر في طعم النفس ما هو، وجاءني ما لم أره من الرأي، حتى سمعت بخبر بنان - رحمه الله - مع أحمد بن طولون أمير مصر، فهو الذي كان سبب قدومي إلى هنا لأرى الشيخ لأصحبه وأنفع به.

والبلد الذي ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الإلهية، هو في الجاهل كالبلد الذي ليس فيه كتاب من الكتب البتة وإن كان كل أهله علماء، وإن كان في كل محلة منه مدرسة، وفي كل دار من دور خزانة كتب؛ فلا تغني هذه الكتب عن الرجال؛ فإنما هي صواب أو خطأ ينتهي إلى العقل، ولكن الرجل الكامل صواب ينتهي إلى الروح، وهو في تأثيره على الناس أقوى من العلم، إذ هو تفسير الحقائق في العمل الواقع وحياتها عاملة مرئية داعية إلى نفسها؛ ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون في معاني الفضائل ووسائلها،

ووضعوا في ذلك مائة كتاب، ثُمَّ رَأَوْا رجلاً قاضلاً بأصدق معاني الفضيلة، وخالطوه وصحبوه - لَكَانَ الرجلُ وحده أكبر فائدة من تلك المناظرة وأجدى^(١) على الناس منها وأدل على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب؛ ولهذا يُرْسَلُ اللَّهُ النَّبِيَّ مع كُلِّ كتاب مُتَرَلِّ ليعطي الكلمة قوَّة وجودها، ويُخرج الحالة النفسية مِنَ المعنى المعقول، ويُنشئ الفضائل الإنسانية على طريقة النسل من إنسانها الكبير.

وما مثل الكتاب يتعلَّم المرء منه حقائق الأخلاق العالية، إِلَّا كوضع الإنسان يده تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض؛ فقد أنشأ يعمل، ولكنَّه لن يرتفع؛ ومن ذلك كَانَ شرُّ الناس هُم العلماء والمُعَلِّمين إذا لم تكن أخلاقهم دروساً أخرى تعمل عملاً آخرَ غيرَ الكلام؛ فَإِنَّ أحدهم ليجلسُ مجلسُ المعلم، ثُمَّ تكونُ حوله رذائله تُعلَّم تعليمًا آخرَ من حيث يدرى ولا يدرى، ويكونُ كتابُ اللَّهِ معَ الإنسانِ الظاهرِ منه، وكتابُ الشيطانِ معَ الإنسانِ الخفيِّ فيه.



قال أبو علي: وقد مُنْتُ إلى مصرَ لأرى أبا الحسن وأخذَ عنه وأحقَّق ما سمعتُ من خبره معَ أبْنِ طولون؛ فلَمَّا لَقِيتُهُ لَقِيتُ رجلاً من تلاميذ شيخنا الجليل، يتلأأ فيه نوره ويعملُ فيه سرُّه؛ وهما كالأشعة، والأشعة في الضوء وإن صَغُرَتْ واحدة وكَبُرَتْ واحدة؛ وعلامة الرجل من هؤلاء أَن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه، كَأَنَّ بَيْنَ الأرواحِ وبينه نسباً^(٢) شابكاً، فله معنى أبوة الأب في أبنائه: لا يراه مَنْ يراه منهم إِلَّا أَحْسَنُ أَنَّهُ شخصه الأكبر؛ فهذا هو الَّذي تكونُ فيه التكملة الإنسانية للناس، وكأنَّه مخلوقٌ خاصَّةٌ لإثباتِ أَنَّ غيرَ المستطاعِ مستطاع.

ومن عجيبِ حكمةِ اللَّهِ أَنَّ الأمراضَ الشديدةَ تعملُ بالعدوى فيمن قاربها أو لامسها، وَأَنَّ القُوَى الشديدةَ تعملُ كذلك بالعدوى فيمن اتَّصلَ بها أو صاحبها ولهذا يخلقُ اللَّهُ الصالحينَ ويجعلُ التقوى فيهم إصابةً كإصابة المرض: تصرِفُ عن شهواتِ الدنيا كما يصرِفُ المرضُ عنها، وتكسرُ النفسَ كما يكسرُها ذاك، وتُفَقِّدُ الشيءَ ما هو به شيء، فتحوُلُ قيمته، فلا يكونُ بما فيه من ألوهية بل بما فيه من الحق.

وإذا عَدِمَ النَّاسُ هذا الرجلَ الَّذي يُعَدِّبُهُم بِقُوَّتِهِ العجيبةِ فقلَّما يصلحونَ للِقُوَّةِ، فكيبارُ الصالحينَ وكيبارُ الزعماءِ وكيبارُ القوادرِ وكيبارُ الشجعانِ وكيبارُ العلماءِ

(٢) نسباً: قرابة.

(١) أجدى: أنفع.

وأمثالهم - كل هؤلاء من باب واحد، وكلهم في الحكمة ككبار المرضى .

قال أبو علي: وهممت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون، فقطعني هيئته، فقلت: أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الرزي: «لا أذاقك الله طعم نفسك»؛ وبينما أهيت في نفسي كلاماً أجري فيه هذه العبارة، جاء رجل فقال للشيخ: لي على فلان مائة دينار، وقد ذهبت الوثيقة التي كتبت فيها الدين، وأخشى أن يترك إذا هو علم بضائعها؛ فادع الله لي وله أن يظفرني^(١) بديني وأن يثبتني على الحق. فقال الشيخ: إنني رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى، فاذهب فاشتري رطلاً منها وأتني به حتى أدعوك!

فذهب الرجل فاشتري الحلوى ووضعها له ألبانع في ورقة فإذا هي الوثيقة الضائعة، وجاء إلى الشيخ فأخبره، فقال له: خذ الحلوى فأطعمها صيائك لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهي! ثم إنه ألتفت إلي وقال: لو أن شجرة أشتت غير ما به صحة وجودها وكمال منفعتها فأذيقنا طعم نفسها لأكلت نفسها وذوت.

قال أبو علي: والمعجزات التي تحدث للأنبياء، والكرامات التي تكون للإتقياء، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق - كل ذلك كقول القدره عن الرجل الشاذ: هو هذا. فلم تبق بي حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون، وكنت كاني أرى بعيني رأسي كل ما سمعت، بيد أنني لم أنصرف حتى لقيت أبا جعفر القاضي أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ذاك الذي يحدث بكتب أبيه كلها من حفظه وهي واحد وعشرون مصنفاً فيها الكبير والصغير؛ فقال لي: لعلك أشتفيت من خبر بنان مع ابن طولون، فمن أجله زعمت جئت إلى مصر. قلت: إنه تواضع فلم يخبرني وهبته^(٢) فلم أسأله. قال: تعال أحدثك الحديث.

كان أحمد بن طولون من جارية تركية، وكان طولون أبوه مملوكاً حملاً نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفاً عليه من المال والرقيق

(١) يظفرني: يعطيني، يمنحني.

(٢) وهبته: خفته.

والبَراذِين^(١) وغير ذلك؛ فولدَ أحمدُ في منصبِ ذلَّةٍ تستظهرُ بالطغيان، وكانت هاتان طبيعَتُهُ إلى آخرِ عمرِهِ، فذهبَ بِهَمَّتِهِ مذهباً بعيداً، ونشأَ من أولِ أمرِهِ على أن يَتَمَّ هذا النقصَ ويكونَ أكبرَ من أصلِهِ، فطلبَ الفُروسِيَّةَ والعِلْمَ والحديثَ، وصحبَ الزهادَ وأهلَ الورعِ، وتميَّزَ على الأتراكِ وطَمَحَ إلى المعالي، وظلَّ يرمي بنفسِهِ، وهو في ذلك يكبرُ ولا يزالُ يكبرُ، كأنما يُريدُ أن يقطعَ من أصلِهِ ويلتجِئَ بالأمراءِ، فلَمَّا ألْتَحَقَ بِهِمْ ظلَّ يكبرُ ليلْحَقَ بِالْمُلُوكِ، فلَمَّا بَلَغَ هَؤُلَاءِ كَانَتْ نِيَّتُهُ على ما يعلمُ اللهُ.

قال: وكانَ عقلُهُ من أثرِ طبيعَتِهِ كالعقلينِ لرجلينِ مُختلِفينِ فَلَهُ يَدٌ مَعَ الملائكةِ ويَدُهُ الأخرى مَعَ الشياطينِ، فهو الَّذي بنى المارستانَ وأنفقَ عليه وأقامَ فيه الأطباءَ، وشرطَ إِذْ جِئَ بِالْعَلِيلِ^(٢) أن تُنَزَعَ ثِيَابُهُ وتُحَفَظَ عِنْدَ أمينِ المارستانِ، ثُمَّ يُلبَسَ ثِيَاباً وَيُفَرَّشَ لَهُ وَيُعْدَى عَلَيْهِ وَيُرَاحَ بِالأدويةِ والأغذيةِ والأطباءِ حتى يبرأ، ولم يكن هذا قبلَ إمارتِهِ؛ وهو أولُ مَنْ نَظَرَ في المظالمِ من أمراءِ مصر؛ وهو صاحبُ يومِ الصدقة: يَكْتَرُ من صدقاتِهِ كَلِمَا كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، ومراثيُهُ لذلك وغيرِها، يذبحُ فيها البقرَ والْكَباشَ ويغرفُ للناسِ، وَلِكُلِّ مِسْكِينٍ أربعةَ أرغفةٍ يَكُونُ في اثْنَيْنِ منها فالودجُ^(٣) وفي الآخرينِ مِنَ القُدُورِ، ويُنادي: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ دَارَ الْأَمِيرِ فَلْيَحْضُرْ! وتُفْتَحُ الأبوابُ ويدخلُ الناسُ وهو في المجلسِ ينظرُ إلى المساكينِ ويتأملُ فرحَهُمْ بما يأكلُونَ ويحملونَ، فيُسرُهُ ذلكَ ويحمدُ اللَّهَ على نِعْمَتِهِ؛ وكانَ راتبَ مطبخِهِ في كُلِّ يومٍ ألفَ دينارٍ؛ وأقْتَدَى^(٤) بِهِ ابْنُهُ خُمَارُويهِ، فأنشأَ بَعْدَهُ مطبخَ العائمةِ يُنفِقُ عَلَيْهِ ثلاثةَ عَشْرِينَ ألفَ دينارٍ كُلَّ شهرٍ.

وقد بَلَغَ ما أرسَلَهُ ابْنُ طُولُونَ إلى فقراءِ بغدادَ وعلمائِها في مدَّةٍ ولايتِهِ ألفي ألفٍ ومائتي ألفٍ دينارٍ وكانَ كَثِيرَ التلاوةِ للقرآنِ، وَقَدْ اتَّخَذَ حُجْرَةً بِقَرْبِهِ فِي الْقَصْرِ وَضَعَ فِيهَا رِجَالاً سَمَّاهُمْ بِالْمَكْبُورِينَ، يَتَعاقِبُونَ اللَّيْلَ نَوْباً يُكَبِّرُونَ وَيُسَبِّحُونَ، ويحمدونَ ويهلِّلونَ، ويقرءونَ القرآنَ تطريباً، وَيُنشِدُونَ قصائدَ الزهدِ، ويؤذنونَ أوقاتَ الأذانِ؛ وهو الَّذي فَتَحَ أنطاكيةَ في سَنَةِ خمسٍ وستينَ ومائتينَ، ثُمَّ مضى إلى طرسوسَ كأنَّهُ يُريدُ فَتْحَهَا، فلَمَّا نابذَهُ^(٥) أهلُها وقَاتَلَهُمْ أمرَ أصحابَهُ أن يَنْهَزمُوا

(١) البراذين، مفردة برذون، وهو نوع من البغال.

(٢) العليل: المريض.

(٤) اقتدى: سيرة.

(٣) الفالودج: ضرب من الحلوى.

(٥) نابذه: ناجزه وقاتله.

عنها، ليلبغ ذلك طاعة الروم فيغلبم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشديتها لم تقم لأهل طرسوس، فيكون بهذا كائنه قاتله وصدّه عن بلد من بلاد الإسلام، ويجعل هذا الخبر كالجيش في تلك الناحية!

ومع كل ذلك فإنه كان رجلاً طائش السيف، يجور ويعسف^(١)، وقد أحصي من قتلهم صبراً^(٢) أو ماتوا في سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفاً؛ وأمر بسجن قاضيه بكار بن قنية في حادثة معروفة. وقال له: غرك قول الناس ما في الدنيا مثل بكار؟ أنت شيخ قد خرفت! ثم حسنه وقتله وأخذ منه جميع عطايا مدة ولايته القضاء، فكانت عشرة آلاف دينار، قيل إنها وجدت في بيت بكار بختمها لم يمسهما زهداً وتورعاً.

ولما ذهب شيخك أبو الحسن يُعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، طاش عقله^(٣) فأمر بالقائه إلى الأسد، وهو الخبر الذي طار في الدنيا حتى بلغك في بغداد...

قال: وكنت حاضر أمرهم ذلك اليوم، فجاء بالأسد من قصر أبيه خمارويه وكان خمارويه هذا مشغوراً^(٤) بالصيد، لا يكاد يسمع يسبح في غيضة أو بطن وادٍ إلا قصده ومعه رجال عليهم أבוד، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من عابه غنوة وهو سليم، فيضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم.

وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم، جسيماً، ضارياً^(٥)، عارم الوحشية^(٦)، متزِيل العضل، شديد عصب الخلق، هراساً^(٧)، فراساً، أهرت الشدق^(٨) يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر يُنبئ أن جوفه مقبرة، ويظهر وجهه خارجاً من ليدته، يهيم أن ينقلب على من يراه فيأكله!

وأجلسوا الشيخ في قاعة وأشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه فجذبوه فأرتفع؛ وهجهجوا^(٩) بالأسد يزجرونه، فأنطلق يُزْمَجِرُ ويزأر زيراً تنشق له المراثر، ويتوهّم من يسمعه أنه الرعد وراء الصاعقة!

(١) يعسف: يظلم.

(٢) قتلهم صبراً: ظلماً دون ذنب.

(٣) طاش عقله: فقد عقله من الغضب.

(٤) مشغوراً: مولعاً، محبباً.

(٥) ضارياً: شديد العنف.

(٦) عارم الوحشية: في أقصى حالات الوحش.

(٧) هراساً: يحطم فريسته فيسحقها.

(٨) هرت الشدق: واسعه بشدة.

(٩) هجهج بالبع: صاح.

ثُمَّ اجْتَمَعَ الْوَحْشُ فِي نَفْسِهِ وَأَقْشَعَرَتْ، ثُمَّ تَمَطَّى^(١) كَالْمَنْجَنِقِ يَقْدِفُ الصَّخْرَةَ، فَمَا بَقِيَ مِنْ أَجْلِ الشَّيْخِ إِلَّا طَرْفَةُ عَيْنٍ؛ وَرَأَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ سَاكِنًا مُطْرِقًا لَا يَنْظُرُ إِلَى الْأَسَدِ وَلَا يَحْفَلُ^(٢) بِهِ، وَمَا مِثْلًا إِلَّا مَنْ كَادَ يَنْهَتُكَ^(٣) حِجَابُ قَلْبِهِ مِنَ الْفَزَعِ وَالرَّعْبِ وَالْإِشْفَاقِ^(٤) عَلَى الرَّجُلِ.

وَلَمْ يَرُعْنَا^(٥) إِلَّا ذَهُولَ^(٦) الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِهِ، فَأَقْعَى^(٧) عَلَى ذَنْبِهِ، ثُمَّ لَصَقَ بِالْأَرْضِ هُتَيْهَةً يَفْتَرِشُ ذِرَاعِيهِ، ثُمَّ نَهَضَ نَهْضَةً أُخْرَى كَأَنَّهُ غَيْرُ الْأَسَدِ، فَمَشَى مَتَرَفَقًا^(٨) ثَقِيلَ الْخَطْوِ تُسْمَعُ لِمَفَاصِلِهِ قَعْقَعَةٌ مِنْ شِدَّتِهِ وَجَسَامَتِهِ^(٩)، وَأَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ وَطَفَقَ يَحْتَكُ بِهِ وَيَلْحَظُهُ وَيَشْمُهُ كَمَا يَصْنَعُ الْكَلْبُ مَعَ صَاحِبِهِ الَّذِي يَأْنَسُ بِهِ، وَكَأَنَّهُ يُعْلِنُ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ مِصَاوِلَةً^(١٠) بَيْنَ الرَّجُلِ الْتَقَى وَالْأَسَدِ، وَلَكِنَّهَا مُبَارَزَةٌ بَيْنَ إِرَادَةِ ابْنِ طُولُونَ وَإِرَادَةِ اللَّهِ!

وَضَرَبَتْهُ رَوْحُ الشَّيْخِ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآدَمِيِّ عَمَلٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بِلَازٍ لَحْمٍ وَدَمٍ، فَلَوْ أَكَلَ الضَّوءَ وَالْهَوَاءَ وَالْحَجَرَ وَالْحَدِيدَ، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ وَأَيْسَرَ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ هَذَا الرَّجُلَ الْمَتَمَثِّلَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ لَا يُجَسُّ لِيُصَوِّرَ الْأَسَدُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا الْفَاتِكَةِ، وَلَا يَرَى فِيهِ إِلَّا حَيَاةً خَاضِعَةً مُسَخَّرَةً لِلْقُوَّةِ الْعَظْمَى الَّتِي هُوَ مُؤْمِنٌ بِهَا وَمَتَوَكِّلٌ عَلَيْهَا، كَحَيَاةِ الدُّودَةِ وَالنَّمْلَةِ وَمَا دَوَّنَهَا مِنَ الْهَوَامِّ وَالذَّرَا

وَوَرَدَ النُّورُ عَلَى هَذَا الْقَلْبِ الْمَوْمِنِ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ وَلَكِنَّهُ هُوَ وَالْأَسَدُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، وَكَأَنَّ مُنْدِمِجًا فِي يَقِينِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾!

وَرَأَى الْأَسَدُ رَجُلًا هُوَ خَوْفُ اللَّهِ، فَخَافَ مِنْهُ، وَكَمَا خَرَجَ الشَّيْخُ مِنْ ذَاتِهِ وَمَعَانِيهَا الْنَاقِصَةِ، خَرَجَ الْوَحْشُ مِنْ ذَاتِهِ وَمَعَانِيهَا الْوَحْشِيَّةُ؛ فَلَيْسَ فِي الرَّجُلِ خَوْفٌ وَلَا هَمٌّ وَلَا جَزَعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ لَيْسَ فِي الْأَسَدِ فَتْكٌ وَلَا ضَرَاوَةٌ^(١١) وَلَا جَوْعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ.

(١) تَمَطَّى: تَمَدَّدَ.

(٢) يَحْفَلُ: يَهْتَمُّ.

(٣) يَنْهَتُكَ: يَتَمَرَّقُ.

(٤) الْإِشْفَاقُ: الْخَوْفُ.

(٥) يَرُعْنَا: يَدْهَشُنَا.

(٦) ذَهُولٌ: تَرَكَ وَحْشِيَّتَهُ وَنَسِيَانَهُ لَهَا.

(٧) أَقْعَى: جَلَسَ عَلَى مُوْخَرَتِهِ.

(٨) مَتَرَفَقًا: مَتَمَهَلًا.

(٩) جَسَامَتُهُ: ضَخَامَتُهُ.

(١٠) مِصَاوِلَةٌ: مُجَاوِلَةٌ.

(١١) ضَرَاوَةٌ: شِدَّةُ قَتْلِ.

ونسِيَ الشيخُ نفسَهُ فكأنَّما رآه الأسدُ ميتاً ولم يجدْ فيه (أنا) التي يأكلها، ولو أنَّ خطرَةً من هَمِّ الدنيا خطرَتْ على قلبِهِ في تلك الساعة أَوْ اختلجَتْ في نفسه خالِجَةٌ مِنَ الشُّكِّ، لفاحَتْ رائحةٌ لَحْمِهِ في خياشيمِ الأسدِ فتمزَّقَ في أنيابه ومخالبِهِ.

قال: وَانصَرَفْنَا عَنِ النَّظَرِ فِي الْأَسَدِ إِلَى النَّظَرِ فِي وَجهِ الشَّيْخِ، فإذا هو ساهمٌ^(١) مفكِّرٌ، ثُمَّ رَفَعُوهُ وَجَعَلَ كُلُّ مِثْلٍ يَظُنُّ ظَنًّا فِي تَفَكُّيرِهِ، فَمِنْ قَائِلٍ إِنَّهُ الْخَوْفُ أَذْهَلُهُ عَنِ نَفْسِهِ، وَقَائِلٍ إِنَّهُ الْإِنْصِرَافُ بِعَقْلِهِ إِلَى الْمَوْتِ، وَثَالِثٍ يَقُولُ إِنَّهُ سَكُونُ الْفِكْرِ لِيَمْنَعَ الْحَرَكَةَ عَنِ الْجَسَمِ فَلَا يَضْطَرِبُ، وَزَعَمَ جَمَاعَةٌ أَنَّ هَذِهِ حَالَةٌ مِنَ الْأَسْتِغْرَاقِ يَسْحَرُ بِهَا الْأَسَدُ؛ وَأَكْثَرُنَا فِي ذَلِكَ وَتَجَارَيْنَا فِيهِ، حَتَّى سَأَلَهُ أَبُو طُولُونٍ: مَا الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِكَ وَفِيمَ كُنْتَ تَفَكِّرُ؟

فَقَالَ الشَّيْخُ: لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي لُعَابِ الْأَسَدِ، أَهْوَ طَاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ...

(١) ساهم: مطروق مفكِّر.

أمراء للبيع

قال الشيخ تاج الدين محمد بن علي الملقب طويز الليل، أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة:

كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد لا يُخاطب السلطان إلا بقوله: (يا إنسان) فما يخشاه ولا يتعبد^(١) له ولا ينحله^(٢) القاب الجبروت والعظمة ولا يزيئه بالتفاقي ولا يداجيه كما يصنع غيره من العلماء؛ وكان هذا عجباً؛ غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يُخاطب أحداً قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان)؛ فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين، ولا يرى أحسن ما في هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية!

ثم كان لا يعظم في الخطاب إلا أئمة الفقهاء فإذا خاطب منهم أحداً قال له: (يا فقيه)؛ على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لِمِثْلِ شيخ الإسلام نجم الدين ابن الرقعة، ثم يخص علاء الدين بن الباجي وحده بقوله: (يا إمام)؛ إذ كان آية من آيات الله في صناعة الحجّة، لا يكاد يقطعه^(٣) أحد في المناظرة والمباحثة؛ فهو كالبرهان. إجلاله إجلال الحق، لأن فيه المعنى وتثبت المعنى.

وقلت له يوماً: يا سيدي، أراك تُخاطب السلطان بخطاب العامة؛ فإن علوت قلت: (يا إنسان) وإن نزلت قلت: يا إنسان؛ أفلا يسخطه هذا منك وقد تدوّق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع، وخضه الكنفاق بكلمات هي ظلُّ الكلمات التي يوصف الله بها، ثم جعله الملك إنساناً بذاته في وجود ذاته، حتى أصبح من غيره كالحبل والحصاة: يستويان في العنصر ويتباينان في القدر، وأقله مهما قل هو أكثرها مهما عظمت، ووجوده شيء ووجودها شيء آخر؟

(١) يتعبد: يستذل له.

(٢) ينحله: يفحمه ويسكته.

(٣) يقطعه: يفحمه ويسكته.

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقَالَ: يَا وَلَدِي، إِيْش هَذَا؟ إِنَّا نَفُوسُ أَلْفَاظٍ، وَالْكَلِمَةُ مِنْ قَائِلِهَا هِيَ بِمَعْنَاهَا فِي نَفْسِهِ لَا بِمَعْنَاهَا فِي نَفْسِهَا؛ فَمَا يَحْسُنُ بِحَامِلِ الشَّرِيعَةِ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلَامٍ يَرُدُّهُ الشَّرْعُ عَلَيْهِ؛ وَلَوْ نَافَقَ الْاَلْدِيْنُ لَبَطَلَ أَنْ يَكُوْنُ دِيْنًا، وَلَوْ نَافَقَ اَلْعَالَمُ اَلدِّيْنِي لَكَانَ كُلُّ مَنَافِقٍ أَشْرَفَ مِنْهُ؛ فَلَطَخَةُ فِي اَلثُوبِ اَلْاَبْيَضِ لَيْسَتْ كَلَطَخَةٍ فِي اَلثُوبِ اَلْاَسْوَدِ، وَاَلْمَنَافِقُ رَجُلٌ مَغْطًى فِي حَيَاتِهِ، وَلَكِنْ عَالَمُ اَلدِّيْنِ رَجُلٌ مَكْشُوفٌ فِي حَيَاتِهِ لَا مَغْطًى؛ فَهُوَ لِلْهِدَايَةِ لَا لِلتَّلْبِيْسِ، وَفِيهِ مَعَانِي اَلنُّوْرِ لَا مَعَانِي اَلظُّلْمَةِ؛ وَذَاكَ يَتَّصِلُ بِاَلدِّيْنِ مِنْ نَاحِيَةِ اَلْعَمَلِ، فَإِذَا نَافَقَ فَقَدْ كَذَبَ؛ وَاَلْعَالَمُ يَتَّصِلُ بِاَلدِّيْنِ مِنْ نَاحِيَةِ اَلْعَمَلِ وَنَاحِيَةِ اَلتَّبَيِّنِ، فَإِذَا نَافَقَ فَقَدْ كَذَبَ وَغَشَّ وَخَانَ.

وَمَا مَعْنَى اَلْعِلْمَاءِ بِاَلشَّرْعِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَمْتَدَادٌ لِعَمَلِ النُّبُوَّةِ فِي اَلنَّاسِ دَهْرًا بَعْدَ دَهْرٍ، يَنْطَقُونَ بِكَلِمَتِهَا، وَيَقْوُمُونَ بِحُجَّتِهَا، وَيَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلَاقِهَا كَمَا تَأْخُذُ اَلْمَرَأَةُ اَلنُّوْرَ: تَحْوِيهِ فِي نَفْسِهَا وَتُلْقِيهِ عَلَى غَيْرِهَا، فَهِيَ أَدَاةٌ لِإِظْهَارِهِ وَإِظْهَارِ جَمَالِهِ مَعًا.

أَتَدْرِي يَا وَلَدِي مَا اَلْفَرْقُ بَيْنَ عِلْمَاءِ اَلْحَقِّ وَعِلْمَاءِ اَلسُّوِّ وَكُلُّهُمْ آخِذٌ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفُ؟ إِنَّ أَوَّلَكَ فِي أَخْلَاقِهِمْ كَأَللُوحِ مِنْ اَلْبُلُورِ: يُظْهِرُ اَلنُّوْرَ نَفْسَهُ فِيهِ وَيُظْهِرُ حَقِيقَتَهُ اَلْبُلُورِيَّةَ؛ وَهَؤُلَاءِ بِأَخْلَاقِهِمْ كَأَللُوحِ مِنْ اَلخَشَبِ يُظْهِرُ اَلنُّوْرَ حَقِيقَتَهُ اَلخَشْبِيَّةَ لَا غَيْرًا!

وَعَالَمُ اَلسُّوِّ يُفَكِّرُ فِي كِتَابِ الشَّرِيعَةِ وَحِذَاهَا؛ فَيَسْهَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَوَّلَ وَيَحْتَالَ وَيَغْيِيْرَ وَيُبَدِّلَ وَيُظْهِرَ وَيُخْفِي؛ وَلَكِنْ اَلْعَالَمُ اَلْحَقُّ يُفَكِّرُ مَعَ كِتَابِ الشَّرِيعَةِ فِي صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ، فَهُوَ مَعَهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ يَسْأَلُهُ مَاذَا تَفْعَلُ وَمَاذَا تَقُولُ؟

وَأَلْرَجُلُ اَلدِّيْنِي لَا تَتَحَوَّلُ أَخْلَاقُهُ وَلَا تَتَفَاوَتْ وَلَا يَجِيءُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ حَوَادِثِ اَلْيَوْمِ، فَهُوَ بِأَخْلَاقِهِ كُلِّهَا، لَا يَكُوْنُ مَرَّةً بِبَعْضِهَا وَمَرَّةً بِبَعْضِهَا، وَلَنْ تَرَاهُ مَعَ ذَوِي اَلسُّلْطَانِ وَأَهْلِ اَلْحُكْمِ وَاَلنَّعْمَةِ كَعَالَمِ اَلسُّوِّ هَذَا اَلَّذِي لَوْ نَطَقَتْ أَعْمَالُهُ لَقَالَتْ لِلَّهِ بِلِسَانِهِ: هُمْ يُعْطَوْنِي اَلدِّرَاهِمَ وَاَلدَّنَانِيْرَ فَأَيْنَ دِرَاهِمُكَ أَنْتَ وَدَّنَانِيْرُكَ؟

إِنَّ اَلدَّنَانِيَارَ يَا وَلَدِي إِذَا كَانَ صَحِيْحًا فِي أَحَدٍ وَجْهِيْهِ دُونَ اَلْآخَرِ، أَوْ فِي بَعْضِهِ دُونَ بَعْضِهِ، فَهُوَ زَانِفٌ كُلُّهُ؛ وَأَهْلُ اَلْحُكْمِ وَاَلْجَاهِ حِيْنَ يَتَعَامَلُونَ مَعَ هَؤُلَاءِ يَتَعَامَلُونَ مَعَ قُوَّةِ اَلهُزْمِ فِيهِمْ... فَيَنْزِلُونَ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ اَلْبِهَائِمِ: تَقْدَمُ أَعْمَالُهَا لِتَأْخُذَ لِيَطُوْنَهَا: وَاَلْبَطْنُ اَلْاَكْلُ فِي اَلْعَالَمِ اَلسُّوِّ يَأْكُلُ دِيْنََ اَلْعَالَمِ فِيْمَا يَأْكُلُهُ...

فَإِذَا رَأَيْتَ لِعِلْمَاءِ اَلسُّوِّ وَقَارًا فَهُوَ اَلْبِلَادَةُ، أَوْ رِقَّةٌ فَسَمُّهَا اَلضَّعْفُ، أَوْ

مُحَاسَنَةً فَقُلْ إِنَّهَا التَّفَاقُ، أَوْ سَكُوتًا عَنِ الظُّلْمِ فَتُكَلِّمُكَ رِشْوَةٌ يَأْكُلُونَ بِهَا!

قَالَ الْإِمَامُ: وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ شَيْخِي سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ عَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ فَلَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ شَيْئًا تَصْنَعُهُ طَبِيعَتُهُ كَمَا يَصْنَعُ جِسْمُهُ الْحَيَاةَ، فَلَا يُبَالِي هَلْكَ فِيهِ أَوْ عَاشَ، إِذْ هُوَ فِي الدِّمِ كَالْقَلْبِ: لَا تَنَالُهُ يَدُ صَاحِبِهِ وَلَا يَدُ غَيْرِهِ؛ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِمَالٍ وَلَا جَاهٍ وَلَا تَرْفٍ وَلَا نَعِيمٍ، فَكَانَ تَجَرُّدَهُ مِنْ أَوْهَامِ الْقُوَّةِ لَا تَغْلِبُ؛ وَانْتَزَعَ خَوْفَ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِهِ فَعَمَرَتْهُ الرُّوحُ السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي تُخَفِّفُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا تُخَافُ؛ وَكَانَ بِهَذِهِ الرُّوحِ كَأَنَّهُ تَحْوِيلٌ وَتَبْدِيلٌ فِي طِبَاعِ النَّاسِ، حَتَّى قَالَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْرْسُ وَقَدْ رَأَى كَثْرَةَ الْخَلْقِ فِي جَنَازَتِهِ حِينَ مَرَّتْ تَحْتَ الْقَلْعَةِ: أَلَا نَاسْتَقِرُّ أَمْرِي فِي الْمُلْكِ فَنِي، فَلَوْ أَنَّ هَذَا الشَّيْخَ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْخُرُوجِ عَلَيَّ لَا نَتَزَعُ مِنِّي الْمَمْلَكَةَ!

وَكَانَ سُلْطَانُهُ فِي دِمَشْقَ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ، فَاسْتَنْجَدَ^(١) بِالْإِفْرَنْجِ عَلَى الْمَلِكِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ سُلْطَانِ مِصْرَ؛ فَغَضِبَ الشَّيْخُ وَأَسْقَطَ أَسْمَ الصَّالِحِ مِنَ الْخُطْبَةِ وَخَرَجَ مُهَاجِرًا، فَاتَّبَعَهُ الصَّالِحُ بَعْضَ خَوَاصِّهِ يَتَلَطَّفُ^(٢) بِهِ وَيَقُولُ لَهُ: مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَعُودَ إِلَى مَنَاصِبِكَ وَمَا كُنْتَ عَلَيْهِ وَأَكْثَرَ مِمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ تَتَخَشَّعَ^(٣) لِلْسُلْطَانِ وَتُقْبَلَ يَدُهُ. فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: يَا مَسْكِينُ! أَنَا لَا أَرْضَى أَنْ يَقْبَلَ السُّلْطَانُ يَدِي! أَنْتُمْ فِي وَادٍ وَأَنَا وَادٍ!

ثُمَّ قَدِمَ إِلَى مِصْرَ فِي سَنَةِ ٦٣٩، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ وَتَحَفَّى^(٤) بِهِ وَوَلَّاهُ خُطَابَةَ مِصْرَ وَقَضَاءَهَا، وَكَانَ أَيُّوبُ مَلِكًا شَدِيدَ الْبَاسِ، لَا يَجْسُرُ^(٥) أَحَدٌ أَنْ يُخَاطَبَهُ إِلَّا مُجِيبًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ بِحَضْرَتِهِ أَبَدًا؛ وَقَدْ جَمَعَ مِنْ أَلْمَالِيكِ أَكْثَرَ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ مِثْلُهُ لِغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، حَتَّى كَانَ أَكْثَرُ أَمْرَاءِ عَسْكَرِهِ مِنْهُمْ، وَهُمْ مَعْرُوفُونَ بِالْخَشُونَةِ وَالْبَاسِ وَالْفِظَاطَةِ وَالْاِسْتِهَانَةِ بِكُلِّ أَمْرٍ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْعِيدِ صَعِدَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ وَهُوَ يَعْزُضُ الْجَنْدَ وَيُظَهِّرُ مُلْكَهُ وَسُطُوَتَهُ وَالْأَمْرَاءُ يَقْبَلُونَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَنَادَاهُ الشَّيْخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ لِيَسْمَعَ هَذَا أَلَمَلًا الْعَظِيمَ: يَا أَيُّوبُ! ثُمَّ

(١) استنجد: طلب المعونة والنجدة.

(٤) تحفى: استقبل بحفاوة.

(٢) يتلطف: يستميل.

(٥) لا يجسر: لا يجزؤ.

(٣) تتخشع: تخضع.

أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه في حانة تباع فيها الخمر؛ فرسم السلطان لوقتِهِ بإبطال الحانة واعتذر إليه .

فحدثني الباجي قال: سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر، فقلت: يا سيدي، كيف كانت الحال؟

قال: يا بُني، رأيته في تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره^(١) فكان ما باديته به .

قلت: أما خفته؟

قال: يا بُني، استحضرت هبة الله - تعالى - فكان السلطان أمامي كألقيط ولو أن حاجة من الدنيا كانت في نفسي لرأيته الدنيا كلها؛ بيد أنني نظرت بالآخرة فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا، بل هو لا شيء في صورة شيء .

نحن - يا ولدي - مع هؤلاء كالمعنى الذي يصحح معنى آخر، فإذا أمرناهم، فالذي يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان: وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها؛ فما بد أن يقابلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق في إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها؛ فإذا كان ذلك فهنا المعنى بإزاء المعنى؛ فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت .

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحطوط نفسه ومنافعها، فيكون باطلاً مزوراً في صورة الحق؛ وههنا تكون الذات مع الذات، فيخشع الضعف أمام القوة، ويذل الفقر بين يدي الغنى، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها؛ فإذا العالم من السلطان كالأخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع^(٢) السيف!

كلًا - يا ولدي -! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها، فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير؛ وإذا أنفتحت ألشوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخييط الذي فيها إذا هي لم تخزه؟

(١) ببطره: تغطيه .

(٢) تقارع: تصارع .

إِنَّ الْعَالَمَ الْحَقَّ كَالْمَسْمَارِ؛ إِذَا أُوْجِدَ الْمَسْمَارُ لَذَاتِهِ دُونَ عَمَلِهِ كَفَرَتْ بِهِ كُلُّ خَشْبَةٍ . . .

قَالَ الْإِمَامُ تَقِي الدِّينَ: وَطَغَى^(١) الْأَمْرَاءُ مِنَ الْمَمَالِيكِ وَثَقُلَتْ وَطَأْتُهُمْ عَلَى النَّاسِ؛ وَحَيْثُمَا وَجِدَتْ الْقُوَّةُ الْمُسَلِّطَةُ الْمُسْتَبَدَّةَ جَعَلَتْ طُغْيَانَهَا وَأَسْتَبْدَادَهَا أَدْبًا وَشَرِيعَةً؛ إِلَّا أَنْ تَقُومَ بِإِزَائِهَا قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ أَقْوَى مِنْهَا؛ فَفَكَّرَ شَيْخُنَا فِي هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءِ وَقَالَ: إِنَّ خِدَاعَ الْقُوَّةِ الْكَاذِبَةِ لِشُعُورِ النَّاسِ بَابٌ مِنَ الْفُسَادِ؛ إِذْ يَحْسِبُونَ كُلَّ حَسَنِ مِنْهَا هُوَ الْحَسَنُ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا فِي ذَاتِهِ وَلَا أَقْبَحَ مِنْهُ؛ وَيَزَوِّنُ كُلُّ قَبِيحٍ عِنْدَهَا هُوَ الْقَبِيحُ، وَإِنْ كَانَ حَسَنًا وَلَا أَحْسَنَ مِنْهُ.

وقال: ما معنى الإمارة والأمراء؟ وإنما قُوَّةُ الْكُلِّ الْكَبِيرِ هِيَ عِمَادُ الْفَرْدِ الْكَبِيرِ، فَلِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ هَذَا الْكُلِّ حَقُّهُ وَعَمَلُهُ؛ وَكَأَنَّ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْإِمَارَةُ أَعْمَالًا نَافِعَةً قَدْ كَثُرَتْ وَعَظُمَتْ فَاسْتَحَقَّتْ هَذَا الَّلَقَبَ بِطَبِيعَةٍ فِيهَا كَطَبِيعَةِ أَنَّ الْعَشْرَةَ أَكْثَرَ مِنَ الْوَاحِدِ، لَا أَهْوَاءَ وَشَهَوَاتٍ وَرذَائِلَ وَمَفَاسِدَ تَتَّخِذُ لِقَبَاهَا فِي الضَّعْفَاءِ بِطَبِيعَةٍ كَطَبِيعَةِ أَنَّ الْوَحْشَ مَفْتَرَسٌ.

وَفَكَّرَ الشَّيْخُ فِهْدَاهُ تَفَكِيرَهُ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءَ مَمَالِيكٌ، فَحَكَمَ الرُّقَّ مُسْتَضْحَبٌ عَلَيْهِمْ لِيَبْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَجِبُ شُرْعًا بِيَعُهُمْ كَمَا يُبَاغُ الرَّقِيقُ! وَبَلَّغَهُمْ ذَلِكَ فَجَزَعُوا لَهُ وَعَظَّمُ فِيهِ الْخُطْبُ عَلَيْهِمْ؛ ثُمَّ أَحْتَدَمُ^(٢) الْأَمْرَاءُ وَاقْنَعُوا أَنَّهُمْ بِإِزَاءِ الشَّرْعِ لَا بِإِزَاءِ الْقَاضِي ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ.

وَأَفْتَى الشَّيْخُ أَنَّهُ لَا يَصَحُّ لَهُمْ بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ وَلَا زَوَاجٌ وَلَا طَلَاقٌ وَلَا مُعَامَلَةٌ، وَأَنَّهُ لَا يَصَحُّ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا حَتَّى يُبَاغُوا وَيَحْصَلَ عِتْقُهُمْ بِطَرِيقٍ شَرْعِيٍّ!

ثُمَّ جَعَلُوا يَتَسَبَّبُونَ^(٣) إِلَى رِضَاهِ، وَيَتَحَمَّلُونَ عَلَيْهِ بِالْإِشْفَاعَاتِ، وَهُوَ مُصِرٌّ لَا يَعْأُ بِجَلَالَةِ أَخْطَارِهِمْ، وَلَا يَخْشَى اتِّسَامَهُ بِعِدَاوَتِهِمْ، فَرَفَعُوا الْأَمْرَ إِلَى السُّلْطَانِ، فَارْسَلُوا إِلَيْهِ فَلَمْ يَتَحَوَّنْ عَنْ رَأْيِهِ وَحُكْمِهِ.

وَأَسْتَشَنَعَ^(٤) السُّلْطَانُ فِعْلَهُ وَحَقَّقَ^(٥) عَلَيْهِ وَأَنْكَرَ مِنْهُ دَخُولَهُ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ،

(١) طغى: تجرّ.

(٤) استشنع: استقبح.

(٥) حقق: حقد.

(٢) احتدم: غضب.

(٣) يتسببون: يسعون.

وَقَبَّحَ عَمَلَهُ وَسِيَاسَتَهُ وَمَا تَطَاوَلَ إِلَيْهِ، وَهُوَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا نَفْسُهُ وَمَا تَكَادُ تَصِلُ
يَدُهُ إِلَى مَا يَقِيمُهُ وَهُمْ وَافِرُونَ وَفِي أَيْدِيهِمُ الْقُوَّةُ وَلَهُمُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ.

وَأَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الشَّيْخِ الْأَمَامِ فَغَضِبَ وَلَمْ يُبَالِ بِالسُّلْطَانِ وَلَا كِبَرِ عَلَيْهِ
إِعْرَاضُهُ^(١)، وَأَزْمَعَ الْهَجْرَةَ مِنْ مِصْرَ، فَأَكْتَرَى حَمِيرًا ارْكَبَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ عَلَيْهَا وَمَشَى
هُوَ خَلْفَهُمْ يُرِيدُ الْخُرُوجَ إِلَى الشَّامِ؛ فَلَمْ يَبْعُدْ إِلَّا قَلِيلًا نَحْوَ نَصْفِ بَرِيدٍ حَتَّى طَارَ
الْخَبَرُ فِي الْقَاهِرَةِ فَفَزِعَ النَّاسُ وَتَبَعُوهُ لَا يَتَخَلَّفُ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَلَا أَمْرَأَةٌ وَلَا صَبِيٌّ،
وَصَارَ فِيهِمُ الْعُلَمَاءُ وَالْأَصْلَحَاءُ وَالْتَّجَارُ وَالْمُحْتَرِفُونَ^(٢) كَأَنَّ خُرُوجَهُ خُرُوجُ نَبِيٍّ مِنْ
بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ؛ وَأَسْتَعْلَنَتْ قُوَّةُ الشَّرْعِ فِي مَظْهَرِهَا الْحَاكِمِ الْأَمْرِ مِنْ هَذِهِ
الْجُمَاهِيرِ، فَقِيلَ لِلْسُّلْطَانِ: إِنْ ذَهَبَ هَذَا الرَّجُلُ ذَهَبَ مُلْكُكَ!

فَارْتَاعَ^(٣) السُّلْطَانُ، فَرَكِبَ بِنَفْسِهِ وَلَحِقَ بِالشَّيْخِ يَتَرَضَّاهُ وَيَسْتَدْفِعُ بِهِ غَضَبَ
الْأُمَّةِ، وَأَطْلَقَ لَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِمَا شَاءَ، وَقَدْ أَقْنَى أَنَّهُ لَيْسَ رَجُلٌ الدِّينَارِ وَالْدِرْهَمِ وَالْعَيْشِ
وَالْجَاهِ وَلَيْسَ طِلْسَانِ الْعُلَمَاءِ كَمَا يَلْصُقُ الْرِيْشُ عَلَى حَجَرٍ فِي صُورَةِ الطَّائِرِ.

وَرَجَعَ الشَّيْخُ وَأَمَرَ أَنْ يُعْقَدَ الْمَجْلِسُ وَيُجْمَعَ الْأَمْرَاءُ وَيُنَادَى عَلَيْهِمْ
لِلْمَسَاوِمَةِ^(٤) فِي بَيْعِهِمْ، وَضَرَبَ لِذَلِكَ أَجَلًا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ قَدْ تَعَالَمَهُ كُلُّ
الْقَاهِرَةِ، لِيَتَهَيَّأَ مَنْ يَنْهَى لِلشَّرَاءِ وَالْكَسْبِ فِي هَذَا الرِّقَبِ الْغَالِي!

وَكَانَ مِنَ الْأَمْرَاءِ الْمَمَالِيكِ نَائِبُ السُّلْطَانَةِ، فَبَعَثَ إِلَى الشَّيْخِ يُلَاطِفُهُ
وَيَسْتَرْضِيهِ، فَلَمْ يَعْأَ الشَّيْخُ بِهِ؛ فَهَاجَ هَائِجُهُ وَقَالَ: كَيْفَ يَبِيعُنَا هَذَا الشَّيْخُ وَيُنَادِي
عَلَيْنَا وَيُنْزِلُنَا مِنْزِلَةَ الْعَبِيدِ وَيُفْسِدُ مَحَلَّتَنَا مِنَ النَّاسِ وَيَبْتَدِلُ أَقْدَارَنَا وَنَحْنُ مَمْلُوكُ
الْأَرْضِ؟ وَمَا الَّذِي يَفْقَدُ هَذَا الشَّيْخُ مِنَ الدُّنْيَا فَيُدْرِكُ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ إِنَّهُ يَفْقَدُ مَا لَا
يَمْلِكُ، وَيَفْقَدُ غَيْرَ الْمَوْجُودِ، فَلَا جَزَمَ لَا يُبَالِي وَلَا يَرْجِعُ عَنْ رَأْيِهِ مَا دَامَ هَذَا الرَّأْيُ
لَا يَمُرُّ فِي مَنَافِعِهِ، وَلَا فِي شَهَوَاتِهِ وَلَا فِي أَطْمَاعِهِ، كَالَّذِينَ نَرَاهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا؛
أَمَا - وَاللَّهِ - لَأَضْرِبَتْهُ بِسَيْفِي هَذَا، فَمَا يَمُوتُ رَأْيُهُ وَهُوَ حَيٌّ.

ثُمَّ رَكِبَ النَّائِبُ فِي عَسْكَرِهِ وَجَاءَ إِلَى دَارِ الشَّيْخِ وَأَسْتَلَّ سَيْفَهُ وَطَرَقَ الْأَبَابَ،

(١) إعراضه: بعده عنه.

(٢) المحترفون: أصحاب الحرف.

(٣) ارتاع: خاف.

(٤) المساومة: المناادة بالمزاد.

فخرجَ ابنُه عبدُ اللطيف ورأى ما رأى، فأنقلبَ إلى أبيه وقالَ له: انجُ بنفسِكَ، إنَّه الموت، وإنَّه السيف، وإنَّه وإنَّه...

فما أَكثَرَتْ^(١) الشَّيْخُ لِدَلكَ ولا جَزَعَ ولا تَغَيَّرَ، بَلْ قالَ لَهُ: يا ولدي! أبوك أَقلُّ من أن يُقتَلَ في سبيلِ اللَّهِ!

وخرجَ لا يعرفُ الحَيَاةَ ولا المَوتَ، فليسَ فيهِ الإنسانِي بلِ الإِلَهِي؛ ونظرَ إلى نائبِ السُّلطانَةِ وفي يَدِهِ السَّيفَ، فأنطَلَقَتْ أشعُ عَينِيهِ في أعصابِ هذه اليَدِ فيبَسُتُ وورِقَ السَّيفِ منها.

وتناولَهُ بروحِهِ القَوِيَّةَ، فأضطربَ الرَّجُلُ وتزلزلَ وكأنَّما تكسَّرَ من أعصابِهِ فهو يُرَعَدُ ولا يستقرُّ ولا يهدأ.

وأخذَ النَّائبُ يَبْكِي ويسألُ الشَّيْخَ أنْ يدعُوَ لَهُ؛ ثُمَّ قالَ: يا سيدي، ما تصنعُ بنا؟

قالَ الشَّيْخُ: أنادي عليكم وأبيعكم!

- وفيمَ تصرُفُ ثَمَنًا؟

- في مَصالِحِ المُسلمين.

- ومَن يقبُضُه؟

- أنا.

وكانَ الشَّرْعُ هو الَّذي يقولُ (أنا)، فتمَّ لِلشَّيْخِ ما أرادَ، ونادى على الأُمراءِ واحدًا واحدًا، واشتطَّ^(٢) في ثَمَنِهِم، لا يبيِعُ الواحدَ منهم حتى يبلغَ الثَّمَنُ آخرَ ما يبلغُ؛ وكانَ كُلُّ أميرٍ قد أعدَّ من شِيعَتِهِ جماعةً يستامونَهُ ليشتروه...

ودمَعُ^(٣) الظُّلُمُ والْتِفَاقُ والطَّغيانُ والتَّكَبُّرُ والاستِطالةُ على النَّاسِ بهذهِ الكَلِمَةِ الَّتِي أعلنَها الشَّرْعُ:

أُمراءُ لِلبيعِ! أُمراءُ لِلبيعِ.

(١) اكثرت: اهتم.

(٢) اشتطَّ: بالغ.

(٣) دمَع: طبع.

العجوزان

١

قال محدثي: التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة، وكانت مباحثتهما^(١) ذلك المكان ألقائهم على شاطئ البحر في إسكندرية في جهة كذا؛ وهما صديقان كانا في صدر أيامهما - حين كانت لهما أيام... - رجلي حكومة يعملان في ديوان واحد، وكانا في عيشهما أخوين جد وهزل^(٢)، فضائل وذرائل، يجتمعان دائماً اجتماع السؤال والجواب، فلا تنقطع وسيلة أحدهما من الآخر؛ وكان بينهما في الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة والدعوة من الدعوة.

ولبنا كذلك ما شاء الله، ثم تبددا وأخذتُهما أفاق كدأب الموظفين: ينتظمون وينتثرون، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى، وكان الموظف من تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾!

وأفترق الصديقان على مضض^(٣)، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض موظفيها هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض؛ ثم تصرفت بهما الدنيا فذهبا على طرفي طريق لا يلتقيان، وأصبح كلاهما من الآخر كيوميه الذي مضى: يحفظ ولا يُرى.

قال المحدث: وكنت مع الأستاذ (م)، وهو رجل في السبعين من عمره، غير أنه يقول عن نفسه إنه شاب لن يبلغ من العمر إلا سبعين سنة... وبزعم أن في جسمه الناموس الأخضر الذي يحيي الشجرة حياة واحدة إلى الآخر.

رجل فارة^(٤)، متأنق، فاخر البزة، جميل السمّت، فارغ الشطاط^(٥)

(١) مباحثتهما: مكان لقائهما.

(٢) هزل: مراح.

(٣) مضض: كره، بالرغم عنهما.

(٤) فاره: ممتشق القامة.

(٥) فارغ الشطاط: ممشوق القامة.

كَالْمَصْبُوبِ فِي قَالِبٍ لَا عَوَجَ فِيهِ وَلَا انْحِنَاءَ، مُجْتَمِعٌ كُلُّهُ لَمْ يَذْهَبْ مِنْهُ شَيْءٌ، قَدْ حَفِظْتُهُ أَسَالِيبُ الْقُوَّةِ الَّتِي يُعَانِيهَا فِي رِيَاضَتِهِ الْيَوْمِيَّةِ؛ وَهُوَ مِنْذُ كَانَ فِي آنَفَتِهِ^(١) وَشَبَابِهِ لَا يَمِشِي إِلَّا مُسْتَأَخِرَ الصَّدْرِ^(٢) مُشْدُودَ الظَّهْرِ، مُرْتَفِعَ الْعُنُقِ، مُسْنَدًا قَفَاهُ إِلَى طَوْقِهِ؛ وَبِذَلِكَ شَبَّ وَشَابَ عَلَى أَسْتَوَاءٍ وَاحِدٍ، وَكُلَّمَا سُئِلَ عَنْ سِرِّ قَامَتِهِ وَعُودِهِ لَمْ يَزِدْ عَلَى قَوْلِهِ: أَنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ إِسْنَادٍ أَلْفَا^(٣)

وَهُوَ دَائِمًا عَطَرَ عَبَقَ، ثُمَّ لَا يَمِشُ إِلَّا عِطْرًا وَاحِدًا لَا يُغَيِّرُهُ، يَرَى أَنَّ هَذَا الطَّيِّبَ يَحْفَظُ خَيَالَ الصَّبِيِّ، وَأَنَّهُ يُبْقِي لِلْأَيَّامِ رَانِحَتَهَا.

وَلَهُ فِلَسَفَةٌ مِنْ حِسِّهِ لَا مِنْ عَقْلِهِ، وَلِفِلَسَفَتِهِ قَوَاعِدُ وَأَصُولٌ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ، وَمِنْ بَعْضِ قَوَاعِيدِهَا الْزَهْرُ، وَمِنْ بَعْضِهَا الْمَوْسِيقَى، وَمِنْ بَعْضِهَا الصَّلَاةُ أَيْضًا؛ وَكُلُّ تِلْكَ هِيَ عِنْدَهُ قَوَاعِدُ لِحَفِظِ الشَّبَابِ. وَمِنْ فِلَسَفَتِهِ أَنَّ مَبَادِيءَ الشَّبَابِ وَعَادَاتِهِ إِذَا هِيَ لَمْ تَتَغَيَّرْ أَتَصَلَّ الشَّبَابُ فِيهَا وَأَطْرَدَ^(٤) فِي الرُّوحِ، فَتَكُونُ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةٌ تَحْرُسُ قُوَّةَ اللَّحْمِ وَالْأَدَمِ، وَتُمْسِكُ عَلَى الْجِسْمِ حَالَتَهُ النَّفْسِيَّةَ الْأُولَى.

وَهُوَ يَزِيدُ فِي حِكْمَةِ الصَّلَاةِ فِكْرَةً رِيَاضِيَّةً عَمَلِيَّةً لَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْهَا أَحَدٌ، هِيَ رِيَاضَةُ الْبَطْنِ وَالْأَمْعَاءِ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْقِيَامِ؛ وَيَقُولُ إِنَّ ثَرَوَةَ الصَّلَاةِ تُكْتَنَزُ فِي صِنْدُوقَيْنِ: أَحَدُهُمَا الرُّوحُ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْآخَرُ الْبَطْنُ لِمَا قَبْلَ الْمَوْتِ؛ وَيَرَى أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَفْرَضْ صَلَاةً الصَّبَحِ قَبْلَ الشَّمْسِ إِلَّا لِجَعْلِ الْفَجْرِ يَنْصُبُ فِي الرُّوحِ كُلَّ يَوْمٍ.

قَالَ الْمُحَدِّثُ: وَبَيْنَمَا نَحْنُ جَالِسَانِ مَرَّ بَنَا شَيْخٌ أَعْجَفُ^(٥) مَهْزُولٌ مَوْهُونٌ فِي جِسْمِهِ، يَذْلُفُ^(٦) مُتَقَاصِرَ الْخَطْوِ كَأَنَّ جَنْلَ السَّنِينِ عَلَى ظَهْرِهِ، مُرْعَشٌ^(٧) مِنَ الْكِبَرِ، مُسْتَقْدِمُ الصَّدْرِ مَنْحِنٍ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَا، وَبِدَلِّ انْحِنَاؤُهُ عَلَى أَنَّ عُمْرَهُ قَدْ أَعْوَجَ أَيْضًا، وَهُوَ يَبْدُو فِي ضَعْفِهِ وَهْزَالِهِ كَأَنَّ ثِيَابَهُ مُلِثَتْ عِظَامًا لَا إِنْسَانًا، وَكَأَنَّهَا مَا خِيطَتْ إِلَّا لِتُمْسِكَ عِظْمًا عَلَى عِظَمٍ...

(١) آنفته: سالف أيامه.

(٢) مستأخر الصدر: بارز الصدر دلالة على الشباب وفتحته.

(٣) إسناد القفا: كتابة عن انتصاب القامة.

(٤) أطرد: يمشي.

(٥) أعجف: استمر.

(٦) يذلف: مرتجف.

(٧) مرعش: هزبل جفت عروقه.

قال: فحملت^(١) إليه (م) ثُمَّ صَاحَ: رينا! رينا. فَالْتَفَتَ الْعَجُوزُ، وَمَا كَاذَ
 بِأَخْذِنَا بَصْرُهُ حَتَّى أَنْفَلَتْ إِلَيْنَا وَأَقْبَلَ ضَاحِكاً يَقُولُ: أَوْه! . ريت، ريت!
 ونهض (م) فَاحْتَضَنَهُ وَتَلَا زَمًا طَوِيلًا، وَجَعَلَ رَأْسَاهُمَا يَدُورَانِ وَيَتَطَوَّرَانِ،
 وَكِلَاهُمَا يَقْبَلُ صَاحِبَهُ قُبَلًا ظَامِئَةً لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلِهَا فِي صَدِيقَيْنِ، حَتَّى يَتَخَيَّلُ إِلَيَّ
 أَنَّهُمَا لَا يَتَعَانِقَانِ وَلَا يَتَلَاثِمَانِ، وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا فِكْرَةٌ يَتَتَقَانِهَا وَيَقْبَلَانِهَا مَعًا.
 وَقُلْتُ: مَا هَذَا أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ؟

فَضَحَكَ (م) وَقَالَ: هَذَا صَدِيقِي الْقَدِيمُ (ن)، تَرَكْتُهُ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مُعْجَزَةً
 مِنْ مُعْجَزَاتِ الشَّبَابِ، فَهَا هُوَ ذَا مُعْجَزَةٍ أُخْرَى مِنْ مُعْجَزَاتِ الْهَرَمِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ
 كَامِلًا إِلَّا اسْمُهُ...
 ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا رِينَا؟

قَالَ الْعَجُوزُ (ن): لَقَدْ أَصْبَحْتُ كَمَا تَرَى: زَادَ الْعَمُرُ فِي رَجُلِي رَجُلًا مِنْ هَذِهِ
 الْعَصَا. وَرَجَعَ مَصْدَرُ الْحَيَاةِ فِيَّ مَصْدَرًا لِلْأَلَامِ وَالْأَوْجَاعِ وَدَخَلْتُ فِي طَبِيعَتِي عَادَةً
 رَابِعَةً مِنْ تَعَاظِي الدَّوَاءِ.

فَضَحَكَ (م) وَقَالَ: قَبِحَ اللَّهُ هَذِهِ الدَّخِيلَةَ، فَمَا هِيَ الْعَادَاتُ الثَّلَاثُ الْأَصْلِيَّةُ؟
 قَالَ الْعَجُوزُ: هِيَ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ وَالنُّوْمُ... ثُمَّ أَنْتَ يَا رَيْتَ كَيْفَ تَقْرَأُ
 الصَّحْفَ الْآنَ؟

قَالَ (م): أَقْرَأُهَا كَمَا يَقْرَأُهَا النَّاسُ، فَمَا سَوَالُكَ عَنْ هَذَا؟ وَهَلْ تَقْرَأُ
 الصَّحْفَ يَوْمًا غَيْرَ مَا تَقْرَأُ فِي يَوْمٍ؟

قَالَ: آه! أَنْ أَوَّلَ شَيْءٍ أَقْرَأُ فِي الصَّحْفِ أَخْبَارُ الْوَفَايَاتِ، لِأَرَى بَقَايَا الدُّنْيَا،
 ثُمَّ (إِعْلَانَاتِ الْأَدْوِيَةِ). وَلَكِنْ كَيْفَ أَنْتَ يَا رَيْتَ؟ إِنِّي لَأَرَاكَ مَا تَزَالُ مِنْ وَرَاءِ
 أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي ذَلِكَ الْعَيْشِ الرَّخِيِّ، وَأَرَاكَ تَحْمِلُ شَيْخُوخَتَكَ بِقُوَّةٍ كَأَنَّ الدَّهْرَ لَمْ
 يَخْرُتْكَ^(٢) مِنْ هُنَا وَلَا مِنْ هُنَا، وَكَأَنَّهُ يَلْمُسُكَ بِأَصَابِعِهِ لَا بِمَسَامِيرِهِ، فَهَلْ أَصْبَتْ
 مُعْجَزَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ؟
 قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: نَاشِدْتُكَ اللَّهَ، أَفِي مُعْجَزَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ مُعْجَزَةٌ لِعَظَمِي؟

(١) حملت: نظر باستغراب وإيمان.
 (٢) يخرمك: يند منك وينقصك.

قال (م): ويحك يا رينا! إنك على العهد لم تبرخ كما كنت منزلة أفكار... ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما أرى بمنزلة بين العظم والخشب. ؟



قال المحدث: وضحكنا جميعاً، ثم قلتُ للأستاذ (م): ولكن ما (رينا) وريت(؟). وما هذه اللغة؟. وفي أي مُعْجَمٍ تفسرها؟

قال: فتعالمز الشيخان، ثم قال (م): يا بُني، هذه لغة ماتت معانيها وبقيت ألفاظها، فهي كتلك الألفاظ الأثرية الباقية من الجاهلية الأولى.

قلت: ولكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما... ولا يزال كل شاب في هذه الجاهلية الأولى، وما أحسب (رينا، وريت) في لغتيكما القديمة إلا بمعنى (سوسو، وزوزو) في اللغة الحديثة؟

فقال (م): اسمع يا بُني: إن رجل سنة ١٩٣٥ متى سأل في رجل سنة ١٨٩٥: ما معنى رينا وريت؟ فرد عليه: إن (رينا) معناها (كاترينا)؛ وكان (ن) بها صبة^(١) مغزماً، وكان مُقتلاً قتله حبها. أما (ريت) فهو لا يعرف معناها.

فامتعض العجوز (ن)، وقال: سبحان الله! اسمع يا بُني: أن رجل سنة ١٨٩٥ في يقول لك: إن (ريت) معناها (مرغريت)، وكانت الجوى الباطن وكانت اللوعة والحريق الذي لا ينطفئ في قلب الأستاذ (م).

قلت: فأنتما أيها العجوزان من عشاق سنة ١٨٩٥، فكيف تريان الحب الآن؟ قال العجوز (ن): يا بُني، إن أواخر العمر كالمفنى. ونحن نتكلم بالآلفاظ التي تتكلم بها أنت وأنتما وأنتم... غير أن المعاني تختلف اختلافاً بعيداً. قلت: وأضرب لهم مثلاً.

قال: وأضرب لهم مثلاً كلمة (الأكل)، فلها عندنا ثلاثة معانٍ: الأكل، وشوء الهضم، ووجع المعدة؛ وكلمة (المشي) فلها أيضاً ثلاثة معانٍ: المشي، والتعب، وغمزات العظم... وكلمة (النسيم)، النسيم العليل يا بُني: زيد لنا في معناها: تحرك (الروماتزم)...

فضحك (م) وقال: يا «شيخ»...

(١) صبة: عاشقاً.

قالَ العَجُوزُ: وتلك الزيادةُ يا بُنَيَّ لا تَجِيءُ إِلَّا من نَقْصٍ، فهنا بَقِيَّةٌ من يَدَيْنِ، وبَقِيَّةٌ من رِجْلَيْنِ، وبَقِيَّةٌ من بطنٍ، وبَقِيَّةٌ من ومن ومن، ومجموعُ كُلِّ ذلك بَقِيَّةٌ من إنسانٍ.

قالَ الأستاذ (م): والْبَقِيَّةُ في حَيَاتِكَ.

قال (ن): وبِالْجَمْلَةِ يا بُنَيَّ فَإِنَّ حَرَكَةَ الْحَيَاةِ في الرَّجْلِ الْهَرِمِ تَكُونُ حَوْلَ ذَاتِهَا لا حَوْلَ الْأَشْيَاءِ؛ وما أعجَبَ أَنْ تَكُونَ أَقْصَرَ حَرَكَتِي الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا كذلك، وإذا قالَ أَكْشَابٌ في مِغَامِرَتِهِ: لِيَمِضِ الزَّمَنُ وَلْتَتَصَرَّمِ الْأَيَّامُ! فَإِنَّ الْأَيَّامَ هِيَ الَّتِي تَتَصَرَّمُ وَالزَّمَنُ هُوَ الَّذِي يَمِرُّ؛ أَمَّا الشَّيْخُ فَلَنْ يَتِمَّنُوهُ أَبَدًا؛ فَمَنْ قالَ مِنْهُمْ: لِيَمِضِ الزَّمَنُ، فَكأنَّما قالَ: فَلَا مِضَ أَنَا...

فصاح (م): يا شيخ يا شيخ...

ثم قالَ العَجُوزُ: وأَعْلَمُ يا بُنَيَّ أَنَّ الْعِلْمَ نَفْسَهُ يَهْرُمُ مَعَ الرَّجْلِ الْهَرِمِ، فَيُصْبِحُ مِثْلَهُ ضَعِيفًا لَا عَنَاءَ عِنْدَهُ وَلَا جِيلَةً لَهُ؛ وَكُلُّ مِصْنَعٍ لِنَكْشِيرٍ وَمِصْنَعٍ بَنِكَ مِصْرَ وَالْيَابَانِ وَالْأَمْرِيكِيِّينَ، وما بَقِيَ من مِصْنَعِ الدُّنْيَا، لا فائدةٌ من جَمِيعِهَا؛ فَهِيَ عَاجِزَةٌ أَنْ تَكْشُو عِظَامِي...

قالَ الْمُحَدِّثُ: فَفَهَقَةُ الْأَسْتَاذِ (م)، وقالَ: كَذْتُ - وَاللَّهِ - أَتَخَشَّبُ من هذا الْكَلَامِ، وَكَادَتْ مَعَانِي الْعَظَمِ تَخْرُجُ من عِظَامِي؛ لَقَدْ كَانَ الْمُتَوَحِّشُونَ حُكَمَاءَ في أَمْرِ شَيْوَجِهِمْ، فَإِذَا عَلَتِ أَلْسُنُ بَجَمَاعَةٍ مِنْهُمْ لَمْ يَتْرَكُوهُمْ أَحْيَاءَ إِلَّا بِأَمْتَحَانٍ، فَهَمَّ يَجْمَعُونَهُمْ وَيُلْجِثُونَهُمْ إِلَى شَجَرَةٍ عَظْمَةٍ لِيَنَ الْمَهْرَةَ، فَيُكْرَهُونَهُمْ أَنْ يَصْعَدُوا فِيهَا ثُمَّ يَتَدَلَّوْا مِنْهَا وَقَدْ عَلِقَتْ أَيْدِيهِمْ بِأَغْصَانِهَا؛ فَإِذَا صَارُوا عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ اجْتَمَعَ الْأَشْدَاءُ مِنْ فِتْيَانِ الْقَبِيلَةِ فَيَأْخُذُونَ بِجَذْعِ الشَّجَرَةِ يَرْجُونَهَا وَيَنْفُضُونَهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ؛ فَمَنْ ضَعُفَتْ يَدَاؤُهُ مِنْ أَوْلَئِكَ الشَّيْخِ أَوْ كَلَّتْ حَوَامِلُ ذِرَاعِيهِ فَأَفْلَتَ الْغَصَنَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ فَوَقَعَ، أَخَذُوهُ فَأَكَلُوهُ؛ وَمَنْ اسْتَمْسَكَ أَنْزَلُوهُ فَأَمْهَلُوهُ إِلَى حِينٍ!

فَأَقْشَعُرُ الْعَجُوزُ (ن)، وقالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ! هَذِهِ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الْجَحِيمِ، وَلَعْنَتُهَا أَلُّهُ من حِكْمَةٍ، فَإِنَّمَا يَطْبَخُونَهُمْ فِي الشَّجَرَةِ قَبْلَ الْأَكْلِ، أَوْ هَمَّ يَجْعَلُونَهُمْ كَذَلِكَ لِيَتَوَهَّمُوهُمْ طُيُورًا فَيَكُونُ لِحَمِّهِمْ أَطِيبٌ وَالذَّ، وَيَتَسَاقُطُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّجَرَةِ حَمَائِمَ وَعَصَافِيرَ.

قال (م): إِنَّ كَانَ فِي الْوَحْشِيَّةِ مَنْطِقٌ فَلَيْسَ فِي هَذَا الْمَنْطِقِ (بَابُ لَمْ)، وَلَا «بَابُ كَيْفٍ»، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ أَنْ يَأْكُلُوهُمْ لِأَكْلِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْبِيَّةُ الطَّبِيعَةِ لِأَهْلِ الطَّبِيعَةِ؛ فَإِنَّ رُؤْيَا الرَّجُلِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَهَزَّهَا وَعَاقَبَتَهَا يُبْعَدُ عَنْهُ الضَّعْفُ وَالْتَحَلُّلُ، وَيُدْفَعُ إِلَى مُعَانَاةِ الْقُوَّةِ، وَيَزِيدُ نَفْسَهُ انْتِشَاراً عَلَى الْحَيَاةِ وَطَمَعاً فِيهَا وَتَنْشِطاً لِأَسْبَابِهَا، فَيَكُونُ سَاعِدُهُ آخَرَ شَيْءٍ يَهْرَمُ، وَلَا يَزَالُ فِي الْحِدَّةِ وَالنَّشَاطِ وَالْوُثْبَانِ؛ فَلَا يَعْجُزُ قَبْلَ يَوْمِهِ الطَّبِيعِيِّ، وَيَكُونُ الْمَتَوَحِّشُونَ بِهَذَا قَدْ أَحْتَالُوا عَلَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَأَضْطَرُّوْهَا إِلَى مَجْهُودِهَا، وَأَكْرَهُوْهَا عَلَى أَنْ تَبْذُلَ مِنَ الْقُوَّةِ آخَرَ مَا يَسُغُ الْجِسْمَ.

قال (ن): فَتَنَمَّ إِذَنْ، وَلَعَنَّ اللَّهَ مَعَانِي الضَّعْفِ؛ كَذْتُ - وَاللَّهِ - أَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا شَابًّا، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مَتَوَحِّشًا تَخَافُ أَنْ تُؤْكَلَ، فَتَظَلُّ شَيْخًا رَجُلًا لَا شَيْخًا طِفْلًا، وَتَرَى الْعَمَرَ كَمَا يَرَى الْبَخِيلُ ذَهَبًا: مَهْمَا يَبْلُغُ فَكَثْرَتُهُ غَيْرُ كَثِيرَةٍ.

قَالَ الْمُحَدِّثُ: وَأَضْجَرْنِي حَوَارُهُمَا، إِذْ لَمْ يَعْذُ فِيهِ إِلَّا أَنْ جَسَمَ هَذَا يَرُدُّ عَلَى جَسَمِ هَذَا؛ وَإِنَّمَا الشَّيْخُ مِنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ زَمَانٌ يَتَكَلَّمُ وَيَقْضُ وَيَعْطُ وَيَنْتَقِدُ، وَلَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ مَعَكَ فِي حَقِيقَتِهِ إِنْ لَمْ تَرْحَلْ أَنْتَ فِيهِ إِلَى دُنْيَا قَدِيمَةٍ؛ فَقُلْتُ لَهُمَا: أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ! أُرِيدُ أَنْ أَسَافَرَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥...

العجوزان

٢

قال محدثي: ولما قلت لهما: أيها العجوزان، أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥
ننظر إليّ العجوز الظريف (ن)، وقال: يا بُني، أحسب رؤيتك إياي قد دنت بك من
الآخرة... فتريد أن نلوذ بأخبار شبابنا لنتنظر إلينا وفيما روح الدنيا.

قال الأستاذ (م): وكيف لا تُريه الآخرة وأكثرك الآن في «المجهول»؟.

قال: ويحك يا (م)! لا تزال على وجهك مسحة من الشيطان هنا وهنا؛
كأن الشيطان هو الذي يُصلح في داخلك ما اختل من قوانين الطبيعة، فلا
تستبين فيك السن وقد نيفت^(١) على السبعين، وما أحسب الشيطان في تنظيفك
إلا كألدي يكس بيته...

قال (م): فانت أيها العجوز الصالح بيت قد تركه الشيطان وعلق عليه كلمة (للإيجار)...

فضحك (ن)، وقال: تالله إن الهرم لهُوَ إعادة درس الدنيا، وفهمها مرة
أخرى فهماً لا خطأ فيه؛ إذ ينظر الشيخ بالعين الطاهرة، ويسمع بالأذن الطاهرة،
ويلمس باليد الطاهرة... وتالله إن الشيطان لا معنى له إلا أنه وقاحة الأعصاب.

قال (م): فانت أيها العجوز الصالح إنما أصبحت بلا شيطان لأن الهرم قد
أذب أعصابك...

قال العجوز الظريف: وعند من غيرنا - نحن الشيوخ - تطاع الأوامر والنواهي
الآدبية حق طاعتها؟ عند من غير الشيوخ تقدس مثل هذه الحكيم العالية: لا تعتد
على أحد. لا تُفسد امرأة على زوجها...

(١) نيفت: زادت.

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَضَحَكْنَا جَمِيعاً ، وَكَانَ الْعَجُوزُ (ن) مِنْ آيَاتِ فِي الظَّرْفِ وَالنَّكْتَةِ ، فَقَالَ : تَظُنُّنِي يَا بُنَيَّ فِي السَّبْعِينَ ؟ قَوْلَاللَّهِ مَا أَنَا بِجَمَلْتِي فِي السَّبْعِينَ ، وَاللَّهِ وَاللَّهُ .

قَالَ (م) : لَقَدْ أَهْتَرَ الشَّيْخُ يَا بُنَيَّ ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ خَرَفِهِ فَلَا تَصَدِّقْهُ .

قَالَ (ن) : وَاللَّهِ مَا خَرِفْتُ وَمَا قُلْتُ إِلَّا حَقًّا ، فَهَهُنَا مَا عَمَرُهُ خَمْسُ سِنَوَاتٍ فَقَطْ ، وَهُوَ أَسْتَانِي .

قُلْتُ : «وَرَيْنَا وَرَيْتَ» وَسَنَةِ ١٨٩٥ ؟

قَالَ الْأَسَازُ (م) : أَنْتَ يَا بُنَيَّ مِنَ الْمَجْدُودِينَ ، فَمَا هَوَاكَ فِي الْقَدِيمِ وَمَا شَأْنُكَ بِهِ ؟

وَمَا كَادَ الْعَجُوزُ (ن) يَسْمَعُ هَذَا حَتَّى طَرَفَ بَعِينِيهِ وَحَدَّدَ بَصَرَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : أَنْتَكَ لَأَنْتَ هُوَ ؟ لَعَمْرِي إِنَّ فِي عَيْنِكَ لَضَجِيجًا وَكَذِبًا وَجِدَالًا وَآخْتِيَالًا وَزَعْمًا وَدَعْوَى وَكُفْرًا وَإِلْحَادًا ؛ وَلَعَمْرِي . . .

فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ : «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْصُونَ» ، لَقَدْ وَقَعَ التَّجْدِيدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي الشُّيُوخِ أَجْسَامًا وَالشُّيُوخِ عَقُولًا ؛ فَهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ عِنْدَ الْنَهَايَةِ ، وَغَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ مِنْ ضَعْفِهِمْ أَنْ يَدِينُوا بِالْمَاضِي ، فَإِنَّ حَيَاتِهِمْ لَا تَمْلُسُ الْحَاضِرَ إِلَّا بِضَعْفٍ !

قَالَ الْعَجُوزُ : رَحِمَ اللَّهُ الشَّيْخَ (ع) ؛ كَانَ هَذَا يَا بُنَيَّ رَجُلًا يَنْسَخُ لِلْعُلَمَاءِ فِي زَمَنِ الْقَدِيمِ ، وَكَانَ يَأْخُذُ عَشْرَةَ قُرُوشٍ أَجْرًا عَلَى الْكَرَاسَةِ^(١) الْوَاحِدَةِ ، وَهُوَ رَدِيءُ الْخَطِّ ، فَإِذَا وَرَّقٌ لِأَدِيبٍ ، وَلَمْ يُعْجِبْهُ خَطُّهُ فَكَلَّمَهُ فِي ذَلِكَ تَعَلَّقَ الشَّيْخُ بِهِ وَطَالَبَهُ بِعِشْرِينَ قِرْشًا عَنِ الْكَرَاسَةِ ؛ مِنْهَا عَشْرَةٌ لِلْكِتَابَةِ ، وَعَشْرَةٌ غَرَامَةٌ لِإِهَانَةِ الْكِتَابَةِ . . .

نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، إِنَّ لِلْمَاضِي فِي قُلُوبِنَا مَوَاقِعَ يَنْزِلُ فِيهَا فَيَتِمَّكُنْ ، وَلَكِنَّ قَاعِدَةَ (اِثْنَانِ وَاثْنَانِ أَرْبَعَةٍ) ، لَا تُعَدُّ فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْحَاضِرِ وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَالْحَقِيقَةُ بِنَفْسِهَا لَا بِأَسْمِهَا ؛ وَلَيْسَتْ تَحْتَاجُ أَنْزَارًا إِلَى ثَوْبِ الْمَرَأَةِ إِلَّا فِي رَأْيِ الْمَغْفَلِ .

قَالَ الْأَسَازُ (م) : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْعَجُوزُ : زَعَمُوا أَنَّ مَغْفَلًا كَانَ يَرَى أَمْرَأَتَهُ تُضْرِبُ الْحَطَبَ فَتَنْفُخُ فِيهِ حَتَّى يَشْتَعَلَ ، فَأَحْتَاجُ يَوْمًا فِي بَعْضِ شَأْنِهِ إِلَى نَارٍ ، وَلَمْ تَكُنْ أَمْرَأَتُهُ فِي دَارِهَا فَجَاءَ

(١) الْكَرَاسَةُ : الدَّفْعُ .

بِالْحَطْبِ وَأَضْرَمَ فِيهِ وَجَعَلَ يَنْفُخُ، وَكَانَ الْحَطْبُ رَطْبًا فَدَخَنَ وَلَمْ يَشْتَعْلَ، فَفَكَّرَ الْمَغْفَلُ قَلِيلًا ثُمَّ ذَهَبَ فَلَيْسَ ثَوْبَ أَمْرَاتِهِ وَعَادَ إِلَى النَّارِ، وَكَانَ الْحَطْبُ قَدْ جَفَّ فَلَمْ يَكْذُ يَنْفُخُ حَتَّى اشْتَعَلَ وَتَضَرَّمَ؛ فَأَيَقَنَ الْمَغْفَلُ أَنَّ النَّارَ تَخَافُ أَمْرَاتِهِ... وَأَنَّهَا لَا تَتَضَرَّمُ إِلَّا إِذَا رَأَتْ ثَوْبَهَا!

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م): إِنَّ الْكَلَامَ فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ أَصْبَحَ عِنْدَنَا كَفَنُونَ الْحَرْبِ تُبَدِّعُ مَا تُبَدِّعُ لِتَغْيِيرِ مَا لَا يَتَغَيَّرُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ، وَعَلَى مَا بَلَغَتْ وَسَائِلُ الْمَوْتِ فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ فَلِإِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُمَيِّتَ أَحَدًا مَرَّتَيْنِ.

لَقَدْ قَرَأْتُ يَا بُنَيَّ كَثِيرًا فَلَمْ أَرْ إِلَى الْآنَ مِنْ آثَارِ الْمَجْدِدِينَ عِنْدَنَا شَيْئًا ذَا قِيَمَةٍ؛ مَا كَانَ مِنْ هَرَاءٍ وَتَقْلِيدٍ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ، وَمَا كَانَ جِدْدًا فَهُوَ كَالنَّفَاسِ فِي مِلْكِ الْأَلَصِّ: لَهَا عِبَارَاتٌ، إِنَّ كَانَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ مَقْتِنِيهَا... فَالْآخِرُ عِنْدَ الْقَاضِي.

كَلَّا أَيُّهَا الْأَلَصِّ، لَنْ تَسْمَى مَالِكًا بِهَذَا الْأَسْلُوبِ؛ إِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ تَسْخَرُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الْحَقِّ وَمِنَ نَفْسِكَ.

يَقُولُونَ: الْعِلْمُ وَالْفَنُّ وَالْغَرِيزَةُ وَالشَّهْوَةُ وَالْعَاطِفَةُ وَالْمَرْأَةُ وَحَرِيَّةُ الْفِكْرِ وَاسْتِقْلَالُ الْأَرَأْيِ وَنَبْذُ التَّقَالِيدِ وَكَسْرُ الْقِيُودِ، إِلَى آخِرِهِ وَإِلَى آخِرِهَا... فَهَذَا كُلُّهُ حَسَنٌ مَقْبُولٌ سَائِغٌ^(١) فِي الْوَرَقِ إِنْ كَانَ فِي مَقَالَةٍ أَوْ قِصَّةٍ، وَهُوَ سَائِغٌ كَذَلِكَ حِينَ يَنْحَصِرُ فِي حَدُودِهِ الْكُنْيَ تَصْلُحُ لَهُ مِنْ ثِيَابِ الْمُمَثِّلِينَ أَوْ مِنْ بَعْضِ الْأَنْفُوسِ الَّتِي يُمَثِّلُ بِهَا الْقَدَرُ فَصُولُهُ الْأَسَاخِرَةُ أَوْ فَصُولُهُ الْمُبْكِيَّةُ، وَلَكِنَّهُمْ حِينَ يُخْرَجُونَ هَذَا كُلُّهُ لِلْحَيَاةِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ قُوَّتِهَا الْمَوْجِبَةِ، تَرُدُّهُ الْحَيَاةُ عَلَيْهِم بِالْقُوَّةِ السَّالِبَةِ، إِذْ لَا تَزَالُ تَخْلُقُ خَلْقَهَا وَتَعْمَلُ أَعْمَالَهَا بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ، وَإِذَا كَانَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ هَذَا الْقَانُونُ الَّذِي يَجْعَلُ الْفِكْرَ الْمَرِيضَ حِينَ يَهْدُمُ مِنْ صَاحِبِهِ - يَهْدُمُ فِي الْكَوْنِ بِصَاحِبِهِ؛ فَفِيهَا أَيْضًا الْقَانُونُ الْآخَرُ الَّذِي يَجْعَلُ الْفِكْرَ الصَّحِيحَ السَّامِيَّ حِينَ يُبْنَى مِنْ أَهْلِهِ - يُبْنَى فِي الْكَوْنِ بِأَهْلِهِ.

قَالَ الْعَجُوزُ (ن): زَعَمُوا أَنَّ أَحَدَ سُلُوكِي الْكَهْرِبَاءِ كَانَ فِيلَسُوفًا مُجَدِّدًا، فَقَالَ لِلْآخِرِ: مَا أَرَاكَ إِلَّا رَجَعِيًّا، إِذْ كُنْتُ لَا تَتَّبِعُنِي أَبَدًا وَلَا تَتَّصِلُ بِي وَلَا تَجْرِي فِي طَرِيقَتِي؛ وَلَنْ تُفْلِحَ^(٢) أَبَدًا إِلَّا أَنْ تَأْخُذَ مَأْخُذِي وَتَتْرَكَ مَذْهَبَكَ إِلَى مَذْهَبِي. فَقَالَ لَهُ

(٢) تَفْلَحُ: تَنْجَحُ.

(١) سَائِغٌ: مَقْبُولٌ.

صاحبه: أيها الفيلسوف العظيم، لو أنني أتبعك لبطلنا معاً فما أذهب فيك ولا تذهب في؛ وما علمك تشمتني في رأيك إلا بما تمدخني به في رأيي.

قال العجوز: وهذا هو جوابنا إذا كنا رجعيين عندهم من أجل الدين أو الفضيلة أو الحياة أو العفة إلى آخرها وإلى آخره؛ ونحن لا نرى هؤلاء المجددين عند التحقيق إلا ضرورات، من مذاهب الحياة وشهواتها وحمقاتها تلبست بعض العقول كما يلبس أمثالها بعض الطباع فتزيغ بها؛ وللحياة في لغتها العملية مترادفات كالمترادفات اللفظية: تكون الكلمات والكلمات بمعنى واحد، فالمخرب والمخرف والمجدد بمعنى!

كل مجدد يريد أن يضع في كل شيء قاعدة نفسه هو، فلو أطفناهم لم تبقى لشيء قاعدة.

قال الأستاذ (م) إن هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض يجب أن تكون على سبيلها وما تصلح به من الضبط والإحكام، والجلب لها والدفع عنها والمحافظة عليها بوسائلها الدقيقة الموزونة المقدرة، والسهولة في عملها الصعبة في تدبيرها؛ فعلى نحو مما كانت الحياة في بطن الأم يجب أن نعيش في بطن الكون بحدود مرسومة وقواعد مهياة وحيز معروف؛ وإلا بقيت حركات هذا الإنسان في معناها كحركات الجنين؛ يرتكض ليخرج عن قانونه، فإن استمر عمله ألقى به مسخاً مشوهاً من جسد كان يعمل في تنظيمه، أو قذف به ميتاً من جسم كان كل ما فيه يعمل لحياته وصيانيته.

هذا الجسم كله يشرع للجنين ما دام فيه، وهذا الاجتماع كله يشرع للفرد ما دام فيه؛ فكيف يكون أمر من أمر إذا كان الجنين مجدداً لا يعجبه مثلاً وضع القلب ولا يرضيه عمل الدم ولا يريد أن يكون مقيداً لأنه حر.

أنظر إلى هذا الشرطي في هذا الشارع بضرب مقبلاً ليذبر، ومُدبراً ليُقبل، وقد البسته الحكومة ثياباً يتحيز بها، وهي تتكلم لغة غير لغة الثياب، وكأنها تقول: أيها الناس، إن ههنا الإنسان الذي هو قانون دائماً، والذي هو قوة أبداً، والذي هو سجن جيناً، والذي هو الموت إذا اقتضى الحال.

أتحسب يا بُني هذا الشرطي قائماً في هذا الشارع كجدران هذه المنازل؟ كلاً يا بُني؛ إنه واقف أيضاً في الإرادة الإنسانية وفي الحس البشري وفي العاطفة

الْحَيَّةُ؛ فَكَيْفَ لَا يَمْحُوهُ الْمَجْدُدُونَ مَعَ أَنَّهُ فِي ذَاتِهِ إِزْغَامٌ بِمَعْنَى، وَإِكْرَاهٌ بِمَعْنَى
غَيْرِهِ، وَقَيْدٌ فِي حَالَةٍ، وَبَلَاءٌ فِي حَالَةٍ أُخْرَى؟

لَكِنَّهُ إِزْغَامٌ لِيَقَعَ بِهِ التَّيْسِيرُ، وَإِكْرَاهٌ لِيَتَنَطَّلِقَ بِهِ الرِّغْبَةُ، وَقَيْدٌ لِيَتَمَجَّدَ بِهِ
الْحَرِيَّةُ؛ وَكَانَ هُوَ نَفْسُهُ بَلَاءً مِنْ نَاحِيَةٍ لِيَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ عِصْمَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الَّتِي
تُقَابِلُهَا.

يَا بُنَيَّ، كُلُّ دِينٍ صَالِحٌ، وَكُلُّ فَضِيلَةٍ كَرِيمَةٌ، وَكُلُّ خُلُقٍ طَيِّبٌ - كُلُّ شَيْءٍ
مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى طَرِيقِ الْمَصَالِحِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَهَذَا الشَّرْطِيِّ بَعِيْنِهِ: فَإِمَّا تَخْرِيْبُ
الْعَالَمَ أَتِيْهَا الْمَجْدُدُونَ، وَإِمَّا تَخْرِيْبُ مَذْهَبَكُمْ...

* * *

قَالَ الْعَجُوزُ (ن): أُنَبِّحُ عَمَّا نَتَسَلَّطُ بِهِ أَمْ نَبْحُثُ عَمَّا يَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا؟ وَهَلْ
نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ غَرَائِزُنَا أَقْوَى مِنَّا وَأَشَدَّ، أَوْ نَكُونَ نَحْنُ أَشَدَّ مِنْهَا وَأَقْوَى؟ هَذِهِ هِيَ
الْمَسْأَلَةُ لَا مَسْأَلَةُ الْجَدِيدِ وَالْقَدِيمِ.

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى الَّذِي يَعْظُمُ بِنَا وَنَعْظُمُ بِهِ، فَسَدَ الْحِسُّ
وَفَسَدَتِ الْحَيَاةُ؛ وَكُلُّ الْأَدْيَانِ الصَّحِيْحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ إِنْ هِيَ إِلَّا وَسَائِلُ هَذَا
الْمَثَلِ الْأَعْلَى لِلْسُّمُورِ بِالْحَيَاةِ فِي آمَالِهَا وَغَايَاتِهَا عَنِ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا فِي وَقَائِعِهَا
وَمَعَانِيْهَا.

قَالَ الْمُحَدِّثُ: وَرَأَيْتُنِي بَيْنَ الْعَجُوزَيْنِ كَأَنِّي بَيْنَ نَابِيْنِ؛ وَلَمْ أَكُنْ مُجَدِّدًا عَلَى
مَذْهَبِ إِبْلِيسَ الَّذِي رَدُّ عَلَى اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَظَنُّ لِحَقِّهِ أَنْ قُوَّةَ الْمُنْطَقِ تَغْيِرُ مَا لَا
يَتَغَيَّرُ؛ فَسَكْتُ، حَتَّى إِذَا فَرَعَا مِنْ هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ قُلْتُ: وَالرَّحْلَةُ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥؟

العجوزان

٣

قال المحدث: وتبين في العجوز (ن) أثر التعب، فتوجع وأخذ يئن كأن بعضه قد مات لوقته. أو وقع فيه اختلال جديد، أو نالته ضربة اليوم؛ والشيخ متى دخل في الهرم دخل في المعركة الفاصلة بينه وبين أيامه.

ثم تأفف وتملل^(١) وقال: إن أول ما يظهر على من شاخ وهرم، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذي كانت تحكمه به.

قال الأستاذ (م): إن صاحبنا كان قاضياً يحكم في المحاكم، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة (مطبقة فيها) بعض المواد من قانون العقوبات فما خرج من المحكمة إلا إلى الحبس الثالث.

فضحك (ن) وقال: قد عرفنا «الحبس البسيط» و «الحبس مع الشغل» فما هو هذا الحبس الثالث؟

قال: هو «الحبس مع المرض».

قال (ن): صدقت لعمري، فإن آخر أجسامنا لا يكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا: وكأن كرسي الوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرسي الحكومة، فهو يضرب الأضرائب على عظام الموظفين. أندري معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْذِلُ الْكَافِرَ﴾ ولم سمأه الأرذل؟

قلنا: فلم سمأه كذلك؟

قال: لأنه خلط الإنسان بعضه ببعض، ومسحه من أوله إلى آخره، فلا هو رجل ولا شاب ولا طفل، فهو أردأ وأرذل ما في البضاعة.

(١) تملل: أظهر ضجره.

فَأَسْتَضْحَكَ الْأَسْتَاذُ (م) وَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ شَيْخًا حِينَ كُنْتُ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِي، وَهَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَنِي فَتًى حِينَ بَلَغْتُ السَّبْعِينَ.
 قَالَ (ن): كَأَنَّ الْحَيَاةَ تُصَحِّحُ نَفْسَهَا فَيْكَ.

قَالَ: بَلَى أَنَا كَرِهْتُهَا أَنْ تُصَحِّحَ نَفْسَهَا؛ فَقَدْ عَرَفْتُ مِنْ قَبْلِ أَنْ سَعَةَ الْإِنْفَاقِ فِي الشَّبَابِ هِيَ ضَائِقَةُ الْإِفْلَاسِ فِي الْهَرَمِ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّ لِلطَّبِيعَةِ (عَدَادًا) لَا يُخْطِئُ؛ الْجِسَابَ، فَإِذَا أَنَا أَقْتَصَدْتُ عَدْتُ لِي، وَإِذَا أَسْرَفْتُ عَدْتُ عَلَيَّ؛ وَلَنْ تُعْطِنِي الدُّنْيَا بَعْدَ الشَّبَابِ إِلَّا مِمَّا فِي جِسْمِي، إِذْ لَا يُعْطِي الْكَوْنُ حَيًّا أَرَادَ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْهُ، فَكُنْتُ أَجْعَلُ نَفْسِي كَالشَّيْخِ الَّذِي يَقُولُ لَهُ الْمَلَذَاتُ الْكَثِيرَةُ: لَسْتُ لَكَ؛ وَمَنْ ثُمَّ كَأَنْتَ لِدَاثِي كُلِّهَا فِي قِيُودِ الشَّرِيعَتَيْنِ: شَرِيعَةِ الدِّينِ وَشَرِيعَةِ الْحَيَاةِ.

قَالَ: وَعَرَفْتُ أَنَّ مَا يُسَمِّيهِ النَّاسُ وَهَنًا^(١) الشَّيْخُوخَةُ لَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ وَلَكِنْ مِنَ الشَّبَابِ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا عَمَلُ الْإِنْسَانِ فِي تَسْمِيمِ جِسْمِهِ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْإِغْفَالِ وَالْإِرْهَاقِ وَالسُّرُورِ وَالْحُزْنَ وَاللَّذَّةَ وَالْأَلَمَ، فَكُنْتُ مَعَ الْجِسْمِ فِي شَبَابِهِ لِيَكُونَ مَعِيَ بَعْدَ شَبَابِهِ، وَلَمْ أَبْرَحْ أَنْعَاهُ^(٢) كَمَا يَتَعَاهَدُ الرَّجُلُ دَارَهُ: يَزِيدُ مُحَاسَنَاتِهَا وَيُنْفِي عِيُوبَهَا، وَيَحْفَظُ قُوَّتَهَا وَيَتَّقِي ضَعْفَهَا؛ وَيَجْعَلُهَا دَائِمًا بِأَلَمٍ وَهَمٍّ، وَيَنْظُرُ فِي يَوْمِهَا الْقَرِيبِ لِغَدِهَا الْبَعِيدِ، فَلَا يَنْقَطِعُ حِسَابُ آخِرِهَا وَإِنْ بَعْدَ هَذَا الْآخِرِ، وَلَا يَزَالُ أَبَدًا يَحْتَاطُ لِمَا يَخْشَى وَقُوَعَهُ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ.

قَالَ الْعَجُوزُ (ن): صَدَقْتَ - وَاللَّهِ -؛ فَمَا أَفْلَحَ إِلَّا مَنْ أَغْنَمَ الْإِمْكَانَ؛ وَمَا نَوْعُ الشَّيْخُوخَةِ إِلَّا مِنْ نَوْعِ الشَّبَابِ؛ وَهَذَا الْجِسْمُ الْإِنْسَانِيُّ كَالْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ فِيهَا (مَجْلِسُهَا أَلْبَلَدِيُّ) الْقَائِمُ عَلَى صَيَانَتِهَا وَنِظَامِهَا وَتَقْوِيَتِهَا؛ وَرَئِيسُ هَذَا الْمَجْلِسِ الْإِرَادَةُ، وَقَانُونُهُ كُلُّهُ وَاجِبَاتُ ثَقِيلَةٍ، وَهُوَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ: إِذَا لَمْ يَنْفُذْ مِنَ الْأَوَّلِ لَمْ يُغْنِ فِي الْآخِرِ.

قَالَ الْأَسْتَاذُ (م): وَكُلُّ جِهَازٍ فِي الْجِسْمِ هُوَ عَضْوٌ مِنْ أَعْضَاءِ ذَلِكَ (الْمَجْلِسِ أَلْبَلَدِيِّ)؛ فَجِهَازُ النَّفْسِ وَجِهَازُ الْهَضْمِ وَالْجِهَازُ الْعَضْلِيُّ وَالْجِهَازُ الْعَصْبِيُّ وَالْدَّوْرَةُ الدَّمَوِيَّةُ، هَذِهِ كُلُّهَا يَجِبُ أَنْ تُتْرَكَ عَلَى حَرِيَّتِهَا الطَّبِيعِيَّةِ وَأَنْ تُعَانَ عَلَى سُئُوتِهَا، فَلَا يُحَالُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْمَالِهَا بِرُشُوءٍ مِنَ اللَّذَّةِ، أَوْ مَفْسَدَةٍ مِنْ زِينَةِ، أَوْ مَطْمَعَةٍ فِي زُفَاهِيَةٍ، أَوْ دَعْوَةٍ إِلَى مَدَنِيَّةٍ، أَوْ شَيْءٍ مِمَّا يُفْسِدُ حُكْمَهَا أَوْ يُعْطِلُ عَمَلَهَا وَيُضْعِفُ طَبِيعَتَهَا.

(٢) أَنْعَاهُ: أَعْتَنِي بِهِ.

(١) وَهْنٌ: ضَعْفٌ.

وَأَلْقَاعِدُهُ فِي الْعَمْرِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الشَّبَابُ هُوَ الطُّفُولَةُ الثَّانِيَّةُ فِي بَرَاءَتِهِ وَطَهَارَتِهِ، كَانَتْ الشَّيْخُوخَةُ هِيَ الشَّبَابُ الثَّانِي فِي قُوَّتِهَا وَنَشَاطِهَا؛ وَمَا رَأَيْتُ كَالَّذِينَ وَسِيلَةً تَجْعَلُ الطُّفُولَةَ مُتَدَّةً بِحَقَائِقِهَا إِلَى آخِرِ الْعَمْرِ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ؛ فَسَرُّ الطُّفُولَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي قُوَّتِهَا عَلَى حَذْفِ الْفُضُولِ وَالزَّوَانِدِ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَلَا يُطْعِمُهَا^(١) الْغِنَى، وَلَا يَكْسِرُهَا الْفَقْرُ، وَلَا تَذُلُّهَا الشَّهْرَةُ، وَلَا يُفْرِغُهَا الطَّمَعُ، وَلَا يَهْوِلُهَا^(٢) الْإِخْفَاقُ، وَلَا يَتَعَاضَمُهَا الضَّرُّ، وَلَا يُخَيِّفُهَا الْمَوْتُ؛ ثُمَّ لَا تَمَلُّ وَهِيَ الصَّابِرَةُ، وَلَا تُبَالِغُ وَهِيَ الْأَرَاضِيَّةُ، وَلَا تَشْكُ وَهِيَ الْمُوقِنَةُ، وَلَا تُسْرِفُ وَهِيَ الْقَانِعَةُ، وَلَا تَتَبَلَّدُ وَهِيَ الْعَامِلَةُ، وَلَا تَجْمَدُ وَهِيَ الْمَتَجَوْلَةُ؛ ثُمَّ هِيَ لَا تُكَلِّفُ الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَّا الْعُطْفَ وَالْحُبَّ وَالْبَشَاشَةَ وَطِبَاعَ الْخَيْرِ الَّتِي يَمْلِكُهَا كُلُّ قَلْبٍ؛ وَلَا تُوجِبُ شَرِيعَتُهَا فِي الْمَعَامِلَةِ إِلَّا قَاعِدَةَ الرَّحْمَةِ، وَلَا تُقَرِّرُ فَلْسَفَتُهَا لِلْحَيَاةِ إِلَّا طَهَارَةَ النِّظَرِ؛ ثُمَّ تَهْتَكُمُ بِالْأَلْبَانِ أَكْثَرَ مِمَّا تَهْتَمُّ لَهَا، وَتَسْتَغْنِي فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَاجُ، وَتَسْتَخْرِجُ السَّعَادَةَ لِنَفْسِهَا دَائِمًا مِمَّا أَمَكْنَ، قَلَّ أَوْ كَثُرَ.

وَبِكُلِّ هَذَا تَعْمَلُ الطُّفُولَةُ فِي حِرَاسَةِ الْحَيَاةِ الْفُضْصَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا وَنُمُوِّهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَّا زَهَا طِفْلٌ وَلَا شَبَّ غَلَامٌ وَلَا رَأَتْ الْعَيُونُ بَيْنَ هُمُومِ الدُّنْيَا ذَلِكَ الْكُرْوَاءَ وَذَلِكَ الْمُنْظَرُ عَلَى وَجْهِهِ الْأَطْفَالُ يُثْنَانِ أَنَّ الْبَرَاءَةَ فِي النَّفْسِ أَقْوَى مِنَ الطَّبِيعَةِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ هُوَ أَيْضًا مِنْ خِصَائِصِ الدِّينِ وَبِهِ يَعْمَلُ الدِّينُ فِي تَهْذِيبِ الْحَيَاةِ وَأَطْرَادِهَا عَلَى أَصُولِهَا الْقَوِيَّةِ السَّلِيمَةِ، وَمَتَى قَوِيَ هَذَا الدِّينُ فِي إِنْسَانٍ لَمْ تَكُنْ مَفَاسِدُ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حُدُودِهِ، حَتَّى كَانَتْهُ فِي أَرْضٍ وَهِيَ فِي أَرْضٍ أُخْرَى، وَأَصْبَحَتْ الْبَرَاءَةُ فِي نَفْسِهِ أَقْوَى مِنَ الطَّبِيعَةِ.

ثُمَّ قَالَ: وَالْعَجِيبُ أَنَّ اعْتِقَادَ الْمَسَاوَةِ بَيْنَ النَّاسِ لَا يَتَحَقَّقُ أَبَدًا بِأَحْسَنِ مَعَانِيهِ وَأَكْمَلِهَا إِلَّا فِي قَلْبَيْنِ: قَلْبِ الْأَطْفَلِ لِأَنَّهُ طِفْلٌ، وَقَلْبِ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ.

فَقَالَ الْعَجُوزُ (ن): إِنَّهُ لَكَمَا قُلْتُ، وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْأَدْمِيَّةِ الْبَاطِلَةِ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ الْوَاحِدَةَ فِي الْفِئَةِ نَفْسٍ لَتَجْعَلَ الْحَقِيقَةَ الْوَاحِدَةَ كَأَنَّهَا أَلْفُ حَقِيقَةٍ مُتَعَادِيَةٍ مُتَنَازِعَةٍ؛ وَالطَّامِعَانِ فِي أَمْرٍ وَاحِدَةٍ قَدْ تَكُونُ شَهْوَةً أَحَدِهِمَا هِيَ الشَّهْوَةُ وَهِيَ الْقَتْلُ؛ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْمُلْحَدِينَ وَالْحَادِهِمْ، يُزْرَوْنَ عَلَى الْأَدْيَانِ بِأَنَّهَا نِكَالِيفٌ وَقِيُودٌ وَصِنَاعَةٌ لِلْحَيَاةِ، ثُمَّ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لِصِنَاعَةِ آلَاةِ النَّفْسِ الَّتِي

(٢) يهولها: يرهبها.

(١) يطعمها: يحملها على التجبر.

تستطيع أن تحرّكَ الْمُخْتَلِفِينَ حركةً واحدةً، فما أَبْتَلَيْتَ الْإِنْسَانِيَّةَ بِشَيْءٍ كَمَا أَبْتَلَيْتَ
بهذا الْخِلَافِ الَّذِي يَفْتَحُ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ أَبْوَابَ الْتَجَنِّي، وَيَجْعَلُ الثَّقَرَةَ
وَسُوءَ الظَّنِّ أَقْرَبَ إِلَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْأَلْفَةِ.

لقد جاءَ الْعِلْمُ بِالْمُعْجَزَاتِ، ولكنَّ فيما بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ
وَمَنَافِعِهِ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَشَهَوَاتِهِ؛ فَهَلْ غَيْرُ الْإِدْنِ يَجِيءُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْعَمَلِيَّةِ فيما بَيْنَ
النَّفْسِ وَالنَّفْسِ، وَبَيْنَ النَّفْسِ وَهَمُومِهَا، وَبَيْنَ مَا هُوَ حَقٌّ وَمَا هُوَ وَاجِبٌ؟

قَالَ الْمُحَدِّثُ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ الْعَجُوزُ (ن) وَقَالَ: صَلِّ عَمَّكَ يَا بُنَيَّ بِالْحَدِيثِ
الَّذِي مَضَى، فَأَيْنَ بَلَّغْنَا أَنْفَاءً مِنْ أَمْرِ التَّجْدِيدِ وَالْمَجْدُودِينَ؟ وَمَاذَا قُلْنَا وَمَاذَا قُلْتَ؟ أَمَّا
إِنَّ الْحِمَاةَ الْجَدِيدَةَ وَالرَّذِيلَةَ الْجَدِيدَةَ وَالْخَطَأَ الْجَدِيدَ، كُلُّ ذَلِكَ إِنْ كَانَ جَدِيداً مِنْ
صَاحِبِهِ فَهُوَ قَدِيمٌ فِي الدُّنْيَا؛ وَلَيْسَ عِنْدَنَا أَبَدٌ مِنْ جَدِيدٍ إِلَّا إِطْلَاقُ الْحَرِيَّةِ فِي
أَسْتِعْمَالِ كُلِّ أَدِيبٍ حَقِّهِ فِي الْوَقَاحَةِ وَالْجَهْلِ وَالْخَطَا وَالْعُرُورِ وَالْمُكَابَرَةِ.

قَالَ الْأَسْتَاذُ (م): وَلَيْسَ الظَّاهِرُ بِمَا يَظْهَرُ لَكَ مِنْهُ، وَلَكِنْ بِالْبَاطِنِ الَّذِي هُوَ
فِيهِ، فَمُسْتَشْفَى الْمَجَازِيبِ قَصْرٌ مِنَ الْقُصُورِ فِي ظَاهِرِهِ، وَلَكِنْ الْمَجَازِيبُ هُمْ حَقِيقَتُهُ
لَا الْبِنَاءُ، وَكُلُّ مُجَدِّدٍ عِنْدَنَا يَزْعُمُ لَكَ أَنَّهُ قَصْرٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُسْتَشْفَى
مَجَانِينَ، غَيْرَ أَنَّ الْمَجَانِينَ فِيهِمْ طِبَاعٌ وَشَهَوَاتٌ وَنَزَوَاتٌ؛ وَعَلَى هَذَا مَا الَّذِي يَمْنَعُ
الْفَجُورَ الْمَتَوَقِّعَ أَنْ يَسْمِيَ نَفْسَهُ الْأَدَبَ الْمَكْشُوفَ؟

قَالَ (ن): وَإِذَا أَنْتَ ذَهَبْتَ تَعْتَرِضُ عَلَى هَذِهِ التَّسْمِيَةِ زَعَمُوا لَكَ أَنَّ لِلْفَرْقِ
وَقَاحَةً مُقَدَّسَةً. وَأَنْ (لَا أَدِيبَةً) رَجُلٌ أَلْفَنُ هِيَ (الْأَخْلَاقِيَّةُ الْعَالِيَةُ).

قَالَ الْأَسْتَاذُ (م): فَوَاقِحُ الشَّهْوَةِ إِذَا أَسْتَعْلَنَتْ بَيْنَ أَهْلِ الْحَيَاءِ وَأَهْلِ الْفَضِيلَةِ وَدَعَتْ
إِلَى مَذْهَبِهَا، كَانَتْ تَجْدِيداً مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٍ؛ وَلَكِنْ هَذَا الْمَذْهَبُ هُوَ أَقْدَمُ مَا فِي الْأَرْضِ،
إِذْ هُوَ بِعَيْنِهِ مَذْهَبُ كُلِّ زَوْجَيْنِ اجْتَمَعَا مِنْ الْبَهَائِمِ مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الْبَهَائِمَ . . .

قَالَ (ن): وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي مُسَخِّطٍ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى النَّاسِ يُخْرِجُ مِنْ كَفَرِهِ
بَيْنَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ جَدِيداً، وَفِي مَغْرُورٍ يَتَغَفَّلُ النَّاسُ، وَفِي لَيْسَ آراءٍ، وَفِي مُقَلِّدٍ أَعْوَرَ
- كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَشْبَاهِهِمْ مَبْتَلَى بَعْلَةٍ، فَمَذْهَبُهُ رِسَالَةٌ عَلَيْهِ؛ وَأَكْثَرُهُمْ لَا
يَكُونُ ثَبَاتُهُ عَلَى الرَّأْيِ الْفَاسِدِ إِلَّا مِنْ ثَبَاتِ الْعِلَّةِ فِيهِ.

قال المحدث: وكنت من المجددين، فأرْمَضَنِي^(١) ذلك وقلت للعجوزين: إن هذا نصف الصحيح، أما النصف الآخر فهو في كثير من هؤلاء الذين ينتحلون الدِّفاع عن الدين والفضيلة؛ نعم إنهم لا يستعملون حقهم في الوقاحة، ولكنَّ القُرُوشَ تستعملُ حقَّها.

فضحك العجوز (ن)، وقال: يا بُنَيَّ، إنَّ الجديدَ في كلِّ جِمَارٍ هو أن يزعم أن نهيئَهُ موسيقى... فالحِمارُ والنهيقُ والموسيقى كلُّ ذلك لا جديد فيه، ولكنَّ التسمية وحدها هي الجديدة؛ ولو كان البرهانُ في خلقِ الحِمارِ لصَحَّ هذا الجديد، غير أن التصديق والتكذيب هنا في آذان الموسيقيين لا في خلقِ حِمَارِنَا المحترم...

قال (م) وزعموا أن رجلاً نصب فخاً لصيدِ العصافير، فجاء عُصفورٌ فنظر من هذا الفخ إلى شيء جديد، فقال: يا هذا، مالك مطموراً^(٢) في التراب؟ قال أَلْفَخُ: ذلك من التواضع لخلقِ الله! قال: فمِمَّ كانَ أُنَحْنَاوُك؟ قال أَلْفَخُ: ذلك من طولِ عبادتي لله! قال: فما هذه الحبُّ عندك؟ قال أَلْفَخُ: أعددتُها لطيورِ الله الصائمينِ يفطرونَ عليها! قال العصفور: فتيحُها^(٣) لي؟ قال: نعم.

فتقدم المكسب إلىها، فلما ألقتَها وقع أَلْفَخُ في عنقه، فقال وهو يختنق: إن كان العبادُ يَخْنُقون مثلَ هذا الخنقِ فقد خُلِقَ إبليسُ جديد.

قال (ن): فالحقيقة أن إبليسَ هو الذي تجددَ ليَصْلُحَ لِمِنْ آلاَتِ والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة والتحول؛ وما دام الرقيُّ مُطْرِداً وهذا العقلُ الإنساني لا يقفُ عندَ غايةٍ في تسخير الطبيعة، فسيتهي الأملُ بتسخيرِ إبليسِ نفسه مع الطبيعة. لاستخراج كلِّ ما فيه من الخير.

قال (م): ولكنَّ العَجَبَ من إبليسَ هذا؛ أثره أنقلبَ أوربياً للأوربيين؟ وإلا فما باله يخرجُ مجددين من جبابرةِ العقلِ والخيال، ثم لا يؤتينا نحن إلا مجددين من جبابرةِ التقليدِ والحماسة؟

قال المحدث: فقلتُ لهما: أيُّها العجوزانِ القديمانِ، سأُنشِرُ قولكما هذا ليقرأهُ المجددون.

(١) أرْمَضَنِي: ألْمَنِي.

(٢) مطموراً: نسمحها.

(٣) تيحُها: مغطى.

قال الأستاذ (م): وَاتَشَرَّ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّبْعَ صَاحِبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ، مَرْيُومًا فِي
أَرْقَةِ مِصْرَ فَنُثِرَتْ عَلَى رَأْسِهِ إِجَانَةٌ^(١) مَمْلُوءَةٌ رَمَادًا، فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ وَأَخَذَ يَنْفُضُ
ثِيَابَهُ وَرَأْسَهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا تَرْجُرُهُمْ؟ قَالَ: مَنْ أَسْتَحَقَّ النَّارَ وَصُولَ بِالرَّمَادِ فَلَيْسَ لَهُ
أَنْ يَغْضَبَ! . . .

ثُمَّ قَالَ مُحَدِّثُنَا: وَأَسْتَوَلَى عَلَيَّ الْعَجُوزَانِ، وَرَأَيْتُ قَوْلَهُمَا يعلو قولي، وَكُنْتُ
فِي السَّابِعَةِ وَالْعَشْرِينَ، وَهِيَ سِنُّ الْحِدَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، فَمَا حَسَبْتَنِي مَعَهُمَا إِلَّا ثَلَاثَ
عَجُوزٍ . . . مِمَّا أَثَّرَا عَلَيَّ، وَأَنْقَلَبْتُ لَا أَرَى فِي الْمَجْدُودِينَ إِلَّا كُلَّ سَقِيمٍ^(٢) فَاسِدٍ،
وَأَعْتَبَرْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعِلَّتِهِ، فَإِذَا الْقَوْلُ مَا قَالَ الشَّيْخَانِ، وَإِذَا تَحْتَ كُلِّ رَأْيٍ
مَرِيضٌ مَرَضٌ، وَوَرَاءَ كُلِّ أَتْجَاهٍ إِبْرَةٌ مَغْنَاطِيصِيَّةٌ طَرَفُهَا إِلَى الشَّيْطَانِ . .

وَفَرَّغْنَا مِنْ هَذَا، فَقُلْتُ لِلشَّيْخَيْنِ: لَقَدْ حَانَ وَقْتُ نَزُولِكُمَا مِنْ بَيْنِ الْغَيُومِ أَيُّهَا
الْفَيْلَسُوفَانِ، أَمَّا كُنْتُمَا فِي سَنَةِ ١٨٩٥ مِنْ الْجَنَسِ الْبَشَرِيِّ . . ؟

(٢) سقيم: مريض .

(١) إجانة: قصعة .

العجوزان

٤

قال محدثنا: وكنت قد ضُفْتُ بهذه اللجاجة الفلسفية، ورأيتني مضطغناً^(١) على الشيخين معاً؛ فقلت للعجوز (ن): حدثني (رحمك الله) بشيء من قديمكما، فانتما اختصار لكل ما من من الحياة يُستدل به على أصله المطوّل إلا في الحب... وما زلتما في جدّ الحديث تعبان بي منذ اليوم، فقد عدلتما بي إلى شائكما ورأيكما في القديم والجديد، وبقي أن أميل بكما ميلة إلى سنة ١٨٩٥، وقد - والله - كاذ ينتحر قلبي ياساً من خبر (كاترينا ومرغريت)؛ ولكأنك تخشى إذ أعلمتني خبر صاحبتيك هذه وهي من وراء أربعين سنة - ما تخافه من رجل سيفجؤك معها في الخلوة على حال من الحرية فيأخذك «متلبساً بالجريمة» كما تقولون في لغة المحاكم...

قال: فضحك العجوزان وقال (ن): لا - والله - يا بني، ولكني أقول ما قال ذلك الحكيم العربي لقوميه وقد بلغ مائتي سنة: «قلبي مضغة من جسدي، ولا أظنه إلا قد نحل كما نحل سائر جسدي» وأعلم يا بني أنه إذا ذهب الحب عن الشيخ بقي منه الخناك يعمل مثل عمله؛ فيجِب العجوز مكاناً أو شيئاً أو معنى أي ذلك كان، ليُعيدَه ذلك إلى الدنيا أو يُبقِيه فيها (بقدر الإمكان).

فضحك الأستاذ (م) وقال: ولعل ثرثرة العجوز (ن) هي الآن معشوقة العجوز (ن).

ثم قال: وكل شيء يرق في قلب الرجل الهرم ويحوّل وجهه كأنه لا يطيق أن ينظر إلى معناه الغليظ؛ ولا بد أن يخرج العجوز من معاني الدنيا قبل أن يخرج من الدنيا؛ ولهذا لا يهنا الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر، وقدّر الأمر على ما هو فيه لا على ما كان فيه؛ والفرق بين جسمه الحاضر وبين جسمه الماضي أن

(١) مضطغناً: حاقداً وغاضباً.

هذا الماضي كَانَتْ تحملُهُ أعضاؤه، فهو مجتمعٌ من أعمالِها وشهواتِها، ماضٍ في تحقيقِ وجودِها ومعانيها؛ أمَّا الحاضرُ، أمَّا الجسمُ الهرمُ، فهو يُسْعِرُ أَنَّهُ يحْمِلُ أعضاءَهُ كُلَّهَا وكَانَتْها ملفوفةٌ في ثيابه كمتاعِ المسافرين قبلَ السفر... وكأنَّ بعضها يُسَلِّمُ على بعضِ سلامِ الوداعِ يقولُ: نُفَارِقُنِي وفَارُقْكَ.

فتملِّمُ الأستاذُ (م) وقال: أَفَ لَكَ وَلِمَا تقول! لا جَرَمَ أَنَّ هذه لغةٌ عِظَامِكَ التي لا صِلاَةَ فيها، فمن ذلك لا تجيءُ معانيك في الحياةِ إِلَّا واهنةٌ^(١) ناحلةٌ فَقَدَتْ أَكْثَرَهَا وبقيَ من كُلِّ شيءٍ منها شيءٌ عندَ النِّهايةِ؛ أليسَ في الهرمِ إِلَّا أَن يَبْقَى الجسمُ ليكونَ ظاهراً فقط كعُشْشُ العنقودِ^(٢) بعدَ ذهابِ الحُبِّ منه، يقولُ: كَانَ هُنَا وكَانَ هُنَا؟

ألا فَاعْلَمْ يا (ن) أَنَّ هذه أَلِشَيْخوخَةِ إِنَّمَا هِيَ غلبةٌ روحانيَّةُ الجسمِ على بشريته، فهذا طَوْرٌ من أطوَرِ الحياةِ لا تدعُ الحياةَ إِلَّا وفيهِ لَذَّتُهُ وسرورُهُ كما تصنعُ سائرُ أطوارِها؛ غيرَ أَنَّ لَذَاتِهِ بَيْنَ الروحِ وَالْجِمالِ، ومسراتِهِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالطَّبِيعَةِ، وكلُّ ما نقصَ مِنَ الْعَمْرِ وجَبَ أَن يكونَ زيادةً في إدراكِ الروحِ وقُوَّتِها وشِدَّتِها ونورِها؛ وقد قِيلَ لِبَعْضِ أَهْلِ هذا أَكْثَانٍ وكان في مرضٍ موتهُ: كيف تجدُ أَلِيلةً؟ فقال: سلوا أَلِيلةً عَنِّي كيف تجدُنِي؟

وإنَّما تثقلُ أَلِشَيْخوخَةُ على صاحبِها إذا هِيَ أَنتَكَسَتْ فِيهِ وكَانَتْ مُراغمةً بَيْنَهُ وبَيْنَ الحياةِ، فيقطعُ أَلِشَيْخُ فيما مضى ولا يزالُ يتعلَّقُ بِهِ ويتسَخَّطُ^(٣) على ذهابِهِ ويتصنَّعُ لَهُ ويتكلَّفُ أسبابَهُ، وقد نسيَ أَنَّ الحياةَ رَدَّتُهُ طفلاً كَالطِّفْلِ، أَكْبَرُ سعادَتِهِ في التوفيقِ بَيْنَ نَفْسِهِ وبَيْنَ الْأَشْيَاءِ الصَّغِيرَةِ الْبَرِيَّةِ، وأقوى لَذَّتِهِ أَن يتَّفَقَ الْجَمالُ الَّذِي في خيالِهِ وَالْجَمالُ الَّذِي في الْكُونِ، وإنَّه لَكَمَا قُلْتَ أنت: لا يَهْنَأُ أَلِشَيْخُ إِلَّا إذا عاشَ بِأفكارِ جِسْمِهِ الْحَاضِرِ.

وما أَصْدَقُ وَأَحْكَمُ هذا الْحَدِيثُ أَالشَّرِيفُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِعَدْلِهِ وَقِسْطِهِ»^(٤) جعلَ الرُّوحَ وَالْفَرْخَ في الرُّضَى وَالْيَقِينَ، وجعلَ أَلِهَمَّ وَالْحَزْنَ في أَلِشُّكِّ وَالسُّخْطِ. فهذه هِيَ قاعِدَةُ الحياةِ: لا تعاملُكَ الحياةُ بِما تملكُ مِنَ الدُّنيا، ولكنْ بِما تملكُ من

(١) واهنة: ضعيفة.

(٢) عُشْشُ العنقود: هو ما يبقى منه بعد أكل العنب.

(٣) يتسَخَّطُ: يظهر غضبه.

(٤) قسطه: عدله.

نفيسك، وبذلك تكون السعادة في أشياء حقيقة ممكنة موجودة، بل تكون في كل ما أمكن وكل ما وجد؛ وإذا كان الرضى هو الاتفاق بين النفس وصاحبها، وكان اليقين هو الاتفاق بين النفس وخالقها، فقد أصبح قانون السعادة شيئاً معنوياً من فضيلة النفس وإيمانها وعقلها، ومن الأسرار التي فيها، لا شيئاً مادياً من أعضائها ومتاعها ودنياها والأخيلة المقتلية عليها.

فأطرق العجوز (ن) قليلاً ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، ألا ما أحكم هذه الآية! قوالله إن قرأت ولا قرأ الناس في تصوير الهرم ألفاني أبدع منها ولا أدق ولا أوفى؛ ألا تجس أن قائلها يكاد يسقط من عجز وهزال وإعياء؛ وأنه ليس قائماً في الحياة قيامه فيها من قبل، وأن تناقض هذه الحياة قد وقع في جسمه فأخل به، وأن معاني التراب قد تعلقت بهذا الجسم تعمل فيه عملها، فأخذ يتفتت كأنما لمس القبر عظامه وهو حي، وأنه بهذا كله أوشك أن ينكسر أنكسار العظم بلغ المبرد فيه آخر طبقاته؟

قال محدثنا: قلت له: ترى لو أن نابغة من نوابغ التصوير في زمننا هذا تناول بفنّه ذلك المعنى العجيب فكتبه صورةً والواناً، لا أحرفاً وكلمات، فكيف ثراه كان يصنع؟

قال: كان يصنع هكذا: يرسم منظر الشتاء في سماء تعلّق سحبها كثيفاً متراكباً بعضه على بعض يُخيّل أن السماء تدنو من الأرض، وقد سدّت السحب الأفاق وأظلم الجو ظلامه تحت النهار المغطى، وأستطارت بينها وشائج من البرق، ثم يترك من الشمس جانب الأفق لمعة كضوء الشعمة في فتق من فتوق السحاب، ثم يرسل في الصورة ريحاً باردة هوجاء يدلّ عليها أنحناء الشجر وتقلّب النبات، ثم يرسم رجالاً ونساء يغلي الشباب فيهم غليانه من قوة وعافية، وحبّ وصبا، وتغلي فيهم أفكار أخرى. وهم جميعاً في هيئة المسرعين إلى مرقص؛ وهم جميعاً من المجدّدين...

ثم يرسم يا بُني في آخرهم (على بُعد منهم) عمك العجوز (ن)، يرسمه كما تراه، منحلّ القوة، منحني الصلْب، مُرْعَشاً مُتَزَلِزاً متضعّضاً؛ قد زعزعته الريح، وضربه البرد، وخنقته السُّحْب؛ وله وجه عليه ذبول الدنيا، ينبئ أن دمه قد وُضِعَ من جسمه في بردة، والكون كله من حوله ومن فوقه أسباب روماتزم...

ثُمَّ يُصَوِّرُهُ وَقَدْ وَقَفَ هُنَاكَ سَاهِمًا كَثِيرًا، رَافِعًا رَأْسَهُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ .

* * *

قَالَ الْمَحْدُثُ: وَضَحَكْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ قَالَ الْأُسْتَاذُ (م): لَعَمْرِي إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْأَدَمِيَّةَ كَأَلَالَةٍ صَاحِبُهَا مَهْنَدُسُهَا؛ فَإِنْ صَلَحَتْ وَاسْتَقَامَتْ فَمِنْ عِلْمِهِ بِهَا وَحَيَاتِيَّتِهِ لَهَا، وَإِنْ فَسَدَتْ وَأَخْتَلَّتْ فَمِنْ عَيْبِهِ فِيهَا وَإِهْمَالِهِ إِيَّاهَا، وَلَيْسَ عَلَى أَلْطَبِيعَةِ فِي ذَلِكَ سَبِيلٌ لِأَتَمَّةٍ؛ وَالشَّيْخُ الضَّعِيفُ لَيْسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا الصُّورَةُ الْهَزْلِيَّةُ لِمَفَاسِدِ شَبَابِهِ وَضَعْفِهِ وَلَيْبِهِ وَدَعْفِهِ، تُظَاهِرُهَا الدُّنْيَا لَيْسَخَرَ مَنْ يَسْخَرُ وَيَتَعَفَّزُ مَنْ يَتَعَفَّزُ .

قَالَ (ن): أَكْذَلِكَ هُوَ يَا أَسْتَاذُ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ: بَلَى هِيَ الصُّورَةُ الْجَدِيَّةُ مِنْ هَذِهِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي دَابَّهَا^(١) أَلَّا تُصْرَحَ عَنْ حَقِيقَتِهَا إِلَّا فِي الْآخِرِ، فَتُظَاهَرُهَا الدُّنْيَا لِيُجِلَّ الْحَقِيقَةُ مَنْ يُجَلُّهَا؛ وَلَيْسَ إِلَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُعْرَفُ مِنْ خَرَابِ الصُّورَةِ خَرَابُ الْمَعْنَى .

قَالَ الْعَجُوزُ (ن): آه مِنْ إِجْلَالِ الشَّيْخُوخَةِ وَاحْتِرَامِ النَّاسِ إِيَّاهَا! إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ أَحْتِرَامًا لِلشَّيْخِ وَالشَّيْخُ لَا يَرَاهُ إِلَّا تَعَزِيَةً . وَمَا الْأَشْيَاخُ الْهَزْمَى إِلَّا جِنَازَاتٌ قَبْلَ وَقْتِهَا، لَا تُوحَى إِلَى النَّاسِ شَيْئًا غَيْرَ وَحْيِ الْجَنَازَةِ مِنْ مَهَابَةٍ وَخُشُوعٍ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ: إِنَّمَا أَنْتَ دَائِمًا فِي حَدِيثِ نَفْسِكَ، وَلَوْ كُنْتُ نَهْرًا يَا مُسْتَنْقِعُ لِمَا كَانَ فِي لَعْنَتِكَ هَذِهِ الْأَحْرَفُ مِنَ الْبَعُوضِ .

قَالَ الْعَجُوزُ الظَّرِيفُ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي تَنْتَازِعُهَا بَيْنَنَا، تَرُدُّ عَلَيَّ وَأَرُدُّ عَلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ كَلَامُ الْقَانُونِ الَّذِي لَكَ وَحْدَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ أَيُّهَا الْقَاضِي .

قَالَ (م): صَرِّحْ وَبَيِّنْ فَمَا فَهَمْنَا شَيْئًا .

قَالَ الْعَجُوزُ: هَذَا كَلَامٌ قُلْتُهُ قَدِيمًا فِي حَادِثَةٍ عَجِيبَةٍ؛ فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيَّ ذَاتَ يَوْمٍ قَضِيَّةُ شَيْخٍ هَرِمٍ كَانَ قَدْ سَرَقَ دَجَاجَةً؛ وَتَوَسَّمْتُه فِإِذَا هُوَ مِنْ أَذْكَى النَّاسِ، وَإِذَا هُوَ يَجْلُ عَنْ مَوْضِعِهِ مِنَ التَّهْمَةِ، وَلَكِنْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّهُ قَدْ سَرَقَ، وَقَامَتِ الْبَيِّنَةُ عَلَيْهِ وَوَجِبَ الْحُكْمُ؛ فَقُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، مَا تَسْتَحِي وَأَنْتَ شَائِبٌ أَنْ تَكُونَ لَصًا؟

قَالَ: يَا سَيِّدِي الْقَاضِي، كَأَنَّكَ تَقُولُ لِي: مَا تَسْتَحِي أَنْ تَجُوعَ؟

فَوَرَدَ عَلَيَّ مِنْ جَوَابِهِ مَا حَيَّرَنِي، فَقُلْتُ لَهُ: وَإِذَا جُعْتَ أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَسْرِقَ؟

(١) دَابَّهَا: عَادَتَهَا .

قال: يا سيدي القاضي، كأنك تقول لي: وإذا جُعتَ أما تستحي أن تأكل؟

فكانت هذه أشدَّ عليَّ، فقلتُ له: وإذا أكلتَ أما تأكلُ إلا حراماً؟

فقال: يا سيدي القاضي، إنك إذا نظرتَ إليَّ محتاجاً لا أجدُ شيئاً، لم ترني سارقاً حينَ وجدتُ شيئاً.

فأفحمني الرجلُ على جهلهِ وسذاجتهِ، وقلتُ في نفسي: لو سرقَ أفلاطونُ لكانَ مثلَ هذا؟ فتركتُ الكلامَ بالفلسفةِ وتكلمتُ بالقانون الذي لا يملكُ الرجلُ معه قولاً يُراجعني به، فقلتُ: ولكئكَ جئتُ إلى هذه المحكمةِ بالسرقةِ، فلا تذهب من هذه المحكمةِ إلا بالحبسِ ستين.



قال محدثنا: وأرْمضني هذا العجوزُ الثرثارُ وملاً صدري، إذ ما برحَ يُدِيرني وأديره عن (كاترينا ومرغريت)، ورأيتُ كلَّ شيءٍ قد هَرَمَ فيه إلا لِسَانَهُ، فحملني الضجرُ والطيشُ على أن قلتُ له: وهَبْ^(١) القضيةَ كانتَ هي قضيةَ (كاترينا) وقد رُفِعتَ إليك مُتَّهَمةً، أفكنتَ قائلاً لها: جئتُ إلى المحكمةِ بالسرقةِ فلا تذهبنِ مِنَ المحكمةِ إلا بالحبسِ ستين؟

وَجَرَتِ الكلمةُ على لِساني وما أَلْفَيْتُ لها بالاً ولا عَرَفْتُ لها خطراً؛ فأفْهَرُ القاضي العجوزُ وترَبَّدَ وجهُهُ غَضَباً، وقال: يا بغيض! أَحَسْبْتَنِي كُنْتُ قائلاً لها: جئتُ إلى المحكمةِ بالسرقةِ فلا تذهبي مِنَ المحكمةِ إلا بالقاضي...؟

وغيَضَ الأستاذُ (م)، وقال: ويحك! أهذا من أدبِكُم الجديد الذي تَأْدَبْتُم بِهِ على أساتذتكم منهممُ الفجرة الذين يُكذِّبونُ الأنبياءَ ولا يُؤْمِنُونَ إلا بدينِ الغريزةِ ويسوِّغونكم مذاهبَ الحميرِ والبغالِ في حريةِ آدم...؟ أما إني لأَعْلَمُ أنكم نشأتم على حريةِ الرأي، ولكنَّ الكلمةَ بينَ اثنين لا تكونُ حرةً كُلُّ الحريةِ إلا وهي أحياناً سفهيةٌ كُلُّ السفاهةِ، كهذهِ القَوْلَةُ التي نطقَتْ بها.

لقد كانَ الناسُ في زمننا الماضي أناساً على حدة، وكانتِ آدابُ حالاتٍ عقليةً ثابتةً لا تتغيَّرُ ولا يجوز أن تتغيَّرَ، وكان الأستاذُ الكافرُ بينَهُ وبينَ نفسه لا يكونُ معَ تلاميذهِ إلا كالمومس: تَجْهَدُ أن تربيَ بنتها على غيرِ طريقتها!

(١) هب: افترض.

قالَ الحدث: فَلَجَلَجْتُ وَذَهَبْتُ أَعْتَدِر، وَلَكِنَّ الْعَجُوزَ (ن) قَطَعَ عَلَيَّ وَأَنْشَأَ يَقُولُ وَقَدْ أَنْفَجَرَ غِيظُهُ: لَقَدْ تَمَّتْ فِي هَؤُلَاءِ صِنْعَةُ حَرِيَّةِ الْفِكْرِ، كَمَا تَمَّتْ مِنْ قَبْلُ فِي ذَلِكَ الْوَاعِظِ الْمَعْلَمِ الْقَدِيمِ الَّذِي حَدَّثُوا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقْصُصُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ كُلِّ أَرْبَعَاءٍ فَيُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ وَيُعْظِمُهُمْ وَيُحَدِّثُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمُ اللَّهَ وَجَنَّتُهُ وَنَارَهُ؛ قَالُوا: فَاحْتَسِبْ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَطَالَ أَنْتَظَارُهُمْ لَهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُ فَقَالَ: يَقُولُ لَكُمْ أَبُو كَعْبٍ: انْصَرَفُوا فَإِنِّي قَدْ أَصْبَحْتُ مَخْمُورًا.

هذا أَلْقَاصُ الْمَخْمُورِ هُوَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ السَّخْفَاءِ إِمَامٌ فِي مَذْهَبِ حَرِيَّةِ الْفِكْرِ، وَفَضْلِيَّتُهُ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ صَرِيحٌ غَيْرُ مُنَافِقٍ... وَكَانَ يَكُونُ هَذَا قَوْلًا فِي إِمَامِ الْمَسْجِدِ لَوْلَا أَنَّهُ إِمَامُ الْمَسْجِدِ؛ غَيْرَ أَنَّ حَرِيَّةَ الْفِكْرِ تَبْنِي دَائِمًا فِي كُلِّ مَا تَبْنِي عَلَى غَيْرِ الْأَصْلِ، وَعِنْدَهَا أَنَّ الْمُنْطَقَ الَّذِي مَوْضُوعُهُ مَا يَجِبُ، لَيْسَ بِالْمُنْطَقِ الصَّحِيحِ؛ إِذْ لَا يَجِبُ شَيْءٌ مَا دَامَ مَذْهَبُهَا الْإِطْلَاقُ وَالْحَرِيَّةُ.

كُلُّ مُفْتَوٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ الْعَالَمَ لَا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ مِنْ تَفْكِيرِهِ كَمَا مَرَّ مِنْ إِرَادَةِ الْخَالِقِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَحْكَمَ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ سَخِيفَةٍ تَجْعَلُهُ يَحْكُمُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ (كُنْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا جَهْلُهُ؛ وَمَذْهَبُهُ الْأَخْلَاقِي: اطْلُبْ أَنْتَ الْقُوَّةَ لِلْمَجْمُوعِ، أَمَّا أَنَا فَأَلْتَمِسُ لِنَفْسِي الْكَمُنْفَعَةَ وَاللَّذَّةَ! وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ الْمَجْتَمَعَ؛ فَإِنَّهُمْ لَيَحْمِلُونَهُ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَةِ الْبِرَاغِيثِ فِي جَنَاحِ النَّسْرِ.

قال (م): وكيف ذلك؟

قال: زَعَمُوا أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْبِرَاغِيثِ أَتَصَلَّتْ بِجَنَاحِ نَسْرِ وَأَسْتَمَرَ أَنَّهُ وَرَتَعَتْ^(١) فِيهِ، فَصَابَرَهَا النَّسْرُ زَمَانًا، ثُمَّ تَأَذَّى بِهَا وَأَرَادَ أَنْ يَرْمِيَهَا عَنْهُ، فَطَفِقَ يَخْفُقُ بِجَنَاحِيهِ يُرِيدُ نَفْضَهَا، فَقَالَتْ لَهُ الْبِرَاغِيثُ: أَيُّهَا النَّسْرُ الْأَحْمَقُ! أَمَا تَعْلَمُ أَنَّنَا فِي جَنَاحِيكَ لِنَحْمِلَكَ فِي الْجَوِّ؟

أَمَّا أَسَاتِذَةُ هَذِهِ الْحَرِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ الْأَدَبِيَّةِ، فَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ: إِنَّ بَغْرَةَ مِنْ الْبَغْرِ كَانَتْ مَعْلَمَةً فِي مَدْرَسَةٍ.

قال (م): وكيف ذلك؟

(١) رتعت فيه: عاشت ترعى في جناحه.

قال: زعموا أنَّ بكرة كِيشٍ كانت معلَّمةً في مدرسة الحصى، فألَّفت لِتلاميذها كتاباً أَحْكَمْتُهُ وَأَطالَتْ لَهُ الْفِكْرَةَ، وبلغَتْ فيه جُهداً ما تقدَّرُ عليه لِتَظهرَ عبقرِيَّتُها الْجَبَّارَةُ؛ فكانَ الْبَابُ الْأَكْبَرُ فيه أَنَّ الْجَبَلَ خُرافَةٌ مِنَ الْخُرافاتِ، لا يَسوِّغُ في الْعَقْلِ الْحَرَّ إِلَّا هَذا، ولا يَصْخُ غيرُ هَذا في الْمَنطِقِ؛ قالَتْ: وَالْبُرْهانُ على ذلك أَنَّهُمْ يزعمون أَنَّ الْجَبَلَ شيءٌ عَظيم، يَكُونُ في قَدْرِ الْكِيشِ الْكَبِيرِ أَلْفَ أَلْفِ مرَّةٍ؛ فإذا كانَ الْجَبَلُ في قَدْرِ الْكِيشِ أَلْفَ أَلْفِ مرَّةٍ فكيف يُمكنُ أَنْ يَبْعَرَه الْكِيشُ؟ ..

قالَ الأستاذ (م): هَذا مَنطِقٌ جَديدٌ سَديدٌ أَنَّهُ مَنطِقُ بكرة!

قال (ن): وكلُّ قَدِيمٍ لَهُ عِندَهُم جَديد، فكلَّمَةُ (رجل) قد تَخَنُّتْ، وكلَّمَةُ (شاب) قد تَأَنَّتْ، وكلَّمَةُ (عَفِيفَةٍ) قد تَدَنَّتْ، وكلَّمَةُ (حَياءٍ) قد تَنَجَّسَتْ؛ وَالزَّمَنُ الْجَديدُ أُلّا يَعْرِفُ الطَّالِبُ في هَذا الْعَعامَ ماذَا تَكُونُ أَخلاقُهُ في الْعَعامِ الْقَدامِ .

وَالْحَياءُ الْجَديدَةُ أَنْ تُتَقَنَّ الْغُشَّ أَكْثَرَ مِمَّا تُتَقَنَّ الْعَمَلَ . . . وَالذَّمُّ الْجَديدَةُ أَنْ مَالَ غَيْرِكَ لا يُسَمَّى مالاً إِلَّا حينَ يَصِيرُ في يَدِكَ . . . وَالصَّدَقُ الْجَديدُ أَنْ تَكْذِبَ مائَةً مرَّةً، فَعَسَى أَنْ يُصَدَّقَ أَناسٌ مِنْها مرَّةً . . . ثُمَّ الْإِنسانُ الْجَديدُ، وَالْحُبُّ الْجَديدُ، وَالْمَراةُ الْجَديدَةُ، وَالْأَدبُ الْجَديدُ، وَالدينُ الْجَديدُ، وَالْأَبُ الْجَديدُ، وَالْأَبْنُ الْجَديدُ، وما أَدرِي وما لا أَدرِي.

قالوا: (السوبرمان)، وَتَنطَعُوا^(١) في إِخراجِ المَخْلوقِ الْكامِلِ بِغيرِ دينِهِ وَأَخلاقِهِ، فَسَجَرَتْ مِنْهُمُ الطَّبِيعَةُ فلم تُخْرِجْ إِلَّا الناقِصَ أَفْحَشَ النقصِ، وَترَكْتَهُمْ يَعمَلونَ في النَظَريَّةِ وَعَمِلَتْ هِيَ الْحَقِيقَةُ.

* * *

قالَ مَحْدُّثُنَا: ونَهَضَ الْعَجوزُ (ن)، وَهو يَقولُ: تَبارَكْتَ وَتَعالَيْتَ يا خالِقَ هَذا الْخالِقِ! لو فَهِمُوا عَنكَ لَفَهِمُوا الْحِكْمَةَ في أَنَّكَ قد فَتَحْتَ على الْعِلْمِ الْجَديدِ بِالْغَازِباتِ السَّامَةِ . . .

قالَ: وَلِمَّا أَنْصَرَفَ الْعَجوزُ، قُلْتُ لِلاستاذ (م): وَلَكِنْ ما خَبِرُ (كاترينا) وَ(مرغريت) وَسنة ١٨٩٥؟

فقالَ: أَيُّها الْأَبْلَهُ، أَمّا أَدرَكْتَ بَعْدُ أَنَّ الْعَجوزِينِ قد سَخَرا مِنْكَ بِأسلوبِ جَديدٍ . . .

(١) تَنطَعُوا في الْكَلامِ: تَعَمَّقُوا وَغالُوا وَتَأَنَّقُوا وفي الْعَمَلَ تَحَدَّقُوا.

السطر الأخير من القصة

رجعتُ إلى أوراقٍ لي قديمةٍ يبلغُ عمرُها ثلاثينَ سنةً أو ليوادها، تزيدُ قليلاً أو تنقصُ قليلاً، وجعلتُ أفلي هذه الأوراقَ واحدةً واحدةً، فإذا أنا على أطلالِ الأيامِ في مدينةٍ قائمةٍ من تاريخي القديم، نائمةٍ تحتَ ظُلماتِها التي كانتْ أنوارَ عهدٍ مَضَى؛ وإذا أنا منها عهدٌ في أيامِ جذائِه ونشاطِه إلّا اتَّصلَ بينهما سِرٌّ؛ ومن طبيعةِ القلبِ العاشقِ في حنينِه أنْ يَجْعَلَ كُلَّ شيءٍ يتَّصلُ بِهِ كأنَّهُ ذو قلبٍ مثلهُ لَهُ حنينٌ ونجوى!

وذلك الثلاثي المحفوظ في هذه الأوراقِ، يحفظُ لي فيها وفيما تحتويه نفساً وطبيعةً كانتْ نفسَ شاعرٍ وطبيعةً روضةً، في عهدٍ مِنَ الصَّبِيِّ كُنْتُ فِيهِ أَتَقَدَّمُ فِي الشَّبَابِ وَفِي الْكُوْنِ مَعاً كَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُخَلِّقُ فِي خَلْقٍ آخَرَ؛ فَإِذَا قَرَضْتُ^(١) شِعْراً وَأَسْتَوِي لِي عَلَى مَا أُحِبُّ، أَحْسَنْتُ إِحْسَانِ الْمَلِكِ الَّذِي يَضُمُّ إِلَى مَمْلَكَتِهِ مَدِينَةً جَدِيدَةً؛ وَإِذَا تَنَاوَلْتُ طَاقَةً مِنَ الزَّهْرِ وَتَأَمَّلْتُهَا عَلَى مَا أُحِبُّ، شَعَرْتُ بِهَا كَأَجْمَلِ غَانِيَةٍ^(٢) مِنَ النِّسَاءِ تُوجِي إِلَيَّ وَحْيَ الْجَمَالِ كُلِّهِ؛ وَإِذَا وَقَفْتُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، تَرَجَّرَ الْبَحْرُ بِأَمْوَاجِهِ فِي نَفْسِي، فَكُنْتُ مَعَهُ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ وَأَوْسَعَ مِنَ السَّمَاءِ. أَمَّا الْحُبُّ... أَمَّا الْحُبُّ فَكَانَتْ لَهُ مَعَانِيهِ الصَّغِيرَةُ الَّتِي هِيَ كَضُرُورَاتِ الطِّفْلِ لِلطِّفْلِ: لَيْسَ فِيهَا كَبِيرُ شَيْءٍ، وَلَكِنْ فِيهَا أَكْبَرُ السَّعَادَةِ، وَفِيهَا نَضْرَةُ الْقَلْبِ.

عهدٌ مِنَ الصَّبِيِّ كَانَتْ فِيهِ طَرِيقَةُ الْعَقْلِ مِنْ طَرِيقَةِ الْحُلْمِ؛ وَكَانَتْ الْعَاطِفَةُ هِيَ عَاطِفَةُ فِي النَّفْسِ، وَهِيَ فِي وَقْتٍ مَعاً خُذَعَةٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ؛ وَكَانَ مَا يَأْتِي يُنْسِي دَائِماً مَا مَضَى وَلَا يَذْكُرُ بِهِ؛ وَكَانَتْ الْأَيَّامُ كَالْأَطْفَالِ السَّعْدَاءِ: لَا يَنَامُ أَحَدُهُمْ إِلَّا عَلَى فِكْرَةٍ لَعِبٍ وَلَهْوٍ، وَلَا يَسْتَبْقِظُ إِلَّا عَلَى فِكْرَةٍ لَهُوَ وَلَعِبٍ: وَكَانَتْ اللَّغَةُ نَفْسُهَا كَأَنَّ فِيهَا أَلْفَاظاً مِنَ الْحُلُوى؛ وَكَانَتْ أَلَاآمٌ - عَالِي قَلْبِهَا - كَالْمَرِيضِ الَّذِي مَعَهُ دَوَاؤُهُ الْمَجْرُبُ، وَكَانَتْ فِلَسْفَةُ الْجَمَالِ تَضْحَكُ مِنْ فِلَسُوفِهَا الصَّغِيرِ، الْوَاضِحِ كُلِّ

(١) قرضت الشعر: أشتدته.

(٢) الغانية: الشابة اغتنت بجمالها عن الزينة.

الوضوح، المقتصر بكل لفظ على ما يُعرف من معناه، المتفلسف في تحقيق الرغبة أكثر مما يتفلسف في تخيل الفكرة!

هو العهد الذي من أخص خصائصه أن تعمل، فيكون العمل في نفسه عملاً ويكون في نفسك لذة.

في أوراقتي تلك بحثت عن قصة عنوانها «الدرس الأول في علبة كبريت» كتبته في سنة ١٩٠٥، وأنا لا أدري يومئذ أنها قصة يسبح في جوها قدر روائي عجيب، سيأتي بعد ثلاثين سنة فيكتب فيها السطر الأخير الذي تيم به فلسفه معناها.

وهانذا أنشرها كما كتبته؛ وكان هذا القلم إذ ذاك غصاً لم يضلّب، وكان كالفصن تميل به التهمة، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل، بلاغة فرجه أو بلاغة حزنه؛ وهذه هي القصة:

«عبد الرحمن عبد الرحيم» غلام فلاح، قد شهد من هذه الدنيا تسعة أعوام، مرّت به كما يمر الزمن على ميت: لا تزيده حياة الأحياء إلا إهمالاً فنشأ منشأ أمثاله بمن فقدوا آلاؤالدين وأنزعو من شملهم^(١) فتركوا للطبيعة تفصلهم وتصلهم بالحياة، وتضيّق لهم فيها وتوسع.

وهيأت الطبيعة منه إنساناً حيوانياً، لا يبلغ أشده حتى يغالب على الرزق بالحيلة أو الجريمة، ويستخلص قوته كما يرتزق الخوخن بالمخلّب والثاب؛ ولن يكون بعد إلا مجموعة من الأخلاق الحيوانية الفاتكة الجريئة، فإن الطبيعة متى ابتدأت عملها في تحويل الإنسان عن إنسانيته، نزلت به إلى العالم الحيواني، ووصلته بما فيه من الشر والدناءة، ثم لا تترك عملها حتى يتحول هو إليها.

وإلف «عبد الرحمن» في بلده حانوت رجل فقير، يستغني بالبيع عن التكف^(٢) وعن المسألة؛ فكان الغلام يكثر الوقوف عنده، وكان يطعم من صاحبه أحياناً كرزي الطير، فتأتا وبقايا؛ إذ كان الغلام شحاذاً، وكان صاحب الحانوت لا يرتفع عن الشحاذة إلا بمنزلة تجعل الناس يتصدقون عليه بالشرء من هناته^(٣) التي يسميها بضاعة: كالخيط، والإبرة، والكبريت والملح، وغزال للولد، وكخل

(١) شملهم: الجمع العائلي.

(٢) التكف: التسول والمسألة.

(٣) هناته: التافه من البضائع.

لِلصَّبَابَا، وَنَشَوْقٍ لِلْعَجَائِزِ، وَنُسَخَةِ الشُّعْرَانِي، وَمَا لَفَّ لَفَّهَا^(١) مِمَّا يَصْعَدُ
ثَمْنُهُ مِنْ كَسْرِ الْمَلِيمِ، إِلَى الْمَلِيمِ وَكَسُورَةِ!

وَتَغَفَّلُ^(٢) الْغَلَامُ مَرَّةً وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى ذَخَائِرِ الْحَانُوتِ، فَالْتَقَطَتْ «عَلْبَةَ كَبْرِيتٍ»
كَانَ الْفَرْقُ كُلُّ الْفَرْقِ بَيْنَ أَنْ يَسْرِقَهَا وَأَنْ يَشْتَرِيَهَا - نَصَفَ مَلِيمٌ؛ وَلَكِنْ مَنْ لَهُ «بِالْعَشْرِينَ
الْخُرْدَةِ» وَهِيَ عِنْدَ مِثْلِهِ دِينَارٌ مَنْ أَذْهَبَ يَرِنُ رِنِينَ وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفْرِ رُقْصَةً إِنْجِلِيزِيَّةً؟

وَمَاذَا يَصْنَعُ بِالْعَلْبَةِ؟ هَمَّتْ نَفْسُهُ أَنْ تُجَادِلَهُ وَلَمَّا تَسَكَّنَ رَغْشَهُ يَدِهِ مِنْ هَوْلِ
الْإِثْمِ^(٣)، وَلَكِنْ الْغَلَامُ كَانَ طَبِيعِيًّا وَلَمْ يَكُنْ فِيلَسُوفًا، وَلِذَلِكَ رَأَى أَنْ يُخْرِزَ الْحَقِيقَةَ
بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَيْهَا. وَقَدْ أَصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ مَادَّةَ السَّرْقَةِ هِيَ «مُدُّ الْيَدِ»
أَخْطَأَتْ أَمْ أَصَابَتْ، وَجَاءَتْ بِالْغَالِي أَوْ جَاءَتْ بِالرَّخِيسِ؛ فَضَمُّ أَصَابِعِهِ عَلَى الْعَلْبَةِ
وَأَنْتَزَعَهَا، وَتَرَكَ فِي مَكَانِهَا فَضِيلَةَ الْأَمَانَةِ الَّتِي لَمْ يَعْرِفْ لَهُ النَّاسُ قِيمَتَهَا فَهَانَتْ
كَذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَنْطَلَقَ وَهِيَ تُنَادِيهِ:

أَيُّهَا الْغَلَامُ، أَتَدْفَعُ ثَمْنَ عَلْبَةِ الْكَبْرِيتِ سَتَيْنٍ مِنْ عَمْرِكَ؟ وَهَلْ خِلَا النَّاسِ
مِمَّنْ يَعْرِفُونَ لِعَمْرِكَ قِيمَةً؟

وَأَرْتَدُّ رَجْعُ الصَّوْتِ^(٤) الْخَفِيِّ إِلَى قَلْبِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، فَضَرَبَ قَلْبُهُ
ضَرْبَاتٍ مِنَ الْخَوْفِ، وَنَزَا نَزْوَةٌ مُضْطَرِبَةٌ؛ فَالْتَفَتَ الْغَلَامُ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ أَمْعَنَ^(٥)
فِي الْفِرَارِ وَتَرَكَ الْأَمَانَةَ تُنَادِيهِ:

أَيُّهَا الْغَلَامُ، إِنَّ لَكَ فِي الْآخِرَةِ نَارًا لَا تُوقَدُ بِهَذَا الْكَبْرِيتِ، وَلَكِنْ فِي الدُّنْيَا
سَجْنٌ كَهَذَا الْعَلْبَةِ، فَالْعَبِ الْعَبَّ مَا دَامَ النَّاسُ قَدْ أَهْمَلُوا الْعَبَّ بِالْثَّقَابِ الَّذِي فِي
يَدِكَ فَسَيَمْتَدُّ فِيكَ مَعْنَى اللَّهِبِ حَتَّى يَجْعَلَ حَيَاتَكَ فِي أَعْمَارِ النَّاسِ دُخَانًا وَنَارًا؛
وَسَتَكُونُ أَيَّامُكَ أَعْوَادًا كَهَذَا الْكَبْرِيتِ: تَشْتَعِلُ فِي الدُّنْيَا وَتُحْرَقُ.

وَكَانَ أَذْنَابُ السَّيَاطِ كَانَتْ تُلْهَبُ ظَهَرَ الْغَلَامِ الْمَسْكِينِ، وَلَكِنَّهُ مَا كَادَ يَلْتَفِتُ
هَذِهِ أَلَمْرَةَ حَتَّى كَانَ فِي قَبْضَةِ صَاحِبِ الْحَانُوتِ، وَإِذَا هُوَ بِكَلِمَةٍ مِنْ لُغَةٍ كَفَّهِ
الْغُلِيزَةِ، خَيَّلَتْ لَهُ فِي شِعْرِهَا أَنَّ جِدَارًا أَنْفَضَ عَلَيْهِ، وَتَلَتْهَا جَمْلَةً مِنْ قَوَافِي الْأَصْفَعِ
جَلَجَلَتْ فِي أُذُنَيْهِ كَالرَّعْدِ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ مِثْلُ الْمَوْجِ مِنْ جَمَاعَاتِ الْأَطْفَالِ أَحَاطَ بِهِ

(١) مَا لَفَّ لَفَّهَا: مَا شَاكَلَهَا وَشَابَهَهَا.

(٢) تَغَفَّلَ: غَافَلَ: انْتَهَزَ فُرْصَةَ غَفْلَتِهِ.

(٣) هَوَلَ الْإِثْمِ: فَظَاطَعَةُ الْجَرِيمَةِ.

(٤) رَجَعَ الصَّوْتُ: الصَّدَى.

(٥) أَمْعَنَ: زَادَ.

فترك هذا الزورقَ الإنسانِي الصغيرَ يتكفأ على صدماتِ الأيدي، فما أحسنُ الغلامَ
التَّعِسُ إِلَّا أَنْ الْكَبِيرَتِ الَّذِي فِي يَدِهِ قَدْ أَنْفَدَحَ فِي رَأْسِهِ، وَكَانَتْ أُنَامِلُ صَاحِبِ
الْحَانُوتِ كَأَنَّمَا تَحْكُ أَعْوَادَهُ فِي جِلْدِ وَجْهِهِ الْخَثِينِ!



وذهبوا به إلى (دَوَارِ) الْعُمْدَةِ يَقْضِي فِيهِ اللَّيْلَ ثُمَّ يُصْبِحُ عَلَى رِخْلَةٍ إِلَى الْمَرْكَزِ
وَالنِّيَابَةِ؛ وَانْطَرَحَ الْمَسْكِينُ مُتَنْظِرًا حُكْمَ الصَّبَاحِ، مُؤْمَلًا فِي عَقْلِهِ الصَّغِيرِ أَلَا يُفْصِحُ
الْنَهَارُ حَتَّى يَكُونَ «سَيِّدُنَا عِزْرَائِيلُ» قَدْ طَمَسَ^(١) الْجَرِيْمَةَ وَشَهْوَدَهَا، ثُمَّ أَغْفَى مُطْمَئِنًّا
إِلَى مَلِكِ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ قَدْ أَخَذَ فِي عَمَلِهِ بِجَدٍّ، وَأَيَقَنَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنْ سَيُشْحَذُ فِي
الْخَمِيْسِ بِمَا يُوزَعُ فِي الْمَقْبَرَةِ صَدَقَةٌ عَلَى أَرْوَاحِ الْعُمْدَةِ، وَصَاحِبِ الْحَانُوتِ،
وَالْخَفِيرِ الَّذِي عَهَدُوا إِلَيْهِ جَرَّةً إِلَى الْمَرْكَزِ!.. وَكَيْفَ يَشْكُ فِي أَنَّ هَذَا وَقَعَ بِهِمْ
وَهُوَ قَدْ تَوَسَّلَ بِالْوَلِيِّ فَلَانٍ وَنَذَرَ لَهُ شَمْعَةً يَسْرِقُهَا مِنْ حَانُوتِ آخَرٍ...!

هَكَذَا عَرَفَ الشَّرُّ قَلْبَ هَذَا الصَّبِيِّ، وَأَنْتَهَى بِهِ عَدْلُ النَّاسِ إِلَى أَفْطَعٍ مِنْ ظَلَمِ
نَفْسِهِ، وَكَانَتْهُمْ بِذَلِكَ الْقَانُونِ الَّذِي يُصْلِحُونَهُ بِهِ عَلَى زَعِيمِهِمْ، قَدْ نَاولوه سُبْحَةً
لِيُظْهَرَ بِهَا مَظْهَرُ الصَّالِحِينَ؛ وَلَمْ يَقْهَمُوهُ شَيْئًا فَفَهِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَهُ: هَذِهِ الْجَرِيْمَةُ
وَاحِدَةٌ، فَعُدَّ جَرَائِمَكَ عَلَى هَذِهِ السَّبْحَةِ لِتَعْرِفَ كَمْ تَبْلُغُ!

كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ لُعْبَةً لَا سَرِقَةٍ، وَكَانَتْ يَدُ الْغِلَامِ فِيمَا فَعَلَتْ مُسْتَجِيبَةً
لِلْقَانُونِ الْمَرَحِ وَالْإِنْشَاطِ وَالْحَرَكَةِ، كَمَا تَكُونُ أَعْضَاءُ الطِّفْلِ لَا كَمَا تَكُونُ يَدُ اللَّصِّ؛
وَكَانَ أَشْبَهَ بِالرَّضِيعِ يَمُدُّ يَدَهُ لِكُلِّ مَا يَرَاهُ، لَا يَمِيزُ ضَارَّةً وَلَا نَافِعَةً، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ
يَشْعَرَ وَيُحَقِّقَ طَبِيعَتَهُ؛ وَكَانَ كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ وَقُضَارَى مَا بَلَغَ - أَنَّ خِيَالَ هَذَا الْغِلَامِ
أَلْفَ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ اللَّهِو، وَأَنَّ الْكِبَارَ أَخْطَنُوا فِي فَهْمِهَا وَتَوَجُّيْهَا...! لَيْسَتْ
سَرِقَةُ الطِّفْلِ سَرِقَةً، وَلَكِنَّهَا حَقٌّ مِنْ حَقُوقِ ذِكَايَةِ يُرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ



وَأَنْتَهَى «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» إِلَى الْمَحْكَمَةِ، فَقَضَتْ بِسَجْنِهِ فِي (إِصْلَاحَةِ الْأَحْدَاثِ)
مُدَّةَ سَنَتَيْنِ، وَأَسْتَأْنَفَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَيْرِ فِي بِلَدَةٍ؛ صَدَقَةٌ وَاحْتِسَابًا. إِذَا لَمْ
يَكْلَفِ الْإِسْتِنَافُ إِلَّا كِتَابَةَ وَرْقَةٍ؛ فَلَمَّا مَثَلَ الصَّغِيرُ أَمَامَ رَئِيسِ الْمَحْكَمَةِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ
لِفَقْرِهِ مُحَامٍ يَدْفَعُ عَنْهُ، وَلَكِنْ أَنْطَلَقَ مِنْ دَاخِلِهِ مُحَامٍ شَيْطَانِيٍّ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ عَجِيبٍ،

(١) طمس: غطى.

هو سخريةُ الجريمةِ مِنَ المحكمةِ، وسخريةُ عملِ الشيطانِ من عملِ القاضي...!

سألهُ الرئيسُ: «ما أسمُك؟».

-: «اسمي عبده، ولكنَّ العُمدَةَ يسميني: يابن الكلب!».

-: «ما سنُك؟».

-: «أبويَا هُوَ اللي كان سَتَان».

-: «عُمُرك إيه؟».

-: «عُمُري؟ عُمُري ما عَمَلت شَقَاوَة!».

النيابةُ لِلمحكمةِ: «دكَّاء مخيف يا حضرات القضاة! عُمُره تِسْعُ سنوات!»

الرئيسُ: «صَنَعَتك إيه؟».

-: «صَنَعَتِي أَلْعَب مع محمود ومريم، وأضْرَبَ اللي يَضْرِبُنِي!».

-: «تَعِيش فين؟».

-: «في البلد!».

-: «تاكل منين؟».

-: «آكل مِنَ الأكل!».

النيابةُ لِلمحكمةِ: «يا حضرات القضاة، مثلُ هذا لا يسْرِقُ عليه كبريتٌ إِلَّا لِيُحْرِقَ بها البلد...!».

الرئيسُ: «أَلَك أم؟».

-: «أُمِّي غَضِبَتْ على أبويَا، وراخَتْ قَعَدَتْ في الثَّرْبَة؛ مارِضِيْش تَزْجَع!».

-: «وأبوك؟».

-: «أَبُويَا لَأَخَرُ غَضِبَ وراخَ لها».

الرئيسُ ضاحكاً: «وَأَنْت؟».

-: «وَاللَّهِ يا أُنْدِي عَاوِزَا غَضِبَ، مُش عَارِفَ أَغْضَبَ أَزَاي!».

-: «إِنْت سَرَقْتَ عِلْبَةَ الكبريت؟».

-: «إِدي هِيَّ طَارَتْ مِنَ الدَّكَانِ، حَسِبْتَهَا عَصْفُورَة وَمِسْكُتَهَا...».

النيابةُ: «وليه ما طَارَتْشِ العِلْبُ اللي مَعَهَا فِي الدَّكَانِ؟».

-: «أَنَا عَارِفٌ؟ يَمَكِّن خَافَتْ مِنِّي!».

النيابةُ لِلمحكمةِ: «جَرَاءُ مَخِيفَة يا حضرات القضاة، المَتَهَمُ وهو في هذه السَّنِ، يَشْعُرُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَخَافُهُ!».

فصاح الغلام مسروراً من هذا الشاء... «والله يا أفندي إنت راجل طيب! أديك عرفتني، ربنا يكفيك شر العُمدَة والغفیر!». .

وأُضی الحُکْم في الاستئناف، وخرج الصغیر مع رجالٍ من المجرمین يسوقُهم الجند، ثم اختبَسوا الجميع فترةً من الوقت عند كاتب المحكمة، ليستوفي أعماله الكتابية؛ ثم يساقوا من بعد إلى السجن.

وجلس «عبد الرحمن» على الأرض، وقد اكتنفه عن جانبيه طائفة من المجرمین يتحادثون ويتغامزون، وكلهم رجالٌ ولكنه وحده الصغیر بينهم؛ فأطمأن شيئاً قليلاً، إذ قدّر في نفسه أنه لو كان هؤلاء قد أريدَ بهم شرٌ لما سكنوا هذا السكون، وأن الذي يراؤ بهم لا يناله هو إلا أصغرُ منه، كصفعةٍ أو صفتين مثلاً... وهو يسمع أن الرجال يُقتلون ويُحرقون ويسْمُون ويعتدون وينهبون؛ وما تكون (علبة الكبريت) في جنب ذلك؟ وخاصةً بعد أن استردّها صاحبها، وقد نال هو ما كفاه قبل الحكم!

وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن ردّ الأطمئنان في عينيه دموعاً كاذ يريقها الجزع^(١)، غير أن القلق اعتاده، فالتفت إلى كتاب المحكمة مرّة وإلى الجند مرّة، ثم لوى وجهه ولم يستخ لنفسه أن يتجرأ على الفِكر فيهم، لأنه قابل مهابتهم بالهية بلده: العُمدَة والمشايع والخفراء؛ فأدرك أن الجنود هم الحكومة القادرة، وأستدلّ على ذلك بأزارارهم اللامعة، وخناجرهم الصقيلة: وتمشّت في قلبه رهبة هذه الخناجر، فأضطرب خشية أن يكونوا قد أسلموه من يذبحه، فنظر إلى الذي يليه من المجرمین وسأله: «راخ ياخذوني فين؟»، فأجابته لكمة خفية أنطلق لها دمه، حتى أسكنه الذي يليه من الجانب الآخر، وكان في رأيه من الصالحين؟

ثم اتصل الجزع بين قلبه وعينه، فهما تضطربان إلى الجهات الأربع، وكأنما يُحاول أن يستشف^(٢) من أيّها سيأتيه الموتُ ذبحاً؛ ولم يكن فهم معنى (الإصلاحية)، وحكم القضاء عليه كأنه رجل يفهم كل شيء، ولم يرحموا هذه أطفولة بكلمة مفسرة. وعذّل التريية غير عدل القانون، فكان الواجب على القاضي الذي يحكم على الطفل، أن يجعل حكمه أشبه بصيغة القصبة منه بصيغة الحكم، وأن يدع الجريمة تطلق وتذهب فلا يقول لها أمكثي.

(٢) يستشف: يستطلع.

(١) الجزع: الخوف.

وبقي لِلخناخِرِ رَهْبُثُها في نفسِ هذا المسكين، فلو أنَّهم قادوه إلى حبلِ الشَّاقَّةِ^(١) لَأَفْهَمَهُ (الْحَبْلُ) معنى الْعَقوبة، أمَّا وهو بين هذه الخناجرِ الْمُغْمَدة - وفي الخناجرِ معنى الذَّبْح - فَإِنَّمَا هُوَ الذَّبْحُ لا غَيْرُهُ.

وطرقت أذنيه قهقهةُ المجرم عن يمينه فاستنقذته من هذا الخطر، فثبتَ عينيه في الرجل، فإذا هو يرى وجهاً متلألئاً، وجسماً رابطَ الجأش، وهزواً وسخريةً بهؤلاء الجنودِ وخناجرهم.

وأستراح الغلامُ إلى صاحبه هذا، وألحَ بنظره عليه، وأبتدأ يتعلَّم في وجهه الفلسفة؛ وليسَت الفلسفةُ مقصورةً على الكتب، بلْ إِنَّ لِكُلِّ إنسانٍ حالةً تشغله، فَتَظَرُّهُ في أعتابِ دقائقها وكشفِ مستورها هُوَ الفلسفةُ بعينها.

وقالَ الغلامُ لِنَفْسِهِ: «هذا الرجلُ أقوى من كلِّ قوَّة؛ فهو محكومٌ عليه ولا يُبالي، بلْ يقهقه ضحكاً؛ فهذا الحكمُ إذن لا يُخيف؛ لا، بلْ هو تعودُ الأحكام؛ إذن فمنْ تعودُ الأحكامَ لم يَخَفِ الأحكام؛ إذن يا عبدَ الرحمنِ ستتعوَّد، فَإِنَّ الخوفَ هذه المرةَ غطَّتْ من (علبةِ الكبريت) في حريقٍ متسعرٍ، وما قَدَّرُ (علبةِ الكبريت)؟ فلو كانتِ السَّرقةُ جاموسةً ما لقيتُ أكثرَ من ذلك؛ يا ليتني إذن... ولكنِّي لا أزالُ صغيراً، فمتى كبرت... آه متى كبرت...».

وبدأ القانونُ عملهً في الغلام؛ فَطَرَدَ مِنْهُ الطِفْلَ وأقرَّ فيه المجرم.

وأطرق «عبدُ الرحمن» هادئاً ساكناً، وقامت في نفسه محكمةٌ مِنَ الأبالسةِ بِقُضائِها وزيائِها؛ يُجادِلُ بعضهم بعضاً، ويداولون بينهم أمرَ هذا الغلامِ على وجهٍ آخر.

وقالَ شيطانُ منهم: «ولكنَّا نخشى أمرين: أحدهما أَنَّ (الإصلاحيةَ) ستُخرجُهُ بعدَ سنتينِ شريفاً يحترف؛ والثاني أَنَّ الناسَ ربُّما تولَّوه بالتربيةِ والتعليمِ في المدارسِ رحمةً وشفقةً؛ فيخرجُ شريفاً يحترف».

وما أسرعَ ما نفى الخوفَ عنهم قولُ الغلامِ نفسه بلهجةٍ فيها الحِقدُ والغَيْظُ وقد صفَّه الجنديُّ الَّذي يقوده إلى السجن -: «ودا كله على شانِ علبةِ كبريت؟...».

في سنة ١٩٣٤ قُضِيَ محكمةَ الجناياتِ بالموتِ شقاً على قاتلِ مجرمٍ خبيثٍ عيَّارٍ مُتَشَطِّرٍ؛ اسمه «عبد الرحمن عبد الرحيم».

(١) الشَّاقَّةُ: المشنقة.

عاصفةُ القدر

على شاطئ النيل في إقليم (الغربية) من هذا البر، قرية ليس فيها من جبل، ولكن روح الجبل في رجل من أهلها، فإذا أنت اعتبرت بالرجال قوة وضعفاً رأيتهم ينهض فيهم بمنكبهم نهضة الجبل فيما حوله؛ وهو بطل القرية ولواء كل معركة تنشب فيها بين فتانها وبين فتان القرى المتناثرة حولها؛ ولا تزال هذه المعارك بين شبان القرى كأنها من حركة الدم الحر الفاتح المتوارث فيهم من أجيال بعيدة، ينحدر من جبل إلى جبل وفيه تلك القطرات الكثيرة التي كانت تغلي وتغور، وهي كعهد لها لا تزال تغور وتغلي، ويلقبون هذا الرجل الشديد (بالجمل)، لما يعرفونه من جسامته خلقه وصبره على الشدائد، واحتماله فيها، وكونه مع ذلك سلس القياد سليم الفطرة رقيق الطبع؛ على أنه أبطش ذي يدين إن ثار ثائرته، وله إيمان قوي يستمسك به كما يتمسك الجبل بعنصره الصخري، إلا أنه يخلطه ببعض الخرافات؛ إذ لا بد له من بعض الجرائم الشريفة التي يحمل عليها فرط القوة والمروءة في مثله مع مثله.

وليس في تلك القرية من بحر، غير أن فيها شاباً أعنف طيشاً وغتواً من الموجه على بحرهما في يوم ريح عاتية، حلوا المنظر لكثرة مر الطعم، صافي الوجه لكن له غوراً بعيداً من الدهاء والخبث، وهو ابن عمدة البلدة وواحد أبويه وألوارث من ذنباها العريضة، يسطر يديه على خمسمائة فدان، وقد أفسدته النعمة وأهانت عزة على أهله؛ ولو اجتمعت حستان لخرج منهما سيئة من السيئات بأسلوب من الأساليب، لما وسعها إلا أسلوب نشأته من أبويه الطيبين. تعلم وهو يعرف أنه لا حاجة به إلى العلم، فجعلت تلفظه المدارس واحدة بعد واحدة كأنه نواة ثمرة إنسانية فإذا قيل له في ذلك قال: إن خمسمائة فدان لا تسعها مدرسة. وذهب إلى فرنسا يطلب العلم الذي استعصى عليه في مصر، فأرهمف ذلك العلم... خياله وصقل جسده، ورجع من باريس رقيق الحاشية خنياً متظرفاً لا يصلح شرقياً ولا غربياً!

وليس في تلك القرية غابة لكن فيها عذراء تلتف من جسمها في رداء الجمال الطبيعي الرائع، ولها نفس أشد وعورة مما تنطوي الغابة عليه؛ ففي ظاهرها الرونق الذي يفتن فيجذب إليها، وفي باطنها القوة التي تلتوي فتدفع عنها؛ وهي أبنه عم (الجمال) وأسمها (خضراء)، وكأن فيها زهو خضرة الربيع، ولم تكن تعشق إلا القوة، فما يُزِن لها من الرجال إلا أبْن عمها، وهي شديدة الإعجاب به؛ وإنما إعجاب المرأة برجل من الرجال مفتاح من مفاتيح قلبها.

وكانت (خضراء) جاهلة كنساء القرى، بيد أنها تلميذة بارعة للطبيعة التي نشأت فيها وزاولت أعمالها؛ فهي بذلك أقوى نفساً وأشدّ مراساً من الفتيات المتعلّقات؛ إذ اتخذت شكلاً ثابتاً من أشكال الحياة، والحياة هي صنعتها هذه الصنعة أو أقامتها على هذه الهيئة، على حين أن المتعلّقات يُمضين أيام النساء ورسن الغريزة في التلقي عن الألفاظ والكتب، وفي توهم الصور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها وفي توقي أعمال الحياة بدلاً من مخالطتها؛ فيقول ذلك منهن إلى قوة في التخيل قلما ترضى الحقيقة الإنسانية المؤلمة حين تصادمها يوماً ما؛ وتتم الواحدة منهن، ولكن باعتبار أنها تمت تلميذة للمدرسة لا امرأة للحياة بما فيها مما يُعجب وما لا يُعجب.

وكانت خضراء أشبه بدورة النهار: تفتح أجفانها على أشعة الفجر كل يوم، ولا تزال نهارها في دأب وعمل، فنفي ذلك عن أخلاقها ما يجعله السكون من الخمول والكميل إلى العبث والكذابة، وحصلت لها من الحياة حقيقة عرفت منها أن المرأة عامل من أكبر العوامل في النظام الإنساني؛ عليه أن يصبر على الكد والتعب إذا أراد أن يظهر بطبيعته الحقيقية لا بطبيعته المزورة المصنوعة؛ ورأت الرجل يستأثر بجلال الأعمال ولا يترك للمرأة إلا كما يترك عقرب الساعات لعقرب الثواني في الرقعة التي تجمعها؛ فهذا الصغير لا يبرح يضطرب في «دائره الضيقة» بهت من جزء إلى جزء، حتى إذا أتم الدقيقة في ستين هزة كاملة ذهب الأول بفضلها كلها وخطابها خطوة واحدة: ثم يعود المستضعف المسكين إلى مثل عمله ولا يزال دأبهما وإن أكثرهما عملاً وتبعاً هو أقلهما قيمة وظهوراً؛ ولكن هذا الضعيف المغبون^(١) لم ينله ما ناله إلا من كونه هو وحده الذي بُني في هذا النظام

(١) المغبون: المظلوم.

على فضيلة الصبر والدقة، ليكون أساساً للآخر؛ فعرقت (خضراء) كيف تُقَيِّدُ طبيعتها من تلقاء نفسها، وتقرأها على الصبر والرضا والسكون إلى حظها الطبيعي والأغباط^(١) به؛ إذ كان فضل الرجل على المرأة ليس في كونه أكثر منها فضلاً أو أسباب فضل، بل في كونها هي أكثر منه حُباً وتسامحاً وصبراً وإثارة؛ ففضائلها الحقيقية هي التي جعلته الأفضل، كما تجوع الأم لتطعم أبنها!.

* * *

ورآها (ابن العمدة) ولما تمضي أيام على رجوعه من أوروبا، وقد لبث هناك بضعة سنين، وكان عهده بالفتاة صغيرة، فوثبت إلى نفسه في وثبة واحدة، ورأى شاباً وجمالاً وروعة زينتها في قلبه وسوّلت له مطمعا من المطامع، وجعلته يرى ما يرى بمعنى ويفهم منه ما يفهم بمعنى غيره.

وكانت حين رآها واقفة على النيل تملأ جرّتها مع نساء من قومها وهن يتعابثن^(٢) ويتضحكن، كأن لخصب الأرض في أرواجهن أثراً بادياً، فإذا ما أقبلن على النهر لشأن من شؤونهن تندت روح الماء على ذلك الأثر فاهتزت واهتزت المرأة به، فإن كانت ذات مسحة من جمال رأيت لها ريفاً كرفيف الزهرة حين يمسحها الندى، وذهبت تموج في جسمها، وقد حسرت^(٣) عن ذراعيها، ولمس الماء دمهها الجذاب فأرسل فيه تياراً من العافية والتشاط يتصل منها بقلب من يراها إن هو كان شاعراً يحس؛ فإن كانت روح الرجل ظمأى ورأى المرأة على هذه الهيئة، فما أحسبه إلا يشرب منها بعينه شرباً يجد له في قلبه نشوة كنشوة الخمر؛ وكذلك وقعت الفتاة من نفس هذا الفتى فزينها له الحب الذي فيه أضعاف ما زينها له الجمال الذي فيها، وقذفها القدر إلى قلبه ليخرج من هذا القلب تاريخ جريمة؛ فوقف يتأملها بعين أحد من آلة التصوير لا تفوتها حركة، وسلط عليها فكره وذوقه، وأيقظ لها في نفسه المعاني الراقدة، فنصبت في قلبه عدة من تماثيل الجمال تجسدت في كل واحد منها على شكل كأنما أفرغت فيه إفراغاً.

وكانت نفس ابن العمدة من النفوس الخيالية المتوثبة؛ إذ قامت من نشأتها

(١) الاغباط: الشعور بالسعادة.

(٢) يتعابثن: يملحن ويمزحن.

(٣) حسرت: كشفت.

على أن تطلب فتجاب، وتأمّر فقطاع، وتشتهي فتجد؛ وكأنّه ما خلُق إلا ليستعيد قلبه والديه، وكانا ساذجين لا يعرفان من علم التربية إلا أن للحكومة مدارس للتربية، وموسرين^(١) لا يفهمان من معنى الحاجة في هذه الدنيا إلا أنها الحاجة إلى أكمال، ومنقطعين من النسل إلا منه، فكانه لم يولد لهما، بل قد وُلدا له. قلّه الأمر عليهما من كونه لا أمر لهما عليه؛ وبذلك أسرف له من فضائل الرقة والحنان والاشفاق وما إليها، وهي في نفسها فضائل، ولكن متى أسرف بها الآباء على أولادهم لم تُشع في أولادهم إلا ما يكون من أضدادها، كالشجر تُقِرط عليه الرّي فلا يحدث فيه إلا اليبس والدّوى، وإنما أنت تسقيه الموت ما دُمّت ترويه بمقدار من هواك لا بمقدار حاجته.

ونشأ الفتى في أحوال اجتماعية مختلفة جعلت من أخص طبايعه تمويه نفسه على الناس، والتباهي بالغنى، والتبذل بالأصدقاء والأحاشية من وزرائه وعُماليه، وأنهي بالثياب والأزياء؛ فأنصرف باطنه إلى تجميل ظاهره، وردّ ظاهره على باطنه بالشهوات والدنایا، وأعانته على ذلك أنّه جميل فاتن كأنما خلقت صورته «للمصحة الحساسة» من قلوب النساء؛ وذلك ملك عظيم لم يكن أبوه الرجل الطيب منه إلا كما يكون وزير مالية الدولة... ولمّا أرسل إلى باريس وقع منها في بليد عجيب كأنه خيال متخيل لا يؤمّه رجل في الدنيا من كامل أو ناقص أو عالم أو جاهل وشريف أو ساقط إلا رأى ما يملأ كلّ مداخل نفسه ومخارجها، فلو قامت مدينة من أحلام النفوس الإنسانية في خيرها وشرها وطهرها وفجورها وأختلالها ونظامها لكانت هي باريس؛ وأنقطع الشاب هناك إلى نفسه وإلى صور نفسه من أصدقاء السوء، فلا أهل فيلزمه ألفضيلة، ولا إخوان فيردّوه إلى الرّي، ولا خلُق متين فيعتصم^(٢) به، ولا نفس مرّة فيفيء إليها، ولا فقر. فيحدّ له حدوداً في الشهوات يقف عندها؛ وما هو إلا خيال متوقّد ومزاج مشوب وتربية مدلّلة وطبع جريء ومال يمرّ في إنفاقه، ومن ورائه أب غنيّ مخدوع كأنه في يد ابنه كره الخيط: كلّما جذب منها مدّت له مدّاً، ثمّ ما هنالك من فنون الجمال ومُتّع اللذات وأسباب اللهو، ممّا يتناهى إليه فساد الفاسد، وما هو في ذاته كأنه عقوبة مستأصلة للأخلاق الطيبة؛ فكان الشيطان الباريسي من هذا المسكين في سمعه وبصره ورجله

(١) موسرين: أغنياء.

(٢) يعتصم: يمتك.

ويده، يُوجِّهه حيثُ شاء؛ وبِالجملة فقد ذهب ليدرسَ فدرسَ ما شاء ورجعَ أستاذًا في كلِّ علومِ النفسِ المختلَّةِ الطائِفةِ وفنونها، وأضافَ إلى هذه وتلك كلماتٍ يلوي بِها لسانه من علومٍ وأقاويلٍ ليسَ فيها إلَّا ما ما يدلُّ الحاذقُ على أنَّ هذا الشابَّ لم يَخلُصَ قطُّ في مدرسة.

فلَمَّا وقَعَت (خضراء) منه ذلك الموقِعَ وأخذت مآخذها في نفسه، اعتدَّها^(١) نزوةً من نزواته؛ فما بمثله أن يُحبَّ مثلها، ولا هي كفايته في شيءٍ إلَّا أن تكونَ لهُوَ ساعةً من ساعاته، أو حادثَةٌ تجري فيها حالٌ من أحواله الغرامية؛ وحسبها امرأةٌ ليسَ لِقَليها أبوابٌ تمتنعُ على مثله، فقدَر أنَّ غِناءَ وفقرها يقتلعانِ باباً، وعلمُه وجهلُها يُحطِّمانِ باباً آخر، وجمالُه وحدهُ يَضَعُ ما بقيَ مِنَ الأَقفالِ عَمَّا بقيَ مِنَ الأبوابِ! وكانَ يحسبُ أنَّ جمالَ المرأةِ مِنَ المرأةِ كالحليةِ من بائعيها؛ فكلُّ مَنْ ملكَ ثمنها فليسَ بينه وبينها إلَّا هذا الثمن؛ ولكنَّ الأيامَ جعلتْ تأتي وتمرُّ وهو لا يزيدُ على أن يعرضَ لها وهي ترميه من صدودها كلَّ يومٍ بداعيةٍ من دواعي الهوى؛ وكانَ لا يجدُ بنفسه قوَّةً أن يزيدَها على النظرِ شيئاً، وتركَ لوجهه وزيابيه ونظراته وغِناءه أن تَصِلَ بينَ قلبه وقلبيها بسبب، فلم ينلْ طائلاً؛ وتمادى في حُبِّه، وأستولت عليه فكرةٌ غمرتُه بهذه المرأة؛ أمَّا هي فأشعرتها غريزتها بما في قلبه منها، وكانت مُسمَّاةً لأينَ عمَّها^(٢) فكانت تتحاشى^(٣) هذا الشابَّ وتحذره حذراً شديداً، وتوهمُ أنَّ الناسَ يُحْصونَ عليها الأنظرةَ والآلتفاتَ ويُحْصونَ عليه من مثلهما، ووقعَ في نفسها أنَّ لهذا الرجلِ شأنًا غيرَ شأنِ الرجالِ الآخرين، فهم لا يستطيعونَ معها حيلةً وهو يستطيعها بِغِناءٍ ومنزلة.

وكانَ للرجلِ خادمٌ داهيةٌ قد تخرَّجَ في مجالسِ القضاء... من كثرةِ ما حُكِمَ عليه في تزويرٍ وأحتيالٍ وغشٍّ وأدعائٍ وإنكارٍ ونحوها، وقد استخلصه لِنَفْسِهِ وأتخذَه مؤانساً ورفيقاً؛ وجعلَه دسيساً^(٤) إلى شهواتِه أَسافلةٍ وكانَ يُسميه فيما بينهما (إبليس)؛ فلما أرادَ أن يرميها بِهِ قال: يا سيدي، هذه قضيةُ أحتيالٍ عليها، فإذا دخلَ أبْنُ عمَّها خَصْماً في الدَعوى كانتَ قضيةُ أحتيالٍ على عمري أنا! قال: ويحكُ أيُّها الأبله! فأين دهاؤك ومكرُك؟ وإنَّما أرسلُك إلى امرأةٍ فقيرةٍ عيشها كفافها،

(١) اعتدَّها: تنجَّب.

(٢) دسيساً: جاسوساً.

(٣) اعتدَّها: حسبها.

(٤) أي مخطوية.

وَأَنْتِ تَعُدُّهَا وَتُؤَمِّئُهَا وَتَبْذُلُ عَنِّي مَا شِئْتَ، وَمَتَى أَطْمَعْتَهَا فِي أَلْمَالِ فَإِنَّ هَذَا أَلْمَالَ
سَيُوجَدُ مَا يُوْجَدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَيُشْرِي مَا لَا يُشْرَى، وَيَبِيعُ مَا لَا يُبَاعُ! قَالَ
(إِبْلِيسُ): نَعَمْ يَا سَيِّدِي، وَكَذَلِكَ هُوَ وَلَكِنَّ خَوْفَ الْعَارِ يَطْرُدُ حُبَّ أَلْمَالِ! قَالَ:
فَأَنْتِ إِذْنِ لَا تَقْبَلِي؟ قَالَ: وَلَا أَرْفُضُ... قَالَ الشَّابُّ: قَاتِلْكَ اللَّهُ! لَقَدْ فَهَمْتُ!
سَأَشْتَرِيهَا مِنْكَ بِثَمْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا لَكَ وَالْآخَرُ لَهَا؛ وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي كَيْفَ تَصْنَعُ مَعَهَا
وَمَنْ أَيْنَ تَبْلُغُ إِلَيْهَا؟ قَالَ (إِبْلِيسُ) لَمَّا كُنْتُ فِي السَّجَنِ عَرَفْتُ لَصًّا فَاتَكَأَ أَعْيَا قَوْمَهُ
حُبًّا وَشَرًّا؛ وَهَذَا السَّجْنُ يَحْسِبُهُ عِقَابًا وَرَدْعًا وَمَنْهَاجًا عَنِ الْإِثْمِ، عَلَى أَنَّهُ الْمَدْرَسَةُ
الَّتِي تُنْشِئُهَا الْحُكُومَةُ بِنَفْسِهَا لِتَلْقَى عِلُومَ الْجَرِيمَةِ عَنْ كِبَارِ أَسَاتِذَتِهَا؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَجْتَمَعَ كِبَارُهُمْ فِي مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا فِيهِ؛ فَالْسَّجْنُ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ حَلِّ الْمَشْكَلَةِ
الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ يُحَدِّثُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ مُشْكَلَةً لَا تُحَلُّ! قَالَ الْفَتَى: وَيَحْكُ!
أَيْنَ يُذْهَبُ بِكَ؟ إِنَّمَا أُرْسَلْتُكَ إِلَى الْمَرْأَةِ لَا إِلَى السَّجَنِ! قَالَ: تُرْسَلُنِي أَنْتِ إِلَيْهَا
وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ أَيْنَ يُرْسَلُنِي أَبْنُ عَمِّهَا: إِلَى السَّجَنِ أَمْ إِلَى الْمَسْتَشْفَى...!
فَأَسْمَعُ يَا سَيِّدِي: كَادَ مِنْ نَصَائِحِ أَسَاتِذِي فِي ذَلِكَ السَّجَنِ: أَنَّ الْجِيلَةَ عَلَى رَجُلٍ
يَنْبَغِي لِإِحْكَامِهَا أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ أَسْبَابِهَا أَمْرًا، وَالْكِيدُ لِمَرْأَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي
بَعْضِ وَسَائِلِهِ رَجُلٌ... صَهْ! انْظُرْ أَنْظُرْ! فَالْتَفَتَ الشَّابُّ، فَإِذَا (الْجَمَلُ) مُقْبِلٌ يَتَكَفَّأُ
فِي مَشِيَّتِهِ، وَكَانَ غَلِيظًا، فَإِذَا خَطَا شَدَّ عَلَى الْأَرْضِ بِقَدَمَيْهِ وَتَكَدَّسَ^(١) بَعْضُهُ فِي
بَعْضٍ؛ وَكَانَ مُنْطَلِقًا وَقَتْنِذٌ إِلَى بَعْضِ مَذَاهِبِهِ، فَلَمَّا حَاذَاهُمَا قَالَ: أَلْسَلَامٌ عَلَيْكُمَا!
فَرَدَّا جَمِيعًا، وَرَمَى أَبْنُ الْعُمْدَةِ بِنَظَرَةٍ، ثُمَّ مَضَى لِيُوجِهَهُ فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى
بَلَغَهُ صَوْتُ الشَّابِّ يُنَادِيهِ: يَا فَلَانُ! فَانْكَفَأَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الشَّابُّ: لَقَدْ بَعْدَ عَهْدِكَ
بِالْقُوَّةِ عَلَى مَا أَرَى. قَالَ: فَمَا ذَاكَ؟ قَالَ أَمَّا بَلَغَكَ أَنَّ فَلَانًا فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ الَّتِي
تُجَاوِزُنَا سَيَقْتَرُنُ بِزَوْجَتِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ، وَأَنْتِ تَعْرِفُ الْمَوْقِعَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ بَلَدِنَا وَتِلْكَ
الْبَلَدَةِ يَوْمَ عَرَسِ فَلَانٍ فِي أَلْسِنَةِ الْمَاضِيَةِ، وَكَيْفَ أُنْدَفَعُوا عَلَى أَهْلِ بَلَدِنَا وَحَطُّمُوا
فِيهِمْ تِلْكَ الْحَطْمَةَ الشَّدِيدَةَ وَلَوْلَا أَنْتِ أَدْرَكْتَهُمْ وَرَمَيْتَهُمْ بِنَفْسِكَ حَتَّى دَفَعْتَهُمْ عَنِ
النَّاسِ وَسَقَطَتْ أَمَانُكَ سَوْقَ الْتَعَاجُجِ، لَكَانَتْ بَلَدُنَا أَلْيَوْمَ أَذَلَّ الْأَبْلَادِ، وَلَا سَطَلُوا عَلَيْنَا
بِأَتْنِهِمْ غَلَبُونَا؛ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي صَاحِبِي هَذَا كَيْفَ تَلَقَّيْتَ بِهَرَاوَتِكَ يَوْمَئِذٍ خَمْسًا وَعِشْرِينَ
هَرَاوَةً، فَاطْرَئْتَهَا كُلَّهَا فِي جَوْلَتِكَ، وَهَزَمْتَ أَصْحَابَهَا بَعْدَ أَنْ أَحَاطُوا بِكَ وَتَكَلَّبُوا

(١) تَكَدَّسَ: اجْتَمَعَ.

عليك^(١)؛ فأنت فخرُ بلدنا وصاحبُ زعامتها، وما أرى لك إلا أن تنتهزَ هذه الفرصةَ وتُسرعَ ألوبةً إليهم برجالِكَ، فتجزِيهم في أرضهم صنيعاً بصنيعِ مثله!

فهزَّ الجملُ كتفيه العريضتين وقال: بل سأنتظرهم في يوم عرسي بأبنة عمي...! قال الشابُّ: أبلغتُ ما أرى؟ فأئك لتخافهم! قال: لا أخافهم ولكن أخافُ الحكومةَ أن تؤخِّرَ يومَ زواجي... سنةً أو سنتين! قال ألفتى: فإنَّ عملَكَ هذا لا يشدُّ من نفوسِ رجالنا، ولا بُدَّ أن أولئك سينتظرونكم ويُعدُّونَ لكم، فإذا لم تُناجزوهم^(٢) في بلدهم عدُّوها عليكم هزيمةً من الهزائم، وكانهم ضربوكم بلا ضرب!

قال الجملُ: هم لا يعرفون معنى الضربِ بلا ضرب؛ لأنَّهم رجال؛ والذي يُضربُ بلا ضربٍ لا يكونُ رجلاً... والسَّلامُ عليكم! ثمَّ انطلق، فلمَّا أبعدَ قال الشابُّ: لقد بدأتُ الحربُ ولا بُدَّ لي أن أحطِّمَ هذا ألفلاحَ اللعين! ولقد عرفتُ الآنَ من وجهه أنَّ عينه عليّ، ولستُ أشكُّ في أنَّ بنتَ عمه لا تمتنعُ بقوةِها بل بقوةِها، ولولا معرفتي أنَّه من انحطاطِ الغريزةِ كالوحشِ في الدفاعِ عن أنثاه لـ.

قال (إبليس): لقد تأملتُ القصةَ فرأيتُ أنَّه لا سبيلَ لك إلى الفتاة وهي بعدُ فتاة، فإذا هو وصلَ إلى أمرائه قطعْتَ أنت بهذه الخطوةِ نصفَ الطريقِ إليها. وستبلو هي من غلظتهِ وخسونةِ طبيعهِ ما يسهلُ لك أن تُعلمَها قيمةَ ظرْفِكَ ورقَّتِكَ، وستجدُ من سوءِ معاملتهِ وقبحِ تسلُّطهِ ما يفتحُ قلبها لِمَن يأتيها قبلَ الرِّفقِ واللينِ، وستُصيبُ عندهُ من ضيقِ المعيشَةِ وقِلَّتِها ويسبها ما يُفهمُها معنى ذلك العيشِ الحلو الخضرِ الذي تعرضهَ عليها؛ ثمَّ إنَّه لا بُدَّ مبتليها بِغَيْرَةِ العُمياءِ بعدَ ما عرفَ من حُبِّكِ إياها، والغيرةُ منك هي تُوجدُك بينهما دائماً وتنبِّهُ المرأةَ إليك كلِّما كرهَتْ من رجلها شيئاً لا ترضاهُ.

ولم تكنْ إلا مدةً يسيرةً حتى أُهديتْ^(٣) المرأةُ إلى زوجها، وإنَّما تعجَّلَ الزَّفافَ ليأتي له أن ينصبَّ يدهُ القويَّةُ حجاباً بينها وبينَ هذا المفتون، وليكتسبَ مِنَ القانونِ حقاً لم يكنْ له من قَبْلُ إذا هو مدَّ أليدهُ وعصرَ في قبضتها تلكَ الرِّقبةَ التي تتطلَّعُ إلى أمرائه؛ ورأى الشابُّ أنَّ هذه الحالَ لا تعتدلُ بِهِ وبخصمه معاً، وكانتِ الغيرةُ تأكلُ من قلبهِ أكلًا، وكانَ يعرضُ للمرأةَ كلِّما خرجَتْ بِمِكتَلِها^(٤) إلى السوقِ

(٣) أُهديت: رُقَّت.

(٤) المِكتَل: الغلق.

(١) نكلُّوا عليك: تجرَّؤا عليك.

(٢) تناجزوهم: تقاتلوهم.

أو بِجَرَّتِهَا إِلَى الْمَاءِ لِأَنَّهُ حَيْثُ كَانَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ . . . فَكَانَتْ إِذَا رَأَتْهُ لَمْ تَزِدْ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهَا إِذَا هِيَ أَبْصَرَتْ حِمَارًا يَمُدُّ عَيْنَهُ إِلَيْهَا! . فَعَمِدَ إِلَى أَمْرَأَةٍ مَقِينَةٍ تَزُفُّ الْعَرَائِسَ، وَهِيَ الَّتِي زَفَّتْ (خُضْرَاءَ) فَأَكْرَمَهَا وَأَتَحَفَهَا وَسَأَلَهَا أَنْ تُسَقِّفَهُ^(١) بَعْضِ مَا تَحْتَالُ بِهِ، وَأَنْ تَكُونَ سَبِيلَهُ إِلَى الْمَرْأَةِ؛ وَتَحْمِلَ عَلَيْهَا (بَابِلَيْسَهُ) حَتَّى أَسْتَوْثِقَ^(٢) مِنْهَا، فَكَانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْهُ أَمَامَ (خُضْرَاءَ)؛ تَسْتَجِرُّ بِذَلِكَ أَنْ تَلْفَتَهَا إِلَى نِعْمَتِهِ وَجَمَالِهِ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ أَغْلَظَتْ لَهَا وَسَبَّتَهَا وَحَذَرَتْهَا أَنْ تَعُودَ إِلَى مِثْلِ كَلَامِهَا، وَقَالَتْ لَهَا آخِرَ مَا قَالَتْ: وَأَعْلَمِي أَنَّنِي لَوْ دُفَعْتُ إِلَى طَرِيقَيْنِ وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِهِمَا، ثُمَّ كَانَ أَحَدُهُمَا حِصَاةَ الدَّنَانِيرِ وَهُوَ طَرِيقُ الْعَارِ، وَالْآخَرُ حِصَاوَةُ الْجَمْرِ وَيُقْضَى إِلَى الشَّرَفِ، إِذَنْ لَتَنْزَهُتُ أَنْ أَدُسَّ نَعْلِي بِالْذَّهَبِ وَلَتَنْثُرْتُ لَحْمَ قَدَمِي عَلَى الْجَمْرِ نَثْرًا.

وَالْحُبُّ لَا يَبْقَى حُبًّا أَبَدًا، فَلَمَّا فَازَ فَبَرَدَ وَرَجَعَ سَلَوًا، وَإِنَّمَا خَابَ فَأَضْطَرَمَّ وَتَحَوَّلَ إِلَى حَقْدٍ وَنِقْمَةٍ؛ وَكَذَلِكَ أَنْفَجَرَ الشَّابَّ غَيْطًا، وَوَجَدَ عَلَى الْخَبِيَةِ مَوْجِدَةً شَدِيدَةً، وَآخِذٌ يُدِيرُ رَأْيَهُ، فَفَتَقَتْ لَهُ الْحِيلَةَ أَنْ يَقْتُلَ الرَّجُلَ الشَّهْمَ بِشَهَامَتِهِ، وَالْمَرْأَةَ الْغَافِقَةَ بِعَفْقَتِهَا؛ فَوَاطَأَ^(٣) إِبْلِيسَهُ عَلَى أَنْ يَدْفَعَ إِلَى تِلْكَ الْمَقِينَةِ مَبْدِيًّا مِنَ الْحَرِيرِ عَقْدَ طَرَفَةٍ عَلَى دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ، ثَلَاثَةً فِي صَنْدُوقِ (خُضْرَاءَ) وَتَدُسُّهُ^(٤) فِي طَيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ ثِيَابِهَا؛ فَذَهَبَتِ الْمَرْأَةُ، وَمَا زَالَتْ بِخُضْرَاءَ تَسْتَصِلِحُهَا وَتَعْتَذِرُ إِلَيْهَا حَتَّى أَسْتَلَّتْ^(٥) ضَغِينَةً قَلْبِهَا، ثُمَّ سَالَتْهَا أَنْ تَأْتِيَهَا (بِالْعِيشِ وَالْمَلَحِ) لِيُتَصِيبَ كُلُّهُمَا مِنْهُ وَتَتَحَرَّمَ بِحُرْمَتِهِ؛ فَلَمَّا نَهَضَتْ تَأْتِيَهَا أَسْرَعَتْ الْخَبِيَةُ إِلَى الصَّنْدُوقِ فَدَسَّتِ الْمَنْدِيلَ فِي أَبْعَدِ مَوَاضِعِهِ وَأَخْفَاهَا؛ وَكَانَ مَنْدَى بِالْعَطْرِ لِيَنْمَ^(٦) عَلَى نَفْسِهِ إِذَا لَمْ يَنْمَ أَحَدٌ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ بِمَا فَعَلَتْ إِلَى الشَّابِّ، فَأَطْلَقَ خَادِمَهُ يَهْمِسُ لِبَعْضِ أَصْدِقَاءِ الْجَمَلِ أَنَّهُ رَأَى الْيَوْمَ فِي يَدِ (خُضْرَاءَ) دِينَارًا ذَهَبًا عَلَى نُذْرَةِ الذَّهَبِ وَعِزَّتِهِ^(٧)؛ فَجَعَلَ هَذَا الدَّنِيَارُ يَطِيرُ مِنْ نَفْسِ إِلَى نَفْسٍ بِقُوَّةِ الذَّهَبِ الَّذِي فِيهِ، وَالْحُبُّ الَّذِي أَعْطَاهُ، وَالْجَمَالَ الَّذِي أَخَذَهُ؛ ثُمَّ أَتَتْهُ إِلَى الْجَمَلِ، فَكَأَنَّمَا حَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ إِلَى دَارِهِ كَالْمَجْنُونِ وَقَدْ حَمِيَ دَمُهُ الْحَرُّ، وَجَاشَ^(٨) جَاشُهُ الْعَنِيفُ وَلَمْ تَكُنْ أَمْرَأَتُهُ فِي الدَّارِ،

(٥) اسلئت: استخرجت.

(١) تسقفه: تساعده.

(٦) ينم: يكشف.

(٢) استوثق: تأكد.

(٧) عزته: ندرته.

(٣) واطأ، تأمر.

(٨) جاش: غار.

(٤) تدسه: تضعه خفية.

فَنَشَرَ مَا فِي الصَّنْدُوقِ، وَمَا كَادَتْ تَفْعَمُهُ رَائِحَةُ الْعِطْرِ حَتَّى نَفَخَ الشَّيْطَانُ بِهَا نَفْخَةً
الْغَضَبِ الْكَافِرِ، ثُمَّ عَثَرَ عَلَى الْمُنْدِيلِ، وَرَأَى بِصِيصَ الدُّنْيَا، فَدَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ،
وَأَيَقَنَ أَنَّ الْعَارَ قَدْ طَرَقَ بَابَهُ، وَأَنَّ الْبَابَ قَدْ فُتِحَ لَهُ؛ ثُمَّ رَدَّ نَفْسَهُ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَرَدَّ
مَعَهَا كُلَّ شَيْءٍ إِلَى مَوْضِعِهِ، وَتَلَفَّفَ رَأْيُهُ عَلَى جَرِيمَتَيْنِ، وَخَرَجَ وَرُوحُهُ تَصْرُخُ مِنْ
ضَرْبَةِ بِمَنْدِيلٍ، وَهُوَ الَّذِي كَانَتْ تَتَهَاوَى عَلَيْهِ الْأَضْرَابُ الْفَاتِلَةُ تَهْمُشُ^(١) مِنْهُ وَلَا يَتَأَوُّهُ!

وَذَكَرَ أَنَّ (حَمَاتِهِ) أَثْنَتْ مِنْ عَهْدٍ قَرِيبٍ عَلَى ابْنِ الْعُمْدَةِ وَوَصَفَتْهُ بِالرَّفِيقَةِ
وَالْغِنَى، فَوَجَّهَ إِلَيْهَا أَنْ تَأْتِيَ فَتَبَيَّنَتْ عِنْدَ أَمْرَاتِهِ لِأَنَّهُ عَلَى سَفَرٍ، وَكَانَ كَالْأَعْمَى فِي
ضَلَالَتِهِ: لَا يَرَى الْأَشْيَاءَ إِلَّا كَمَا يَتَخَيَّلُهَا فِي نَفْسِهِ دُونَ مَا هِيَ فِي نَفْسِهَا، فَسَأَلَتْهُ
زَوْجَتُهُ: أَيْنَ أَزْمَعْتَ وَمَا تَبْغِي مِنْ سَفَرِكَ وَكَمْ تَلْبَثُ عِنَّا؟ فَكَأَنَّهُ سَمِعَهَا تَقُولُ: إِرْحَلْ
إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ وَغِبْ زَمناً طَوِيلاً، فَبَنَّا إِلَى غِيَابِكَ حَاجَةً شَدِيدَةً! وَكَادَ يَبْطِشُ بِهَا،
وَلَكِنَّهُ كَانَتْ صَدْرُهُ أَلْوَعَةً أَسَمَ جِهَةً بَعِيدَةً وَمَضَى وَالْانْكَسَارُ يُعْرِفُ فِيهِ!

فَزَعَ النَّاسُ بَعْدَ أَيَّامٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَلِذَا بَيْتُ الْجَمَلِ يَحْتَرِقُ مِنْ أَرْضِهِ
وَسَمَائِهِ، وَأَقْتَحَمُوهُ فَلِذَا الْمَرْأَةُ وَأُمُّهَا فَحْمَتَانِ: وَأَنْطَلَقَتْ أَسْرَارُ الْأَلْسِنَةِ، وَقُبِضَ
عَلَى الرَّجُلِ فِي بَلَدٍ آخَرَ، وَتَوَلَّى ابْنُ الْعُمْدَةِ تَوْجِيهَ الْبَيْتَةِ عَلَيْهِ، وَشَهِدَ أَكْشَهُودُ عَلَى
الدُّنْيَا، وَشَهِدَ الدُّنْيَا عَلَى النَّارِ، وَأَنْكَرَ «الْجَمْلُ» وَلَمْ يَقْضِرْ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَدَافَعَ
عَنِ أَمْرَاتِهِ وَبَالَغَ فِي أَمَانَتِهَا وَعَقَّتْهَا وَشَهِدَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ عَلَيْهَا مِنْ سُوءٍ، وَأَنَّهَا أَطْهَرُ
النِّسَاءِ وَأَبْرَاهَنَ، ثُمَّ كَانَ الْحُكْمُ أَنْ قُضِيَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ شَنْقاً!

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ إِنْفَازِ الْحُكْمِ سُئِلَ الرَّجُلُ (هَلْ مِنْ شَيْءٍ تُرِيدُهُ؟ فَطَلَبَ دَخِينَةً^(٢))
فَقَدَّمَهَا لَهُ قِيمَ السِّجْنِ، فَأَشْعَلَهَا وَنَفَخَ مِنْ دُخَانِهَا نَفْخَةً. ثُمَّ أَخَذَ يَتَكَلَّمُ وَعَمْرُهُ يَفْنَى
مَعَ الدَّخِينَةِ نَفْساً فِي نَفْسٍ، وَعَادَ هَذَا الدُّخَانُ الْمَتَطَايِرُ كَأَنَّهُ سَحَابٌ يَسْبُحُ فِيهِ الْوَحْيُ
بَيْنَ حُدُودِ الدُّنْيَا وَحُدُودِ الْآخِرَةِ؛ قَالَ الْمُسَكِّينَ لِمِ أَعْلَمَ، وَلَوْ تَعَلَّمْتُ مَا وَقَفْتُ
هِنَا؛ وَلَكِنْ رَبِّمَا كُنْتُ خَرَجْتُ نَذْلاً كَبَعْضِ الْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ أَشْرَافاً وَفِيهِمْ
أَرْوَاحُ الْقَتْلَةِ وَاللُّصُوصِ!

(١) تَهْمُشُ: تَحْطُمُ.

(٢) دَخِينَةٌ: سَجَارَةٌ.

لم أفرّ لأحدٍ بجريمتي خشية أن تُذكرَ كلمة العارِ معَ اسمي، وأنزُت أن أموتَ
بِالشنقِ على أن أحيا ويموتَ اسمي بِالعارِ!

ولكنّي سأعترفُ الآنَ أمامكم وأنتُم الساعةُ على قبري، فكونوا كالملائكة لا
يشهدون بما عرفوا إلا عندَ اللَّهِ وحده .

اعترفُ أني قتلْتُ زوجتي وأُمها؛ وقد تقولون: إنّه ليسَ من عملِ الرجلِ أن
يقتلَ امرأةً فضلاً عنِ اثنتين؛ إنني رجلٌ سأشتق، أمّا النساءُ فلا يُستَقْنَ وإنما يُرسلنَ
الرجالَ إلى المَشنقة... لم أرَ أبي؛ إذ تركني طفلاً، ولكن يُقالُ: إنّه كانَ رجلاً،
فأنا رجلٌ وأبُنُ رجلٍ، ولم يَذلني رجلٌ قطُّ، ولكن لو خلقَ اللَّهُ قوّةَ مائةِ جبارٍ في
جسمِ رجلٍ واحدٍ لأذلّتهُ امرأةُ!

إنّه ليسَ من شيمَةِ الرجلِ أن يقتلَ النساءَ، ولكن المرأةُ تُذلُّ الرجلَ ذلاً يهُونُ
عليه قتلُ نفسه، فكيف لا يهُونُ عليه قتلُها؟

علّموا المتعلّمين ليصيروا في الشرفِ والأمانةِ والعِفّةِ كرجلٍ جاهلٍ مثلي: لا
يرى للحياةِ كلّها قيمةً إذا كانَ فيها معنى العارِ، ويُقدّمُ عُنفَهُ لِلْمَشنقةِ حتى لا يُنكسَ
رأسُهُ للذلِّ!

أصليحوا القانونَ الَّذي يحكمُ بِالْموتِ شتقاً ويُزهقُ الأرواحَ الكبيرةَ، في حين
تغلّبهُ الأرواحُ الصّغيرةُ بِحيلها الدنيئة!

ومع ذلك سألتُ اللَّهَ وهو يعلمُ سريري إن كُنْتُ بريئاً أو مجرماً!
قيّمُ السجن: ستلقاهُ طاهراً.

السجين: أرايتمُ بُني خُلِقَ سوء؟ أعتقدُ عليّ ذنباً مدّةَ سجنِي؟
القيّم: كلُّنا راضونَ عنك.

السجين: هذا مثلٌ من أخلاقي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ على أن آخرَ كلمةٍ أسمعُها من
إنسانٍ على الأرض - كلمة الرضا.

أشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وأنصُ محمداً رسولَ اللَّهِ!

نظرت ريشة من زغبِ العصفورِ إلى النجوم فَحَسَبَتْهَا ريشاً متناثراً،
فأمتطتِ العاصفةَ وقالت: إلى السماء! ودارت بها العاصفةُ ما شاءَ الله أن تدور،
ثم رمت بها حيث وقعت لم تبال في موضع نفع أم ضرر؛ فأقبلتِ الريشةُ تتسخطُ
وتزعمُ أنها فوضى نائرة لا حكمةَ في خلقِها، وأنَّ أرياحَ بعثرةٍ في نظامِ
العالم... وكان إلى جانبيها شجرةٌ تهتزُّ ولا تطير... فلمَّا وعتْ مقالتها أقبلتْ
عليها فقالت: أيتها الريشة! إنَّ أرياحَ لا تكونُ بعثرةً في نظامِ العالمِ إلَّا إذا كانَ
العالمُ ريشاً كله!

القلبُ المسكين

١

أقبلَ عليَّ صاحبي الأديبُ وقال: أنظر، هذه هي، وقد حلَّت بهذا البلدِ
ومالي عهدٌ بها منذُ سنة. ومدَّ إليَّ يده فنظرتُ إلى صورةِ امرأةٍ كأحسنِ النساءِ وجهاً
وجسماً، تتأوَّدُ^(١) في غلالةٍ^(٢) من اللآلئ^(٣)

وكانَ شعاعُ الضحى^(٤) في وجهها، وكأنَّها القمرُ طالعاً من غيمة، ويكادُ
صدرُها يتنهَّدُ وهي صورة، وتبدو هيئةٌ فَمِها كأنَّها وعدٌ بقبلة، وفي عينيها نظرةٌ
كألسكوتٍ بعدَ الكلمةِ التي قيلتَ هَمَساً بيَّنها وبينَ مُجِبِّها.

فقلتُ: هذه صورةٌ ما أراها قد رسمَها إلَّا اثنان: المصورُ وإبليس؛ فمنَ
هي؟

قال: سلَّها، أما تراها تكادُ تثبُّ مِنَ الورقة؟ إنَّها إلَّا تخبرك بشيءٍ أخبرك
عنها، وجهها أنَّها أجملُ النساءِ وأظرفهنَّ وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً، وثغراً
وجيداً والذي بعدَ ذلك..

قلتُ: ويحك، لقد شعرتُ بعدي، إنَّ هذا شعرٌ موزون:
وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً وثغراً وجيداً والذي بعدَ ذلكا.
قال: إنَّ شيطانَ هذه لا يكونُ إلَّا شاعراً؛ ألسنتُ تراه ناظماً من فنونها على
الرسمِ شِعْراً معجزاً كلَّ شاعرٍ؟

قلتُ: وهذا أيضاً شعرٌ موزون:
ألسنتُ تراه ناظماً من فنونها على الرسمِ شِعْراً معجزاً كلَّ شاعرٍ

(٣) اللآلئ: الحبر الصيني الرقيق الناعم.

(٤) الضحى: الفجر.

(١) تتأوَّد: تتمايل في مشيتها.

(٢) غلالة: قميص رقيق يليس تحت الثياب.

قال: بلى وَاللَّهِ إِنَّهُ الشَّيْطَانُ، إِنَّهُ شَيْطَانُهَا، يُرِيكَ لِهَذَا الْجِسْمِ رُوحاً رَشِيقَةً،
تَلِينُ كَلِينِ الْجِسْمِ. بَلْ هِيَ أَرَشَقُ.

قُلْتُ: وَهَذَا أَيْضاً، وَالْقَافِيَةُ الَّتِي بَعْدَ هَذَا أَلْبَيْتِ: وَبِهَا شَقُّوْا...
فَضَحَكَ صَاحِبُنَا وَقَالَ: حَرُّكَ الصُّورَةُ فِي يَدِكَ، فَإِنَّكَ سَتَرَاهَا وَمَا تَشْكُ أَنَّهَا
تَرْقُصُ.

قُلْتُ: الْآنَ أَنْقَطَعَ شَيْطَانُكَ، فَهَذَا لَيْسَ شَيْغَرًا وَلَا يَجِيءُ مِنْهُ وَزْنُ.
وَتَضَاحَكُنَا وَضَحَكَ الشَّيْطَانُ، وَظَهَرَ الْوَجْهُ الْجَمِيلُ فِي الرَّسْمِ كَأَنَّهُ يَضْحَكُ.

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ: أَنْظِرْ إِلَى هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ، إِنَّهُمَا مِنَ الْعَيُونِ الَّتِي
تَفْتَنُ الرَّجُلَ وَتَسْحَرُهُ مَتَى نَظَرْتَ إِلَيْهِ، وَتُعَذِّبُهُ وَتُضْنِيهِ مَتَى غَابَتْ عَنْهُ؛ إِنَّ فِي
شُعَاعِهَا قُدْرَةً عَلَى وَضْعِ النُّورِ فِي الْقَلْبِ السَّعِيدِ، كَمَا أَنَّ فِي سَوَادِهَا الْقُدْرَةَ عَلَى
وَضْعِ الظُّلْمَةِ فِي الْقَلْبِ الْمَهْجُورِ.

وَأَنْظِرْ إِلَى هَذَا الْفَمِ، إِلَى هَذَا الْفَمِ الَّذِي تَعْجُزُ كُلُّ حَدَائِقِ الْأَرْضِ أَنْ تُخْرِجَ
وَرْدَةً حَمْرَاءَ تُشْبِهُهُ.

وَأَنْظِرْ إِلَى هَذَا الْجَبَدِ تَحْتَهُ ذَلِكَ الصَّدْرُ الْعَارِي، فَوْقَهُ ذَلِكَ الْوَجْهُ الْمَشْرُقُ؛
تِلْكَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الضُّوءِ: أَمَّا الْوَجْهُ فَفِيهِ رُوحُ الشَّمْسِ، وَأَمَّا الْجَبَدُ فَفِيهِ رُوحُ
النَّجْمِ، وَأَمَّا الصَّدْرُ فَفِيهِ رُوحُ الْقَمَرِ الضَّاحِي^(١)

أَنْظِرْ إِلَى هَذِهِ الْمَسَافَةِ الْبَيْضَاءِ مِنْ أَعْلَى جَبِينِهَا إِلَى أَسْفَلِ نَهْدِهَا، تِلْكَ مَنَاطِقُ
الْقُبَلَاتِ فِي جُغْرَافِيَا هَذَا الْجَمَالِ...

وَأَنْظِرْ إِلَى الصَّدْرِ يَحْمِلُ ذَيْنِكَ الْكُثْبَيْنِ الْنَاهِدَيْنِ؛ إِنَّهُ الْمَعْرُضُ الَّذِي اخْتَارَتْهُ
الطَّبِيعَةُ مِنْ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ لِلْإِعْلَانِ عَنْ ثِمَارِ الْبَسْتَانِ.

أَنْظِرْ إِلَى الْنَهْدَيْنِ لِمَ بَرَزَا فِي صَدْرِ الْمَرْأَةِ إِلَّا إِذَا كَانَا يَتَحَدَّيَانِ الصَّدْرَ
آخِر...؟!

وَأَنْظِرْ لِهَذَا الْخَصْرِ الدَّقِيقِ وَمَا فَوْقَهُ وَمَا تَحْتَهُ، أَلَا تَرَاهُ فِتْنَةً مُتَوَاضِعَةً بَيْنَ
فَتَتَيْنِ مُتَكَبِّرَتَيْنِ. ؟

(١) الضاحي: السافر.

أَنْظُرْ إِلَيْهَا كُلَّهَا، أَنْظُرْ إِلَى كُلِّ هَذَا الْجَمَالِ، وَهَذَا السَّحَرِ، وَهَذَا الْإِغْرَاءِ؛ أَلَا تَرَى أَلَكُنْزَ الَّذِي يَحْوِلُ أَلْقَلْبَ إِلَى لَصٍّ...؟

هذه مخلوقة مرتين: إحداهما مِنَ اللَّهِ فِي الْعَالَمِ، وَالْأُخْرَى مِنْ حُبِّي أَنَا فِي نَفْسِي أَنَا: فَكَلِمَةُ «جَمِيلَةٌ» الَّتِي تَصِفُ الْمَرْأَةَ الْتَامَّةَ، لَا تَصِفُهَا هِيَ بَعْضُ الْوَصْفِ؛ وَرَسْمُهَا هَذَا الَّذِي تَرَاهُ إِنَّمَا هُوَ حَدُودُ تِلْكَ أَلرُّوحِ الَّتِي فِيهَا قُوَّةُ التَّسَلُّطِ، وَهِيَاهُ يُظْهِرُ مِنْ تِلْكَ أَلرُّوحِ إِلَّا مَا يَظْهَرُ مِنَ أَلْجَمْرَةِ أَلْمَشْتَعِلَةِ رَسْمُ هَذِهِ أَلْجَمْرَةِ فِي وَرْقَةٍ. أَشْهَدُ مَا نَظَرْتُ مَرَّةً إِلَى هَذَا أَلرَّسْمِ ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهَا إِلَّا وَجَدْتُ أَلْفَرْقَ بَيْنَهَا فِي نَفْسِهَا وَبَيْنَهَا فِي أَلْصُورَةِ، كَأَنَّهُ أَعْتَذَارُ نَاطِقٌ مِنْ أَلَّةِ أَلتَّصْوِيرِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا أَدَاةً.

قُلْتُ: أَللَّهُمَّ غَفِرَا؛ ثُمَّ مَاذَا يَا صَدِيقِي أَلْمَجْنُونِ؟ فَاطْرُقَ أَلْأَدِيبُ مَهْمُومًا، وَكَانَتْ أَفْكَارُهُ تَتَفَجَّرُ فِي دِمَاجِهِ أَنْفَجَارًا هُنَا وَأَنْفَجَارًا هُنَاكَ؛ ثُمَّ رَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ، وَقَالَ:

هذه أَلْغَايَةُ قَدْ حَبَسَتْ أَفْكَارِي كُلَّهَا فِي فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا هِيَ؛ وَأَغْلَقْتُ أَبْوَابَ نَفْسِي وَمَنَافَذَهَا إِلَى أَلدُّنْيَا، وَأَلْهَبْتُ فِي دَمِي جَمْرَةً مِنْ جَهَنَّمَ فِيهَا عَذَابُ أَلْإِحْرَاقِ وَلَيْسَ فِيهَا أَلْإِحْرَاقُ نَفْسُهُ كَيْلَا يَنْتَهِيَ مِنْهَا أَلْعَذَابُ!

وَبَيْنَمَا حُبٌّ بِغَيْرِ طَرِيقَةِ أَلْحُبِّ، فَإِنَّ طَبِيعَتِي أَلرُّوحَانِيَّةَ أَلْكَامِلَةَ تَهْوِي فِيهَا طَبِيعَتُهَا أَلْبَشَرِيَّةَ أَلنَّاقِصَةَ، فَأَنَا أَمَازُجُهَا بَرُوحِي فَأَتَأَلَّمُ لَهَا، وَأَتَجَنَّبُهَا بِجِسْمِي فَأَتَأَلَّمُ بِهَا.

حُبٌّ عَقِيمٌ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فِيهِ لَا يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ أَلْوَاقِعِ.

حُبٌّ عَجِيبٌ لَا تَنْتَفِي مِنْهُ أَلْأَلَمَةُ وَلَا تَكُونُ فِيهِ لَذَاتُهُ...

حُبٌّ مَعْقَدٌ لَا يَزَالُ يَلْقَى أَلْمَسْأَلَةَ بَعْدَ أَلْمَسْأَلَةِ، ثُمَّ يَرْفُضُ أَلْحُلَّ الَّذِي لَا تُحَلُّ أَلْمَسْأَلَةُ إِلَّا بِهِ...

حُبٌّ أَحْمَقُ يَعِشُّ أَلْمَرْأَةَ أَلْمَرْأَةَ أَلْمَبْذُولَةَ لِلنَّاسِ، وَلَا يَرَاهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا قَدِيسَةً لَا مَطْمَعَ فِيهَا...

حُبٌّ أَبْلَهُ لَا يَزَالُ فِي حَقَائِقِ أَلدُّنْيَا كَأَلْمُنْتَظَرِ أَنْ تَقَعَ عَلَى شَفْتَيْهِ قُبْلَةً مِنَ أَلْفَمِ الَّذِي فِي أَلْصُورَةِ...

حُبُّ مجنونٍ كَالَّذِي يَرَى الْحَسَنَاءَ أَمَامَ مِرَاتِيهَا فَيَقُولُ لَهَا إِذْهَبِي أَنْتِ وَسَتَبْقَى
فِي هَذِهِ الَّتِي فِي الْمَرْأَةِ . . .

قُلْتُ: اَللّهُمَّ رَحْمَةً؛ ثُمَّ مَاذَا يَا صَاحِبِي الْمَسْكِينِ؟

قال: ثُمَّ هَذِهِ الَّتِي أُحِبُّهَا هِيَ الَّتِي لَا أُرِيدُ أَلَا سَتَمَتَاعَ بِهَا وَلَا أُطِيقُهُ وَلَا أَجِدُ
فِي طَبِيعَتِي جَرَأَةً عَلَيْهِ، فَكَأَنَّمَا الْذَهَبُ وَكَأَنِّي الْفَقِيرُ الَّذِي لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لِي صَاحِبٌ؛
يَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ الْمَالِ: تَسْتَطِيعُ أَنْ تَطْمَعَ؛ وَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ الْحَاجَةِ: وَتَسْتَطِيعُ أَنْ
تَفْعَلَ؛ وَيَقُولُ هُوَ لِنَفْسِهِ: لَا أَسْتَطِيعُ إِلَّا الْفَضِيلَةَ!

إِنَّ عَذَابَ هَذَا بِشَيْطَانَيْنِ لَا بِشَيْطَانٍ وَاحِدٍ، غَيْرَ أَنَّ لَذَّتَهُ فِي انْتِصَارِهِ كَلَدُهُ مَنْ
يَقْهَرُ بَطْلَيْنِ كِلَاهُمَا أَقْوَى مِنْهُ وَأَشَدَّ.

قُلْتُ: اَللّهُمَّ عَفْوَاً؛ ثُمَّ مَاذَا يَا قَاهِرَ الشَّيْطَانَيْنِ؟

فَاطَرَقَ مَلِيّاً كَالَّذِي يَنْظُرُ فِي أَمْرِ قَدْ حَيَّرَهُ لَا يَتَوَجَّهُ لَهُ فِي أَمْرِهِ وَجْهٌ، ثُمَّ تَنَهَّدَ
وَقَالَ: يَا طَوْلَ عَلِيٍّ قَلْبِي! مَنْ أَيْنَ أَجِيءُ لِأَحْلَامِي بِغَيْرِ مَا تَجِيءُ الْأَحْلَامُ بِهِ، وَإِنَّمَا
هِيَ تَحْتَ النَّوْمِ وَوَرَاءَ الْعَقْلِ، وَفَوْقَ الْإِرَادَةِ؟ لَقَدْ بَلَغَ بَيْنَ هَوَاهَا أَنْ كُلَّ كَلِمَةٍ مِنْ
كَلَامِ الْحُبِّ فِي كِتَابٍ أَوْ رِوَايَةٍ أَوْ شِعْرِ أَوْ حَدِيثٍ - أَرَاهَا مُوجَّهَةً إِلَيَّ أَنَا . . .

ثُمَّ قَالَ: إِنِّ طَلَقْتُ بِنَا فِتْرَاهَا حَتَّى تَعْلَمَ مِنْهَا عِلْمًا، فَهِيَ فِي ذَلِكَ الْمَسْرَحِ، هِيَ فِي
ذَلِكَ الْأَشْرَ، هِيَ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، هِيَ كَاللُّؤْلُؤَةِ لَا تَتَرَبَّى لَوْلُؤَةٍ إِلَّا فِي أَعْمَاقِ بَحْرِ.

وَذَهَبْنَا إِلَى مَسْرَحٍ يَقُومُ فِي حَدِيقَةٍ غَنَاءَ مَتْرَامِيَةِ الْجِهَاتِ بَعِيدَةِ الْأَطْرَافِ، تَظْهَرُ
تَحْتَ أَلْيَلٍ مِنْ ظُلُمَاتِيهَا وَأَنْوَارِهَا كَأَنَّهَا مُثْقَلَةٌ بِمَعَانِي الْأَهْجَرِ وَالْعَشَقِ.

وَتَقَدَّمْنَا نَسِيرُ فِي الْغَبَشِ^(١)، فَقَالَ صَاحِبُنَا الْمُحِبُّ: إِنِّي لَا أَشْعُرُ أَنَّ الظُّلَامَ
هَنَا حَيٌّ كَأَنَّ فِيهِ غَوَامِضَ قَلْبٍ كَبِيرٍ، فَمَا أَرَى فَرْقاً بَيْنَ أَنْ أَجْلِسَ فِيهِ وَبَيْنَ
الْجُلُوسِ إِلَى فَيْلَسُوفٍ عَظِيمٍ مَهْمُومٍ بِهِمْ أَلَا نِهَائِيَّةً، فَتَعَالَ نَبْرُزْ إِلَى ذَلِكَ النُّورِ
حَوْلَ الْمَسْرَحِ لِنَرَاهَا وَهِيَ مَقْبَلَةٌ، فَإِنَّ رُؤْيَيْهَا سَيَدَةُ غَيْرِ رُؤْيَيْهَا رَاقِصَةٌ، وَلِهَذَا
جَمَالُ فَنٍّ وَلِتِلْكَ فَنٌّ جَمَالٌ.

(١) الغَبَشُ: العتمة.

ولم نلبث إلا يسيراً حتى وافت^(١)، ورأيتها تمشي مشية الخفريات^(٢) كأنما تحترق أفكار الناس، يزهوها على ذلك إحساس نبيل كإحساس الملكة الشاعرة بمحبة شعبها؛ وأنتمض مجنوناً وأغمض عينيه كأنها تمر بين ذراعيه لا في طريقها، وكأن لذة قربها منه هي الممكن الذي لا يمكن غيره...

وكان عجباً من العجب أن تحرك الهواء في الحديقة واضطربت أشجارها، فقال: أنت ترى؛ فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة! قلت: أه يا صديقي! إن المرأة لا تكون امرأة بمعانيها إلا إذا وجدت في جو قلب يعشها.

ونفذنا إلى المسرح، وتحزى^(٣) صاحبنا موضعاً يكون فيه منظر العين من صاحبه ويكون مستخفاً منها، ثم رفع الستار عنها بين اثنتين يكتفانها، وقد لبس ثلاثهن أثواب الرقيات، وظهرن كهيتن حين يجنن القطن.

ويزرت (تلك) في ثوب من الحرير الأسود، وهي بيضاء بياض القمر حين ييم وقد شدت وسطها بمشدة من الحرير الأحمر، فتحبكت بها وظهرت شينين: أعلى وأسفل؛ ثم ألقت على شعرها الذهبي قلنسوة حمراء من ذلك الحرير أمالتها جانباً فحبست شيئاً منه وأظهرت سائرته، وأخذت بيديها صفاقتين^(٤) وأقبلت الثلاث يرقصن ويغنن نشيد الفلاحة.

لم أنظر إلى غيرها، فقد كانت صاحبها دليلين على جمالها لا أكثر ولا أقل، وما أحسب الحرير الأحمر، كان معها أحمر ولا الأسود كان عليها أسود، ولا لون الذهب في يغضبها كان لون الذهب؛ كلاً كلاً، هذه ألوان فوق الطبيعة، لأن ألوانه يشرق عليها بالجمال والحياة، وذلك الجسم يفيض لها بالخفة والطرب وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة؛ هذا مزيج من خمر الألوان لا من الألوان نفسها.

وقال مجنوننا: إن أجمل الجمال في المرأة الفاتنة هو ذاك الذي يجعل لكل إنسان نوع شعوره بها، وأنا أشعر الساعة أن قلبي يصف قلب فقط، وأن نصفه الآخر في هذه وحدها؛ فما شعورك أنت؟

(١) وافت: جاءت.

(٢) الخفريات: الحيات.

(٣) تحزى: فتش.

(٤) صفاقتين: هما ما تضع الراقصات في أصابعهن، ويقال لهن الساجات.

قلت: يا صديقي. إنَّ اللهَ رحيمٌ، ومن رحمتهِ أنَّه أخفى القلبَ وأخفى بواطنه
ليُظِلَّ كلُّ إنسانٍ مخبوءاً عن كلِّ إنسانٍ؛ فدعني مخبوءاً عنك!
قال: لا بُدَّ!

قلت: إنَّ المصباحَ في الموضعِ النجسِ لا يبعثُ النورَ نجساً، وما أشعرُ إلا
أنَّ النورَ الذي في قلبي قد امتزجَ بالنورِ الذي في عينيها.
ثمَّ كأنَّها أحسَّتْ بأنَّ إنساناً قد امتلأَ بها، فأدارتْ وجهها وهي ترقصُ،
فتلمَّحتْ صاحبنا، وجعلتْ تُقَطِّعُ الطرفَ بينها وبينه كأنَّها تعرفه وتجهله، ثمَّ تبيَّنتْ
إلحاحَ نظره فضحكتْ لأنها تعرفه ولا تجهله!
أما هو، أما المجنون، أما صاحبُ القلبِ المسكين! ...

القلب المسكين

٢

أما صاحب القلب المسكين فرأى الضحكة التي ألقت بها صاحبتُه وهي ترقص حين عرفتُه - غير ما رأيَها أنا وغير ما رأى الناس: كانت لنا نحنُ أبتساماً عذباً من فم جميل يئِمُّ جماله بهذه الصورة، وكانت لهُ هو لغة من هذا الفم الجميل يئِمُّ بها حديثاً قديماً كان بينهما؛ وأعترانا منها الطربُ وأعتراهُ منها الفِكْرُ، ووصفتُ لنا نوعاً من الحُسنِ ووصفتُ لهُ نوعاً من الشوق، ومرّت علينا شعاعاً في الضوء ووقعت في يده هو كبطاقة الزيارة عليها اسمُ مكتوب .

وقوي إحساسُ الراقصة الجميلة بعد ذلك فأنبعث يدلُّ على نفسه ضروباً من الدلالة الخفية، ورجعت بهذا الإحساس كالحقيقة الشعرية الغامضة المملوءة بفنون الرموز والإيماء، وكأنها زادت بهذا الغموض زيادة ظاهرة؛ وللمرأة لحظات تكون فيها بفكرين حينما يكون أحد الفكرين ماثلاً أمامها في رجل تهواه؛ ففي هذه الساعة تحدث المرأة بكلام فيه صمتٌ يشرح ويُفسر، وتضطرب بحركة فيها استرخاءٌ يميلُ ويعتنيق، وتنظرُ بالحاذِ فيها أنكسارٌ يأمرُ ويتوسلُ؛ وكانت هي في هذه الساعة . . . فغلبت - والله - على صاحبها المسكين وتركت نفسه كأنها تنقطع فيه من أسفٍ وحسرة؛ ثم كانت له كالزهرة العبقّة: بينه وبينها جمالها وعطرُها هواؤها والحاسة التي فيه .

وجعل يستشفُّها من خلالِ أعضائها، ثم قال لي: أنظر - ويحك - ! لكَأَن ثيابها تضمُّها وتلتصقُ بها ضمٌّ ذي الهوى لِمَن يهوى .

قلت: ما هي إلا كهاتين اللتين ترقصانِ معها: امرأة بين امرأتين وإن كانت أحسن الثلاث .

قال: كلا، هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر، تتحرك بدلاً من أن تُقرأ

وثرى بدلاً من أن تُسمع؛ قصيدة بلا ألفاظ، ولكن من شاء وضع لها ألفاظاً من دمه
إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره.

قلت: والأخريتان؟

قال: كلا كلا، هذا فن آخر، فالواحدة من هؤلاء المسكينات إنما ترقص
بمعديتها... ترقص للخبز لا غير؛ أما (تلك) فرقصها أطرب مصنوعاً على جسمها
ومصنوعاً من جسمها؛ إنها كالأطاووس يتبحر في أصابعه. في ريشه، في خيالاته،
بخرّة يضاعفها الحسن ثلاث مرات؛ ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر
أحمرها وأخضرها وأصفرها وأزرقها، والآخر من الأزهار في ألوانها ووشبها، ثم
أختال الطاووس بينهما ناشراً ذيله في كبرياء روحه الملوثة - لظهر فيه وحده اللون
المملك بين ألوان هي رعيته الخاضعة.

وأنتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قبلة في
الهواء. فقال صاحبنا: آه! لو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير،
لجعلته لمسة يدها درهماً وقبلة...

قلت: يا عدو نفسي! هذه قبلة محررة مسددة وقد رأيتهما وقعت هنا.
ولكنك دائماً في خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة؛ تعيش القبلة وتخاصم ألفم
الذي يلقيها، وتبني العنق وتتركه فارغاً من طيره؛ إن امرأة تحبك لا بد متجهة إلى
الجنون ما دامت معك في غير المفهوم وغير المعقول وغير الممكن.

ثم بدأ فصل آخر على المسرح، وظهر رجال ونساء وقصة؛ وكان من
هؤلاء الرجال شيخ يمثل فقيهاً، وآخر يمثل شرطياً؛ فقال صاحبنا الفيلسوف:
لقد جاءت هذه الثياب فارغة وكأنها الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء في هذه
الحياة صحة الظاهر فقط، ما دام الظاهر يُخلع ويلبس بهذه السهولة؛ فكم في
هذه الدنيا من شرفاء لو حَقَّقَت أمرهم وبلوت^(١) الأباطر منهم - إنما يشرفون
الردائل لأنهم يرتكبونها بشرف ظاهر. وكم من أغنياء ليس بينهم وبين
اللصوص إلا أنهم يسرقون بقانون... وكم من فقهاء ليس بينهم وبين الفجرة
إلا أنهم يتجبرون بمنطق وحجة... ليست الإنسانية بهذه السهولة التي يظنها من

(١) بلوت: اختبرت.

يظن، وإلا ففيمَ كانَ تعبُ الأنبياءِ وشقاءَ الحكماءِ وجهادُ أهلِ النفوسِ؟
 العقدةُ السماويَّةُ في هذه الأرضِ أنَّ اللهَ - سبحانه وتعالى - لم يخلقِ الإنسانَ
 إلا حيواناً ملطفاً لطيفاً إنسانياً، ثم أراه الخيرَ والشرَّ وقالَ لَهُ إجعلْ نفسك بنفسِكَ
 إنساناً وجشياً.

قلتُ: يا عدوَّ نفسيه! فما تقولُ في حُبِّك هذه الرقصةَ وأنتَ حيوانٌ ملطَّفٌ
 تلطيفاً إنسانياً؟

قال: ويحك! وهل العقدةُ إلا هنا؟ فهذه مبدولةٌ ممكنةٌ، ثم هي لي كالضرورةِ
 القاهرة، فلا يكونُ حُبُّها إلا إغراءً بتليها، ولا تكونُ سهولةُ نيلها إلا إغراءً لذلك
 الإغراء؛ فإنا منها لسنا في امرأةٍ وحُب، ولكني في امتحانٍ شديدٍ عسيرٍ؛ أغالبُ
 ناموساً من نواميسِ الكون، وأدافعُ قانوناً من قوانينِ الغريزةِ وأظهرُ قوتي على قوةِ
 الضرورةِ الميسرةِ بأسبابها، وهي أشدُّ الضروراتِ عنفاً وإلحاحاً وفهراً للنفس، من
 قيلَ أنها ضرورةٌ لازمة، وأنها مهَيَّأةٌ سهلة؛ فلو أنَّ هذه المرأةَ المحبوبةَ كانتَ مُمتعةً
 بعيدةَ المال، لَمَا كانتَ لي فضيلةً في هذا الحُبِّ العنيف، ولكنها دانيةٌ ميسرةٌ على
 الشغف^(١) والهوى؛ فهذا هوَ الامتحانُ لأصنعُ أنا بنفسِي فضيلةً نفسي!

ومرَّ الفصلُ الَّذي مثَّلوه وما نشعرُ منه بتمثيل، فقد كانَ كَالصورةِ العقليةِ
 المعترضةِ للعقل وهو يفكرُ في غيرها، وكانتِ (الحقيقةُ) في شيءٍ آخرٍ غيرِ هذا؛
 ومتى لم يتعلَّقِ الشعورُ بالفنِّ لم يكنِ فيه فنٌّ؛ وهذا هو سرُّ كلِّ امرأةٍ محبوبة، فهي
 وحدها التي تُثيرُ المُحبَّ في نفسه فيشعرُ من حُسْنِها بحقيقةِ الحُسْنِ المطلق، ويجدُ
 في معانيها جوابَ معانيه، وتأنيبهَ كأنَّها صُنِعَتْ لَهُ وحده، وتجعلُ لَهُ في الزمانِ زماناً
 قلبياً يحصرُ وجودَهُ في وجودها.

وليسَ فنُّ الحُبِّ شيئاً إلا استطاعةُ الحبيبِ أن يجعلَ شهواتِ المُحبِّ شاعرةً
 به ممتلئةً منه متعلقةً عليه، كأنَّ به وحدهَ ظهورَ جسديَّةِ هذا الجسدِ وروحانيةِ هذا
 أرواح؛ وكلُّ ما يترزُّنُ به المُحبوبُ للمُحبِّ، فإنَّما هو وسائلٌ مِنَ المبالغةِ لإظهارِ
 تلكَ المعاني التي فيه، كيما تكبُرَ فيدركها المُحبُّ بدقَّة، وتثورَ فيحسُّها العاشقُ
 بعُنفٍ وتستبدُ فيخضعَ لها المسكينُ بقوة.

(١) الشغف: شدة الحب.

وَالشَّهَوَاتُ كَالطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي أَعْصَابِ الْإِنْسَانِ، وَهِيَ تَتَّبِعُ فِكْرَهُ وَخِيَالَهُ؛ وَلَا تَفَاوَتْ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ، أَوْ أَلْتَنَّبَهُ وَالْخُمُودُ^(١)، أَوْ الْحِدَّةُ وَالسَّكُونُ؛ غَيْرَ أَنَّهَا فِي الْحُبِّ تَجِدُ لَهَا فِكْرًا وَخِيَالًا مِنَ الْمَحْبُوبِ، فَتَكُونُ كَأَنَّهَا قَدْ غَيَّرَتْ طَبِيعَتَهَا بِسِرِّ مَجْهُولٍ مِنْ أَسْرَارِ الْأَلُوْهِيَّةِ؛ وَمِنْ هُنَا يَتَأَلَّى الْحَبِيبُ وَهُوَ هُوَ لَمْ يَزِدْ وَلَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ تَغْيَرْ وَلَمْ يَتَبَدَّلْ، وَتَرَاهُ فِي وَهْمٍ مُجِبِّهِ يَفْرُضُ فَرُوضًا وَيَشْرَعُ شَرِيعَةً مِنْ حَيْثُ لَا قِيَمَةَ لِفَرُوضِهِ وَشَرِيعَتِهِ إِلَّا فِي الشَّهْوَةِ الْمَوْمَنَةِ بِهِ وَحَدِّهَا.

وَمِنْ ثَمَّ لَا عِصْمَةَ عَلَى الْمُحِبِّ إِلَّا إِذَا وُجِدَ بَيْنَ إِيْمَانَيْنِ، أَقْوَاهُمَا إِلَاِْمَانُ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ وَبَيْنَ خَوْفَيْنِ، أَشَدَّهُمَا الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ؛ وَبَيْنَ رَغْبَتَيْنِ، أَعْظَمُهُمَا الرُّغْبَةُ فِي السَّمَوِّ.

فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَاشِقُ ذَا دِيْنٍ وَفَضِيلَةٍ فَلَا عِصْمَةَ عَلَى الْحُبِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَقْوَى الْإِيْمَانِيْنَ الْحَرَصَ عَلَى مَكَانَةِ الْمَحْبُوبِ فِي النَّاسِ، وَأَشَدُّ الْخَوْفِيْنَ الْخَوْفَ مِنَ الْقَانُونِ... وَأَعْظَمُ الرُّغْبَتَيْنِ الرُّغْبَةَ فِي نَتِيْجَةِ مَشْرُوعَةٍ كَالزَّوْاجِ.

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَوْ ذَاكَ فَقَلَّمَا تَجِدُ الْحُبَّ إِلَّا وَهُوَ فِي جِرَاءَةِ كُفْرِيْنَ، وَحِمَاقَةِ جُنُونِيْنَ، وَأَنْحِطَاطِ سَفَالَتِيْنَ؛ وَبِهَذَا لَا يَكُونُ فِي الْإِنْسَانِيْنَ إِلَّا دُونَ مَا هُوَ فِي بَهِيْمَتِيْنَ!



ثُمَّ جَاءَ الْفَصْلُ الثَّلَاثُ وَظَهَرَتْ هِيَ عَلَى الْمَسْرَحِ، ظَهَرَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي ثَوْبٍ مَرْكِيزَةٍ أَوْرَبِيَّةٍ تُخَاصِرُ^(٢) عَشِيقًا لَهَا، فِيرْقَصَانِ فِي أَدَبٍ أَوْرَبِيٍّ مَتَمَدَّنٍ... مَتَمَدَّنٍ بِنِصْفِ وَقَاحَةٍ؛ مَتَأَدَّبٍ... مَتَأَدَّبٍ بِنِصْفِ تَسْقَلٍ؛ مَشْرُوع... مَشْرُوعٌ بِنِصْفِ كُفْرٍ؛ هُوَ عَلَى النِّصْفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لِيَجْعَلَ الْعِذَارَةَ نِصْفَ عِذْرَاءٍ، وَالزَّوْجَةَ نِصْفَ زَوْجَةٍ. !

وَكَانَ الَّذِي يُمَثِّلُ دَوْرَ الْعَشِيقِ فَتَاةً أُخْرَى غُلَامِيَّةً مَجْمَمَةَ الشَّعْرِ^(٣) مَسْخُوخةً بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا صَاحِبُنَا قَالَ: هَذَا أَفْضَلُ.

وَهَشَّتِ^(٤) الْحَسَنَاءُ وَتَبَسَّمَتْ وَأَخَذَتْ فِي رَقِصِهَا الْبَدِيعِ، فَانْفَصَلَ عَنِّي

(١) الخمود: السكون. (٢) تخاصر: تمسك بحضره.

(٣) مجممة الشعر: أي قاصة شعرها تشبهاً بالرجال.

(٤) هشت: ابتسمت.

الصدق وأهلمني وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة بعد النظرة، كأنه يكرّر غير المفهوم ليفهمه ورجع وإياها كأنه في عالم من غير زمنا تقدّمه عن عالمنا ساعة أو توّخره ساعة؛ وكانت جملة حاله كأنها تقول لي: إنّ الدنيا الآن امرأة! وكان من السرور كأنما نقله الحب إلى ربة آدم، ونقل صاحبته إلى ربة حواء، ونقل المسرح إلى ربة الجنة!

والعجيب أنّ القمر طلع في هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف في الحديقة، فكانه فعل هذا ليتمّ الحُسن والحب؛ وأخذ شعاع القمر السماوي يرقص حول هذا القمر الأرضي، فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس صاحبتنا وبين الأرض والسما والقمريين.

ما هذا الوجه لهذه المرأة؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبر تعبيراً جديداً بقسماته وملامحه ألفئان؛ كلّ ألباض الخاطف في نجوم السماء يجول في أديمه المشرق، وكلّ الأسود الذي في عيون ألمها يجتمع في عينه، وكلّ الحمرة التي في الورود هي في حمرة هاتين الشفتين.

ما هذا الجسم المتزن المتموج المفرغ كأنه يندفق هنا وهنا؟ إنه جسم كامل الأنوثة، إنه صارخ صارخ، إنه عالم جمال كما تقول الفلسفة حين تصف العالم: فيه «جهة فوق» و «جهة تحت»؛ لو امتدّت له يد عاشقه لجعل في خمس أصابعها خمس حواس...

ما هذا؟ لقد ختم الرقص بقبلة ألقاها الخليل على شفتي الخليفة، وكانت تركت خصرها في يديه وأنفلتت تميل بأعلاها راجعة برأسها إلى خلف، نازلة به رويداً رويداً إلى الأرض، هاربة بشفتيها من ألفم المظلل عليها وكان هذا ألفم ينزل رويداً رويداً ليُدرك ألهارب.

وقبل أن تقع القلبلة التفتت لفتة إلى... ثم تلقت القلبلة، أمّا هو، أمّا مجنوننا، أمّا صاحب القلب المسكين؟

القلب المسكين

٣

أَنَا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ فَرَمَقَهَا^(١) وَهِيَ تَلْتَفِتُ إِلَيْهِ أَلْتَفَاتِ الظُّبْيَةِ بِسَوَادِ عَيْنَيْهَا: يَجْعَلُ سَوَادَهُمَا الْجَمِيلَ فِي الْنَظَرَةِ الْوَاحِدَةِ نَظَرَتَيْنِ لِعَاشِقِ الْجَمَالِ، تَقُولُ إِحْدَاهُمَا أَنْتِ، وَتَقُولُ الْأُخْرَى: أَنَا، ثُمَّ رَأَاهَا وَقَدْ كَسَرَتْ أَجْفَانَهَا وَتَفَثَّرَتْ فِي يَدَيِ الْمُمَثِّلِ الْعَشِيقِ وَأَفْصَحَ مَنَظَرُهَا بِبِلَاغَةٍ. بِبِلَاغَةِ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ بَيْنَ ذِرَاعَيْنِ مَنْ تُحِبُّهُ؛ ثُمَّ اخْتَلَجَتْ وَصَوَّبَتْ وَجْهَهَا، وَأَهْدَفَتْ شَفَتَيْهَا. وَتَلَقَّتِ الْقُبْلَةَ.

وَكَانَ بِهِ مِنْهَا مَا اللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ، فَانْبَعَثَتْ مِنْ صَدْرِهِ آهَةٌ مُغَوِّلَةٌ تَتَبَّعُهَا أُنْيَاءٌ، غَيْرَ أَنَّهَا كَلَّمَتْهُ بِعَيْنَيْهَا أَنَّهَا تُقْبَلُهُ هُوَ؛ فَلَا رَيْبَ قَدْ حَمَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى الْأَنْسِمَاتِ شَيْئًا جَمِيلًا عَنْ ذَلِكَ الْقَلَمِ، لَمَسَتْ بِهِ الْأَنْفُسُ الْأَنْفُسَ، وَالْقُبْلَةُ هِيَ هِيَ وَلَكِنْ وَقَعَ خَطَأٌ فِي طَرِيقَةِ إِرْسَالِهَا.

وَلَيْسَ تَحْتَ الْخِيَالِ شَيْءٌ مُوجُودٌ، وَلَكِنَّ الْخِيَالَ الْمَتَسَرِّحَ بَيْنَ الْحَبِيبَيْنِ تَكُونُ فِيهِ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ وَاجِبَةٌ الْوُجُودَ؛ إِذْ هُوَ بِطَبِيعَتِهِ مَجْرَى أَحْلَامٍ مِنْ فِكْرٍ إِلَى فِكْرٍ، وَمَسْرُوحٍ شُعُورٍ يَصْدُرُ وَيَرُدُّ بَيْنَ الْقَلْبَيْنِ فِي حَيَاةٍ كَامِلَةٍ الْإِحْسَاسِ مُتَجَاوِرَةٍ الْمَعَانِي؛ وَبِهَذَا الْخِيَالِ يَكُونُ مَعَ الْقَلْبَيْنِ الْمُتَحَابِّينِ رُوحٌ طَبِيعِيٌّ كَأَنَّهُ قَلْبٌ ثَالِثٌ يَنْقُلُ لِلوَاحِدِ عَنِ الْآخَرِ، وَيَصِلُ الْكُرَّ بِالْكَرِّ، وَيَزِيدُ فِي الْأَشْيَاءِ وَيُنْقُصُ مِنْهَا، وَيَدْخُلُ فِي غَيْرِ الْحَقِيقِيِّ فَيَجْعَلُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْحَقِيقِيِّ؛ وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنْ فَرَحٌ وَلَا حُزْنٌ، وَلَا أَمَلٌ وَلَا يَأْسٌ، وَلَا سَعَادَةٌ وَلَا شَقَاءٌ، إِلَّا وَكُلُّ ذَلِكَ مُضَاعَفٌ لِلْمُحِبِّ الْوَاقِعِ الْخُبُّ بِقَدْرِ قَلْبَيْنِ؛ وَالَّذِينَ يَعْرِفُونَ قُبْلَةَ الشَّغَفِ وَالْهَوَى، يَعْرِفُونَ أَنَّ الْعَاشِقَ يَقْبَلُ بِلَذَّةٍ أَرْبَعَ شِفَاهٍ.

(١) رَمَقَهَا: نَظَرَ إِلَيْهَا بِطَرَفِ عَيْنَيْهِ مُتَأَمِّلًا.

وَأَسَدَلْتُ^(١) بَعْدَ هَذِهِ الْقُبْلَةِ سِتَارَةَ الْمَسْرَحِ، وَغَابَتِ الْجَمِيلَةُ الْمَعشُوقَةُ غِيَبَةً
الْتِمْنِيلِ فَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ: إِنَّ رُوحِيكُمَا مَتَزُوجَتَانِ... قَالَ: آه!
وَمَدَّهَا مِنْ قَلْبِهِ كَأَنَّهُ ذَيْفٌ سَقِيمٌ.

قُلْتُ: وَمَاذَا بَعْدَ آه؟

قَالَ: وَمَاذَا كَانَ قَبْلَهَا؟ إِنَّهُ الْحُبُّ: فِيهِ مِثْلُ مَا فِي (عَمَلِيَّةِ جِرَاحِيَّةٍ) مِنْ
تَنْهَدَاتِ الْأَلَمِ وَلِذَعَاتِهِ، غَيْرَ أَنَّهَا مَفْرُقَةٌ عَلَى الْأَوَاقَاتِ وَالْأَسْبَابِ، مَبْعَثَرَةٌ غَيْرُ
مَجْمُوعَةٍ! «آه» هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا تَفْرُغُ مِنْهَا الْقُلُوبُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَهِيَ تُقَالُ
بِلَهْفَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْمَصِيبَةِ الْدَاهِمَةِ، وَالْأَلَمِ الْبَالِغِ، وَالْمَرَضِ الْمَدْنَفِ^(٢) وَالْحُبِّ
الشَّدِيدِ، الشَّدِيدِ؛ فَحِينَمَا تُؤْثِيكَ النَّفْسُ أَنْ تَحْتَيِّقَ تَنْفُسُ «بَاه»!

قُلْتُ: أَمَّا رَأَيْتَهَا مَرَّةً وَقَدْ أَوْشَكَتْ نَفْسُهَا أَنْ تَحْتَيِّقَ...؟

قَالَ: لَقَدْ هِجَّتْ لِي دَاءٌ قَدِيمًا؛ إِنَّ لِهَذِهِ الْحَبِيبَةِ سَاعَاتٍ مَفْرُوسَةً فِي زَمَنِ
غُرَسِ الشَّجَرِ، فَبَيْنَ الْحَجِينِ وَالْحَجِينِ تُثْمِرُ هَذِهِ السَّاعَاتُ مَرَّهَا وَحُلُولَهَا فِي نَفْسِي كَمَا
يُثْمِرُ الشَّجَرُ الْمَخْتَلِفُ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتَهَا ذَاتَ مَرَّةٍ فِي سَاعَةٍ هُمَّهَا! ثُمَّ ضَحَكَ وَسَكَتَ.

قُلْتُ: يَا عَدُوَّ نَفْسِي! مَاذَا رَأَيْتَ مِنْهَا؟ وَكَيْفَ أَرَاكَ الْوَجْدُ مَا رَأَيْتَ مِنْهَا؟

قَالَ: أَتَصَدَّقُنِي؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: رَأَيْتُ أَلْهَمَ عَلَى وَجْهِ هَذِهِ الْجَمِيلَةِ كَأَنَّهُ هُمْ مُؤْتَتْ يَعْتَفُهُ هُمْ مَذْكُرٌ؛ فَلَهُ
جَمَالٌ وَدَلَالٌ وَفَتَنَةٌ وَجَازِبِيَّةٌ، وَكَأَنَّ وَجْهَهَا يَصْنَعُ مِنْ حُزْنِهَا حُزْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا بِمَعْنَى
أَلْهَمَ لِقَلْبِهَا، وَالْآخَرُ بِمَعْنَى الْثَوْرَةِ لِقَلْبِي!

قُلْتُ: يَا عَدُوَّ نَفْسِي! هَذَا كَلَامٌ آخَرُ؛ فَهَذِهِ أَمْرَأَةٌ نَاعِمَةٌ بَضَّةٌ مَطْوِيٌّ بَعْضُهَا
عَلَى بَعْضِهَا، لَفَاءً مِنْ جِهَةٍ هَيْفَاءً مِنْ جِهَةٍ، ثَقِيلَةٌ شَيْءٍ وَخَفِيفَةٌ شَيْءٍ، جَمَعَتْ
الْحُسْنَ وَالْجِسْمَ وَفَنًا بَارِعًا فِي هَذَا وَفَنًا مُفْرَدًا فِي ذَاكَ؛ وَهِيَ جَمِيلَةٌ كُلُّ مَا تَتَأَمَّلُ
مِنْهَا، سَاحِرَةٌ كُلُّ مَا تَتَخَيَّلُ فِيهَا، وَهِيَ مَرَّاحَةٌ دَخْدَاحَةٌ^(٣) وَهِيَ تُطَالِعُكَ وَتُطْعِمُكَ؛
وَأَنْتَ أَمْرُؤٌ عَاشِقٌ وَرَجُلٌ قَوِيٌّ أَلْرَجُولَةُ؛ فَالْجَمِيلَةُ وَالْمَرَأَةُ هُمَا لَكَ فِي هَذَا الْجِسْمِ
أَلْوَاحِدِ، إِنَّ ذَهَبْتَ تَفْصِلُهُمَا فِي خَيَالِكَ أَمْتَزَجْتَا فِي دِمِكَ؛ وَلَوْ أَمْسَكَتَ أَلَّهُ التَّصْوِيرِ
نَظْرَاتِكَ إِلَيْهَا لَبَانَتْ فِيهَا أَطْرَافُ أَلْلَهَبِ الْأَحْمَرِ مِمَّا فِي نَفْسِكَ مِنْهَا؛ وَلَعَمْرِي لَوْ

(١) اسدلت: تَدَلَّتْ.

(٢) المرض المدنف: المرض المميت. (٣) دخداحة: خفيفة الظل ومرحة.

مرّت عربةٌ تدرج^(١) في الطريقِ ونظرتْ إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة
المحتبسة المكفوفة^(٢) لظنّتك سترى العجلة الحلقية عاشقاً مهتاجاً يطاردُ العجلة
الأمامية وهي تفرّ منه فرارَ العذراء!

* * *

فضحك وقال: لا، لا؛ إنّ نوعَ التصويرِ لإنسانٍ هو نوعُ المعرفةِ لهذا
الإنسان، ومن كلّ حبيبٍ وحبيبٍ تجتمعُ مقدّمةٌ ونتيجةٌ بينهما تلازمٌ في المعنى،
والمقدّمةُ عندي أن إيليسَ هنا في غيرِ إيليسيتها، فلا يُمكنُ أن تكونَ النتيجةُ وضَعُ
في إيليسيتها؛ وما أتصورُ في هذه الجميلةِ إلّا ألفنَ الذي أسبغهُ الجمالُ عليها، فهي
معرفتي وخيالي كالتمثالِ المبدعِ إبداعه: لا يستطيعُ أن يعملَ عملاً إلّا إظهارَ شكلِهِ
الجميلِ التامِّ حافلاً بمعانيه.

ليستْ هذه المرأةُ هي الأولى ولا الثانيةُ ولا الثالثةُ فيمنَ أحببتْ؛ إنّها تكررُ
وإيضاحٌ وتكملةٌ لشيءٍ لا يكملُ أبداً، وهو هذه المعاني النسويةُ الجميلةُ التي يزيدُ
الشيطانُ فيها من عشقٍ كلّ عاشقٍ؛ إنّ بطنَ المرأةِ يلد، ووجهُ المرأةِ يلد!
قلت: هذا إنّ كانَ وجهُها كوجهِ صاحبكِ، ولكن ما بالُ الدميمة؟
قال: لا، هذا وجهٌ عاقر.

* * *

قلت: ولكنّ الخطأَ في فلسفتك هذه أنّك تنظرُ إلى المرأةَ نظرةً عمليةً تريدُ أن
تعمل، ثم تمنعُها أن تعمل؛ فتأتي فلسفتك بعيدةً من الفلسفة، وكأنّك تغدو المعيدةُ
الجائعةُ برائحةِ الخبزِ فقط.

قال: نعم هذا خطأ، ولكنّه الخطأُ الذي يُخرجُ الحقائقَ الخياليةَ من هذا
الجمالِ؛ فإذا سخّرتْ من الحقيقةِ الماديةِ بأسلوبٍ في هذا الأسلوبِ عينيه تُثبتُ
الحقيقةَ نفسها في شكلٍ آخرٍ قد يكونُ أجملَ من شكلها الأول.

أتعلمُ كيف كانتْ نظرتي إلى نورِ القمرِ على هذه وإلى حُسنِ هذه على
القمر؟ إنّ القمرَ كانَ يُسبني بشرّيها فأراها مُتممةً له كأنّه ينظرُ وجهه في مرآة، فهي
خيالٌ وجهه؛ وكانتْ هي تُسبني ماديةَ القمرِ فأراه مُتمماً لها كأنّه خيالٌ وجهها.

أندري ما نظرةُ الحبِّ؟ إنّ في هذا القلبِ الإنسانيِّ شرارةَ كهربائيةٍ متى

(٢) المكفوفة: المكبوتة والمحبوسة.

(١) تدرج: تمشي وتسير.

أَتَقَدَّحَتْ زَادَتْ فِي الْعَيْنِ الْحَاضِظَ كَثَافَةً، وَزَادَتْ فِي الْحَوَاسِّ أَضْوَاءَ مُدْرَكَةٍ؛ فَيَنْفِذُ الْعَاشِقُ بِنَظَرِهِ وَحَوَاسِّهِ جَمِيعاً فِي حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، فَتَكُونُ لَهُ عَلَى النَّاسِ زِيَادَةٌ فِي الرُّؤْيِيَّةِ وَزِيَادَةٌ فِي الْإِدْرَاكِ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلاً فِيمَا يَرَاهُ وَمَا يُدْرِكُهُ؛ وَبِهَذِهِ الزِّيَادَةِ الْجَدِيدَةِ عَلَى النَّفْسِ لِلدُّنْيَا حَالَةٌ جَدِيدَةٌ فِي هَذِهِ النَّفْسِ؛ وَيَأْتِي السَّرُورُ جَدِيداً وَيَأْتِي الْحُزْنُ جَدِيداً أَيْضاً؛ فَأَلْفُ قُبْلَةٍ يَتَنَاوَلُهَا أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ أَلْفِ حَبِيبٍ، هِيَ أَلْفُ نَوْعٍ مِنَ اللَّذَّةِ وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَلَوْ بَكَى أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ هَجَرِ أَلْفٍ مَعْشُوقٍ لَكَانَ فِي كُلِّ دَمْعٍ نَوْعٌ مِنَ الْحُزَنِ لَيْسَ فِي الْآخِرِ!

قُلْتُ: فَنَوْعُ تَصَوُّرِكَ لِهَذِهِ الرَّاqِصَةِ الَّتِي تُحِبُّهَا، أَنَّ إِبْلِيسَ هُنَا فِي غَيْرِ إِبْلِيسِيَّةٍ!

قَالَ: هَكَذَا هِيَ عِنْدِي، وَبِهَذَا أَسْخَرُ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْإِبْلِيسِيَّةِ.

قُلْتُ: أَوْ تَسْخَرُ الْحَقِيقَةَ الْإِبْلِيسِيَّةَ مِنْكَ، وَهُوَ الْأَصَحُّ وَعَلَيْهِ الْفَتْوَى . . . ؟

فَضَحَكَ طَوِيلًا، وَقَالَ: سَأُحَدِّثُكَ بِغَرِيبَةٍ: أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْغَادَةَ لَا تَظْهَرُ أَبَدًا إِلَّا فِي الْحَرِيرِ الْأَسْوَدِ؛ وَهِيَ رَقِيقَةٌ أَلْبَسَرَةُ نَاصِعَةُ أَلَلُونِ، فَيَكُونُ لَهَا مِنْ سَوَادِ الْحَرِيرِ بَيَاضٌ أَلْبِيَاضٌ وَجَمَالُ الْجَمَالِ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ بَعْدَ الْعِشَاءِ فِي طَرِيقِي إِلَى هَذَا الْمَكَانِ لِأَرَاهَا، وَكَانَ الْكَلِيلُ مَظْلَمًا يَتَدَجَّى، وَقَدْ لَبَسَ وَتَلَبَّسَ وَغَلَبَ عَلَى مَصَابِيحِ الطَّرِيقِ فَحَصَرَ أَنْوَارَهَا حَتَّى بَيْنَ كُلِّ مِصْبَاحٍ ظِلْمَةٌ قَائِمَةٌ كَأَلْرِفِيبٍ بَيْنَ الْحَبِيبِينَ يَمْنَعُهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا؛ فَبَيْنَا أَقْلَبُ عَيْنِي فِي النُّورِ وَالْغَسَقِ وَأَنَا فِي مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْأَفْكَارُ الْمَحْزَنَةُ أَشَدَّ حُزْنًا - إِذْ رَفَعَ لِي مِنْ بَعِيدٍ شَيْخٌ أَسْوَدُ يَمْشِي مِشْيَتَهُ مُتَفَتِّرًا قَصِيرَ الْخَطْوِ يَهْتَزُّ وَيَتَبَخَّرُ؛ فَتَبَصَّرْتُهُ فِي هَيْئَتِهِ فَمَا شَكَّكْتُ أَنَّهَا هِيَ، وَفُتِّخْتُ الْجَنَّةَ الَّتِي فِي خِيَالِي وَبَرَزَتْ الْحَقَائِقُ الْكَثِيرَةُ تَلْتَمِسُ مَعَانِيَهَا مِنْ لَذَّةِ الْحُبِّ؛ وَكَانَ الطَّرِيقُ خَالِيًا، فَأَحْسَنْتُ بِهِ لَنَا وَحَدَّنَا كَالْمَسَافَةِ الْمَحْصُورَةِ بَيْنَ ثَغْرَيْنِ مُتَعَاشِقَيْنِ يَدْنُو أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخِرِ، وَأَسْرَعْتُ إِسْرَاعَ الْقَلْبِ إِلَى الْفُرْصَةِ حِينَ تُمْكِنُ؛ فَلَمَّا صِرْتُ بِحَيْثُ أَتَبَيَّنُ ذَلِكَ الشَّيْخَ إِذَا هُوَ . . . إِذَا هُوَ قَسِيسٌ . . .

فَقُلْتُ: يَا عَجَبًا! مَا أَظْرَفَ مَا دَاعَبَكَ إِبْلِيسُ هَذِهِ الْمَرْءَ! وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَكَ: إِيَّاهُ يَا صَاحِبَ الْفَضِيلَةِ . . .

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم في شغل؛ إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد؛ وألقى الشيطان على لساني فقلت لصاحبي: ما يمنعك أن تبعث إليها فلانا يستفتح كلامها ثم يدعوها، فليس بينك وبينها إلا كلمة «تعالني» أو تفضلني؟

قال: كلا، يجب أن تنفصل عني لأراها في نفسي أشكالا وأشكالا؛ ويجب أن تبتعد لألمسها لمسات روحية؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق فيها علم قلبي؛ ويجب أن تدع جسمها وأدع جسمي وهناك نلتقي رجلاً وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة. بهذا أفهم أنا أكتب، وبهذه الطبيعة أنا أحب!

ما هو الجزء الذي يفتني منها؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه.

وما هو هذا الكل؟ هو الذي يفسر نفسه في قلبي بهذا الحب.

وما هو هذا الحب؟ هو أنا وهي على هذه الحالة من اليأس.

نعم أنا بائس، ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى في الفن: لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم، والحبيب الذي لا تناله هو وحده القادر قدرة الجمال والسحر؛ يجعلك لا تدري أين يختبئ منه جماله فبدعك تبحث عنه بلذة؛ ولا تدري أين يسفر^(١) جماله منه فبدعك تراه بلذة أخرى؛ أنا أنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة، على نار مشبوبة في قلبي!

قلت: يا صديقي المسكين! هذه مشكلة عرضت بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً. وما كان أشد عجبني إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا.

أما هو: أما صاحب القلب المسكين...؟

(١) يسفر: يكشف.

القلب المسكين

٤

أما صاحب القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهي مُقبلَةٌ تَتِيَمُنَا^(١) حتى
بَغَتْهُ^(٢) ذلك، فساوَرَهُ^(٣) أَلْقَلَقُ، وَأَعْتَرَاهُ ما يعترى المُجِبَّ المَهْجُورَ إذا فاجأه في
الطريقِ هاجِرُهُ؛ أَرَأَيْتَ مَرَّةً عاشقاً جفاهُ الحبيبُ وأَمْتَنَعَ عليه دَهْراً لا يراه،
وصارمَهُ^(٤) مدَّةً لا يكلمه، فنَزَعَ نومَهُ من ليله، وراحته من نهاره، ودُنياهُ من يده،
وبلَغَ بِهِ ما بَلَغَ مِنَ السَّقَمِ^(٥) وَالضُّعَى، ثُمَّ بَينا هو يمشي إذْ باغَتْهُ ذلك الحبيبُ
مُنْجِداً في الطريق؟

إنَّكَ لو أَبْصَرْتَ حَيْثُ قَلْبَ هذا الْمَسْكِينِ لَرَأَيْتَهُ على زَلْزَلَةٍ من شِدَّةِ الْخُفْقَانِ،
وكأنَّهُ في ضَرْبَاتِهِ متَلَعِّمٌ يَكْرُرُ كَلِمَةً واحدة: هي هي هي...
ولو نَفَذْتَ إلى جِسِّ هذا الْبائِسِ لَرَأَيْتَهُ يَشْعُرُ مثلَ شعورِ الْمُحْتَضِرِ^(٦) أنْ هذه
الدُّنيا قد نَفَتْهُ منها!

ولو أَطْلَعْتَ على دَمِهِ في عُرُوقِهِ لَأَبْصَرْتَهُ مَخْذُولاً يَتَرَجَّعُ كأنَّ الدَّمَّ الْآخَرَ يطرده.
إنَّها لَحِظَةٌ يرى فيها المَهْجُورُ بَعِينِهِ أنْ كُلَّ شَهْوَائِهِ في خِيبَةٍ، فيردُّ عليه الْحَبُّ
مَعَ كُلِّ شَهْوَةٍ نَوْعاً مِنَ الْذَلِّ، فيكونُ بِإِزاءِ الْحَبِيبِ كَالْمَنْهَزِمِ مائةَ مَرَّةٍ أَمَامَ الَّذِي
هَزَمَهُ مائةَ مَرَّةٍ.

لَحِظَةٌ لا يشْعُرُ الْمَسْكِينُ فيها مِنَ الْبَغْتَةِ وَالْإِغْثَاذِ وَالْاضْطِرَابِ وَالْخَوْفِ إِلَّا أنْ
رُوحَهُ وَثَبَتْ إلى رَأْسِهِ ثُمَّ هَوَتْ فَجَاءَتْهُ إلى قَدَمَيْهِ!

* * *

(١) تَتِيَمُنَا: تتجه نحونا.

(٢) بَغَتْهُ: فاجأه.

(٣) ساوَرَهُ: انتابه، داخله.

(٤) صارمهُ: قاطعه.

(٥) السَّقَمُ: المرض.

(٦) المحتضر: المتأزع في اللحظات الأخيرة من حياته.

غير أنَّ صاحبنا نحنُ لم يكنْ مهجوراً مِنْ صاحِبَتِهِ، ولكنْ من عجائبِ الحُبِّ
أنَّهُ يعملُ أحياناً عملاً واحداً بِالْعَاطِفَتَيْنِ الْمُخْتَلِفَتَيْنِ، إِذْ كَانَ دائماً على حدودِ
الْإِسْرَافِ ما دامَ حُبّاً، فكلُّ شيءٍ فِيهِ قَرِيبٌ مِنْ ضِدِّهِ، وَالصَّدَقُ فِيهِ مِنْ نَاحِيَةِ مَهْيَأٍ
دائماً لِأَنَّ يُقَابَلَ بِتَهْمَةِ الْكَذِبِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى، وَالْيَقِينُ مُعَدٌّ لَهُ الشُّكُّ بِالطَّبِيعَةِ؛
وَالْحُبُّ نَفْسُهُ قَضَاءٌ عَلَى الْعَدْلِ، فَإِنَّهُ لَا يَخْضَعُ لِقَانُونٍ مِنَ الْقَوَانِينِ، وَالْحَبِيبُ - مَعَ
أَنَّهُ حَبِيبٌ - يَخَافُهُ عَاشِقُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ حَبِيبٌ!

وقد يَصْفُرُ الْعَاشِقُ لِمِبَاغَةِ الْإِلْقَاءِ كَمَا يَصْفُرُ لِمِبَاغَةِ الْهَجْرِ، وَهَذِهِ كَانَتْ حَالُ
صَاحِبِنَا عِنْدَ مَا رَأَاهَا مُقْبِلَةً عَلَيْهِ؛ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَخْشَى إِمَامَتَهَا بِهِ، تَوَقُّياً عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ ظَنُونِ النَّاسِ؛ وَأَكْثَرَ مَا يُحْسِنُهُ الْنَاسُ هُوَ أَنْ يُسَيِّئُوا الظَّنَّ؛ وَهُوَ رَجُلٌ ذُو شَأْنٍ
ضَخْمٍ، وَمَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى مِثْلِهِ سَرِيعَةٌ إِذَا رُؤِيَ مَعَ مِثْلِهَا، وَكَأَنَّهَا هِيَ الْمَثُ^(١) بِكُلِّ
هَذَا أَوْ طَالَعَهَا بِهِ وَجْهَهُ الْمَتَوَقَّرُ الْمَتَرَمَّتُ^(٢)؛ فَعَدَلْتُ عَنْ طَرِيقِهَا إِلَيْنَا وَوَقَفْتُ عَلَى
رَأْسِ فَرْقَةِ الْمَوْسِيقَى، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا إِلَّا خُطَوَاتٌ؛ وَرَأَيْتُهَا قَدْ هَيَّأَتْ فِي عَيْنِهَا
نَظْرَةً غَاضِبَتْنَا بِهَا، ثُمَّ لَمْ تَلِثْ أَنَّ صَالِحَتَنَا بِأُخْرَى!

وَكَأَنَّهَا أَلْقَتْ لِرَأْسِ الْمَوْسِيقَى أَمراً لِيَتَأَمَّبَ أَهْبَتُهُ لِدَوْرِهَا، ثُمَّ هَمَّتْ أَنَّ
تَرْجِعَ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ فَجَعَلَتْ تُكَلِّمُهُ وَعَيْنَاهَا إِلَيْنَا؛ فَقَالَ صَاحِبُنَا وَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ مِنْ
فِعْلِهَا: إِنَّهَا نَبِيلَةٌ حَتَّى فِي سَقُوطِهَا!

وَلَا أَدْرِي مَاذَا كَانَتْ تَقُولُ لِرَأْسِ الْمَوْسِيقَى، وَلَكِنْ هَذَا الرَّجُلُ لَمْ يَظْهَرْ لِي
وَقَتْلُ إِلَّا كَأَنَّهُ تَلْفُونٌ مُعَلَّقٌ!



كَانَتْ عَيْنَاهَا إِلَى صَاحِبِهَا لَا تَنْزِلَانِ عَنْهُ وَلَا تَتَحَوَّلَانِ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُسَارِقُهُ
النَّظَرُ بَلْ تَغْلِبُهُ عَلَيْهِ مُغَالِبَةً؛ وَرَأَيْتُهُ كَذَلِكَ قَدْ ثَبَّتَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهَا فَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا
الْوُجُودَ قَدْ أَنْحَصَرَ جَمَالُهُ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَعْيُنٍ عَاشِقَةٍ؛ وَكَانَتْ تُطَارِحُهُ^(٣) وَيُطَارِحُهَا
كَلَاماً مَخْبُوءاً تَحْتَ هَذِهِ النُّظَرَاتِ، وَقَدْ نَسِيََا مَا حَوْلَهُمَا، وَشَعَرَا بِمَا يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ
حَبِيبَيْنِ إِذَا أَلْتَقِيَا فِي بَعْضِ لَحْظَاتِ الْأَرْوَاحِ السَّامِيَةِ: أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ الْعَظِيمَ لَا يَعْمَلُ
إِلَّا لِأَتْنَيْنِ فَقَطْ: هُوَ وَهِيَ.

(١) أَلَمْتُ: عَرَفْتُ.

(٢) الْمَتَرَمَّتُ: تَبَادَلَهُ.

(٣) تُطَارِحُهُ: تَبَادَلَهُ.

وكانَ فمُها الجَميلُ لا يزالُ يساقطُ ألفاظُهُ لِرئيسِ الموسِقى، وكأنَّها تُسرِّدُ لَه
حِكايَةً مرويَّةً، أو تُعارضُ بِحافظيَّهِ كلاماً تحفظُهُ من كلامِ التمثيلِ أو الغناء؛ فهي
تُحدِّثُ وعيناها مفكرَتانِ شاخصتان، فلم يُنكرِ الرَّجلُ هيئتَها هذه؛ ولكنَّ كيفَ
كانتَ عيناها؟

لقد أرادتَ في البدءِ أن تجعلَ قوَّةَ نظراتِها كلاماً، حتى لَحسِبْتَ أنَّ هذه
النظراتِ الأولى تهتِفُ من بعيد: أنتَ يا أنتَ!

ثمَّ بدا في عينيها فتورُ الظُّمأ، ظمأُ الحُبِّ المتكَبِّرِ المتمرِّدِ، لِأنَّه حُبُّ المرأةِ
المعشوقة، لِأنَّ لَه لذتين، إحداهما في أن يبقى ظمأً إلى حين.

ثمَّ أرسلتِ الأَلفاظُ التي تتوهَّجُ أحياناً فوقَ كلامِ المرأةِ الجَميلةِ في بعضِ حالاتِها
النفسيةِ، فتضرمُ في كلامِها شرارةً مِنَ الروحِ تُظهرُ الكَلَامَ كأنَّه يُحرقُ ويحترقُ...

ثمَّ توجَّعتِ النظراتُ لِأنَّها تُصلِّها بِالرَّجلِ الَّذي لا يُشبهُ الرَّجالَ، فلا
يستوهِبُ^(١) خُضوعَها ولا يشتريه؛ والرَّجلُ كُلُّ الرَّجلِ عندَ هذه المرأةِ هو الَّذي لا
يُشبهُ الأَباقيْنَ مِنَّ تعرفُهم، فإذا أحبَّها فكأنَّما أحبَّها عذراءُ خَفِيرةٌ^(٢) لم تُمس، وكأنَّه
من ذلكَ يَصِلُها بِماضيها وطهارتِها وحياتها وما لا يُمكنُ أن تتمثَّلَه إلَّا في مثلِ حُبِّه.

ثمَّ ذبَلتَ عيناها الجَميلتان، وما هو ذبولُ عيني امرأةٍ تنظرُ إلى مُحبِّها؛ إنَّه هو
استسلامُ فِكْرِها لِفِكرة، أو عنادُ معنى فيها لِمعنى فيه، أو توكيدُ خاطرةٍ تحتاجُ إلى
التوكيدِ؛ ومَرَّةً هو كقولِها: لماذا؟ ونارةً هو كقولِها: أفهمت؟ وأحياناً، وأحياناً هو
أنهاءُ مُقاومة.



وتَمَّتِ الحِكايَةُ المرويَّةُ التي كانتَ تُلقِيها لِلتَّليفونِ... فكُرْتُ^(٣) راجعةً إلى
المسرحِ بعدَ أن صاحَتَ نظراتُها مَرَّةً أخرى كما بدأت: أنتَ يا أنتَ... فقلتُ
لِصاحِبِنَا: ويحكُ يا عدوَّ نَفْسِه! لو اختارَ الشَّيطانُ عَينينِ ساحرتينِ ينظرُ بهما إِلَيكَ
نظرَ الفِتنَةِ، لَمَّا اختارَ إلَّا عَينَها، في وجْهِها، في هيئتِها، في موقِفِها؛ وأراكَ معَ
هذا كمنتَظِرٍ ما لا يُوجدُ ولا يُمكنُ أن يُوجدَ؛ وأراها معكَ في حُبِّها كَالحيوانِ
الأليفِ إذا طمَعَ في المُستحيلِ.

(١) يستوهب: يطلب الحصول عليه.

(٢) خفيرة: حية.

(٣) كُرْتُ راجعة: عادت.

قال: وما هو المستحيل الذي يطعم فيه الحيوان أَلأليف؟

قلت: ذلك يطعم في أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة والمنفعة.

قال: لقد أغمضت في العبارة فبين لي شيئاً من أليان.

قلت: هب كلباً تألف صاحبها وتجنّب فيه له ذليلاً مطوّعاً، ثم يبلغ بها الحب أن تطعم في أن يكون لها تمام الشرف، فلا يقول صاحبها عنها: هذه كلبتي، بل يقول: هذه زوجتي...

قال: وني منك! وني منك! لقد ضربت على رأس المسمار كما يقولون هذا هو المستحيل الذي بيني وبينها، هذا هو المثل. يا لفظ الحلوى! يا لفظ الحلوى! لو كررتك بلساني ألف مرة فهل تضع في لساني طعمها...؟

قلت: خفض^(٢) عليك يا صاحب القلب المسكين، فلست أكثر من عاشق.

قال: بل أنا مع هذه أكثر من عاشق؛ لأن في العاشق رغباً وفي أنا رهاب، وفيه الجريء وفي المنكمش، ويغترف العزفة من الشلال المتحدّر فيحسوها فيرتوي وأغترف أنا العزفة بيدي، وأبقها في يدي، وأطعم أن تهدير في يدي كالشلال أنا أكثر من عاشق؛ فإنه يعشق ليتهي من ألم الجمال، وأعشق أنا لأستمر في هذا الألم!

هذه هذه؛ العجيب يا صديقي أن خيال الإنسان يلتقط صوراً كثيرة من صور الجمال تجيء كما يتفق، ولكنه يلتقط صورة واحدة بإتقان عجيب، هي صورة الحب؛ فهذه هذه.

ألم أقل لك إن إبليس هنا في غير حقيقته الإبلية ولم تفهم عني؟ فافهم الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فإنه ليخيل إلينا أننا نراها فيمن نحبهم؛ وما دام سر الحب يبدل الزمن والنفس ويأتي بأشياء من خارج الحياة، فكل حقائق هذا الحب في غير حقيقتها.

هذه هذه؛ لا أطلب في غيرها امرأة أجمل منها، فهذا كالمستحيل، ولكنني أتمس^(٣) فيها هي امرأة أظهر منها، وهذا كالمستحيل أيضاً؛ إنها أجمل جسم، ولكن وأسفاه! إنها أجمل جسم للمعاني التي يجب أن أبتعد عنها!

* * *

(١) وي: اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب.

(٢) خفض: هون.

(٣) التمس: أفتش وأطلب.

وسَكَتَ صاحبُنَا، إِذْ رُفِعَتْ ستارَةُ الْمَسْرَحِ وظَهَرَتْ هِيَ مَرَّةً أُخْرَى، ظَهَرَتْ فِي زِينَةٍ لَا غَايَةَ بَعْدَهَا، تَمَثَّلُ الْعُرُوسَ لَيْلَةَ جَلُوتِهَا^(١)؛ أَلَا مَا أَمْرُهَا سَخَرِيَّةً مِنْكِ أَيُّهَا الْمَسْكِينَةُ! عُرُوسٌ وَلَكِنْ لِمَنْ؟

كَانَتْ تَبْرِقُ عَلَى الْمَسْرَحِ كَأَنَّهَا كَوَكَبٌ ذُرِّيُّ نُورُهُ نَوْرٌ وَجَمَالٌ وَعَوَاطِفُ شَعْرٍ. وَأَقْبَلَتْ تَتَمَايَلُ بِجِسْمٍ رَخِصٍ لَبِنٍ مُسْتَرَسِلٍ الْأَعْطَافِ يَتَدَفَّقُ الْجَمَالُ وَالشَّبَابُ فِيهِ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ.

وَأَظْهَرَ وَجْهَهَا حُسْنًا وَأَبْدَى جِسْمَهَا حُسْنًا آخَرَ، فَتَمَّ الْحُسْنُ بِالْحُسْنِ. وَاقِفَةٌ كَالنَّائِمَةِ، فَالْجَوْ جَوْ الْأَحْلَامِ، وَكَانَ الْحُبُّ يَحْلُمُ، وَكَانَ السُّرُورُ يَحْلُمُ! مَهْتَزَّةٌ كَالْمَوْجِ فِي الْمَوْجِ. هَلْ خُلِقَتْ رُوحُ الْبَحْرِ فِي جِسْمِهَا الْمَتَرَجِرِ فَشِيءٌ يَمْلُو وَشِيءٌ يَهْبِطُ وَشِيءٌ يَتَوَرُّ وَيَضْطَرِبُ؟

ثُمَّ دَقَّتِ الْمَوْسِيقَى بِالْحَانِيهَا الْمَتَكَلِّمَةِ، وَدَقَّتْ أَعْضَاءُ هَذَا الْجِسْمِ بِالْحَانِيهَا الْمَتَحَرِّكَةِ، وَأَحْسَنَّا كَأَنَّ رُوحَ الْحَدِيقَةِ جَالِسَةً بَيْنَنَا تَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَتَعَجَّبُ. تَتَعَجَّبُ مِنْ قَوَائِمِهَا لِلنَّغْصَنِ الْحَيِّ، وَمِنْ بَدَنِهَا لِلزَّهْرِ الْحَيِّ، وَمِنْ عَطْرِهَا لِلنَّسِيمِ الْحَيِّ. أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ...

(١) لَيْلَةُ جَلُوتِهَا: لَيْلَةُ زَفَافِهَا وَعَرَسِهَا.

القلبُ المسكين

٥

أما صاحبُ القلبِ المسكينِ فتزعزعتْ كبدهُ ممَّا رأى؛ وجعلَ ينظرُ إلى هذه
الفتاةِ تُمثلُ العروسَ وقد أشرقَ فيها رَوْثُها وسطعتْ ولمعتْ، فبدتْ لَهُ مُفسِّرةً في
هذه الغلائلِ غلائلِ الغُرسِ؛ وما غلائلُ الغُرسِ؟

إنَّها تلكَ الثيابُ التي تكسو لابستها إلى ساعةٍ فقط... ثيابٌ أجملُ ما فيها
أنَّها تُقدِّمُ الجمالَ إلى الحبِّ، فأزهى ألوانها اللونُ المُشرقُ من روحِ لابستها،
وأسطعُ ألوانِ عليها، ألنورُ المنبعثِ من فرحِ قلبي.

تلكَ الثيابُ التي تكونُ سَكَباً من خالصِ الحريرِ ورفيعِ الخزِّ، وحينَ تلبسُها
مثلُ هذه الفتاةِ تكادُ تنطقُ أنها ليستِ مِنَ الحريرِ، إذ تعلمُ أنَّ الحريرَ ما تحتها.

ثمَّ تنهَّدَ المسكينُ وقال: أفهمت؟

قلتُ: فهمتُ ماذا؟

قال. هذا هو انتقامُها.

قلتُ: يا عجباً! أتريدُها في ثيابِ راحيةٍ مُكبَّكةٍ فيها كما أَلْقَيْتَ البِضَاعَةَ في
غِرابَةٍ^(١)، بينَ سوادٍ هو شعارُ الجِدادِ على الألوثةِ ألهالكَةِ، وبياضٍ هو شعارُ الكفنِ
لهذه الألوثةِ؟

قال: أنت لا تعرفُها؛ إنَّ الروايةَ التي تُمثلُ فيها بينَ الروحِ والجسمِ، هي التي
أحتاجتُ إلى هذا الفصلِ يَقْوَى بِهِ المعنى؛ وكلُّ عاشقةٍ فعشقُها هو الروايةُ التي
تُمثلُ فيها، يُؤلِّفها هذا المؤلفُ الذي أسَمُهُ الحبُّ، ولا تدري هي ماذا يصنعُ وماذا
يؤلِّف، غيرَ أنَّه لا يفتأُ يؤلِّفُ ويصنعُ ويتنقَّعُ كما تنتزلُ بِهِ الحالُ بعدَ الحالِ، وكما
تعرضُ بِهِ المصادفةُ بعدَ المصادفةِ؛ وعليها هي أنْ تُمثلُ..

(١) غرابة، بالفتح: صار ذاغرة.

قلت: فهذا؛ ولكن كيف يكون هذا انتقاماً؟

قال: إِنَّ الْأَفْكَارَ أَشْيَاءَ حَقِيقِيَّةَ، ولو كشف لك الْجَوْ هذه السَّاعَةَ لَرَأَيْتَهُ
مسطوراً عباراتٍ عباراتٍ كأنه مقالُهُ جريدة.

هذا الفصلُ جوازٌ طويلٌ في الهمومِ وَالْآلامِ ورقةِ الشُّوقِ وتهالكِ الصَّبوةِ، لو
كُتِبَ لَهُ عنوانٌ لَكَانَ عُنوانُهُ هكذا: ما أَشْهأها وما أَحْظأها! إِنَّ الْهَوَاءَ بَيْنَ كُلِّ
عاشقينِ متقاتلينِ يأخذُ ويُعطِي...

قلت: يا عدوَّ نفسيه! ما أعجبَ ما تُدَقِّق! لقد أدركتُ الآنَ أَنَّ المرأةَ تتسلَّحُ
بِما شاءت، لا من أجلِ أَنْ تُدافع، ولكن لِتزيدَ أسلحتَها في سلاحِ مَنْ نُحِبُّه، فثريدُهُ
قُوَّةٌ على قَهْرِها وإخضاعِها...

أما هذه (العروسُ) فكانتُ أفكارُها لا تجِدُ ألفاظاً تحدُّها فهي تظهرُ كيفما
اتَّفَقَ، مرسلَةً إرسالاً في الْفَتَّةِ وَالْحركةِ وَالْهَيْئَةِ وَالْقَوْمَةِ وَالْقَعْدَةِ: وهي مَنْ
عَلِمَتْ: امرأةٌ تعيشُ لِلْحقائقِ، وبينَ الْحقائقِ، كَكُلِّ ذي صنعةٍ في صنعةٍ فكانتُ
في تماديبها خطراً أيَّ خطرٍ على صاحبِ الْقَلْبِ الْمسكينِ، ثمَّنُلْ شيئاً لا أدري
أهو ظاهرٌ بِخفائِهِ أم هو خافٍ بِظهورِهِ؛ وقد وقعَ صاحبُنَا منها فيما لم يدخلِ في
حِسابِهِ، فكانتِ الْخبيثَةُ الْماجنةُ كأنَّها تُسْكِرُهُ بِمُسْكِرِ حَقِيقِي، غيرَ أَنَّهُ من
جَسَمِها لا من زجاجةِ خمر.

وكانتُ لِدَهْنِهِ الْمُتَخَيَّلِ كَالسَّحَابَةِ الْمُمتلئةِ بِالْبَرْقِ؛ تُومِضُ كُلَّ لَحْظَةٍ بِأَنْوارٍ بعدَ
أَنْوارٍ، وبينَ الْفَترةِ وَالْفَترةِ ترمي الصَّاعقةُ.

وظَهَرَتْ كأنَّها امرأةٌ مخلوقةٌ من دَمٍ وَلَهَبٍ؛ فلقد أيقنْتُ حينئذٍ أَنَّ الْحُبَّ إِن
هوَ إِلَّا الْغريزةُ الْبهيْمِيَّةُ بِعينِها مُحاولَةٌ أَنْ تكونَ شيئاً لَهُ وجودٌ فَنِي إلى وجودِهِ
الطَّبِيعِي، فهو مصيبتانِ في واحدةٍ، وكلُّ عملِهِ أَنْ يجعلَ اللَّذَّةَ الْذُّ، وَالْأَلَمَ أَشَدَّ،
وَالْقِلَّةَ كَثْرَةً، وَالْكَثْرَةَ أَكْثَرَ، وما هو نهايةٌ كأنَّهُ لا نهاية...

هذه (العروسُ) كانتُ قَبْلَ الْآنِ واقفةً على حدودِ صاحبِها، أما الآنَ فإنَّها
تقتحِمُ الْحدودَ وتغزو غزوها وتمتلك...

يا لَسِحْرِ الْحُبِّ من سِحر! كلُّ ما في الطَّبِيعَةِ من جمالٍ تُظْهِرُهُ الطَّبِيعَةُ لِعاشِقِها
في إحدى صورِ الفهمِ، أما الْحبيبُ الْجَمِيلُ فهو وحدهُ الَّذِي يَظْهَرُ لِعاشِقِهِ في كُلِّ

صَوْرَ الْفَهْمِ ، وبهذا يكونُ الْوَقْتُ مَعَهُ أَوْقَاتًا مُخْتَلِفَةً مُتَنَاقِضَةً ، فِي سَاعَةٍ يَكُونُ الْعَقْلُ وَفِي سَاعَةٍ يَكُونُ الْجَنُونُ .

يَا لَسِحْرِ الْحُبِّ ! لَقَدْ أَرَادَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ أَنْ تَذْهَبَ بِعَقْلِ صَاحِبِهَا ، وَأَنْ تَنْقُلَهُ إِلَى وَحْشِيَّةِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ الْكَامِنِ فِيهِ ، وَأَنْ تَقْذِفَ بِهِ إِلَى بَعِيدٍ بَعِيدٍ وَرَاءَ فُضَائِلِهِ وَعِصْمَتِهِ ؛ فَسَنَحَتْ لَهُ كَمَا يَسْنَحُ الْأَصِيدُ لِلصَّائِدِ يَحْمِلُ فِي جِسْمِهِ لَحْمَهُ الشَّهْيِ . . . وَتَرَكَّتْ شَعْوَرَهُ جَائِعًا إِلَى مُحَاسِنِهَا بِمِثْلِ جُوعِ الْمَعِدَةِ . . . وَبَرَزَتْ لَهُ صَرِيحَةً كَمَا هِيَ ، وَلَمَّا هِيَ ؛ وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا هِيَ هِيَ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ حِينَ أَلْبَسَتْ جِسْمَهَا ثِيَابَ الْحَقِيقَةِ الْمُؤَنَّثَةِ .

أَو مِنْ (هِيَ) إِذَا امْتَلَأَتْ أَلْهَاءُ وَأَلْيَاءُ مِنْ قَلْبِ رَجُلٍ يُحِبُّ ! وَأَو مِنْ (هِيَ) إِذَا خَرَجَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ لُغَةِ النَّاسِ إِلَى لُغَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ !

إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرَةٍ . . . أَمْرَةً يُقَالُ لَهَا (هِيَ) بِأَعْتَابِ الضَّمِيرِ لِلتَّائِيثِ فَقَطْ ، كَمَا يُعْتَبَرُ فِي الدَّابَّةِ وَالْحَشَرَةِ وَالْأَدَاةِ وَنَحْوِهَا مِنْ هَذِهِ الْمُؤَنَّثَاتِ الَّتِي يَرْجِعُ عَلَيْهَا هَذَا الضَّمِيرُ ؛ وَلَكِنْ (هِيَ) الْمَفْرَدَةُ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ لَا تُوجَدُ فِي النِّسَاءِ إِلَّا حِينَ يُوجَدُ لَهَا (هَو) .

أَنَا الَّذِي يَقْصُصُ لِلْقُرَّاءِ هَذِهِ الْقِصَّةَ ، قَدْ كَابَذْتُ^(١) مِنْ شِدَّةِ الْحُبِّ وَإِفْرَاطِ الْوُجْدِ^(٢) مَا يُفْعِمُ قَلْبَيْنِ مُسْكِنَيْنِ لَا قَلْبًا وَاحِدًا ؛ وَكَانَتْ لِي (هِيَ) مِنَ الْهَيَاتِ عَانِيَتْ فِيهَا الْحُبُّ وَالْأَلَمُ دَفْعًا طَوِيلًا ؛ وَقَدْ ذَهَبَتْ بِي فِي هَوَاهَا كُلِّ مَذْهَبٍ إِلَّا مَذْهَبَ يُحَلُّ حَرَامًا ، أَوْ مَذْهَبًا يُحَلُّ بِمُرُوءَةٍ ؛ وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الشَّيْءَ السَّامِيَّ فِي الْحُبِّ هُوَ أَلَّا يَخْرُجَ مِنَ الْعَاشِقِ مُجْرَمٌ .

فَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ أَنْ يَسْتَطِيعَ الرَّجُلُ الْفَصْلَ بَيْنَ الْحُبِّ مِنْ أَجْلِ جَمَالِ الْأَنْثَى يُظْهِرُ عَلَيْهَا ، وَبَيْنَ الْحُبِّ مِنْ أَجْلِ الْأَنْثَى تُظْهِرُ فِي جَمَالِهَا ؛ فَهُوَ فِي الْأَوَّلَى يَشْهَدُ لِلْإِلَهِِيَّةِ فِي إِبْدَاعِهَا السَّامِيَّ الْجَمِيلِ ، وَفِي الْآخَرَى لَا يَرَى غَيْرَ الْبَشَرِيَّةِ فِي حَيَوَانِيَّتِهَا الْمُتَجَمِّلَةِ . . .

وَقَدْ أَدْرَكْتُ مِنْ فِلَسَفَةِ الْحُبِّ أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْكُبْرَى لِهَذَا الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ الَّذِي يَمْلَأُ الْعَالَمَ - قَدْ جَعَلْتُ حَتِينَ الْعِشْقِ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ هُوَ أَوَّلُ أَمْثَلِهَا الْعَمَلِيَّةِ فِي تَعْلِيمِهِ الْحَتِينَ إِلَيْهَا إِنْ شَاءَ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، فَكَمَا يُحِبُّ إِنْسَانٌ بَرُوحَ الشَّهْوَةِ يُحِبُّ إِنْسَانٌ

(٢) الْوُجْدُ : شِدَّةُ احْتِبَ .

(١) كَابَذْتُ : عَانَيْتُ .

آخرُ بُروح العبادَةِ ؛ وهذا هو الَّذي يُسميه الفلاسفة : (تلطيف السرّ)، أي جعلهُ مستعدّاً للتوجّه إلى النورِ والحقِّ والخير، وقد عدّوا فيما يُعِينُ عليه، الفكرَ أدقِّقَ والعشقَ العنيفَ .

وكذلك تبيّنُ مِمّا علّمني الحُبُّ أنَّ طرْدَ آدمَ وحواءَ مِنَ الْفِرْدَوْسِ ، كانَ معناهُ نُفْلٌ معاني الْفِرْدَوْسِ وعرضها لِكُلِّ آدمَ وحواءَ يُمَثِّلانِ الروايةَ . . . فإذا (قطفاً الثمرة) طُرِدَا من معاني الْجَنَّةِ ، وهبطا بعدَ ذلكَ من أُخيلةِ السَّماءِ إلى حقائقِ الْأَرْضِ .

نعم هو الحُبُّ شيءٌ واحدٌ في كُلِّ عاشقٍ لِكُلِّ جميلٍ ، غيرَ أنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ أَهْلِهِ يَكُونُ في جمالِ الْعَمَلِ أو قُبْحِ الْعَمَلِ ؛ وهذه الْنَفُوسُ مَصْنُوعٌ مُخْتَلِفَةٌ لِهَذِهِ الْمَادَّةِ الْوَاحِدَةِ ؛ فَالْحُبُّ في بَعْضِها يَكُونُ قُوَّةً وفي بَعْضِها يَكُونُ ضَعْفاً ؛ وفي نَفْسٍ يَكُونُ الْهُوَى حَيَوَانِيّاً يُرَاكِمُ الظُّلْمَةَ على الظُّلْمَةِ في الْحَيَاةِ ، وفي أُخْرَى يَكُونُ رُوحَانِيّاً يَكْشِفُ الظُّلَامَ عَنِ الْحَيَاةِ .

وَالْمُعْجَزَةُ في هذا الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ أَنَّهُ لَهُ مَعَ طَبِيعَةٍ كُلِّ شَيْءٍ طَبِيعَةٌ الْإِحْسَاسِ بِهِ ، فَهُوَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَجِدَ لَذَّةَ نَفْسِهِ في الْأَلَمِ ، قَادِرٌ على أَنْ يَأْخُذَ هَبَّةً من معاني الْحَرَمَانِ ؛ وبهذه الطَّبِيعَةِ يَسْمُو مَنْ يَسْمُو ، وَهِيَ على أَنْفُسِهَا وَأَقْوَامِهَا في عَظَمَاءِ الْنَفُوسِ ، حَتَّى لَكَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَأْتِي هَوَاءَ الْعَظَمَاءِ سَائِلَةً : مَاذَا يُرِيدُونَ مِنْهَا ؟ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمُوَ بِالْحُبِّ فَلْيَضَعُهُ في نَفْسِهِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ : الْخُلُقِ الرَّفِيعِ ، وَالْحِكْمَةِ الْنَاضِجَةِ ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَا أَقْلٌ من شَيْئَيْنِ : الْحَلَالِ ، وَالْحَرَامِ .

أنا الَّذي يَقْصُ لِلْقَرَاءِ هذه الْقِصَّةَ ، أعرفُ هذا كُلَّهُ ، وبهذا كُلِّهِ فَهَمْتُ قَوْلَ صَاحِبِ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ : إِنَّ ظَهْوَرَ صَاحِبَتِهِ في فَصْلِ الْعُرُوسِ هُوَ أَنْتَقَامُهَا ، حَاصِرَتْ عَيْنَاهَا عَيْنَهُ ، وَزَخَفَتْ مَعَانِيهَا على مَعَانِيهِ ، وَقَاتَلَتْ قِتَالَ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ في مَعْرَكَةِ حُبِّهَا ، وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : كَأَنَّمَا لَبَسَتْ هذه الْأَشْيَاءَ لِتُظْهِرَ لَهُ بِلَا ثِيَابٍ . . .

وَأَرَدْتُ أَنْ أُعَيِّبَهَا بِمَا صَنَعَتْ نَفْسُهَا لَهُ ، وَأَنْ أُعَيِّبَهُ هُوَ بِدُخُولِهِ فِيهَا لَا يُشْبِهُهُ ، وَفَلْتُ في غَيْرِ طَائِلٍ وَلَا جَدْوَى^(١) ، فَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالَّذِي يَعِيبُ الْوَرْدَ بِقَوْلِهِ : يَا عَطَرَ الشَّذَى^(٢) ، وَيَا أَحْمَرَ الْخُدَيْنِ !

(٢) الشَّذَى : العيب .

(١) جدوى : فائدة ونتيجة .

وقد أمسك عن جوابي، وكانت محاسنها تجعل كلماتي شوهاء^(١)، وكان وضوحها يجعل معاني غامضة، وكانت حلاوتها تجعل أقوالي مزة، وكانت ثياب العروس وهي تزف تُريد ألفاظي في ثياب العجوز المطلقة؛ وكلما غاضبت مع نفسه أوقعت هي الصلح بينه وبين نفسه.

والعجيب العجيب في هذا الحب أن فتح العينين على الجميل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام؛ ليس إلا هذا، ولا يكون أبداً إلا هذا؛ فمهما أعطيت من جدل فإقناعك المحب المستهام كإقناعك النائم المستثقل؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك، وبينك وبينه نسيانه إياك، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو في دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا رداً إلا ما تُعطي وما تمنع.

ثم. ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت.

ضحكت بحزن حزين الذي يسخر من حقيقة لأنه يتألم من حقيقة غيرها؛ وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفة تامة مصورة للخير الذي اعتدى عليه الشر فاحاله، والإرادة التي أكرهها القدر فأخضعها، والعفة المسكينة التي أدلتها ضرورة الحياة، والفضيلة المغلوبة التي جيل بينها وبين أن تكون فضيلة!

ويا ما كان أجملها نظرة بمعاني البكاء ضاحكة بغير معاني الضحك؛ تتنهّد ملامح وجهها وفمها يتسم!

كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداً على وجهها بلطف ورقة؛ كان يسأل إنساناً: ألا تحل هذه العقدة؟...

وأنقضى التمثيل وتناهض الناس.

أما صاحب القلب المسكين؟

(١) شوهاء: بشعة.

القلب المسكين

٦

أما صاحب القلب المسكين فقام ليخرج وقد تفارطته^(١) ألهموم وتسابت إليه
فأنكسر وتفتّر؛ وكأنما هو قد فارق صاحبه باكياً وباكية من حيث لا يرى بكاءه
غيرها ولا يرى بكاءها غيره!

ورأيتُه ينظر إلى ما حوله كأنما تنشئ الدنيا لو أن نفسه الحزينة؛ إذ كانت نفسه
ألقت ظلّها على كل شيء يراه؛ وجعل يذلف ولا يمشي كأنه مثقل بحملٍ يحمله
على قلبه.

إنه ليس أخف وزناً من الدمع، ولكنّ النفوس المتألّمة لا تحمل أثقل منه،
حتى لينتثر على النفس أحياناً وكأنه وكأنها بناء قائم يتهدّم على جسم؛ وبعض
التهنّدات على رفقها وخفّتها، قد تشعر بها النفس في بعض همّها كأنها جبل من
الأحزان أخذته الرّجفة فمادت به، فتقلّب، فهو يتقلّب ويتهاوى عليها.

آه حين يتغيّر القلب فيتغيّر كل شيء في رأي العين! لقد كان صاحبنا منذ
قليل وكان كل سرور في الدنيا يقول له: أنا لك! فعاد الآن وما يقول له «أنا لك»
إلا الهم؛ وألتقى هو والظلام والعالم الأصامت!

جعل يذلف ولا يمشي كأنه مثقل بحملٍ يحمله على قلبه؛ ومتى وقع الطائر
من الجو مكسور الجناح، انقلبت النواميس كلها معطّلة فيه، وظهر الجو نفسه
مكسوراً في عين الطائر المسكين؛ وتنفصل روحه عن السماء وأنوارها، حتى لو
غمره النور وهو ملقى في التراب لأحسه على التراب وحده لا على جسمه...

ثم خزجنا، فانتبه صاحبنا ممّا كان فيه؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان

(١) تفارطته: توزّعته وانتابته.

فيه على وجه آخر، فتعذَّب به عذابين: أما واحد فلائته كانَ ولم يَدُم وأما الآخرُ فلائته زالَ ولم يعد؛ والسرورُ في الحبِّ شيءٌ غيرُ السرورِ الذي يعرفه الناس؛ إذ هو في الأولِ روحٌ تتضاعفُ به الروح: فكلُّ ما سرُّك وانتهى شعرتَ أنَّه انتهى؛ ولكن ما ينتهي من سرورِ العاشقِ المستهَامِ يُشعره أنَّه مات، فله في نفسه حزنُ الموتِ وهمُ الكلِّ، وله في نفسه همُ الكلِّ وحزنُ الموتِ!

وينظرُ صاحبُ القلبِ المسكينِ إذا ألانوارُ قد أنطفأت في الحديقة، وإذا القمرُ أيضاً كأنما كانَ فيه مسرحٌ وأخذوا يُطفئونَ أنوارَه.

كانَ وجهُ القمرِ في مثلِ حزنِ وجهِ العاشقِ المبتعدِ عن حبيبتهِ إلى أطرافِ الدنيا، فكانَ أبيضَ أصفرَ مُكمداً، تتخيلُ فيه معاني الدموعِ التي يمسكها التجلُّدُ أن تتساقط.

كانَ في وجهِ القمرِ وفي وجهِ صاحبنا معاً مظهرٌ تأثيرِ القَدَرِ المفاجيءِ بالنكبة. وبدتْ لنا الحياةُ تحتَ الظلمةِ مُقفرةٌ خاويةٌ على أطلالها، فارغةٌ كُفراغِ نصفِ الليلِ من كلِّ ما كانَ مُشرقاً في نصفِ النهارِ؛ يا لك من ساحرٍ أيُّها الحبُّ؛ إذ تجعلُ في ليلِ العاشقِ ونهاره ظلاماً وضوءاً ليسا في الأيامِ والليالي!

أما الحديقةُ فلبسها معنى الفراقِ، وما أسرعَ ما ظهرتْ كأنما بيست كلُّها لثَرها وساعتها، وأنكرها النسيمُ فهربَ منها فهي ساكنة، وتحولتْ روحها خشبيةً جافةً، فلا نُصرةَ فيها على النفسِ؛ وبدتْ أشجارها في الظلامِ، قائمةٌ في سوادها كَالنائحَاتِ يَلُطِمْنَ وَيُولُون، وتكرَّرَ فيها مشهدُ الطبيعةِ كما يقعُ دائماً حينَ تنبتُ الصَّلَةُ بَيْنَ الْمَكَانِ وَنَفْسِ الْكَائِنِ.

ماذا حدث؟

لا شيءَ إلا ما حدثَ في النفسِ، فقد تغيَّرتْ طريقةُ ألفهمِ، وكانَ للحديقةِ معنى من نفسه فسلِبَ المعنى، وكانَ لها فيضٌ من قلبه فأنجسَ عنها أفيضُ؛ وبهذا وهذا بدتْ في السلبِ والعدمِ والتنكُّرِ، فلم يبقَ إبداعٌ في شيءٍ مُبدع، ولا جمالٌ في منظرٍ جميل.

أكذا يفعلُ الحبُّ حينَ يضعُ في النفسِ العاشقةِ معنى ضئيلاً من معاني الفناءِ كهذا الفراقِ؟

أكذا يترك الروح إذا فقدت شيئاً محبوباً، توهم كأنها ماتت بمقدار هذا الشيء؟
مسكين أنت أيها القلب العاشق! مسكين أنت!

ومضينا فعلنا إلى نديّ نجلس فيه، وأزدت معاناة صاحبتنا المتألم بالحُب
والتألم بأنه متألم، فقلت له: ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعها نفسك!
قال: آه! من أنا الآن؟ وما بال ذلك الخيال الذي نسق لي الدنيا في أجمل
أشكالها قد عاد فبعثرها؟ أتدري أن العالم كان في ثم أخذ مني فأنا الآن فضاء فضاء.
قلت: أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصي لمحبته.

قال: ولذلك يعيش المحب المهجور، أو المفارق، أو المنتظر، وكأنه في
أيام خلّت، وتراه كأنما يجرى إلى الدنيا كل يوم ويرجع.

قلت: إن من بعض ما يكون به الجمال جمالاً أنه ظالم قاهر عنيف، كالمملك
يستبد ليتحقق من نفاذ أمره، وكأن الجميل لا يتيم جماله إلا إذا كان أحياناً غير
جميل في المعاملة!

قال: ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف؛ فهي تطلبني وأتنبأها^(١)، وهي
مقبلة لكنها مقبلة على امتناعي؛ وكأنها طالب يعدو وراء مطلوب يفز، فلا هذا
يقف ولا ذلك يدرك.

قلت: فإن هذه هي المشكلة، ومتى كانت الحبيبة مثلها، وكان المحب
مثلك، فقد جاءت العقدة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها.

قال: كذلك هو، فهل تعرف في اليأس والهم كيوس العاشق الذي لا يتدبر
كيف يأخذ حبيبته، ولكن كيف يتركها؟ ما هي المسافة بيني وبينها؟ خطوة،
خطوتان؟ كلا، كلا؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها، إن مسافة ما بين الحلال
والحرام متراخية ممتدة ذاهبة إلى غير نهاية؛ وإذا كان الحب أفساد لا يقبل من
الحبيب إلا (نعم) بلا شرط ولا قيد لأنه فاسد، فالحب الطاهر يقبل (لا) لأنه
طاهر! ثم هو لا يرضى (نعم) إلا بشرطها وقيدتها من الأدب والشريعة وكرامة
الإنسانية في المرأة والرجل.

(١) أنكبتها: أنجبتها وأنحيتها.

وإذا لم ينته الحب بالإنتم والرذيلة، فقد أثبت أنه حب؛ وشرقه حينئذ هو سر قوته وعنصر دوامه .

أتعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة . . . إنه بهذا يود ألا يكون بينهما العقل والقانون وهذا الجِزْمان الذي يُسمى الشرف، وألا يكون بينهما إلا قيد غريزتها الذي ينحل من تلقاء نفسه في لحظة ما، وأن يترك لقوته وتترك هي لإضعفها؛ والقوة والضعف في قانون الطبيعة هما ملك وتمليك وأغتصاب وتسليم .

قلت: وهذا ما يفعله كل عاشق لِمثَل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان؛ فإن بينهما قوة وضعفاً من نوع آخر، فمعه الشمن وبها الحاجة، وهما في قانون الضرورة ملك وتمليك .

قال: وهذا مما يقطع في قلبي؛ فلو أن للأمة ديناً وشرفاً لما بقي موضع الأزوجة فارغاً من رجل، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلن في تلك المواضع الخالية أول ما ينزلن، فكل بني هي في المعنى دين متروك وشرف مبتذل في الأمة .

قلت: فحدثني عنك ما هذا ألوجد بها وما هذا الاحتراق فيها، وأنت قد كنت بين يديها خيالاً مخضاً كأنما جمعتها في حواسك فأخذتها وتركتها في وقت معاً، وحواسك هذه لا تزال كما هي، بل هي قد زادت جدّة، فكما صنعت لك من قُرْب تصنع لك من بُعد؟

قال: أنا في محضرها أجبها كما رأيت بالقدر الذي تقول هي فيه إنك لا تحبني، إذ كان بيننا آخر أسمه الخلق؛ ولكني في غيابها أفقد هذا الميزان الذي يزن المقدار ويحدده، وإذا كنت لم تعلم كيف يصنع العاشق في غيبة المعشوق، فأعلم أن كبرياءه حينئذ لا ترى بإزائها ما ثقومه، فتتخلّى عنه وتخلّده؛ وفضيلته لا تجد ما تستغلّ فيه، فتتوارى وتدعه؛ وشخصيته لا تجد ما تبرر له، فتختفي وتُهمله؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من ألوهن والنقص وجدو الشوق؛ وهنا ينتقم الحب مما زورت عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية، فيضرب بحقائقه ضربات مؤلمة لا تقوم لها القوة، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفاً لرؤية الحقيقة التي كتمت عنه؛ وكم من عاشقة متكبرة على من تهواه تصدّه وتباعدّه، وهي في خلوتها ساجدة على أقدام خياله تُمرّغ وجهها هنا وهنا على هذه الأقدام وعلى هذه الأقدام!

لا إِنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْحُبِّ مِنْ تَمَثِيلِ رَوَايَةِ الْأَمْتِنَاعِ أَوْ الْأَصْدُ أَوْ التَّهَانِ أَوْ أَيْ
الْروَايَاتِ مِنْ مِثْلِهَا؛ وَلَكِنَّ ثِيَابَ الْمَسْرَحِ هِيَ دَائِمًا ثِيَابُ اسْتِعَارَةٍ مَا دَامَ لَا بَسْهَا فِي
دَوْرِهِ مِنَ الْقِصَّةِ.

ثُمَّ وَضَعَ الْمَسْكِينُ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ وَقَالَ: آه! إِنَّ هَذَا الْقَلْبَ يُغَاضِبُ الْحَيَاةَ
كُلَّهَا مَتَى أَرَادَ أَنْ يَشْعَرَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ غَضَبَان.

مَنْ مِنَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُ أَحْزَانَهُ؟ وَلَكِنْ مَنْ مِنْهُمْ الَّذِي يَعْرِفُ أَسْرَارَ أَحْزَانِهِ
وِحِكْمَتَهَا؟ أَمَّا إِنَّهُ لَوْ كَشَفَ السِّرَّ لَرَأَيْنَا الْأَفْرَاحَ وَالْأَحْزَانَ عَمَلًا فِي الْنَفْسِ مِنْ أَعْمَالِ
تَنَازُعِ الْبَقَاءِ؛ فَهَذَا الْنَامُوسُ يَعْمَلُ فِي إِيجَادِ الْأَصْلَحِ وَالْأَقْوَى، ثُمَّ يَعْمَلُ كَذَلِكَ
لِإِيجَادِ الْأَفْضَلِ وَالْأَرْقَى، وَمَنْ ثُمَّ كَانَتْ أَلَامُ الْحُبِّ قَوِيَّةً حَتَّى لَكَأَنَّهَا فِي الرَّجُلِ
وَالْمَرْأَةِ نَهْيٌ أَحَدَ الْقَلْبَيْنِ لِيَسْتَحِقَّ الْقَلْبَ الْآخَرَ.

آه مِنْ هَذِهِ أَلْلُوعِج! إِنَّهَا مَا تَكَادُ تَضْطَرُّمُ حَتَّى تَرْجِعَ الْنَفْسُ وَكَأَنَّهَا مَوْقِدٌ
يَسْتَعْمَلُ بِالْجَمْرِ، وَبِذَلِكَ يُضْهِرُ الْمَعْدِنُ الْإِنْسَانِيَّ وَيُصْنَعُ صِنْعَةً جَدِيدَةً؛ وَإِلَى أَنْ
يَنْصَهَرَ وَيَتَصَفَّى وَيُصْنَعُ، مَاذَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ حَبِيبِهِ؟
يَكُونُ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ رُوحُهُ النَّارِيَّ.

قُلْتُ: بَخِ بَخِ^(١)! هَكَذَا فَلْيَكِنْ الْحُبُّ؛ إِنَّهَا حِينَ تَهْيِجُ فِي نَفْسِكَ الْحَنِينَ إِلَيْهَا
تُعْطِيكَ مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْ جَمَالِهَا وَمَا هُوَ أَبْدَعُ مِنْ جِسْمِهَا، إِذْ تُعْطِيكَ أَقْوَى الشَّعْرِ
وَأَحْسَنَ الْحِكْمَةِ.

قَالَ: وَأَقْوَى الْأَلَمِ وَأَشَدُّ أَلْلُوعَةٍ! يَا عَجَبًا! كَأَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَقْدُمُ فِي عِشْقِي
الْمُحْبُوبِ إِلَّا عِشْقَهَا هِيَ؛ فإِذَا وَقَعَتِ الْجَفْوَةُ، أَوْ حُمُ الْبَيْنِ^(٢)، أَوْ أَعْتَرَى الْيَأْسُ -
قَدَّمَ الْمَوْتَ نَفْسَهُ فَكُلُّ ذَلِكَ شَبُّ الْمَوْتِ.

إِنَّ الْحَزْنَ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الْعَدُوِّ يَجِيءُ مَعَهُ بِقُوَّةٌ تَحْمِلُهُ وَتَتَجَلَّدُ لَهُ وَتُكَابِرُ
فِيهِ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ ذَلِكَ فِي حَزَنِ مَبْعُثِهِ الْحَبِيبِ؟ وَمَنْ أَيْنَ الْقُوَّةُ إِذَا ضَعُفَ الْقَلْبُ؟

(١) بَخِ بَخِ: تعبير إعجاب يقال في حالي الرضى والمدح.

(٢) البين: الفراق.

قلت: لا يصنعُ اللهُ بكِ إلا خيراً؛ فإذا كانَ غدٌ وأنسلخَ النهارُ مِنَ اللَّيْلِ جئنا إليها فرأيناها في المسرح، ولعلَّ الأمرَ يصدرُ مصدرًا آخر، قال: أرجو...
ولم يكذُ ينطقُ بهذه الرّجیة حتى مرُّ بنا سبعة رجالٍ يقهقهون، ثمّ تلاقينا وجئنا؛ ويا ويلتنا على المسكينِ حينَ عَلمَ أنها رحلتْ؛ لقد أدركَ أنَّ الشيطانَ كانَ يضحكُ بسبعة أفواه... من قوله: أرجو...
ولماذا رحلتْ؟ لماذا؟
وأما هو...؟

القلبُ المسكين

٧

وأما صاحبُ القلبِ المسكينِ فما عَلِمَ أنَّها قد رحلت عن ليلته حتى أظلمَ
الظلامُ عليه، كأنَّها إذا كانت حاضرةً أضاءَ شيءٌ لا يرى، فإذا غابتِ أنطفأ هذا
الضوء؛ ورأيتُه واجماً^(١) كاسفَ البالِ^(٢) يتنازعُه في نفسه ما لا أدري، كأنَّ غيَابَها
وقع في نفسه إنذارَ حربٍ.

لماذا كانَ الشعراءُ ينوحون على الأطلالِ ويلتأعون^(٣) بها ويرتمضون^(٤) منها
وهي أحجارٌ وآثارٌ وبقايا؟ وما الذي يتلقَّاهم به المكانُ بعدَ رحيلِ الأحبة؟ يتلقَّاهم
بِالفراغِ القلبي الذي لا يملؤه من الوجودِ كلُّه إلا وجودُ شخصٍ واحد؛ وعندَ هذا
الفراغِ تقفُ الدنيا ملياً كأنَّها انتهت إلى نهايةٍ في النفسِ العاشقة، فتبطلُ حينئذٍ
المبادلةُ بين معاني الحياة وبين شعورِ الحي؛ ويكونُ العاشقُ موجوداً في موضعه
ولا تجدهُ المعاني التي تمرُّ به، فترجعُ منه كالحقائِقِ ثُلُمُ بالفراغِ العقلي من وعي
سكرانٍ.

يا أثرَ الحبيبِ حينَ يفارقُ الحبيب! ما الذي يجعلُ فيك تلكَ القُدرةَ الساحرة؟
أهو فصلُك بين زمنٍ وزمنٍ، أم جمعُك الماضي في لحظة؛ أم تحويلُك الحياةَ إلى
فكرة، أم تكبيرُك الحقيقةَ إلى أضعافٍ حقيقتها، أم تصويرُك روحيةَ الدنيا في المِثَالِ
الذي نُحسُّه الروح، أم إشعارُك النفسَ كالموتِ أنَّ الحياةَ مبنيةٌ على الانقلابِ، أم
قدرتُك على زيادةِ حالةٍ جديدةٍ للهَمِّ والحزنِ، أم رجوعُك باللذَّةِ تُرى ولا تُمكن،
أم أنت كلُّ ذلك لأنَّ القلبَ يفرغُ ساعةً من الدنيا ويمتلئُ بك وحدك؟

يا أثرَ الحبيبِ حينَ يفارقُ الحبيب! ما هذه القُوَّةُ السحريةُ فيك تجتذبُ بها

(٣) يلتأعون: يتألمون.

(٤) يرتمضون: يتلذَّعون من حرِّها.

(١) واجماً: مطرقاً.

(٢) كاسفَ البال: حزناً.

أَلَصَدْرَ لِيَضْمَكَ، وَتَسْتَهْوِي بِهَا أَلْفَمَ لِيَقْبَلَكَ، وَتَسْتَدْعِي أَلْدَمَعَ لِيَنْفَرَ لَكَ، وَتَهْتَاجُ أَلْحَنِينَ لِيَتَّبِعَنَّ فَيْكَ؟ أَكُلُ ذَلِكَ لِأَنَّكَ أَثَرُ أَحَبِّيبٍ، أَمْ لِأَنَّ أَلْقَلْبَ يَفْرُغُ سَاعَةً مِنْ أَلدُنْيَا وَلَا يَجِدُ مَا يَخْفَقُ عَلَيْهِ سِوَاكَ؟



وَوَقَفَ صَاحِبُنَا أَلْمَسْكِينُ مَحْزُونًا كَأَنَّ شَيْئًا يَصِلُهُ بِكُلِّ هُمُومٍ أَلْعَالَمِ؛ وَتِلْكَ هِيَ طَبِيعَةُ أَلْأَلَمِ أَلَّذِي يُفَاجِئُ أَلْإِنْسَانَ مِنْ مَكْمَنٍ لَدَيْهِ وَمَوْضِعٍ سُرُورِهِ، فَيَسْلُبُهُ نَوْعًا مِنْ أَلْحَيَاةِ بِطَرِيقَةٍ سَلَبَ أَلْحَيَاةَ نَفْسِهَا، وَيَأْخُذُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْئًا مَاتَ فَيَدْفِنُهُ فِي قَبْرِ أَلْمَاضِي، يَكُونُ أَلْمَا لِأَنَّ فِيهِ أَلْمَضْضَ، وَكَأَبَةً لِأَنَّ فِيهِ أَلْخَبِيَّةَ، وَذُهُولًا لِأَنَّ فِيهِ أَلْحُسْرَةَ؛ وَتَتِمُّ هَذِهِ أَلثَّلَاثَةُ أَلْهُمُومِ بِأَلضِّيقِ أَلشَّدِيدِ فِي أَلنَفْسِ، لِأَجْتِمَاعِ ثَلَاثِهَا عَلَى أَلنَفْسِ؛ فَمِذَا أَلْمَسْكِينُ مَبْغُوتٌ كَأَنَّ أَلْأَلَامَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَلْجِهَاتِ أَلْأَرْبَعِ، فَقَلْبُهُ مِنْهَا ضُدُوعٌ ضُدُوعٌ...

وَجَعَلْتُ أَعْدِلُ صَاحِبَنَا فَلَا يَحْتَدِلُ، وَكَلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أَثْبِتَ لَهُ وَجُودَ أَلصَّبْرِ كُنْتُ كَأَنَّمَا أَثْبِتُ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ؛ ثُمَّ تَنَفَّسَ وَهُوَ يَكَادُ يَنْشَقُّ غِيظًا وَقَالَ: لِمَاذَا رَحَلْتُ؟ لِمَاذَا؟

قُلْتُ: أَنْتِ أَذَلَّتْ جَمَالَهَا بِهَذَا أَلْأَسْلُوبِ أَلَّذِي تَرَى أَنَّكَ تُعْزُّ جَمَالَهَا بِهِ، وَقَدْ أَشْتَدَّدْتَ عَلَيْهَا وَعَلَى نَفْسِكَ، وَتَعَنَّتْ عَلَى قَلْبِكَ وَقَلْبِهَا؛ كَانَتْ ظَرِيفَةً أَلْمَذْهَبِ فِي عَشِقِهَا وَكُنْتُ خَشِينًا فِي حُبِّكَ، وَسَوَّغْتُكَ حَقًّا فَرَدَدْتُهُ عَلَيْهَا، وَتَهَالَكْتُ وَأَنْقَبَضْتُ أَنْتِ، وَرَفَعْتُ قَدْرَكَ عَنْ نَفْسِهَا تَحْبِيًّا وَتَوَدُّدًا فَخَفَضْتُ قَدْرَهَا عَنْ نَفْسِكَ مِنْ أَطْرَاحٍ وَجَفَاءَ، وَأَسْتَفْزَعْتُ وَسَعَهَا فِي رِضَاكَ فَتَغَاضَبْتُ، وَتَضَّتْ عَنْ مُحَاسِنِهَا شَيْئًا شَيْئًا تَسْأَلُ بِكُلِّ شَيْءٍ سِوَاكَ فَلَمْ تَكُنْ أَنْتِ مِنْ جَوَابِهَا فِي شَيْءٍ...

وَمِنْ طَبْعِ أَلْمَرْأَةِ أَنَّهَا إِذَا أَحَبَّتْ أَمْتَنَعَتْ أَنْ تَكُونَ أَلْأَبَادَةَ، فَالْتَوَتْ عَلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ عَاشِقَةٌ، وَجَاحَدَتْ^(١) وَهِيَ مُقَرَّةٌ؛ إِذْ تُرِيدُ فِي أَلْأَوَّلَةِ أَنْ تَحَقِّقَ أَنَّهَا مُحَبُّوبَةٌ، وَفِي أَلثَّانِيَةِ أَنْ يُقَدَّمَ لَهَا أَلْكَرْهَانُ عَلَى أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ أَلْمَهَاجِمَةَ، وَفِي أَلثَّلَاثَةِ هِيَ تُرِيدُ أَلَّا تَأْخُذَهَا إِلَّا قُوَّةٌ قَوِيَّةٌ فَتَمْتَحِنُ هَذِهِ أَلْقُوَّةَ، وَمَعَ هَذِهِ أَلثَّلَاثِ تَأْبَى طَبِيعَةُ أَلسُّرُورِ فِيهَا وَأَلْإِسْتِمَاعِ بِهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِهَذَا أَلسُّرُورِ وَهَذَا أَلسُّرُورِ وَهَذَا أَلْإِمْتِنَاعِ شَأْنٌ وَاقِعَةٌ، فَتَذِيقُ صَاحِبِهَا أَلْمَرْءَ قَبْلَ أَلْحُلُولِ لِيَكْبِرَ هَذَا بِهَذَا.

(١) جاحدت: أنكرت.

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكرهها الحب على أن تبتدىء صاحبها، ثم ابتدأت ولم تجد الجواب منه، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ما تحب، فإنَّ ألبتداء حينئذ يكون هو النهاية، وينقلب الحب عدو الحب؛ وأنا أعرف امرأة وضعتها كبرياؤها في مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها: سأتألم ولكن لن أغلب، فكان الذي وقع والأسف - أنها تألمت حتى جئت، ولكن لم تغلب...

قال: فما بال هذه؟ أما تراها تبتدىء كل يوم رجلاً؟

قلت: إنها تبتدىء متكسبة لا عاشقة، فإذا أحببت الحب الصحيح أرادت قيمتها فيما هو قيمتها؛ وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنف وهذه القسوة وهذه الروحية الجبارة؛ فإنها لذات جديدة للمرأة التي لا تجد من يخضعها؛ وفي طبيعة كل امرأة شيء لا يجد تمامه إلا في عنف الرجل، غير أنه العنف الذي أوله رقة وآخره رقة؟

أما والله إنَّ عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة؛ والشيء الغريب يسمى غريباً فيكفي ذلك بياناً في تعريفه، غير أنه إذا وقع في الحب سمي غريباً فلا تكفيه التسمية، فيوصف مع التسمية بأنه غريب فلا يبلغ فيه الوصف، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شيء غريب، ثم تبقى وراء ذلك منزلة لإغراق في التعجب بين العاشق وبين نفسه؛ وهكذا يشعرون.

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب؛ وكأن النبوة نبوتان: كبيرة وصغيرة، وعامة وخاصة. فإحدهما بالنفس العظيمة في الأنبياء، والأخرى بالقلب الرقيق في العشاق؛ وفي هذه من هذه شبه، لوجود العظمة الروحية في كليهما غالباً على المادة، مجردة من إنسان الطين إنساناً من النور، محرقة هذه الطبيعة الآدمية حركة جديدة في السموات، ذاهبة بالمعرفة الإنسانية إلى ما هو الأحسن والأجمل، واضعة مبدأ التجديد في كل شيء يمر بالنفس، منبعثة بالأفراح من مصدرها العلوي السماوي.

بيد أن في العشتي أنبياء كذبة؛ فإذا تسفل الحب في جلال، وأستعلت بهيمة في عظمة، وتجرد من إنسان الطين إنسان الحجر، وتحركت الطبيعة الآدمية حركة جديدة في السقوط، وذهبت المعرفة الإنسانية إلى ما هو الأقبح والأسوأ،

وتجدد لكل شيء في النفس معنى فاسد، وأنبعثت لأفراح من مصدرها السفلي -
إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون؟
لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة في بعض العشاق، كما يقلد
النبوة الكبيرة في بعض الدجالين.



هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان في
الحديقة، وكنا دخلناها ليجدد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض ما به؛ وأستفاض
كلامنا في وصف تلك العبرة^(١) الفئانة التي أحلته هذا المحل وبلغت به ما بلغت
وكان في رقة لا رقة بعدها، وفي حب لا نهاية وراءه لمحج؛ وحيل إلي أنه يرى
الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما!

وانفع ما في حديث العاشق عن حبه وألمه أن الكلام يخرج من حالة الفكر،
ويؤنس قلبه بالآلفاظ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه، ويوجه حواسه إلى
الظاهر المتحرك؛ فتسلبه الفاظة أكثر معانيه الوهمية، وتأتيه بالحقائق على قدرها في
اللغة لا في النفس؛ وفي كل ذلك جيلة على النسيان، وتعلل إلى ساعة؛ وهو تدبير
من الرحمة بالعاشقين في هذا البلاء الذي يسمى الفراق أو الهجر.

وكان من أعجب ما عجبته له أن صديقاً مر بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو
يوميء إلي: أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم: لا هو يقيم عذراً ولا أنا أقيم حجة،
وأحسب أن عندك رأياً فأقض بيننا...

ويسأله الصديق: ما القضية؟ فيقول وهو يشير إلي:

إن هذا قد تخزق قلبه من الحب فلا يدري من أين يجيء لقلبه برقة... وإنه
يعشوق فلانة الراقصة التي كانت في هذا المسرح، ويزعم لي: أنها أجمل وأفتن
وأحلى من طلعت عليه الشمس، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى
في كل ما يضيء القمر عليه، وأن عينها مما لا ينسى أبداً أبداً... لأن الحاظها
تذوب في الدم وتجري فيه، وأن الشيطان لو أراد مناجزة^(٢) العفة والكزهد في حرب
حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك كل حيله وأساليبه وقدم جسمها وفنها.

فيقول له المسؤول: وما رأيك أنت؟

(٢) مناجزة: منازلة ومصارعة.

(١) العبرة: التامة الخلقة والجمال.

فنجيبه : لو كَانَ عنها صَاحِباً لَقَدْ صَحَا : إِنَّ الْمَشْكَلَةَ فِي الْحُبِّ أَنَّ كُلَّ عَاشِقٍ لَهُ قَلْبُهُ الَّذِي هُوَ قَلْبُهُ ، وَحَسْبُهَا أَنَّ مِثْلَ هَذَا هُوَ يَصِفُهَا ؛ وَمَا يُدْرِينَا مِنْ تَصَارِيفِ الْقَدْرِ بِهَذِهِ الْمَسْكِينَةِ مَا عَلَيْهَا مِمَّا لَهَا ، فَلَعَلَّهَا الْجَمَالَ حُكِمَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْذَبَ بِقَبْجِ النَّاسِ ، وَلَعَلَّهَا السَّرُورَ قُضِيَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَجِّنَ فِي أَحْزَانِ !

وَقُلْتُ لَهُ : يَا صَدِيقِي الْمَسْكِينِ ! أَوْ كُلُّ هَذَا لَهَا فِي قَلْبِكَ ؟ فَمَا هَذَا لَهَا فِي قَلْبِكَ ؟ فَمَا هَذَا الْقَلْبُ الَّذِي تَحْمِلُهُ وَتَعَذِّبُ بِهِ ؟

قَالَ : إِنَّهُ - وَاللَّهِ - قَلْبُ طِفْلِ ، وَمَا حُبُّهُ إِلَّا اَلْتَمَاسُ اَلْحَنَانِ اَلثَّانِي مِنْ اَلْحَبِيبَةِ ، بَعْدَ ذَلِكَ اَلْحَنَانِ اَلْأَوَّلِ مِنْ اَلْأُمِّ ؛ وَكُلُّ كَلَامِي فِي اَلْحُبِّ إِنَّمَا هُوَ اِمْلَاءُ هَذَا اَلْقَلْبِ عَلَى فِكْرِهِ كَأَنَّهُ يَخْلُقُ بِهِ خَلْقَ تَفْكِيرِهِ .

أَه يَا صَدِيقِي ! إِنَّ مِنْ اَلْاِسْخَرِيَةِ بِهَذِهِ اَلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَنَّ اَلْقَلْبَ لَا يَسْتَمِرُّ طِفْلاً بَعْدَ زَمَنِ اَلطُّفُولَةِ إِلَّا فِي أَتْنِينَ : مَنْ كَانَ فِيلَسُوفاً عَظِيماً ، وَمَنْ كَانَ مَغْفُلاً عَظِيماً !

وَأُفْتَرَقْنَا ؛ ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ خَبْرَهُ فَلَقِيْتُهُ مِنْ اَلْغَدِ ، وَكَانَ لِي فِي أَحْلَامِي تِلْكَ اَللَّيْلَةَ شَأْنٌ عَجِيبٌ ، وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ أَعْجَبَ ؛ أَمَّا أَنَا فَلَا يَعْنِي اَلْقِرَاءُ شَأْنِي وَقِصَّتِي .

وَأَمَّا هُوَ ؟ . . .

القلبُ المسكين

٨

وأما هو فحدّثني بهذا الحديثِ العجيبِ من لطائفِ إلهامِهِ وفنّه، قال:
أنصرفتُ إلى داري وقد عزَّ عليَّ أن يكونَ هذا منها وأن يكونَ هذا مِنِّي، وهي إن
غابت أو حضرتْ فإنّها لي كالشمسِ للدنيا: لا تُظلمُ الدنيا في ناحيةٍ إلّا من أنّها
تُضيء في ناحيةٍ؛ فظلمتُها من عملِ نورِها؛ وكانتْ ليلتي فارغةً مِنَ النومِ فبُتُّ
أتملّأ، وجعلَ القلبُ في جنبي كأنّه آلةٌ في ساعةٍ لا قلبُ إنسانٍ؛ وكانَ في الدنيا
من حولي صمْتُ كصمِّ الذي سكّت بعدَ خطبةٍ طويلة، وفيّ أنا صمْتُ آخرُ
كصمِّ الذي سكّت بعدَ سؤالٍ لا جوابَ عليه؛ وكانَ ألّهواءُ راكداً كالسكرانِ الذي
أنطرحَ من ثقلَةِ السكرِ بعدَ أن هذى^(١) طويلاً وعزباً؛ والوجدُ كلُّه يبدو كالْمَخْتِنِقِ،
لأنَّ معنى الاختناقِ في قلبي وأفكاري؛ ونظرتُ نظرةً في النجومِ فإذا هي تنغورُ
نجماً بعدَ نجمٍ، كأنَّ معنى الرحيلِ انتشرَ في الأرضِ والسماءِ إذ رحلتِ الحبيبةُ؛
وكانَ كلُّ وجهٍ مضى يقولُ لي كلمة: لا تنتظري!

فلما عسعسَ^(٢) الليلُ رميتُ بنفسي فينثُ والعقلُ يقظان، وصنعتُ الأحلامَ ما
تصنع، فرأيتها هي في تلكِ الشُّغوفِ^(٣) التي ظهرتْ فيها عروساً؛ وما أعجبَ كبرياءَ
المرأةِ المحبوبةِ! إنّها لتبدو لِعيني مُحبِّها كالأعرابةِ وراءَ سِتْرِ رقيبٍ يَشْفُ عنها
كالضوءِ، ثُمَّ تَدِلُ بِنَفْسِها أن ترفعَ هذا السِتْرَ، فإنَّ لم يتجرأ هو لم تتجرأ هي؛
وكانّها تقولُ لهُ: قد رفعتُهُ بطريقتي فأرفعه أنتَ بطريقكِ.

وكانتْ مصوِّرةً في الحُلُمِ تصويراً آخرَ؛ فلا ينسكبُ من جسمِها معنى الحُسْنِ

(١) هذى: تلفّظ بما لا يفهم في حالة الجنون.

(٢) عسعس الليل: أقبل ظلامه أو أدبر.

(٣) الشُّغوف: الأردية الرقيقة التي تنمّ عما تحتها.

الذي أنامله وأعقله، ولكن معنى السكر الذي يترك المرأة بلا عقل؛ ولم تكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة، ولكنها ظهرت لي كألوان على الورد الزاهية: تظهر فتنة وتتم فتنة.

أيها الأحلام، ماذا تُبدعين إلا مخلوقات الدم الإنساني، ماذا تُبدعين؟ قلت: يا صديقي دع الآن هذه الفلسفة وخذ في قص ما رأيت، ثم ماذا بعد الورد ولون الورد؟

قال: إنه القلب المسكين دائماً، إنه القلب المسكين؛ لقد ضحك لي وقالت: هاأندي قد جئت! وأقبلت ثرائني بوجهها، وتتغزل بعينيها، وتتهد بصدرها، وألقت يدها في يدي، فأحسنت اليدين تتعانقان ولا تتصافحان؛ ثم تركناهما نائمين إحداهما على الأخرى، وسكتا هنيهة وقد خيل إلينا أننا إذا تكلمنا استيقظت يدانا!

أما صافحتك امرأة تحبها وتحبك؟ أما أحسنت يدها قد نامت في يدك ولو لحظة؟ أنا رأيت بعينيك ثعاس يدها وهو يتقل إلى عينيها فإذا هما فاترتان ذابلتان، وتحت أجفانهما حلم قصير؟

قلت: يا صديقي دع الفلسفة؛ ثم كان ماذا بعد أن نامت يد على يد؟ قال: ثم كانت سخرية من الشيطان أقبح سخرية قط. قلت: حسبي لكأنك شرحت لي ما بقي.

فضحك طويلاً وقال: إن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً، وكأني به يقول لك: وكان ما كان مما لست أذكره... أفتدري ما الذي كان وما بقية الخبر؟

لقد كنت مولعاً بامتحان قوتي في الضغط بيدي على أعواد منصوبة من الحديد، أو على أيدي الأقوياء إذا سلمت عليهم؛ فلما صافحتني لبثت مدة من الزمن ثم شددت على يدها قليلاً قليلاً، فتنبهت في هذه العادة، فمسخت الحلم وأنصرف وهمي إلى أقبح صورة وأشنعها وأبعدها مما أنا فيه من الحب ولذات الحب؛ فإذا بإزائي وجهه، وجه من؟ وجه مصارع ألماني كنت أعرفه من عشرين سنة وأضغط على يده..

قلت: إنما هذه كبرياؤك أو عققتك تنبهت في تلك الشدة من يدك، ولا يزال أمرك عجيبياً؛ فهل معك أنت ملائكة ومع الناس شياطين؟

قال: وَالَّذِي هُوَ أَعْجَبُ أَنِّي رَأَيْتُ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامِي كَأَنَّ قَلْبِي الْمَسْكِينُ يُخَاصِمُنِي وَأُخَاصِمُهُ؛ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَحْنَاءِ الْأَضْلُوعِ كَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنَ الظَّلِّ يُرَى وَلَا يُرَى إِذْ لَا شَكَلَ لَهُ؛ وَسَبَّيْنِي وَسَبَّيْتُهُ، وَقُلْتُ لَهُ وَقَالَ لِي، وَتَغَالَطْنَا كَأَنَّا عَدَوَّانٌ؛ فَهُوَ يَرَى أَنِّي أَنَا أَمْنَعُهُ لَذَّتِهِ، وَأَرَى أَنَّهُ هُوَ يَمْنَعُنِي، وَأَنَّهُ أَشْفَى بِي عَلَى مَا أَشْفَى؛ وَقُلْتُ لَهُ فِيمَا قُلْتُ: لَا قَرَارَ عَلَى جَنَائِيكَ، فَأَذْهَبَ عَنِّي وَلَا تَتَسَمَّ بِأَسْمِي فَإِنَّهُ لَا فَلَانَ لَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ؛ وَلَوْلَا أَنَّكَ مَخْذُولٌ^(١) فِي الْحُبِّ لَعَلِمْتُ أَنَّ لِمَسَّةِ يَدِ الرَّجُلِ لِيَدِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ نَوْعَ مُخَقِّفٍ مِنَ التَّقْبِيلِ، فَإِذَا هِيَ تَرَكْتُهُ يَرْتَفِعُ فِي الدَّمِ أَنْتَهَى يَوْمًا إِلَى تَقْبِيلِ فَمِهِ لِفَمِهَا؛ وَلَوْلَا أَنَّكَ مَخْذُولٌ فِي الْحُبِّ لَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا الضَّمُّ بَيْنَ أَلْيَدَيْنِ نَوْعَ مُخَقِّفٍ مِنَ الْغِنَاقِ، فَإِذَا هِيَ تَرَكْتُهُ يَشْتَدُّ فِي الدَّمِ أَنْتَهَى يَوْمًا إِلَى ضَمِّ الْأَصْدَرِ لِلصَّدْرِ؛ وَلَكِنَّكَ مَخْذُولٌ فِي الْحُبِّ، وَلَكِنَّكَ مَخْذُولٌ!

وَقَالَ لِي فِيمَا قَالَ: وَأَنْتِ أَيُّهَا الْخَائِبُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ أَنْامِلَهَا أَلْرُّخْصَةَ^(٢) هِيَ أَنْامِلُهَا، لَا أَعْوَاذُكَ مِنَ الْحَدِيدِ؟ فَكَيْفَ شَذَذْتَ عَلَيْهَا - وَيَحْكُ - تِلْكَ الْأَشْدَّةُ الَّتِي أَخْرَجْتَ لَكَ وَجْهَ الْمَصَارِعِ؟ وَلَكِنَّكَ خَائِبٌ فِي الْحُبِّ، وَلَكِنَّكَ خَائِبٌ!

قُلْتُ: فَهَذِهِ قَضِيَّةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْعَدُوُّ؛ لَقَدْ تَرَكْتَنِي مِنَ الْأَهْمُومِ كَالشَّجَرَةِ الْمُنْجَرِيَةِ قَدْ بَلَيْتْ وَصَارَتْ فِيهَا الشَّخَارِبُ؛ فَلَا حَيَاتَهَا بِالْحَيَاةِ وَلَا مَوْتَهَا بِالْمَوْتِ، وَكَمْ عَلَّقْتَنِي بِفَاتِنَةٍ بَعْدَ فَاتِنَةٍ لَا عَنْهَا إِقْصَارُ يَتَهَيَّ وَلَا فِيهَا مَطْمَعٌ يَتَدَيَّ؛ مَا أَنْتِ فِي إِلَّا وَحْشٌ أَكْبَرُ لَذَّتِهِ لَطْعُ الدَّمِ!

وَاسْتَدَارَ الْحُلُمُ فَلَمْ أَلْبِثْ أَنْ رَأَيْتُنِي فِي مُحْكَمَةِ الْجِنَايَاتِ، وَكَأَنِّي شَكُوْتُ قَلْبِي إِلَيْهَا فَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَفْصِ الْحَدِيدِيِّ بَيْنَ الْمَجْرَمِينَ يَنْتَظِرُ مَا يَنْتَظِرُونَ مِنَ الْفَصْلِ^(٣) فِي أَمْرِهِمْ؛ وَقَدْ أَرْتَفَعَ الْمَسْتَشَارُونَ الثَّلَاثَةَ إِلَى مَنَصَّةِ الْحُكْمِ، وَجَلَسَ الْكَاتِبُ الْعَامُّ فِي مَجْلِسِهِ يَتَوَلَّى إِقَامَةَ الدَّعْوَى وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَوْرَاقُهُ يَنْظُرُ فِيهَا، وَرَأَيْتُ مِنْهَا غِلَافًا كُتِبَ عَلَى ظَاهِرِهِ: قَضِيَّةُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ.

وَتَكَلَّمْتُ رَئِيسَ الْمُحْكَمَةِ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فَقَالَ: لَيْسَ فِي قَضِيَّةِ الْقَلْبِ مُحَامٍ، فَابْتُغَوْهُ مَنْ يُدَافِعُ عَنْهُ؛ ثُمَّ انْتَقَتُ إِلَيْهِ وَقَالَ: مَنْ عَسَى تَخْتَارُ لِلدِّفَاعِ عَنْكَ؟

(١) مَخْذُولٌ: مَهْزُومٌ لَا يَفْتَرُ لَكَ.

(٢) الرُّخْصَةُ: الطَّرِيقَةُ اللَّذَنَةُ.

(٣) الْفَصْلُ فِي أَمْرِهِمْ: الْبَيْتُ فِي مَصِيرِهِمْ.

قالَ القلبُ: أو هنا موضعٌ لِلأختِيارِ يا حضرةَ الرئيسِ؟ إِنَّهُ لَيسَ تحتَ هذه - وأوماً إلى السماء - ولا فوقَ هذه - وأوماً إلى الأرض - إلّا . . .

فبَدَرَ النائبُ العامُ وقالَ: إلّا الحِبيبةُ؟ أَكذلك؟ غَيرَ أَنَّها أستاذةٌ في الرقصِ لا في ألقانُون!

- القلبُ: ولكنني لا أختارُ غَيرَها محكوماً لي أو محكوماً عليّ؛ أنا أريدُ أنْ أنظرَ فيها وأنظروا أنتم في القضيّة . .

- الرئيسُ: فليكن؛ فهذه جريمةٌ عواظِفَ إبْدَنَ لها أيُّها الآذِن .

فنادى المُحضِرُ: الأستاذة! الأستاذة!

وجاءتُ مبادرةً، ودخلتُ تمشي مِشيئَها وقد أَفترَّ ثَغَرُها^(١) عن النورِ الَّذي يسطعُ في النفس؛ وأومَضتُ بوجهها يميناً وشمالاً، فصَرَفَ الناسُ جميعاً أَبصارَهم إليها وقد نظروا إلى فِتْنَةٍ مِنَ الفِتَنِ؛ وثارتَ في كُلِّ قلبٍ نزعةٌ، وغلبتِ الحَقِيقَةُ البشريَّةُ فَانْتَقَضَتْ طِباعُ الموجودين في قاعةِ الجلسَةِ، وأبطلَ قانونُ جمالِها قانونَ المحكمةِ، فوقعتِ الضَّجَّةُ وعلتِ الأصواتُ وأختلطتْ؛ وتردَّدتْ بين جُدرانِ المكانِ صدى في صدى كأنَّ الجدرانَ تتكلَّمُ مَعَ المتكلِّمين .

أصواتُ أصوات: سبحانَ الله! سبحانَ الله! تباركَ الله! تباركَ الله! آه! آه! آه! أسمعُ صوتَ يقول: اتَّهِمُوني أنا أيضاً . . . فَتَقَرَّبَ الكَلِماتُ: وأنا، وأنا، وأنا! وأختفتِ المحكمةُ وأنبعثَ المَمرُجُ بدخولِ فانتِيةِ الرافِضة؛ وكانَ المُستشارونَ والنائبُ العامُ في أعينِ الناسِ كأنَّهم صوَرٌ معلقةٌ على الحائط: لا يخشاها أحدٌ أنْ تنظرَ إلى ما يصنع!

فصاحَ الرئيسُ: هنا المحكمةُ! هنا المحكمةُ! سبحانَ الله . . المحكمةُ المحكمةُ!

- النائبُ العامُ: هذا بَدَرٌ لا تَرْضاهُ النِيايَةُ ولا تقبلُ أنْ تنسَجِبَ عليه، نعم إنَّ هذا ألوجةُ الجَميلِ أبرعُ محامٍ في هذه القضيّة، ونعم إنَّ جِسمَها . . . آه ماذا؟ إنَّكم تاتونَ بِالشَّهيرةِ الغالبَةِ القَاهِرةِ لِتُدافِعَ عن المِشتَهي . . . عن المِثْمَم، هذا وضعُ كوضِعِ العذِريِّ إلى جانبِ الذنِب، وكأنَّكم يا حضراتِ المُستشارين . . .

(١) افترَّ ثَغَرُها: ابتسمت .

قَبِدَتْ أَلْمَحَامِيَةُ تَقُولُ فِي نَغْمَةِ دِلَالٍ وَفَتُور: وَكَأَنَّكُمْ يَا حَضْرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ
قَدْ نَسِيتُمْ أَنَّ أَلْنَائِبَ أَلْعَامَ لَهُ قَلْبٌ أَيْضاً . . .

وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَلْنَائِبِ، وَتَبَيَّنَ أَلْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ؛ فَقَالَ: يَا حَضْرَةُ
الرَّئِيسِ . . .

- الرَّئِيسُ مَبْتَسِماً: وَاحِدَةٌ بِوَاحِدَةٍ، وَأَرْجُو أَلَّا تَكُونُ لَهَا ثَانِيَةٌ، وَمَعْنَى هَذَا
كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ أَلَّا تَكُونُ لَهَا ثَالِثَةٌ . . . (ضَحْكُ).

قَالَ صَاحِبُ أَلْقَلْبِ الْمَسْكِينِ: وَكُنْتُ بِلَا قَلْبٍ. فَلَمْ أَلْتَفِتْ لِلْجَمَالِ، بَلْ
رَاعَنِي ذِكَاؤُ أَلْمَحَامِيَةِ وَنَفَادُهَا وَحُسْنُ أَهْتِدَائِهَا إِلَى أَلْحُجَّةِ فِي أَوَّلِ ضَرْبَاتِهَا،
وَتَعَجُّبْتُ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ أَلْتَعْجَبُ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّ أَلْنَائِبَ أَلْعَامَ سَيَقَعُ فِي لِسَانِهَا، لَا كَمَا
يَقَعُ مِثْلُهُ فِي لِسَانِ أَلْمَحَامِيِ أَلْقَدِيرِ، وَلَكِنْ كَمَا يَقَعُ زَوْجٌ فِي لِسَانِ زَوْجَةٍ مَعْشُوقَةٍ
مَتَدَلِّلَةٍ تُجَادِلُهُ بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ بَعْضُهَا أَلْكَلَامُ . . . وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يَا رَحِمَةَ أَللَّهِ لَا
تَجْعَلِي مِنَ أَلنِّسَاءِ أَلْجَمِيلَاتِ أَلْفَاتَنَاتِ مُحَامِيَاتٍ فِي هَذِهِ أَلْمَحَاكِمِ، فَلَوْ أَلْبَسُوهُنَّ
لَحَى مُسْتَعَارَةً لَكَانَ أَلصَّوْتُ أَلرَّخِيمُ وَحْدَهُ مِنْ تِلْكَ أَلْأَفْوَاهِ أَلْجَمِيلَةِ أَلْعَذِيبَةِ، نَدَاءٌ
قَانُونِيّاً لِلْقُلُوبَاتِ.

وَنَهَضَتِ أَلْمَحَامِيَةُ أَلْعَجِيبَةُ فَسَلَطَتْ عَيْنِهَا أَلْسَاحِرَتَيْنِ عَلَى أَلْنَائِبِ، ثُمَّ قَالَتْ
تُخَاطَبُ أَلْمَحْكَمَةُ: قَبْلَ أَلنَّظَرِ فِي هَذِهِ أَلْقَضِيَةِ قَضِيَةِ أَلْحُبِّ وَأَلْجَمَالِ، قَضِيَةِ قَلْبِي
أَلْمَسْكِينِ . . . أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّفَ أَلرَّأْيَ أَلْقَانُونِيَّ فِي أَعْتِبَارِ أَلْجَرِيمَةِ. أَهِيَ شَخْصِيَّةٌ،
فَتَقْصُرُ عَلَى صَاحِبِهَا؛ أَوْ خَاصَّةٌ، فَتَقْصُرُ غَيْرَ جَانِبِهَا؛ أَوْ عَامَةٌ، فَيَتَنَاوَلُهَا أَلْعُمُومُ
أَلْمَحْدُودُ لِمَنْ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةُ أَلْحُبِّ؛ أَوْ هِيَ أَعْمُ، فَيَتَنَاوَلُهَا أَلْعُمُومُ أَلْمُطْلَقُ لِلْهَيْئَةِ
أَلْاجْتِمَاعِيَّةِ؛ مَا هِيَ جَرِيمَةُ قَلْبِي؟

- الرَّئِيسُ: مَا رَأَيْ أَلْنِيَابَةَ؟

أَلْنَائِبُ ضَاحِكاً: (غَزَالَتَهَا رَايِقَةً) كَمَا يَقُولُ أَلرَّاقِصَاتُ وَأَلْمُمَثِّلَاتُ . . . أَرَى
أَنَّهَا جَرِيمَةٌ أَتِيَتْ مِنْ ضَرْبِ أَلْخَاصِّ فِي أَلْعَامِ . . . (ضَحْكُ).

أَلْمَحَامِيَةُ: جَوَابُ كَجَوَابِ أَلْقَاتِلِ: حُبُّ أَبِي بَكْرٍ: كَانَ ذَلِكَ أَلرَّجُلُ يُحِبُّ
زَوْجَتَهُ أَلْجَمِيلَةَ وَيَخَافُهَا، وَكَانَتْ تَقْسُو عَلَيْهِ قَسْوَةً عَظِيمَةً وَتُغْلِظُ لَهُ أَلْكَلَامَ، وَهُوَ
يَفْرُقُ مِنْهَا وَلَا يُخَالِفُهَا؛ فَرَأَاهَا يَوْمًا وَقَدْ طَابَتْ نَفْسُهَا، فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَهَزَ أَلْفُرْصَةَ

ويشكو قسوتها؛ فقال: يا فلانة قَدْ - والله - أحرقت قلبي... ولم تدعُ بُتْهُمُ الكلمة، فحدّثَ نظرَها إليه وقطبت^(١) وجهها وقالت: أحرقت قلبك ماذا؟ فخاف ولم يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك. فقال؛ حبّ أبي بكرٍ الصديق - رضي الله عنه -.. (ضحك) ورثت ضحكة المحامية فأضطربت لها القلوب، ووقعت في كل دم، وفي دم النائب أيضاً؛ فأنزل ولم يزد على أن يقول: أحتج من كل قلبي... .

الرئيس: لندخل في الموضوع ولنكن المرافعة مطلقة؛ فإن الحدود في جرائم القلب تُسدل وتُرفع كهذه الستائر في مسرح التمثيل. وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة.

* * *

- النائب العام: يا حضرات المستشارين، لا يطول اتهامي؛ فإن هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة.

المحامية: ولكنّه قلب.

النائب: وأنا يا سيدتي لم أحرف الكلمة ولم أقل إنّه كلب. (ضحك)

وتصرّج^(٢) وجه المحامية وخجلت.

- الرئيس: الموضوع الموضوع.

النائب: يا حضرات المستشارين، إنّ ألم هذه الجريمة إمّا أن يكون في شخص الجاني أو ماله، أو صفته كأن يكون زوجاً مثلاً، أو صيته الأدبي؛ فأما الشخص فهذا ظاهر، وأما المال فنعم إنّ القلب المسكين قرّر لنفسه ولصاحبه ألاّ يتاع أبدأ تذكرة دخول إلى جهنم... (ضحك).

- المحامية: أستمع النائب عُذراً إذا أنا... إذا أنا فهمت من هذا التعبير أنّ حضرته يعرف على الأقل أين تُباع هذه «التذاكر»... (ضحك) وتفرّج وجه النائب العام وخجل.

- الرئيس: كنتُ رجوت ألا تكون للأولى ثانية، وقلت: إنّ معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأنّ المعنى المنطقي ألا يكون للثالثة رابعة؟...

(١) قطبت: عبت.

(٢) تصرّج: تورد احمراراً.

- النائب: يا حضرات المستشارين، وأما الأصفة، فهذا القلب المسكين قلب رجل متزوج؛ ولا تغرنكم صوفيّة هذا القلب، ولا يخدعنكم تألهه وزعمه السمو. إنه على كل حال يعيش راقصة، وهذا اعتداء في ضمنه اعتداء، على الأزواج وعلى أشرف؛ وهبوه متصرفاً متألهاً ولم يتصل بالراقصة، فهو على كل حال قد أخذها وأخذها ولكن بأسلوبه الخاص... وبهذا أقترف الجريمة؛ أه! إن هذه القضية ناقصة؛ وذلك نقص فيها أخشى أن يكون نقصاً في الحكم أيضاً، فأتّموا أنتم. يا حضرات المستشارين، إن النقص فيها أنها لا شهود فيها؛ ولكن هذا عمل إلهي لا يظهر إلا يوم تشهد عليهم السننهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

- المحامية: هذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته، هذا تعبير جسور^(١)! يا حضرة النائب، من الذي لا يحمل شهوداً في لسانه ويديه ورجليه، بل ألف شاهد على ليلة واحدة... يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن أكون وألباء في لفظة (نائب) غير أكون وألباء في لفظة (نبي).

- النائب: يا حضرات المستشارين. لا أرى ممّا يُخرجني في آلتهم أن أصرّح لكم أن ممّا حيرني في هذه الجريمة أن ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا نلّم الكرامة، فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور، ولا أصغر من ذلك، ولا كأس خمر للراقصة...

- المحامية: لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء، وسيجف حلقه في هذه القضية؛ فلعل المحكمة تأمر لي بكأس... (ضحك).

- النائب: يا حضرات المستشارين، يعيش راقصة؛ اسم فاعل من رقص يرقص؛ امرأة لا تلبس ثياباً، بل عرياً في شكل ثياب... امرأة لا كائنساء، كذبها هو صدق من شفيتها، لماذا؟ لأنهما حمراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان...
المحامية: تضحك...

- النائب بعد أن تتعج: امرأة لا كائنساء، جعلتها الحزفة امرأة في العمل، ورجلاً في الكسب...

(١) جسور: جرىء.

- المحامية: ولكنك لا تدري أي جمل سقطت فيه المسكين، وقد يكون في الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب: ذات عظمة...

- النائب: يحب راقصة، أي يضعها في عقله الباطن ويشتتها؛ نعم يشتتها، فمن عقله الباطن، ويتعبير اللغة، من واعيته - تخرج الجريمة أو على الأقل، فكرة الجريمة.

والصيت الأدبي يا حضرات المستشارين؟ هل من كرامة لمن يعشق راقصة؟ لا بل هل من كرامة في الحب؟ ألم يقولوا: إن كرامة الرجل تكون تحت قدمي المرأة المعشوقة كالمسحة الخشنة تمسح فيها نعلها!

الحب؟ ما هو الحب؟ إنه ليس فكرة، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حيّة، وهذا التركيب الحيواني للإنسان هو الذي يهيئ من الحب مداخل ومخارج للشياطين في جسمه؛ وهل رضي صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه، وعظيم ما أنتهك من أخلاقه السامية؟ هل رضي بعشقه راقصة؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح، أو رضي بقدر ما؛ فعلى كليهما يقوم في نفسه مانع؛ والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة.

- المحامية: ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنة كما في القانون الإنجليزي، وقد قرّر الشراح أنه ما دام الرضى غير مستلب بكّله، فالجريمة غير واقعة بكّله.

- النائب: جنة كل قلب هي جناية من هذا القلب بخصوصه، على طريقة «حسنة الأبرار سيئات المقرّبين»؛ وألعبه هنا بالواقع لا بالصفة القانونية، وقد قرّر الشراح أن الوقائع قد يكون أحياناً سبباً في تشديد العقوبة، فلا بد من تشديد العقوبة في هذه القضية. لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة.

- المحامية: قد نسيت أن هذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البريء.

- النائب: إذن أطلب عقابه بحرمانه الجمال: وهذا أشق عليه من العقاب بأنتي عشرة مادة وبعشرين وثلاثين.

الرئيس: وما هي الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الجزمان؟

النائب: تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق، وبالمسارح كلها فتُغفل،
وبالسينما فتُبطل إلا ما لا جمال فيه منها ولا غزل ولا حُب، ويُحرّم السفورُ
على النساءِ إلاّ العجائزَ والديميمات^(١)، ويُمنعُ نشرُ صورِ الجمالِ في الصحفِ
والكتب، و... .

المحامية: قل في كلمة واحدة: يجبُ إصلاحُ العالمِ كُلِّهِ لإصلاحِ القلبِ
الإنساني!

وجلسَ النائب، فألثفتَ الرئيسُ إلى المحاميةِ وقالَ لها: وأما هو؟ ...

(١) الديميمات: البشعات.

القلب المسكين

تنمة

قالَ صاحبُ القلبِ المسكينِ: ووقفتَ المحاميةُ وكأنَّها بينَ الحُرَّاسِ تزدحمُ عليها من كلِّ ناحية، وقد ظهرتْ لِلْموجودينَ ظهورَ الجمالِ لِلحبِّ، ونقلتهم في الزَّمنِ إلى مثلِ السَّاعةِ المصوَّرةِ الَّتِي ينتظرُ فيها الأَطفالُ سماعَ القِصةِ العجيبةِ؛ ساعةٍ فيها كلُّ صورِ اللذةِ لِلقلبِ.

وكانتْ تُدافعُ بِكلامِها ووجهها يُدافعُ عن كلامِها، فلو نطقتْ غيتاً أو رُشداً فلهذا صوابٌ ولهذا صوابٌ، لأنَّ أحدَ الصَّوابينَ منظورٌ بالأعينِ.

كانَ صوتُ النائبِ العامِّ كلاماً يُسمَعُ ويُفهمُ: أمَّا صوتُ المحاميةِ الجميلةِ فكانَ يُسمَعُ ويُفهمُ ويُحسُّ ويُدَّق، تَلْقِيهِ هِيَ مِنْ ناحيةٍ ما يُدْرِكُ، وتتلَقَّاهُ النَّفْسُ مِنْ ناحيةٍ ما يُعَشِّقُ؛ فهو مُتَّصِلٌ بِحقيقتينِ مِنْ معناه ومعناها، وهو كُلُّهُ حلاوةٌ لِأَنَّهُ مِنْ فيها ألحلو.

وبدأتْ فتناوَلتْ مِنْ أَشْيائها مِراةً صغيرةً فنظرتْ فيها.

- النائب العام: ما هذا يا أستاذة؟

- المحامية: إنَّكم تزعمون أنَّ هذه الجريمةُ تأليفُ عيني، فأنا أسألُ عيني قبلَ أنْ أتكلَّم!

- النائب: نعم يا سيِّدتي، ولكنِّي أرجو ألاَّ تُدخلِي القِضيةَ في سِرِّ المرأةِ وأخواتِها... إنَّ النِّياةَ تخشى على أَتهامِها إذا تكهَّلتْ لغةُ الدِّفاعِ! فضحكَّتِ المحاميةُ ضِخْكةً كانتْ أوَّلَ ألبلاغةِ المَؤثِّرة...

- النائب: مِنَ الوَقارِ القانونيِّ أنْ تكونَ المحاميةُ الفَتَّانةُ غيرَ فتانَةٍ ولا جَدَّابَةٍ أمامَ المحكمةِ.

- المحامية: تُريدُ أن تجعلَها عَجُوزاً بِأَمْرِ النِّيا بة... ؟ (ضحك).

- النائب: جَمالُ حَسَناء، في ظَرْفِ غانِية، في شَمائِلِ راقِصة، في حَماسَةِ عاشقة، في ذِكاؤِ مُحامية، في قُدْرَةِ حُبٍّ - هذا كثير!

- المحامية: يا حَضراتِ المُستشارين، لَم تَكُنِ المِراةُ هُفوةً من طِبيعةِ المِراةِ، ولكِنَّها أَلَكَلَمَةُ الأولى في الدِّفاع، كَلَمَةً كانَ الجِوابُ عنها مِنَ النِّائبِ العَلامُ أَنَّهُ أَقرُّ بِتأثيرِ الجِمالِ وَخَطَرِهِ، حَتى لَقَدْ خَشِيَ على أَتِهامِهِ إِذا تَحَلَّلَتْ لَهُ لَغَتِي.

- القضاةُ يَتَسَمَّونَ.

- النائب: لَم أَزِدْ على أَن طَلَبْتُ أَلوقارَ أَلقانوني، أَلوقار، نَعَم أَلوقار؛ فَإِنَّ المِحامِيةَ أَمامَ المِحاكَمَةِ، هِيَ مُتَكَلِّمٌ لا مُتَكَلِّمَةٌ.

- المحامية: مُتَكَلِّمٌ بِإِلِحيةٍ مُقدَّرةٍ مَنعَ من ظُهورِها أَلتَعذُّرُ (ضحك)... .

كَلّا يا حَضرةَ النِّائبِ؛ إِنَّ لِهَذِهِ أَلقَضِيةَ قانِوناً آخَرَ تُنْتزَعُ مِنْهُ شِواهِدُ وَأَدَلَّةُ؛ قانِونُ سَحَرِ المِراةِ لِلرَّجُلِ، فلو أَقْتَضاني أَن أَرْقِصَ لَرَقِصْتُ، أو أَغْنِي لَغَنَيْتُ، أو سَحَرُ الجِمالِ لَأَبْتُهُ أَوَّلَ شَيْءٍ في النِّائبِ.

- الرِّئيس: يا أَسْتَاذة!

- المحامية: لَم أَجاوزِ أَلقانونَ، فَالنِّائبُ في جَرِمتِنا هُوَ خِصْمُ القَضِيةِ، وَهُوَ أَيْضاً خِصْمُ الطَّبِيعَةِ النِّسْويَّةِ.

- النائب: لو حَدَثَ من هَذَا شَيْءٌ لَكَانَ إِحْياءُ لِعِواظِ المِحاكَمَةِ... . فَأَنا أَحتِج!

- المحامية: إِحتِجْ ما شِئتَ، ففِي قِضايا أَلْحُبِّ يَكُونُ أَلْعَدْلُ عَدْلينَ؛ إِذْ كانَ أَلاضْطِرازُ قَدِ حَكَمَ بِقانونِهِ قَبْلَ أَن تَحْكُمَ أَنتِ بِقانونِكَ.

النائب: هَذِهِ أَلْعُقْدَةُ لَيْسَتْ عُقْدَةً في مَنديلٍ يا سَيِّدَتِي، بَلْ هِيَ عُقْدَةُ في أَلقانونِ.

- المحامية: وَهَذِهِ القَضِيةُ لَيْسَتْ قَضِيةً إِخلاءِ دَارٍ يا سَيِّدِي، بَلْ هِيَ قَضِيةُ إِخلاءِ قَلْبٍ!

- الرِّئيس: المَوْضُوعُ، المَوْضُوعُ!

- المحامية: يا حَضراتِ المُستشارين، إِذا أَتَفَى أَلقَصْدُ الجِنايَةِ وَجَبَتْ أَلِبراءَةُ.

هذا مَبْدَأٌ لا جِلاَفَ عَلَيْهِ؛ فَمَا هُوَ أَلفَعْلُ أَلوْجودِي في جَرِمةِ قَلْبِي أَلْمَسْكِينِ؟

- النائب: أوله حب راقصة .

- المحامية: آه! دائماً هذا الوصف؟ هبوا في معناها غير جديرة بأن يعرفها لأنه رجل تقي، أفليست في حسنيتها جديرة بأن يحبها لأنه رجل شاعر؟ أحكموا يا حضرات القضاة؛ هذه راقصة ترتزق وترتفق، ومعنى ذلك أنها زهت بأسبابها، ومعنى هذا أنها خاضعة للكلمة التي تدفع . . . فلماذا لم ينلها وهي متعرضة له، وكلاهما من صاحبه على النهاية، وفي آخر أوصاف الشوق؟ أليس هذا حقيقةً بإعجابكم القانوني كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل؟ وإن لم يكن هذا الحب شهوة فكر، فما الذي يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها؟ . .

- القضاة يتسّمون .

- النائب: نسيّت المحامية أنها محامية وانتقلت إلى شخصيتها الواقعة على النهاية وفي آخر أوصاف السوق . . فأرجو أن ترجع إلى الموضوع، موضوع الراقصة .

- المحامية: آه! دائماً الراقصة، من هي هذه المسكينة الأسيرة في أيدي الجوع والحاجة والاضطرار؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة؟ أليست هي الجائعة التي لا تجد من ألفاجرين إلا لحم الميتة؟ نعم إنها زلت، إنها سقطت، ولكن بماذا؟ بالفقر لا غير، فقر الضمير والذمة في رجل فاسد خدعها وتركها، وفقر العذل والرحمة في اجتماع فاسد خذلها وأهمّلها! يا للرحمة لليتيمة من الأهل، وأهلها موجودون! والمنقطعة من الناس، والناس حولها!

تقولون: يجب ولا يجب، ثم تدعون الحياة الظالمة تعكس ما شاءت فتجعل ما لا ينبغي هو الذي ينبغي، وتقلب ما يجب إلى ما لا يجب، فإذا ضاع من يضيع في هذا الاختلاط، قلتم له: شألك بنفسك، ونفضتم أيديكم منه فأضعتموه مرة أخرى، - ويحكم يا قوم - غيروا اتجاه الأسباب في هذا الاجتماع الفاسد، تخرج لكم مسيئات أخرى غير فاسدة .

تأتي المرأة من أعمال الرجل لا من أعمال نفسها، فهي تابعة وتظهر كأنها متبوعة؛ وذلك هو ظلم الطبيعة للمسكينة؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة، يظلمها الاجتماع ظلماً آخر فيأخذها وحدها بالجريمة، ويُقال سافلة، وساقطة؛ وما جاءت إلا من سافل وساقط!

لماذا أَوْجِبَت الشريعةُ الرِّجْمَ بِالْحِجَارَةِ عَلَى الْفَاسِقِ الْمُخَصَّنِ^(١)؟ أهَي تَرِيدُ الْقَتْلَ وَالْعَذِيبَ وَالْمُتْلَةَ^(٢)؟ كلا؛ فَإِنَّ الْقَتْلَ مُمَكِّنٌ بِغَيْرِ هَذَا وَبِأَشَدِّ مِنْ هَذَا، وَلَكِنَّهَا الْحِكْمَةُ السَّامِيَةُ الْعَجِيبَةُ: إِنَّ هَذَا الْفَاسِقَ هَدَمَ بَيْتاً فَهُوَ يُرْجَمُ بِحِجَارَتِهِ!

ما أَجَلُّكَ وَأَسْمَاكَ يَا شَرِيعَةَ الطَّبِيعَةِ! كُلُّ الْأَحْجَارِ يَجِبُ أَنْ تَنْتَقِمَ لِحَجَرِ دَارِ الْأَسْرَةِ إِذَا أَنْهَدَمَ.

تَسْتَنْقِطُونَ الْمَسْكِينَةَ، وَلَوْ ذَكَرْتُمْ أَلَامَهَا لَوَجَدْتُمْ فِي أَلْسِنَتِكُمْ كَلِمَاتِ الْإِصْلَاحِ وَالرَّحْمَةِ لَا كَلِمَاتِ أَلَذِّمٍ وَأَلْعَارِ؛ إِنَّهَا تَسْعَى بِرَذِيلِهَا إِلَى الرِّزْقِ؛ فَهَلْ مَعْنَى هَذَا إِلَّا أَنَّهَا تَسْعَى إِلَى الرِّزْقِ بِأَقْوَى قُوَّتِهَا؟ نَعَمْ إِنَّ ذَلِكَ مَعْنَى الْفُجُورِ، وَلَكِنْ أَلَيْسَ هُوَ نَفْسُهُ مَعْنَى الْقَوْتِ أَيُّهَا النَّاسُ؟

- الرَّئِيسُ وَهُوَ يَمْسُحُ عَيْنِهِ: الْمَوْضُوعُ الْمَوْضُوعُ!

- الْمَحَامِيَةُ: مَا هُوَ الْفَعْلُ الْوُجُودِيُّ فِي جَرِيمَةِ قَلْبِي الْمَسْكِينِ؟ مَا هُوَ الْوَاقِعُ مِنْ جَرِيمَةِ يَضْرِبُ صَاحِبَهَا الْمَثَلَ بِنَفْسِهِ لِلشَّبَابِ فِي تَسَامِي غَرِيزَتِهِ عَنْ مَعْنَاهَا إِلَى أَطْهَرِ وَأَجْمَلَ مِنْ مَعْنَاهَا؟ لَيْسَ أَلْقَانُونَ إِنْ كَانَ أَلْقَانُونَ يُعَاقِبُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ صَارَ إِلَى عَمَلٍ دِينِيٍّ مِنْ أَعْمَالِ الْفَضِيلَةِ!

- النَّائِبُ: أَلَا يَخْجَلُ مِنْ شَعُورِهِ بِأَنَّهُ يُحِبُّ رَاقِصَةً؟

- الْمَحَامِيَةُ: وَمِمَّ يَخْجَلُ؟ أَمِنْ جَمَالِ شَعُورِهِ أَمْ مِنْ فَنِّ شَعُورِهِ؟ أَيْخَجَلُ مِنْ عَظَمَةِ فِي سَمَوَاتٍ فِي كَمَالٍ؟ أَيْخَجَلُ الْبَطْلُ مِنْ أَعْمَالِ الْحَرْبِ وَهِيَ نَفْسُهَا أَعْمَالُ الْنَصْرِ وَالْمَجْدِ؟

أَتَأْذَنُونَ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ أَنَّ أَصِفَ لَكُمْ جَمَالَ صَاحِبَتِهِ وَأَنَّ أَطْهَرَ شَيْئاً مِنْ سِرِّ فَتْنِهَا الَّذِي هُوَ سِرُّ أَلْيَانٍ فِي فَتْنَةٍ؟

- النَّائِبُ: إِنَّهَا تَتَمَاجَنُ عَلَيْنَا يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ، فَالَّذِي يُحَاكِمُ عَلَى الْسَكْرِ لَا يَدْخُلُ الْمَحْكَمَةَ وَمَعَهُ الرِّجَاجَةُ . . .

- الرَّئِيسُ: لَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا النَّوعِ مِنْ تَرْجُمَةِ الْكَلَامِ إِلَى أَعْمَالٍ يَا حَضْرَةَ الْأَسْتَاذَةِ.

(١) الْمُخَصَّنُ: الَّذِي تَحَصَّنَ بِالزَّوْجِ.

(٢) الْمُتْلَةُ: التَّعْذِيبُ وَالتَّغْيِيرُ.

- المحامية: كثيراً ما تكون ألفاظ مترجمة خطأ بنيات المتكلمين بها أو المضغين إليها؛ فكلمة الحب مثلاً قد تنتهي إلى فكر من الأفكار حاملة معنى الفجور، وهي بعينها تبلغ إلى فكر آخر حاملة إلى سموه من سموها؛ وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الجباب عند الشرقيين والأوروبيين؛ فالأصل في مدنيته هؤلاء إباحة المعاني الخفيفة من العفة... وإكرام المرأة إكرام مغازلة... يقولون إن رقم الواحد غير رقم العشرة، فيضعونه في حياة المرأة، فما أسرع ما يجيء «الضفر» فإذا هو العشرة بعينها!

أما الشرقيون فالأصل في مدنيته التزام العفة وإقرار المرأة في حقيقتها، لا جرم كان الجباب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين: الاستبداد والعدل، والقسوة والرحمة، و...

- النائب: وأمرأة أليبت وأمرأة الشارع.

- المحامية: وبصر القانون وعمى القانون...

- الرئيس: وحسن الأدب وسوء الأدب. الموضوع الموضوع.

- المحامية: لا والذي شرفكم بشرف الحكم، يا حضرات المستشارين؛ ما يرى القلب المسكين في حبيبته إلا تعبير الجمال، فهو يفهمها فهم التعبير ككل موضوعات الفن، وما بينه وبينها إلا أن حقيقة الجمال تعرفت إليه فيها، أين أحسن الشاعر سراً من أسرار الطبيعة في منظر من مناظرها، قلتم أجرم وأثم؟

هذا قلب ذو أفكار، وسبيله أن يعان على ما يتحقق به من هذا الفن، قد تقولون: إن في الطبيعة جمالاً غير جمال المرأة فلأخذ من الطبيعة وليعط منها؛ ولكن ما الذي يحيي الطبيعة إلا أخذها من القلب؟ وما هي طريقة أخذها من القلب إلا بالحب؟ وقد تقولون: إنه يتألم ويتعذب؛ ولكن سلوه: أهو يتألم بأدراكه الآلم في الحب، أو بإدراكه قسوة الحقيقة وأسرار التعقيد في الخير والشر...؟

إن شعراء القلوب لا يكونون دائماً إلا في أحد الطرفين: هم أكبر من ألهم، فرح أكثر من الفرح؛ فإذا عشقوا تجاوزوا موضع الوسط الذي لا يكون الحب المعتدل إلا فيه؛ ومن هذا فليس لهم آلام معتدلة ولا أفراح معتدلة.

هذا قلب مختار من القدرة الموجية إليه، فآلتى يحبها لا تكون إلا مختارة من هذه القدرة اختيار ملك الوحي، وهما بهذا قوتان في يد الجمال لإبداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتا هما عظيمة..

فَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّ حُبَّ هَذَا الْقَلْبِ جَرِيمَةٌ عَلَى نَفْسِهِ، قَالَتِ الْحَقِيقَةُ الْفَنِيَّةُ: بَلِ
أَمْتَنَاجُ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ جَرِيمَةٌ.

إِنَّ خَمْسِينَ وَخَمْسِينَ تَأْتِي مِنْهُمَا مِائَةٌ، فَهَذَا بِدِيهِيٍّ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُبَيِّنُ وَلَا
أُظْهِرُ وَلَا أَوْضَحُ مِنْ قَوْلِنَا: إِنَّ هَذَا الْعَاشِقَ وَهَذَا الْمَعشُوقَةَ يَأْتِي مِنْهُمَا فَنٌّ.

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ: وَأَنْصَرَفَ الْقَضَاءُ إِلَى عُرْفَتِهِمْ لِيَتَدَاوَلُوا أَلْرَأْيَ
فِيمَا يَحْكُمُونَ بِهِ، وَأَوَامَاتُ لِيِ الْمَحَامِيَّةِ الْجَمِيلَةِ تَدْعُونِي إِلَيْهَا، فَنَهَضْتُ أَقُومُ فَإِذَا
أَنَا جَالِسٌ وَقَدْ أَتْبَهْتُ مِنَ النَّوْمِ.

جَائِزَةٌ: لِمَنْ يُحَسِّنُ كِتَابَةَ الْحَكَمِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ خَمْسُ نَسَخٍ مِنْ كِتَابِ (وَحْيِ
الْقَلَمِ)، وَتُرْسَلُ الْمَقَالَاتُ (بِاسْمِنَا إِلَى طَنْطَا)، وَالْمَوْعِدُ (إِلَى آخِرِ شَهْرِ يَنَايِرِ هَذَا)
وَالشَّرْطُ رِضَى الْمُحْكَمِينَ، وَمِنْهُمْ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ وَصَاحِبَتُهُ . . .

انتصار الحب

كلُّ ما يُكتبُ عن حبيبي لا يفهم منه بعضُ ما يفهم من رؤية وجه أحدهما
ينظرُ إلى وجه الآخر.

وما تعرفُ العينُ من العينِ لا تعرفُ بالفاظ، ولكن بأسرار...
وَالْغَلِيلُ الْمَتَسَرُّ^(١) في دم العاشقِ كجنونِ المجنون: يختصُّ برأسِهِ وحده.
وضمَّةُ الْمُجِبِّ لِحَبِيْبِهِ إحساسٌ لا يُستعارُ من صدرِ آخر، كما لا يُستعارُ
المولودُ ليطنَّ لم يحملهُ.

وكلمةُ الْقَبْلَةِ التي معناها وضعُ الفم، لن يتقلَّ إليها ما تذوقهُ الشفتان!
ويومُ الْحُبِّ يومٌ ممدود، لا ينتهي في الزمنِ إلَّا إذا بدأ يومُ السُّلُو في
الزمن...

فهل يستطيعُ الْخَلْقُ أَنْ يصنعوا حَدًّا يفصلُ بينَ وقتينِ ليتهيَّ أحدهما...؟
وهنهم صنعوا السُّلُوَان من مادةِ النَّصِيحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ، ومن ألفِ برهانٍ وبرهان،
فكيف لهم بِالْمَسْتَحِيلِ، وكيف لهم بوضعِ السُّلُوَانِ في الْقَلْبِ الْعَاشِقِ؟
وإذا سألَتِ الْنَفْسُ من رِقَّةِ الْحُبِّ، فبأي مادةٍ تُصنعُ فيها صلابَةُ الْحَجَرِ...؟

وما هو الْحُبُّ إلَّا إظهارُ الْجِسْمِ الْجَمِيلِ حاملاً لِلْجِسْمِ الْآخِرِ كُلِّ أسرارِهِ،
يفهمُها وحدهُ فيه وحدهُ؟

وما هو الْحُبُّ إلَّا تعلُّقُ الْنَفْسِ بِالْنَفْسِ التي لا يملؤها غيرُها بِالْإِحْسَاسِ؟
وما هو الْحُبُّ إلَّا إشراقُ النُّورِ الذي فيه قوَّةُ الْحَيَاةِ، كنورِ الشَّمْسِ مِنْ
الشَّمْسِ وحدها؟

وهل في ذهبِ الدُّنْيَا وَمِلْكِ الدُّنْيَا ما يشتري الأسرار، وَالْإِحْسَاسَ، وذلك
النُّورُ الْحَيُّ...؟

(١) المتسرر: الملتهب.

فما هو الحبُّ إلا أنه هو الحبُّ؟

ما هو هذا السرُّ في الجمالِ المعشوق، إلا أنَّ عاشقَهُ يدرُكُهُ كأنَّهُ عقلٌ للعقل؟
وما هو هذا الإدراكُ إلا أنَّهصارُ الشعورِ في جمالٍ متسلِّطٍ كأنَّهُ قلبٌ للقلب؟
وما هو الجمالُ المتسلِّطُ بإنسانٍ على إنسان، إلا ظهورُ المحبوبِ كأنَّهُ روحٌ للروح؟
ولكنَّ ما هو السرُّ في حُبِّ المحبوبِ دونِ سِواه؟... هنا نقفُ المسألةَ
وينقطعُ الجوابُ.

هنا سرٌّ خفيٌّ كسرُّ ألوحديَّة، لأنَّها وحدانيَّة (أنا وأنت).

ناقشوا الحبُّ؛ فقالوا: أصبحتَ الدنيا دُنيا المادَّة، والروحانيَّة أليومَ كالْعِظامِ
الهِرَمَةِ لا تكتسي اللحمَ العاشق...
وقالَ الحبُّ: لا بلِ المادَّةُ لا قيمةَ لها في الروح؛ وهذا القلبُ لن يتحوَّلَ إلى
يدٍ ولا إلى رجلٍ...

ناقشوا الحبُّ؛ فقالوا: إنَّ العصرَ عصرُ الآلات، والْعَمَلُ الروحيُّ لا وجودَ لَهُ
في الآلةِ ولا مَعَ الآلةِ...

قالَ الحبُّ: لا، يصنَعُ الإنسانُ ما شاء، ويبقى القلبُ دائماً كما صنَعَهُ الخالق...
وقالوا: الضعيفان: الحبُّ والدين، والقويان: المالُ والجاه؛ فيما ذرُدُ الخ...؟

جاءَ بلؤلؤةٌ روحانيَّة في (مسر سمسون)؛ ووضعَ لها في ميزانِ المالِ والجاهِ
أعظمَ تاجٍ في العالمِ إدواردُ ألثامن «ملكُ بريطانيا العظمى وإرلندا والممتلكاتِ
البريطانيَّة فيما وراءَ البحارِ وملك - إمبراطورِ الهند».
وتنافسَتِ الروحانيَّةُ والماديَّةُ، فرجعَ التاجُ وما فيه إلا أضعفُ المعنيينِ مِنَ
القلبِ.

وأعلنَ الحبُّ عن نفسه بِأحدثِ اختراعٍ في الإعلان، فهزَّ العالمَ كُلَّهُ هَزَّةً
صحافيَّةً:

الحُب. الحُب. الحُب.

(مسز سمبسون)، تلك الجميلة بنصف جمال، المطلقة مرتين. هذا هو اختيار الحب!

ولكنها المعشوقة؛ وكل معشوقة هي عذراء لحبيبها ولو تزوجت مرتين؛ هذا هو سير الحب!

ولكنها ألفت كل الفتن، والظيفة كل الظرف، والمرأة كل المرأة، هذا هو فعل الحب!

ولكنها العقل للأعصاب المجنونة، والأنس للقلب المستوحش، والنور في ظلمة الكآبة؛ هذا هو حكم الحب!

ومن أجلها يقول ملك إنجلترا للعالم: «لا أستطيع أن أعيش بدون امرأة أتي أحبها»؛ فهذا هو إعلان الحب...

* * *

إذا أخذوها عنه أخذوها من دمه، فذلك معنى من الذبح.

وإذا أنتزعوها أنتزعوها من نفسه، فذلك معنى من القتل.

وهل في غيرها هي روح الלהفة التي في قلبه، فيكون المذهب إلى غيرها؟ لكأنهم يسألونه أن يموت موتاً فيه حياة.

وكأنهم يريدون منه أن يُجن جنوناً بعقل... هذا هو جبروت الحب!

وللسياسة حُجج، وعند (مسز سمبسون) حُجج، وعند الهوى.

التاج، الملكية، امرأة مطلقة، امرأة من الشعب؛ فهذا ما تقوله السياسة.

ولكنها امرأة قلبه، تزوجت مرتين ليكون له فيها إمتاع ثلاث زوجات؛ وهذا ما يقوله الحب!

واللحظة الناعسة، والابتسامة النائمة، والإشارة الحالمة، وكلمة (سيدي)؛ هذا ما يقوله الجمال.

وانتصر الحب على السياسة. وأبى الملك أن يكون كالأم الأرملة في ملك أولادها الكبار...

* * *

العرش يقبل رجلاً خلفاً من رجل، فيكون الثاني كالأول.

وَالْحُبُّ لَا يَقْبَلُ أَمْرًا خَلْفًا مِنْ أَمْرَةٍ، فَلَنْ تَكُونَ الثَّانِيَةُ كَالْأُولَى .
وطَارَتْ فِي الْعَالَمِ هَذِهِ الرِّسَالَةُ: «أَنَا إِدْوَارْدُ الثَّامِنُ . . أَتَخَلَّى عَنِ الْعَرْشِ
وَذَرِيتِي مِنْ بَعْدِي»!
«وَأَعْلَنَ الْحُبُّ عَنْ نَفْسِهِ بِأَحَدِثِ آخْتِرَاعٍ فِي الْإِعْلَانِ؛ فَهَزَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ هَزَّةً
صَحَافِيَّةً» .
الحُبُّ . الحُبُّ . الحُبُّ . .

قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر . .

حياكمُ اللهُ يا شبابِ الجامعةِ المصريَّةِ ؛ لقد كتبْتُ الكلماتِ التي تصرخُ منها الشياطين .

كلماتٌ لو أنتسيتُ لانتسبتُ كلُّ واحدةٍ منهنَّ إلى آيةٍ مما نزلَ به الوحي في كتابِ الله .

فطلبُ تعليمِ الدينِ لشبابِ الجامعةِ ينتمي إلى هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ﴾ ^(١)

وطلبُ الفصلِ بينَ الشبانِ والفتياتِ يرجعُ إلى هذه الآية : ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ .

وطلبُ إيجادِ المثلِ الأخلاقيِّ لهذه الأمةِ من شبابِها المتعلِّمِ هو معنى الآية : ﴿ هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ .

قوةُ الأخلاقِ يا شباب ، قوةُ الأخلاقِ ، إنَّ الخطوةَ المتقدِّمةَ تبدأ من هنا .
حياكمُ اللهُ يا شبابِ الجامعةِ ؛ لقد كتبْتُ الكلماتِ التي يُصَفِّقُ لها العالمُ الإسلاميُّ كلُّه .

كلماتٌ ليس فيها شيءٌ جديدٌ على الإسلامِ ، ولكن كلُّ جديدٍ على المسلمين لا يوجدُ إلَّا فيها .

كلماتٌ ألقوةُ الروحيةِ التي تُريدُ أن تقودَ التاريخَ مرَّةً أخرى بقوى النصرِ لا بعواملِ الهزيمة .

كلماتُ الشبابِ الطاهرِ الذي هو حركةُ الرقيِّ في الأمةِ كلِّها ، فسيكونُ منها المحرِّكُ للأمةِ كلِّها .

(١) الرجس : اللئس .

كلمات ليست قوانين، ولكنها ستكون هي السبب في إصلاح القوانين...
قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق: إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا...

يُريدُ الشبابُ مع حقيقة العِلْمِ حقيقة الدين، فإنَّ العِلْمَ لا يُعَلِّمُ لا يُعَلِّمُ الصَّيْرَ
ولا الصِّدْقَ ولا الذِّمَّةَ.

يُريدون قوة النفس مع العقل، فإنَّ القانونَ الأدبيَّ في الشعب لا يضعه العقلُ
وحده ولا يُنفذه وحده.

يُريدون قوة العقيدة، حتى إذا لم ينفعهم في بعض شوائد الحياة ما تعلموه
نفعهم ما اعتقدوه.

يُريدون السموَّ الدينيَّ، لأنَّ فكرة إدراكِ الشهواتِ بمعناها هي فكرة إدراكِ
الواجباتِ بغير معناها.

يُريدون الشبابَ الساميَّ الطاهرَ من الجنسين، كي تولد الأمة الجديدة ساميةً
طاهرة.

قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق؛ إنَّ الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا.

أحسن الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا من
الدين.

وما هي الفضائل إلا قوة المناعة من أضدادها؟ فالصدق مناعة من الكذب
والشرف مناعة من الخسة.

والشباب المثقل بفروض القوة هو القوة نفسها؛ وهل الدين إلا فروض القوة
على النفس؟

وشباب الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعي، يُنفق دائماً ولا
يكسب أبداً!

والمدارس تُخرجُ شبانها إلى الحياة، فتسألهم الحياة: ماذا تعودتم لا ماذا
تعلمتم!

قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق؛ إنَّ الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا...

وأحسنُ الشبابِ معنى كثرةِ آفئياتِ في الجامعة، وأدركوا معنى هذه الرُقَّةِ التي خلَقَها الحِكْمَةُ الخالقة.

والمرأةُ أداةُ استمالةٍ بالطبيعة، تعملُ بغيرِ إرادةٍ ما تعملُ بالإرادة، لِأَنَّ رُؤْيَها أولُ عملِها.

نعم إنَّ المِغناطيسَ لا يتحرَّكُ حينَ يجذبُ، ولكنَّ الحديدَ يتحرَّكُ لَهُ حينَ يجذبُ!

ومتى فهمَ أحدُ الجنسينِ الجنسَ الآخرَ، فهمُ يَدرِكينِ لا يَدرِكينِ واحدًا! وجمالُ المرأةِ إذا أنتهى إلى قلبِ الرجلِ، وجمالُ الرجلِ إذا استقرَّ في قلبِ المرأةِ...

هما حينئذٍ معنيان. ولكنَّهما على رَغمِ أنفِ العِلْمِ معنيانِ متزوجان...

لا، لا؛ يا رجالَ الجامعة، إنَّ كانَ هناكُ شيءٌ أسمُهُ حُرِّيَّةُ الفِكرِ فليسَ هناكُ شيءٌ أسمُهُ حُرِّيَّةُ الأخلاقِ.

وتقولون: أوربا وتقليدُ أوربا!! ونحنُ نُريدُ الشبابَ الذينَ يعملونَ لاستقلالِنا لا لخضوعِنا لأوربا.

وتقولون: إنَّ الجامعاتِ ليست محلًّا للدينِ، ومنَ الذي يجهلُ أنَّها بهذا صارت محلًّا لِفوضى الأخلاقِ.

وتزعمون أنَّ الشبابَ تعلموا ما يكفي مِنَ الدينِ في المدارسِ الابتدائيةِ والثانويةِ فلا حاجةٌ إليهِ في الجامعة...

افترِزوا الإسلامَ دَروساً ابتدائيةً وثانويةً فقط؛ أم تُريدونَهُ شجرةً تُغرسُ هناكَ لتُقلَعَ عندكم...

لا، لا؛ يا رجالَ الجامعة، إنَّ قنبلةَ الشبابِ المُجاهدِ تُمَلَأُ بِألبارودٍ لا بِالماءِ المَقطَّرِ.

إنَّ الشبابَ مخلوقونَ لِغيرِ زمينكم، فلا تُفسدوا عليهم الحَاسَّةَ الاجتماعيةَ التي يُحسِنونَ بها زَمَنَهُم.

لا تجعلوهم عبيدَ آرائكم وهم شبابُ الاستقلال؛ إنَّهم تلاميذكُم، ولكنَّهم أيضاً أساتذةُ الأُمَّة.

لقد تكلمَ بِلِسَانِكُم هذا البناءُ الصَّغيرُ الذي يُسمَّى الجامعة، وتكلَّمَ بِالسَّنَةِ هذا البناءُ الكبيرُ الَّذي يُسمَّى الوطن.

أمَّا بناؤُكُمْ فمحدودٌ بِآرَاءِ وَأَحْلَامِ وَأَفْكَارِ، وأمَّا الوطنُ فمحدودٌ بِالْمَطامِعِ وَالْحَوَادِثِ وَالْحَقَائِقِ.

لا، لا؛ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَدَّوْا الْعَالَمَ، قَدْ هَدَّوْهُ بِالرُّوحِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهَا لَا بِأَحْلَامِ أَوْ فِلَاسَفَةٍ.

لا، لا؛ إِنَّ الْفَضِيلَةَ فِطْرَةٌ لَا عِلْمَ، وَطَبِيعَةٌ لَا قَانُونَ، وَعَقِيدَةٌ لَا فِكْرَةَ؛ وَأَسَاسُهَا أَخْلَاقُ الدِّينِ لَا آرَاءُ الْكُتُبِ...

مَنْ هَذَا الَّتِي تَكَلَّمُ يَقُولُ لِلْأُمَّةِ: «الجامعيون لن يقبلوا أن يدخل أحدٌ في شؤونهم مهما يكن أمره»؟

أهَذَا صَوْتُ جَرَسِ الْمَدْرَسَةِ لِأَطْفَالِ الْمَدْرَسَةِ تَرِنَ تَرِنًا... فَيَجْتَمِعُونَ وَيَنْصَاعُونَ؟

كَلَّا يَا رَحْلَ! لَيْسَ فِي الْجَامِعَةِ قَالِبٌ يُصَبُّ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى قِيَاسِكَ الَّذِي تُرِيدُ.

إِنَّ التَّعْلِيمَ فِي الْجَامِعَةِ بَغَيْرِ دِينٍ يَعَصُمُ الشَّخْصِيَّةَ، هُوَ تَعْلِيمُ الرَّذِيلَةِ تَعْلِيمُهَا الْعَالِي...

﴿وَيَسْتَنْشِئُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَقٍ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾.

قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابَ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ...؛ إِنَّ الْخُطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا.

شيطان وشيطانة...

شَغَلَنِي مَا شَغَلَ النَّاسَ مِنْ حَدِيثِ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَمَا أَرَادَهُ طَلِبَتُهَا مِنْ وَزَعٍ يَخْجِزُهُمْ^(١) عَنْ مُحَارَمِ اللَّهِ، وَدِينِ يَخْلُصُ بِهِ الْإِيمَانُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَكُونُ لَفْظُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ كَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى وَرَقَةٍ؛ ثُمَّ أَبْتَغَوْهُ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ الشَّبَابِ وَالْفَتَيَاتِ، تَطْهِيراً لِلطَّبَاعِ وَنَوَازِعِ الْنَفْسِ، وَاتِّقَاءً لِسُوءِ الْمَخَالَطَةِ، وَبُعْداً عَنْ مَطِيَّةِ الْإِثْمِ، وَتَوْفِيراً لِأَسْبَابِ الرَّجُولَةِ عَلَى الرَّجُلِ وَلِصِفَاتِ الْأُنُوثَةِ عَلَى الْأُنْثَى.

وَقَرَأْتُ كُلَّ مَا نَشَرْتُهُ الصَّحَفَ، وَأَسْتَقْصَيْتُ^(٢) وَبِالْغَتِ، وَنَظَرْتُ فِي الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا وَمَعَانِي مَعَانِيهَا؛ وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَتَّبِعُ بَابَ «فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ» فِي الْمَجَلَّاتِ الْأُسْبُوعِيَّةِ الَّتِي تَكْتُبُ عَنْ حَوَادِثِ الْأَخْتِلَاطِ فِي الْجَامِعَةِ وَتُسَمِّي الْأَسْمَاءَ وَتُصِفُ الْأَوْصَافَ وَتَذَكِّرُ الْأَنْوَادَ؛ فَمَلَأْتُ كُلَّ ذَلِكَ صَدْرِي وَاجْتَمَعَ الْكَلَامُ يُتْرَجَمُ نَفْسُهُ إِلَى فِي رُؤْيَا رَأَيْتُهَا وَهَأُنَذَا أَقْصَاهَا:

رَأَيْتُنِي عِنْدَ بَابِ الْجَامِعَةِ وَكَأَنِّي ذَاهِبٌ لِأَقْطَعَ بِالْيَقِينِ عَلَى الظَّنِّ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الظَّنَّ يَقُومُ فِي حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ مَقَامَ الْحَقِيقَةِ، لِخَفَائِهَا وَكَثْرَةِ وَجُودِهَا؛ فَإِنْ كَانَ فِي اخْتِلَاطِ الْجَنْسَيْنِ مَا يُخْشَى أَنْ يَقَعَ فَهُوَ كَالْوَقَاعِ...

ثُمَّ رَأَيْتُ شَيْطَانَةً قَدْ خَرَجَتْ مِنَ الْجَامِعَةِ وَمَضَتْ تَتَّبِعُ أَنْفَهَا تَتَشَمَّمُ الْهَوَاءَ وَتَسْتَرْوِحُهُ كَأَنَّ فِيهِ شَيْئاً، حَتَّى مَالَتْ إِلَى حَمَرٍ هُنَاكَ^(٣) مِنْ ذَلِكَ الشَّجَرِ الْمَلْتَفِّ عَنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ، فَوَقَفَتْ عِنْدَهُ تَتَنَفَّسُ وَتَتَنَهَّدُ؛ ثُمَّ تَبَصَّرَتْ فَإِذَا شَيْطَانٌ مُقْبِلٌ إِلَى الْجَامِعَةِ إِقْبَالَ الْمُغِيرِ فِي غَارَتِهِ، فَأَوْمَأَتْ لَهُ، فَعَدَلَ إِلَيْهَا وَحَيَّاهَا بِتَحِيَّةِ الشَّيَاطِينِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: مَا وَقُوفُكِ هُنَا أَيُّهَا الْخَبِيثَةُ؟ وَكَيْفَ تَرُكْتِ صَاحِبَتَكَ الَّتِي أَنْتَ مُوَكَّلَةٌ بِهَا؟ وَمَا عَسَى أَنْ يَعْمَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ الْجَنْسَيْنِ إِذَا لَمْ تُؤَازِرْهُ الشَّيْطَانَةُ؟

(١) يحجزهم: يصلِّمهم، يمنهم.

(٢) استقصيت: قشيت.

(٣) الحمر بالفتح الميم، هو ما وراك من شجر وسواه.

قَالَتْ: إِنَّمَا أَجْتَذِبْنِي إِلَى هَذَا رَائِحَةً عَاشِقِينَ كَانَا فِي هَذَا الظِّلِّ يُوَارِيهِمَا^(١)
عَنِ الْأَعْيُنِ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مَزْكُومًا، أَفَكُنْتَ فِي الْأَزْهَرِ...؟

فَجَعَلَ الشَّيْطَانُ يَتَضَاخَكُ وَقَالَ: أَنَا مَرْسَلٌ مِنْ مَسْتَشْفَى الْمَجَانِينِ مَدَدًا
لِشَاطِينِ الْجَامِعَةِ؛ فَقَدْ أَحْتَاجُوا إِلَى الْنَجْدَةِ. وَلَكِنْ أَنْتِ كَيْفَ تَرَكْتِ صَاحِبَتَكَ
مِنْ أَجْلِ رَائِحَةٍ قُبِلَتْ عَلَى خَمْسِمِائَةِ مِتر؟ مَا أَحْسَبُهَا إِلَّا جَالِسَةً تَكْتُبُ فِي مَنَعِ
أَخْطَاطِ الْجَنَسِينَ وَرُجُوبِ إِدْخَالِ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ فِي الْجَامِعَةِ!

قَالَتْ الشَّيْطَانَةُ: إِنَّ صَاحِبَتِي لِأَبْرَعٍ مِنِّي فِي الْبِرَاعَةِ، وَأَدْقُ فِي الْحِيلَةِ.
وَأَهْدَى لِلْمَعَاذِيرِ، وَأَنْفَقَ إِلَى الْغَرَضِ، وَمِثْلُهَا قَلِيلٌ هُنَا، وَلَكِنْ قَلِيلٌ أَشْرُّ لَيْسَ
قَلِيلًا، فَإِنَّهُ وَضَلَّةٌ وَطَرِيقٌ كَمَا تَعْلَمُ؛ وَمَا تَجِدُ الْفَتَاةَ خَيْرًا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ يَنْفِي عَنْهَا
الرَّيْبَ وَهُوَ يُدْنِيهَا مِنْهَا بِهَذَا الْأَخْطَاطِ مَعَ الْفَتَيَانِ، وَيُهَيِّئُ لِعَقْلِهَا أَسْبَابًا تَكُونُ فِيهَا
أَسْبَابُ قَلْبِهَا؛ وَقَدْ كُنْتُ أَنْتِ فِي أَوْربَا، أَفَمَا رَأَيْتِ هُنَاكَ شَابًا وَشَابَةً حَوْلَ كِتَابِ
عِلْمٍ وَكَأَنَّهُمَا عَلَى زَجَاغَةٍ خَمْرٍ؟

إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ شَيْءٌ وَمَخَالَطَةُ الشَّبَابِ شَيْءٌ آخَرُ؛ فَذَلِكَ يُطْلِقُ فِكْرَهَا يَتَجَاوَزُ
الْحُدُودَ، وَالْأَخْطَاطُ يَجْعَلُ فِكْرَهَا، يَحْضُرُهَا فِي حُدُودِ إِحْسَاسِهَا؛ وَأَحْذَرُهَا يُرْهِفُ
ذَهْنَهَا لِإِدْرَاكِ الْأَشْيَاءِ، وَالْآخِرُ يُزْهِفُ عَوَاطِفَهَا لِإِدْرَاكِ الْرَجُلِ؛ وَقَدْ فَرِغَ الْكُلُّ مِنْ
خَلْقَةٍ الْآثَنَى فَمَا تُخَلِّقُ هُنَا مَرَّةً أُخْرَى عَلَى غَيْرِ الطَّبِيعَةِ الْمَقْطُورَةِ عَلَى الْحُبِّ فِي
صُورَةٍ مِنْ صُورِهِ الْمُمَكِّنَةِ، وَالصُّورَةُ هِيَ الشَّابُّ هُنَا؛ وَأَنَا الشَّيْطَانَةُ قَدْ تَعَلَّمْتُ فِي
الْجَامِعَةِ أَنَّ قَاعِدَةَ: «لَا حَيَاءَ فِي الْعِلْمِ»، هِيَ الَّتِي تُقَرَّرُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَاعِدَةٌ:
«لَا حَيَاءَ فِي الْحُبِّ»!

قَالَ الشَّيْطَانُ: أَنْتِ أَدْرَى بِسُلْطَانِ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ، وَلَكِنْ الَّذِي أَعْرِفُهُ أَنَا أَنَّ
مَفَاسِدَ أَوْربَا تَدْخُلُ إِلَى الشَّرْقِ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا الْخَمْرُ وَالنِّسَاءُ وَالْعَادَاتُ
وَالْقَوَانِينُ وَالْكَتَبُ وَنِظَامُ الْمَدَارِسِ!

قَالَتْ الشَّيْطَانَةُ: وَإِنَّ سُلْطَانَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ يَبْحَثُ دَائِمًا عَنْ رَعِيَّتِهِ مَا لَمْ
يُكَبِّحْ^(٢) وَيُرَدِّ عَنْ أَلْبَحَثِ؛ إِذْ هُوَ لَا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ سُلْطَانٌ إِلَّا بِتَفَاضِ حُكْمِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ؛
وَمِنْ رَعِيَّتِهِ نَظَرَاتُ الْإِعْجَابِ، وَكَلِمَاتُ النِّسَاءِ، وَعِبَارَاتُ الْإِغْرَاءِ، وَعَوَاطِفُ الْكَمِيلِ،
وَمَعَانِي الْخُضُوعِ؛ وَزُبُّ كَلِمَةٍ مِنَ الرِّجْلِ لِلْمَرْأَةِ لَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ وَيَكُونُ الرِّجْلُ

(١) يُوَارِيهِمَا: يَسْتَرُهُمَا.

(٢) يُكَبِّحُ: يَكْبَحُ.

كله فيها ذاهباً إلى قلبها متدسساً إلى خيالها؛ وكم من أم ترى أبتتها راجعة إلى الدار وتحس بالغريزة النسوية أن مع أبتتها خيالاً من الجنس الآخر! .

ومم ينبعث الحب إلا من الألفة والمخالطة والمجادبة والمنازعة التي يسوونها هنا منافسة بين الجنسين ويعدونها حسنة من حسنات الاختلاط؟ نعم إنها مشحذة للإذهان وداعية إلى بلوغ الأنغاية من الاجتهاد، وبها يرق اللسان وتنحل عقده، ويصبح الشاب كما يقولون: «أبن نكتة ويفهم الطايرة...» وتعود الفتاة وهي تجتهد أن تكون حلاوة تذوقها الروح؛ ولكن الأعمال بالنيات والأمور بخواتيمها؛ والطبيعة نفسها توازن العقل العلمي بالجهل الخلقي، ولعل أكثر الناس فنوناً في فسقه وفجوره لا يكون إلا عالماً من أهل الفن أو زنديقاً من أهل العلم، ولا يصحح هذه الموازنة إلا الدين، فهو الذي يقرر القواعد الثابتة في كلتا الناحيتين، وهذا ما يطلبه المجانين من شبان هذه الجامعة ويوشك أن يظفروا به، لولا أن هذه الأئمة مبتلاة في كل حادثة من دينها بإجالة الرأي حتى يضيع الرأي.

إسمع - ويحك - هذا الفتى الذي يقرأ... فألقى الشيطان سمعه فإذا طالب يقرأ على جماعة كلاماً في صحيفة لإحدى خريجات الجامعة تقول فيه: «ولهذا أصرح أن تجربة اشتراك الجنسين في الجامعة نجحت إلى أبعد غاية: ولم يحدث خلالها قط ما يدعو إلى قلق القلقين والمناداة بالفصل؛ بل بالعكس حدث ما يدعو إلى تشجيع الأخذ بالتجربة أكثر مما هي عليه اليوم».

فقهة الشيطان وقال: «قلق القلقين»... ما رأيت كلاماً أغلظ ولا أجفى من هذا؛ إنها لو دافعت عن الشيطان بهذه الأقايات لخسر القضية.

ثم إنه لهز^(١) الشيطانة لهزة وقال لها: كذبت علي أيُّها الخبيثة، فما لك عمل في الجامعة وأنت تخرجين لرائحة قبلة بين عاشقين على مسافة خمسمائة متر؛ إن هذه الأقايات لهي الدليل أقوى الدليل على أن الفتاة هنا تُنظر فتاة حين تُرى، ولكنها تُسمع رجلاً حين تتكلم!

قالت الشيطانة: ولكن ألم تسمع قولها: «تشجيع التجربة أكثر مما هي عليه اليوم»...؟ ألا يرضيك هذا الذي لا بد أن يدعو «إلى قلق القلقين؟» ثم إنني أنا

(١) لهز: وكز.

فلأنه الشيطان قد كثث السبب في حادثة وقعت وطرد فيها طالب من الجامعة، أفلا يرضيك الإغراء والكذب في بضع كلمات؟

قال الشيطان: كل الرضى، فهذا فن آخر؛ والعلم الذي يُنكر حادثة وقعت من تلميذة ولا يُبرأ بأنها وقعت، لا يكون إنكاره إلا إجازة لوقوع مثلها!

قالت الشيطانة: وهب^(١) الحادثة لم تقع، فكيف تعرف الجامعة ما يحدث في القلوب؟ ومن هذا الذي يستطيع أن يقرأ قصة تؤلّفها أربع أعين في وجهين؟ وكيف تُكشف الحقيقة التي أول وجودها كتمان الكلام عنها، وأول الكلام عنها ألهمس بين اثنين دون غيرهما؟ ومن ذا الذي في طاقته أن يمدّ يده إلى قلبين أصبحا في تلقّي الرسائل كصندوقيّ البريد...؟

إسمع إسمع هذا الآخر... فاسترق الشيطان السمع فإذا طالب يقرأ في صحيفة أخرى على جماعته:

«والذين يزعمون أن الاتصال بين الطالبات والطلبة خطر، إنما يُسينون إلى أخلاقكم. والحق أنهما الأصدقاء أن الذي حملني على أن أغضب وأثور إنما هو الدفاع عن الكرامة الجامعية».

قال الشيطان: كل الرضا كل الرضا... هذا كلام داهية أريب^(٢)، فلقد أحسن قاتله الله! إنها عبارات جامعية مُحكّمة السبك تقوم على أصولها من فن السياسة الخطابية؛ وكل من ظلّوه بتهمة فلا يستطيع أن يُمخّر^(٣) على الناس بأحسن من هذا ولا بمثل هذا.

وليس لنا أقوى من هذا الطبع القوي الذي يُشعر بالنقص فلا هم له إلا إثبات ذاته في كل ما يُجادل فيه دون إثبات الصواب ولو كان الناس جميعاً في هذا الجانب وكان هو وحده في جانب الخطأ.

ولكن أف! ماذا صنع هذا القائل؟ وأين التهمة التي لا تُبدل اسمها في اللغة؟ وأين الذنب الذي يرضى أن توضع اليد عليه؟ وهل إنكار المذنب إلا احتجاج من كرامته الزائفة وإظهار الغضب في بعض ألفاظ؟

إن هذا كغيره من الضعفاء حين يمارون^(٤)؛ ألا ما أكذب الكذب هنا! فإن

(١) هب: افترض.

(٢) أريب: ذكي.

(٣) يمخّر: يشعّذ ويأتي بالأكاذيب.

(٤) يمارون: يتظاهرون بشيء ويضمرون خلافه.

الفساد ليقع من اختلاط الجنسين في الجامعات الأوربية ثم لا يُعد ذلك عندهم إساءة إلى الأخلاق، ولا غصاً من الكرامة الجامعية؛ وفي فرنسا يجتمع الشبان والكفتيات من طلبة الجامعة ويحتسون الخمر ويتراقصون ويتواعدون ثم لا تقول لهم الأخلاق: أين أنتم؟... وهناك في الأندية الخاصة بالطلبة ينتخبون ملكة الجمال من بين الطالبات كل سنة، ثم يترعون بأيديهم ثيابها التي تسمى ثياباً، ويطوفون بها غرف النادي كعروس واحدة مجلوة على مائة زوج في المعنى، «وبلنسوار» أيتها الكرامة الجامعية...

والاختلاط هناك يقرب أن يكون ضرباً من المذاهب الاشتراكية، وكل ما بقي عندهم من لغة الحياء هو أن يتلطفوا^(١) فيقولوا: إن هذه الطالبة صديقة فلان الطالب؛ يعبرون بلفظ الصداقة عن أول المعنى ويدعون سائر أحواله؛ إذ لا يبالى أمرهما أحداً لا من الطلبة ولا من الأساتذيين... وهناك يُعْتَدَرُ للشاب في مثل هذا بأنه شاب، فتقوم كلمة الشاب في العرف بمعنى كلمة الضرورة في الشرع!

وهم قد عرفوا أن الجامعة لحرية الفكر، ومن حرية الفكر حرية النزعة، ومن هذه حرية الميل الشخصي، ومن حرية الميل حرية الحب؛ وهل يعرف الحب في الجامعة أنه في الجامعة فيستحي ويكون شيئاً آخر غير ما هو في كل مكان؟ أو ليس في لغة الزواج عندهم عبارة «نسيان ماضي الفتاة»... ولكن اسمعي اسمعي...

فاصاحبت الشيطانة؛ فإذا طالب من الأزهر يقرأ لطالب من كلية الحقوق في صحيفة من دفاع أحد خريجي الجامعة!

«وما بال إخواننا الأزهريين يسخطون على الجامعة واختلاط الجنسين فيها، وفي مصر نواح أخرى هي أحق بحريتهم وأولى باهتمامهم؟ لعلمهم قد نسوا حالنا في الصيف على شواطئ البحر، والكناس يمكن^(٢) هناك شهوراً عراياً أو كالعرايا».

فقالبت الشيطانة: ماله ولهذا؟ لقد أخزى نفسه وأخزى الجامعة، وهل صنع شيئاً إلا أنه يقول للأزهريين: إن أهون الفساد من هذا الاختلاط في الجامعة، وأكثره في شواطئ البحر؛ فما بالكم تدعون أشده وتأخذون على أهونه؟

(١) يتلطفوا: يتصنعوا اللطف والدماثة.

(٢) يمكن: يقون.

قال الشيطان: ويخه! وهل يأخذون على أهونه في الجامعة إلا لأنه في الجامعة لا في مكان آخر؟ ولكن اسمعي، ما هذا...؟
 فازعياً الصوت^(١) سمعهما، فإذا طالب يقرأ في مجلة: «ظهرت الآنسة فلانة وهي تلبس فستاناً أحمر شفتني بمبي^(٢) كربي مشجر بينتي وفيونكة أحمر على أبيض»...

قالت الشيطانة: هذا هذا، فهل هي إلا ألوان أفكار تحت ألوان ثياب؟ وهل يظهر سلطان الطبيعة في المرأة باحشاً عن رعيته إلا في ألوان جميلة هي، أسئلة للعيون؟ لقد مثل سرب^(٣) من الطالبات في هذه الجامعة فصلاً في بعض الحفلات سموه «عرض الأزياء» والفتاة تعرض أثوب، وأثوب يعرض الجسم، والجسم وأثوب معاً يعرضان الفتاة! وعرض الأزياء في الجامعة هو أمر من الجامعة بإهمال هذه الآية: ﴿وَلَا يَبْرِكْ زِينَتُهُنَّ﴾!

قال الشيطان: خبريني عن صاحبتك التي أنت موكلة بها، أترينها كانت تأتي إلى هذه الجامعة لو البسوهن مثل ثوب الراهبة وخمروهن^(٤) بالخمار وأضاعوا مساحة الجسم في مساحة أثوب وأجلسوهن في آخر الصفوف كأنهن في المسجد؟ لقد فعلوا مثل هذا في بعض جامعات أوروبا، فحرموا صبيغ الشفاء على الكفتيات، ومنعهن إبداء الزينة؛ فامتنعت الزينة والتمزيئة معاً، وهجرن الجامعة، وقلن فيما قلن: إن المرأة والأحمر والأبيض ونحوها هي الحقائق في علم المرأة، وهي من أساليب بحث كل فتاة عن رجلها المخبوء بين الرجال في الجامعة أو غير الجامعة، والعلم وسيلة عيش، والرجل وسيلة مثلها، غير أنه هو أجدى^(٥) الواسلتيين على المرأة وأحقهما بالعناية، إذ هي لا تتزوج الكيمياء ولا الطبيعة ولا القانون، ومعنى هذا يغير اللغة التي هنا في الجامعة المصرية أن وجود الفتاة مع الشبان للتعليم، هو كذلك وجودها بينهم للاستمالة والمكر النسوي الجذاب.

اسمعي اسمعي؛ ما هذا الصوت المنكر الجافي الخشن؟
 فسمعت، فإذا أطالب الأزهرى يقول لصاحبه وهو يحاوره: قالوا: ويحرم على المرأة أن ترى شيئاً من الرجل ولو بلا منيل ولا خوف الفتنة، وإذا هي

(١) أريا الصوت: أنصتا جيداً.

(٢) بمبي: عامية مصرية بمعنى الأبيض.

(٤) خمروهن: البسوهن الخمار، وهو غطاء الوجه للمرأة.

(٥) أجدى: أنفع.

(٣) سرب: جماعة.

أَضْطَرَّتْ إِلَى مَدَاوِةٍ أَوْ آدَاءِ شَهَادَةٍ أَوْ تَعْلِيمٍ أَوْ بَيْعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ - جَازَ نَظَرُهَا بِقَدْرِ
الْضَّرُورَةِ.

فَقَالَتْ الشَّيْطَانَةُ: هَذَا كَلَامٌ رَحِمَهُ اللَّهُ... لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ سَائِغًا لَوْ أَنَّ الشَّبَابَ
يَتَعَلَّمُونَ فِي الْجَامِعَةِ لِيَحْمِلُوا مَعَهُمُ الْحَقَّ كَمَا يَحْمِلُونَ مَعَهُمُ الْعِلْمَ؛ وَكَيْفَ لَهُمْ
بِهَذَا وَمَعَانِي الدِّينِ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ كَأَسْمَاءِ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ فِي كِتَابِ الْجُغَرَايَا: لَا
هَمَّ رَأَوْهَا وَلَا هَمَّ حَقَّقُوهَا؟ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَعْلِيمَ الدِّينِ هُنَا. فَيَقُولُ لَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ:
أَلَمْ تَعْرِفُوا الصَّلَاةَ وَأَنَّهَا الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامَ وَأَنَّهُ الصِّيَامُ، وَالزَّكَاةَ وَأَنَّهَا الزَّكَاةُ،
وَالْحَجَّ وَأَنَّهُ الْحَجُّ؟ وَهَذَا كَلَامٌ يُشْبِهُ دَرَسَ مَوَاقِعِ الْبِلَادِ عَلَى الْخَرِيطَةِ، فَبَارِسُ
كَلِمَةٍ، وَلِنَدُنْ كَلِمَةٍ، لَا غَيْرَ؛ أَمَّا الْحَقِيقَةُ الْعَظِيمَةُ الْهَائِلَةُ فَشَيْءٌ غَيْرُ هَذَا الْكَلَامِ
الْجُغَرَاوِيِّ التَّعْلِيمِيِّ؛ إِذَا مَا هِيَ كُلُّ فُرُوضِ الدِّينِ إِلَّا أَعْمَالٌ دَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ يَجِبُ فَرْضُهَا
عَلَى الْجَمِيعِ لِتَحْقِيقِ النَّفْسِيَّةِ الْوَاحِدَةِ فِي الْجَمِيعِ، وَهِيَ سِرُّ الْقُوَّةِ وَالْعَظَمَةِ
وَالنَّجَاحِ؛ فَتَعْلِيمُ الدِّينِ فِي الْجَامِعَةِ هُوَ إِقْنَاعُ النَّفْسِ بِجَعْلِ فُرُوضِهِ مِنْ قَوَانِينِهَا
الْثَابِتَةِ، لَا بِأَدَاءِ هَذِهِ الْفُرُوضِ فَقَطْ؛ وَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِدَرْسِهِ كَمَا تُدْرَسُ فِلَسُفَةُ
الْقَوَانِينِ وَالْاِقْتِصَادِ وَالتَّرْبِيَةِ، أَيْ بِاعْتِبَارِهِ عِلْمَ فِلَسُفَةِ الْكُرُوحِ الْعَمَلِيَّةِ لِلْأُمَّةِ، ثُمَّ يَجْعَلُ
الْمُدْرِسِينَ أَوَّلَ الْعَامِلِينَ بِهِ، لِيَتَحَقَّقَ مَعْنَى الْإِقْنَاعِ، فَلَا يَنْقَلِبُ الدَّرْسُ هُزْأً
وَسُخْرِيَةً؛ وَبِذَلِكَ يَخْرُجُ الشَّابُّ مِنَ الْجَامِعَةِ وَفِي رُوحِهِ قُوَّةٌ ثَابِتَةٌ تَعْمَلُ بِهِ الْعَمَلُ
الْصَالِحَ، وَتُوجِّهُهُ إِلَى الْخَيْرِ، وَتَحْفَظُهُ بَيْنَ أَهْوَاءِ الْحَيَاةِ وَشِدَائِدِهَا، وَتَجْعَلُهُ دَائِمًا يَشْعُرُ
أَنَّهُ فِي مَوْضِعِهِ السَّامِيِّ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِنْ كَانَ فِي أَقْلٍ مُرَاتِبِ الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَمِنْ ثَمَّ
يَرْجِعُ الشَّبَابُ فِي الْأُمَّةِ آلَاتِ قُوَّةٍ مَنْظُمَةٍ عَامِلَةٍ، وَأَيَسُرُّ مَا تَعْمَلُهُ هَذِهِ الْآلَاتُ، إِزَالَةُ
الْمُنْكَرَاتِ، وَصَنْعُ الشَّعْبِ صَنْعَةً جَدِيدَةً لِلْإِسْلَامِ وَالْحَرْبِ، وَ، وَ، وَ.

قَالَ الشَّيْطَانُ: وَمَاذَا أَثْنَيْتُهَا الْخَبِيثَةَ؟ لَقَدْ هَوَّلَتْ عَلَيَّ!

قَالَتْ: وَطَرَدْنَا نَحْنُ أَكْشَابُطِينَ مِنَ الْجَامِعَةِ!

قَالَ: أَسْكَتِي وَيَحْكُ! فَمَا أُرْسَلْتُ مِنْ مَسْتَشْفَى الْمَجَانِينِ إِلَّا لِهَذَا؛ فَلَنْ يَقَعَ
الْفَصْلُ بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ، وَلَنْ يَدْخُلَ التَّعْلِيمُ الدِّينِيُّ فِي الْجَامِعَةِ، وَسَيَدَاغُونَ بِأَنَّ هَذَا
كُلُّهُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ.....

نهضة الأقطار العربية

لا ريب في أنَّ النهضة واقعة في الأقطار العربية، مستطيرة في أرجائها استطارة الشرر يضرُّم في كلِّ جهة نارا حامية، ويستمدُّ من كلِّ ما يتصلُّ به لغنصره الملتهب، ولا ريب في أنَّ الشرق قد تفلَّت^(١) من أوهام السياسة وخرافاتها، وقد اختلف على الغرب بعد أن طابَّقه زمنًا، وتابعه مدة، وعرقه بمقدار ما بلَّاه، وكذَّبه ما صدَّقه، ونفر منه بقدر ما أطمأنَّ إليه؛ ولا ريب في أنَّ العقل الشرقي قد تطوَّر وأدرك معنى نكث العهد ونقض الشرط في السياسة الغربية، وعلم أنَّ ذلك هو بعينه العهد والشرط في هذه السياسة ما دامت المفاوضة والتعاقد بين الذئب والأشاة. .

ولا ريب أنَّ الشرق يجاذب الآن مقاليدَه التي ألَّقاها، ويضرب على سلاسله التي تقيَّد بها، ويكابد الصعود والهبوط في نهضته هذه؛ وقد كان بلغ من إغضائه على اللذلِّ وفراره على الضيم، وجهله وتجاهله - أنَّ أوروبا ربطت أقطاره كلها في بضعة أساطيل تجذبها جذب الكواكب للأرض.

غير أنَّي مع هذا كله لا أسمي هذه النهضة نهضة إلا من باب المجاز والتوسُّع في العبارة، والدلالة بما كان على ما يكون؛ فإنَّ أسباب النهضة الصحيحة التي تطرَّد أطراد الزمن، وتنمو نموَّ الشباب، وتندفع اندفاع العمر إلى أجلٍ بعينه - لا يزال بيننا وبينها مثل هذا الموت الذي يفصلُ بيننا وبين سلفنا وأوليتنا؛ وإلا فإين الأخلق الشرقية، وأين المزاج العقلي الصحيح لأُمم الشرق، وما هذا الذي نحن فيه من روح لا شرقية ولا غربية ثم أين المصلحون الذين لا يساومون^(٢) بملك ولا إمارة، ولا يطلبون بالإصلاح غرضًا من أغراض الدنيا أو باطلاً من زُخرفها؟ ثم أين أولئك تجعلهم مبادئهم العالية القويَّة أول ضحاياها، وتروي منهم عرق الثرى الذي يغتذي من بقايا الأجداد لينبت منه الأحفاد؟

(١) تفلَّت: تخلص وتحرر.

(٢) يساومون: يتجادلون من أجل الاتفاق على سلعة لشرائها.

إِنَّ الْجَوَابَ عَلَى نَهْضَةِ أُمَّةٍ نَهْضَةٌ ثَابِتَةٌ لَا يَكُونُ مِنَ الْكَلَامِ وَفَنُونِهِ، بَلْ مِنْ مَبْدَأٍ ثَابِتٍ مُسْتَمَرٍّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِي نَفُوسِ أَهْلِهَا؛ وَلَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَبْدَأُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ قَائِمًا عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ: إِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ، وَخُلُقٌ عَزِيزٌ، وَاسْتِهَانَةٌ بِالْحَيَاةِ، وَصِبْغَةٌ خَاصَّةٌ بِالْأُمَّةِ.

فَأَمَّا الْإِرَادَةُ الْقَوِيَّةُ فَلَا تَنْقُصُ الشَّرْقِيِّينَ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ فِيهَا لِسَاسَةِ الْغَرْبِ الَّذِينَ بَصُرُونَا بِأَنْفُسِنَا إِذْ وَضَعُونَا مَعَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى أَمَامَ مِرَآةٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلُوا يَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ إِنَّنَا غَيْرُ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي فِي الْمِرَآةِ غَيْرُ هَذَا الْقَرِيدِ الَّذِي فِيهَا... وَلَكِنْ أَيْنَ الْخُلُقُ؟ وَأَيْنَ الْعِزَّةُ الْقَوْمِيَّةُ؟ وَأَيْنَ الْعَصَبِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ؟ وَهَذِهِ مَفَاسِدُ أَوْرِبَا كُلِّهَا تَنْصَبُّ فِي أَخْلَاقِ الشَّرْقِيِّينَ كَمَا تَنْصَبُّ أَقْدَارُ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ فِي نَهْرِ صَغِيرٍ عَذْبٍ؛ فَلَا الدِّينَ بَقِيَّ فِينَا أَخْلَاقًا، وَلَا الْأَخْلَاقُ بَقِيَّتَ فِينَا دِينًا، وَأَصْبَحَتِ الْمِيزَةُ الشَّرْقِيَّةُ فَاسِدَةً مِنْ كُلِّ وَجْهِهَا فِي الرُّوحِ وَالْذِّقِ، وَلَمْ يَعُدْ لَنَا شَيْءٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُسَمَّى الْمَدِينَةُ الشَّرْقِيَّةُ، وَأَخَذَ الْحَمَقَى وَالضَّعْفَاءُ مِنَّا يُحَاوِلُونَ فِي إِصْلَاحِهِمْ أَنْ يُؤَلَّفُوا الْأُمَّةَ عَلَى خُلُقٍ جَدِيدٍ يَنْتَزِعُونَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ الْغَرْبِيَّةِ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْخُلُقَ الْطَارِئَ لَا يَرْسُخُ بِمِقْدَارِ مَا يُفْسَدُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكَرَاسِخَةِ، وَهُمْ يَغْتَبِطُونَ^(١) إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَثَلًا: إِنَّ مِصْرَ قِطْعَةٌ مِنْ أَوْرِبَا؛ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ تَعْطِيلِ الْمَدِينَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَالذَّهَابِ بِهَا، وَإِفْسَادِهَا، وَتَعْرِضِهَا لِلذَّمِّ، وَتَسْلِيطِ أَلْبَاءٍ عَلَيْهَا، مِمَّا لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى التَّبَسُّطِ فَشَرَحَهُ.

لَسْتُ أَقُولُ إِنَّ نَهْضَةَ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ لَا أَسَاسَ لَهَا؛ فَإِنَّ لَهَا أَسَاسًا مِنْ حِمِيَةِ الشَّبَابِ، وَعِلْمِ الْمُتَعَلِّمِينَ؛ وَمِنْ جَهْلِ أَوْرِبَا الَّذِي كَشَفَتْهُ الْحَرْبُ؛ وَلَكِنَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى قُوَّتِهِ وَكِفَايَتِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لِإِقَامَةِ الْأَحْدَاثِ الْكَبِيرَى وَاهْتِيَاجِ الْعَوَاصِفِ السِّيَاسِيَّةِ - لَا يَحْمِلُ ثِقْلَ الزَّمَنِ الْمَمْتَدِّ، وَلَا يَكْفِي لِأَنْ يَكُونَ أَسَاسًا وَطِيدًا يَقُومُ عَلَيْهِ بِنَاءُ عِدَّةِ قُرُونٍ مِنَ الْحَضَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْعَالِيَةِ، بَلْ مَا أَسْرَعَهُ إِلَى الْهَدْمِ وَالنَّقْضِ، لَوْ صَدَمَتْهُ الْأَسَالِيبُ الْأَلْيَنَةُ مِنَ الْدِهَائِ الْأَوْرِبِيِّ عَلَى اخْتِلَافِهَا... إِذَا قُدِّرَ لِأَوْرِبَا أَنْ تَفُوزَ بِأَسْلُوبِهَا الْجَدِيدِ، أَسْلُوبِ اسْتِعْبَادِ الشَّرْقِ بِالصَّدَاقَةِ... عَلَى طَرِيقَةِ ادِّعَاءِ التَّلْعَبِ لِلدِّجَاجِ أَنَّهُ قَدْ حُجِّ وَتَابَ وَجَاءَ لِيُصْلِيَ بِهَا.

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ نَهْضَةَ هَذَا الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ لَا تُعْتَبَرُ قَائِمَةً عَلَى أَسَاسٍ وَطِيدٍ إِلَّا

(١) يَغْتَبِطُونَ: يَسْرُونَ.

إذا نهَضَ بها الركنانِ الخالدانِ: الدينُ الإسلامي، واللغةُ العربيَّةُ؛ وما عداهما فعسى أن لا تكونَ لَهُ قيمةٌ في حُكْمِ الزَمَنِ الَّذِي لا يقطعُ بِحُكْمِهِ على شيءٍ إلا بِشاهدينِ مِنَ المبدِئِ والنِّهايةِ .

وظاهرٌ أن أغلبيةَ الشرقِ العربيِّ ومادئُهُ الأعظمى هيَ التي تَدِينُ بِالإسلام، وما الإسلامُ في حقيقَتِهِ إلا مجموعةُ أخلاقٍ قويَّةٍ ترمي إلى شدِّ المجموعِ من كُلِّ جهةٍ، ولَعَمري إنِّي لأحسُبُ عظماءَ أمريكا كأنهم مسلمو التَّاريخِ الحديثِ في معظمِ أخلاقِهِم، لولا شيءٌ مِنَ الفَرْقِ هوَ الَّذِي لا يمنَعُهُم أن ينحطُّوا إذا هم بلغوا القِمَّةَ؛ فإن من عجائبِ الدُّنيا أنَّ قِمَّةَ الحضارةِ الرُّفيعَةِ هيَ بعينِها مبدأ سقوطِ الأُمَمِ، وهذا عندنا هو السُّرُّ في أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ يكرهُ لأهلِهِ أنواعَ التَّرفِ والزَّينةِ والاسترخاءِ، ولا يرى التَّسَلُّتَ والتَّصوِيرَ والموسيقىَ والمُغالاةَ فيها وفي الشَّعْرِ إلا مِنَ المَكروهاتِ، بل قد يكونُ فيها ما يحرمُ إن وُجِدَ سببٌ لِتَحريمِهِ، إذ كانتِ هذه الفَنونُ في الغالبِ وفي الطَّبِيعَةِ الإنسانيَّةِ هيَ التي تُؤدِّي في نهايتها إلى سقوطِ أخلاقِ الأُمَّةِ؛ بما تستبَعُهُ من أساليبِ الرِّفاهيَّةِ والضعفِ المُتفَنِّ، وما تَحِدُّهُ لِلنفسِ من فنونِ اللذاتِ والإغراقِ فيها والاستهتارِ بها؛ وما سقطتِ الدُّولةُ الرومانيَّةُ ولا الدُّولةُ العربيَّةُ إلا بِكأسِ وأمرأةٍ ووترٍ، وخيالٍ شعريٍّ يفتنُ في هذه الثلاثةِ ويُرِيئُها .

وإذا كانَ لا بُدَّ لِلأُمَّةِ في نهضَتِها من أن تتغيَّرَ، فإنَّ رجوعنا إلى الأخلاقِ الإسلاميَّةِ الكريمةِ أعظمُ ما يصلُحُ لنا مِنَ التَّغْيِيرِ وما نصلُحُ بِهِ منه، فلقد بَعُدَ ما بيَّنا وبينَ بعضِها، وأنقطعَ ما بيَّنا وبينَ البعضِ الآخرِ؛ وإذا نحنُ نبذنا الخمرَ، والفجورَ، والقمارَ، والكذبَ، والرياءَ؛ وإذا أنفنا مِنَ التَّخَنُّثِ، والتَّبَرُّجِ، والاستهتارِ بالمَنكراتِ، والمُبالَغةِ في المَجونِ، والسَّخفِ، والرقاعةِ^(١)؛ وإذا أخذنا في أسبابِ القوَّةِ، واصطَنعنا الأخلاقَ المَتيَّنةَ: مِنَ الإرادةِ، والإقدامِ، والحميَّةِ؛ وإذا جَعَلنا لنا صِبْغَةً خاصَّةً تُمَيِّزُنا من سِوانا، وتدلُّ على أنَّنا أهلُ روحٍ وحُلُقٍ - إذا كانَ ذلك كُلُّهُ فَلَعَمري أيُّ ضيَرٍ في ذلك كُلِّهِ، وهلْ تلكَ إلا الأخلاقُ الإسلاميَّةُ الصَّحيحةُ، وهلْ في الأرضِ نهضةٌ ثابتَةٌ تقومُ على غيرِها؟

إنَّ من خصائصِ هذا الدِّينِ الأخلاقيِّ أنَّه صلبٌ فيما لا بُدَّ لِلنفسِ الإنسانيَّةِ منه إذا أرادَتِ الكمالَ الإنسانيَّ، ولكِنَّهُ مرَّناً فيما لا بُدَّ منه لِأحوالِ الأزمنةِ المختلفةِ

(١) الرقاعة: الخلاعة والمجون.

مِمَّا لَا يَأْتِي عَلَى أَصُولِ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ . وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّهُ لَا يُغْنِي غَنَاءَ الدِّينِ شَيْءٌ فِي نَهْضَةِ الْأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ خَاصَّةً ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْأَصْلُ الرَّاسُخُ فِي الدَّمَاءِ وَالْأَعْصَابِ . وَمَتَى نَهَضَ الْمُسْلِمُونَ وَهُمْ مَادَّةُ الشَّرْقِ ، نَهَضَ إِخْوَانُهُمْ فِي الْوَطَنِ وَالْمَنْفَعَةِ وَالْعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَمَلِ الْأُخْرَى ، وَأَضْطَرُّوا أَنْ يَجَانِسُوهُمْ فِي أَغْلَبِ أَخْلَاقِهِمُ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَا حَجَرٌ عَلَى حُرِّيَّتِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَبَعْضِ الْحَجَرِ^(١) عَلَى حُرِّيَّةِ الْمَرِيضِ إِذَا أَوْجَرَتْهُ^(٢) الدَّوَاءُ الْمَرَّ .

وَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةً بِنَصِّ دِينِهِمْ ، وَكَانَتْ مَبَادِئُهُمْ وَاحِدَةً ، وَمَنَافِعُهُمْ وَاحِدَةً ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدًا ؛ فَلَا جَرَمَ كَانَ مِنَ السَّهْلِ - لَوْ رَجَعُوا إِلَى أَخْلَاقِ دِينِهِمْ وَانْتَبَذُوا مَا يَصُدُّهُمْ عَنْهَا - أَنْ يُؤَلَّفُوا مِنَ الشَّرْقِ كُلِّهِ دَوْلًا مُتَّحِدَةً يَحْسَبُ لَهَا الْغَرْبُ حِسَابًا ذَا أَرْقَامٍ لَا تَنْتَهِي . .

إِنَّ هَذَا الشَّرْقَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمَبَادِيءِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَامِنَةٌ فِيهِ ، وَمُسْتَقْبَلُهُ كَامِنٌ فِيهَا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَا تَصْلُحُ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي الْفَنُونِ ، بَلْ فِي الرِّجَالِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا . فَالْقُلُوبُ وَالْأَدِمِغَةُ هِيَ أُسَاسُ النُّهْضَةِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ ، وَإِذَا نَحْنُ تَأَمَّلْنَا هَذِهِ النُّهْضَةَ الْأَرَاهَنَةَ وَجَدْنَا أُسَاسَهَا خَرِبًا مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ ، وَوَجَدْنَا الْمَكَانَ الَّذِي لَا يَمْلُؤُهُ إِلَّا الْقَلْبُ الْكَبِيرُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا خَيَالُ كَاتِبٍ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْمَوْضِعُ الَّذِي لَا يَسُدُّهُ إِلَّا الرَّأْسُ الْعَظِيمُ قَدْ سَدَّتْهُ قِطْعَةٌ مِنْ صَحِيفَةٍ . . .

وَلَقَدْ تَنَبَّأَ نَبِيُّ هَذَا الدِّينِ ﷺ بِهَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا الشَّرْقُ الْعَرَبِيُّ بِإِزَاءِ الْغَرْبِ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ بَوْمًا : كَيْفَ بِكُمْ إِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ بَنُو الْأَصْفَرِ اجْتِمَاعَ الْأَكَلَةِ عَلَى الْقِصَاعِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، أَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ كَثْرَةٍ ؟ قَالَ : بَلْ مِنْ كَثْرَةٍ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كُفَّاءُ السَّيْلِ^(٣) قَدْ أَوْهَنَ^(٤) قُلُوبُكُمْ حُبَّ الدُّنْيَا .

فَوَهْنُ الْقُلُوبِ بِحُبِّ الدُّنْيَا - عَلَى مَا يَنْطَوِي فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ - هُوَ عِلَّةُ الشَّرْقِ ، وَلَا دَوَاءَ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ غَيْرُ الْأَخْلَاقِ ، وَلَا أَخْلَاقٍ بِغَيْرِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ عِمَادُهَا . أَلَا وَإِنَّ أُسَاسَ النُّهْضَةِ قَدْ وُضِعَ ، وَلَكِنْ بَقِيَتِ الصَّخْرَةُ الْكَبِيرَى وَسُتُوْضَعُ يَوْمًا ، وَهَذَا مَا أَعْتَقَدُهُ ؛ لِأَنَّ الْغَرْبَ يَدْفَعُ مَعْنَا هَذِهِ الصَّخْرَةَ لِيُقَرِّهَا

(١) حجر : حِجْرٌ وَمَنْعٌ مِنَ الْخُرُوجِ .

(٢) أَوْجَرَتْهُ : بَلَّغَتْهُ الدَّوَاءُ كَارِهًا .

(٣) غُثَاءُ السَّيْلِ : هُوَ مَا يَحْمِلُهُ أَثْنَاءَ جَرَفِهِ لَمَّا تَحَطَّمَتْ وَتَغْفَنُ مِمَّا لَا قِيَمَةَ لَهُ .

(٤) أَوْهَنَ : أَضْعَفَ .

في موضعها من الأساس وهو يحسب أنه يدفعنا نحن إلى الحفرة ليدفننا فيها . . .
وهذا عنى في السياسة لا يكون إلا بخذلان من الله قدره وقضاه .

وإني أرى أنه لا ينبغي لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدينة الغربية اقتباس التقليد، بل اقتباس التحقيق، بعد أن يعطوا كل شيء حقه من التمحيص^(١) ويقلّبوه على حالتيه الشرقية والغربية؛ فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطة، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد، وما قلّد المقلّد بلا بحث ولا رويّة إلا أتى على شيء في نفسه من ملكة الابتكار وذهب ببعض خاصيته العقلية؛ على أننا لا نريد من ذلك ألا نأخذ من القوم شيئاً؛ فإن الفرق بعيد بين الأخذ في المخترعات والعلوم، وبين الأخذ من زخرف المدينة وأهواء النفس وفنون الخيال وروني الخبيث والطيب؛ إذ الفكر الإنساني إنما يتجّ الإنسانية كلها، فليس هو ملكاً لأمّة دون أخرى؛ وما العقل القوي إلا جزء من قوة الطبيعة .

فإن نحن أخذنا من الأنظمة السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذي لا يجوز على أخلاق الأمّة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها .

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فلندع خرافات القوم وسخافاتهم الروائية إلى لب الفكر ورائع الخيال وصميم الحكمة، ولنتبع طريقتهم في الاستقصاء والتحقيق، وأسلوبهم في النقد والجدل، وتأنيهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البائية الجميلة التي هي الحكمة بعينها .

وأما في العادات الاجتماعية فلندكر أن الشرق شرق والغرب غرب - وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا في هذا المعنى وحده - والقوم في نصف الأرض ونحن في نصفها الآخر، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك ولنا ما يتفوق ولا يختلف؛ وإن أول الأدلة على استقلالنا أن نتسلخ من عادات القوم، فإن هذا يؤدي بلا ريب إلى إبطال صفة التقليد فينا، ويحملنا على أن نتخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا وينمي أذواقنا الخاصة بنا، ويطلق لنا الحرية في الاستقلال الشخصي؛ ولقد

(١) التمحيص: الدرس والتدقيق والبحث .

كُثًا سَادَةُ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْعَادَاتُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي رَأَيْنَا مِنْهَا وَمِنْ أَثَرِهَا فِيْنَا مَا أَفْسَدَ رَجُولَهُ رَجَالِنَا وَأُنُوثَةَ نِسَائِنَا عَلَى الْمَسَاءِ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا الشَّبَابُ الْمَسَاكِينُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى بَعْضِ هَذِهِ الْعَادَاتِ وَيَعْمَلُونَ عَلَى بَثِّهَا فِي طَبَقَاتِ الْأُمَمِ إِلَّا كَالَّذِي يَحْسِبُ أَنَّ أَوْرِبَا يُمَكِّنُ أَنْ تَدْخَلَ تَحْتَ طَرَبُوشِهِ . . . ؛ وَلَقَدْ غَفَلْنَا عَنْ أَنَّ نَدْعُو الْأُورُبِّيْنَ إِلَى أَنْفُسِنَا وَإِلَى التَّسَلُّطِ عَلَى بِلَادِنَا بِأَنْتِحَالِنَا عَادَاتِهِمْ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ؛ لِأَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الْمُشَاكَلَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَوَجْهٌ مِنَ التَّقْرِيبِ بَيْنَ جَنْسَيْنِ يُعِينُ عَلَى اندِمَاجِ أَضْعَفِهِمَا فِي أَقْوَاهُمَا وَيُضَيِّقُ دَائِرَةَ الْخِلَافِ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ هُوَ مِنْ أَيْنَ أَعْتَبَرْتُهُ وَجَدْتُهُ فِي فَائِدَتِهِ لِلأُورُبِّيِّينَ أَشْبَهَ بِتَلْيِينِ اللَّقْمَةِ الصُّلْبَةِ تَحْتَ الْأَسْنَانِ الْقَاطِعَةِ؛ وَهَلْ نَسِيَ الشَّرْقِيُّونَ أَنَّ لَا حُجَّةَ لِلْغَرْبِ فِي اسْتِعْبَادِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ تَمْدِينَهُمْ؟

وَحَيْثُمَا قُلْنَا «الَّذِينَ الْإِسْلَامِيُّ» فَإِنَّمَا نُرِيدُ الْأَخْلَاقَ الَّتِي قَامَ بِهَا، وَالْقَانُونُ الَّذِي يُسَيِّطِرُ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ عَلَى النَّفْسِ الشَّرْقِيَّةِ؛ وَهَذَا فِي رَأْيِنَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ.



لا تبجني الصحافة على الأدب ولكن على فئته

قالوا: إِنَّ الْأَصْمَعِيَّ كَانَ يُنْكَرُ أَنْ يُقَالَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ (مَالِح)، ويقول: إِنَّمَا هُوَ مَلِيح، وَإِنْ (مَالِح) هَذِهِ عَامِيَّةٌ؛ فَلَمَّا أَنْشَدُوهُ فِي ذَلِكَ شِعْراً لَدَى الرِّمَّةِ يَحْتَجُونَ بِهِ عَلَيْهِ قَالَ: إِنَّ ذَا الرِّمَّةِ قَدْ بَاتَ فِي حَوَانِيتٍ^(١) أَلْبَقَالِينَ بِأَبْصَرَةٍ زَمَانًا...

يُرِيدُ شَيْخُنَا هَذَا: أَنَّ (المالِح) فِي الْأَكْثَرِ أَلْعَمُّ يَكُونُ مِمَّا يَبِيعُهُ أَلْبَقَالُونَ، وَلُغَتُهُمْ عَامِيَّةٌ مُزَالَةٌ^(٢) عَنْ شَتَائِهَا أَلْفَصِيحٍ، مَصْرُوفَةٌ إِلَى وَجْهِهَا أَلْتَجَارِي؛ وَلَكِنْ كَيْفَ بَاتَ ذُو الرِّمَّةِ فِي حَوَانِيتِ أَلْبَقَالِينَ زَمَاناً حَتَّى عَلِقَتْ أَلْكَلِمَةُ بِمَنْطِقِهِ وَجَذَبَتْ إِلَيْهَا أَلطَّبِيعَ أَلْعَامِي، وَلَمْ يَخَالِطْ عَرَبِيَّتُهُ غَيْرَ هَذِهِ أَلْكَلِمَةِ وَحَذَاهَا؟ لَمْ يَقِلْ أَلْأَصْمَعِيُّ شَيْئاً، وَلَكِنْ رَوَايَتُهُ تُخْبِرُ أَنَّ ذَا الرِّمَّةِ أَنْحَدَرَ^(٣) مِنْ أَلْبَادِيَةِ إِلَى أَلْبَصَرَةِ يَلْتَمِسُ مَا يَلْتَمِسُهُ أَلشُّعْرَاءُ، فَلَمَّا كَانَ بِهَا أَسْتِضَاقٌ^(٤) فَلَمْ يُصَبِّ لِجَوْفِهِ غَيْرَ أَلْخَبْزِ، وَلَمْ يَجِذْ لِلْخَبْزِ غَيْرَ (أَلْمَالِحِ) يُسَبِّغُهُ بِهِ لِيَجِدَ أَلْمَسْلَكَ فِي حَلْقِهِ، قَالُوا: فَيَأْتِي أَلْبَقَالِينَ فَيَتَابَعُ مِنْهُمْ أَلْسَمَكَةَ (أَلْمَالِحَةَ) وَأَلْبَقْلَةَ (أَلْمَالِحَةَ)، وَيُعَرِّفُونَهُ مُضِيقاً إِلَى فَرْجٍ، فَيُنْسِتُونَ لَهُ فِي أَلثَّمَنِ إِلَى أَجْلِ حَتَّى يَمْتَدِّحَ وَيَنَالَ أَلْجَائِزَةَ؛ قَالُوا: ثُمَّ يُمَطِّرُهُ أَلْمَدْمُوحُ وَيُلَوِّي بِهِ وَلَا يَرَى فِي تَلْفِيْقِ أَلْعَيْشِ رُخْصاً إِلَّا فِي (أَلْمَالِحِ)، فَيَتَابَعُ فِي أَلشُّرَاءِ وَيَمْضُونَ فِي إِسْلَافِهِ إِبْقَاءً عَلَيْهِ وَحُسْنَ نَظَرٍ مِنْهُمْ لِمَنْزِلَتِهِ وَشَعْرِهِ، وَيَرَى هُوَ أَنَّ لَا ضَمَانَ لِلْوَفَاءِ بِمَا عَلَيْهِ إِلَّا نَفْسَهُ، فَمَا بُدُّ أَنْ يَتَرَاوَى لَهُمْ بَيْنَ أَلْسَاعَةِ وَأَلْسَاعَةِ، فَيُخَالِطُهُمْ فَيُحَدِّثُهُمْ فَيَسْمَعُ مِنْهُمْ، وَهُمْ عَلَى طَبِيعِهِمْ وَهُوَ عَلَى سَجِيَّتِهِ؛ ثُمَّ لَا يَقْتَضُونَهُ ثَمناً، وَلَا يَزَالُونَ يَمْدُونُ لَهُ، فَلَا يَزَالُ (المالِح) أَيْسَرَ مَنَلاً عَلَيْهِ، كَمَا هُوَ إِلَى نَفْسِهِ أَشْهَى، وَفِي جَوْفِهِ أَمراً، لِمَكَانِ أَعْرَابِيَّتِهِ وَخُسُونَةِ عَيْشِهِ، فَيُصِيبُ عَنْدهُمْ مَرْتَعَةً مِنْ هَذَا (المالِحِ). قَالُوا: ثُمَّ يَرَى أَلْبَقَالُونَ أَنَّ لَا ضَمَانَ لِمَا أَجْتَمَعَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَلشَّاعِرُ مَعَهُمْ،

(٣) انحدَر: جاء.

(١) حوانيت، مفردة حانوت وهو الدكان.

(٤) استضاق: شعر بالضيق المادي وعدم اليسار.

(٢) مزالة: منحلة ونازلة.

فيلزمونه ألحوانيت بياض يومه، ويغلقونها عليه ليلته، فهم يُمسكونه بالنهاير وتُمسكه
الحيطان والأبواب بالليل!

فلما عظم الدين وبلغ الجملة التي أتت حساب الأيام إلى حساب الأهلة أحضر
أشاعر كربه وهمه، ولم يعد (المالغ) ينتج فيه^(١)، ولا يجد به غداء، بل حريقاً في
الدم، ورأى أنه قد أمّحن بهذا (المالغ) الخبيث وأشرط نفسه فيه وأرتهتها به؛ فلا
يزال من (المالغ) هم في نفسه، ومغص في جوفه، ولفظ على لسانه، ودين على
ذمته؛ ولا يزال مهموماً به؛ إذ كان على طريق من طريقين: إما الوفاء ولا قدرة عليه
من مفلس، وإما الحبس ولا طاقة به لشاعر؛ وحبس ذي الرمة في ثمن (المالغ) هو
حبس عند الشرطة، ولكنه قتل أو شُر من القتل عند صاحبه (مية) إذا ترامي إليها
الخبر؛ والأعرابي الجلف الذي يحبس في ثمن (المالغ) عند الكوالي بعد أن بات زماناً
رهناً به في حوانيت البقالين لا يصلح عاشقاً لِمِي وهي من هي: من هي: «لها بشر
مثل الحرير ومنطق رخيّم الحواشي...» فلا (المالغ) من غذاها، ولا لفظ (المالغ)
من الكلام الذي يكون في قِمْها العذب، وأبعد الله جاريته الرنجية إن لم تأنف
لنفسها ومكانها من عشق هذا الأعرابي الغليظ الخشن الذي الحق (المالغ) بالصوص
والغارمين^(٢)، وأخزاها الله إن لم يكن عشق هذا الأعرابي لها سواداً على سواها في
الناس، فكيف بمِي وهي أصفى من المرأة النقية، وأبيض من الزهرة البيضاء؟

قالوا: ويصنع الله لغيلان المسكين، فيمدح ويتأفق ويحتال، ويعدّه الممدوح
بالبجائزة إذا غدا عليه، ويكون ذلك وأشمس نازلة إلى خديرها، فينكفي الشاعر
إلى حوانيت غرمائه من البقالين بيت فيها أخرى لِياليه، ويغلقون عليه وقد سُمّوه
أكلاً وماطلاً، وهان عليهم فلا يعتدونه إلا فاراً من فئران حوانيتهم غير يأكل
فيستوفى، ولم يعد أسمه عندهم ذا الرمة، بل ذا العُمة. فلم يعطوه لعشائه هذه
المرة إلا ما فسد وخبت من عتيق (المالغ)، فهو نثر يُسمى طعاماً، وداء يُباع
بشمن، وهلاك يحمل عليه الأضرار كما يحمل على أكل الجيفة؛ وكانوا قد
وضعوه في آنية قذرة متلجئة^(٣) طال عهدُها بالغسل والنظافة وفيها بقية من عفن
قديم، فلصق بها ما لصق وتراكب عليها ما تراكب، ووقع فيها ما وقع.

(١) ينتج فيه: يطمر فيه ويثمر.

(٢) الغارمين: المغسلة بدون عناية.

(٣) متلجئة: المندنين.

ثُمَّ يَتَهَيَّأُ الشَّاعِرُ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ يَرَجُو أَنْ تَنَالَهُ بَرَكَتُهَا، فَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَهُ وَيُفْرِجُ عَنْهُ، وَقَدْ كَانَ لَدَيْهِ قَدَحٌ مِنَ الْمَاءِ لِيُضَوِّئِهِ، وَلَكِنْ (أَلْمَالِحُ) الَّذِي تَغْدَى بِهِ كَانَ قَدْ أَحْرَقَ جَوْفَهُ وَأَضْرَمَ عَلَى أَحْسَانِهِ وَهُوَ فِي صَيْفٍ قَانِظٍ^(١)، فَمَا زَالَ يُطْفِئُهُ بِالشَّرْبَةِ بَعْدَ الشَّرْبَةِ، وَالْمَصْصَةِ بَعْدَ الْمَصْصَةِ، حَتَّى أَشْتَفَّ^(٢) الْقَدَحَ وَأَتَى عَلَيْهِ، فَيَكْسُلُ عَنْ الصَّلَاةِ وَيَلْعَنُ (أَلْمَالِحُ) وَمَا جَرَّ عَلَيْهِ! ثُمَّ يَعْضُهُ الْجَوْعُ فَيَكْسِرُ خَبْزَتَهُ وَيَسْمِي وَيَغْمَسُ أَلْقَمَةً ثُمَّ يَرْفَعُهَا فَيَجِدُ لَهَا رَائِحَةً مُنْكَرَةً، فَيَنْظُرُ فِي الْآنِيَةِ وَقَدْ نَفَذَ إِلَيْهِ الضُّوءُ مِنْ قِنْدِيلِ الْحَارَسِ، فَإِذَا فِي (أَلْمَالِحِ) خُنْفَسَاءٌ قَدْ أَنْفَجَرَتْ شَيْعًا، وَيَدْقُقُ الْنَظْرَةَ فَإِذَا دُويَّةٌ أُخْرَى قَدْ تَفْسَخَتْ وَهَرَأَهَا^(٣) (أَلْمَالِحُ) وَفَعَلَ بِهَا وَفَعَلَ! قَالُوا: وَتَشَبَّ نَفْسُهُ إِلَى حَلْفِهِ، وَلَا يَرَى الطَّاعُونََ وَالْبَلَاءَ الْأَصْفَرَ وَالْأَحْمَرَ إِلَّا هَذَا (أَلْمَالِحُ)، فَيَتَحَوَّلُ إِلَى كُوَّةِ الْحَانُوتِ يَنْسُجُ الْهَوَاءَ مِنْهَا وَيَتَطَعَّمُ الرُّوحَ وَهِيَ مُضْجِبَةٌ بِالْحَدِيدِ، وَلَا يَزَالُ يُرَاعِي مِنْهَا اللَّيْلَ وَيُقَدِّرُهُ مَنْزَلَةً بِحَسَابِ الْبَادِيَةِ، وَهُوَ بَيْنَ ذَلِكَ يَلْعَنُ (أَلْمَالِحُ) عَدَدَ مَا يَسْبُحُ الْعَابِدُ الْقَائِمُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَيَطُولُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَنْشَقُّ لَمْعُ الْفَجْرِ لِعَيْنِهِ، فَلَا يَرَاهُ الشَّاعِرُ إِلَّا كَالْغَدِيرِ يَتَفَجَّرُ بِالْمَاءِ الْأَصْفِيِّ وَيَبُودُ لَوْ أَنْصَبَ هَذَا الضُّوءُ فِي جَوْفِهِ لَيَغْسِلَهُ مِنْ (أَلْمَالِحِ) وَأَوْضَارِ (أَلْمَالِحِ)؛ ثُمَّ يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرْجِ وَيَصَاحِبُ الْحَانُوتَ فَيَفْتَحُ لَهُ، وَيَغْدُو ذُو الرُّمَةِ عَلَى الْمَمْدُوحِ فَيَقْبِضُ الْجَائِزَةَ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى حَوَانِيتِ الْبِقَالَيْنِ فَيُوفِي أَصْحَابَهَا مَا عَلَيْهِ؛ وَلَا يَبْقَى مَعَهُ إِلَّا دِرَاهِمٌ مَعْدُودَةٌ، فَيَخْرُجُ مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى جِمَارٍ أَكْثَرَاهُ وَقَدْ فُتِحَتْ لَهُ آفَاقُ الدُّنْيَا، وَكَأَنَّمَا فَرَّ مِنْ مَوْتٍ غَيْرِ الْمَوْتِ، لَيْسَ أَسْمُهُ أَبْوَارَ وَلَا أَهْلَاكَ وَلَا أَلْقَتَ، وَلَكِنْ أَسْمُهُ (أَلْمَالِحُ)!

قَالُوا: وَيُحَرِّكُهُ الْجِمَارُ لِلشَّعْرِ كَمَا كَانَتْ تُحَرِّكُهُ أَلْنَاقَةُ، فَيَقُولُ: أَخْزَاكَ اللَّهُ مِنْ جِمَارٍ بَصْرِيٍّ، إِنَّ أَنْتَ فِي الْمَرَائِبِ إِلَّا (كَأَلْمَالِحِ) فِي الْأَطْعَمَةِ! ثُمَّ يَغْلِبُهُ الطَّيْعُ وَيَنْزُو بِهِ أَلْطَرِبُ وَتَهْزُهُ الْحَيَاةُ، فَيَهْتَاجُ لِلشَّعْرِ وَيَذْكُرُ شَوْقَهُ وَحُبَّهُ وَدَارَ مَتَى، وَفِي (عَقْلِهِ أَلْبَاطُنُ) حَوَانِيتُ وَحَوَانِيتُ مِنْ (أَلْمَالِحِ)، فَيَأْتِي هَذَا (أَلْمَالِحُ) فِي شِعْرِهِ وَيَدْخُلُ فِي لُغَتِهِ، فَيَقُولُ الشَّعْرُ الَّذِي أَهْمَلُ الْأَصْمَعِيُّ رِوَايَتَهُ لِأَنَّ فِيهِ (أَلْمَالِحُ) وَمَا أَدْرِي أَنَا مَا هُوَ، وَلَكِنْ لَعَلَّهُ مِثْلُ قَوْلِ الْآخَرِ:

وَلَوْ تَفَلَّتْ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ (مَالِحُ) لِأَصْبَحَ مَاءَ الْبَحْرِ مِنْ رِيْقِهَا غَذْبًا

(١) صَيْفٌ قَانِظٌ: حَارٌّ جَدًّا.

(٢) أَشْتَفَّ الْقَدَحَ: شَرِبَ مَا فِيهِ فَأَتَى عَلَى مَحْتَوَاهُ.

(٣) هَرَأَهَا: دَبَّ فِيهَا الْاِهْتِرَاءُ وَالْفَسَادُ.

أو مثل قول القائل :

بصريّة تزوّجت بصريّا يطعمها (المالح) وَالطّريّا

هذه هي الرواية التمثيلية التي تُفسّر كلام الأصمعيّ، ولا مذهب عنها في التعليل؛ إذ صار (المالح) كلمة نفسية في لغة ذي الرمة، على رغم أنف الأحمر والأسود والأصمعيّ وأبي عبيدة؛ فالرجل من الحجاج في العربية إلا في كلمة (المالح)، فإنه هنا عاميّ بقال حوانتي نزل يطبعه على حكم العيش، وغلبه ما لا بُد أن يغلب من تسلط (واعيته الباطنة)^(١)

والجحمة التي تخرج من هذه الرواية أن أبلغ الناس ينحرف بعمله كيف شاءت الجحفة، ولا بُد أن تقع المشابهة بين نفيه وعمله، فربما أراد بكلامه وجهاً وجاء به ألهاجس على وجه آخر؛ وإذا كان في النفس موضع من مواضعها أفسده العمل - ظهر فسادُه في الذوق والإدراك فطمس على مواضع أخرى؛ فلا تنتظر من صحافي قد ارتهن نفسه^(٢) بحرفة الكلام ألا يكون له في الأدب والبلاغة (مالح) كمالح ذي الرمة، وإن كان أبلغ الناس لا أبلغ كتّاب الصحف وحدهم.

(والمالح) الذي رأيناه لكتاب بليغ من أصحابنا أنه كتب في إحدى الصحف عن ديوان هو في شعر الاستعارة بعد الكناية مما قاله الشاعر، ثم يقول: هذا عجيب تصوّره. لا أعرف ماذا يريد. ألبلى للشعاع غير مقبول؛ ولا يزال ينسحب على هذه الطريقة من النقد ثم يعقب على ذلك بقوله: «والأصل في الكتابة أنها للإفهام، أي نقل الخاطر أو الإحساس من ذهن إلى ذهن ومن نفس إلى نفس؛ ولا سبيل إلى ذلك إذا كانت العبارة يتعاورها^(٣) الضعف والإبهام والركاكّة وقلة العناية بدقّة الأداء؛ وإذا كثرت تستعمل اللفظ في غير موضعه وبغير ما أريد به فكيف تتوقّع مني أن أفهم منك؟

لا، لا، هذا (مالح) من مالح الأدب، فإذا كان الضعف والإبهام والركاكّة وسوء الإفهام وضعف الأداء - آتية في رأي الكاتب من استعمل اللفظ في غير موضعه وبغير ما أريد له - فإن محاسن البيان من التشبيه والاستعارة والمجاز

(١) يقصد بذلك العقل الباطن.

(٢) ارتهن نفسه: ربط نفسه وجعلها رهينة.

(٣) يتعاورها: يتجاذبها ويداخلها.

وَالْكِتَابَةِ لَيْسَ لَهَا مَاتِي كَذَلِكَ إِلَّا اسْتِعْمَالُ الَّلَفْظِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَلِغَيْرِ مَا أُريدَ لَهُ .
وعلى طريقةِ الْكَاتِبِ كيف يصنعُ في قولِهِ تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَةً مَنْثُورًا ﴾ ؟

أترَاه يقول : كيف قَدِمَ اللهُ ، وهل كَانَ غائِبًا أو مسافرًا ، وكيف قَدِمَ إلى عملٍ ،
وهل العملُ بيتٌ أو مدينةٌ ؟

ثُمَّ كيف يصنعُ في هذه الآية : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ ، أيسأل : وهل
لِلْأَرْضِ حَلَقٌ تُحَرِّكُهُ عَضَلَاتُهُ لِلْبَلْعِ ، وإذا كَانَ لها حَلَقٌ أَفلا يجوزُ أَنْ تُزَمَّى فِيهِ
فَتُحْتَاجُ إلى غُرْغُرةٍ وعِلاجٍ وطَبِّ ؟

وماذا يقولُ في حديثِ الْبَخَارِيِّ : « إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ صَوْتُ الدَّمِ ، أو صَوْتًا
يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُ - كما في الْأَغَانِي - أَبُوجْهٌ أَلَا عِترَاضٌ على الصَّوْتِ وَجَرَجُهُ وَدَمِيهِ ،
ويسألُ : بماذا جَرَحَ ، وما لَوْنُ هذا الدَّمِ ، وهل لِلصَّوْتِ عُرُوقٌ فيجْري الدَّمُ فيها ؟

إِنْ أَلْفَهَامٌ وَنَقْلُ الْخَاطِرِ وَالْإِحْسَاسِ لَيْسَتْ هِيَ الْبَلَاغَةُ وَإِنْ كَانَتْ مِنْهَا ، وَإِلَّا
فَكِتَابَةُ الْكُتُبِ كُلُّهَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي الْأَدَبِ ، إِذْ هِيَ مِنْ هَذِهِ الْكُنَاحَةِ لَا يُقَدِّحُ فِيهَا
وَلَا يُغَضُّ مِنْهَا ، وما قَصَرَتْ قَطُّ في نَقْلِ خَاطِرٍ وَلَا اسْتَغْلَقَتْ دُونَ إِفْهَامٍ .

ههنا خِوَانٌ في مطعمٍ كَمَطْعِمٍ (الْحَاتِي) مثلاً عَلَيْهِ الشَّوَاءُ وَالْمَلْحُ وَالْفَلْفَلُ
وَالْكُوَامِيخُ أَصْنَافًا مَصْنُوعَةً ، وَآخَرُ فِي وَلِيْمَةٍ غُرْسٍ فِي قَصْرِ وَعَلِيهِ الْوَانَةُ وَأَزْهَارُهُ وَمِنْ
فَوْقِهِ الْأَشْعَةُ وَمِنْ حَوْلِهِ الْأَشْعَةُ الْأُخْرَى مِنْ كُلِّ مَضِيئَةٍ فِي الْقَلْبِ بِنُورٍ وَجْهَهَا
الْجَمِيلُ ، أَفْتَرَى السَّهُولَةَ كُلَّ السَّهُولَةِ إِلَّا فِي الْأَوَّلِ ؟ وهلِ التَّعْقِيدُ كُلُّ التَّعْقِيدِ إِلَّا فِي
الْثَانِي ؟ وَلَكِنْ أَيُّ تَعْقِيدٍ هُوَ ؟ إِنَّهُ تَعْقِيدٌ فَني لَيْسَ إِلَّا ، بِهِ يَنْصَافُ الْجَمَالُ إِلَى
الْمَنْفَعَةِ ، فَتَجْتَمِعُ الْفَائِدَةُ وَالْاسْتِمَاعُ وَتَزِينُ الْمَائِدَةُ وَالنَّفْسُ مَعًا ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ تَعْقِيدُ
فَنِي لَأَمَ بَيْنَ إِبْدَاعِ الطَّبِيعَةِ وَإِبْدَاعِ الْفِكْرِ ، وَجَاءَ بِرُوحِ الْمَوْسِيقَى الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا
الْكُونُ الْجَمِيلُ فَبَيَّنَّا^(١) فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا الْمَائِدَةُ الْجَمِيلَةُ ، وَاسْتَنْزَلَ سِرَّ
الْجَاذِبِيَّةِ فَجَعَلَ لِلْمَائِدَةِ بِمَا عَلَيْهَا شُعُورًا مُتَّصِلًا بِالْقُلُوبِ مِنْ حَيْثُ جَعَلَ لِلْقُلُوبِ
شُعُورًا مُتَّصِلًا بِالْمَائِدَةِ .

وهذا التَّعْقِيدُ الَّذِي صَوَّرَ فِي الْجَمَادِ دِقَّةَ فَنِّ الْعَاطِفَةِ ، هُوَ بَعِينُهُ فَنِّيَّةُ السَّهُولَةِ

(١) بِهَا : نَشَرَهَا .

وروحيتها؛ وتلك السذاجة التي في المائدة الأخرى هي السهولة المادية بغير فن ولا روح، وفرق بينهما أن إحداهما تحمل قصيدة رائعة من الطعام وما يتصل به، والأخرى تحمل من الطعام وما يتصل به مقالة كمقالات الصحف!

والوجه في الشواء وفي الجميلة واحد: لا يختلف بأعضائه ولا منافعه، ولا في تأديته معاني الحياة على أتمها وأكملها؛ بيد أن انسجام الجميل يأتي من إعجاز تركيبه وتقدير قسمايه وتدقيق تناسبه، وجعله بكل ذلك يظهر فنه النفسي بسهولة منسجمة هي فنيته وروحيته؛ أما الآخر فلا يقبل هذا الفن ولا يظهر منه شيئا؛ إذ كان قد فقد التدقيق الهندسي الذي هو تعقيد فن التناسب، وجاء على المقاييس السهلة من طويل إلى قصير، إلى ما يستدير وما يعرض، إلى ما ينشأ من هنا وينخسف من هناك، كالرجنة^(١) البارزة، والشدي الغائر؛ فهذه السهولة المطلقة في الوضع كما يتفق، هي بعينها التعقيد المطلق عند الفن الذي لا محل فيه للفضة (كما يتفق).

والطريقة التي يكون بها الجمال جميلاً هي بعينها الطريقة التي يكون بها البيان بليغاً، فالمرجع في اثنيهما إلى تأثيرهما في النفس، وأنت قل: إن هذا مفهوم وهذا غير مفهوم، وذلك سهل والآخر معقد، وواضح ومغلق، ومستقيم على طريقته ومحوّل عن طريقته؛ إنك في ذلك لا تدلّ على شيء تعييه أو تمدّحه في الجمال أو البلاغة أكثر ممّا تدلّ على ما يمدح أو يعاب في نفسك وذوقها وإدراكها.

ومعاني الاختلاف لا تكون في الشيء المختلف فيه، بل في الأنفس المختلفة عليه؛ فإن محالاً أن تكون الجميلة ممدوحة مذمومة لجمالها في وقت معاً، وإلا كانت قبيحة بما هي به حسنة، وهذا أشدّ بعداً في الاستحالة، وحكمك على شيء هو عقلك أنت في هذا الشيء.

ومتى اتفق الناس على معنى يستحسنونه وجذت دواعي الاستحسان في أنفسهم مختلفة، وكذلك هم في دواعي الذم إذا عابوا؛ ولكن متى تعينت الوجوه التي بها يكون الحكم، ورجع إليها المختلفون، وألزموا الأصول التي رسمتها وتفرّزت بها الطريقة عندهم في الذوق والفهم، فذلك ينفي أسباب الاختلاف لما يكون من معاني التكافؤ وخاصة المناسبة، ولهذا كان الشرط في نقد البيان أن يكون من كاتب مبدع في بيانه لم تُفسده نزعة أخرى، وفي نقد

(١) الوجنة: السحنة.

الشعر أن يكون من شاعرٍ علّت مرتبته وطالت ممارسته لهذا الفن فليس له نزعة أخرى تُفسده .

وما المجازات والاستعارات والكنایات ونحوها من أساليب البلاغة إلا أسلوبٌ طبيعي لا مذهب عنه للنفس الفنية؛ إذ هي بطبيعتها تُريد دائماً ما هو أعظم، وما هو أجمل، وما هو أدق؛ وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفاً وتعسفاً ووضعاً للأشياء في غير مواضعها، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ وإساءة في التأدية وتمحّل لا عبرة^(١) به، ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى إلا زيادة معانيها، فنصنع ألفاظها صناعةً توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف إحساسها؛ فمن ثم لا تكون الزيادة في صور الكلام وتقليب ألفاظه وإدارة معانيه إلا تهينة لهذه الزيادة في شعور النفس؛ ومن ذلك يأتي الشعر دائماً زائداً بالصناعة البيانية، ليخرجه هذه الصناعة من أن يكون طبيعياً في الطبيعة إلى أن يكون روحانياً في الإنسانية، والشعور المهتاج المتفرّز غير الساكن المتبدّل، والبيان في صناعة اللغة يُقابل هذا النحو، فتجد من التعبير ما هو حي متحرك، وما هو جامد مستلق كالنائم أو كالميت؛ وبهذا لا تكون حقيقة المحسنات البيانية شيئاً أكثر من أنها صناعة فنية لا بُد منها لإحداث الأمتياز في ألفاظ اللغة الحساسة كي تُعطي الكلمات ما ليس في طاقة الكلمات أن تُعطيه .

لقد تكلموا أخيراً في جناية الصحافة على الأدب، والصحافة عندي لا تجني على الأدب، ولكن على فنيته؛ فلها من الأثر على سليقة ألبليغ وطبيع قريّب ممّا كان لِحوانيت أبقاليين في البصرة على طبع ذي الرمة وسليقته، وكلّما قُرب الصحفي من الصنعة وحققها على الجمهور، بُعد عن الفن وجماله وحقه على النفس، وهذا واضح بلا كبير تأمل، بل هو واضح بغير تأمل .

(١) عبرة، بكسر العين: العظة والدرس .

صعاليكُ الصحافة

١

لَمَّا ظَهَرَ كِتَابِي (وَحْيَ الْقَلَمِ) حَمَلْتُ مِنْهُ إِلَى فُضْلَاءِ كِتَابِنَا فِي دَوْرِ الصَّحَفِ وَالْمَجَلَّاتِ أَهْدِيهِ إِلَيْهِمْ لِيَقْرُؤُوهُ وَيَكْتُبُوا عَنْهُ، وَأَنَا رَجُلٌ لَيْسَ فِيَّ أَكْثَرُ مِمَّا فِيَّ، كَأَلَنَجْمٍ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُسْتَنَفَعٌ؛ فَمَا أَعْلَمُ فِي طَبِيعَتِي مَوْضِعاً لِلِنِّفَاقِ تَتَحَوَّلُ فِيهِ الْبَصَلَةُ إِلَى تَفَاحَةٍ، وَلَا مَكَاناً مِنَ الْخَوْفِ تَنْقَلِبُ فِيهِ التَّفَاحَةُ إِلَى بَصَلَةٍ، وَلَسْتُ أَهْدِي مِنْ كِتَابِي إِلَّا إِحْدَى هَدِيَّتَيْنِ: فَإِمَّا التَّحِيَّةَ لِمَنْ أُثِقُ بِأَدْبِهِمْ وَكَيْفَايَتِهِمْ وَسَلَامَةَ قُلُوبِهِمْ، وَإِمَّا إِنْذَارَ حَرْبٍ لِبَعْضٍ هَؤُلَاءِ!

وَالْقُرْآنُ نَفْسُهُ قَدْ أَثْبَتَ أَلَلَّهُ فِيهِ أَقْوَالَ مَنْ عَابَوْهُ، لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْحَقِيقَةَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى مَنْ يُنْكِرُهَا وَيُرْدهَا، كَحَاجَتِهَا إِلَى مَنْ يَقْرَأُ بِهَا وَيَقْبَلُهَا، فَهِيَ بِأَحَدِهِمَا تُثَبِّتُ وَجُودَهَا، وَبِالْآخَرِ تُثَبِّتُ قُدْرَتَهَا عَلَى الْوُجُودِ وَالْإِسْتِمْرَارِ.

وَالشَّعُورُ بِالْحَقِّ لَا يَخْرُسُ أَبَداً؛ فَإِذَا كَانَتْ النَّفْسُ قَوِيَّةً صَرِيحَةً مَرَّ مِنْ بَاطِنِهَا إِلَى ظَاهِرِهَا فِي الْكَلِمَةِ الْخَالِصَةِ، فَإِنْ قَالَ: لَا أَوْ نَعَمْ، صَدَقَ فِيهِمَا؛ وَإِذَا كَانَتْ النَّفْسُ مُلْتَوِيَةً اعْتَرَضَتْهُ الْأَغْرَاضُ وَالْأَدْخَالُ، فَمَرَّ مِنْ بَاطِنٍ إِلَى بَاطِنٍ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى الظَّاهِرِ فِي الْكَلِمَةِ الْمَقْلُوبَةِ؛ إِذْ يَكُونُ شَعُوراً بِالْحَقِّ يُعْطِيهِ غَرَضٌ آخَرُ كَالْحَسَدِ وَنَحْوِهِ، فَإِنْ قَالَ: لَا أَوْ نَعَمْ، كَذَبَ فِيهِمَا جَمِيعاً.

وَكُنْتُ فِي طَوَافِي عَلَى دَوْرِ الصَّحَفِ وَالْمَجَلَّاتِ أَحْسَنُ فِي كُلِّ مِنْهَا سَوْألاً يَسْأَلُنِي بِهِ الْمَكَانَ: لِمَاذَا لَمْ تَجِبْ؟ فَإِنِّي فِي أَبْتَدَاءِ أَمْرِي كُنْتُ نَزَعْتُ إِلَى الْعَمَلِ فِي الصَّحَافَةِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مُتَعَلِّمٌ رِيضٌ^(١) وَمَتَأَدِّبٌ نَاشِئٌ، وَلَكِنْ أَبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ -

(١) رِيضٌ: مُتَدَرِّبٌ.

رذني عن ذلك ووجهني في سبيلي هذه - والحمد لله - ، فلو أنني نشأت صحافياً
لكنتُ الآن كـبعض الحروف المـكسورة في الطبع . . .

وللصحافة العربية شأنٌ عجيب ، فهي كلما تـمـتْ نـقـصـتْ ، وكلما نـقـصـتْ تـمـتْ ؛
إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر من يقرؤونها أنصاف قراء أو أنصاف أميين ؛
وهي بهذا كـالطريقة لتعليم القراء الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية ؛ فتـمـاـمها بـمـراعاة
قواعد التقص في القارىء . . . وما بُد أن تتقيد بأوهام الجمهور أكثر مما تتقيد بحقيقة
نفسها ، فهي معاً كالأزوجة التي لم تـلـذ بعد ، لها من رجلها من يأمرها ويجعلها في
حكمه وهواه ، وليس لها من أبنائها من تأمرهم وتجعلهم في طاعتها ورأيها وأدبها ؛
ثم هي عـمـل الساعة واليوم ، فما أبعدنا من حقيقة الأدب الصحيح ، إذ يُنظر فيه إلى
الوقت الدائم لا إلى الوقت العابر ، ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان .

ولا يقتل النبوغ شيء كالعـمـل في هذه الصحافة بطريقتها ؛ فإن أساس النبوغ
(ما يجب كما يجب) ؛ ودأبه العـمـق والتغلغل في أسرار الأشياء وإخراج الثمرة
الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق ؛ أما هي فأساسها (ما يمكن كما
يمكن) ودأبها السرعة والتصفح والإلمام وصناعة كـصـناعة العنوان لا غير

فليس يحسن بالأديب أن يعمل في هذه الصحافة اليومية إلا إذا نضج وتـم
وأصبح كالدولة على «الخريطة» ، لا كالمدينة في الدولة في الخريطة ؛ فهو حينئذ لا
يسهل محوه ولا تبدله . ثم هو يمدّها بالقوة ولا يستمدّ القوة منها ، ويكون تاجاً
من تيجانها لا خـرـزة من خـرـزاتها ، ويقوم فيها كالمـنـارة العظيمة تلقى أشعتها من
أعلى الجوّ إلى مدى بعيد من الآفاق ، لا كمصباح من مصابيح الشارع !

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبعياً لرجل السياسة قبل غيره ؛
إذ كان الرجل السياسي هو صوت الحوادث سائلاً ومُجيباً ، ثم يليه الرجل شبه
العالم ، ثم الرجل شبه الممثل الهزلي . . . والأديب العظيم فوق هؤلاء جميعاً ، غير
أنه عندنا في الصحافة وراء هؤلاء جميعاً !

ولما فرغت من طوافي على دور الصحف جاءت هي تطوف بي في نومي
فأرأيتني ذات ليلة أدخل إحداها لأهدي (وحي القلم) إلى الأديب المتخصص فيها
للكتاب الأدبية ؛ ودلوني عليه فإذا رجل مربوع مشوه الخلق صغير الرأس دقيق العنق

جاحظُ العينين، تدوران في محجريهما دورة وحشية كأنهما رعبته الحياةُ مذ كان جنيناً في بطن أمه، لأنه خُلِقَ للإحساس والوصف، أو كأنهما رُكِبَ فيه هذا الأنظرُ الساخرُ ليرى أكثرَ مما يرى غيره من أسرارِ السخرية فينبغ في فنونها، أو هو قد خُلِقَ^(١) بهاتين العينين الجاحظتين دلالةً عليه من القدرة الإلهية بأنه رجلٌ فذُ أرسلَ لتدقيقِ الأنظر.

وقال الذي عرّفني به: حضرته عمرو أفندي الجاحظ... وهو أديبُ الجريدة.

قلت: شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر؟

فضحك الجاحظ وقال: وأديبُ الجريدة، أي شحاذُ الجريدة، يكتبُ لها كما يقرأُ القارئ على صريح: بالرغيفِ والجبنِ والبيضِ والقرش...

قلت: إنا لله! فكيف انتهت يا أبا عثمان إلى هذه النهاية وكنت من أعاجيب الدنيا؟ وكيف جئت^(٢) في الصحافة وكنت رأساً في الكلام؟

قال: نجحت أخلاقي فخابت آمالي، ولو جاء الوضع بالعكس لكان الأمرُ بالعكس؛ والمصيبة في هذه الصحف أن رجلاً واحداً هو قانونُ كلِّ رجلٍ هنا.

قلت: وذلك الرجلُ الواحدُ ما قانونُهُ؟

قال: له ثلاثة قوانين: الجهاتُ العاليةُ وما يستوحيه منها، والجهاتُ النازلةُ وما يُوحيه إليها، وقانونُ الصلةِ بينَ الجهتين وهو...

قلت: وهو ماذا؟

فحملتُ في وقال: ما هذه البلادة؟ وهو الذي (هو)... أما ترى الصحيفة ككلِّ شيءٍ يُباع؟ وأنت فخرني - ولك الدولة والصولة عند القراء - ألم ترَ بعينيك أنك لو جئت تدفع ثمانمائة قرش، لكنت في نفوسهم أعظمَ مما أنت وقد جئت تهدي ثمانمائة صفحة من البيان والأدب؟

قلت: يا أبا عثمان، فماذا تكتبُ هنا؟

قال: إن الكتابة في هذه الصحافة صورة من الرؤية، فماذا ترى أنت في... وفي... وفي؟ لقد كنتا نروي في الحديث: «يكون قومٌ يأكلون الدنيا بالسيّتهم كما تلحس الأَرْضُ البقرة بلسانها»؛ فلعل من هذه اللسنة الطويلة لسانُ صاحبِ الجريدة...

(٢) خيت: فقلت.

(١) الخلق، بتسكين اللام: الهيئة.

قلت: ولكئكَ يا شيخنا قد نُسِيتَ القُرَّاءَ وحكمهم على الصَّحيفة .

قال: القُرَّاءُ ما القُرَّاءُ، وما أدراك ما القُرَّاءُ! وهل أساسُ أكثرهم إلا بلادةُ المدارس، وسخافةُ الحِياة، وضعفُ الأخلاق، وكذبُ السياسة؟ إنَّ الإبداعَ كُلَّ الإبداعِ في أكثر ما تكتبُ هذه الصَّحف، أن تجعلَ الكذبَ يكذبُ بطريقةً جديدةً . . . وما دأَمَ المبدأ هو الكذب، فالْمَظْهَرُ هو الهزلُ؛ وَالنَّاسُ في حِياةٍ قد ماتت فيها المعاني الشديدةُ القُوَّةُ السَّامِيَّةُ، فهم يُريدونَ الصَّحافةَ الرخيصةَ، وَاللَّغَةَ الرخيصةَ، وَالْقُرَّاءَ الرخيصةَ؛ وبهذا أصبحَ الجاحظُ وأمثاله هم (صعاليك الصَّحافة).

ودقَّ الجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ التحرير، فنهَضَ إليه، ثُمَّ رَجَعَ بعينين لا يُقالُ فيهما جاحظتان، بلْ خارجتان. . . وقال: أف! ﴿وَحِطَّ مَا صَعُرُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾.

كلًّا والذي حرِّمَ التزَيُّدَ على العلماء، وقَبَّحَ التكلُّفَ عندَ الحُكَماءِ، وبَهَرَجَ^(١) الكذابينَ عندَ الفُقهَاءِ، لا يظُنُّ هذا إِلَّا مَنْ ضَلَّ سَعِيهِ^(٢).

قلتُ: ماذا دهاك يا أبا عثمان؟

قال: ويخها صحافة! قل في عمِّك ما قال المثل: جَحَظَ إِلَيْهِ عَمَلُهُ.

قلت: ولكن ما القصة؟

قال: ويخها صحافة! وقال الأحنف: أربع من كنَّ فيه كانَ كاملاً، ومن تعلقَ بِخَصَلَةٍ مِنْهُنَّ كانَ من صالحِ قومِهِ: دينٌ يُزْشِدُهُ، أو عقلٌ يُسَدِّدُهُ^(٣)، أو حَسَبٌ يصونه، أو حياءٌ يقناه. وقال: «المؤمنُ بينَ أربع: مؤمِّنٌ يحسُّدُهُ، ومنافقٌ يُغَضُّهُ، وكافرٌ يُجاهدُهُ، وشيطانٌ يفتنه. وأربع ليسَ أَقلُّ مِنْهُنَّ: أليقين، وألعدل، ودرهمٌ حلال، وأخٌ في الله». وقال الحسنُ بَنُ علي: . . .

قلت: يا شيخنا، دَعْنَا الآنَ مِنَ الكروايةِ وَالْحِفْظِ وَالْحَسَنِ وَالْأَحْنَفِ؛ فمذا دهاك عندَ رئيسِ التحرير؟

قال: لم أحسنِ أَلْمَهاثَةَ في أَلْمَقالِ الَّذي كَتَبْتُهُ أَلْيَوْمَ . . . ويقولُ رئيسُ

(١) بهرج: عدل بالشيء عن الجادة الفاصدة إلى غيرها بقصد التزويه.

(٢) يقصد من ذلك أنه نظر في فعله فأرى سوء صنيعه.

(٣) يسدده: يهديه إلى الصراط المستقيم.

التحرير: إِنَّ نَصَفَ التَّمْوِيهِ رَذِيلَةٌ؟ فَإِنَّ نَصَفَهُ الْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَمْوِيهِ. ويقول: إِنَّ سَمَوُ الْكِتَابَةِ أَنْحِطَاطٌ فَصِيحٌ، لِأَنَّ الْقُرَّاءَ فِي هَذَا الْعَهْدِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ جَفْظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَدِرَاسَةِ كِتَابِ الْعُلَمَاءِ وَالْفَصَحَاءِ، بَلْ مِنْ الرُّوَايَاتِ وَالْمَجَلَّاتِ الْهَزْلِيَّةِ. وَجَفْظُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعُلَمَاءِ يَضَعُ فِي النَّفْسِ قَانُونَ الْنَفْسِ، وَيَجْعَلُ مَعَانِيَهَا مَهْيَأَةً بِالطَّبِيعَةِ لِلْاِسْتِجَابَةِ لِتِلْكَ الْمَعَانِي الْكَبِيرَةِ فِي الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْجَدِّ وَالْقُوَّةِ؛ وَلَكِنْ مَاذَا تَصْنَعُ الرُّوَايَاتِ وَالْمَجَلَّاتُ وَصُورُ الْمُمَثَّلَاتِ الْمُغْنِيَاتِ وَخَبَرُ الطَّالِبِ فَلَانٍ وَالطَّالِبَةِ فَلَانَةٌ وَالْمَسَارِحِ وَالْمَلَاهِي؟

ويقول رئيس التحرير: إِنَّ الْكَاتِبَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ نَفْسَهُ مَا يُقَالُ عَنِّي فِي التَّارِيخِ، هُوَ كَاتِبُ الصَّحَافَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، لِأَنَّ الْقُرُوشَ هِيَ الْقُرُوشُ وَالتَّارِيخُ هُوَ التَّارِيخُ؛ وَمَطْبَعَةُ الصَّحِيفَةِ النَّاجِحَةُ هِيَ بِنْتُ خَالَةِ مَطْبَعَةِ الْبَنكِ الْأَهْلِيِّ؛ وَلَا يَتَحَقَّقُ نَسَبٌ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي إِخْرَاجِ الْوَرَقِ الَّذِي يُصْرَفُ كُلُّهُ وَلَا يُرَدُّ مِنْهُ شَيْءٌ!

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِظْهَارَ الْمَخَازِي مَكْتُوبَةٍ، كَحَوَادِثِ الْفُجُورِ وَالسَّرْقَةِ وَالْقَتْلِ وَالْعِشْقِ وَغَيْرِهَا؛ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا أَخْبَارٌ تُرَوَّى وَتَقْصُّ لِلْحِكَايَةِ أَوْ الْعِبَرَةِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا أَخْبَارٌ هُمْ إِلَى أَعْصَابِ الْقُرَّاءِ.

وَدَقُّ الْجَرَسِ يَدْعُو أَبَا عَثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّحْرِيرِ..

صعاليكُ الصحافة...

٢

وغاب شيخنا أبو عثمانَ عندَ رئيسِ التحريرِ بعضَ ساعةٍ، ثمَّ رجعَ تدورُ عيناهُ في جِحاظَيهما وقد أَكْفَهَرَ وجهُهُ وعَبَسَ كأنَّما يجري فيه الدَّمُ الأسودُ لا الأحمرُ، وهو يكادُ ينشقُّ مِنَ الغَيْظِ، وبعضُهُ يَغْلِي في بعضِهِ كَأَلَماءِ على النارِ؛ فما جلسَ حتى جاءتْ ذبابتانِ فوقَعتا على كَتَفَيَّ أَنفِيه تَتِمَّانِ كَأَبَّةَ وجهِهِ المشوَّه، فكانَ منظرُهما من عَيْنِي السُّودِ اودَيْنِ الجاحِظَتَيْنِ منظرَ ذبابتَيْنِ وُلدَتا من ذبابتَيْنِ...

وتركَهُما الرجلُ لِشَأْنِهِمَا وسَكَتَ عنهما؛ فقلتُ لَهُ: يا أبا عثمانَ، هاتانِ ذبابتانِ، ويُقالُ إِنَّ الذُّبابَ يحملُ العدوى.

فضحكَ ضحكةَ المَغِيْظِ^(١) وقالَ: إِنَّ الذُّبابَ هنا يخرجُ مِنَ المِطْبَعَةِ لا مِنَ الطَّبِيعَةِ. فأكثرُ القولِ في هذهِ الجرائِدِ حشراتٌ مِنَ الألفاظِ: منها ما يُستَقْدَرُ وما تَنقَلِبُ لَهُ النفسُ، وما فيه العدوى، وما فيه الضررُ؛ وما بُدِّ أن يعتادَ الكاتبُ الصَّحافيُّ مِنَ الصَّبْرِ على بعضِ القولِ مثلَ ما يعتادُ الفقيرُ مِنَ الصَّبْرِ على بعضِ الحشراتِ في ثِيابِهِ؛ وقد يُريدُهُ صاحبُ الجريدةِ أو رئيسُ التحريرِ على أن يكتبَ كلاماً لو أعفاهُ منه وأرادَهُ على أن يجمعَ القَمْلَ والبراغيثَ من أهدامِ ألفقراءِ والصَّعاليكِ بِقَدْرِ ما يملأُ مقالةً. كانَ أخفُّ عليه وأهونَ، وكانَ ذلكَ أَصْرَحَ في معنى الطلبِ والتَّكليفِ.

وكيفما دارَ الأمرُ فَإِنَّ كثيراً مِنَ كلامِ الصَّحَفِ لو مَسَحَهُ اللَّهُ شيئاً غيرَ الحروفِ المِطْبَعِيَّةِ، لَطَارَ كُلُّهُ ذُبَاباً على وجوهِ القُرَّاءِ!

قلتُ: ولكنَّكَ يا أبا عثمانَ ذهبتَ مُتَطَلِّقاً إلى رئيسِ التحريرِ ورجعتَ متَعَفِّداً فما الَّذي أَتَكَرَّثَ منه؟

(١) المَغِيْظُ: الغاضِبُ.

قال: «لو كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَشْتَهِيهِ الْغَرِيرُ وَالْجَاهِلُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، لَبُطِلَ النَّظَرُ وَمَا يَشْحَذُ عَلَيْهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَلَتَعَطَّلَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْ مَعَانِيهَا وَالْعُقُولُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَلَعَدِمَتِ الْأَشْيَاءُ حُظُوظَهَا وَحُقُوقَهَا»، هناك رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَمْنُونِينَ بِالسِّيَاسَةِ فِي هَذَا الْبَلَدِ... يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ فِي الْحَوَادِثِ غَيْرَ مَعَانِيهَا، وَيَرْبِطَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ بِأَسْبَابٍ غَيْرِ أَسْبَابِهَا، وَيَخْرِجُ مِنْهَا نَتَائِجَ غَيْرِ نَتَائِجِهَا، وَيُلَفِّقُ لَهَا مِنَ الْمُنَطِقِ رُفْعاً كَهَذَا الرُّقْعِ فِي الثَّوْبِ الْمَفْتُوقِ؛ ثُمَّ لَا يَرْضَى إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِذَلِكَ رِذَاءً عَلَى جَمَاعَةٍ خُصُومِهِ وَهِيَ رِذْءٌ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمَاعَتِهِ، وَلَا يَرْضَى مَعَ الرِّذْءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَالْعَاصِيرِ تَدْفَعُ مِثْلَ تَيَارِ الْبَحْرِ فِي الْمُسْتَفْعِ الرَّاكِدِ.

ثُمَّ لَمْ يَجِدْ لَهَا رَئِيسَ التَّحْرِيرِ غَيْرَ عَمِّكَ أَبِي عَثْمَانَ فِي لُطَافَةِ جِسْمِهِ وَقُوَّةِ طَبْعِهِ وَحُسْنِ بَيَانِهِ وَأَقْتِدَارِهِ عَلَى الْمَعْنَى وَضِدِّهِ، كَأَنَّ أَبَا عَثْمَانَ لَيْسَ عِنْدَهُ مِمَّنْ يُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَا مِنْ الْمُمَيِّزِينَ فِي الْأُرَائِ، وَلَا مِنْ الْمُسْتَدْلِينَ بِالْأَدْلِيلِ، وَلَا مِنْ الْنَاطِرِينَ بِالْحُجَّةِ؛ وَكَأَنَّ أَبَا عَثْمَانَ هَذَا رَجُلٌ حُرُوفِيٌّ...

كحُرُوفِ الْمَطْبَعَةِ: تَرْفَعُ مِنْ طَبَقَةٍ وَتُوضَعُ فِي طَبَقَةٍ وَتَكُونُ عَلَى مَا شِئْتَ، وَأَدْنَى حَالَتِهَا أَنْ تَمُدَّ إِلَيْهَا الْيَدُ فَإِذَا هِيَ فِي يَدِكَ.

وَأَنَا أَمْرٌ سَبَدَ فِي نَفْسِي، وَأَنَا رَجُلٌ صَدَقَ، وَلَسْتُ كَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَتَأَمَّرُونَ^(١) وَلَا يَتَذَمَّرُونَ^(٢)؛ فَإِنْ خَضْتُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْتَفَضَ طَبْعِي وَضَعُفَتْ أَسْطَاعَتِي وَتَبَيَّنَ النِّقْصُ فِيمَا أَكْتُبُ، وَنَزَلْتُ فِي الْجَهْتَيْنِ؛ فَلَا يَطْرُدُ لِي الْقَوْلُ عَلَى مَا يَرْجُو، وَلَا يَسْتَوِي عَلَى مَا أُحِبُّ؛ فَذَهَبَتْ أُنَاقُضُهُ وَأَرُدُّ عَلَيْهِ؛ فَبُهِتَ بِنَظَرٍ إِلَيَّ وَيُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ فِي وَجْهِ، كَأَنَّ الْكَاتِبَ عِنْدَهُ خَادِمٌ رَأْيَهُ كَخَادِمِ مَطْبَخِهِ وَطَعَامِهِ، هَذَا مِنْ هَذَا!.

ثُمَّ قَالَ لِي: يَا أَبَا عَثْمَانَ، إِنِّي لَأَسْتَحِي أَنْ أَعْتَفَكَ؛ وَبِهَذَا الْقَوْلِ لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يُعْتَفَ أَبَا عَثْمَانَ... وَلِهَمْزُ - وَاللَّهِ - أَنْ أُنْشِدَهُ قَوْلَ عَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسٍ:

أَكْلَيْبُ. مَالِكُ كُلِّ يَوْمٍ ظَالِمًا وَالظُّلْمُ أَنْكَدُ وَجْهُهُ مَلْعُونٌ...
لَوْلَا أَنْ ذَكَرْتُ قَوْلَ الْآخِرِ:

وَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يُعْطِ سَمْعًا وَطَاعَةً وَبَيْنَ تَمِيمٍ غَيْرِ خَزٍّ الْغَلَاصِمِ

(١) يَتَأَمَّرُونَ: يَشْعُرُونَ بِالْإِثْمِ.

(٢) يَتَذَمَّرُونَ: يَشْعُرُونَ بِالذَّمِّ.

وحزُّ الغلاصم^(١) «وقطع الدراهم» من قافية واحدة... وقال سعيد بن أبي عروبة: «لأن يكونَ لي نصفُ وجهٍ ونصفُ لسانٍ على ما فيهما من قبح المنظرِ وعجزِ المخبر - أحبُّ إليَّ من أن أكونَ ذا وجهينِ وذا لسانينِ وذا قولينِ مختلفين». وقال أيوبُ السخيتاني.

وهم شيخنا أن يمرَّ في الحفظ والرواية على طريقته، فقلت: وقال رئيس التحرير...؟

فضحك وقال: أما رئيس التحرير فيقول: إنَّ الخلافةَ والمُواربةَ وتقليبَ المنطقِ هي كلُّ البلاغةِ في الصحافةِ الحديثة، ولهي كقلبِ الأعيانِ في معجزاتِ الأنبياء - صلواتُ الله عليهم -؛ فكما أنقلبَت العصا حيةً تسعى، وهي عصا وهي من الخشب، فكذلك تنقلبُ الحادثةُ في معجزاتِ الصحافةِ إذا تعاطاها الكاتبُ ألبيلغ بِالْفِطْنَةِ العجيبةِ والمنطقِ الملوّنِ والمعرفةِ بأساليبِ السياسةِ؛ فتكونُ لتهويل، وهي في ذاتها أطمثان، وللتهمةِ وهي في نفسها براءة، وللجنايةِ وهي في معناها سلامة: ولو نَفَخَ الصحفيُّ الحاذقُ في قبضةٍ مِنَ الترابِ لَاسْتَطَارَتْ منها أُنارٌ وارتفعَ لهبها الأحمرُ في دخانها الأسود. قال: وإنَّ هذا المنطقَ الملوّنَ في السياسةِ إنما هو إتيانُ الجيلةِ على أن يصدقَ الناسُ؛ فإنَّ العامةَ وأشباهَ العامةِ لا يصدقونَ الصدقَ لنفسه، ولكن للغرضِ الذي يُساقُ له، إذ كان مدارُ الأمرِ فيهم على الإيمانِ والتقدّيس، فأذقهم حلاوةَ الإيمانِ بالكذبِ فلن يعرفوه إلا صدقاً وفوق الصدق، وهم من ذاتِ أنفسهم يقيمونَ البراهينَ العجيبةَ ويساعدون بها مَنْ يكذبُ عليهم متى أحكمَ الكذب، ليحققوا لأنفسِهِم أنَّهم بحثوا ونظروا ودققوا...

ثم قال أبو عثمان: ومعنى هذا كُلُّهُ أن بعضَ دُورِ الصحافةِ لو كتبتَ عبارةً صريحةً للإعلانِ لكانتِ العبارةُ هكذا: سياسةٌ للبيع.

قلت: يا شيخنا، فإنَّك هنا عندهم ليتكتَّب كما يكتبون، ومقالاتُ السياسةِ الكاذبةِ كرسائلِ الحبِّ الكاذب: تُقرأ فيها معانٍ لا تُكتب، ويكونُ في عبارتها حياةٌ وفي ضميرها طلبٌ ما يُستحي منه... والحوادثُ عندهم على حسبِ الأوقات،

(١) الغلاصم، مفردة الغلصمة وهو اللحم بين الرأس والعنق، أو العُجرة على ملتقى أ. أ. المري، أو رأس الحلقوم.

فَالْأَبْيَضُ أَسْوَدُ فِي اللَّيْلِ، وَالْأَسْوَدُ أَبْيَضُ فِي النَّهَارِ؛ أَلَمْ تَرَ إِلَى فَلَانٍ كَيْفَ يَصْنَعُ
وَكَيْفَ لَا يُعْجِزُهُ بَرَهَانٌ وَكَيْفَ يُخْرِجُ الْمَعَانِي؟

قال: بلى، نَعَمْ الشَّاهِدُ هُوَ وَأَمثَالُهُ! . إِنَّهُمْ مُصَدِّقُونَ حَتَّى فِي تَارِيخِ حَفْرِ زَمْزَمَ .

قُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟

قال: شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ بَعْضِ الْقَضَاةِ عَلَى رَجُلٍ آخَرَ، فَأَرَادَ هَذَا أَنْ يَجْرِحَ
شَهَادَتَهُ، فَقَالَ لِلْقَاضِي: أَتَقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ رَجُلٌ يَمْلِكُ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَلَمْ يَحْجِ إِلَى
بَيْتِ اللَّهِ؟ فَقَالَ الشَّاهِدُ: بَلَى قَدْ حَجَجْتُ . قَالَ الْخَصْمُ: فَاسْأَلْهُ أَيُّهَا الْقَاضِي عَنْ
زَمْزَمَ كَيْفَ هِيَ؟ قَالَ الشَّاهِدُ: لَقَدْ حَجَجْتُ قَبْلَ أَنْ تُحْفَرَ زَمْزَمَ فَلَمْ أَرَهَا . . .

قَالَ أَبُو عَثْمَانَ: فَهَذِهِ هِيَ طَرِيقَةُ بَعْضِهِمْ فِيمَا يُزَكِّي بِهِ نَفْسَهُ: يَنْزِلُونَ إِلَى مِثْلِ
هَذَا الْمَعْنَى وَإِنْ أَرْتَفَعُوا عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ؛ إِذْ كَانَتْ الْحَيَاةُ السِّيَاسِيَّةُ جَدَلًا فِي
الصَّحَفِ لِنَفْيِ الْمُنْفَى وَإِثْبَاتِ الْمُثْبِتِ، لَا عَمَلًا يَعْمَلُونَهُ بِالْإِنْفِ وَالْإِثْبَاتِ؛ وَمَتَى
أَسْتَقَلَّتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَجَبَ تَغْيِيرُ هَذِهِ الصَّحَافَةِ وَإِكْرَاهُهَا عَلَى الصَّدَقِ، فَلَا يَكُونُ
الشَّأْنُ حِينَئِذٍ فِي إِطْلَاقِ الْكَلِمَةِ الصَّحَافِيَّةِ إِلَّا مِنْ مَعْنَاهَا الْوَاقِعِ .

رَأَيْتُ الْحَيَاةَ الْمُسْتَقْلَةَ ذَاتَ قَوَاعِدَ وَقَوَائِنَ دَقِيقَةٍ لَا يَتَرَخَّصُ^(١) فِيهَا مَا دَامَ أُسَاسُهَا
إِيجَادَ الْقُوَّةِ وَحِاطَةَ الْقُوَّةِ وَأَعْمَالَ الْقُوَّةِ، وَمَا دَامَتْ طَبِيعَتُهَا قَانِمَةً عَلَى جَعْلِ أَخْلَاقِ
الشَّعْبِ حَاكِمَةً لَا مُحْكَمَةً؛ وَقَدْ كَانَ الْعَمَلُ السِّيَاسِيُّ إِلَى الْآنِ هُوَ إِيجَادُ الضَّعْفِ
وَحِاطَةُ الضَّعْفِ وَبِقَاءُ الضَّعْفِ؛ فَكَانَتْ قَوَاعِدُنَا فِي الْحَيَاةِ مَغْلُوبَةً؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ
الْخُلُقُ الْقَوِيُّ الصَّحِيحُ هُوَ الشَّاذُّ النَّادِرُ يَظْهَرُ فِي الرَّجُلِ بَعْدَ الرَّجُلِ وَالْفَتْرَةُ بَعْدَ
الْفَتْرَةِ، وَذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ عِنْدَنَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُنَافِقِ أَكْثَرُ مِنَ الْحَزْ، وَمِنْ
الْكَذِبِ أَكْثَرُ مِنَ الصَّادِقِ، وَمِنْ الْمُمَارِي أَكْثَرُ مِنَ الصَّرِيحِ؛ فَلَا جَرَمَ أَرْتَفَعَتْ
أَلْقَابُ فَوْقَ حَقَائِقِهَا، وَصَارَتْ نَعَوْتُ الْمَنَاصِبِ وَكَلِمَاتُ بَاشَا وَبِكٍ مِنَ الْكَلَامِ
الْمُقَدَّسِ صَحَافِيًّا . . .

يَا لَعِبَادَ اللَّهِ! يَا بَنِيهِمْ أَسْمُ الْأَدِيبِ الْعَظِيمِ فَلَا يَجْدُونَ لَهُ مَوْضِعًا فِي «مَحَلِّاتِ
الْجَرِيدَةِ»؛ وَيَأْتِيهِمْ أَسْمُ الْبَاشَا أَوْ أَلْبِكٍ أَوْ صَاحِبِ الْمَنَصَبِ الْكَبِيرِ فِيمَاذَا تَشَرَّفُ
«الْمَحَلِّاتِ» إِلَّا بِهِ؟ وَهَذَا طَبِيعِي، وَلَكِنْ فِي طَبِيعَةِ الْتَفَاقٍ؛ وَهَذَا وَاجِبٌ، وَلَكِنْ
حِينَ يَكُونُ الْخُضُوعُ هُوَ الْوَاجِبُ؛ وَلَوْ أَنَّ لِلْأَدِيبِ وَزْنَ فِي مِيزَانِ الْأُمَّةِ لَكَانَ لَهُ مِثْلُ

(١) يَتَرَخَّصُ: يَتَسَاهَلُ .

ذلك في ميزانِ الصحافة؛ فأنت ترى أنَّ الصحافةَ هنا هي صورةٌ من عاميةِ الشعبِ ليسَ غير... ومَن ذا الَّذي يُصحِّحُ معنى الشرفِ العاملِ لهذه الأُمَّة وتاريخِها، وأكثر الألقابِ عندنا هي أغلاطٌ في معنى الشرف...؟

ثُمَّ ضحك أبو عثمانَ وقال: زعموا أنَّ ذبابةً وقعت في بارجة (أميرال) إنجليزِي أيامَ الحربِ العظمى؛ فرأت ألقائدَ العَظِيمِ وقد نشرَ بين يديه دُرجاً مِنَ الورقِ وهو يُخطِّطُ فيه رسماً من رسومِ الحزبِ؛ ونظرت فإذا هو يلقي النقطةَ بعدَ النقطةِ مِنَ المِدادِ ويقول: هذه مدينةٌ كذا، وهذا حِصْنُ كذا، وهذا مِيدَانُ كذا. قالوا: فسخرت منه الذبابةُ وقالت: ما أيسرَ هذا العملَ وما أخفُّ وما أهون! ثُمَّ وقعت على صفحةٍ بيضاءَ وجعلت تُلقي وتَيمِّها^(١) هنا وهناك تقول: هذه مدينةٌ، وهذا حصن... .

* * *

وَأَلْفَتَ الْجَاحِظُ كَأَنَّمَا تَوْهَمَ الْجَرَسَ يَدُقُّ. فلَمَّا لم يسمع شيئاً قال: لو أَنِّي أَصْدَرْتُ صَحِيفَةً يَوْمِيَّةً لَسَمَّيْتُهَا (الْكَاذِبِ)، فمهما أَكْذَبَ عَلَى النَّاسِ فَقَدْ صَدَقْتُ فِي الْأَسْمِ، ومهما أَخطِئْتُ فَلَنْ أَخطِئَ في وَضْعِ الْتَفَاقٍ تَحْتَ عَنَوَانِهِ. قال: ثُمَّ أَخْطُ تَحْتَ أَسْمِ الْجَرِيدَةِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ بِالْخَطِّ الْكَلْبِيِّ هَذَا نَصُّهَا: ما هي عِزَّةُ الْأَذْلَاءِ؟ هي الْكَذِبُ الْهَازِلُ. ما هي قُوَّةُ الضَّعَفَاءِ؟ هي الْكَذِبُ الْمَكَابِرُ. ما هي فَضِيلَةُ الْكَذَّابِينَ؟ هي آسْتِمْرَارُ الْكَذِبِ.

قال: ثُمَّ لَا يَحْرُزُ في جَرِيدَتِي إِلَّا «صَعَالِيكُ الصَّحَافَةِ» من أمثالِ الْجَاحِظِ؛ ثُمَّ أَكْذَبُ عَلَى أَهْلِ الْمَالِ فَأَمَجِّدُ الْفُقَرَاءَ الْعَامِلِينَ، وَعَلَى رِجَالِ الشَّرَفِ فَأَعْظُمُ الْعَمَالَ الْمَسَاكِينَ، وَعَلَى أَصْحَابِ الْأَلْقَابِ فَأَقْدِمُ الْأَدْبَاءَ وَالْمُؤَلِّفِينَ، ودُقُّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّحْرِيرِ..

* * *

(١) ونيم الذباب: هو ما تحلته من نقط سود على الآنية أو الزجاج وما شاكل.

صعاليكُ الصحافة

٣

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان في هذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير في عملٍ وأدائه، بل كان عند رئيس الشرطة في جنابة وعقابها؛ فظهر مُثْقَلِبُ السُّخْنَةِ انقلاباً دميماً شَوْءَ تشويهه وزاد فيه زيادات. ورأيناهُ ممطوطَ الوجهِ مطّاً شيعاً بدت فيه عيناهُ الجاحظتان كأنهما غيرُ مستقرتين في وجهه، بل معلقتان على جبهته...

وجعل يضربُ إحدى يديه بالأخرى ويقول: هذا بابٌ على جدّة في الامتحان والبلوى، وما فيه إلا المونة العظيمة والمشقة الشديدة؛ والعملُ في هذه الصحافة إنما هو امتحانك بالصبر على اثنين: على ضميرك، وعلى رئيس التحرير! «وسأل بعض أصحابنا أبا لقمانَ الممرورَ عن الجزء الذي لا يتجزأ ما هو؟ فقال: الجزء الذي لا يتجزأ عليّ بنُ أبي طالب - عليه السلام - فقال له أبو العيناء محمد: أفليس في الأرضِ جزءٌ لا يتجزأ غيره؟ قال: بلى، حمزةُ جزءٌ لا يتجزأ... قال: فما تقولُ في أبي بكرٍ وعمر؟ قال: أبو بكرٍ يتجزأ... قال: فما تقولُ في عثمان؟ قال: يتجزأ مرتين، والزُّبيرُ يتجزأ مرتين... قال: فأَيُّ شيءٍ تقولُ في معاوية؟ قال: لا يتجزأ.

«فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الأيام أجزاء لا تتجزأ إلى أي شيء ذهب؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ، هاله ذلك وكَبُرَ في صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة، وأن الشيء إذا عظم خطره سمّوه بالجزء الذي لا يتجزأ».

قلت: ورجع بنا القول إلى رئيس التحرير...

فضحك حتى أسفرَ وجهه^(١) ثم قال: إن رئيس التحرير قد تلقى الساعةَ أمراً

(١) أسفر وجهه: بان عن شيء.

بأنَّ الجزءَ الَّذي لا يتجزأَ اليومَ هو فلان؛ وأنَّ فلاناً الآخرَ يتجزأَ مرتين... وأنَّ المعنى الَّذي يبني عليه رأيُ الصحيفة في هذا النهارِ هو شأنُ كذا في عملِ كذا؛ وأنَّ هذا الخبرَ يجبُ أن يَصوَّرَ في صيغةِ ثلاثمِ جوعِ الشعبِ فتجعلُهُ كَالْخَبَرِ الَّذي يَطمَعُهُ كُلُّ النَّاسِ، وتُثيرُ لَهُ شهوةً في أَنفوسِ كَشهوةِ الأكلِ وطبيعةً كطبيعةِ الهضم... وقد رمى إليَّ رئيسُ التحريرِ بِجملةِ الخبرِ، وعليَّ أنا بعدَ ذلك أن أَضِرَّ^(١) النَّارَ وأنَّ أَجعلَ الترابَ دقيقاً أبيضَ يُعجنُ ويُخبزُ ويؤكلُ ويسوغُ في الحلقِ وتستمرُّهُ المَعِدَةُ ويسري في العروقِ.

وإذا أنا كُتِبْتُ في هذا آحتجْتُ مِنَ الترفيعِ والتَمويه، وَمِنَ التَّدليسِ^(٢) والتغليطِ، وَمِنَ الخَبِّ^(٣) والمكرِ، وَمِنَ الكَذِبِ والبُهتانِ - إلى مثلِ ما يحتاجُ إليه الزنديقُ^(٤) والدهرى^(٥) والمُعطلُ^(٦) في إقامةِ البرهاناتِ على صِحَّةِ مذهبٍ عَرَفَ النَّاسُ جميعاً أنَّه فاسدٌ بالضرورةِ إذْ كَانَ معلوماً مِنَ الدِّينِ بالضرورةِ، أنَّه فاسدٌ؛ وأينَ ترى إلَّا في تلكِ النُّحْلِ^(٧) وفي هذهِ الصحافةِ أن يُنكَرَ المتكلمُ وهو عارفٌ أنَّه مُنكَرٌ، وأنَّ يجترىءَ وهو مُوقِنٌ أنَّه مجترىءٌ، ويُكابِرُ وهو واثقٌ أنَّه يُكابِرُ؟ فقد ظَهَرَ تَقْدِيرُ من تَقْدِيرِ، وعَمَلٌ من عملٍ، ومذهبٌ من مذهبٍ؛ والآفةُ أَنَّهُمْ لا يستعملونَ في الإقناعِ وَالْجَدَلِ وَالْمُغالطةِ إلَّا الحقائقَ المَوْكُدةَ؛ يأخذونها إذا وَجَدَتْ ويصنعونها إن لَمْ تَوْجَدْ، إذْ كَانَ التَّأثيرُ لا يَتِمُّ إلَّا بجعلِ ألقاريءِ كَالْحَالِمِ: يملكُهُ الفِكْرُ ولا يملكُ هو منه شيئاً، ويُلقَى إليه ولا يمتنعُ، ويُعطى ولا يَرُدُّ على مَنْ أعطاه.

قُلْتُ: ولكنَّ ما هوَ الخبرُ الَّذي أَرادوك على أن تجعلَ من تَرايِهِ دقيقاً أبيضَ؟ قال: هو بَعيْنِهِ ذلكَ الشَّأنُ الَّذي كُتِبْتُ فيه لِهذهِ الصحيفةِ نَفسُها أنقَضَهُ وأَسَفَهُ وأرَدُّ عليه، وكانَ يومئذٍ جزءاً يتجزأ... فإنَّ صَنَعْتُ اليومَ بلاغتي في تَأْيِيدِهِ وتَزيِينِهِ وَالإشادةِ بِهِ، ولم يكنْ هذا كاسراً لِي، ولا حائلاً بَيني وبينَ ذاتِ نَفسِي -

(١) أضرم النار: أشعلها.

(٢) التدليس: هو كتمان عيب السلعة عن المشتري ومنه التدليس في الإسناد وهو أن يحدث عن الشيخ الأكبر ولعله ما رآه وإنما سمعه ممن هو دونه.

(٣) الخب: الخداع.

(٤) الزنديق: هو من كان يخفي ديناً ويظهر آخر عند الفرس.

(٥) الدهري: هو من يؤمن بإفناء الدهر للمخلوقات، ولا يؤمن بالله سبحانه وتعالى.

(٦) المعطل: هو من يؤمن بأن الله عز وجل غير فاعل في الكون، وأنه لا يسيره.

(٧) النحل: مفردة نحلة أي المذهب.

فلا أقل من أن يكونَ الجاحظُ تكذيباً للجاحظ، أو لو وُضِعَ الرديو في غرفِ رؤساءِ التحريرِ لسمعَ الناسُ . . .

قلتُ: يا أبا عثمان، هذا كقولك: لو وُضِعَ الرديو في غرفِ قوادِ الجيوشِ أو رؤساءِ الحكومات.

قال: ليس هذا من هذا، فإنَّ للجيشِ معنىَ غيرَ الحِذْقِ^(١) في تدبيرِ المعاشِ والتكسبِ وجمعِ المالِ؛ وفي أسرارِهِ أسرارُ قوَّةِ الأُمَّةِ وعملُ قوتِها؛ وللحكومةِ دخائلُ سياسيَّةٌ لا يُحرِّكُها أنَّ فلاناً ارتفعَ وأنَّ فلاناً أنخفضَ، ولا تُصرفُها العشرةُ أكثرَ من الخمسة؛ وفي أسرارِها أسرارُ وجودِ الأُمَّةِ ونظامِ وجودِها.

قال أبو عثمان: وإنَّما نزلَ بصحافتنا دونَ منزلِها أنَّها لا تجدُ الشعبَ القارىءَ المُمَيِّزَ الصحيحَ القراءةَ الصحيحَ التمييزَ، ثُمَّ هي تُريدُ أن تذهبَ أموالُها في إيجادِهِ وتنشِئِهِ؛ وعملُ الصحافةِ مِنَ الشعبِ عملُ التيارِ مِنَ السفنِ في تحريكِها وتيسيرِ مجراها، غيرَ أنَّ المضحكُ أنَّ تيارَنا مع سفينةٍ ويرجعُ مع سفينةٍ. ولو أنَّ الصحافةَ العربيَّةَ وجدتِ الشعبَ قارئاً مدركاً مميّزاً معتبراً مستبصراً لما رَمَتْ بنفسِها على الحكوماتِ والأحزابِ عجزاً وضعفاً وفسولةً، ولا خرجتْ عَنِ النَسَقِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي وُضِعَتْ لَهُ، فإنَّ الشعبَ تحكمُهُ الحكومةُ، وإنَّ الحكومةَ تحكمُها الصحافةُ، فهي مِنَ نَمِّ لِسَانِ الشعبِ؛ وإنَّما يقرؤها القارئُ ليرى كلمتهُ مكتوبةً؛ وشعورُ الفردِ أنَّ لَهُ حقاً في رقابةِ الحكومةِ وأَنَّهُ جزءٌ من حركةِ السياسةِ والاجتماعِ، هو الَّذي يوجبُ عليه أن يتأخَّرَ كلَّ يومٍ صحيفةَ اليومِ.

قال أبو عثمان: فالصحافةُ لا تقوى إلَّا حيثُ يكونُ كلُّ إنسانٍ قارئاً، وحيثُ يكونُ كلُّ قارئٍ للصحيفةِ كأنَّهُ مُحَرَّرٌ فيها، فهو مُشاركٌ في الرأيِ لأنَّهُ واحدٌ مِمَّنْ يدورُ عليهمُ الرأيُ، مُتَّبِعٌ لِلْحَوَادِثِ لأنَّهُ هو من ماديتها أو هي من ماديته، وهو لذلك يُريدُ مِنَ الصحيفَةِ حكايةَ الوقتِ ونفسِ الوقتِ، وأن تكونَ لَهُ كما يكونُ التَّفكيرُ الصحيحُ لِلْمفكرِ، فيلزِمُها الصدقُ ويطلبُ منها القوَّةَ ويلتمِسُ فيها الهدايةَ، وتأتي إليه في مطلعِ كلِّ يومٍ أو مغربِهِ كما يدخلُ إلى دارِهِ أحدُ أهلهِ الساكنينَ في دارِهِ.

وفي قِلَّةِ القُرَّاءِ عِنْدَنَا آفتان: أمَّا واحدةٌ فهي القِلَّةُ الَّتِي لا تُغني شيئاً؛ وأمَّا الأخرى فهُنَّ على قِلَّتِهِنَّ لا ترى أكبرَ شأنِهِنَّ إلَّا عبادةَ قومٍ لِقومٍ، وزرابةَ أناسٍ

(١) الحذق: المهارة.

بآخرين، وتعلقَ فِئاقٍ بِفِئاقٍ، وتصدقَ كَذِبٌ لِكَذِبٍ؛ وآفةٌ ثالثةٌ تخرجُ من اجتماعِ الاثنينِ: وهي أنْ أكثرَهُمْ لا يكونون في قِراءَتِهِمُ الصَّحِيفَةَ إِلَّا كَالنَّظَارَةِ اجْتَمَعُوا لِيَشْهَدُوا ما يَتْلَهُونَ بِهِ، أو كَالْفِرَاقِ يَلْتَمِسُونَ ما يَقْطَعُونَ بِهِ الْوَقْتَ؛ فهم يأخذونَ السِّياسَةَ مأخِذَ مَنْ لا يُشَارِكُ فِيهَا، ويتعاطونَ الْجِدَّ تعاطِي مَنْ يلهو بِهِ، ويتلقَّونَ الْأَعْمَالَ بِروحِ الْبَطَالَةِ، وَالْعِزَائِمَ بِأسلوبِ عَدَمِ الْمُبَالَاةِ، وَالْمُبَاحَثَةَ بِفِكْرَةِ الْإِهْمَالِ، وَالْمُعَارَضَةَ بِطَبِيعَةِ الْهَزْءِ وَالتَّحْقِيرِ؛ وهم كَالْمَصْلِينَ في الْمَسْجِدِ؛ فمثلُ لِنَفْسِكَ نوعاً مِنَ الْمَصْلِينَ إِذَا أَصْطَفَوْا وِراءَ الْإِمَامِ تَرْكُوهُ يُصَلِّي عن نَفْسِهِ وعَنَهُمْ وَأَنْصَرَفُوا...

قال أبو عثمان: بهذا ونحوه جاءتِ الصُّحُفُ عِنْدَنَا وأكثَرُها لا ثباتَ لَهُ إِلَّا في الْمَوْضِعِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ بَيْنَ مَنْفَعَةٍ وَوَسَائِلِ مَنْفَعَةٍ؛ ومن هذا ونحوه كانَ أقوى الْمَادَةِ عِنْدَنَا أنْ تَظْهَرَ الصَّحِيفَةُ مملوءةً حُكُومَةً وَسُلْطَةً وَبِاشَوَاتٍ وَبِيكُواتٍ... وكانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أنْ محلَّ أَلْبَاشِ وَأَلْبِكٍ وَالْحَوَادِثِ الْحُكُومِيَّةِ التَّفْهَةِ لا يَكُونُ مِنَ الْجَرِيدَةِ إِلَّا في مَوْضِعِ قَلْبِ الْحَيِّ مِنَ الْحَيِّ.

ثمَّ اسْتَضْحَكَ شَيْخُنَا وقال: لَقَدْ كَتَبْتُ ذَاتَ يَوْمٍ مَقَالََةً اقْتَرَحُ فِيهَا على الْحُكُومَةِ تَصْحِيحَ هَذِهِ الْأَلْقَابِ، وَذلكَ بِوَضْعِ لَقَبٍ جَدِيدٍ يَكُونُ هُوَ الْمَفْسُورَ لِجَمِيعِهَا وَيَكُونُ هُوَ أَلْقَبُ الْأَكْبَرِ فِيهَا، فَإِذَا أَنْعَمَ بِهِ على إِنْسَانٍ كَتَبْتُ الصُّحُفَ هَكَذَا: أَنْعَمَتِ الْحُكُومَةُ على فُلانٍ بِلقَبٍ (ذو مال).

ودُقِّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إلى رَئِيسِ التَّحْرِيرِ..

فلم يلبثْ إِلَّا يَسيراً ثُمَّ عَادَ مَتَهَلِّلاً ضاحِكاً وَقَدْ طابَتْ نَفْسُهُ فليسَ لَهُ جَحَوظُ الْعَيْنَيْنِ إِلَّا بِالْقَدْرِ الطَّبِيعِيِّ، وَجَلَسَ إِلَيَّ وَهُوَ يَقُولُ:

بيدَ أنْ رَئِيسَ التَّحْرِيرِ لم يَنْشُرْ ذلكَ الْمَقَالَ، وَلَمْ يَرَفِهِ اسْتِطْرَافاً^(١) وَلَا ابْتِكاراً وَلَا نُكْتَةً وَلَا حُجَّةً صَادِقَةً، بَلْ قال: كَأَنَّكَ يا أَبَا عُثْمَانَ تُرِيدُ أنْ يَأْكَلَ عَدُوُّ الْيَوْمِ عَدُوَّ الْغَدِ، فَإِذَا نحنُ زَهِدُنا في الْأَلْقَابِ وَأَصْغَرُنا أَمْرَها وَتَهَكَّمُنا بِها وَقُلْنَا إِنَّها أَفْسَدَتْ مَعْنَى التَّقْدِيرِ الْإِنْسَانِي وَتَرَكَتْ مَنْ لَمْ يَتْلُها مِنْ ذَوِي الْجَبَابِ وَالْغِنَى يَرى نَفْسَهُ إلى جَانِبِ مَنْ نالَها كَالْمَرْأَةِ الْمُطْلَقَةِ بِجَانِبِ الْمُتَزَوِّجَةِ... وَقُلْنَا إِنَّها مِنْ ذلكَ تَكادُ تَكُونُ وَسِيلَةً مِنْ وَسائِلِ الدَّفْعِ إلى التَّمَلُّقِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّفْاقِ لِمَنْ يَبْذِيهِمُ الْأَمْرَ، أو

(١) اسْتِطْرَافاً: جِدَّةً.

وسيلة إلى ما هو أخطأ من ذلك كما كان شأنها في عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان الوسام كالأرقة من جلد الدولة يُرفع بها الصدر الذي شقوه وآتزعوا ضميره - إذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا، لم نجد الشعب الذي يحكم لنا، ووجدنا ذوي المال والجاه والمناصب الذين يحكمون علينا؛ فكنا كمن يتقدم في التهمة بغير محام إلى قاضٍ ضعيف.

يا أبا عثمان، إنما هي حياة ثلاثة أشياء: الصحيفة، ثم الصحيفة، ثم الحقيقة... فالفكرة الأولى للصحيفة، والفكرة الثانية هي للصحيفة أيضاً؛ ومتى جاء الشعب الذي يقول: لا، بل هي الحقيقة، ثم الحقيقة، ثم الصحيفة - فيومئذ لا يقال في الصحافة ما قيل لليهود في كتاب موسى ﴿تَجَلَّوْهُ وَاطَّيَسْ بُدُونَهَا وَتُخْفَوْنَ كَثِيرًا﴾.

قلت: أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير في هذه المرة، فشق عليك ألا تتلبه، فغمزته بالكلام عن مرة سالفة.

قال: أما هذه المرة فأنا الرئيس لا هو، وفي مثل هذا لا يكون عمك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة)؛ إن الرجل أشتبه في كلمة: ما وجهها: أمروعة هي أم منصوبة؟ وفي لفظة: ما هي: أعربية أم مولدة؟ وفي تعبير أعجمي: ما الذي يؤديه من العربية الصحيحة؟ وفي جملة: أهي في نسقها أفصح أم يُبدلها؟ إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئاً إلا إذا نطق.

ولقد أبطلت هذه الأثرة في عهدها الأخير بحب السهولة مما أثر فيها لاحتلال وسياسته وتحمله الأعباء عنها وأستهدافه دونها للخطر، فشبه العامية في لغة الصحف وفي أخبارها وفي طريقها إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة، وكأنه تبيت للضعف والخور^(١)، وأنت خبير أن كل شيء يتحول بما تحدث له طبيعته عالياً أو نازلاً، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى نصف العامية في كتابة أكثر المجلات وفي رسائل طلبة المدارس، حتى لتبدو المقالة في ألفاظها ومعانيها كأنها ألقنفت أراد أن يحمل مأكلة صغاره، فقرض عنقوداً من العنب، فالتقاء في الأرض وأتربه وتمرع فيه، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة في عشرين إبرة من شوكه.

(١) الخور: الضعف.

ثُمَّ مَدَّ أَبُو عَثْمَانَ يَدَهُ فَنَتَاوَلَ مَجْلَّةً مِمَّا أَمَامَهُ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَيْهَا اتَّفَاقًا ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ: اقْرَأْ وَلَا تَجَاوِزْ عُنْوَانَ كُلِّ مَقَالَةٍ. فَقَرَأْتُ هَذِهِ الْعُنَاوِينَ:

«مَسْؤُولِيَّةُ طَبِيبٍ عَنْ فِتَاةٍ عِذْرَاءٍ»، «مُودَةُ الرَّاغِبَاتِ الصَّيْنِيَّاتِ»، «تَخَرُّ مَغْشِيًا عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ اكْتَشَفُوا صُورَةَ حَبِيبِهَا»، «هَلْ يُعْتَبَرُ قَبُولُ الْهَدِيَّةِ دَلِيلًا عَلَى الْحُبِّ، وَإِذَا كَانَتْ مَلَابِسُ دَاخِلِيَّةٍ... فَهَلْ تُعْتَبَرُ وَعَدًا بِالزَّوْاجِ؟»، «هَلْ يَجُوزُ لِلْأَبِّ أَنْ يُطَالِبَ صَدِيقَ ابْنَتِهِ. بِتَعْوِضٍ إِذَا كَانَتْ ابْنَتُهُ غَيْرَ شَرِيعَةٍ»، «بَيْنَ خَطِيبَتَيْنِ لِشَابٍّ وَاحِدٍ»، «بَعْدَ أَنْ قُصَّ عَلَى زَوْجَتِهِ أَخْبَارُ الْمَسْهَرَةِ. لِمَاذَا أُطْلِقَتْ عَلَيْهِ الرِّصَاصُ؟»، «عَرُوسٌ تَأْخُذُ (شَبَكَةً) مِنْ شَابِيبٍ ثُمَّ تَطْرُدُهُمَا»، «زَوْجَةٌ الْمَوْظُفِّ أَيْنَ ذَهَبَتْ؟»، «لِمَاذَا خُطِفَتِ الْعَرُوسُ فِي الْيَوْمِ الْمَحْدُودِ لِلزَّفَافِ؟» (فِي الطَّرِيقِ: حُبٌّ بِالْإِكْرَاهِ)، «فَلَانُونَ وَفَلَانَاتُ، زَوَاجٌ وَطَلَاقٌ، وَأَخْبَارُ الْمَرَاقِصِ، وَحَوَادِثُ أَمَاكِنِ الدَّعَارَةِ» إلخ إلخ.

فَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ: هَذِهِ هِيَ حُرِّيَّةُ النَّشْرِ؛ وَلَئِنْ كَانَ هَذَا طَبِيعِيًّا فِي قَانُونِ الصَّحَافَةِ إِنَّهُ لَإِثْمٌ كَبِيرٌ فِي قَانُونِ التَّرْبِيَةِ؛ فَإِنَّ الْأَحْدَاثَ وَالْضَعْفَاءَ يَجْدُونَهُ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَالْتَخْيِيرِ بَيْنَ الْأَخْذِ بِالزَّوْاجِ وَبَيْنَ تَرْكِهِ، وَلَا يَفْهَمُونَ مِنْ جَوَازِ نَشْرِهِ إِلَّا هَذَا. «وَبَابٌ آخَرٌ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ فِيكُمْ أَعْظَمُ حَاجَةٍ إِلَى أَنْ تَعْرِفُوهُ وَتَقْفُوهُ عِنْدَهُ، وَهُوَ مَا يَصْنَعُ الْخَبَرُ وَلَا سِيَّمًا إِذَا صَادَفَ مِنَ السَّمَاعِ قَلَّةٌ تَجْرِبَةٌ، فَإِنَّ قَرْنَ بَيْنَ قَلَّةِ التَّجَرِبَةِ وَقَلَّةِ التَّحْفِظِ - دَخَلَ ذَلِكَ الْخَبَرُ إِلَى مُسْتَقَرِّهِ مِنَ الْقَلْبِ دُخُولًا سَهْلًا، وَصَادَفَ مَوْضِعًا وَطِيبًا وَطَبِيعَةً قَابِلَةً وَنَفْسًا سَاكِنَةً، وَنَتَى صَادَفَ الْقَلْبَ كَذَلِكَ رَسَخَ رُسُوخًا لَا حِيلَةَ فِي إِزَالَتِهِ.

وَمَتَى أُلْقِيَ إِلَى الْفَتَيَانِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الْفَتَيَاتِ فِي وَقْتِ الْغَرَارَةِ وَعِنْدَ غَلَبَةِ الطَّبِيعَةِ وَشَبَابِ الشَّهْوَةِ وَقَلَّةِ التَّشَاغُلِ وَ...».

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عَثْمَانَ إِلَى رَأْسِ التَّحْرِيرِ..

صعاليك الصحافة

تنمة

وجاء أبو عثمان وفي بُروزِ عينيه ما يجعلُهُما في وجهه شيئاً كعلامتي تعجب
ألفئهما الطبيعة في هذا الوجه، وقد كانوا يُلَقَّبُونَهُ (الحدّقي) فوق تلقيبه بِالْجَاحِظِ،
كَأَنَّ لِقَباً واحداً لا يُبَيِّنُ عن قبح هذا التَنَوُّي في عينيه إلّا بِمرادفٍ ومُساعدٍ مِنَ
اللغة... وما تَدَكَّرْتُ أَلَلِّقِينَ إلّا حينَ رَأَيْتُ عينيه هذه المَرَّةَ.

وَأَنحَطُّ في مجلسِهِ كأَنَّ بعضَهُ يرمي بعضَهُ من سَخِطٍ وَغِيظٍ، أو كَأَنَّ من
جَسَمِهِ ما لا يُريدُ أَنْ يَكُونَ من هذا أَلْخَلْقِ أَلْمَشْوَةِ، ثُمَّ نَصَبَ وَجْهَهُ يَتَأَمَّلُ، فَبَدَتْ
عَيْنَاهُ في خُرُوجِهما كأَنَّمَا تَهْمَانِ بِالْفَرَارِ من هذا أَلْوَجْهِ أَلَّذِي تحيا أَلْكَابَةُ فِيهِ كما
يحيا أَلَهُمُ في أَلْقَلْبِ؛ ثُمَّ سَكَتَ عَنِ أَلْكَلامِ لِأَنَّ أَفْكَارَهُ كانت تَكَلِّمُهُ.

فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ أَلَصَمْتَ وَقُلْتُ: يا أبا عثمان، رجعتَ من عِنْدِ رَئِيسِ أَلتَحْرِيرِ
زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً؛ فما هو - يَرَحِمُكَ اللهُ -؟

قال: رجعتُ زائداً أَنِّي ناقص، وَهَنا شيءٌ لا أَقولُهُ ولو أَنَّ في أَلْأَرْضِ
ملائكةَ يمشونَ مطمئنِّينَ لوقفوا على عَمَلِكَ وَأَمثالِ عَمَلِكَ من كُتَّابِ أَلْصَحَفِ
يتعجبونَ لِهَذَا أَلنوعِ أَلْجَدِيدِ مِنَ أَلشَّهَداءِ!

وقالَ أِبْنُ يَحْيَى أَلْنَدِيم: دعاني أَلْمَتَوَكَّلُ ذاتَ يومٍ وَهو مَخْمُورٌ فقال: أَنشدني
قولَ عَمارةَ في أَهلِ بَغدادَ. فَأَنشدتهُ:

| | |
|---|--|
| وَمَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مَلُوكَ مَحَرَّمٍ | أَبِغِ حَسَناً وَأَبْنِي هِشامَ بِدِرْهَمٍ |
| وَأُعْطِ «رِجاءَ» بَغدَ ذاكَ زِيادةً | وَأَمْنَحُ «دِيناراً» بِغَيْرِ تَنْدُمٍ |

قال أبو عثمان:

فإنَّ طَلَبُوا مِنِّي أَلزِيادةَ زِدْتُهُمُ أبا دُلْفٍ وَأَلْمَسْتَطِيلَ بَنَ أَكْشَمِ
ويلي على هذا أَلشَّاعِرُ! أَتَنانَ بِدِرْهَمٍ، وَأَتَنانَ زِيادةَ فَوْقَهُما لِعَظَمِ أَلدِرْهَمِ،

وَأَتَانِي زِيَادَةٌ عَلَى الزِّيَادَةِ لِجَلَالَةِ الدَّرْهِمِ : كَأَنَّهُ رَئِيسُ تَحْرِيرِ جَرِيدَةٍ يَرَى الدُّنْيَا قَدْ مَلِئَتْ كُتَّابًا ، وَلَكِنْ هُنَا شَيْئًا لَا أَقُولُهُ .

وَزَعَمُوا أَنَّ كَسْرِي أَبْرُويزَ كَانَ فِي مَنْزِلِ أَمْرَاتِهِ شِيرِينَ ، فَأَتَاهُ صِيَادٌ بِسَمَكَةٍ عَظِيمَةٍ ، فَأَعْجَبَ بِهَا وَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دَرْهِمٍ ، فَقَالَتْ لَهُ شِيرِينَ : أَمَرْتَ لِلصِّيَادِ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دَرْهِمٍ ، فَإِنْ أَمَرْتَ بِهَا لِرَجُلٍ مِنَ الْوُجُوهِ قَالَ : إِنَّمَا أَمَرَ لِي بِمِثْلِ مَا أَمَرَ لِلصِّيَادِ ! فَقَالَ كَسْرِي : كَيْفَ أَصْنَعُ وَقَدْ أَمَرْتُ لَهُ ؟

قَالَتْ : إِذَا أَتَاكَ فَقُلْ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنِ السَّمَكَةِ ، أَذْكَرُ هِيَ أَمْ أُنْثَى ؟ فَإِنْ قَالَ أُنْثَى ، فَقُلْ لَهُ : لَا تَقْعُ عَيْنِي عَلَيْكَ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِقَرِينِهَا ، وَإِنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقُلْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ .

فَلَمَّا غَدَا الصِّيَادُ عَلَى الْمَلِكِ قَالَ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنِ السَّمَكَةِ ، أَذْكَرُ هِيَ أَمْ أُنْثَى ؟ قَالَ : بَلِ أُنْثَى ، قَالَ الْمَلِكُ : فَأْتِيَنِي بِقَرِينِهَا . فَقَالَ الصِّيَادُ : عَمَرَ أَلَّهُ الْمَلِكُ ، إِنَّهَا كَانَتْ بِكَرًّا لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ .

قُلْتُ : يَا أَبَا عِثْمَانَ ، فَهَلْ وَقَعْتَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَعْضَلَةِ مَعَ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ ؟ قَالَ : لَمْ يَنْفَعْ عَمَّكَ أَنَّ سَمَكَتَهُ كَانَتْ بِكَرًّا ، فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ إِخْرَاجَهُ مِنَ الْجَرِيدَةِ ؛ وَمَا بِلَاغَةُ أَبِي عِثْمَانَ الْجَاحِظِ بِجَانِبِ بِلَاغَةِ التَّلْغَرِافِ وَبِلَاغَةِ الْخَبَرِ وَبِلَاغَةِ الْأَرْقَامِ وَبِلَاغَةِ الْأَصْفَرِ وَبِلَاغَةِ الْأَبْيَضِ . وَلَكِنْ هُنَا شَيْئًا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ .

وَسَمَكَتِي هَذِهِ كَانَتْ مَقَالَةً جَوِّذَتْهَا وَأَحْكَمْتُهَا وَبَلَّغْتُ بِالْفَاطِظِهَا وَمَعَانِيهَا أَعْلَى مَنَازِلِ الشَّرَفِ وَأَسْنَى^(١) رُتَبِ الْبَيَانِ ، وَجَعَلْتُهَا فِي أَلْبَاغَةِ طَبَقَةٍ وَحَدَّهَا ، وَقَبْلَ أَنْ يَقُولَ الْأَوْرَبِيُّونَ (صَاحِبَةُ الْجَلَالَةِ الصَّحَافَةِ) قَالَ الْمَأْمُونُ : «الْكِتَابُ مَلُوكٌ عَلَى النَّاسِ» ، فَأَرَادَ عَمَّكَ أَبُو عِثْمَانَ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مَلَكًا بِثَلَاثَةِ الْمَقَالَةِ فَإِذَا هُوَ بِهَا مِنْ (صَعَالِيكِ الصَّحَافَةِ) .

لَقَدْ كَانَتْ كَأَلْعُرُوسٍ فِي زِينَتِهَا لَيْلَةَ الْجَلْوَةِ عَلَى مُجِبِّهَا ، مَا هِيَ إِلَّا الشَّمْسُ الضَّاحِيَةُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَشْوَاقٌ وَلَذَّاتٌ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَكْتِشَافُ أَسْرَارِ الْحُبِّ ، وَمَا هِيَ إِلَّا هِيَ ؛ فَإِذَا الْعُرُوسُ عِنْدَ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ هِيَ الْمَطْلُوقَةُ ، وَإِذَا الْمُعْجَبُ هُوَ الْمَضْجَكُ ، وَيَقُولُ الرَّجُلُ أَمَّا نَظَرِيًّا فَتَعَمُّ ، وَأَمَّا عَمَلِيًّا فَلَا ؛ وَهَذَا عَصْرٌ خَفِيفٌ

(١) أسنى : أرفع .

يُرِيدُ الْخَفِيفَ، وَزَمَنَ عَامِيٌّ يُرِيدُ الْعَامِيَّ، وَجَمْهُورٌ سَهْلٌ يُرِيدُ السَّهْلَ؛ وَالْفَصَاحَةُ هِيَ إِعْرَابُ الْكَلَامِ لَا سِيَاسَتُهُ بِقَوَى أَلْبَانٍ وَأَلْفِكْرٍ وَاللُّغَةُ، فَهِيَ الْيَوْمَ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَنُونِهَا وَاسْتَقَرَّتْ فِي عِلْمِ النُّحُو.

وَحَسْبُكَ مِنَ الْفَرَقِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَارِئِ الْعَامِي: أَنَّكَ أَنْتَ لَا تَلْحُنُ وَهُوَ يَلْحَنُ.

قال أبو عثمان: وهذه - أكرمك الله - منزلة يقل فيها الخاصي ويكثر العامي فَيُوشِكُ أَلَّا يَكُونَ بَعْدَهَا إِلَّا غَلْبَةُ الْعَامِيَّةِ، وَيَرْجِعُ الْكَلَامُ الْأَصْحَافِي كُلُّهُ سَوْفِيًا بَلَدِيًا (حَنَشِيصًا)، وَيَنْقَلِبُ النُّحُو نَفْسُهُ وَمَا هُوَ إِلَّا التَّكَلُّفُ وَالتَّوَعُّرُ وَالتَّقَعُّرُ^(١) كَمَا يَزُونُ الْآنَ فِي الْفَصَاحَةِ، وَالْقَلِيلُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ يَنْتَهِي إِلَى الْأَقْلِ؛ وَالْأَقْلُ يَنْتَهِي إِلَى الْعَدَمِ، وَالْأَنْحِدَاذُ سَرِيعٌ يَبْدَأُ بِالْخَطْوَةِ الْوَاحِدَةِ، ثُمَّ لَا تَمْلِكُ بَعْدَهَا الْخَطَى الْكَثِيرَةَ.

لَا جَرَمَ فَسَدَ الذُّوقُ وَفَسَدَ الْأَدَبُ وَفَسَدَتْ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ كَانَتْ كُلُّهَا صَالِحَةً، وَجَاءَتْ فَنُونٌ مِنَ الْكِتَابَةِ مَا هِيَ إِلَّا طَبَائِعُ كُتَّابِهَا تَعْمَلُ فِيمَنْ يَقْرُؤُهَا عَمَلُ الطَّبَاعِ الْحَيَّةِ فِيمَنْ يُخَالِطُهَا، وَلَوْ كَانَ فِي قَانُونِ الدُّوَلَةِ تَهْمَةٌ إِفْسَادِ الْأَدَبِ أَوْ إِفْسَادِ اللُّغَةِ، لَقُبِضَ عَلَى كَثِيرِينَ لَا يَكْتُبُونَ إِلَّا صِنَاعَةً لَهُوَ وَمَسَلَّةٌ فَرَاغٌ^(٢) وَفَسَادٌ وَإِفْسَادٌ؛ وَالْمُصِيبَةُ فِي هَؤُلَاءِ مَا يَزَعُمُونَ لَكَ مِنْ أَنَّهُمْ يَسْتَنْشِطُونَ الْقِرَاءَةَ وَيُلْهَوْنَهُمْ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَعْمَلُ فِي هَذِهِ النُّهْضَةِ لِمُعَالَجَةِ أَلْهَوِ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ وَجُودِنَا السِّيَاسِيَّ عَدَمًا؛ ثُمَّ لِمَلِّ الْفَرَاغِ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ حَيَاتِنَا الْأَجْتِمَاعِيَّةِ بَطَالَةً؛ وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا جَعَلَ عَمَكَ أَبَا عَثْمَانَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ مِنْ (صَعَالِيكَ الصَّحَافَةِ)، وَتَرْكُهُ فِي الْمَقَابِلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ الْكُتَّابِ كَانَهُ فِي أَمْسٍ وَكَأَنَّهُمْ فِي غَدٍ.

وَدُقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عَثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّحْرِيرِ.

فَمَا شَكَّكَتُ أَنَّهُمْ سَيَطْرُدُونَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْزُقْهُ لِسَانًا مُطْبَعِيًّا ثَرَارًا يَكُونُ كَالْمُتَّصِلِ مِنْ دِمَاغِهِ بِصَنْدُوقِ حُرُوفٍ... وَلَمْ يَجْعَلْهُ كَهَؤُلَاءِ السِّيَاسِيِّينَ الَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ التَّفَاقُ وَيَتَلَوْنَ، وَلَا كَهَؤُلَاءِ الْأَدْبَاءِ الَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ التَّضْلِيلُ وَيَتَشَكَّلُ.

وَرَجَعَ شَيْخُنَا كَالْمَخْنُوقِ أَرْخِي عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ: وَيَلِي عَلَى الرَّجُلِ! وَيَلِي مِنَ الْكَلَامِ الظَّرِيفِ الَّذِي يُقَالُ فِي الْوَجْهِ لِيُدْفَعَ فِي الْقَفَا... كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا يَمْلِكَ هَذِهِ الصَّحَافَةُ الْيَوْمِيَّةُ إِلَّا مَجَالِسُ الْأُمَّةِ؛ فَذَلِكَ هُوَ إِصْلَاحُ الْأُمَّةِ وَالصَّحَافَةُ وَالْكَتَّابُ

(٢) مسلاة فراغ: مضية الوقت.

(١) التوعر والتقعر: وحشي الكلام.

جميعاً؛ أما في هذه الصحف، فالكاتب يخبز عيشه على نارٍ تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه؛ ولو أن عمك في خفضٍ ورفاهيةٍ وسعةٍ، لكان في استغنائه عنهم حاجتهم إليه؛ ولكن السيف الذي لا يجد عملاً للبطل، تفضله الأبرة التي تعمل للخياط، وماذا يملك عمك أبو عثمان؟ يملك ما لا ينزل عنه بدول الملوك، ولا بالدنيا كلها، ولا بالشمس والقمر؛ إذ يملك عقله وبيانه، على أنه مستأجر هنا بعقله وبيانه، يعقل ما شاءوا ويكتب ما شاءوا.

لك الله أن أصدقك القول في هذه الحرفة اليومية: إن الكاتب حين يخرج من صحيفة إلى صحيفة، تخرج كتابته من دين إلى دين.

ورأيت شيخنا كأنما وضع له رئيس التحرير مثل أبارود في دماغه ثم أشعلته، فأردت أن أمارحه وأسري عنه، فقلت: اسمع يا أبا عثمان، جاءني بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة، وقد كتب في عرض دعواه أن جاري بيته غصبه^(١) قطعة من أرض فنائيه الذي تركه حول البيت، وبني في هذه الرقعة داراً، وفتح لهذه الدار نافذات، فهو يريد من القاضي أن يحكم برذ الأرض المغصوبة، وهدم هذه الدار المبنية فوقها، ... و... وسد نافذاتها المفتوحة!..

فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه بيده وقال: هذا أدب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب في الصحف؛ كثرت الفاظه ونقص عقله، «وسئل بعض الحكماء: متى يكون الأدب شراً من عدمه؟ قال: إذا كثر الأدب ونقصت القريحة. وقد قال بعض الأولين: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حقه^(٢) في أغلب خصال الخير عليه؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض» والأدب وحده هو المتروك في هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه؛ إذ كان أرخص ما فيها، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب، ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ، وصفحة الأدب وحدها هي التي تظهر في الجريدة اليومية كبقعة الصدأ على الحديد: تأكل منه ولا تعطيه شيئاً.

ثم يأتي من تترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتاً من نعوت العبقريّة إلا نحله^(٣)

(١) غصبه: استحوذ رغماً عنه على ما يريد منه.

(٢) حقه: موته.

(٣) نحله: نسبه إليه.

نفسه ووضعته تحت ثيابه؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم، وتلقيق الكلام من أعراض الكتب وحواشي الأخبار.

وقد يكون الرجل في كتابته كالعامة، فإذا عيّنهُ بالركاكة والسخف والابتذال وفراغ ما يكتب، قال: هذا ما يلائم القراء، وقد يكون من أكذب الناس فيما يدعي لنفسه وما يهول به لتقوية شأنه وإصغار من عداه، فإذا كذبه من يعرفه قال: هذا ما يلائمني، وهو واثق أنه في نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعوى كما تملأ الساعة، فإذا هم جميعاً يقولون: تك .. تك .. تك ..

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمغرب، كله سواء وكله بياناً وكان المكي طيب الحُجج، ظريف الحُجَل، عجيب العِلل، وكان يدعي كل شيء على غاية الأحكام^(١) ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق؛ وإذا قد جرى ذكره فسادتْك ببعض أحاديثه، قلت له مرة: أعلمت أن الشاري حدّثني أن المخلوع (أي الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم، كأنه مُخبره أن عنده من الجنيد بعدد ذلك، وأن المأمون بعث له بديك أعور، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلفظ الديك الحب؟

قال: فإن هذا الحديث أنا ولدتُه، ولكن أنظر كيف سار في الآفاق. ثم قال أبو عثمان: وقد زعم أحد أدبايكم أنه اكتشف في تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون، فنظر عمك في هذا الذي أدعاه، فإذا الرجل على التحقيق كالذي يزعم أنه اكتشف أمريكا في كتاب من كتب الجغرافيا. . .

وما يزال أبلهَاء يُصدّقون الكلام المنشور في الصحف، لا بأنه صدق، ولكن بأنه «مكتوب في الجريدة». فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب - متى كان مغروراً - أنه إذا تهدّد إنساناً فما هدّده بصفحته، بل بحكومته.

نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة؛ ولكن ويحك: إن ثلاث دُبابات ليست ثلاث قطع من أسطول إنجلترا!!

ضحك أبو عثمان وضحكت! فاستيقظت.

(١) الإحكام: الاتقان.

أبو حنيفة ولكن بغير فقه!

قد أنهينا في الأدب إلى نهاية صحافية عجيبة، فأصبح كل من يكتب يُنشر له، وكل من يُنشر له يُعدُّ نفسه أديباً، وكل من عدَّ نفسه أديباً جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول في مذهبه ويردُّ على مذهب غيره.

فعندنا اليوم كلمات ضخمة تدور في الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها، يتعلَّق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة، منها قولهم: أدب الشيوخ وأدب الشباب؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب، وأدب الألفاظ وأدب الحياة، والجمود والتحول، والقديم والجديد، ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه، والشافعي ولكن بغير اجتهاد، ومالكاً ولكن بغير رواية، وأبن حنبل ولكن بغير حديث؛ أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه ردُّ عليها.

وليس يكون الأدب أديباً إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرِّفه النوايح من أهله حتى يُورِّخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان، إذ لا يجري الأمر فيما علا وتوسَّط ونزل إلا على إبداع غير تقليد، وتقليد غير اتباع، واتباع غير تسليم؛ فلا بدَّ من الرأي ونبوغ الرأي واستقلال الرأي حتى يكون في الكتابة إنسان جالس هو كاتبها، كما أن الحيَّ الجالس في كل حي هو مجموعة الأعصاب، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول في الوجود الإنساني يرجع بالحياة إلى ذرات معانيها، ثم يرسُم من هذه المعاني مثل ما أبدعت ذرات الخليفة في تركيب من تركيب، فلا يكون للأديب تعريف إلا أنه المُقلِّد الإلهي.

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربي في عصرنا أو ينتهي؛ وهل نراه يعلو أو ينزل؛ وهل يستجمع أو ينقض، وهل هو من قديم الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو في مكان بينهما؟

هذه معانٍ لو ذهبتُ أفضلُها لأقتنحتُ تاريخاً طويلاً أمرٌ فيه بِعِظامٍ مبعثرةٍ في ثيابها لا في قُبورها. . . ولكنِّي موجِزٌ مقتصرٌ على معنَى هو جمهورُ هذه الأطرافِ كُلِّها، وإليه وحدهُ يرجعُ ما نحن فيه مِن التَّعادي بينَ الأذواقِ وَالإِسفافِ بِمَنَازِعِ الرأْيِ وَالخَلَطِ وَالإِضطرابِ في كُلِّ ذلك؛ حتَّى أصبحَ أمرُ الأَدبِ على أقبحه وهم يَروُنَه على أحسنه، حتَّى قيلَ في: الأسلوبِ أسلوبُ تلغرافيٍّ، وفي الفصاحةِ فصاحةٌ عاميَّة، وفي اللُّغة لُغةُ الجرائد، وفي الشَّعر شعرُ المِقالَةِ؛ ونجَمَتِ النّاجمةُ من كُلِّ علَّةٍ ويُرَيَّنَ لهم أنَّها ألقوَّةٌ قد استحصفتُ^(١) وأشدَّتْ، ونازعَ الأدبُ العربيُّ إلى سخريةِ التَّقليدِ وإلى أن يكونَ لصيقاً دَعيّاً في آدابِ الأُمَمِ، وأستهلكهُ التَّضييعُ وسوءَ النّظرِ لَهُ على حينِ يَؤْتى لهم أنَّ كُلَّ ذلك من جَفْظِهِ وصِيانِهِ وحُسْنِ الصَّنِيعِ فيه ومن توفيرِ المادَّةِ عليه.

أين تُصِيبُ العِلَّةُ إذا التَّمسَّتها^(٢)؟ أفي الأدبِ من لُغَتِهِ وأَساليبِ لُغَتِهِ، ومعانيهِ وأغراضِ معانيهِ؟ أم في الِقاءِ عَلَيْهِ في مَذهَبِهِم ومناحيهِم وما يَتَّبِقُ من أسبابِهِم وجواذِبِهِم؟

إنْ تُقُلْ إِنَّها في اللُّغةِ وَالأساليبِ وَالمعانيِ وَالأغراضِ، فهذه كُلُّها تصيرُ إلى حيثُ يَراؤُها، وتَتَقَلَّدُ البَلِيَّةُ من كُلِّ مَنْ يَعمَلُ فيها؛ وقدِ اسْتَوْعَبَتْ وَأَتَسَّعَتْ وما دَتِ العُصورُ الكَثيرَةُ إلى عَهْدِنا فلمْ تَوُتْ من ضيَقٍ ولا جُمودٍ ولا ضَعْفٍ ثُمَّ هِيَ مادَّةٌ ولا عليها مِمَّنْ لا يُحْسِنُ أنْ يَضَعَ يَدَهُ منها حيثُ يَمَلَأُ كُفَّهُ أو حيثُ نَقَعُ يَدَهُ على حاجَتِهِ.

وإنْ قُلْتَ إِنَّ العِلَّةَ في الأَدباءِ ومَذهَبِهِم ومناحيهِم ودواعيهِم وأسبابِهِم، سألُناكَ: وَلِمَ قَصَّروا عَنِ الغايةِ، وَلِمَ وَقَعُوا بِالخِلافِ، وكيفَ ذَهَبُوا عَنِ المِصْلَحةِ، وكيفَ اعْتَمَقَتِ الخِواطِرُ وفَسَدَتِ الأذواقُ مَعَ قِيامِ الأَدبِ الصَّحيحِ في كُتُبِهِ مَقامُ أُمَّةٍ من أهْلِهِ أَعْراباً وفُصحاءَ وَكُتَّاباً وشُعراءَ، وَمَعَ انْفِساسِ الأُلْفُقِ العَقْلِيِّ في هذا الدَّهرِ وَاجْتِماعِهِ من أَطرافِهِ لِمَنْ شاءَ، حتَّى لَتَجِدَ عَقولَ نَوابِغِ الْفَارَاتِ الخَمْسِ تُحْتَقَبُ^(٣) في حَقِيقَةِ مَنْ أَلَكْتُبَ، أو تُصَنِّدُقُ^(٤) في صَندوقٍ مِنَ الأسفارِ.

كيفَ ذَهَبَ الأَدباءُ في هذه الأَعرَبِيَّةِ نَشْراً مُتَبَدِّلِينَ تَعلو بِهِمُ الدَّائِرَةُ وتَهبطُ،

(٣) تُحْتَقَبُ: تُوضَعُ في حَقِيقَةٍ.

(٤) تُصَنِّدُقُ: تُوضَعُ في صَندوقٍ.

(١) اسْتَحْصَفَتْ: أَوَجَدَتْ رَأياً رَزيناً.

(٢) التَّمَسَّتها: فَتَسَّتْ عَلَيْها وَيَحْت.

فكلُّ أعلى وكلُّ أسفل؟ هذا فلانٌ شاعرٌ قد أحاطَ بالشعرِ عربيُّه وغربيُّه وهو ينظمُه ويفتنُ في أغراضِه ويولِّدُ ويسرقُ وينسخُ ويمسخُ، وهو عندَ نفسيهِ الشاعِرُ الَّذي فقدتهُ كلُّ أمةٍ من تاريخِها ووقعَ في تاريخِ العربيَّةِ وحدها ابتلاءٌ ومحنةٌ؛ وهو كُكُلُ هؤلاءِ المغرورينَ يحسبونَ أنَّهم لو كانوا في لغاتٍ غيرِ العربيَّةِ لظهروا نجوماً، ولكنَّ العربيَّةَ جعلتْ كلَّهم حصاةً بينَ الحصى، وتقرأُ شعرةُ فإذا هو شعرٌ تنوَّهُم من قراءتِه تقطيعَ ثيابك، إذ تجاذبُ نفسك لتفرَّ منه فراراً.

وهذا فلانٌ الكاتبُ الَّذي وَالَّذي... وَالَّذي يرتفعُ إلى أقصى السَّمواتِ على جناحيّ ذبابة.

وهذا فرعونُ الأدبِ الَّذي يقولُ: أنا ربُّكمُ الأعلى! وهذا فلانٌ وهذا فلانٌ..

أين يكونُ الزُّمامُ على هؤلاءِ وأمثالِهِم ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه، وليضبطوا آراءهم وهواجسَهُم^(١)، وليعلموا أنَّ حسابَهُم عندَ الناسِ لا عندَ أنفسهم فالواحدةُ منهم واحدةٌ وإن توهَّموها مائةً وتوهَّمها بعضهم ألفاً أو ألفين، ومتى قالَ الناسُ: غلطوا، فقد غلطوا، ومتى قالوا: سخفاء فهم سخفاء.

وأين الزُّمامُ عليهم وقد أنطلقوا كأنَّهم مسخرونَ بالجبرِ على قانونٍ مِنَ التدميرِ والتخريبِ، فليسَ فيهِم إلاَّ طبيعةٌ مُكابرةٌ لإقرارِ منها، باغيةٌ لا إنصافَ معها، نافرةٌ لا مَساعَ إليها، مُتَّهمةٌ لا ثِقَّةَ بها؛ طبيعةٌ يتحوَّلُ كلُّ شيءٍ فيها إلى أثرٍ منها كما يتحوَّلُ ماءُ الشجرِ في العودِ الرطبِ المشتعلِ إلى دُخانٍ أسود!

يرجعُ هذا الخلطُ في رأيي إلى سببٍ واحدٍ: هو خلُّو العصرِ من إمامٍ بالمعنى الحقيقيِّ يلتقي عليه الإجماعُ ويكونُ مِلَّةَ الدهرِ في حكمتهِ وعقلهِ وريِّهِ ولسانهِ ومناقبهِ وشمائلهِ؛ فإنَّ مثلَ هذا الإمامِ يَخْصُ دائماً بالإرادةِ التي ليسَ لها إلاَّ النَّصرُ والغلبةُ والتي تُعطي القوَّةَ على قتلِ الصَّغائرِ والسَّفاسفِ؛ وهو إذا ألقيَ في الميزانِ عندَ اختلافِ الرأْيِ، وُضِعَ فيه بالجمهورِ الكبيرِ من أنصارِهِ والمعجِبينَ بأدابه،

وبالسَّوادِ الغالبِ من كلِّ الفاعليَّاتِ المُحيطةِ بِهِ وَالْمُنْجَذِبَةِ إِلَيْهِ؛ ومن ثَمَّ تنهياً قوَّةَ التَّرجيحِ ويتعيَّنُ اليَقينُ والشكُّ؛ والميزانُ اليومَ فارغٌ من هذه القوَّةِ فلا يَزْجَحُ ولا يُعَيِّنُ.

(١) هواجسهم: خوفهم وهمومهم.

ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمانة، ومقداره يزُنُّ المقادير، فيكون هو المنطق الإنساني في أكثر الخلاف الإنساني: تقوم به الحجة، فتلزم وإن أنكرها المنكر، وتمضي وإن عاند فيها المعاند، ويؤخذ بها وإن أصرَّ المصِّرُّ على غيرها، لأنَّ بالإجماع على القياس يبين التطرُّف في الزيادة أو التقصير؛ والإجماع إذا ضرب ضرب المعضية بالطاعة، والزيغ^(١) بالاستقامة، والعناد بالتسليم؛ فيخرج من يخرج عليه وسُمه^(٢) ويزيغ من يزيغ وفيه صفته، ويصِرُّ المكابرُ وأسمه المكابرُ ليس غير، وإن هو تكذَّب وتأوَّل، وإن زعم ما هو زاعم.

ولكلِّ القواعد شواذٌّ ولكنَّ القاعدة هي إمامُ بابها؛ فما من شاذٍّ يحسب نفسه منطلقاً مخلى، إلا هو محدودٌ بها مردودٌ إليها، مُتَّصِلٌ من أوسع جهاته بأصيق جهاتها؛ حتى ما يعرف أنه شاذٌّ إلا بما تعرف به أنها قاعدة، فيكون شأنه في نفسه بما تُعينُ هي له على مكرهته ومحبه.

والإمام ينبثق في آداب عصره فكراً ورأياً، ويزيد فيها قوةً وإبداعاً، ويزين ماضيتها بأنَّه في نهايته، ومستقبلها بأنَّه في بدايته، فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة، والانتقال فيها من جهة أخرى؛ لأنَّ هذا الإمام إنما يختار لإظهار قوة الوجود الإنساني من بعض وجوهها وإثبات شمولها وإحاطتها كأنه آية من آيات الجنس يؤنس الجنس فيها إلى كماله البعيد، ويتلقَّى منه حكم التمام على النقص، وحكم القوة على الضعف، وحكم المأمول على الواقع؛ ويجد فيه قومه كما يجدون في الحقيقة التي لا يكابر عندها متنطع^(٣) يتأويل، وفي القوة التي لا يخالف عندها مُبطلٌ بعناد، وفي الشريعة التي لا يروغ^(٤) منها مُتَعَسِّفٌ بحيلة؛ ولَنْ يَضِلَّ النَّاسُ فِي حَقِّ عَرَفُوا حَدَّهُ، فَإِنَّ مَا وَرَاءَ الْحَدِّ هُوَ التَّعَدِي؛ وَلَنْ يُخْطِئُوا فِي حُكْمِ أَصَابُوا وَجْهَهُ فَإِنَّ مَا عَدَا أَلْوَجْهَ هُوَ الْخِلَافُ وَالْمَرَاءُ.

وقد طبعَ النَّاسُ فِي بَابِ الْقُدْوَةِ عَلَى غَرِيزَةٍ لَا تَحْوَلُ، فَمَنْ أَنْفَرَدَ بِالْكَمَالِ كَانَ هُوَ الْقُدْوَةُ، وَمَنْ غَلَبَ كَانَ هُوَ الْأَسْفَتْ؛ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِمَّنْ يَقْتَسُونَ^(٥) بِهِ وَيَتَوَازَنُونَ فِيهِ حَتَّى يَسْتَقِيمُوا عَلَى مَرَاثِدِهِمْ^(٦) وَمَصَالِحِهِمْ، فَالْإِمَامُ كَأَنَّهُ مِيزَانٌ مِنْ

(٤) يروغ: يخرج ويتخلص بكذب وخداع.

(٥) يقتسون: يقيسون أنفسهم به.

(٦) مرادهم: عقولهم وما يهتدون به.

(١) الزيغ: الميل مع الهوى.

(٢) وسمه: طابعه.

(٣) متنطع: معتمل بصعوبة رأياً ما.

عقل، فهو يتسلط في الحكم على الناقص والوافي من كل ما هو بسبيله، ثم لا خلاف عليه، إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن، وكانت فيه منازل أحوالها منزلة بعد منزلة.

هو إنسان تختير بعض المعاني السامية لتظهر فيه بأسلوب عملي، فيكون في قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها، مشروحة بهذا المثال نفسه، فالله يراد الأمر في ذلك ويتلوه يتلى وعلى سبيله ينهج^(١)، فما من شيء يتصل بالإنس الذي هو إمام فيه، إلا كان فيه شيء منه، وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها، لأنه يفن حكمة عليها، فيكون قوة وتنبهاً، وتسهيلاً وإيضاحاً، وإبلاغاً وهداية؛ ويكون رجلاً وإنه لمعان كثيرة، ويكون في نفسه وإنه لفي الأنفس كلها، ويعطى من إجلال الناس ما يكون به أسمه كأنه خلق من الحب طريقه على العقل لا على القلب.

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة في الإسلام ووجوب ذلك على المسلمين؛ فلا بد على هذه الأرض من ضوء في لحم ودم، وبعض معاني الخليفة في تنصبيه كبعض معاني «الشهيد المجهول» في الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة: رمز التقديس، ومعنى المفادة، وصمت يتكلم، ومكان يوحى. وقوة تستمد، وأنفراد بجمع، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة في شرف الحياة والموت؛ بل الحرب مخبوءة في حفرة، والنصر مغطى بقبر؛ بل المجهول الذي فيه كل ما ينبغي أن يعلم.

فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه، وإذ كل من يزعم نفسه إماماً هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه! ولعمري ما نشأ قولهم «الجديد والقديم» إلا لأن ههنا موضعاً خالياً يظهر خلاؤه مكان الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تمازج من جهة، فمنذ مات الإمام الكبير الشيخ محمد عبده - رحمه الله - جرت أحداث، ونتاجت رءوس، وزاغت طبائع وكأنه لم يمت رجل، بل رفع قرآن.

الأدب والأديب

إذا اعتبرت الخيال في الذكاء الإنساني وأوليته دقة النظر وحسن التمييز، لم تجده في الحقيقة تقليداً من النفس للألوهية بوسائل عاجزة منقطعة، قادرة على التصور وألوههم بمقدار عجزها عن الإيجاد والتحقيق.

وهذه النفس البشرية آتية من المجهول في أول حياتها، والراجعة إليه آخر حياتها، والمسددة في طريقه مدة حياتها، لا يمكن أن يتفرر في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي؛ فهي لا تتعاطى الموجود فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فرغ منه فما يبدأ، وتم فما يزاد، وخلد فلا يتحول؛ بل لا تزال تضرب ظئها وتصرف وهمها في كل ما تراه أو يتلجلج^(١) في خاطرها، فلا تبرح تتلمح^(٢) في كل وجود غيباً، وتكشف من الغامض وتزبد في غموضه، وتجري دأباً^(٣) على مجاريها الخيالية التي توثق صلتها بالمجهول؛ فمن ثم لا بد في أمرها مع الموجود مما لا وجود له، تتعلق به وتسكن إليه؛ وعلى ذلك لا بد في كل شيء - مع المعاني التي له في الحق - من المعاني التي له في الخيال؛ وها هنا موضع الأدب والبيان في طبيعة النفس الإنسانية، فكلاهما طبيعي فيها كما ترى.

وإذا قيل: الأدب، فأعلم أنه لا بد معه من البيان؛ لأن النفس تخلق فتصور فتحسين الصورة؛ وإنما يكون تمام التركيب في مغرضه وجمال صورته ودقة لمحاته؛ بل ينزل البيان من المعنى الذي يلبسه منزلة النضج من الثمرة الحلوة إذا كانت الثمرة وحدها قبل النضج شيئاً مسمى أو متميزاً بنفسه، فلن تكون بغير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً، وما بد من أن تستوفي كمال عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها.

(١) يتلجلج: يتردد.

(٢) تتلمح: ترى.

(٣) دأباً: باستمرار.

وهذه مسألة كيفما تناولتها فهي هي حتى تُمضيها على هذا الوجه ألذي رأيت في الثمرة ونُضجها؛ فإنَّ البيانَ صناعةَ الجمالِ في شيءٍ جماله هو من فائدته، فائدته من جماله؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره، وعادَ باباً من الاستعمالِ بعد أن كانَ باباً من التأثير؛ وصارَ أَلْفَرَقُ بين حاله كَالْفَرَقِ بين أَلْفَاكِهِ إذ هي بابٌ من النبات، وبين أَلْفَاكِهِ إذ هي بابٌ من الخمر؛ ولهذا كانَ أَلْأَصْلُ في أَلْأَدَبِ الْبَيَانِ وَالْأَسْلُوبِ في جميعِ لغاتِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِي، لِأَنَّهُ كَذَلِكَ فِي طَبِيعَةِ الْنَفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

فَالْعَرَضُ الْأَوَّلُ لِلْأَدَبِ الْمُبِينِ أَنْ يَخْلُقَ لِلنَفْسِ دُنْيَا الْمَعْنَى الْمَلَامَةِ لِتِلْكَ الزَّرْعَةِ الثَّابِتَةِ فِيهَا إِلَى الْمَجْهُولِ وَإِلَى مَجَازِ الْحَقِيقَةِ، وَأَنْ يُلْقِيَ الْأَسْرَارَ فِي الْأُمُورِ الْمَكْشُوفَةِ بِمَا يَتَخَيَّلُ فِيهَا، وَيَرُدُّ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَيَاةِ كَثِيراً وَافِياً بِمَا يُضَاعَفُ مِنْ مَعَانِيهِ، وَيَتْرَكَ الْأَمَاضِيَّ مِنْهَا ثَابِتاً قَارِئاً بِمَا يَخْلُدُ مِنْ وَصْفِهِ، وَيَجْعَلُ الْأُمُورَ مِنْهَا لَذِيذاً خَفِيفاً بِمَا يَبُثُّ فِيهِ مِنَ الْعَاطِفَةِ، وَالْمَمْلُوءَ مُنْتَعِياً خُلُواً بِمَا يَكْشِفُ فِيهِ مِنَ الْجَمَالِ وَالْحِكْمَةِ؛ وَمَدَارُ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى إِيْتَاءِ الْنَفْسِ لَذَّةَ الْمَجْهُولِ الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِهَا لَذَّةٌ مَجْهُولَةٌ أَيْضاً؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْنَفْسَ طُلْعَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ، لَا تَبْتَغِي مَجْهُولاً صِرْفاً وَلَا مَعْلُوماً صِرْفاً، كَانَهَا مُذْرَكَةً بِفِطْرَتِهَا أَنْ لَيْسَ فِي الْكَوْنِ صَرِيحٌ مُطْلَقٌ وَلَا خَفِيٌّ مُطْلَقٌ؛ وَإِنَّمَا تَبْتَغِي حَالَةً مَلَامَةً بَيْنَ هَذَيْنِ، يَثُورُ فِيهَا قَلَقٌ أَوْ يَسْكُنُ مِنْهَا قَلَقٌ.

وَأَشْوَاقُ الْنَفْسِ هِيَ مَادَّةُ الْأَدَبِ؛ فَلَيْسَ يَكُونُ أَدَباً إِلَّا إِذَا وَضَعَ الْمَعْنَى فِي الْحَيَاةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مَعْنَى، أَوْ كَانَ مُتَّصِلاً بِسِرِّ هَذِهِ الْحَيَاةِ فَيَكْشِفُ عَنْهُ أَوْ يُؤْمِئُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ، أَوْ غَيْرَ لِلنَفْسِ هَذِهِ الْحَيَاةَ تَغْيِيراً يَجِيءُ طَبَاقاً لِبَعْضِهَا وَأَشْوَاقِهَا؛ فَإِنَّهُ كَمَا يَزْحَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ جَوْ إِلَى جَوْ غَيْرِهِ، يَنْفُلُهُ الْأَدَبُ مِنْ حَيَاتِهِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى فِيهَا شَعُورُهَا وَلَذَّتُهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَكَانٌ وَلَا زَمَانٌ؛ حَيَاةٌ كَمَلَتْ فِيهَا أَشْوَاقُ الْنَفْسِ، لِأَنَّ فِيهَا أَلْذَذَاتِ وَالْآلَامَ بِغَيْرِ ضَرُورَاتٍ وَلَا تَكَالِيفٍ؛ وَلَعُمْرِي مَا جَاءَتْ أَلْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي الْأَدْبَانِ عَثَباً؛ فَإِنَّ خَالِقَ الْنَفْسِ بِمَا رَكَّبَهُ فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ، لَا يَحْكُمُ الْعَقْلُ أَنَّهُ قَدْ أَنْتَمَّ خَلْقُهَا إِلَّا بِخَلْقِ أَلْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَعَهَا، إِذْ هُمَا الْأَصُورَتَانِ الْأَدَائِمَتَانِ الْمَتَكَافَتَتَانِ لِأَشْوَاقِهَا الْخَالِدَةِ إِنَّ هِيَ اسْتَقَامَتْ مُسَدَّدَةً^(١) أَوْ انْعَكَسَتْ حَائِلَةً.

وقد صحَّ عندي أَنَّ الْنَفْسَ لَا تَحَقِّقُ مِنْ حَرِيَّتِهَا وَلَا تَنْطَلِقُ أَنْطَلَاقَتَهَا الْخَالِدَةَ

(١) مسددة: موجهة نحو التوفيق والنجاح.

فَنَحْسُ وَحْدَةُ الشُّعُورِ وَوَحْدَةُ الْكَمَالِ الْأَسْمَى - إِلَّا فِي سَاعَاتٍ وَفتراتٍ تَنَسَّلُ فِيهَا مِنْ زَمَنِهَا وَعَيْشِهَا وَتَقَائُصِهَا وَأَضْطِرَابِهَا إِلَى (مَنْطِقَةِ حَيَاةٍ) خَارِجَةٍ وَرَاءَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ؛ فَإِذَا هَبَطَتْهَا النَّفْسُ فَكَأَنَّمَا أُنْتَقِلَتْ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَسْتَرْوَحَتْ الْخُلْدُ؛ وَهَذِهِ الْمَنْطِقَةُ السَّحَرِيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي أَرْبَعَةٍ: حَبِيبٍ فَاتِنٍ مَعْشُوقٍ أُعْطِيَ قُوَّةَ سِحْرِ النَّفْسِ، فَهِيَ تُنْسَى بِهِ؛ وَصَدِيقٍ مَحْبُوبٍ وَفِي أَوْتِي قُوَّةَ جَذْبِ النَّفْسِ، فَهِيَ تُنْسَى عِنْدَهُ؛ وَقِطْعَةٍ أَدَبِيَّةٍ آخِذَةٍ، فَهِيَ سَاحِرَةٌ كَالْحَبِيبِ أَوْ جَاذِبَةٌ كَالصَّدِيقِ؛ وَمَنْظَرٍ فَنِي رَائِعٍ، فَفِيهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْءٌ.

وَهَذِهِ كُلُّهَا تُنْسَى الْمَرْءَ زَمَنُهُ مَدَّةٌ تَطُولُ وَتَقْصُرُ؛ وَذَلِكَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ تُصِيبُ مِنْهَا أَسَالِيبُ رُوحِيَّةٍ لِاتِّصَالِهَا هَنِيئَةً بِالرُّوحِ الْأَزَلِيِّ فِي لَحَظَاتٍ مِنَ الشُّعُورِ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَكَأَنَّهَا مِنَ الْأَزَلِيَّةِ؛ وَمَنْ ثُمَّ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُفَرِّزَ أَنَّ أَسَاسَ الْفَنِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ ثَوْرَةُ الْخَالِدِ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى الْفَنَانِيِّ فِيهِ؛ وَأَنَّ تَصَوِيرَ هَذِهِ الثَّوْرَةِ فِي أَوْهَامِهَا وَحَقَائِقِهَا بِمَثَلِ اخْتِلَاجَاتِهَا فِي الشُّعُورِ وَالتَّأثيرِ - هُوَ مَعْنَى الْأَدَبِ وَأَسْلُوبُهُ.

ثُمَّ إِنَّ الْآتِسَاقَ وَالْخَيْرَ وَالْحَقَّ وَالْجَمَالَ - وَهِيَ الَّتِي تَجْعَلُ لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَسْرَارَهَا - أُمُورٌ غَيْرُ طَبِيعِيَّةٍ فِي عَالَمٍ يَقُومُ عَلَى الْأَضْطِرَابِ وَالْأَثَرِ وَالنِّزَاعِ وَالشَّهَوَاتِ؛ فَمِنْ ذَلِكَ يَأْتِي الشَّاعِرُ وَالْأَدِيبُ وَذُو الْفَنِّ عِلَاجًا مِنْ حِكْمَةِ الْحَيَاةِ لِلْحَيَاةِ، فَيُبَدِّعُونَ لِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَمِيلَةِ عَالَمَهَا الَّذِي تَكُونُ طَبِيعِيَّةً فِيهِ، وَهُوَ عَالَمُ أَرْكَانِهِ الْآتِسَاقُ فِي الْمَعَانِي الَّتِي يَجْرِي فِيهَا، وَالْجَمَالُ فِي التَّعْبِيرِ الَّذِي يَتَأَدَّى^(١) بِهِ، وَالْحَقُّ فِي الْفِكْرِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ، وَالْخَيْرُ فِي الْغَرَضِ الَّذِي يُسَاقُ لَهُ، وَيَكُونُ فِي الْأَدَبِ مِنَ النِّقْصِ وَالْكَمَالِ بِحَسَبِ مَا يَجْتَمِعُ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَلَا مَعْيَارٌ أَدَقُّ مِنْهَا إِنَّ ذَهَبَتْ تَعْبِيرُهُ بِالنَّظَرِ وَالرَّأْيِ؛ فَفِي عَمَلِ الْأَدِيبِ تَخْرُجُ الْحَقِيقَةُ مُضَافًا إِلَيْهَا الْفَنُّ، وَيَجِيءُ التَّعْبِيرُ مَزِيدًا فِيهِ الْجَمَالَ، وَتَتِمُّنُ الطَّبِيعَةُ الْجَامِدَةُ خَارِجَةً مِنْ نَفْسِ حَيَّةٍ، وَيُظْهِرُ الْكَلَامُ فِيهِ رَفَّةَ حَيَاةِ الْقَلْبِ وَحَرَارَتِهَا وَشُعُورَهَا وَأَنْتِظَامُهَا وَذَقُّهَا الْمَوْسِيقِيِّ؛ وَتَلْبَسُ الشَّهَوَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ شَكْلَهَا الْمَهْدَبَ لِتَكُونَ بِسَبَبِ مَنْ تَقْرِيرِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى، الَّذِي هُوَ السُّرُّ فِي ثَوْرَةِ الْخَالِدِ مِنَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْفَنَانِيِّ، وَالَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْآخِرَةُ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَنِّ مَعًا؛ وَبِهَذَا يَهَبُ لِكَ الْأَدَبِ تِلْكَ الْقُوَّةَ الْغَامِضَةَ

(١) يَتَأَدَّى: يَحْصُلُ.

التي تتسبب بك حتى تشعر بالندى وأحداثها مارة من خلال نفسك، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها؛ وذلك سرُّ الأديب العبقري؛ فإنه لا يرى الرأي بالاعتقاد^(١) والاجتهاد كما يراه الناس، وإنما يحس به؛ فلا يقع له رأيُه بالفكر، بل يُلهمه إلهاماً؛ وليس يؤاتيه الإلهام إلا من كون الأشياء تمرُّ فيه بمعانيها وتعبُّره كما تعبَّر السفن النهر، فيحس أثرها فيه فيلهم ما يلهم، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون، على حين أنَّ حقائق الكون هي النافذة من خلاله.

ولو أردت أن تعرف الأديب من هو، لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه أن تسميه الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط؛ ومن ذلك ما يبلغ من غمق تأثيره بجمال الأشياء ومعانيها، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بالأمها وأفرجها؛ إذ كانت فيه مع خاصية الإنسان خاصة الكون الشامل، فالطبيعة تثبت بجمال فنّه البديع أنه منها، وتدلل السماء بما في صناعته من الوحي والأسرار أنه كذلك منها، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه أنه هو أيضاً منها؛ وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لا حدَّ له، والاتساع الذي كلُّ آخر فيه لشيء، أول فيه لشيء.

وهو إنسان يُدله الجمال على نفسه ليدلَّ غيره عليه، وبذلك زيد على معناه معنى، وأضيف إليه في إحساسه قوة إنشاء الإحساس في غيره؛ فأساس عمله دائماً أن يزيد على كلِّ فكرة صورة لها، ويزيد على كلِّ صورة فكرة فيها، فهو يبدع المعاني للأشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها، ويبدع الأشكال للمعاني المجردة فيوجد لها هي في الحياة، فكأنه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني؛ وبالأدباء والعلماء تنمو معاني الحياة، كأنما أوجدتهم الحكمة لتنقل بهم الدنيا من حالة إلى حالة؛ وكأنَّ هذا الكون العظيم يمرُّ في أدمغتهم ليحقق نفسه.

ومشاركة العلماء للأدباء تُوجب أن يتميز الأديب بالأسلوب البياني، إذ هو كالطابع على العمل الفني، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الذي جاء من طريقه، ثم لأنَّ الأسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الإدراك، كأنَّ الجمال يقول بالأسلوب: إنَّ هذا هو عمل فلان.

وفضل ما بين العالم والأديب، أنَّ العالم فكرة، ولكنَّ الأديب فكرة

(١) الاعتقاد: إطالة النظر وإيمان الفكر وكده.

وَأَسْلُبُهَا؛ فَالْعُلَمَاءُ هُمْ أَعْمَالٌ مَتَّصِلَةٌ مُتَشَابِهَةٌ يُشَارُ إِلَيْهِمْ جَمْلَةً وَاحِدَةً، عَلَى حِينٍ يُقَالُ فِي كُلِّ أَدِيبٍ عِبْرَتِي: هَذَا هُوَ، هَذَا حَدُّهُ؛ وَعِلْمُ الْأَدِيبِ هُوَ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَّجِهَةِ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَالطَّبِيعَةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَّجِهَةِ إِلَى النَّفْسِ؛ وَلِذَلِكَ فَمَوْضِعُ الْأَدِيبِ مِنَ الْحَيَاةِ مَوْضِعُ فِكْرَةٍ حَدُودُهَا مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهَا الْأَسْرَارُ.

وَإِذَا رَأَى النَّاسُ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ تَرْكِيبًا تَامًا قَائِمًا بِحَقَائِقِهِ وَأَوْصَافِهِ، فَالْأَدِيبُ الْعَبْقَرِيُّ لَا يَرَاهَا إِلَّا أَجْزَاءً، كَأَنَّمَا هُوَ يَشْهَدُ خَلْقَهَا وَتَرْكِيبَهَا. وَكَأَنَّمَا أَمْرُهَا فِي (مَعْمَلِهِ)، أَوْ كَأَنَّهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - دَعَاهُ لِيَرَى فِيهَا رَأْيَهُ. وَبِذَلِكَ يَجِيءُ الْنَابِغُ مِنَ آدَبِ الْعِبَاقَةِ وَبَعْضُهُ كَالْمَقْتَرِحَاتِ لِتَجْمِيلِ الدُّنْيَا وَتَهْذِيبِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَبَعْضُهُ كَالْمُوَافَقَةِ وَإِقْرَارِ الْحِكْمَةِ؛ وَأَسَاسُهُ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْنَقْدُ، ثُمَّ النُّقْدُ، وَلَا شَيْءَ غَيْرَ الْنَقْدِ؛ كَأَنَّ الْقُوَّةَ الْأَزَلِيَّةَ تَقُولُ لِهَذَا الْمَلْهَمِ: أَنْتَ كَلِمَتِي فَقُلْ كَلِمَتَكَ...

وَتَرَى الْجَمَالَ حَيْثُ أَصْبَتْهُ شَيْئًا وَاحِدًا لَا يَكْبُرُ وَلَا يَصْغُرُ، وَلَكِنَّ الْجَسَّ بِهِ يَكْبُرُ فِي أَنْاسٍ وَيَصْغُرُ فِي أَنْاسٍ؛ وَهَذَا هُنَا يَتَأَلَّهُ الْأَدِيبُ؛ فَهُوَ خَالِقُ الْجَمَالِ فِي الْكَذَنِّ، وَالْمُمْكِنُ لِلْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى إِدْرَاكِهِ وَتَبْيِينِ صِفَاتِهِ وَمَعَانِيهِ، وَهُوَ الَّذِي يَقْدِرُ لِهَذَا الْعَالَمِ قِيَمَتَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ بِإِضَافَةِ الصُّورِ الْفِكْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ إِلَيْهِ، وَمَحَاولَتِهِ إِظْهَارَ النِّظَامِ الْمَجْهُولِ فِي مُتَنَاقِضَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالْأَرْتِفَاعِ بِهَذِهِ النَّفْسِ عَنِ الْوَاقِعِ الْمُنْحَطِّ الْمَجْتَمِعِ مِنْ غِشَاوَةِ الْفِطْرَةِ وَصَوْلَةِ الْغَرِيزَةِ وَغَرَارَةِ الطَّبْعِ الْحَيَوَانِيِّ.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْأَدِيبِ عَلَى ذَلِكَ، فَيَاضْطَرُّ أَنْ تَتَهَذَّبَ فِيهِ الْحَيَاةُ وَتَتَأَدَّبَ، وَأَنْ يَكُونَ تَسَلُّطُهُ عَلَى بَوَاعِثِ النَّفْسِ دُرِيَّةً^(١) لِإِصْلَاحِهَا وَإِقَامَتِهَا، لَا لِإِفْسَادِهَا وَالْانْحِرَافِ بِهَا إِلَى الزَّيْغِ وَالضَّلَالَةِ؛ وَيَاضْطَرُّ أَنْ يَكُونَ الْأَدِيبُ مَكْلَفًا تَصْحِيحِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَنَفْيِ الْتَزْوِيرِ عَنْهَا، وَإِخْلَاصِهَا مِمَّا يَلْتَبِسُ بِهَا عَلَى تَتَابُعِ الْضُرُورَاتِ؛ ثُمَّ تَصْحِيحِ الْفِكْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الوجودِ، وَنَفْيِ الْوُثْنِيَّةِ عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ، وَالسُّمُوءَ بِهَا إِلَى فَوْقِ، ثُمَّ إِلَى فَوْقِ، وَدَائِمًا إِلَى فَوْقِ!

وَإِنَّمَا يَكْلَفُ الْأَدِيبُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ مِنْ خَصَائِصِهِ الْكَمِيمِزُ وَتَقْدُمُ النَّظَرِ وَتَسْمُطُ الْإِلْهَامِ، وَلِأَنَّ الْأَصْلَ فِي عَمَلِهِ الْفَنِّيَّ أَلَّا يَبْحَثَ فِي الشَّيْءِ نَفْسِهِ، وَلَكِنْ فِي الْبَدِيعِ مِنْهُ؛ وَالْأَبْظَرُ إِلَى وَجُودِهِ، بَلْ إِلَى سِرِّهِ؛ وَلَا يُعْنَى بِتَرْكِيبِهِ، بَلْ بِالْجَمَالِ فِي

(١) دُرِيَّة: رِيَاضَةٌ.

تركيبه؛ ولأنَّ مادةَ عَمَلِهِ أحوالُ النَّاسِ، وأخلاقهم، والوأنَّ معاشيهم، وأحلامهم، ومذاهبُ أخيلتهم وأفكارهم في معنى ألفن، وتفاوتُ إحساسهم به، وأسبابُ مغايرتهم ومراشدِهِمْ؛ يُسَدِّدُ على كُلِّ ذلكَ رأيَه، ويُجِيلُ فيه نظرَه، ويخلُطُه في نفسه، ويُنفِذُه من حواسِه، كأنَّما لَهُ في السُّرائِرِ القَبْضُ والبَسْطُ، وكأنَّه وَلِيُّ الحَكَمِ على الجزءِ الخَفِيِّ في الإنسانِ يقومُ على سياستِهِ وتدبيرِهِ، ويَهْدِيهِ إلى المَثَلِ الأعلى، وهَلْ يُخَلِّقُ العَبْرِيُّ إِلَّا كَالْبِرْهَانِ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ على أَنَّ فيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ على الَّذي هو أَكْمَلُ الَّذي هو أَبَدُ، حتى لا يَبْأَسَ أَلْعَقْلُ الإنسانِي ولا يَنْخَذِلَ، فيستمرُّ دائِباً في طَلَبِ الكَمالِ والإبداعِ الَّذينِ لا نَهايةَ لهما؟

فالأديبُ يُشْرِفُ على هذه الدُّنيا من بَصيرَتِهِ فإذا وقَّعَ الحِياةَ في حَذْوِ واحدٍ مِنَ النِّزاعِ والتناقضِ، وإذا هي دائِبةٌ في مَخَهِ الشَّخْصِيَّةِ الإنسانِيَّةِ، تاركةٌ كُلَّ حَيٍّ مِنَ النَّاسِ كأنَّه شَخْصٌ قائِمٌ من عَمَلِهِ وحوادثِهِ وأسبابِ عيشِهِ؛ فإذا تلَجَّجَ ذلكَ في نفسِ الأديبِ اتَّجَهَتْ هذه النَفْسُ العالِيَةُ إلى أَنَّ تحفَظَ لِلدُّنيا حقائِقُ الضَّميرِ والإنسانيَّةِ والإيمانِ والفضيلةِ، وقامَتِ حارِسةٌ على ما ضَيَّعَ النَّاسُ، وسُخِّرَتْ في ذلكَ تسخيراً لا تملكُ مَعَهُ أَنَّ تَأْبَى مِنْه، ولا يستوي لها أَنَّ تُغِيضَ فيه؛ وتُفَلِّتَ الإنسانِيَّةُ كُلُّها ووضَعَتْ على مجازٍ طَريقِها أين توجَّهَتْ، فتأكَّدَ الأمرُ فيها، ووَصَلَ بها، وَعَلِمَتْ أنَّها من خالِصَةِ اللَّهِ، وأنَّ رسالتَها لِلعالمِ هيَ تقريرُ الحُبِّ لِلمتعادين، وبَسَطَ الرِّحمةَ لِلمتنازعين، وأن تَجْمَعَ الكُلَّ على الجَمالِ وهو لا يَخْتَلِفُ في لَذَّتِهِ، وتَصِلَ بَيْنَهُم بِالْحَقِيقَةِ وهي لا تَتَفَرَّقُ في موعظَتِها، وتُشعرُهُم بِالْحِكْمَةِ وهي لا تَتَنازَعُ في مَناحِياها: فالأدبُ من هذه الأناحيةِ يُشَبِّهُ الدِّينَ: كِلاهُما يُعَيِّنُ الإنسانِيَّةَ على الاستمرارِ في عَمَلِها، وكِلاهُما قَريبٌ من قَريب؛ غَيرَ أَنَّ الدِّينَ يَعرِضُ لِلحالاتِ النَفْسيَّةِ لِأَمْرٍ وينهَي، والأدبُ يَعرِضُ لها ليجمَعَ ويُقابِل؛ والدِّينُ يَوجِّهُ الإنسانَ إلى رَبِّهِ، والأدبُ يَوجِّهُهُ إلى نَفْسِهِ؛ وذلكَ وحيُّ اللَّهِ إلى المَلِكِ إلى نَبِيِّ مُختار، وهذا وحيُّ اللَّهِ إلى البَصيرةِ إلى إنسانٍ مُختار.

فإنَّ لِمَ يَكُنْ لِلأديبِ مِثْلُ أَعلى يَجْهَدُ في تحقيقِهِ ويعمَلُ في سَبيلِهِ، فهو أديبٌ حالَةٌ مِنَ الحَالاتِ، لا أديبٌ عَصَرٌ ولا أديبٌ جِيلٌ؛ وبذلكَ وَحدَهُ كانَ أَهلُ المَثَلِ أَعلى في كُلِّ عَصَرٍ هُمُ الأَرقامُ الإنسانِيَّةُ الَّتِي يَلْقِيها العَصَرُ في آخِرِ أَيامِهِ لِيَحسَبَ رِبْحَهُ وخِصارَتَهُ...

ولا يَخَدِّعُكَ عن هذا أَنَّ تَرى بَعْضَ العَبْرِيِّينَ لا يَؤْتِي في أدبِهِ أو أَكثَرِهِ إِلَّا

إلى الرذائل، يتغلغل فيها، ويتملاً بها، ويكون منها على ما ليس عليه أحد إلا السفلة والخشوة من طعام الناس^(١) ورعايهم؛ فإن هذا وأضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحققها من جهة ما فيها من النهي، ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة؛ وكثيراً ما تكون الموعظة بردائيلهم أقوى وأشد تأثيراً مما هي في الفضائل؛ بل هم عندي كـ بعض الأحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهي أقوى مما يأمر الأمر، على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الأدبية التي تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجر المبتلى المشوّء المتحطم الذي ينهاك بصورته أن تكون مثله؛ ولهذه الحقيقة القويّة في أثرها - حقيقة الأمر بالنهي - يعمد النوايح في بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها، بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه، أو الإحالة في الحادثة التي يصفونها؛ فينتهي الراهب التقي في القصة ملجداً فاجراً، وترتد المرأة البغي قديسة، ويرجع الابن البرّ قاتلاً مجنوناً جنوناً ألدّ؛ إلى كثير مما يجري في هذا النسق، كما تراه لإناتول فرانس وشكبير وغيرهما، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر، ولكنه أسلوب من الفن، يقابله أسلوب من الخلق، ليبدع أسلوباً من التأثير؛ وكل ذلك شاذّ معدود ينبغي أن ينحصر ولا يتعدى، لأنه وصف لأحوال دقيقة طارئة على النفس، لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرة فيها.

والشرط في العبقرى الذي تلك صفته وذلك أدبه، أن يغلو بالرديلة. في أسلوبه ومعانيه، أخذاً بغاية الصنعة، متناهيّاً في حسن العبارة؛ حتى يصبح وكأنّ الرذائل هي اختارته منه مفسرها العبقرى أشادّ الذي يكون في سموّ فيه ألياني هو وحده الطرف المقابل لسمو العبارة عن الفضيلة، فيصنع الإلهام في هذا وفي هذا صنعه ألفني بطريقة بديعة ألتاثير، أصلها في أديب الفضيلة ما يريدّه ويجاهد فيه، وفي أديب الرديلة ما يقوده ويندفع إليه، كأنّ منهما إنساناً صار ملكاً يكتب، وإنساناً عادّ حيواناً يكتب...

وإذا أنت ميّلت بين رديلة الأديب العبقرى في فنه، ورديلة الأديب الفنّان^(٢) الذي يشبه به - في التأليف والرأي والمتابعة والمذهب - رأيت الواحدة من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف: هذا دموعه ألمه، وذاك دموعه

(٢) الفصل: الخامل الذكر.

(١) طعام: بيفلة البشر.

ألمه وشعره؛ وفي كتابه هذه الطبقة من العبقريين خاصة يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبي، وأن اللذة به هي علامة الحياة فيه؛ إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية، شاهدها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست في الحقيقة إلا نكتة نفسية لاهتياج البواعث في نفوس قرائها، وأنها على ذلك هي أيضاً مسألة من مسائل الإنسانية مطروحة للنظر والحل، بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل.

واللذة بالأدب غير التلهي به واتخاذها للعبث والبطالة فيجيء موضوعاً على ذلك فيخرج إلى أن يكون ملاءة وسخفاً ومضيعة؛ فإن اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغة معانيه وتناول الكون والحياة بالأساليب الشعرية التي في النفس، وهي الأصل في جمال الأسلوب؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كله كسائر ما ركب في طبيعة الحي، إذ يحس الذوق لذة الطعام مثلاً على أن يكون من فغلبها الطبيعي أستمراء التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها؛ أما التلهي فيجيء من سخر الأديب؛ وفراغ معانيه، ومؤاتاة الشهوات الخسيسة والتماهي الجوانب الضيقة من الحياة؛ وذلك حين لا يكون أدب الشعب ولا الإنسانية بل أدب فئة بعينها وأحوالها؛ فإن أديب صناعته أو أديب جماعته، غير أديب قومه وأديب عصره؛ أحدهما إلى حد محدود من الحياة، والآخر عمل جامع مستمر متفتن؛ لأن عمله الأدبي هو وجوده، وكل شيء في قومه لا يبرح يقول له: اكتب

ومن الأصول الاجتماعية التي لا تتخلف، أنه إذا كانت الدولة للشعب، كان الأدب أدب الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوان عيشه، وزخر^(١) الأدب بذلك وتنوع وافتن وبني على الحياة الاجتماعية؛ فإن كانت الدولة لغير الشعب، كان الأدب أدب الحاكمين وبني على التفاني والمداينة والمبالغة الصناعية والكذب والتدليس، ونصب الأدب من ذلك وقل وتكرز من صورة واحدة؛ وفي الأولى يتسع الأديب من الإحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كل من حوله، إلى الإحساس بالكون ومجاليه وأسراره في كل ما حوله؛ أما الثانية فلا يحس فيها إلا أحوال نفسه وحليطه، فيصيح أدبه أشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يمل ذهابه ومجيئه.

(١) زجر: امتلاً واحتوى.

وَالْعَجَبُ الَّذِي لَمْ يَنْتَبِهْ لَهُ أَحَدٌ إِلَى الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ مَنْ دَرَسُوا الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، أَنَّكَ لَا تَجِدُ تَقْرِيرَ الْمَعْنَى الْفَلَسَفِيِّ الْأَجْتِمَاعِيِّ لِلْأَدَبِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهِ إِلَّا فِي أَلَلَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَحَدَّهَا، وَلَمْ يَغْفُلْ عَنْهُ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ هَذِهِ أَلَلَّةٍ وَحَدَّهِمْ!

فَإِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ الَّذِي يُقَرَّرُ الْأَسْلُوبُ شَرْطًا فِيهِ، وَيَأْتِي بِقُوَّةِ أَلَلَّةِ صُورَةٍ لِقُوَّةِ الطَّبَاعِ، وَبِعِظَمَةِ الْأَدَاءِ صُورَةٍ لِعِظَمَةِ الْأَخْلَاقِ، وَبِرَقَّةِ الْبَيَانِ صُورَةٍ لِرَقَّةِ النَّفْسِ، وَبِدِقَّةِ الْمُتَنَاهِيَةِ فِي الْعَمَقِ صُورَةٍ لِدِقَّةِ النَّظَرِ إِلَى الْحَيَاةِ؛ وَتُرِيكَ أَنَّ الْكَلَامَ أُمَّةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ عَامِلَةٌ فِي حَيَاةِ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ، ضَابِطَةٌ لَهَا الْمَقَائِيسَ التَّارِيخِيَّةَ، مُخَكِّمَةٌ لَهَا الْأَوَاضَاعَ الْإِنْسَانِيَّةَ، مُشْتَرِطَةٌ فِيهَا أَلْمَثَلَ الْأَعْلَى، حَامِلَةٌ لَهَا أَلْنُورَ الْإِلَهِيِّ عَلَى الْأَرْضِ...

وَإِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ الَّذِي يُنْشِئُ الْأُمَّةَ إِنْشَاءً سَامِيًا، وَيَدْفَعُهَا إِلَى أَلْمَعَالِي دَفْعًا، وَيُرُدُّهَا عَنْ سَفَافِيفِ الْحَيَاةِ^(١)، وَيُوجِّهُهَا بِدِقَّةٍ الْأَبْرَةِ الْمَغْنَطِيسِيَّةِ إِلَى أَلْآفَاقِ الْوَاسِعَةِ، وَيُسَدِّدُهَا^(٢) فِي أَغْرَاضِهَا التَّارِيخِيَّةِ الْعَالِيَةِ تَسْدِيدَ الْقَنْبَلَةِ خَرَجَتْ مِنْ مَدْفِعِهَا أَلْمُضْحَمُ الْمُحَرَّرِ الْمُحْكَمِ، وَيَمَلَأُ سَرَايِرَهَا يَقِينًا وَنَفُوسَهَا حِزْمًا وَأَبْصَارَهَا نِظْرًا وَعُقُولَهَا حِكْمَةً، وَيَتَقَدُّ بِهَا مِنْ مَظَاهِرِ الْكَوْنِ إِلَى أَسْرَارِ أَلْأَلُوْهِةِ.

إِذَا أَرَدْتَ أَلْأَدَبَ عَلَى كُلِّ هَذِهِ أَلْوُجُوْهِهِ مِنْ أَلْعَبْتَارِ - وَجَدْتَ أَلْقُرْآنَ أَلْحَكِيمِ قَدْ وَضَعَ أَلْأَصْلَ أَلْحَيِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَعْجَبَ مَا فِيهِ أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا أَلْأَصْلَ مَقْدَسًا، وَفَرَضَ هَذَا أَلْتَقْدِيسَ عَقِيدَةٍ، وَأَعْتَبَرَ هَذِهِ أَلْعَقِيدَةَ ثَابِتَةً لَنْ تَتَغَيَّرَ؛ وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَنْتَبِهْ لَهُ أَلْأَدَبَاءُ وَلَمْ يَخْذُلُوا^(٣) بِأَلْأَدَبِ خَذُوْهُ، وَحَسِبُوْهُ دِينًا فَقَطْ، وَذَهَبُوا بِأَدْبِهِمْ إِلَى أَلْعَبَثِ وَأَلْمَجْوَنِ وَأَلْنِفَاقِ؛ كَأَنَّهُ مِنْهُمْ إِلَّا بَقَايَا تَارِيخٍ مُحْتَضَرٍ بِأَلْعِلَلِ أَلْقَاتِلَةِ، ذَاهِبٌ إِلَى أَلْفَنَاءِ أَلْحَتَمِ!

وَأَلْقُرْآنَ بِأَسْلُوبِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِهِ لَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلْأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَذَا: إِنَّ أَلْأَدَبَ هُوَ أَلْسَمُوْهُ بِضَمِيرِ الْأُمَّةِ.

وَلَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلْأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَذَا: إِنَّ أَلْأَدَبَ هُوَ مَنْ كَانَ لِأُمَّتِهِ وَلِبَلَّتِيْهَا فِي مَوَاهِبِ قَلْمِهِ لَقَبٌ مِنْ أَلْقَابِ أَلتَّارِيخِ.

(١) سَفَافِيفِ الْحَيَاةِ: صِفَاتُهَا وَتَأَنَافُ مِنْهَا.

(٣) يَخْذُلُوا: يَخْطُؤُوا وَيَقْلُدُوا.

(٢) يُسَدِّدُهَا: يُوْجِّهُهَا.

سِرُّ النُبوغ في الأدب

لو ترجمنا الخاطرة التي تمر في ذهن الحيوان الذكي حين يتقاد في يد رجل ضعيف أبله يُصرِّفه ويديره على أغراضه، فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا، وأدناها بمعنى مما بين الإنسان والحيوان - لكأنت في العبارة هكذا: ما أنت أيها الأبله فيما بيني وبين الحقيقة المدبرة لتكون إلا نبي مرسل ﷺ... ذلك أن التركيب الذي يبين به الإنسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دمع به على خصائصه فافرغه الله في جلده، ووضع في رأسه ذلك القفل الإلهي الذي حبسه في باب الاضطراب من غرائزه البهيمية، وأفل به على الدنيا العقلية المتسعة بينه وبين الإنسان؛ فلكون عنده لغز كله ليس فيه إلا حقائق يسيرة، ثم لا تفسير لهذه الحقائق إلا من طبيعته هو، فجلده أدق تفسير فلكي... للشمس والنور والهواء وما يجيء منها، وجوفه أصح تعبير جغرافي... للكرة الأرضية وما تحمله، وجوفه وشبعه هما كل فلسفة الشر والخير في العالم!..

فأساس الذكاء عالياً ونازلاً هو التركيب الطبيعي لا غيره: لو زادت في الدماغ ذرة أو نقصت لزادت الدنيا صورة أو نقصت؛ فبالضرورة تكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين جذة الذكاء في أفراد كل نوع من الحيوان، وما نشهد من ذلك في أحوال الناس، من الفطنة إلى الذكاء إلى الألمعية^(١) إلى الجهظة^(٢) إلى النبوغ إلى العبقريّة؛ وهي طبقات من ألفاظ اللغة لأحوال قائمة من هذه المعاني ترجع إلى درجات ثابتة في تركيب الدماغ.

ومما يسجد له العقل الإنساني سجدة طويلة إذا هو تأمل في حكمة الله ومرو يتصفح^(٣) من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ - أن هذا الوجود الذي يحمل أسرار الألوهية هو كرة متقاذفة في الفضاء الأبدي، وأن الأرض التي تحمل

(١) الألمعية: الذكاء المفرط.

(٢) الجهظة: التفوق في العلم والشعر.

أسرارَ الإنسانية، هي كُرّة طائرة فيما مُدّها لها مِنَ الوجود، وأنَّ كلَّ حيٍّ فيها يحملُ أسرارَ حياته في كُرّة خاصّة به هي رأسه. وأنَّ الوجودَ من كلِّ حيٍّ هو بعدَ ذلك ليس شيئاً في النظر ولا في الحس ولا في الفهم إلّا كما يرى ويحس ويفهم في هذا الرأس بعينه على طريقته وتركيبه، فيصعدُ التدرّجَ إلى الكبير إلى الأكبر، وينزلُ إلى الصغير إلى الأصغر؛ ثمَّ لا معنى لِمَا صعدَ إلّا ممّا نزل، وبهذا ستكونُ آخرُهُ جميعُ العلوم متى نفدَ العلماءُ إلى السرِّ الحقيقي، أنَّ العقلَ الإنسانيَّ فهِمَ كلَّ شيءٍ ولم يفهم شيئاً.

والناسُ يختلفون بتركيبِ أدمغتهم على شبيهٍ من هذا التدرّج؛ فأما واحدٌ فيكونُ دماغُهُ باعتبارِهِ من سائرِ الناسِ في الذكاء والعقل كالوجودِ المُحيط، وأما آخرٌ فكأشمس، ثمَّ غيرُها كالأرض، ثمَّ أرباعُ كالأسان، ثمَّ يكونُ منهم كالحَيوانِ ومنهم كالحشرة؛ ولا عِلّةٌ يَكُلُّ هذا إلّا ما هيأت الأقدارُ «بأسبابها الكثيرة»، لِكُلِّ إنسانٍ في تركيبِ دماغِهِ في نوعِ المادّةِ السُّنْجَابِيَّةِ مِنَ المَخِّ، وأحوالِ التركيبِ في المَلايينِ مِنَ الخلايا العصبية، وما لا يُعدُّ من فروعِ هذه الخلايا وشُعَبِها: ثمَّ ما يكونُ من قَبْلِ العلاقاتِ بين هذه الفروع التي هي لِكُلِّ رأسٍ كرمَلِ الكُرّةِ الأرضيّة، ثمَّ اختلافِ مقاديرِ الموادِّ الكيماوية التي تتخلّقُ^(١) في غُدِّ الجِسمِ وتنفّثُها الغُدُّ في الدَّمِ.

فقد يكونُ العملُ النَّابِغُ المَتمَرِّدُ على العقولِ آتياً من قطرةٍ في هذه الغُدِّ، كما ينبعثُ العِملاقُ المارِدُ بِعِظامِهِ المَمتدَّةِ والأواجِهِ المَشبُوحَةِ من غُدَّتِهِ الخَاميَّةِ لا غيرِها.

فَالذِّكِيُّ من ذكِّيٍّ مثليٍّ إنَّما هو كالجيشِ من جيشٍ بإزائه: يقعُ الاختلافُ بينهما فيما اشتملا عليه من كثرةِ الجند، وِصفَاتِهِم مِنَ القُوَّةِ والضعفِ، وأحوالِهِم مِنَ النِّظامِ والاختلالِ، وقُوَّةِ آلائِهِم ومقدارِها ونوعِ الاختراعِ فيها، ثمَّ طبيعةِ موضعِهِم وحسنِ توجيهِهِم وقيامَتِهِم، وما اكتنفَهُم^(٢) من صعبٍ أو سهلٍ، وما تَظَاهَرَ^(٣) عليهم مِنَ الحوادثِ والأقدارِ، ثمَّ التوفيقِ الَّذِي لا جيلةَ فيه إنَّ وَقَعَ في حُصَّةِ أحدهما واستقرَّ، أو وَقَعَ هَوْنًا وطارَ لِلاَخرِ؛ وبنحوٍ من هذا كُلِّهِ تكونُ المفاضلةُ إذا وازنتَ بينَ اثْنينِ مِنَ النّوايغِ في حَقِيقَةِ ثَبُوعِهما.

فَالنَّابِغَةُ خَلَقٌ من خالِقِهِ، يُصْنَعُ كما ترى بِإِقْدَارِ اللَّهِ؛ إذْ هو قَدَرٌ على قَومِهِ

(١) تتخلّق: تتشكّل.

(٢) اكتنفهم: داخلهم.

(٣) تظاهر: اجتمع وقوي.

وعلى عصره، وهو من الناس كالأورقة الراحبة من ورق السخب (الانصبب): سلّة يد جعلتها مالا وتركت أباقيات ورّقا وأحدثت بينهما ألفرّق الذهبي؛ وبهذا لا يستطيع العالم أن يزيد الدنيا نابغة إلا إذا استطاع أن يزيد في الكواكب نجما فيصنعه؛ وهبة^(١) صنعه من الكهرباء، فيبقى أن يحملّه، وإذا حملّه بقي أن يرفعه إلى السموات؛ وهبة قد رفعه فيبقى كل شيء. يبقى عليه أن يُحمّله^(٢) في النجوم ويرسله فيها يدور ويتفكك.

وكما يُخلق النابغة بتركيبه، تُخلق له الأحوال الملائمة لعمله الذي خص به في أسرار التقدير عاملاً نافعا، وإن كانت لا ثلاثه هو منتفعا؛ فإنه هو غير مقصود إلا من حيث أنه وسيلة أو آلة تكايد ما تحتل في أعمالها، ويؤتي لها لتأخذ على طريقة وتُعطي على طريقة؛ وبذلك يرجع التقدير إلى أن يكون العقل لنابغة دليلاً للناس من الناس أنفسهم على الخالق الذي هو وحده أمره الأمر.

وإذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء الأنواب، والخيال يظهر في تعبيرهم، والحكمة تهبط إلى الدنيا في تفكيرهم، والمثل الأعلى هم الداعون إليه، والآشواق النفسية هم موقظوها، والعواصف هم المصورون لها، وسرور الحياة هم الذين حولوه إلى الفن - إذا كان هذا كله فهذا كله إنما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الأزلية المدبرة، وأنهم أدواتها في هذه المعاني؛ فما هي أعمالهم أكثر مما هي أعمالها؛ وقد يظن الناس أن النابغة يلتصق القوي المحيطة به ليبدع منها، والحققة أنها هي تلتصق به.

وبعد؛ فالنابغة كائن إنسان من الفلك، فهو يخزن الأشعة العقلية ويريقها^(٣)، وفي يده الأنوار والظلال والألوان يعمل بها عمل الفجر كلما أظلمت على الناس معاني الحياة؛ ولا تزال الحكمة تلقي إليه الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها، وتوحي إليه معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق؛ والطبيعة خلقها الله وحده، ولكنها ليست معقولة إلا بالعلم، وليست جميلة إلا بالشعر، وليست محبوبة إلا بالفن؛ فالنابغ في هذا كله هم شروح وتفسير حول كلمات الله، وكلهم يشعر بالوجود فناً كاملاً ويشعر بنفسه شرحاً لأشياء من هذا الفن، ويرى

(١) هبة: افترض.

(٢) يحمّله: ينقحها ويعثرها.

(٣) ينفقه: يدخله بقوة.

معاني الطبيعة كأنما تأتيه تلتئم في كتابته وشعره حياة أكبر وأوسع مما هي فيه من حقائقها المحدودة، وتعرض له أحزان الإنسانية تسأله أن يصحح أرائي فيها باستخراج معناها الخيالي الجميل، فإنها وإن كانت آلاماً وأحزاناً إلا أن معناها الخيالي هو سرور تحملهُ للناس؛ إذ كان من طبيعة النفس البشرية أن تسكن إلى وصف الآلامها وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرُها حاملة أثرها الإلهي، كأن المؤلم ليس هو الألم، وإنما هو جهل سِرّه.

وبالجملة فالكون يختار في كل شيء مفسرهُ العبقري ليكشف من غموضه ويزيد فيه أيضاً... ثم ليؤتى الناس المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الأعلى من الفكر؛ ولهذا تُصيب الكلام الذي يكتبهُ النابغة الملهم في أوقات أنتجلي عليه كأنه كلام صور نفسه وصاغها، أو كأنه قطعة من الجسد قد جمدت في أسطر؛ ولا بد أن تُشعرك الجملة أنها قد وثقت وخيا، إذ لا تجدُها إلا وكأن في كلماتها روحاً يرتعش؛ ولقد يخطر لي وأنا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من الأذهان الملهمة كشكسبير والمتنبي وغيرهما - حين أتأمل اختراع المعنى وإبداع سياقه وضحي البيان عليه وإشراقه فيه وما أتيج له من جلال ظاهر في شكل حي يلمح بسِرّه في النفس - يُخيّل إلي من ذلك أن سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن إنساني ليخلق تعبيراً عن جلاله في مثل جلاله.

وأنت فلو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الإلهام وأجريت في كتابه كاتب أو شاعر من الذين ليس لهم إلا أذهانهم يكدونها^(١)، وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً... لرأيت الفرق بين شيء وشيء في أحسن ما أنت واجده لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الإنسان بالآبرة والخيط، وزهرة أخرى قد أنبتت غطرة ناضرة في غصنها الأخضر من عمل الحياة بالسماء والأرض.

والعبقري هو أبدأ وراء ما لا ينتهي من جمال، أوله في نفسه وآخره في الجمال الأقدس الذي مسح على هذه النفس الجميلة السامية؛ فما دام فيه سر العبقري فهو دائم يعمل مُمرقاً حياته في سباحات النور تمزيقاً يجتمع منه أدبه؛ وما أدبه إلا صورة حياته؛ وهو كلما أبدع شيئاً طلب الذي هو أبدع منه؛ فلا يزال متألماً إن عمل لأن طبيعته لا تقف عند غاية من عمله، ومتألماً إن لم يعمل لأن

(١) يكدونها: يشحذونها ويعملونها.

تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ إلا في عمل، وهي طبيعة متمردة بذلك الجمال الأقدس تمرّد العشق في حامله؛ إذ هما صورتانٍ لأمرٍ واحدٍ كما سنشير إليه؛ فكلُّ ما تجذّه في نفس العاشق المتدلّهِ ممّا يترامى به إلى جُؤنوه وهلاكه، تجدُ شبهاً منه في نفس العبقريّ؛ فكلاهما قانونه من طبيعته وحدها؛ إذ قد اتخذت حياته شكلها ألفني من ذوقه هو وحده؛ فليس يتبع طريقة أحد، بل هو طريقة نفسه، وكلاهما مسترسلٌ أبداً إلى جمالٍ مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع إليه ويستمد منه، وكلاهما لا يجد المعنى الجميل في الطبيعة معنى، بل رسلاً من الجمال أرسل إليه وحده، ولا يزال يشعر في كلِّ وقت أن له رسائل ورُسلًا هو بعد في انتظارها، وكلاهما متى ظفّر بشيء من مصدر الجمال انتهى من شدّة فرجه إلى الظنّ أنّه ربح من الكون ربحاً لم يكن له من قبل، وكلاهما مُتهالك بين قيود الحياة التي في الحياة والواقع، وبين حريتها التي في خياله وأمله، كأنّ عليه في سبيل هذه الحرية أن يقطع الليل والنهار لا قيوداً من قيود الأمتاع أو العيش؛ وكلاهما مُتصل بقوة غيبية وراء ما يرى وما يحسّ تجعل نظرتَه في الأشياء خاضعة لقانون النظرة العاشقة في العيين الساحرتين المعشوقتين، فإذا مدّ عينيه في شيء جميل فهناك سؤال وجوابه، ووحى وترجمته، ومرور من يقظة إلى حلم، وأنقال من حقيقة إلى خيال!

غير أن طبيعة العبقريّ تزيد على كل ذلك ألماً تنفرد به لا تستقر معه على رضا، ولا يبرح يسلط الإعانات^(١) عليها ويستغرقها بالهموم السامية؛ وذلك ألّم الكمال ألفني الذي لا يدرك العبقريّ غايته عند نفسه، وإن كان عند الناس قد أدرك غايات وغايات؛ فطبيعة كل عبقريّ تجهد جهدها في العمل لإخراج به ممّا يستطيعه الناس، فإذا تأنّى صاحبها لذلك وكابد فيه وأدرك منه وبلغ وأعجز، أندفعت طبيعته إلى الخروج ممّا يستطيع هو. كأنّه خارج عن الطبيعة وداخل في الطبيعة في وقت معاً، وكأنّه نفسه وفوق نفسه في حال، وهذا سرّ حريته وسموه، كما أنّه سرّ إليه وخيرته.

ومن أثر ذلك ما تُحسّه أنت إذا قرأت لبلاديب البليغ التام صاحب الفكر والأسلوب والأذهن أملهم؛ فإنك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك ويتمدد فيها ويهتز بها طرباً وإعجاباً، فتقول: لا أحسن من هذا! ثم تؤمل مع ذلك أن تجد

(١) الاعانت: الإرهاق.

منهُ هو أحسن من هذا . . . كأنَّهُ وإنَّ تناهى إلى الغاية^(١) لا يزالُ عندَكَ فوقَ الغاية؛ وهذا غريبٌ، ولكن لا دليلَ على العبقريةِ إلَّا الغربةُ دائماً؛ فهيَ نظامٌ لا نظامٌ فيه؛ لأنَّها طريقةٌ لا طريقةٌ لها؛ وبهذه الغربةِ جاءتِ العبقريةُ كلُّها أمثلةً وليس فيها قواعدٌ يُحتذى^(٢) عليها ولا هدايةٌ فيها إلَّا مِنَ الروحِ؛ وإذا كانَ الفنُّ قدرةً متصرفَةً في الجمالِ، فالعبقريةُ قدرةٌ متصرفَةٌ في الفنِّ، والتابغةُ كالمكتسبِ^(٣) الذي معه قوَى العقلِ ويُريدُ أن يزدادَ على قدرِهِ منها، ولكنَّ العنبريُّ كالإلهيِّ الذي معه قوَى الروحِ ويُريدُ أن يزيدهُ الناسَ على قدرِهِم بها؛ وذلك مرجعُهُ الفِكْرُ الدقيقُ الباحثُ، وهذا مناطُ البصيرةِ الشفافةِ النافذةِ، وهي أغربُ الغرائبِ في الإنسان؛ إذ هي الجهةُ المطلقةُ في هذا المخلوقِ المُقَيَّدِ، وبها تتَّبعُ النفسُ لإدراكِ المُطلَني الظاهرِ من خلالِ الموجوداتِ، وفيها تحوُّلُ الأشياءِ مِنْ نظامِ الحاسةِ إلى نظامِ الروحِ، فيسمعُ المرئيُّ ويُبصرُ المسموعُ، وتخلعُ الأجسامُ أنعاماً، وتلبسُ الأصواتُ أشكالاً، ويبدو عندها كلُّ مخلوقٍ وكأنَّ فيه بقيةً زائدةً على خَلْقِهِ تُركتْ ليعملَ فيها الكاتبُ أو الشاعرُ المُحدثُ عملَ فنِّهِ، الزائدةُ على الطبيعةِ بالحاسةِ الزائدةِ على ذِهنِهِ، وهي التي تُسمِّيها الألهامُ.

وهذه الحاسةُ هي كذلك من بعضِ الغربةِ، تكونُ في صاحبِها الموهوبِ كما تكونُ حاسةُ الاتِّجاءِ في الطيورِ التي تقطعُ في جوِّ السماءِ إلى غاياتِها البعيدةِ من قُطْبِ^(٤) الأرضِ إلى قُطْبِها الآخرِ بغيرِ دليلٍ تحمُّلهُ، ولا رسمٍ تنظرُ فيه، ولا عِلْمٍ ترجعُ إليه؛ وكما تكونُ حاسةُ التمييزِ في النحلِ الذي يبني عسلَتَهُ على هندسةٍ لَيْسَتْ من كتابٍ ولا مدرسةٍ، وحاسةُ التدبيرِ في النملِ الذي يُدبِّرُ مَمْلَكَتَهُ بغيرِ عُلُومِ الممالكِ وسياسَتِها؛ وكثيراً ما يجيءُ الأديبُ المُلهمُ من حقائقِ الفِكْرِ وبيانيهِ وأسرارِ الطبائعِ وأوصافِها بما يُعْطِي على فلسفةِ الفلاسفةِ وعِلْمِ العلماءِ، ومثلُ هذا العبقرِ هو عندي فوقَ العِلْمِ، لا أقولُ بدرجةٍ، ولكن بحاسةٍ.

وبالألهامِ يكونُ لِكُلِّ عبقرٍ ذِهنُهُ الذي معه وذِهنُهُ الذي ليس معه؛ إذ كانتْ لَهُ من وراءِ خيَالِهِ قوَّةٌ غيرُ منظورةٍ لَيْسَتْ فيه، ومع ذلك تعملُ كما تعملُ الأعضاءُ

(١) تناهى إلى الغاية: نضجَ واكمل ووصل إلى حدِّه الأقصى.

(٢) يحتذى: يقلِّدها ويتَّخذها قدوةً.

(٣) المكتسب: العاقل الذي يتصرَّف بحكمة.

(٤) قطب: مركز.

في جسمه، هيئة مُنقادة كأنها تتصرف على أطراد العادة بلا فكر ولا رؤية ولا عُسْر ما دامت تتجلى عليه .

ولست تتصل هذه القوة إلا بتركيب عصبي تكون فيه الخصائص التي تصلح أن تتلقى عنها، وهي في العبقريين خصائص مرضية في الأعم الأغلب، بل لعلها كذلك دائماً، ليتسّر بها العبقري لحالة خفيفة من الموت . يحمل بها كدّه وتعبه وما يعانیه من مضض الفكر وثقلته؛ ثم لتكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيه وبين عالم الغيب منه؛ فالتركيب العصبي في دماغ العبقري إنسان على حياله مع إنسان آخر، أحدهما لما في الطبيعة والثاني لما وراء الطبيعة؛ ومن ثم كان الرجل من هذه الفئة كالمضباح: يتقد وينطفئ لأنه آلة نور تغرض لها العجل فتذهب بقذرتها عليه، وتنضب مادة النور منها، فكذلك لا تقدر عليه، وتكون مضية فتتطفئ بسبب ليس منها ولا من نورها، وهي على كل هذه الأحوال لا تملك منها حالة؛ فبينما العبقري الذي يملأ الدنيا من آثاره النابغة، تراه في حالة من أحواله يذأب لا يأتي فيجد في العمل ويبدل الوسع فيه ويصير على مطاولة التعب في إحكامه ويقض به فضلاً وكان في طبيعته الربيع المفتوح طول أيامه بالجمال - إذا هو في حالة أخرى يتلكأ ويتربص^(١) لا يعمل شيئاً كأنما دخل في قريحته الشتاء، وفي ثالثة يتباطأ ويتلبث فلا يعن له جديد كأنما حبس عنه فكره أو نبا طبعه أو هو في قنيط طبيعته وخمولها وضجرتها؛ ثم لا تمضي على ذلك إلا توة وساعة فإذا على صيفه هواء نوفمبر وديسمبر وإذا هو منبعث ملاء القوة والنشاط؛ وربما يأخذ في غرض من الكتابة قد رسم له المعنى وهيأ له المادة، فلا يكاد يمضي لنحو منه حتى تتناسخ في ذهنه المعاني فإذا هو يكتب ما لا يشبه ما كان أبتدأ به، ويأتيه غير ما كان قد أراده، كأنما يلقي عليه فهو يستملي؛ وقد يبتدئ معنى ثم يقطع عنه بطاريء من عمل أو حديث، ثم يعاوده فإذا معنى آخر وإذا جهة من الفكر هي جهة الإبداع والأختراع في موضوعه، وإذا هو إنما كان يجرب بذلك الصارف عن معناه الأول جزاً ليدعه إلى الأكمل والأصح، وأيقن أنه لو كان أستوفى على ما بدأ لأسف وضعف وجاء بما غيره أقدر عليه؛ كأن هذه القوة الخفية التي تلهمه تنفخ له أيضاً بأساليبها الغريبة؛ وقد يكون آخذاً في عمله ماضياً على طبعه مسترسلاً إلى ما

(١) يترص: ينتظر ويتوقع بحذر.

ينكشف له من أسرار المعاني ثَقِفاً مِنْ هُنَا لَقِفاً^(١) من هناك، ثُمَّ يَنْظُرُ فإذا هو قد مُسِّحَ لَوْحَ خَيَالِهِ، وَيَطْلُبُ الْمَعْنَى فَلَا يَتَّحُ لَهُ، وَيَتِمَادَى فَلَا يَزِيدُ إِلَّا كَذّاً وَعُشْراً كَأَنَّمَا ذَهَبَ إِلَهَامُهُ فِي غَمْضٍ مِنْ غَمُوضِ الْآبِدِيَّةِ؛ وَكُلُّ مَنْ أَرْتَاضَ بِصِنَاعَةِ الْفَكْرِ وَأَسْتَحْكَمَتْ لَهُ عَادَتُهَا وَمَرَّ فِي دَرَجَاتِهَا حَتَّى بَلَغَ الْمَكَانَةَ الَّتِي يَسْتَشْرِفُ مِنْهَا لِلْإِلَهَامِ وَيَتَعَرَّضُ فِيهَا بِرُوحِهِ وَبِصِيرَتِهِ لِنَبْضَاتِ الْوَحْيِ وَأَنْكِشَافَاتِ الْغَيْبِ، يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَعْنَى بَدِيعٌ يَأْتِي بِهِ فِي صِنَاعَتِهِ إِنَّمَا يَقَعُ لَهُ إِلَهَاماً مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْحَيِّ الْمَتَمِّدِ فِي الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا، ظَاهِراً فِي شَيْءٍ مِنْهَا بِالضَّوِّ، وَفِي أَشْيَاءَ بِالْأَلْوَانِ، وَفِي بَعْضِهَا بِالْحَرَكَةِ، وَفِي بَعْضِهَا بِالْأَنْسَاجِ، وَفِي بَعْضِهَا بِالرُّوْعَةِ وَالْفَخَامَةِ، وَفِي غَيْرِهَا بِنُصْبَةِ إِلَهِيَّةٍ؛ وَظَاهِراً فِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ بِأَنَّهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ؛ وَيعرفُ كذلك أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى الشَّامِلَ الَّذِي لَا يَحْدُ هُوَ الَّذِي يَنْقُلُ الْوُجُودَ كُلَّهُ إِلَى نَفُوسِ الْتَوَابِغِ مَتَى نَبَضَ فِي هَذِهِ الْنَفُوسِ الرَّقِيقَةِ وَأَشْعَرَهَا سِرَّهُ، وَإِذَا هَمَّ الْأَنْبَغَةُ أَنْ يَتَوَضَّحَ لَا يَرَى شَيْئاً، وَإِذَا أَرَادَ حُجَّةً عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعِ الْجَلَاءُ عَنْ بَيَانِهِ بِكَلِمَةٍ، وَإِذَا أَلْتَمَسَ التَّعْرِيفَ بِهِ لَمْ يَجِدْ إِلَّا مَا يَشْهَدُ لَهُ إِحْسَاسُهُ وَقَلْبُهُ، وَهَذَا الَّذِي يَنْقَدِحُ^(٢) فِي أَذْهَانِ التَّوَابِغِ أَفْكَاراً حِينَ يَفِيضُ لِكُلِّ مِنْهُمْ بِسَبَبٍ مِنْ قِرَاءَةٍ أَوْ مُشَاهَدَةٍ أَوْ حَالَةٍ أَوْ مِرَاسٍ^(٣)، هُوَ هُوَ بَعِينُهُ الَّذِي يَنْقَدِحُ عَشْقاً فِي قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ حِينَ يَتَرَاءَى لِكُلِّ مِنْهُمْ فِي مَعْنَى عَلَى وَجْهِ جَمِيلٍ؛ وَمَنْ ثُمَّ كَانَ الْأَنْبَغَةُ فِي الْأَدَبِ لَا يَتِمُّ تَمَامُهُ إِلَّا إِذَا أَحَبَّ وَعَشِقَ، وَكَانَ الْأَدَبُ نَفْسُهُ فِي تَحْصِيلِ حَقِيقَتِهِ الْفَلَسَفِيَّةِ لَيْسَ شَيْئاً سِوَى صِنَاعَةِ جَمَالِ الْفِكْرِ .

وهذا العملُ في ذلك الجهازِ العصبيِّ الخاصِّ بِهِ في بعضِ الأدْمَغَةِ هُوَ الَّذِي كَانَ يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِالتَّوْلِيدِ، وَقَدْ عَرَفُوا أَثَرَهُ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَنَبَّهُوا إِلَى حَقِيقَتِهِ وَلَا أَدْرَكُوا مِنْ سِرِّهِ شَيْئاً؛ وَأَحْسَنُ مَا قَرَأْنَاهُ فِيهِ قَوْلُ ابْنِ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ الْعَمَدَةِ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الشَّاعِرُ شَاعِراً لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الشَّاعِرِ تَوْلِيدُ مَعْنَى وَلَا اخْتِرَاعُهُ، أَوْ اسْتَطْرَافُ لَفْظٍ وَأَبْتِدَاعُهُ، أَوْ زِيَادَةُ فِيمَا أَجْحَفُ^(٤) فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمَعْنَانِي، أَوْ نَقْصُ مِمَّا أَطَالَهُ سِوَاهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ، أَوْ صَرَفُ مَعْنَى إِلَى وَجْهِ عَنْ وَجْهِ آخَرَ - كَانَ اسْمُ الشَّاعِرِ عَلَيْهِ مَجَازاً لَا حَقِيقَةً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

(١) لَقِفاً: سريع الفهم لما يدور حوله.

(٢) يَنْقَدِحُ: يَلْتَمِعُ.

(٣) المِرَاس من الممارسة الناتجة عن التجربة والمعرفة.

(٤) أَجْحَفُ: ظَلَمَ وَقَلَلُ.

إِلَّا فَضْلَ الْوِزْنِ». هَذَا كَلَامُ أَبِي رَشِيقٍ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ تَخْلِيطٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَوْضُوعِنَا إِلَّا لَفْظُ التَّوْلِيدِ.

وَمِمَّا لَا نَقْضِي مِنْهُ عَجَبًا فِي تَتَبُعِ فَلَسَفَةِ هَذِهِ الَّلُغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَجِيبَةِ، أَنَّنَا نَرَى أَكْثَرَ الْأَفَاطِهَا كَالْتَامَةِ لَا يَنْقُصُهَا شَيْءٌ مِنْ دَقَائِقِ الْمَعْنَى فِي أَصْلِ وَضْعِهَا، عَلَى حِينٍ لَا يَفْهَمُ عِلْمَاؤُهَا مِنْ هَذِهِ الْأَفَاطِ إِلَّا بَعْضَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ، كَأَنَّهَا مَنْزِلَةٌ تَنْزِيلًا مِمَّنْ يَعْلَمُ الْسَّرَ؛ وَقَدْ نَبَّهْنَا إِلَى هَذَا فِي كِتَابِنَا (تَارِيخُ آدَابِ الْعَرَبِ) وَأَفْضَلًا^(١) فِيهِ وَأَسْتَوْفِينَا هُنَاكَ مِنْ فِلْسَفَتِهِ، وَجَاءَ الْقِرَاءَانُ الْكَرِيمُ مِنْ هَذَا بِالْعَجَائِبِ الَّتِي تَفُوتُ الْعَقْلَ، حَتَّى إِنْ أَكْثَرَ الْأَفَاطِ لَتَكَاذُ تَكُونُ مَحْتَوَمَةً نَزَلَتْ كَذَلِكَ لَتَقْضَى^(٢) الْعُلُومُ وَالْفِلْسَفَةُ خَوَاتِمَهَا فِي عَصُورِ آتِيَةِ لَا رَيْبَ فِيهَا؛ وَكَلِمَةُ التَّوْلِيدِ الَّتِي لَمْ يَفْهَمُ مِنْهَا الْعُلَمَاءُ إِلَّا أَخَذَ مَعْنَى مِنْ مَعْنَى غَيْرِهِ بِطَرِيقَةٍ مِنْ طَرِيقِ الْأَخْذِ الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا فِي كِتَابِ الْأَدَبِ - هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ أَسْرَارِ النَّبُوغِ وَلَا تَجِدُ مَا يَسُدُّ فِي ذَلِكَ مَسْدَهَا^(٣) أَوْ يُحِيطُ بِحَاطَتِهَا، وَلَا نَظَرَ فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ مَا يُشَبِّهُهَا فِي هَذِهِ الْأَدَلَالَةِ وَاسْتِعَابِهَا كُلِّ أَسْرَارِ الْمَعْنَى؛ إِذْ هِيَ بِلَفْظِهَا نَصٌّ عَلَى حَيَاةِ الْكَوْنِ فِي الْذَهَنِ الْإِنْسَانِيِّ، وَأَنَّهُ يَتَّخِذُهُ وَسِيلَةً لِإِبْدَاعِ مَعَانِيهِ، كَمَا يَتَّخِذُ سِرُّ الْحَيَاةِ بَطْنَ الْأَمِّ وَسِيلَةً لِإِبْدَاعِ مَوْجُودَاتِهِ؛ وَأَنَّ الْمَعَانِيَّ تَتَلَقَّحُ فَيَلِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي أُسْلُوبٍ مِنَ الْمَعَانِي بَعْضُهَا أَجْمَلُ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا يَكُونُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي النَّسْلِ بِوَسَائِلِ التَّقْلِيلِ مِنَ الدَّمَاءِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَأَنَّ النَّبُوغَ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا التَّرَكِيبُ الْعَصَبِيُّ الْخَاصُّ فِي الْذَهَنِ، ثُمَّ نَمُو هَذَا التَّرَكِيبَ مَعَ الْحَيَاةِ فِي طَرِيقَةٍ سَوَاءٍ هِيَ وَطَرِيقَةُ الْوِلَادَةِ الْمُحْيِيَةِ الَّتِي مَرَجَعُهَا كَذَلِكَ إِلَى تَرْكِيبٍ خَاصٍّ فِي أَحْشَاءِ الْإِنْسَانِيِّ؛ يَنْمُو، ثُمَّ يُدْرِكُ ثُمَّ يَعْمَلُ عَمَلُهُ الْمَعْجَزُ؛ وَإِذَا كَانَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الطَّبِيعَةِ زَوْجَانِ، فَالْكَلِمَةُ نَصٌّ عَلَى أَنَّ أَذْهَانَ النَّوَابِغِ أَذْهَانٌ مُؤَنَّثَةٌ فِي طِبَاعِهَا الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا؛ وَهَذَا صَحِيحٌ، إِذْ هِيَ أَقْوَى الْأَذْهَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي الْحِسِّ بِالْأَلَامِ وَالْمَسْرَاتِ، وَمَعَانِي الدَّمُوعِ وَالْإِبْتِسَامِ أَسْرَعُ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِهَا، بَلْ هِيَ طَبِيعَةٌ فِيهَا؛ وَهِيَ وَحْدَهَا الْمُبْدِعَةُ لِلْجَمَالِ وَالْمُنْشِئَةُ لِلذَّوقِ، وَعَمَلُهَا فِي ذَلِكَ هُوَ قَانُونُ وَجُودِهَا؛ ثُمَّ هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى الْإِحْتِمَالِ وَالْإِعْطَاءِ وَالرَّضَا بِالْحَزْمَانِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ وَإِدْمَانِ الصَّبْرِ عَلَى التَّعَبِ وَالِدَقَّةِ وَالْإِهْتِمَامِ بِالتَّفَاصِيلِ وَأَسَاسِهَا الْحُبُّ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ طِبَاعِ الْإِنْسَانِيِّ وَهِيَ النَّابِغَةُ فِيهِ، بَلْ هِيَ النَّابِغَةُ بِهِ.

(١) أَفْضَلًا: زِدْنَا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مَطْلُوبُ.

(٢) لَفْضًا: لَتَكْشِفُ وَتَقْطَعُ.

فيسرُ النبوغ في الأدب وفي غيره هو التوليد، وسرُّ التوليد في نضج الذهن المهيب بأدواته العصبية، أمتجه إلى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكي إلى السماء وأجرامها؛ وبذلك العنصر الذهني يزيدُ التابغة على غيره، كما يزيدُ ألماس على الزجاج، والجوهر على الحجر، والفلو لأد على الحديد، والذهب على النحاس؛ فهذه كلها نبعت نبوغها بالتوليد في سرِّ تركيبها؛ ويتفاوت النبوغ أنفسهم في قوة هذه المملكة، فبعضهم فيها أكمل من بعض، وتمد لهم في الخلاف أحوال أزمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها؛ وبهذه المبانيه تجتمع لكل منهم شخصيته وتتسق له طريقة؛ وبذلك تنوع الأساليب، ويعاد الكلام غير ما كان في نفسه، وتتجدد الدنيا بمعانيها في ذهن كل أديب يفهم الدنيا وتتخذ الأشياء الجارية في العادة غرابة ليست في العادة ويرجع الحقيقي أكثر من حقيقته.

وقد سئل مصورٌ مُبدعٌ بماذا يمزج ألوانه فتأتي ولها إشرافها وجمالها ونبوغ مبانيها وزهر الحياة بها في الصورة، فقال: إنما أمزجها بمخي. وهذا هذا، فإن الألوان عنده الناس جميعاً، ولكن مخه عنده وحده وله تركيبه الخاص به وحده وسرُّ الصناعة في توليد هذا الدماغ فكأن ألوانه في صناعته جاءت منه بخصوصه، وكذلك كل ما يتناولُه العبقري فإِنَّك لتجد الشعر في وزن خاص به يدلُّ عليه ويُممُّ الغرض منه ويضيف إلى معانيه أنفاً من الجمال وحسنه وإلى صورته نغماً من الموسيقى وطربها. فما أشبه الجهاز العصبي في دماغ كل نابغة أن يكون وزناً شعرياً لهذا التابغة بخاصيته. ألا ترى أنك لا تقرأ الأديب الحق إلا وجدت كل ما يكتبه يجيء في وزن خاص به حتى لا يخرج عنه مرة، أو تزيد أنت فيه وتُنقص إلا ظهر لك أنه مكسور. ؟

والذهن العبقري لا يتخذ المعاني موضوع بحث ونظر وتعقب يستخرج منها أو يتعلق عليها فهذا عملُ الذهن الذكي وحده وهو غاية الغايات فيه يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا ويأخذ من ثم ويعترض ويصطح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شيء وما فيها إلا أشياءه هو وأمثاله. أما الذهن العبقري فليس له من المعاني إلا مادة عمل فلا تكاد تلبسه حتى تتحول فيه وتنوع وتتساقط له أشكالاً وضوراً في مثل خطرات البرق، وربما غمر بالمعنى الواحد في جماله وسموه وقوة تأثيره مقالات عدة لأولئك الأذكيا فنسخها نسخاً وجعلها منه كالشموع الموقدة بإزاء الشمس. فإذا ذهبت توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات في الروعة والجلال ورأيت عربة المقالة وغروها لم تستطع إلا أن تقول لها: يا

حصاة الميزان في إحدى كفتيه ألا يكفيك الجبل في الكفة الأخرى . ؟

وقد عرف الأدباء جميعاً أن كاتب فرنسا العظيم أناتول فرانس كان يكتب الجملة، ثم يُنقّحها، ثم يَهْدِيها، ثم يُعِيدها، ثم يرجع فيها، وهكذا خمس مرات إلى ثمانٍ ويُقدّم ويؤخّر من موضع إلى موضع ويحتسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً، وما هو منها في شيء ولا أحسب الأوروبيين أنفسهم تنبّهوا إلى سرّ هذه الطريقة، وإنما سيرّها من جهاز التوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم فإذا قرأ كتابته حولّها فكره وأبدع له منها من غير أن يعمل في ذلك أو يتكلّف له إلا ما يتكلّف من يَهْزُ إليه يجذع الشجرة لئساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جيّناً. فكلّما قرأ ولّد ذهنه فيثبّ ما يأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجيء المعنى في النهاية وإنّه لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهندي إلى طريقته وسياق الفكر فيه إذ كان لم يأت إلا محولاً عن وجهه مرات لا مرة واحدة.

فجهاز التوليد متى استمرّ واستحكم في إنسان أصبح له بمقام ملك الوحي من النبيّ وهو عندنا دليل من أقوى الأدلّة على صحّة النبوة وحدوث الوحي وإمكانه إذ لا تتصرّف به إلا قوة غيبية لا عمل للإنسان فيها، بل هي تُبدع إبداعها وتلقّي عليه إلقاء. وليس كلّ من تعرّض لها أدرك منها، ولا كلّ من أدرك منها بلغ بها، بل لا بدّ لها من الجهاز العصبيّ المُحكّم كجهاز اللاسلكيّ الدقيق المصنوع لتلقّي أبعد الأمواج الكهربائيّة وأقواها. وهذه القوّة إن أرادت معاني الجمال أخرجت الشاعرة وإن أرادت كشف السرّ عن الأشياء أخرجت الأديب وإن أرادت حقائق الوجود أخرجت الحكميم. فإن كان الأمر أكبر من هذا كلّهُ وكان أمر تغيير الحياة وصبّ أزمان جديدة للإنسانية والثوب بهذه الدنيا درجة أو درجات في الرقيّ - فهنا تكون الوصيلة أكبر من البصيرة، فليس لها من قوة الغيب إلا الوحي، ويكون الغرض أكبر من الشاعرة والأديب والحكيم، فلا يختار إلا النبيّ، ثم لا يوحى إليه إلا وهو في جسّ لساعة الوحي وحدها، وهي ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقّى عن روح الخلد؛ وقريب من ذلك خلوة الأنبياء بنفسه في ساعة التوليد؛ فسِرّ التبوع من سرّ الوحي، لا ريب في ذلك، وما أسهل سرّ الوحي وأيسر أمره، ولكن في الأنبياء وحدهم، وهنا كلّ الصعوبة. «أن تكون أو لا تكون؛ هذه هي المسألة».

نقد الشعر وفلسفته

الشاعرُ في رأينا هو ذاك الذي يرى الطبيعةَ كلّها بعينينِ لهما عِشقٌ خاصٌّ وفيهما غَزَلٌ على حِدةٍ، وقد خُلِقَتَا مُهيَّاتينِ بِمجموعةٍ لِنفسِ العُصْبَةِ لِرُؤيةِ السَّحَرِ الذي لا يُرى إلَّا بهما، بل الذي لا وجودَ لَهُ في الطبيعةِ الْحَيَّةِ لولا عينا الشاعرِ، كما لا وجودَ لَهُ في الْجَمالِ الْحَيِّ لولا عينا العاشِقِ.

فإذا كانَ الشاعرُ الْعَظِيمُ أعمى كهوميروس ومِلتون وبِشَّارِ والمُعزّي وأصرايهم، اتَّبَعَتْ أَبْصَرُ الشَّعْرِيِّ من وراءِ كُلِّ حاسَّةٍ فيه، وأبْصَرَ من خِواطِرِهِ الْمُنْبِثَةِ في كُلِّ مَعْنَى، فأَدَّى بِالنَّفسِ في الوجودِ الْمُظْلِمِ أَكْثَرَ ما كانَ يُؤدِّيهِ بِهِذِهِ النَّفسِ في الوجودِ الْمُضِيِّ، وقَصَّرَ عَنِ الْمُبْصِرِينَ في مَعانٍ وأرَبى عليهم في مَعانٍ أُخْرى، فيجتمَعُ لِلشَّعْرِ من هُؤْلَاءِ وأُولَئِكَ مَدُّ النَّفسِ الْمُلهِمَةِ مِمَّا بَيْنَ أَطْرافِ النُّورِ إلى أَغْوارِ الظُّلْمَةِ.

وَالشَّعْرُ في أسْرارِ الْأَشْياءِ لا في الْأَشْياءِ ذاتِها، ولهذا تَمْتازُ قَريحَةُ الشَّاعرِ بِقَدْرَتِها على خَلْقِ الْأَلْوانِ النَّفسِيَّةِ الَّتِي تَصْبِغُ كُلَّ شَيْءٍ وتُلَوِّنُهُ لِإِظْهارِ حَقائِقِهِ ودقائقِهِ حتّى يَجْريَ مَجْراهُ في النَّفسِ ويَجوزُ مَجازَهُ فيها؛ فَكُلُّ شَيْءٍ تَعَاوَرَهُ النَّاسُ من أَشْياءِ هَذِهِ الدُّنْيا فهوَ إِنَّمَا يُعْطِيهِمَ مادَّةً في هَيْئَتِهِ الصَّامِتَةِ، حتّى إذا أَنتهى إلى الشَّاعرِ أَعْطاهُ هَذِهِ المادَّةَ في صُورَتِها المَكْتَمَلَةِ، فأَبانَتْ عَنِ نَفْسِها في شَعْرِه الْجَميلِ بِخِصائصٍ ودقائقٍ لَمْ يَكُنْ يراها الْأَناسُ كَأَنَّها لَيْسَتْ فيها.

فَبِالشَّعْرِ تَتَكَلَّمُ الطَّبِيعَةُ في النَّفسِ وتَتَكَلَّمُ النَّفْسُ لِلْحَقِيقَةِ وتَأْتِي الْحَقِيقَةُ في أَطْرافِ أَشْكالِها وأَجْمَلِ مَعارِضِها، أي في الْبَيانِ الَّذِي تَصْنَعُهُ هَذِهِ النَّفْسُ الْمُلهِمَةُ حينَ تَتَلَقَّى النُّورَ من كُلِّ ما حَوْلَها وتَعكِّسُهُ في صِناعَةٍ نورانيَّةٍ مَتَمُوجَةٍ بِالْأَلْوانِ في الْمَعانِي وَالْكَلِماتِ وَالْأَنغامِ.

وَالإِنْسانُ مِنَ النَّاسِ يَعِيشُ في عَمْرٍ واحدٍ، وَلَكِنْ الشَّاعرُ يَبْدُو كَأَنَّهُ في أَعْمارٍ كَثيرةٍ من عِواطِفِهِ، وكَأَنَّمَا يَنْطَوِي على نَفوسٍ مُخْتَلِفَةٍ تَجْمَعُ الْإِنْسانيَّةَ من أَطْرافِها،

وبذلك خُلِقَ لِيُفِيضَ من هذه الحياة على الدنيا، كأنما هو نبع إنساني للإحساس يغترف الناس منه ليزيد كل إنسان معاني وجوده المحدود ما دام هذا الوجود لا يزيد في مدته، ثُمَّ لِيُرْهِفَ^(١) الإنسان بذلك أعصابه فتدرك شيئاً ممّا فوق المحسوس، وتكثته^(٢) طرفاً من أطراف الحقيقة الخالدة التي تتسع بالنفس وتخرجها من حدود الضرورات الضيقة التي تعيش فيها لتصلها بلذات المعاني الحرة الجميلة الكاملة؛ وكأنّ الشعر لم يجيء في أوزانٍ إلّا ليحمل فيها نفس قارئه إلى تلك اللذات على اهتزازات النغم؛ وما يطرب الشعر إلّا إذا أحسسته كأنما أخذ النفس لحظة وردّها.

والشاعر الحقيقي بهذا الاسم - أي الذي يغلب على الشعر ويفتح معانيه ويهتدي إلى أسرارِهِ ويأخذ بغاية الصنعة فيه - تراه يضع نفسه في مكان ما يعانيه من الأشياء وما يتعاطى وصفه منها، ثُمَّ يَفْكُرُ بعقله على أنّه عقل هذا الشيء مضافاً إليه الإنسانية العلية، وبهذا تنطوي نفسه على الوجود فتخرج الأشياء في خلقه جميلة من معانيها وتصبح هذه النفس خليفة أخرى لكل معنى داخلها أو اتصل بها؛ ومن ثمّ فلا ريب أنّ نفس الشاعر العظيم تكاد تكون حاسة من حواس الكون.

ولو سئلت أزمان الدنيا كيف فهم أهلها معاني الحياة السامية وكيف رآوها في آثار الألوهية عليها، لَقَدَّمْ كل جيل في الجواب على ذلك معاني الدين ومعاني الشعر.

وليست الفكرة شعراً إذا جاءت كما هي في العلم والمعرفة، فهي في ذلك علم وفلسفة، وإنّما الشعر في تصوير خصائص الجمال الكامنة في هذه الفكرة على دقة ولطافة كما تتحوّل في ذهن الشاعر الذي يلوّنها بعمل نفسه فيها ويتناولها من ناحية أسرارها.

فالافكار ممّا تُعانيه الأذهان كلّها ويتواطأ^(٣) فيه قلب كل إنسان ولسانه، يَبْدَأُ أنّ فنّ الشاعر هو فنّ خصائصها الجميلة المؤثرة، وكأنّ الخيال الشعري ينحدر من النحل ثلّم بالأشياء لئبديع فيها المادة الحلوة للذوق والشعور، والأشياء باقية بعد كما هي لم يغيّرْها الخيال، وجاء منها بما لا تحسبه منها؛ وهذه القوة وحدها هي الشعرية.

فالشاعر العظيم لا يرسل الفكرة لإيجاد العلم في نفس قارئها حسب، وإنّما هو يصنعها ويأخذو الكلام فيها بعضه على بعض، ويتصرّف بها ذلك التصرف

(١) يُرْهِف: يرقق ويلطف.

(٢) تكثته: تفرّقه.

(٣) يتواطأ: يجتمع.

لِيُوجَدَ بِهَا الْعِلْمُ وَالذُّوقُ مَعًا؛ وَعَبْقَرِيَّةُ الْأَدَبِ لَا تَكُونُ فِي تَقْرِيرِ الْأَفْكَارِ تَقْرِيرًا عِلْمِيًّا بَحْثًا، وَلَكِنْ فِي إِسَالِهَا عَلَى وَجْهِ مَنْ أَلْتَسَدِيدِ لَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُقْرَأَ فِي مَكَانِهَا مِنَ الْنَفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ حَائِلٌ. وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْأَفْكَارُ الْأَدَبِيَّةُ الْعَالِيَةُ الَّتِي يُلْهِمُهَا أَفْزَادُ الشُّعْرَاءِ وَالْكَتَابِ هِيَ أَفْكَارَ عَقْلِ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ، فَلَا تَفْصِلُ عَنْهُمْ الْفِكْرَةَ فِي أَسْلُوبِهَا الْبَيَانِيِّ الْجَمِيلِ حَتَّى تَتَّخِذَ وَضْعَهَا التَّارِيخِيَّ فِي الدُّنْيَا، وَتَقُومَ عَلَى أَسَاسِهَا فِي أَعْمَالِ النَّاسِ، فَتَتَحَقَّقُ فِي الْوُجُودِ وَيُعْمَلُ بِهَا؛ وَهَذَا طَرَفٌ مِمَّا بَيْنَ الْأَدَبِ الْعَالِيِّ وَبَيْنَ الْأَدْيَانِ مِنَ الْمَشَابَهَةِ.

وَمَتَى نَزَلَتْ الْحَقَائِقُ فِي الشُّعْرِ وَجِبَ أَنْ تَكُونَ مُوزَوْنَةً فِي شَكْلِهَا كُوزِنَهُ، فَلَا تَأْتِي عَلَى سَرْدِهَا^(١) وَلَا تُؤْخَذُ هَوْنًا كَالْكَلَامِ بِلا عَمَلٍ وَلَا صِنَاعَةٍ، فَإِنَّهَا إِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا الشُّاعِرُ جَمَالًا وَنَسَقًا مِنَ الْبَيَانِ يَكُونُ لَهَا شَبِيهًا بِالْوِزْنِ، وَيَضَعُ فِيهَا رُوحًا مُوسِيقِيَّةً بِحَيْثُ يَجِيءُ الشُّعْرُ بِهَا وَلَهُ وَزْنَانِ فِي شَكْلِهَا وَرُوحِهِ - فَتَلِكُ حَقَائِقُ مَكْسُورَةٌ تَلُوحُ فِي الذُّوقِ كَالنِّظَمِ الَّذِي دَخَلَتْهُ الْعِلَلُ فَجَاءَ مُخْتَلًا قَدْ زَاغَ أَوْ فَسَدَ.

وَالْخِيَالُ هُوَ الْوِزْنُ الشُّعْرِيُّ لِلْحَقِيقَةِ الْمُرْسَلَةِ، وَتَخِيلُ الشُّاعِرُ إِنَّمَا هُوَ إلقاءُ النُّورِ فِي طَبِيعَةِ الْمَعْنَى لِيَشْفَ^(٢) بِهِ، فَهُوَ بِهَذَا يَرْفَعُ الطَّبِيعَةَ دَرَجَةً إِنْسَانِيَّةً، وَيَرْفَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ دَرَجَةً سَمَاقِيَّةً؛ وَكُلُّ بَدَائِعِ الْعُلَمَاءِ وَالْمَخْتَرَعِينَ هِيَ مِنْهُ بِهَذَا الْمَعْنَى، فَهُوَ فِي أَصْلِهِ ذِكَاةُ الْعِلْمِ، ثُمَّ يَسْمُو فَيَكُونُ هُوَ بَصِيرَةً الْفَلَسَفَةِ، ثُمَّ يَزِيدُ سُمُوءَهُ فَيَكُونُ رُوحَ الشُّعْرِ؛ وَإِذَا قَلَبْتَ هَذَا النَّسَقَ فَانْحَدَرْتَ بِهِ نَازِلًا كَمَا صَعَدْتَ بِهِ، حَصَلَ مَعَكَ أَنَّ الْخِيَالُ رُوحُ الشُّعْرِ، ثُمَّ يَنْحَطُّ شَيْئًا فَيَكُونُ بَصِيرَةً الْفَلَسَفَةِ، ثُمَّ يَزِيدُ أَنْحِطَاطًا فَيَكُونُ ذِكَاةُ الْعِلْمِ، فَالشُّاعِرُ كَمَا تَرَى هُوَ الْأَوَّلُ إِنْ أَرْتَقَتِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الْأَوَّلُ إِنْ أَنْحَطَتِ الدُّنْيَا؛ وَكَأَنَّمَا إِنْسَانِيَّةُ الْإِنْسَانِ تَبْدَأُ مِنْهُ.

إِذَا قَرَرْنَا لِلشُّعْرِ هَذَا الْمَعْنَى وَعَرَفْنَا أَنَّهُ فَنُّ الْنَفْسِ الْكَبِيرَةِ الْحَسَّاسَةِ الْمُلْهِمَةِ حِينَ تَتَنَاولُ الْوُجُودَ مِنْ فَوْقِ وَجُودِهِ فِي لُطْفٍ رُوحَانِيٍّ ظَاهِرٍ فِي الْمَعْنَى وَاللُّغَةِ وَالْأَدَاءِ - وَجِبَ أَنْ نَعْتَبِرَ نَقْدَ الشُّعْرِ بِاعْتِبَارٍ مِمَّا قَرَرْنَاهُ، وَأَنْ نَقِيمَهُ عَلَى هَذِهِ الْأَصُولِ؛ فَإِنَّ النِّقْدَ الْأَدَبِيَّ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ - وَخَاصَّةً نَقْدَ الشُّعْرِ - أَصْبَحَ أَكْثَرَهُ، وَمِمَّا لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَسَاءَ التَّصَرُّفُ بِهِ، وَوَقَعَ الْخَلْطُ فِيهِ، وَتَنَاولَهُ أَكْثَرُ أَهْلِهِ بِعِلْمٍ نَاقِصٍ، وَطَبِيعٍ ضَعِيفٍ، وَذُوقٍ فَاسِدٍ، وَطَمِعَ فِيهِ مَنْ لَا يُحْصِلُ مَذْهَبًا صَحِيحًا، وَلَا يَتَجَنَّبُ

(٢) لِيَشْفَ: لِيُظْهِرَ وَيَرِقُّ.

(١) سَرْدِهَا: رَوَاتِبِهَا.

لِرَأْيِي جَيِّدٌ، حَتَّى جَاءَ كَلَامُهُمْ وَإِنَّ فِي اللَّغْوِ وَالتَّخْلِيصِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَخْفُ مَحْمَلًا، فَإِنَّكَ مِنْ هَذَيْنِ فِي حَقِيقَةٍ مَكْشُوفَةٍ تَعْرِفُهَا تَخْلِيصًا وَلِغَوًا، وَلَكِنَّكَ مِنْ نَقْدِ أَوْلَثِكَ فِي أَدَبٍ مُزَوَّرٍ وَدَعْوَى فَارِغَةٍ وَزَوَائِدَ مِنَ الْفَضُولِ وَالتَّعَسُّفِ يَتَزَيَّدُونَ بِهَا لِلنَّفْحِ وَالصَّوْلَةِ وَإِبْهَامِ النَّاسِ أَنَّ الْكَاتِبَ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا هُوَ تَحْتَ قُدْرَتِهِ . عَلَى أَنَّ جَهْدَ عَمَلِهِ إِذَا فَتَشَّتْهُ وَأَعْتَبَرَتْ عَلَيْهِ مَا يَخْلُطُ فِيهِ، أَنَّهُ يَكْتُبُ حَيْثُ يُرِيدُ أَلْتَقْدُ أَنْ يُحَقِّقَ، وَيَمْلَأُ فَرَاغًا مِنَ الْوَرَقِ حَيْثُ يَقْتَضِيهِ الْبَحْثُ أَنْ يَمْلَأَ فَرَاغًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ .

وَقَدْ قُلْنَا فِي كِتَابِنَا (تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ): إِنَّ أَسْتَادَ آلَادِ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِتَارِيخِهَا وَتَقْصِي مَوَادِّهَا - ذَوْقًا فَنِيًّا مَهْدَبًا مَصْقُولًا، وَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ لَهُ هَذَا الذَّوْقُ إِلَّا مِنْ إِبْدَاعٍ فِي صِنَاعَتِي الشَّعْرِ وَالنَّثْرِ، ثُمَّ يَجْمَعُ إِلَى هَذَيْنِ (أَيِ الْإِحَاطَةِ وَالذَّوْقِ) تِلْكَ أَلْمُوهَبَةُ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَلْفُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْفِكْرِ وَالْمُخِيلَةِ فُتَبْدَعُ مِنَ الْمَوْرِخِ الْفَيْسَلُوفِ الشَّاعِرِ الْعَالَمِ شَخْصًا مِنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا هُوَ الَّذِي نُسَمِّيهِ الْنَاقِدَ الْآدَبِيَّ .

هَذِهِ هِيَ صِفَاتُ الْنَاقِدِ فِي رَأْيِنَا؛ فَانْظُرْ أَيْنَ تَجِدُهُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَسَاتِدَةِ الْمُخْتَصَرِينَ . . . فِي أَدَبِهِمْ، الْمَطْوَلِينَ . . . فِي أَلْقَابِهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَيَتَعَاطَوْنَ الْقَدْرَ وَلَيْسَ لَهُمْ وَسَائِلُهُ إِلَّا مَا كَانَ ضَعْفًا وَقِلَّةً وَإِدْبَارًا، وَقَدْ فَاتَهُمْ مَا لَا تَحْمِلُهُ أَقْدَارُهُمْ وَلَا تَبْلُغُهُ قَوَاهِمُ، وَجَهِلُوا أَنَّ الْنَاقِدَ الْآدَبِيَّ إِنَّمَا يُلْقِي دَرَسًا عَالِيًا لَا يُدَلُّ فِيهِ عَلَى الْعُيُوبِ الْفَنِيَّةِ إِلَّا بِإِظْهَارِ الْمَحَاسِنِ الَّتِي تُقَابِلُهَا فِي أَسْمَى مَا أَتَتْهُ إِلَى الْفَنِّ مِنْ آثَارِ تَارِيخِهِ، فَيَكُونُ الْقَدْرُ تَهْدِيًا وَتَلْخِيصًا لِغَنَوْنِ الْأَدَبِ كُلِّهَا؛ وَهُوَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَجْلُوهَا عَلَى النَّاسِ وَيُبْدَعُ فِيهَا وَيَزِيدُ فِي مَادِيَّتِهَا وَيُسَهِّلُهَا عَلَى الْقُرَّاءِ وَيُحْصِلُهَا لَهُمْ تَحْصِيلًا لَا يَلْفُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَيُعْطِيهِمْ مِنْ كُلِّ ضَعِيفٍ مَا هُوَ قَوِيٌّ، وَمِنْ كُلِّ قَوِيٍّ مَا هُوَ أَقْوَى .

وَرَأَيْنَاهُمْ فِي نَقْدِ الشَّعْرِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى أَنْ يُعْلَقُوا عَلَى كَلَامِ الشَّاعِرِ، فَيَجِيءُ عَمَلُهُمْ فِي الْجُمْلَةِ كَأَنَّهُ تُصْنِفُ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ وَشَرَحَ لَهُ وَتَصَفَّحَ عَلَى بَعْضِ مَعَانِيهِ، وَبِهَذَا يَرْجِعُ الشَّاعِرُ وَإِنَّهُ هُوَ الْمَتَصَرِّفُ فِي نَاقِدِهِ يُدِيرُهُ كَيْفَ شَاءَ، وَيَجِيءُ هَذَا الْنَاقِدُ زَائِدًا مُتَطَفِّلًا، فَتَأْتِي كِتَابَتُهُ وَإِنَّهَا لَضَرْبٌ مِنْ سُخْرِيَةِ الْمَنْقُودِ بِنَاقِدِهِ، وَيُصْبِحُ وَضْعُ الْكَلَامِ عَلَى الْعَكْسِ، فَالشَّاعِرُ الْمَنْقُودُ لَمْ يَتَكَلَّمْ وَلَكِنَّهُ أَبَانَ قُصُورَ الْنَاقِدِ وَجَهْلَهُ، فَهُوَ الْنَاقِدُ وَإِنْ سَكَتَ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَنْقُودُ وَإِنْ تَكَلَّمَ!

وَهَذَا الْمَتَعَلِّقُ عَلَى أَخْبَارِ الشَّاعِرِ وَشِعْرِهِ كَتَعَلَّقِيَ التَّلْخِيصِ عَلَى أَصْلِهِ الْمَطْوَلِ وَالشَّرْحِ عَلَى مَتْنِهِ الْمَوْجِزِ، إِنَّمَا هُوَ كَاتِبٌ يَجِدُ مِنْ ذَلِكَ مَادَّةً إِنشَائِيَّةً فَيَتَصَرَّفُ بِهَا

ليكتب؛ ولا يراد من النقد أن يكون الشاعر وشعره مادة إنشاء، بل مادة حساب مُقدَّر بحقائق معينة لا بُد منها؛ فنقد الشعر هو في الحقيقة علم حساب الشعر، وقواعده الأربع التي تقابل الجمع والطرح والضرب والقسمة: هي الأطلاع والذوق والخيال والفريضة الملهمة.

وَمُ صَرَبَ آخَرُ مِنْ تَعَلَّقِ الضعفاء، يتناول الشاعر باعتباره رجلاً له موضعه من الناس ومنزله من الحياة، ثم لا يعدو ذلك وهو تزوير للمؤرخ بجعله ناقداً، وتزوير للنقاد برده مؤرخاً؛ على أن هذا لا بُد منه في النقد الصحيح، ولكنه لا يقوم بنفسه ولا تنفذ به بصيرة النقد، إذ الشاعر لم يكن شاعراً بأنه رجل من الناس وحي في الأحياء وعمر من الأحداث المؤرخة، ولكن بموضوعه من أسرار الحياة وصلته نفسه بها وقدره هذه النفس على أن تنفذ إلى حقائق الطبيعة في كائناتها عامة، وفي إنسانها خاصة، ثم بقدرة مثل هذه في النفاذ إلى أسرار اللغة الشعرية التي هي الوجود المعنوي لكل ذلك، والتصرف بها على طبقات معانيه حتى لا تقصر عن الغاية ولا تقع دون القصد، فإن الشعر إن هو إلا ظهور عظمة النفس الشاعرة بمظهرها اللغوي، ولئن كان في نقد الشعر تاريخ لا يتم النقد إلا به، فهو تاريخ الشعر في نفس قائله، ثم تاريخ هذه النفس في معاني الشعر من عصرها، ثم أدب هذا الشاعر من الوجود الأدبي للغة التي نظم بها؛ وذلك لا بُد أن يقع فيه تاريخ الشاعر نفسه مخلصاً من نواحيه في جهات الحياة، متعمقاً فيه بالاستقصاء، متغللاً إليه بالنقد.



وإن لنا رأياً بسطناه^(١) مراراً، وهو أنه لا ينبغي أن يعرض لنقد الشاعر والكلام عنه إلا شاعر كبير يكون ذا طبيعة في النقد، أو كاتب عظيم يكون ذا طبيعة في الشعر؛ أي لا بُد من الأدب والشعر معاً لنقد الشعر وحده فيأتي الكلام فيه من العلم والذوق والإحساس والإلهام جميعاً، فيتبين الناقد وجوه النقص الفني، ويعرف به نقصت وما ذا كان ينبغي لها وما وجه تمامها، ثم يعرف من الكمال الفني مثل ذلك، ويحس على الحاليتين بالمعاني التي أحسها الشاعر حين أنتزع شعره منها، وما كان يتخالجه^(٢) وقتئذ من الفكر ويتمثل له من الصور المعنوية التي

(١) يتخالجه: يعتمل في نفسه ويحسّه.

(٢) بطناه: أظهرناه وأوضحناه.

أَلْهَمْتُهُ إِلْهَامَهَا؛ فَإِنَّ أَلْمَعَانِيَّ الْمَكْتُوبَةَ هِيَ شَعْرُ أَالشَّاعِرِ، وَلَكِنَّ تِلْكَ أَلْمَعَانِيَّ أَلْمَحْسُوسَةَ هِيَ شَعْرُ أَالشَّاعِرِ، وَإِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِأَلْتَوْهُمِ وَأَلْأَسْتِرْسَالِ إِلَى مَا وَرَاءِ أَالشَّاعِرِ مِنْ بَوَاعِثِهِ، وَمَا تَمَوَّجَتْ بِهِ رُوحُ أَالشَّاعِرِ عِنْدَ عَمَلِهِ، وَمَا عَرَضَتْ لَهَا بِهِ طَبَائِعُ أَلْمَعَانِي؛ وَهَذَا كُلُّهُ لَا يُحْسِنُهُ أَلْنَاقِدُ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَاعِراً فِي قُوَّةٍ مَنْ يَنْقُدُهُ أَوْ أَقْوَى مِنْهُ طَبِيعَةُ شَعْرِ.

وَأَلْنَقْدُ إِنَّمَا هُوَ إِعْطَاءُ أَالكَلَامِ لِسَاناً يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ كَلَامٌ مُتَّبِعٌ فِي مُحْكَمَةٍ لِيُقِيمَ أَوْ يُزَيِّحَ شُبْهَةً أَوْ يُقَرِّرَ حَقِيقَةً أَوْ يَبْسِطَ مَعْنَى أَوْ يُوجِّهَ عِلَّةً أَوْ يَكْشِفَ خَافِئاً أَوْ يُثَبِّتَ نَقِيبَةً أَوْ يُظْهِرَ إِحْسَاناً؛ وَبِأَلْجَمَلَةِ فَهُوَ تَفْضُّ أَلْسَيِّئَةِ وَأَلْحَسَنَةِ، وَوَقُوعُ أَأَدَلَّةِ أَلْعِلْمِ وَأَلْفَنِّ وَأَلذُّوقِ مَوَاقِعِهَا، وَتَكَلُّمُ أَالكَلَامِ بِذَاتِ نَفْسِهِ مَا تُكَبِّرُ مِنْهُ وَمَا تَسْتَجِيدُ؛ وَأَلشَّاعِرُ وَأَلْنَاقِدُ يَلْتَقِيَانِ جَمِيعاً فِي أَالقَارِيءِ فَوْجَبٍ مِنْ ثَمَّ أَنْ يَكُونَ أَلْنَاقِدُ قُوَّةً تَكْشِفُ قُوَّةَ مِثْلِهَا أَوْ دُونَهَا لِيُصَحِّحَ فَنَّ مِثْلَهُ أَوْ يُقَرِّره أَوْ يَزِيدَ عَلَيْهِ فَضْلاً بَيَانٍ وَمَزِيَّةً فِكْراً؛ وَبِهَذَا يُصْبِحُ أَالقَارِيءُ كَأَلْسَانِ الَّذِي مَعَهُ أَالدَّلِيلُ وَأَمَامَهُ أَلْمَنْظَرُ، أَيْ مَعَهُ أَالتَّارِيخُ أَلنَّاطِقُ وَبِإِزَائِهِ أَالتَّارِيخُ أَالصَّامِتُ. وَإِذَا كَانَ أَالشَّاعِرُ وَشِعْرُهُ إِنَّمَا هُمَا أَلْنَفْسُ أَلْمُمْتَازَةُ وَحَوَادِثُهَا وَمَعَانِي أَلْحَيَاةِ فِيهَا، فَلَيْسَ يَنْجُو أَنْ يَكُونَ أَلْنَاقِدُ تَاماً إِلَّا بِنَفْسٍ مِنْ نَوْعِهَا فِي دِقَّةِ أَالحِجْسِ وَلُطْفِ أَالنَّظَرِ وَأَلْأَسْتِشْفَافِ وَقُوَّةِ أَالتَّأَثُّرِ بِمَعَانِي أَلْحَيَاةِ وَسُمْوُ أَلْإِلْهَامِ وَأَلْعَبْقَرِيَّةِ: وَبِذَلِكَ يَجِيءُ أَلْنَقْدُ أَالصَّحِيحُ بَيَاناً خَالِصاً مَنْخُولاً كَأَنَّهُ شَرَحَ نَفْسَ لِنَفْسٍ مِثْلِهَا.

وَلَيْسَ أَلْأَنْفُ هُوَ الَّذِي يَنْقُدُ أَلْأُورْدَةَ أَلْعُطْرَةَ أَلْفِيَّاحَةً، وَإِنَّمَا تَنْقُدُهَا أَلْحَاسَةُ الَّتِي فِي أَلْأَنْفِ، وَنَاقِدُ أَالشَّاعِرِ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَاعِراً فَهُوَ أَنْفُ صَحِيحُ أَالتَّرْكِيبِ، وَلَكِنْ بِأَلْجَلْدِ وَأَلْعُظْمِ دُونَ تِلْكَ أَلْحَاسَةِ الَّتِي هِيَ رُوحُ أَالعَصَبِ أَلْمُنْبِتِ فِي هَذَا أَالتَّرْكِيبِ وَأَلْمُتَّصِلِ بِمَا وَرَاءَهُ مِنْ أَعْصَابِ أَلدِّمَاغِ، فَهَذَا أَلْأَنْفُ. . . يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَنَاوَلَ أَلْأُورْدَةَ، وَلَكِنْ بِحَسِّ غَلِيظٍ مَحْقَقُهُ^(١) أَلْأَفَّةُ كَمَا يَتَنَاوَلُ حَجَراً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَشَباً أَيُّهَا كَانَ، فَأَلْأُورْدَةُ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ أَالأَشْيَاءِ يَمْتَّازُ بِأَللَّيْنِ وَيَخْتَصُّ بِأَلنَّعْمَةِ وَيَسْطَعُ بِأَلرُّونِقِ وَيَزْهُو بِأَللُّونِ، وَيَذْهَبُ يَتَكَلَّمُ فِي هَذَا كُلِّهِ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي أَلْأُورْدَةِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ أَلْأُورْدَةُ.

وَمَتَى كَانَ أَلْبَحْثُ هُوَ أَلْبَحْثُ فِي أَلسَّمَاءِ وَأَفْلَاقِهَا وَأَجْرَامِهَا فَلَا يَسْتَقِلُّ بِهِ إِلَّا أَلنَّاطِقُ أَلْمُرْكَبُ أَيْ الَّذِي مَعَهُ عَيْنُهُ وَتَلْسُكُوبُهُ وَعِلْمُهُ جَمِيعاً، إِنْ نَقَصَ مِنْ ذَلِكَ

(١) مُحَقَّقُهُ: مَحَقَّهُ.

فبقدر نقصانه يكون ضعفه، وإن تمَّ فيقدر تمامه يكون وفاءه؛ ولو أمكن أن يفصل الشاعر من شعره فيقطع ما بينه وبين المعاني من نسب نفسه، ويتعد عن الشعر ليراه جديداً عليه ويميزه من كل جهاته - لكان هو الناقد؛ فنأخذ الشعر هو الشاعر نفسه، ولكن في وضع أتم وأوفى، وحالة أئین وأبصر، أي كأنه الشاعر نفسه متفحاً تاماً بغير ضعف ولا نقص.

ومن أجل ذلك ترى من آية النقد البديع المحكم إذا قرأته ما يخيل إليك أن الشعر يعرض نفسه عليك عرضاً ويحصل لك أمره ويبين حالته في ذهن شاعره. وكيف توافى وأتلف، وكيف أنتزع الشاعر من الحياة، وما وقع فيه من قدر الإلهام، وما أصابه من تأثير الإنسان وما اتفق له من حظ الطبيعة والأشياء وبالجملة يورد النقد عليك ما ترى معه كأن حركة الدم والأعصاب قد عادت مرة أخرى إلى الشعر.

ألا وإن شعرنا العربي الجميل قد أصبح اليوم في أشد الحاجة إلى من يعلم القارئ كيف يدوقه ويتبينه ويخلص إلى سر التأثير فيه، ويخرجه مخرجاً سرياً في أنغامه وألحانه ويأتي به من نفس شاعره ومن نفسه جميعاً؛ ففقه التمييز في هذا كله على تسديد وصواب هي التي يعطيها الناقد لقرائه؛ والشعر فكر وقراءته فكر آخر، فإن قصر هذا عن أن يبلغ ذاك ليتصل به ويتغلغل فيه فلا بد للفكرين من صلة فكرية هي كتابة الناقد الذي هو من ناحية كمالاً للطبيعة الناقصة، ومن ناحية أخرى شرح للطبيعة الكاملة، ومن ناحية ثالثة هو بذوقه وفنه قانون الانتظام الدقيق الذي يبين به ما استقام في الكلام وما أغوج.

وطريقتنا نحن في نقد الشعر تقوم على ركنين: البحث في موهبة الشاعر، وهذا يتناول نفسه وإلهامه وحوادثه؛ والبحث في فنه البياني، وهو يتناول ألفاظه وسبكه وطريقته، وسنقول فيهما معاً:

فأما الكلام في فن الشعر، فالمراد بالشعر - أي نظم الكلام - هو في رأينا التأثير في النفس لا غير، والقرن كله إنما هو هذا التأثير، والاحتياض على رجة النفس له وأهتزازها بالفاظ الشعر ووزنه وإدارة معانيه وطريقة تأديتها إلى النفس، وتأليف مادة الشعر من كل ذلك تأليفاً متلائماً مستوياً في نسجه لا يقع فيه تفاوت ولا اختلال، ولا يحمل عليه تعسف ولا استكراه؛ فيأتي الشعر من دقته وتركيبه

أَلْحِي وَنَسَقِهِ الطَّبِيعِي كَأَنَّمَا يُفَرِّغُ بِهِ عَلَى الْقَلْبِ الْإِنْسَانِي لِيَفْتَحَ لِمَعَانِيهِ إِلَى الرُّوحِ؛
وَأَلْشَعْرُ الْعَرَبِي إِذَا تَمَثَّلَ لَهُ فِي صِنَاعَتِهِ وَسَائِلِ التَّأْثِيرِ وَأَحْكَمَ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ، كَانَ
أَسْمَى شَعْرٍ إِنْسَانِي فِتْرَاهُ يَطْرُدُ بِالْفَافِظَةِ الْجَمِيلَةِ السَّائِعَةِ وَكَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُ فِيهَا مَعَانِي،
بَلْ يَحْمِلُ حَرَكَاتٍ عَصَبِيَّةً لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَنْسَابَ فِي الدِّمِّ حَائِلٌ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا
أَنْ يَغْمُرَكَ بِالطَّرِبِ وَيَهْزِكَ مِنْ أَعْمَاقِ النَّفْسِ وَيُورِدُ عَلَيْكَ مِنْ نَفْحَةِ الرُّوحِ مَا إِنْ
تَدَبَّرْتَهُ فِي نَفْسِكَ وَأَفْصَحْتَ عَنْهُ شُعُورَكَ رَأَيْتَهُ فِي حَقِيقَتِهِ وَجْهًا مِنْ نِسْيَانِ الْحَيَاةِ
الْأَرْضِيَّةِ وَانْتِقَالَ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى مِنَ السُّرُورِ وَالْأَهْتِاجِ وَالْأَلَمِ وَالشَّجْوِ بِحَيَاةِ الدِّمِّ
الْثَائِرِ وَحَدَهُ غَيْرَ مُشَارِكٍ فِيهَا إِلَّا مِنَ الْقَلْبِ.

وَالَّذِينَ يَجْهَلُونَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الشَّعْرِ الْعَرَبِي فِي مِزَاجِهِ الْخَاصِّ - فَلَا يَتَعَبَّرُونَ
حِينَ ذَا طِبَاعٍ وَخَصَائِصٍ لَا بُدَّ مِنْ مِرَاعَاتِهَا وَالتَّزْوِيلِ عَلَى حُكْمِهَا وَتَلْقِيْهَا بِمَا يُوَافِقُهَا
كَمَا لَا بُدَّ مِنْ أَشْبَاءِ ذَلِكَ لِأَمْرَاءِ جَمِيلَةٍ - تَرَاهُمْ يُخْلَوْنَ بِقَوَانِينِ صِنَاعَتِهِ الْبَيَانِيَّةِ
وَيُنْزِلُونَ الْفَافِظَةَ دُونَ مَنَازِلِهَا وَيُرْسِلُونَ مَعَانِيَهُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهَا الشَّعْرِيَّةِ وَيَبْتَلُونَ
بِفَضُولِ كَثِيرَةٍ هِيَ كَالْآفَاتِ وَالْأَمْرَاضِ، فَيَأْتُونَ بِنَظْمٍ تَقْرُوهُ إِذَا قَرَأْتَهُ وَأَنْتَ تَتَلَوَّى
كَأَنَّمَا يَقْرَعُ عَلَى قَلْبِكَ بِقَبْضَةٍ يَدٍ أَوْ يَدُقُّ عَلَيْهِ بِحَجَرٍ . وقد فشا هذا النَّوْعُ مِنْ
الشَّعْرِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَأَصْبَحَ لِمَا فَسَدَ مِنْ ذَوْقِ الْأَدَبِ وَمَا أَلْتَأَتْ^(١) مِنْ أَمْرِ الَّلَفَةِ
وَمَا أَعْوَجَ مِنْ طَرِيقِ الْفَلَسَفَةِ وَمَا عَمَّتْ بِهِ الْبَلَوَى مِنَ التَّقْلِيدِ الْأُورُوبِيِّ، وَكَثِيرًا مَا
رَأَيْتُ الْقَصِيدَةَ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ كَأَمْرَاءِ سُلُخٍ وَجْهَهَا وَوَضِعَتْ لَهَا جِلْدَةً وَجْهَ مَيْتٍ . .
وَالنَّظْمُ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُصَرِّفُ الشَّعْرَ عَلَى حُدُودِهِ النَّفْسِيَّةِ وَلَا يُحْكِمُهُ فِيهَا، بَلْ
تُصَرِّفُهُ الْآلِفَافُ كَيْفَ اتَّفَقَتْ لَهُ عَلَى وَجْهِهَا الْمُتَلَوِّيَّةِ، وَتَسْوِسُهُ الْمَعَانِي سِيَاسَةً
عَمِيَاءَ فَقَدَتْ بَاصِرَتِهَا^(٢) مَعًا، وَيَحْسِبُونَ كَلَامَهُمْ مِنَ النُّورِ الْعَقْلِيِّ، وَلَكِنَّهُ النُّورُ فِي
قَطْعِهِ ثَمَانِينَ أَلْفَ مِيلٍ فِي الثَّانِيَةِ، فَلَا يَكَادُ يُقَالُ فِي هَذَا الْعَالَمِ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ
وَيُسَى وَيُلْحَقَ بِالْأَنْهَاءِ . . .

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الصَّنَاعَةِ الْفَاسِدَةِ هُوَ بَعِيْنُهُ ذَلِكَ النَّوْعُ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي أَفْسَدَ
الشَّعْرَ مِنْذُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ، غَيْرَ أَنَّ الْقَدِيمَ كَانَ فَسَادًا فِي الْآلِفَافِ يَجْعَلُهَا كُلُّهَا أَوْ
أَكْثَرَهَا مُحَالًا مِنَ الصَّنَعَةِ، وَالْحَدِيثُ جَاءَ فَسَادًا فِي الْمَعَانِي يَجْعَلُهَا كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا
مُحَالًا مِنَ الْبَيَانِ.

(٢) بَاصِرَتِهَا: نَظَرُهَا.

(١) الثَّانِي: شَرُّهُ وَتَلَوَّى وَفَسَدَ.

ويزعم أصحاب هذا الشعر أنهم فلاسفة، ولكنهم كذلك في سرقة الفلاسفة لا غير . . . ولو علموا لعلموا أن ألفاظ الشعر هي ألفاظ من الكلام يضع الشعر فيها الكلام والموسيقى معاً، فتخرج بذلك من طبيعة اللغة القائمة على تأدية المعنى بالدلالة وحدها إلى طبيعة لغة خاصة أرتى منها تؤدي المعنى بالدلالة والنغم والذوق، فكل كلمة في الشعر تختلب لمعناها من تركيبه، ثم لموضعها من نفسه، ثم لجرسها في ألقانها؛ وذلك كله هو الذي يجعل للكلمة لونها المعنوي في جملة التصوير بالشعر؛ وما يمر الشعراء الأعظم بلطفة من اللغة إلا وهي كأنها تكلمه تقول: دعني أو خذني.

وكما أنه لا بد للإزهار من جو الأشعة، كذلك لا بد للمعاني الشعرية من جو اللغة البيانية، فالبيان إنما هو أشعة معاني القصيدة؛ وقد يحسبون أن الصناعة البيانية صناعة متكلفة لا شأن لها في جمال الشعر ودقة التعبير، وما ننكر أن من البيان الجميل أشياء متكلفة، ولكنها تنزل من أساليب البلاغة العالية منزلة كمنزلة الطرف والدل والخلاعة في الحبيبة الجميلة.

إن هذه الفنون ليست من جمال الخلق والتركيب في المرأة، ولكنها متى ظهرت في الجمال ألفتان أصبح بدونها - وهو جميل دائماً - كأنه غير جميل أحياناً.

هنا صناعة هي روح الحسن في الحياة، وصناعة مثلها هي روح الحسن أحياناً في البلاغة، وما أتراكم البيانية في مواضعها من الشعر الحي إلا كالملاحم والتفاسيم في مواضعها من الجمال الحي؛ وكثيراً ما يخيّل إلي حين أنامل بلاغة ألفظ الرشيقي إلى جانب لفظ جميل في شعر محكم السبك، أن هذه الكلمة من هذه الكلمة كحب رجل متأنق يتقرب من حب امرأة جميلة، وعطف أمومة على طفولة، وحنين عاطفة لعاطفة، إلى أشياء ونظائر من هذا الشئ الرقيق الحساس؛ فإذا قرأت في شعر أصحابنا أولئك رأيت من لفظ كالأشريطي أخذ بتلابيب لفظ كالمجرم. إلى كلمتين هما معاً كالأضارب والمضروب. . . إلى همج ورعاع وهرج ومرج وهيج وفتنة؛ أما القافية فكثيراً ما تكون في شعرهم لفظاً ملاكماً. . . ليس أمامه إلا رأس القاري.

وكما يهملون اختيار اللفظ والقافية يتسهلون في اختيار الوزن الملائم لموسيقى الموضوع فإن من الأوزان ما يستمر في غرض من المعاني ولا يستمر في

غيره؛ كما أنَّ مِنَ الْقَوَافِي مَا يَطْرُدُ فِي مَوْضُوعٍ وَلَا يَطْرُدُ فِي سِوَاهُ، وَإِنَّمَا الْوَرْدُ مِنَ الْكَلَامِ كَزِيَادَةِ اللَّحَنِ عَلَى الصَّوْتِ: يُرَادُ مِنْهُ إِضَافَةُ صِنَاعَةٍ مِنْ طَرَبِ النَّفْسِ إِلَى صِنَاعَةٍ مِنْ طَرَبِ الْفِكْرِ، فَالَّذِينَ يَهْجُلُونَ كُلَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُونَ شَيْئاً مِنَ فِلْسَفَةِ الشَّعْرِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُقْسِدُونَ أَقْوَى الطَّبِيعَتَيْنِ فِي صِنَاعَتِهِ؛ إِذِ الْمَعْنَى قَدْ يَأْتِي نَثْراً فَلَا يُنْقِصُهُ ذَلِكَ عَنِ الشَّعْرِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْنَى، بَلْ رُبَّمَا زَادَهُ أَكْثَرَ إِحْكَاماً وَتَفْصِيلاً وَقُوَّةً بِمَا يَنْتَهِي فِيهِ مِنَ الْبَسْطِ وَالشَّرْحِ وَالتَّسْلُسِ، وَلَكِنَّهُ فِي الشَّعْرِ يَأْتِي غِنَاءً، وَهَذَا مَا لَا يَسْتَطِيعُهُ أَكْثَرُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الشَّاعِرُ أَنْ يَأْتِيَ فِي نَظْمِهِ بِالرُّوِيِّ الْمَوْتَقِيِّ وَالنَّسْجِ الْمُتَلَانِمِ وَالْحَبْكِ الْمُسْتَوِيِّ وَالْمَعَانِي الْجَيِّدَةِ الَّتِي تَخْلُصُ إِلَى النَّفْسِ خُلُوصَ طَبِيعَةٍ إِلَى طَبِيعَةٍ تُمَازِجُهَا، وَرَأْيَتُهُ يَأْتِي بِالشَّعْرِ الْجَافِي الْغَلِيظِ وَالْأَلْفَاظِ الْمُسَوَّخَةِ^(١) الرَّدِيئَةِ وَالْقَافِيَةِ الْفَلَقِيَّةِ الْفَانْفَارَةِ وَالْمَجَازَاتِ الْمُتَفَاوِتَةِ الْمَضْطَرِبَةِ وَالْأَسْتِعَارَاتِ الْبَعِيدَةِ الْمَمْسُوخَةِ - فَأَعْلَمُ أَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ بَاعَدَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّعْرِ وَأَبْتَلَاهُ مَعَ ذَلِكَ بَزِيغِ الطَّبِيعَةِ وَسَرْفِ التَّقْلِيدِ، فَمَا يَجِيءُ الشَّعْرُ عَلَى لِسَانِهِ فِي بَيْتٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَجِيءَ الْغَفْوُ عَلَى لِسَانِهِ فِي مَائَةِ بَيْتٍ أَوْ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ.

ذَلِكَ قَوْلُنَا فِي فَرْقِ الشَّاعِرِ، أَمَّا الْكَلَامُ فِي مَوْهِبَتِهِ الَّتِي بِهَا صَارَ شَاعِراً وَعَلَى مِقْدَارِهَا يَكُونُ مِقْدَارُهُ وَاتِّصَالُ أَسْبَابِهِ أَوْ انْقِطَاعُهَا مِنَ الشَّعْرِ، فَذَلِكَ بَابٌ لَا يُمْكِنُ بَسْطُ الْمَعْنَى فِيهِ وَلَا تَحْصِيلُ دَقَائِقِهِ إِلَّا إِذَا صُورَتْ رُوحُ الشَّاعِرِ فِي تَرْكِيبِهَا الدَّقِيقِ الْمُعْجَزِ وَوُزِنَتْ فِي مِيزَانِهَا الْإِلَهِيِّ وَعُرِفَ نَقْصُهَا إِذَا نَقَصَتْ وَتَمَامُهَا إِذَا تَمَّتْ، وَأَمَكَنَ تَتَبُّعُ مَوَاقِعِهَا مِنْ أَسْرَارِ الْأَشْيَاءِ وَمَسَاقِطِهَا مِنْ مَنَازِلِ الْإِلْهَامِ، وَهَذَا مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِالتَّوَهُّمِ النَّفْسِيِّ، فَإِنَّ الْأَرْوَاحَ الْقَوِيَّةَ يَلْمَحُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَقَدْ تَكُونُ لَمَحَّةُ الْرُوحِ الشَّاعِرَةِ لِرُوحٍ مِثْلِهَا هِيَ تَذَبُّرُهَا وَوَزْنُهَا وَإِدْرَاكُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ كَمَا تَرَى مِنْ وَضْعِ النُّورِ بِإِزَاءِ الظُّلِّ، فَإِنَّ هَذَا الْوَضْعَ هُوَ نَفْسُهُ وَزَنُّ لِكُلِيهِمَا فِي مِيزَانِ الْبَصَرِ دُونَ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ مُوَازَنَةٍ إِلَّا فِي التَّأَلُّقِ وَالشَّعَاعِ؛ فَهَمَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ نَوْرَانِ يُضِيئَانِ، وَلَكِنَّهُمَا أَيْضاً كَلِمَتَانِ يَبِينَانِ عَمَّا فِيهِمَا مِنَ الْأَكْثَرِ وَالْأَقَلِّ.

لِهَذَا قُلْنَا: الشَّاعِرُ لَا يَتَسَّعُ لِنَقْدِهِ وَلَا يُحِيطُ بِهِ مَنْ كَانَتْ لَهُ رُوحٌ شَعْرِيَّةٌ تُكَافِئُهُ

(١) الْمَسْوُخَةُ: الْمَسْكُوهَةُ.

في وزنها أو تربى على مقداره؛ فإنَّ هناك قُوَى رُوحِيَّةً لإدراكِ الجمالِ وخلقِهِ في الأشياءِ خَلْقاً هو رُوحُ الشَّعرِ وروحُ فنِّه، وقُوَى أخرى لِصِلَةِ العواطفِ بِالفكرِ صِلَةً هِيَ سِرُّ الشَّعرِ وسِرُّ فنِّه، وقُوَى غَيْرُ هذه وتلكِ لِتحويلِ ما يُخالِجُ^(١) النَّفسَ الشَّاعِرَةَ تحويلاً أَلْمَبَالِغَةَ الَّتِي هِيَ قُوَةُ الشَّعرِ وقُوَةُ فنِّه؛ وبمجموعِ هذه القُوَى كُلِّها تَمْتازُ رُوحُ الشَّاعِرِ مِنْ غَيْرِ الشَّاعِرِ: أَمَّا ما تَمْتازُ بِهِ هذه الرُّوحُ مِنْ رُوحِ شاعِرَةٍ مِثْلِها فهو ما يَكُونُ مِنْ تَفَاوُتِ الْمَقَادِيرِ الَّتِي يَهْبِئُهَا اللَّهُ وَحْدَهُ، فَيُخَصُّ شاعِراً بِالزِّيَادَةِ وَآخَرَ بِالنَّقْصِ، وَيَهْبُ أَسْبَابُهَا الَّتِي تَكُونُ عَنْهَا فَيُوسِّعُ لِوَاحِدٍ وَيُضَيِّقُ عَلَى الْآخَرِ؛ وَإِذَا تَمَّتْ تِلْكَ الْقُوَى وَاسْتَحْكَمَتْ تَهَيَّأَ مِنْهَا لِلشَّاعِرِ جِهَازٌ عَصْبِيُّ خَالِصٌ هُوَ جِهَازُ الْتَوَلِيدِ لَا يَمُرُّ بِهِ مَعْنَى إِلَّا تَجَسَّدَ فِيهِ بِصُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ.

وقد استوفينا الكلامَ على ذلك في مقالنا «سرُّ النبوغِ في الأدب». وهو لا غيرُهُ سِرُّ العبقريةِ.

فأمثلُ الطَّرِيقِ فِي نَقْدِ موهبةِ الشَّاعِرِ إدراكُها بِالرُّوحِ الشَّعْرِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ إِحْسَاسِهَا وَالنَّفَازِ إِلَى بَصِيرَتِهَا، وَاكْتِنَاهِ^(٢) مَقَادِيرِ الْإِلْهَامِ فِيهَا، وَتَأْمُلِ آثارَها فِي الْجَمَالِ، وَتَدْبُرُ طَبِيعَتِهَا الْمَوْسِيقِيَّةَ فِي الْحَسَنِ وَالْفَهْمِ وَالتَّعْبِيرِ، وَتَبَيَّنْ قُدْرَتِهَا عَلَى الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ بِأَسْجَى وَأَرْقَ ما تَهْتَاجُ فِي النَّفْسِ الْحَاسَةِ، وَمَعْرِفَةَ قُوَةِ التَّحْوِيلِ فِي عَوَاطِفِهَا لِلْمَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ تَحْوِيلاً يَجْعَلُ الْقُوَّةَ أَقْوَى مِمَّا تَبْلُغُ، وَالْحَقِيقَةَ أَكْبَرَ مِمَّا تَظْهَرُ، وَتَأْتِي بِكُلِّ شَيْءٍ وَمَعَهُ شَيْءٌ؛ وَلَيْسَ يَنْتَهِي الْنَاقِدُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْبَحْثِ فِي الْأَغْراضِ أَيْ «الْمَوَاضِعِ» الَّتِي نَظَّمَ فِيهَا الشَّاعِرُ وَمَا يَصِلُهُ بِهَا مِنْ أُمُورٍ عَيْشِيَّةٍ وَأَحْوَالٍ زَمَنِيَّةٍ وَكَيْفَ تَنَاولَهَا مِنْ نَاحِيَتِهِ وَمِنْ نَاحِيَتِهَا وَمَاذَا أَدْبَعَ، ثُمَّ فِي أَيِّ الْمَنَازِلِ يَقَعُ شَعْرُهُ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ فِي تَارِيخِ لُغَتِهِ وَأَدَابِهَا، ثُمَّ نَظَرِيَّةَ الْفَلَسَفِيَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ وَمَسَائِلِهَا وَاتِّسَاعِهِ لِإِفْرَاحِهَا وَآلَامِهَا وَقُوَّةَ أُمُورِهَا الْروحيَّةِ فِي هَذَا الْبَحْرِ الْإِنْسَانِيِّ الرَّجْافِ^(٣) الْمَتَضَرِّبِ الَّذِي يَبْلُغُ فِي نَفُوسِ بَعْضِ الشَّعْرَاءِ أَنْ يَكُونَ كَأَلْفَيَانُوسِ^(٤) وَفِي بَعْضِهَا أَنْ يَكُونَ كَالْمَسْتَنَقِعِ. ثُمَّ دَقَّةُ فَهْمِهِ عَنْ وَحْيِ الطَّبِيعَةِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى جَلِيَّةٍ مَعْنَاها بِالْهَمْسَةِ وَاللَّمْسَةِ، وَتَسْقُطُ إِلَهاً الْغَيْبِ مِنْهَا بِالْإِيْمَاءِ وَاللَّحْظَةِ؛ وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَسْتَوَسِقُ لِلنَّاقِدِ الْعَظِيمِ

(١) يخالَجُ النَّفْسَ: يَدْخُلُهَا وَيُوحِي لَهَا.

(٢) اكْتِنَاهُ: اكْتَشَفَ.

(٣) الرِّجَافُ: الْمَضْطَرَبُ.

(٤) الْأَفْيَانُوسُ: الْمَحِيطُ.

إلا إذا كانَ مَعَ رُوحِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا مَحِيطُ بَأَثَارِ الشُّعْرَاءِ فِي لُغَتِهِ،
بصيراً بِمَا خِذَهَا، مُحْكِمًا لِأَسْبَابِ الْمَوَازِنَةِ بَيْنَهَا، مُتَصَرِّفًا مَعَ ذَلِكَ بِأَدَاةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ
صِنَاعَةِ اللَّغَةِ وَالْبَيَانِ وَفَنُونِ الْأَدَبِ .

وإذا كانَ مِنْ نَقْلِ الشَّعْرِ عِلْمٌ فَهُوَ عِلْمٌ تَشْرِيحُ الْأَفْكَارِ، وإذا كانَ مِنْهُ فَنٌ
فَهُوَ فَنٌ دَرَسِ الْعَاطِفَةِ، وإذا كانَ مِنْهُ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةُ إِظْهَارِ الْجَمَالِ الْبَيَانِيِّ
فِي اللَّغَةِ . . .

فيلسوف وفلاسفة . . .

أَتَأْمَلُ الْآنَ هَذَا الْقَلَمَ فِي يَدِي - وَأَنَا أَفَكِّرُ فِيهَا سَاكِبُهُ لِلزَّهْرَاءِ - فَأَرَى نَصَابَ الْقَلَمِ أَضْلاعاً خُمْراً فِي لَوْنِ الْمَرْجَانِ، تَنْسَرُحُ قَلِيلاً، ثُمَّ تَسْتَدِيرُ، ثُمَّ تَسْتَدِيقُ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهَا قَادِمَةٌ سَوْدَاءُ كَأَنَّهَا قَصْبَةٌ رِيثَةٌ مِنْ جَنَاحٍ، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا أَلْوَنُ الْأَحْمَرِ الْمَزْهُوُّ يَقُولُ لِلْأَسْوَدِ: إِنَّمَا غَلَطْتُ الَّذِي صَنَعْتَنِي، فَكَيْفَ أَلْهَمَ فِي الْإِلْهَامِ فَوْسَمَنِي^(١) بِهَذَا الْمَنِيَسِ مِنْ حُسْنِ وَلَوْنٍ وَتَرْكِيبٍ، ثُمَّ أَعْرَضْتُهُ الْغَفْلَةَ فَبِكَ فَأَخْطَأُ، وَأَدْرَكُهُ الْعَجْزُ فَلَمْ يُمَيِّزْ، وَدَخَلَ عَلَى رَأْيِهِ الْزَهْرُ^(٢) فَإِذَا هُوَ يَصْلُكَ بِي كَالسَّيْفَةِ بَعْدَ الْحَسَنَةِ، وَيُتْرَكُ مَنِيْ مَنْزِلَةَ الْقَبِيحِ مِنَ الْجَمَالِ! فَأَيْنَ كَانَتْ صِحَّةُ رَأْيِهِ الَّتِي بَلَغَ بِهَا فِي أَحْسَنِ مَا وَفَّقَ إِلَيْهِ حِينَ بَلَغَ فَبِكَ أَسْوَأَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْنَعَ؟ فَيَقُولُ الْأَسْوَدُ؛ إِنَّمَا فَبِكَ أَنْتَ غَلَطْتَ الْأَصْنَاعَ وَبِكَ أَخْطَأَ جِهَةٌ الْفَنِّ، فَلَمْ يَزِنْ مِنْكَ مَا كَانَ وَزَنَ مَنِي، وَلَا قَدَّرَ لَكَ مِثْلَ مَا قَدَّرَ لِي، وَجِئْتُ غَلِيظاً غَيْرَ مَقْدُودٍ، وَكُنْتُ إِلَى الْعَرَضِ وَلَمْ تَكُنْ إِلَى الطُّولِ، وَكُنْتُ أَحْمَرَ وَلَمْ تَكُنْ أَسْوَدَ؛ وَمَا أَرَاكَ إِلَّا فَاسِداً الْحَسَنِ، مُتَغَيِّرَ الذُّوقِ، وَمَا أَرَاكَ صَنَعَكَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَّا فِي سَاعَةٍ هُمْ قَارِبَتْ بَيْنَ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ، فَمَا رَجَحْتُ^(٣) بَيْنَ رَأْيِهِ وَعَمَلِهِ، فَجَمَعْتُ بَيْنَ عَمَلِهِ وَغَلَطِهِ.

ذَلِكَ مَنْطِقُ أَلْوَنَيْنِ فِيهَا أَدْرَكْتُ مِنْهُمَا، وَكِلَاهُمَا مُخْطِئٌ فِي جِهَةٍ مَا هُوَ مُسْتَدِلٌّ بِهِ أَوْ مُتَنْظَرٌ فِيهِ؛ وَالْحَقِيقَةُ مِنْ وَرَائِهِمَا، إِذِ الْحِكْمَةُ لَيْسَتْ فِي أَحَدِهِمَا لِحِمْرَةٍ أَوْ سَوَادٍ، بَلْ هِيَ فِي أَثْنَيْهِمَا جَمِيعاً لِأَثْلَافِهِمَا جَمِيعاً، فَلَا تَنْقَسِمُ عَلَيْهِمَا قِسْمَةٌ مَا؛ لِأَنَّهَا آتِيَةٌ بِالْمُقَابَلَةِ بَيْنَ أَثْنَيْهِمَا، وَمَا لَا يَخْرُجُ أَبَداً إِلَّا مِنْ أَثْنَيْنِ فَهُوَ أَبَداً وَاحِدٌ لَا يَنْصَفُ لَهُ؛ كَالطُّفْلِ مِنْ أَبَوَيْهِ: لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ مِنْ أُمِّهِ لِأَنَّكَ لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ^(٤) مِنْ أَبِيهِ.

أَفِي الْأَرْضِ كُلِّهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَسِّمَ طِفْلاً وَاحِداً فَيَجْعَلُهُ طِفْلَيْنِ تَعْتَدِلُ بِهِمَا

(٣) زَجْ: دخل بين شيئين بالقوة والمكر

(٤) شطره: جانبه.

(١) وسمني: طبعني.

(٢) الزهرن: الضعف.

الحياء وتمذهما بروحين من روح واحدة؟ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ هذا الخالقَ الأرضي...
إلا في طائفتين: الأولى قومٌ من ذاهبي العقول يخلقون كل شيءٍ لأنهم لا يخلقون شيئاً؛ والثانية قومٌ من جابرة العقول. عندنا تعرف لهم مِنَ الخلطِ وسُخفِ الرأي ما يريدون أن يعلوا به على الناس، إذ كان الناس لا يجاوزون الحقائق، فظن هؤلاء أنهم إن جاوزوها وعذوا عليها خرجوا إلى طبقةٍ فوق العقلِ الإنساني. ولِلجنونِ طرفان: أحدهما ألا يعقل المجنون عن الناس، والآخر ألا يعقل الناس عن العاقل: فذلك ذلك وهذا هذا؛ وكأن في رأس كل منهما مُضْمَرَةٌ من قوَّةِ الخلقِ تنطوي على محجوبةٍ إلهية، فكل منهما يزيد في الخلقِ ما يشاء، وكل منهما فوق الطبيعة لأنه من ذوي الأسرارِ المجهولة التي لا تستبين عندنا من خفاياها، ثم لا تخفى عندهم من استبانيتها.

يضحكني من جابرة العقول هؤلاء أنهم يرون الدينَ مرَّةً عادة، وتارةً اختراعاً، وحيناً خرافة، وطوراً استعباداً؛ وكل ذلك لهم رأي، وكل ذلك كانوا يعقدونه بالحجة ويشدونه بالدليل؛ فلما جاء طاغورُ الشاعرِ الهندي المتصوف إلى مضر، وجلسوا إليه وسمعوه، خرجوا يتكلمون كأنما كانوا في معبد، وكأنما تنزلت عليهم حقيقة الإلهية، وكأنما اتضعت هذه الدنيا عن المكان الذي جلس فيه الرجل، فلا يعرفونه من الأرض، ولا من هذا العالم؛ بل كانوا في غشية قد فزوا لها وسكنوا إليها، وما أراهم صرّفوا عن عقولهم ولا صرّفت عقولهم عنهم؛ ولكن طاغورَ شاعرٍ فيلسوف، وهم يعرفون أنفسهم من لصوصِ كتبه وآرائه، ويقعون منه موقع السفسطة^(١) الفارغة من البرهان القائم، وإذا قيسوا إليه كانوا كالأدبائِ تزعم أنفسهم نسرَ المزابل، ولكنها لا تكابر في أن من ألهم بها قياسها بسورِ الجوز.

لقد ضربهم طاغور، لا بانه لمسه، بل بأنهم لمسوه... وفضحهم فضيحة اللؤلؤة للزجاج المدعي أنه لؤلؤ، وأظهر لنا تجلّهم العقلي كهذه الأصباغ في وجه الشوهاء: تذهب تنصنع ولا تدري أنه إن كان في أذهانها وأصباغها روح النقاش ففي وجهها هي معنى الحائط!

لقد قرأت كل ما كتبوا عن طاغور التمس فيه هذه الحقيقة لأرى كيف يكون جابرة العقول حين تنكشف عنهم المعاذير وتزاح العلل وتنهتك الأستار، فإذا هم

(١) السفسطة: تخربات الفلاسفة ومحاوراتهم.

في كل ما كتبوه لا يُحسّون إلا هذه الحقيقة، ولا يصفون إلا هذا الحس، فلم يُخزهم^(١) عندنا إلا هذا الوصف؛ لا جرّم فكل ما أثنوا به على الشاعر أفيلسوف قرأناه ذمّاً لهم، وعرفناه قذحاً فيهم، وأخذناه نهمّة عليهم، وكل ما أعظموه من أمره صغّر من أمرهم، ولقد جعلوه إنساناً كأنماً تنتهي قيمته هذه الدنيا عند قدميه، وتبدأ قدمه من قيمة الدنيا، فما عرفنا من ذلك قياساً لسمو طاغور وارتفاع نفسه، بل قياساً لانحطاط أنفسهم وهوان أمرهم وقلة خطرهم؛ فإن الرجل المقلّد المخدوع لا يزال يطول في تقليده، ولا يزال يتوعّر في الرأي الذي يراه ويعتسف طرق العليم أعتسافاً؛ حتى يرميه الله بأصل من هذه الأصول الإنسانية التي يقلدها؛ فإذا هو مُفحّم يتقاصر من طول، ويتسهّل من وعّر، ويهتدي من تعسف، وينحط إلى ألوهة بعد أن كان على الجبل، ويسلم في نفسه، ويذعن^(٢) برأيه، ويتقاذ من حيث يأبى ومن حيث لا يأبى، ويصبح وقد غمرته تلك النفس أشبه بالظلمة مما يرميه ويفيء به؛ فهو مسخّ في تمثيله الصورة، وهو كذب عليها بما يطول ويقصر، وهو على كل أحواله إبهام سخيف مظلم لحقيقة شريفة نيرة.

وأنت أفلا ترى هذا من جابرة العقول كتلك الشيمة في أخلاق العامة، إذ لا يصلحون أبداً إلا أن يكونوا تبعاً، ولا علم لهم إلا ما يربط في صدورهم من فلان وفلان، ثم يعملون بلا تحقيق، ويحملون بلا تمييز، ثم لا تكون نهمّة أنفسهم مع الرجل العالم - إذا اجتمعوا به - إلا في التسليم له، وأنقاء حقائقه، والنزول عن آرائهم إلى رأيه، والخروج من أنفسهم إلى نفسه!

لقد قلنا من قبل إن جابرة العقول هؤلاء الذين يأتون إلا أن يكونوا علماءنا وسادتنا ليصرفوا عقولنا ويغيروا عقائدنا ويصلحوا آدابنا ويدخلونا في مساحيط الله ويهجموا بنا على محاربه ويكربونا معاصيه - إن هم في أنفسهم إلا عاتمة وجهلة وحمقى إذا وزنوا بعلماء الأئمة وقيسوا إلى حكماء الدنيا، وما يكتبون للأمة في نصيحتها وتعليمها إلا ما يتحوّل من كلمات وجمل في الصحف والكتب إلى أن يصيروا في الواقع فساداً وفجرة ومُحْدِثين وساخرين ومُفسدين؛ فالمصيبة فيهم من ناحية العِلْم الناقص في وزن المصيبة بهم من ناحية الخلق الفاسد، وهاتان معاً في وزن المصيبة الكبرى التي يجنون بها على الأمة لتهديمها فيما يعملون، وتجديدها فيما يزعمون...

(٢) يذعن: يخضع.

(١) يخزهم: يشعروهم بالمهانة والعار.

لم أنخدغ قط في هؤلاء من فلاسفة أو دكاترة أو جبابرة، ولست أضع أمرهم إلا على حقه، فإني لأعرف أن ألهراً من قبيلة الأسد، ولكن أسديته على الفأرية وحدها. ولعلم عاقبة الجهل خير للأمة من عواقب علمهم وتخبطهم وحمقاتهم فإنهم قوم مقلدون، ولهم طباع معتلة زائغة، وعقول لا مساك^(١) لها من دين أو ضمير؛ فما يجنحون إلا إلى بدعة سيئة، أو آفة محذورة، أو فكرة متهمّة؛ ولا يعملون إلا ما يشبه الظن بهم، والرأي فيهم؛ من تمدين الأخلاق السافلة والحاقها بالعلم أو الفلسفة، مع بقاء العقل ناضجاً صحيحاً يحكم على هذا الخبيث كما كان يحكم على ذلك الطيب؛ وليس من سبيل إلى هذا إلا من جهة تحويل الأخلاق، فإن هي أستمسكت ولم تتحول فيها هنا موضع النزاع ومحل الخلاف، ولا بد من حرب منا كحرب الاستقلال، ثم حرب منهم كحرب الاستعمار...

فألذي بيننا وبينهم ليس القديم والجديد، ولا التأخر والتقدم، ولا الجمود والتحول؛ ولكن أخلاقنا وتجزؤهم منها، وديننا والحادثهم فيه، وكمالنا ونقصهم، وتوثقنا وأنحلالهم، واعتصامنا بما يمكننا وتراخيهم تراخي الحبل لا يجد ما يشده. وآلآن أنظر إلى قلبي فأرى شطره الأسود ما جعل كذلك إلا ليزيد في جمال خمرته وبريقها، ويكسبها لمعة لا تأتيها إلا من السواد خاصة؛ والأشر خير إلا إذا بقي محصوراً في موضعه ولم يتجاوزه؛ فإذا تنبّهت الأمة لجبابرة العقول هؤلاء، قلنا لا بأس بالسواد المظلم إذا كانت حكيمته حمراء...

(١) مساك: رابط.

شيطاني وشيطانُ طاغور...

طاغورُ هذا شاعرُ الهند، مرَّ بمصرَ مرورَ شمسِ الشتاءِ بِاليومِ المطيرِ: لا يقعُ نورُها إلَّا في القلوبِ ممَّا تَسْتَخِفُّ وتستهوِي، ومِمَّا تمتنعُ وتتأبى، ومِمَّا تَرُقُّ وتلطّف؛ وتنقُحُ بينَ السُّحُبِ ألْهَامِيَّةٍ فإذا لها مِنَ الْجَمَالِ وَالسَّحَرِ وَالْعَجَبِ ما يَكُونُ لِحِمْرَةٍ تُخْرِجُهَا السَّمَاءُ مُعْجَزَةً لِلنَّاسِ فَيَرْوْنَهَا تُرْسِلُ الشَّعَاعَ مَرَّةً وَتُمِطِرُ الْمَاءَ مَرَّةً.

لَمَ أَلَقْتُ طَاغُورَ وَلَكِنِّي أَنْفَذْتُ إِلَيْهِ شَيْطَانِي وَقُلْتُ أَوْصِيهِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ لَوَجْهِهِ: قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هِنْدِي، وَلَكِنَّهُ إِنْسَانٌ، فَمَا أَرْضُ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَرْضٍ؛ وَأَنَّهُ شَاعِرٌ، وَلَكِنَّهُ مَخْلُوقٌ، فَمَا طَبِيعَةُ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنْ طَبِيعَةٍ؛ وَأَنَّهُ حَكِيمٌ، وَلَكِنَّهُ تَرْكِيْبٌ مَا جُبِلَتْ لَهُ طَبِيعَةٌ غَيْرُ الطَّبِيعَةِ؛ وَأَنَّهُ سَمَاوِيٌّ، غَيْرَ أَنَّهُ سَمَاوِيٌّ كَعِلْمَاءِ أَفْلَكٍ: سَمَاوَةٌ فِي مَنْظَارٍ وَكِتَابٍ وَقَلَمٍ وَجِبَر... فَأَذْهَبَ إِلَيْهِ فِدَاخِلَ شَيْطَانِهِ، فَإِنَّكَ وَاجِدٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا لِكُلِّ الشُّعْرَاءِ، وَرُبَّمَا عَرَفْتَ شَيْطَانَهُ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِكَ أَوْ خَالَصَةِ أَهْلِكَ، ثُمَّ أَتْنِي كَلَامُهُ عَلَى جِهَةٍ مَا هُوَ مُفَكِّرٌ فِيهِ، لَا عَلَى جِهَةٍ مَا هُوَ مُتَكَلِّمٌ بِهِ؛ وَخَذَ مَا يَهْجُسُ^(١) عَلَى قَلْبِهِ، وَدَغَ مَا يَجْرِي فِي لِسَانِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا سَيَاتِي بِهِ إِخْوَانُكَ مِنْ «مَنْدُوبِي الصَّحْف»... وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ حَكِيمٍ مَهِيئَةٌ لِمَسَائِلَ مِنْ حَوْلِهِ كَلَامًا. غَيْرَ أَنَّ مَعَانِي مَنْ حَوْلَهُ مَهِيئَةٌ لَهُ مَسَائِلَ أُخْرَى يُفَكِّرُ فِي كُلِّ جَوَابٍ عَلَيْهَا وَلَا يَنْطِقُ بِجَوَابٍ عَلَيْهَا.



فَحَدَّثَنِي شَيْطَانِي بَعْدَ رَجُوعِهِ قَالَ: حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ: لَمَّا هَبَطَ طَاغُورُ هَذَا الْوَادِيَ نَظَرَ نَظْرَةً فِي الشَّمْسِ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتِ هُنَا وَأَنْتِ هُنَاكَ، تَقْرِيْنِ بَأَثَرٍ وَتُعْزِدِيْنِ بِأَثَرٍ، وَتَطْلُعِيْنَ بِجَوْ وَتَغْرُبِيْنَ بِجَوْ، فَلَا تَخْتَلِفِيْنَ وَتَخْتَلِفُ بِكَ الْأَقَالِيمُ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِالْأَقَالِيمِ الْأَمَمِ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِالْأَمَمِ الْأَفْكَارُ وَالْمَنَازِعُ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِالْأَفْكَارِ وَالْمَنَازِعِ أَغْرَاضُهَا وَمَصَالِحُهَا، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِمَصَالِحِهَا وَأَغْرَاضِهَا الْحَقَائِقُ الْإِنْسَانِيَّةُ؛

(١) يهجس: يخطر بباله ويحدث به نفسه.

وإنما الباطلُ وَالْحَقُّ فيما تستقبل هذه الحقائق أو تستدبر^(١)، وقد غلبت ألسياسة على كل شيء حتى أصبحت هذه الحقائق الإنسانية جغرافية، لها شعوب ولها مستعمرات؛ فالإخاء في الغرب سيادة في الشرق، والمساواة هناك امتياز هنا، والحرية في مملكة استبعاد لمملكة، والحق في موضع صفة في موضع، والضيافة في مكان استئكال في مكان؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلِفُونَ إِلَّا مَنْ رَجِمُ رَبُّكَ وَلَئِكَ خَلْقُهُمْ﴾، فلن يتصل الناس بالروح الأعلى إلا من الجهة الواحدة التي لم تتغير ولن تتغير فيهم، جهة الدموع التي لا تختلف في أسود ولا أحمر، والتي لا تنبعث إلا من الرقة والوجد والأحزان والآلام، وهي بذلك نسب كل قلب إلى كل قلب، فلو غمر العالم كله بلاء واحد لا تحرر منه أرض أهلها ولا تتحجر الأمم فيه، لاستلب مطامع الناس بعضهم في بعض، وأرجع الإنسانية الزائغة إلى مستقرها، فتجردوا من الدنيا وهم في الدنيا، فاتصلوا باللانهاية وهم في النهاية؛ فإن لم يكن بلاء عام فيكر عام في بلاء يمت الشهوات المتطلقة ويكون كالداء تلبس بالجنس الإنساني كالذي تصفه الأديان من جهنم والمصير إليها والحساب عندها والجزاء على الشر بها، حتى لا تبقى نفس إلا وهي في وثاق من حلالها وحرامها، ولا يبقى شر يُخيل أو يُستهي إلا وهو كالمعاقب بين أربعة جدران تتساقط وتحترق لا يجد في كل اللصوص لصاً، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالحب العام حتى لا يبقى جيش ولا سلاح ولا سياسة ولا دول، ولا تكون الممالك إلا بيوتاً إنسانية بين الواحدة والكل من الشابة واللحم ما بين الكل والواحدة، وحتى تقول مضر لإنجلترا يا بنت عمي... فإن استحال كل هذا فالحرية العامة على أن تكون محدودة من كل جهاتها بالشعر، وعلى أن يكون الشعر محدوداً بالطبيعة والطبيعة محدودة بالله، فيتزعج النوم من الأرض لتصل اليقظة بالحلم... من طريق غير النوم.

قال شيطان طاغور: ثم أبتأس طاغور وقال: كل ذلك مستحيل أو كالمستحيل ولكنه في الأمل ممكن أو كالممكن؛ وللفظ معنيان: أحدهما ما يكون، والثاني ما يحسن أن يكون؛ ذلك لا بد له من لأنه جانب النظام الإلهي، وهذا لا بد لنا منه لأنه جانب الخيال الإنساني؛ ذلك من الطبيعة التي تعمل ولا تتكلم، وهذا من الشعر الذي يتكلم ولا يعمل. آه آه! إنما السلام العام أن يكون

(١) تستدبر: تراجع.

الوجود شركة إلهية إنسانية برضى واتفاق بين الطرفين . . . ولعمري إن كل المستحيلات ممكنة بالإضافة إلى هذا المستحيل . ثم تبسم طاغور إذ خطر له أنه شاعر عليه أن يصف الوردة ويقول فيها ما يجعلها بيت شعر في كتاب الطبيعة له وزن ونعم، ولكن على الطبيعة قبل ذلك أن تبتها ناضرة عطرة جميلة تميز عن غيرها برائحة ولون وشكل .

قال شيطانه : ولما أنتهى من تأمله إلى هذه الخاطرة قدمت له سيدة هندية عقود الزهر، وبينما هي تقلده إياها قال في نفسه : إن هذه الأزهار من معاني الماء العذب ؛ فإذا أنطلقنا في أوهامنا وراء الحب العام والسلام العام فلنمن تكون معاني الماء المالح، وهو ثلاثة أرباع الأرض، ومن أزهاره الأسطول الإنجليزي .



حدثني شيطاني قال : حدثني شيطان طاغور قال : ولما استقر طاغور في قصر شوقي بك ورأه في مثل حسن الدينار ونقشه ونفاسه، قال : لا جرم هذه أمة أغنت شاعرها، فما أخطى التقدير، وإن أخطأه فلا أبعده عن المقارنة إذا حسب أن هذا الشاعر يطبع لهذه الأمة نصف مليون نسخة من كل ديوان شعر أو دفتر حكمة أو كتاب قصة، ولتني أعرف العربية لأعرف كيف يبدع هذا الشعب فلسفته في أغانيه المتصلة بغيوم السماء المتكلم بأحسن وأظهر ما يمكن أن يكون ترجمة للحقيقة الخالدة التي يتوارثها شعب خالد .

الشعر فكرة الوجود في الإنسان، وفكرة الإنسان في الوجود، ولا يكفي أن يخلق هذا الإنسان مرة واحدة من لحم ودم، بل لا بد أن يخلق مرة أخرى من معانٍ وألفاظ، وإلا خرج حيواناً أعجم؛ فالشاعر يبدع أمة كاملة، إن لم يخلقها فإنه يخلق أفكارها الجميلة وحكمتها الخالدة وآدابها العالية وسياستها الموقفة وما أحسب النهضة المصرية إلا بالأغاني والأناشيد، فتأتي من إنجلترا جنود وتخرج لها من دور الغناء والتمثيل جنود أخرى؛ لقد كثت ملهماً حين قلت مرة: «إن ألهة يخاطب الناس عن طريق الموسيقى» .

نعم عن طريق الموسيقى، فكل شيء هو موسيقى في نفسه حتى حين يتطاحن الناس ويذبح بعضهم بعضاً، فإن صلصلة^(١) الأسلحة ودوي القنابل وأزيز الرصاص

(١) صلصلة الأسلحة: قعقة السلاح وأصواته.

وتصايح الجند - كل ذلك لحن أعدّه الله جلّت قدرته «وموسيقاه» . . . لجنازات الأمم .

حدّثني شيطاني قال : حدّثني شيطان طاغور قال : ولما رأى طاغور الأستاذ الفاضل مدير الجامعة المصرية - وهي التي دَعَتْهُ إلى إلقاء مُحاضرتِه - قال : نعم وخُبا وكرامة، إِنَّهُ لا يستقيم في العقل أَنْ تدعُو هذه الجامعة شاعراً روحانياً مثلي إلا وهي فَلَك نَيْر يُعَدُّهُ اللهُ من نجومِه، وما أحسبُ أستاذَ آدابِها العربيةِ إلا تلك الدُرَّة اللؤلؤيّة التي كانت تُجاوِزُني في طِينَةِ الْخَلْقِ الْأَزَلِيَّةِ، فلرَأْنُ الذراتِ الثماني التي كانت حولنا خُلِقَتْ في عصرِنا هذا وتوزَّعتْ على الأممِ الفلسفيّةِ كُنّا وإياها كوصايا الله العَشرِ في هذا العصرِ الماديّ . . . وَلَمَّا لَأْنَا طَيَّاتِها إيماناً بالله، وَلَصَّارَ لِلَّهِ - تعالى - في أرضِه عَشرُ آلاَتِ سماويّةٍ لاسلكيّةٍ بينَهُ وبينَ الْخَلْقِ، تُباهي الجامعةِ المِصريّةِ بأنَّ فيها إحداها . . . لقد نَغَصَ عليّ هذه الشيوخَةُ أَنّي لم أتعلّمَ العربيّةَ، وكيف لي بأنْ أرتُلَ أناشيدَ أستاذِ الآدابِ في الجامعةِ المِصريّةِ لِأُستَمِيعَ بِالحَاجَةِ السّماويّةِ في شعرِه وأغانِيه، وأسمعَ الملائكةَ من هذه المَثدنةِ الْإنسانيّةِ في الجامعةِ تهتِفُ بكلمةِ الإسلامِ الرهيبةِ ضارخةً بحقيقةِ الوجودِ في الوجود: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . . .

قالَ شيطاني : وكانَ شيطانُ الدكتور طه حسين أستاذِ الجامعةِ حاضراً معنا، فلَمَّا أَلَمَ بِمَا في نفسِ طاغور قالَ لي : حقّاً إِنَّ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ لا يعرفَ هذا الهنديُّ اللّغةَ العربيّةَ، لِأَنَّهُ لو عرفَ اللّغةَ العربيّةَ لَمَّا أرضَتْهُ اللّغةُ العربيّةُ ولا آدابُ اللّغةِ العربيّةِ ولا أستاذُ آدابِ اللّغةِ العربيّةِ ! فقلتُ : أُسْكُثُ ويحك ودع الرجلَ في أحلامِه، ولا تكنْ غيمَةً سَمائِه المُشرقة؛ أَمَّا تَراه يحلُم، أَمَّا سَمِعْتَهُ يقولُ : «وَالْحَقِيقَةُ من حيثُ هي جمالٌ ليسَ يعدلُهُ جمالُ؛ أَلَسْتُ تَرى إلى صَورةِ هذه المرأةِ العجوزِ أبدوها فناً ماهر، إِنَّكَ تنظرُ إلى الصَورةِ فتَقْرَأُ بِجمالِها، ولكنَّ المرأةَ العجوزَ التي فيها ليسَتْ على شيءٍ مِنَ الجمالِ؛ لكنَّها جمالُ الصَورةِ أَنّْها تمثُلُ هذه المرأةَ العجوزَ على حقيقتها فهذه كلماتٌ في سِباحاتِ النور، وهي مِن لَغةِ السّماءِ ذاتِ الْكواكبِ لا من لَغةِ النّفسِ ذاتِ الْعواطفِ؛ وإِلّا فهل يصحُّ في العقلِ أَنْ تصوّرَ العجوزَ التي أضطربَ ميزانُ الْخَلْقِ فيها حتّى لا يَزِنُ منها إلا بقايا الْخَلْقَةِ وأنقاضَ العُمُرِ وخرائبَ المرأةِ . . . يكونُ بما يَظهرُ من شوهرتها وتهذُمِها وتشننِ جِلْدِها وموتِ ظاهِرِها - جمالاً في الصَورةِ لِأَنَّهُ قبيحٌ في الْأَصْلِ؟ أَفليسَ لو كانَ

ذلك صحيحاً لَمُلِثَ المتاحفُ والقصورُ باللوح العجائز، وَلَمَّا بَقِيَتْ على الأرضِ
عجوزٌ إِلَّا ذهبَتْ لِأَحَدِ المصورينَ تَقُولُ لَهُ: اخلفني!...



حَدَّثَنِي شَيْطَانِي قَالَ: حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ: وَكَانَ طَاغُورُ رَطَبَ اللِّسَانِ فِي مُحَاضَرَتِهِ كَأَنَّ غَابَةَ مِنْ غَابَاتِ الْهِنْدِ أَمَدَّتُهُ بِكُلِّ مَا أَعْتَصَرَتْهُ الشَّمْسُ فِيهَا مَاءٌ وَحَيَاةٌ وَنُضْرَةٌ، فَهَرُ فِي كَلَامِهِ وَمَعَانِيهِ وَرَقٌّ وَزَهْرٌ وَنَسِيمٌ وَظِلٌّ وَحَفِيفٌ وَتَغْرِيدٌ، يَسْجُرُ الْنَاطِرَ إِذْ لَا يَرَى الْنَاطِرُ شَكْلَهُ الْإِنْسَانِيَّ فِيهِ، بَلْ يَرَاهُ شَيْئاً مِنْ خَيَالِهِ كَأَنَّمَا أَنْفَصَلَ مِنْهُ فَتَمَثَّلَ بِشَرٍّ أَوْ سَوِيًّا، وَلَوْ أَنَّكَ أَطْلَعْتَ يَوْمًا فِي الْمَرْأَةِ فَإِذَا خَيَالُكَ فِيهَا يَكْلُمُكَ وَيَسْتَأْنِسُكَ وَيُلْطِفُ لَكَ، لَمَّا أَدْهَشَكَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَطْرَبَكَ وَلَا أَسْتَحْجَرَ مِنْ عَجَبِكَ وَذَهَوِكَ إِلَّا كَالَّذِي يَعْتَرِي نَفْسَكَ حِينَ يُكَلِّمُكَ طَاغُورُ؛ وَتَرَاهُ يَسْتَخْلِصُ آرَأَهُ الْمَتَصَرِّفَةَ بِكَلَامِهِ مِنْ رُوحِ الْكُنُومِيسِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُدَبِّرَةِ لِلْكَوْنِ، فَتُحَسُّهُ يُضَيِّفُ إِلَيْكَ زِيَادَةً لَيْسَتْ فِيكَ؛ فَمَهْمَا كَبُرَتْ بِهِ تَصَغَّرَ نَفْسُكَ عِنْدَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ ثُمَّ هُوَ يَتَّصِلُ بِرُوحِكَ مَرَّةً فِي جَلَالِ حُبِّ الْأَبِّ لِطِفْلِهِ، وَمَرَّةً فِي رِقَّةِ فَرَحِ الْطِفْلِ بِأَبِيهِ؛ فَإِذَا أَنْتَ مِنْهُ بِمَوْقِفٍ عَجِيبٍ مِنْ مُعْجَزَةِ إِنْسَانِيَّةِ تَرَوْعِكَ بِطِفْلِ شَيْخٍ قَدْ أَجْتَمَعَ فِيهِ طَرَفَا الْعَمْرِ وَجَاءَ كَأَنَّهُ مَظْهَرُ رُوحِهِ أَلْتَى لَا عَمَرَ لَهَا.

إنسان كهربائي يُحاول أن يزيد في تركيبِ الناسِ عظمَةً من حديدٍ أو عصباً من سلك، ليتصلَ بهم جميعاً تلك الشعلة الطائفة؛ فإذا هم خلقَ آخرَ كَأَهْلِ الْحَيَّةِ ﴿يَتَنَبَّهُ زُرْعُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِيهِمْ﴾؛ ولكنهُ بصراً وهو خارجٌ مِنَ الْمَسْرَحِ بإعلانِ ألسيما أَلْتِي تُجَاوِزُهُ وما عليه مِنَ الْتَصَاوِيرِ وَالتَّهَاوِيلِ، فقالَ في نفسه: بعدَ قليلٍ تجيءُ إلى هنا لندُنْ وباريسُ ونيويوركُ وغيرها من أرضِ اللَّهِ بناسِها وحيوانِها ونباتِها، يراها الجالسونَ رأيَ العينِ ويتصلونَ بها اتِّصالاً بعيداً لا يجعلُهُم فيها ولكنهُ لا يُخليهِم منها؛ ويجبُ لِعُمَرَانِ هذه الأَرْضِ أن يبقى أهلُ مِصْرَ في مِصْرَ فلا يدعوها جميعاً ليتَّصلوا جميعاً بما تشاءهُ أنفُسُهُم من باريسَ أو غيرِ باريسَ من حقائقِ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ، ولا يحسنُ هذا الْإِتِّصَالُ إلا إذا خُصَّ ولم يعمَ، فيقومُ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْآثِنَانِ وَالْجَمَاعَةُ وتبقى الْأُمَّةُ بما هيَ وكما هيَ لِأَنَّها بذلكَ وحدَهُ أُمَّةٌ، كما أنَّ النَّاسَ بِطَبَائِعِهِم ناسٌ، وَالْكَوْنُ بِأَخْتِلَافِهِ كَوْنٌ، فِهِيَاهُ هِيَاهُ الْحُبُّ الْعَامُ وَالسَّلَامُ الْعَامُ وَالْإِتِّصَالُ الْعَامُ بِالْحَقِيقَةِ الْروْحِيَّةِ الْعَلِيَا. ثُمَّ تَبَسَّمَ وَقَالَ: ما أشبهني بهذه ألسيما، غيرَ أنَّ شريطي لا يرى فيه النَّاسَ رَوَايَةً من لندُنْ وباريسَ، بل رَوَايَةً وَقَعَتْ حَوَادِثُهَا فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ . . .

فلسفةُ القصة

ولماذا لا أكتبُ فيها..؟

لم أكتبُ في القصةِ إلا قليلاً، إذا أنت أردتِ الطريقةَ الكتابيةَ المصطلحَ على تسميتها بهذا الاسم، ولكني مع ذلك لا أراني وضعتُ كلَّ كُتبي ومقالاتي إلا في قصةٍ بعينها، هي قصةُ هذا العقلِ الذي في رأسي، وهذا القلبِ الذي بين جنبي.....

أنا لا أعبأ بالمظاهرِ والأغراضِ التي يأتي بها يومٌ وينسخها يومٌ آخر، والقبلةُ التي أتجهُ إليها في الأدبِ إنما هي النفسُ الشرقيةُ في دينها وفضائلها، فلا أكتبُ إلا ما يبعثها حيَّةً ويزيدُ في حياتها وسمو غايتها، ويُمكنُ لفضائلها وخصائصها في الحياة؛ ولذا لا أمسُ من الأدبِ كلها إلا نواحيها العليا؛ ثم إنه يُخيلُ إلي دائماً أنني رسولٌ لغويُّ بُعثتُ للدفاعِ عن القرآنِ ولُغتي وبياني، فأنا أبدأُ في موقفِ الجيشِ (تحت السلاح)؛ له ما يُعانيه وما يُكلِّفه وما يُحاولُه ويفي به، وما يتحاماها^(١) ويتحفظُ فيه، وتاريخُ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها؛ وكيف أعرضتُ الجيشَ رائتهُ فنَّ نفسه، لا فنَّك أنت ولا فنَّ سواك؛ إذ هو لطريقتهِ وغايتهِ وما يتأذى به للحياةِ والتاريخِ.

ألا ترى أن تلك الرواياتِ تُوضعُ قصصاً، ثم تُقرأُ فتبقى قصصاً؟ وإن هي صنعتُ شيئاً في قرائها لم تزد على ما تفعلُ المخدراتُ؛ تكونُ مُسكناتٍ عصبيةً إلى حين، ثم تنقلبُ هي بنفسها بعدَ قليلٍ إلى مهيجاتٍ عصبيةٍ؟

وأنا لا أنكرُ أن في القصةِ أدباً عالياً، ولكنَّ هذا الأدبَ العالي في رأبي لا يكونُ إلا بأخذِ الحوادثِ وتربيتهَا في الروايةِ كما يربِّي الأطفالُ على أسلوبِ سواءٍ في العِلْمِ والفضيلةِ؛ فالقصةُ من هذه الناحيةِ مدرسةٌ لها قانونٌ مسنون، وطريقةٌ

(١) يتحاماها: يتحاشاه.

مُخَصَّصة، وغاية معينة؛ ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفاضل^(١) من فلاسفة الفكر الذين تُنصبُهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تُثير الحياة أو تُثيرها الحياة؛ والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة، وما بين الحياة موادها النفسية في هؤلاء وهؤلاء، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شِعْرِها، وتتأمل فتخرج أسمى حِكْمَتِها، وتشرع فتضع أصح قوانينها.

وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص، فهم في الأدب رعاع وهمج، كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز، هذه الفوضى الممقوتة التي لو حققتها في النفوس لما رأيتها إلا عامية روحانية منحطة تسكع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها.

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تسفل، وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو؛ تنتهي الأولى فيك بأثرها السيئ، وتبدأ الثانية منك بأثرها الطيب؛ وهذا عندي هو فرق ما بين فن القصة، وفن التلفيق القصصي!!.

(١) الأفاضل: التواضع المتفوقون.

شعر صبري

في الحادي والعشرين من شهر مارس من سنتنا هذه نزع الشعرُ العربي عن رأسه عِمامةَ المشيخة ونشرها لِلْمَوْتِ، فكانتِ أَلْكَفَنَ الَّذِي طَوِي فِيهِ بَقِيَّةُ شَبَوخِ الْأَدبِ: المرحومُ إسماعيل باشا صبري.

كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي تَارِيخٍ لَا يُنْشِئُ رَجُلًا، وَجَاءُوا فِي غَيْرِ زَمَنِهِمْ لِيَجِيءَ بِهِمْ زَمْنُهُمْ بَعْدَ؛ وَهَؤُلَاءِ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ قُوَّةٌ أَكْبَرُ مِنَ الْقُوَّةِ، فَهُمْ أَقْدَارٌ وَأَحْدَاثٌ تُوَلَّدُ وَتَنْشَأُ وَتَنْمُو فِي أَسْلُوبِ إِنْسَانِي لِيَتِمَّ بِهَا شَيْءٌ كَانَ نَقْصًا، وَيُحْسُنُ شَيْئًا كَانَ هِجْنَةً، وَيُوجِدُ أَمْرًا كَانَ عَدَمًا؛ ثُمَّ لِيَكُونَ لِلزَّمَنِ مِنْهَا حَدُودٌ يَبْدَأُ عِنْدَ الْوَاحِدِ مِنْهَا فَيَتَغَيَّرُ فِيهِ وَيَتَحَوَّلُ بِهِ وَيَخْرُجُ مَعَهُ فِي بَعْضِ مَعَانِيهِ زَمَنًا جَدِيدًا فِي رَجُلٍ جَدِيدٍ.

كَذَلِكَ كَانَ صَبْرِي فِي مَنْحَى مِنْ مَنَاحِي الشَّعْرِ، وَكَانَ الْبَارُودِي - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - فِي مَنْحَى آخَرَ؛ فَهُمَا طَرَفَا الْمَخُورِ الَّذِي اسْتَدَارَ عَلَيْهِ هَذَا أَلْفَلَكُ لِيَبْدَأَ بَعْدَ تَارِيخِهِ أَلْمِيَّةَ تَارِيخًا حَيًّا، وَلِيَخْرُجَ مِنَ الْجَوِّ أَلْقَاتِمِ فِي أَعْرَاضِ الْأَرْضِ إِلَى أَلْفَضَاءِ الْمَشْرِقِ بِمَعَانِي أَلْسِمَاءِ، ثُمَّ لِيَنْفَضَّ عَنْهُ فِي مَهَبِّ أَلْرِيَّاحِ أَلْعُلُويَّةِ مَا لَصَقَ بِهِ مِنْ طِبَاعِ أَهْلِهِ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَيُغْلِقَ بِهَا مَا فَتَحَ أَلزَّمَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِ هَذِهِ أَلْجِزْفَةِ، فَكَانَ الشَّعْرُ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَجُلٍ كَالْمَلِكِ، فَاصَابَ رَجُلَيْنِ؛ وَعَلِمَ اللَّهُ مَا رَأَيْتُ فِي كُلِّ مَنْ رَأَيْتُهُمْ مِنَ الشَّعْرَاءِ نَفْسًا تَعُدُّ مَعَهُمَا، وَلَا خُلُقًا يَجْرِي فِي أَخْلَاقِهِمَا، وَلَا ظَرْفًا وَلَا رِفَّةً وَلَا أَدَبًا وَلَا شَيْئًا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ شَرْحًا مِنْهُمَا أَوْ تَوْكِيدًا لِشَيْءٍ فِيهِمَا أَوْ تَقْوِيَةً لِمَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِمَا، كَأَنَّمَا وَجَدَا لِيَكُونَ أَحَدُهُمَا مَبْدَأً وَالْآخَرُ نِهَايَةً، وَلِيَنْفِرَا أَنْفَرَادًا أَلْطَرَفَيْنِ مِنَ أَلْمَسَافَةِ بِالْعَةِ مَا بَلَغَتْ.

كَانَ الشَّعْرُ لِعَهْدِهِمَا بَقِيَّةً رَثَةً فِي مَعْرِضِ خَلْقٍ مِمَّا كَانَ يُسَمِّيهِ أَدْبَاءُ الْأَنْدَلَسِ بِالْأَعْرَاضِ أَلْمَشْرِقِيَّةِ وَطَرِيقَةِ أَلْمَشَارِقَةِ، وَهُمْ يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَلصَّنَاعَةَ وَأَلتَكَلُّفَ لِلْبَدِيعِ وَالْأَنْصِرَافَ إِلَى أَللَفْظِ وَأَسْتِكْرَاهَهُ عَلَى أَلْوَجْهِ الَّذِي أَرَادُوا، إِلَى مَا يَتَشَعَّبُ مِنْ ذَلِكَ

ويخرجُ أو يدخلُ في بابِهِ؛ وقد كانَ هذا ومثلهُ ممَّا يُسأَلُ^(١) ويُحتَمَلُ في القرنِ الثامنِ وأكثرِ التاسعِ للهجرة، ثُمَّ في أيامِ بعدَ ذلك؛ غيرَ أَنَّهُ بَلِيَّ وتهتَكَ في مِصْرَ خاصَّةً ولم يبقَ منه إلى منتصفِ القرنِ الثالثِ عَشَرَ إلَّا رِقْعٌ وخبوطٌ في قصائدٍ ومقاطيعٍ.

ثُمَّ كَانَ أَكْثَرُ الشُعراءِ يومئذٍ إِنَّمَا يَحْتَرِفُونَ فَنَ الْأَدبِ صِنَاعَةَ كَسَائِرِ الْمِهَنِ وَالصَّنَاعَاتِ الَّتِي بِهَا قِيَامُ الْعَيْشِ لِهَوَاءِ الْمَسَاكِلِينَ وَالْمَتَكْسِبِينَ مِنَ السُّوقَةِ وَالْمُرْتَزِقَةِ.

ظَهَرَ الْبَارودِي وَنَبَغَ فِي شِعْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ صَبْرِي الشَّعْرَ بِسِنَوَاتٍ، وَلَكِنْ الْأَدَبُ الْفَارِسِيُّ وَالْجَزَالَةُ الْعَرَبِيَّةُ هُمَا اللَّذَانِ تَحُولَا فِيهِ؛ ثُمَّ نَبَغَ صَبْرِي بَعْدَ ذَلِكَ بِزَمَنِ، فَتَحَوَّلَ فِيهِ الْأَدَبُ الْفَارِسِيُّ وَالرُّقَّةُ الْعَرَبِيَّةُ؛ وَهَذَا مَوْضِعُ التَّفَاوُتِ فِي شِعْرِ الرَّجُلَيْنِ الَّذِينَ اقْتَنَصَا الْخَيَالَ الشَّعْرِيَّ مِنْ طَرَفِي الْأَرْضِ، وَكِلَاهُمَا يَذْهَبُ مَذْهَباً وَيَرْجِعُ إِلَى طَبِيعٍ وَبَرُوضٍ شِعْرُهُ عَلَى وَجْهِ؛ فَالْبَارودِي يَسْتَجِرُّ وَيَجْمَعُ إِلَى سَبْكِهِ الْجَيِّدِ قُوَّةَ الْفَخَامَةِ وَشِدَّةَ الْجَزَالَةِ، ثُمَّ يَعْتَرِضُ الْخَيَالَ مِنْ حَيْثُ يَهْطُ عَلَى النَّفْسِ فِي مَمَرِ الْوَحْيِ؛ وَصَبْرِي يَسْتَرْقُ وَيُضَيِّفُ إِلَى صَفَاءِ لَفْظِهِ جَمَالَ التَّخْيِيرِ وَحِلَاوَةِ الرُّقَّةِ، وَيُعَارِضُ الْفَكْرَ مِنْ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِالْقَلْبِ؛ وَالْبَارودِي لَا يَرَى إِلَّا مِيزَانَ اللَّسَانِ يُقِيمُ عَلَيْهِ حُرُوفَهُ وَكَلِمَاتِهِ، وَصَبْرِي لَا يَرَى إِلَّا مِيزَانَ الذَّوْقِ الَّذِي هُوَ مِنْ وَرَاءِ اللَّسَانِ؛ وَقَدْ يُسْرَتُ لِكِلَيْهِمَا أَسْبَابُ نَاحِيَّتِهِ فِي أَحْسَنِ مَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ؛ فَجَاءَ الْبَارودِي حَافِظاً كَأَنَّهُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ دَوَائِنِ الْعَرَبِ وَالْمَوْلَدِينَ، وَجَاءَ صَبْرِي مَفْكَراً كَأَنَّهُ مَجْمُوعَةٌ أَذْوَاقٍ وَأَفْكَارٍ؛ وَهُمَا يَشْتَرِكَانِ مَعاً فِي التَّلَوُّمِ عَلَى صِنْعَةِ الشَّعْرِ وَالْثَانِي فِي عَمَلِهِ وَتَقْلِيدِهِ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ التَّصَفُّحِ، وَتَمَخِيصِهِ بِالْقَنَدِ وَالْإِبْتِلَاءِ لَفْظاً لَفْظاً وَجَمَلَةً جَمَلَةً، ثُمَّ مُطَاوَلَةِ مَعَانِيهِ وَمُصَابَرَتِهَا كَأَنَّمَا يَنْتَزِعَانِ مُحَاسِنَهَا مِنْ أَيْدِي الْمَلَانِكَةِ؛ وَأَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ فِيهِمَا؛ وَقَالَ لِي صَبْرِي بَاشَا مَرَّةً وَقَدْ جَارَيْتُهُ فِي بَعْضِ هَذَا الْمَعْنَى: إِنَّهُ يَعْلَمُ هَذَا مِنَ الْبَارودِي وَمِنْ نَفْسِهِ. قُلْتُ: أَفَيُلَاحِظُ بِهِ ذَلِكَ أَنَّ يَمْحُو بِيَاضَ الْيَوْمِ فِي سَوَادِ بَيْتٍ وَاحِدٍ؟ قَالَ: وَفِي سَوَادِ شِطْرَةٍ أَحْيَاناً! . وَلَيْسَ يَنْقُصُهُمَا هَذَا الْأَمْرُ شَيْئاً، فَإِنَّ خَبَرَ زَهِيرٍ فِي حَوْلَاتِهِ مَعْرُوفٍ، وَقَدْ عَمِلَ سَبْعَ قَصَائِدَ فِي سَبْعِ سِنِينَ: يَحْوِكُ الْقَصِيدَةَ مِنْهَا فِي سَنَةٍ.

ونقلوا عن مروان بن أبي حفصة أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَعْمَلُ الْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ

(١) يُسَأَلُ: يُقَالُ.

أشهر، وأحككها^(١) في أربعة أشهر، وأعرضها في أربعة أشهر، ثم أخرج بها إلى الناس؛ فقليل هذا هو الحولي المُنقَح.

كَانَ مرجعُ البارودي إلى الجَفْظ، فَنَبَغَ في وثباتٍ قليلة؛ أمَّا صبري فَاحتَاجَ إلى زمنٍ حتى أَستَحَكَمَتِ ناحيتُهُ وأَتَتْهُ أسبابُهُ على الإِجَادَةِ، لِأَنَّ مرجعَهُ إلى الدُّوقِ، وَهَذَا يُكْتَسَبُ بِالمرانِ وَيَنْضَجُ عِنْدَ نَضُوجِ الفِكرِ وَلَا يَأْتِي بِالماءِ وَالرُّونقِ حتى تَأْتِيَ لَهُ أسبابُ كَثِيرَةٍ؛ وَأنتَ تَعْرِفُ ذَلِكَ في الرُّجُلَيْنِ من أوائلِ شِعْرِهِمَا، فَقَدْ رَأَى البارودي أَبَاهُ في سِنِّ العِشْرِينَ بِأَيَاتِهِ الدَّلَالِيَةِ الشَّهِيرَةِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا:

لَا فَارِسَ أَلْيَوْمَ يَحْمِي السَّرْحَ بِالوَادِي طَاخَ الرَّدَى بِشَهَابِ الْحَيِّ وَالنَّادِي

وهي ثمانية عَشَرَ بيتاً، وَجِدُّهَا جَيِّدٌ، وَكَأَنَّهَا خَرَجَتْ من لِسَانِ أَعْرَابِيٍّ؛ وَإِنَّمَا جَاءَتْهُ من صِنْعَةِ الحَفِظِ، كَالَّذِي اتَّفَقَ لِلشَّرِيفِ الرُّضِيِّ في أَيَاتِهِ الخَائِيَةِ الَّتِي كَتَبَ بِهَا إلى أَبِيهِ وَعَمْرُهُ أَرْبَعُ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ أَبُوهُ مَعْتَقَلاً بِقَلْعَةِ شِيرَازَ وَمَطَّلَعُهَا.

أُبْلِغَا عَنِّي الْحُسَيْنَ الْوَكَّا^(٢) إِنَّ ذَا الطَّوْدِ^(٣) بَعْدَ بُعْدِكَ سَاخَا^(٤)

وَالشَّهَابَ الَّذِي أَصْطَلَيْتَ لَظَاهُ عَكَسَتْ ضَوْءَهُ الْخُطُوبُ^(٥) فَبَاخَا

هَذَا على أَنَّ أَلْبِدَاةً كَمَا يُقَالُ مَزَلَهُ؛ وَقَدْ وَفَّقْنَا إلى الْقَوَوفِ على أَوَّلِ مَا تُشِيرُ من شِعْرِ صَبْرِي بِاشَا، وَذَلِكَ قَصِيدَتَانِ تُشْرَتَانِ في مَجَلَّةِ رَوْضَةِ المَدَارِسِ في مَدَحِ إِسْمَاعِيلِ بِاشَا، فَتُشْرَتِ الْأُولَى في العَدَدِ الصَّادِرِ في غَايَةِ شَوَالِ سَنَةِ ١٢٨٧ لِلهَجْرَةِ - ١٨٧٠ لِمِيلَادٍ؛ وَتُشْرَتِ الثَّانِيَةُ في عَدَدِ شَهْرِ ربيعِ الْآخِرِ من سَنَةِ ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م؛ وَبَيْنَهُمَا خَمْسَةُ أَشْهُرٍ، كَانَتْ وَثْنُهُ فِيهَا ضَعِيفَةً مُتَقَاصِرَةً، مِمَّا يَدُلُّ على بَطْءِ نُضْجِهِ بِطَبِيعَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَسَبَّبُ بِهَا إلى الشَّعْرِ؛ وَكَانَتْ الرُّوضَةُ يَوْمئِذٍ تُنَشَرُ لِضَائِفَةٍ من فَحُولِ دَهْرِهِمْ: كَالسَّيِّدِ صَالِحِ مَجْدِي، وَرَفَاعَةِ بَكِ رَافِعٍ، وَمُحَمَّدِ أَفْنَدِي قَدْرِي «وَنَابِغَةِ الزَّمَانِ مُحَمَّدِ أَفْنَدِي رِضْوَانٍ»، وَغَيْرِهِمْ. وَكَانَتْ تُسْتَقْبَلُ قِصَائِدُهُمْ بِسَجَاعَاتٍ دَاوِيَةٍ مَفْرُوعَةٍ، هِيَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِطَلْقَاتِ مَدَافِعِ النُّحْيَةِ لِلْمُلُوكِ وَالْأَمْراءِ؛ فَلَمَّا تُشْرَتِ لِصَبْرِي قَالَتْ في الْقَصِيدَةِ الْأُولَى تَهْنِئَةً بِالْعِيدِ الْأكْبَرِ لِلخُدَّيْرِ الْأَعْظَمِ بِقَلَمِ إِسْمَاعِيلِ صَبْرِي أَفْنَدِي. وَقَالَتْ في الثَّانِيَةِ «قَصِيدَةٌ رَائِيَّةٌ في مَدَحِ

(١) أَحَكَّكَهَا: أَنْقَحَهَا.

(٤) سَاخَا: ذَابَا.

(٢) الْوَكَّا: رِسَالَةٌ.

(٥) الْخُطُوبُ: الْمَصَائِبُ.

(٣) الطَّوْدُ: الْجَبَلُ الشَّامِخُ.

الحضرة الخديوية من نظم الشاب النجيب إسماعيل صبري أفندي من تلامذة مدرسة الإدارة». ومطلع القصيدة الأولى:

سَفَرْتُ^(١) فلاح^(٢) لَنَا هِلَالٌ سَعُودٍ وَتَمَّا الْغَرَامُ يَقْلُبِي الْمَعْمُودِ^(٣)

ولا شيء فيها أكثر من حروف المطبعة. ومطلع الثانية:

أَعْرَثَكَ الْغَرَاءُ أَمْ طَلَعَةُ الْبَذْرِ وَقَامَتْكَ الْهَيْفَاءُ أَمْ عَادِلُ الْشُمْرِ
وفي هذه القصيدة بيتٌ وقفتُ عنده أرى صبري باشا في صبري أفندي كأنه
خيالٌ مولودٌ يَسْتَهْلُ، وذلك قوله:

فَطَوَّلَ مِنَ الْهَجْرَانِ عَلًى وَقَوْفُنَا يَطْوُلُ مَعاً - يَا قَاتِلِي - سَاعَةَ الْحَشْرِ
ويكاد هذا البيت يكون أول انقلابٍ للفكرة فيه: وهو غريب، والتأمل فيه
أغرب، ولكنه يدل على خيالٍ سيِّب يوماً على أقطار السموات.

وفي ذلك الزمن عيَّنه كان البارودي شهاباً يتلهَّب، وكان قد بلغ مبلغه
وأستجمع أسباب نهايته، بل هو نظم قبل ذلك بسنوات قصيدته الشهيرة:

أَخَذَ الْكُرَى^(٤) بِمَعَاقِدِ الْأَجْفَانِ وَهَفَا^(٥) الْسُرَى^(٦) بِأَعْيُنِ الْفُرْسَانِ

فلم يكن ليذهب وجه الشعر عن صبري، ولم يكن ليغضى عن احتذاء هذه
الصنعة البارعة ويأخذ في غيرها لولا أنَّ فيه طبعاً مستقلاً يذهب إلى كماله في
أسلوب آخر كأسلوب كل زهرة في غصنها؛ وأخص أحوال صبري أنه لم يرذ أن
يكون شاعراً فجاء أكبر من شاعر، وكان السبب الذي صرفه من ناحية هو نفسه
الذي جاء به من ناحية أخرى.

ينبغي الشاعر بأربعة أشياء لا بد منها: طريقة الدرس التي عالج بها الشعر،
وكتب هذه الطريقة، والرجال الذين هم أمثلتها في نفسه. ثم. ويا لله من ثم
هذه، فهي اللمحة السماوية التي تشرق على فؤاد الشاعر من وجه جميل، والثلاث
الأولى تثنى نبوغاً معروفاً في نوعه ومقداره، ولكن الأخيرة هي طريق القدر التي
لا يعرف آخرها؛ وإذا تجددت في حياة الشاعر أو اتصلت تجدد بها نبوغه أو

(٤) الكرى: النعاس.

(٥) هفا: خف.

(٦) السرى: السير في الليل.

(١) سفر: كشفت عن وجهها.

(٢) لاح: بدا وظهر.

(٣) المعمود: المتيّم.

اتَّصَلَ، فعلى قدرِ ما يُحِبُّ تَحْبُوهُ^(١) السماء من أسرارِ الجمال، وهي نفسها أجملُ أسبابِ الشعرِ وأجملُ معانيه وأجملُ غاياته، فهي هي المادَّةُ الَّتِي تُؤَلَّفُ بَيْنَ نَفْسِ الشَّاعِرِ وَبَيْنَ مَعْنَى الْجَمَالِ الشَّعْرِيِّ فِي هَذَا الْكَوْنِ كُلِّهِ؛ وَإِذَا أَنْتِ نَزَعْتَ الْنَظْرَةَ وَالْإِبْتِسَامَةَ - وهما عنصرانِ تلكِ المادَّةِ - من حياةِ الشَّاعِرِ، نَزَعْتَ أَلْحِيَاءَ نَفْسِهَا مِنْ شَعْرِهِ فَمَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مَقْبَرَةٌ لِلْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي، وَتَسْمَعُ شَعْرَهُ فَلَا تَجْزِيهِ^(٢) بِهِ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِكَ: بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ... وصبري لم يدرسِ الشعرَ في أَلَكْتَبِ أَكْثَرَ مِمَّا دَرَسَهُ فِي الْوُجُوهِ وَالْعَيُونِ، وَقَدْ عَالَجَ هَذَا الشَّعْرَ فِي بِدَايَتِهِ لِيَتَأْتِيَ إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِهِ الْبَعِيدَةِ؛ أَمَّا أَلْرَجَالُ الَّذِينَ كَانُوا أَمْثَلَتْهُ فَكَانُوا رَجَالُ الظَّرْفِ وَالرَّقَّةِ وَالنَّكْتَةِ الْمِضْرِيَّةِ الشَّهِيرَةِ الَّتِي أَنْفَرَدَ بِهَا الطَّبْعُ الْمِضْرِيُّ وَنَصَّ عَلَيْهَا عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ، كَالسَّكَاكِيِّ وَغَيْرِهِ؛ بَلْ كَانَ عَصْرُهُ كُلُّهُ عَصْرَ هَذِهِ النَّكْتَةِ، فَتَحَوَّلَتْ فِي طَبَعِهِ أَلْرُقِيقُ الْمُبْتَكِرِ تَحَوُّلاً رَقِيقاً مُبْتَكِراً أَرْجَعَهَا إِلَى الظَّرْفِ الْمَحْضِ الَّذِي أَجْتَمَعَتْ فِيهِ كُلُّ طِبَاعِهِ كَمَا يَجْتَمِعُ السَّحَابُ مِنَ الْمَاءِ.

وَلَقَدْ كَانَ فِي شَعْرِهِ أَحَقُّ النَّاسِ بِقَوْلِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَغْرِبِيِّ:

أَسْكَانَ مِصْرَ جَاوَزَ الْنَبِيلُ أَرْضَكُمْ فَكَسَبَكُمْ تِلْكَ الْحَلَاوَةَ فِي الشَّعْرِ
وَكَانَ بِتِلْكَ الْأَرْضِ سَخِرَ فَمَا بَقِيَ سِوَى أَثَرٍ يَبْدُو عَلَى الْكَنْظَمِ وَالنَّشْرِ

وَأِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ دَائِمَ الْحُبِّ: يَمْزُجُ ذِكْرَ مَاضِيهِ بِحَاضِرِهِ فَيُخْرِجُ مِنْهُمَا حُبًّا جَدِيداً؛ وَكَانَ الرَّجُلُ كَأَنَّهُ مَجْرُوحُ الْقَلْبِ، فَلَا يَزَالُ يَتُنُّ حَتَّى فِي بَعْضِ أَنْفَاسِهِ، إِذْ يُرْسِلُ النَّفْسَ الطَّوِيلَ بَيْنَ هَنِيئَةٍ وَأُخْرَى كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُطْمَئِنَّ أَنَّ نَفْسَهُ فِيهِ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً بَاقِياً فِي نَفْسِهِ؛ وَتِلْكَ هَمَمَةٌ لَا تَكُونُ فِي شَاعِرٍ مِنَ الشَّعْرَاءِ بِغَيْرِ مَعْنَى.

كَانَتْ النِّظْرَةُ وَالْإِبْتِسَامَةُ تَمَثَّلُ لَهُ حَيْثُ شَاءَ وَتَعَرَّضُهُ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَرَاهَا، فَيَجِدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ رُوحاً مِنَ الشَّعْرِ، وَيَقْرَأُ لِمَحَاتِبِهَا مَتَى اَلْتَمَعَتْ^(٣)، وَكَانَ يَعِيشُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ مَعْنَى فِي قَصِيدَةٍ هُوَ أَمِيرُ أَيْبَاتِهَا

فَشَاعَرْنَا هَذَا أَخْرَجَهُ أَثْنَان: الظَّرْفُ وَالْجَمَالُ؛ وَهَذَا سِرُّ إِبَانَتِهِ أَنْ يُعَدَّ مِنَ الشَّعْرَاءِ لِأَنَّهُ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ يَدْخَلَ بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الْمِخْنَةِ وَالْبَلَوَى الَّتِي أَبْتَلَوْا بِهَا.

وَلَقَدْ هَمَّ صَبْرِي فِي أَوَاخِرِ عَمْرِهِ بِمَحْوِ شَعْرِهِ لَوْ أَنَّهُ كَانَ فِي مِيزَانِ يَدِهِ، عَلَى

(١) تحبوه: تعطيه.

(٢) تجزيه: تحسن إليه.

(٣) التمتع: خطرت على باله.

أنَّهُ محَا مِنْهُ بِإِهْمَالِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَثْبَتَ ؛ وَعَلِمْتُ مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَدُونْ شَيْئاً ، وَأَنَّهُ يَنْسَى مَا يَقُولُهُ ، فَكَأَنَّهُ يُوجَدُ بِسَبَبٍ وَاحِدٍ وَيَمْحَقُ بِسَبَبَيْنِ ؛ وَقَدِيمًا كَانَ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ مَتَى أَنْتَهَوْا إِلَى التَّحْقِيقِ رَأَوْا عَمَرَهُمْ كُلَّهُ بَدَايَةً وَرَأَوْا مَا فَعَلُوا بِاطِلَالٍ فَغَسَلُوا كُتُبَهُمْ أَوْ أَحْرَقُوهَا ، وَلَكِنَّا لَمْ نَعْرِفْ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ فِي شَاعِرٍ بَعْدَ عَصْرِ الْكِتَابَةِ وَالْتَدْوِينِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَأْتِفُ لِنَفْسِهِ أَنْ يُعَدَّ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَجْمَعُ يَدَهُ عَلَى شَعْرِهِ ، كَالشَّرِيفِ الرُّضِيِّ الَّذِي يَقُولُ :

مَالِكَ تَرْضَى أَنْ تُعَدَّ شَاعِرًا بَعْدَ لَهَا مِنْ عَدَدِ الْفَضَائِلِ

وَيَقُولُ فِي مَدْحِ أَبِيهِ :

إِنِّي لَأَرْضَى أَنْ أَرَاكَ مُمَدِّحًا وَعَلَاكَ لَا تَرْضَى بِأَنِّي شَاعِرٌ
وَمِثْلُهُ أَبُو طَالِبٍ الْمَأْمُونِيُّ وَآخَرُونَ يَدْعُونَ ذَلِكَ دَعْوَى وَفِي السَّنَتِيهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

وَلِإِفْرَاطِ صَبْرِي فِي الظَّرْفِ وَالْجَمَالِ وَقِيَامِ شَعْرِهِ عَلَى هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ ، جَاءَ مُقَالًا مِنْ أَصْحَابِ الْقِصَارِ ، وَزَادَ إِقْلَالُهُ فِي قِيَمَةِ شَعْرِهِ ، فَخَرَجَتْ مَقَاطِيعُهُ مَخْرَجَ الشَّيْءِ الطَّرِيفِ الَّذِي يُتَعَجَّبُ مِنْهُ فِي وَجُودِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ لِقَلَّةِ وَجُودِهِ ؛ وَبِذَلِكَ رِيحُ تَعَبِ الْمُكْثَرِينَ وَالْمُطِيلِينَ ، إِذْ كَانَ لَا يَقُولُ إِلَّا فِيمَا تَوَاتَاهِ السَّجِيَّةُ ^(١) وَيَنْزِعُ لَهُ الطَّبْعُ ، فَيَدْنُو مَاخِذَهُ وَيَكْثُرُ بِقَلِيلِهِ وَيَرْمِي مِنْهُ بِمِثْلِ الْحُجَّةِ وَالْبَرْهَانِ ، فَيَطْمَسُ بِهِمَا عَلَى كَلَامٍ طَوِيلٍ وَجَدَلٍ عَرِضٍ .

وَلَا يَعْيبُ الْمُقِلُّ أَنَّهُ مُقِلٌّ إِذَا كَثُرَتْ حَسَنَاتُهُ ، بَلْ ذَلِكَ أَعَوُّ لُهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَالنَّفُوسِ إِذَا أَصَابَتْ فِي شَعْرِهِ مَا يُغْرِيهَا بِطَلَبِ الْمَزِيدِ مِنْهُ ؛ وَقَدْ عَدُّوا بَيْنَ الْمُقْلِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ : طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ ، وَعَبِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ ، وَعَلْقَمَةُ الْفَحْلِ ، وَعَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ ، وَسَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ ، وَحَصِينُ بْنُ الْحُمَامِ ، وَالْمَتَلَمْسُ ، وَالْحَارِثُ بْنُ جِلْزَةَ ، وَابْنُ كَلْثُومٍ ، وَغَيْرَهُمْ أَتَيْنَا عَلَى أَسْمَائِهِمْ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ (تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ) ؛ وَمَنْ أَوْلَنَّاكَ مَنْ يُعْرِفُ بِالْقَصِيدَةِ الْوَاحِدَةِ : كَطَرْفَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْرِفُ بِثَلَاثِ قَصَائِدَ : كَعَلْقَمَةُ ، أَوْ بَارْبَعٍ : كَعَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْرِفُ بِالْأَبْيَاتِ الْمَتَفَرِّقَةِ ، وَلَا عِبرَةَ يَمَّا يُنسَبُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ غَيْرِ الْمُصَحِّحِينَ وَأَهْلِ التَّحْقِيقِ ، فَإِنَّ الْحَمَلَ عَلَى شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ كَثِيرٌ ؛ وَقَدْ يَعْرِفُونَ الشَّاعِرَ بِالْبَيْتِ الْفَرْدِ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ

(١) السجدة : الطبعية دون تصنع .

إنَّما يعتبرون الشعرَ بِمقدارِ ما يُحرِّكُ من ميزانِهِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هو القلبُ، لا بِالطَّوْلِ ولا بِالْقَصْرِ، وقد قالوا في بيتِ النَّابِغَةِ:

ولسنتُ بِمستبَقِ أَخاً لا تلمُّهُ على شَعَثٍ، أيُّ الرِّجالِ المَهْدُبُ؟

إنَّه لا نظيرَ لَهُ في كلامِ العربِ؛ وما ذلكَ إلَّا على أَلْعَبَارِ الَّذِي أَشْرَفْنَا إِلَيْهِ. وكانوا يسمونَ الْبَيْتَ الْوَاحِدَ: يَتِيماً، فإذا بَلَغَ الْبَيْتَيْنِ والثَلَاثَةَ فَهِيَ نَتْفَةٌ، وإلى الْعَشْرَةِ تُسَمَّى قِطْعَةً، وإذا بَلَغَ الْعَشْرَيْنِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُسَمَّى قَصِيداً.

وَكَانَ مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَعْتَمِدُ أَنْ لا يَجِيءَ في شِعْرِهِ الْجَيِّدُ بِغَيْرِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ إلى الْقَطْعِ الصَّغِيرَةِ، كشاعِرِنَا صَبْرِي باشا؛ ومنهم عَقِيلُ بْنُ عُثْفَةَ: كَانَ يَقْصُرُ هِجَاءَهُ وَيَقُولُ: يَكْفِيكَ مِنَ الْقِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِالعُنُقِ. ومنهم أَبُو المَهْوسِ، وَكَانَ يَحْتَجُّ لذلكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَجِدِ الْمَثْلَ النَّادِرَ إِلَّا بَيْتاً واحداً، وَلَمْ يَجِدِ الشَّعْرَ أَلْسَانَرٍ إِلَّا بَيْتاً واحداً؛ ومنهُمُ الْجَمَّازُ: قَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ وَقَدْ أَنشَدَهُ بَيْتَيْنِ: مَا تَزِيدُ عَلَى الْبَيْتِ وَالْبَيْتَيْنِ؟ فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَنشُدَكَ مَذَارِعَةً؟؟؟ وَأَبْنَى لَنَكَ الْمَصْرِيُّ، وَأَبْنَى فَارِسٌ، وَمَنْصُورُ الْفَقِيهِ الَّذِي كَانَ يُقَالُ فِيهِ: إِذَا رَمَحَ بِزَوْجِيهِ قَتَلَ. وَلا نَسْتَقْصِي فِي هَذَا فَلْنَدْعُهُ فَإِنَّ لَهُ مَوْضِعاً.

غَيْرَ أَنَّ صَبْرِي كَانَ لَهُ مَعَ جُودَةِ الْمُقَاتِلِيعِ جُودَةُ الْقَصِيدِ إِذَا قَصَّدَ، كَقَوْمِ عُرْفُوا بِذلكَ فِي التَّارِيخِ، مِنْهُمْ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ وَسِوَاهُ، وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ إِقْلَالِهِ مَا أَعْلَمَنِي بِهِ مِنْ أَنَّ طَرِيقَتَهُ فِي أَكْثَرِ مَا يَنْظُمُ مَعَارِضَةً مَعْنَى يَقْفُ عَلَيْهِ، أَوْ تَضْمِينَ حِكْمَةً، أَوْ ضَرْبَ مَثَلٍ عَلَى طَرِيقَةِ النَّظَرِ وَالْمَلاحِظَةِ، أَوْ تَدْوِينَ خَطَرَةٍ عَرَضَتْ لَهُ، أَوْ لَمَحَةٍ أَوْحَيْتْ إِلَيْهِ؛ وَهُوَ يَنْزِلُ فِي ذلكَ عَلَى النِّصْفَةِ وَالْمَعْدَلَةِ فَلَا يَنْتَحِلُ شَيْئاً لَيْسَ لَهُ، بَلْ يَدُلُّكَ بِنَفْسِهِ عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي مِنْهُ أَخَذَ أَوْ الْمَثَالَ الَّذِي عَلَيْهِ أَحْتَذَى.

قَالَ لِي مَرَّةً إِنَّ الْبُسْتَانِيَّ عَقَدَ حِكْمَةً فَارِسِيَّةً فِي قَوْلِهِ:

قَضَيْتُ إِلَهِي بِالْعَذَابِ فَيَا ثُرَى بأيِّ مَكَانٍ بِالْعَذَابِ تُدِينُ^(١)
وَلَيْسَ عَذَابٌ حَيْثُمَا أَنْتَ كَائِنٌ وأيِّ مَكَانٍ لَسْتُ فِيهِ تَكُونُ؟

ثُمَّ قَالَ: فَأَخَذْتُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَقُلْتُ:

يَا رَبِّ أَبْنِ ثُرَى تُقَامُ جَهَنَّمُ لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً وَلِلْأَشْرَارِ

(١) تدين: تحكم وتقضي.

لَمْ يُبَقِّ عَفْوُكَ فِي السَّمَوَاتِ أَعْلَى وَالْأَرْضِ شَبْرًا خَالِيًا لِلنَّارِ
يَا رَبِّ أَهْلَنِي لِفَضْلِكَ وَأَكْفِنِي شَطَطَ الْعَقُولِ^(١) وَفِتْنَةَ الْأَفْكَارِ
وَمُرَّ الوجودِ يَشْفُ عَنْكَ لَكِي أَرَى غَضَبَ اللَّطِيفِ وَرَحْمَةَ الْجَبَّارِ
يَا عَالِمَ الْأَسْرَارِ حَسْبِيَ مِخْنَةٌ عِلْمِي بِأَنَّكَ عَالِمُ الْأَسْرَارِ

والفرق بين الشعرين أن البيهقي جاء بكلامه على طريقة المتصوفة التي يسمونها طريقة أهل التحقيق، كابن العربي والشُّشُري؛ وأما صبري فأنظر كيف استوفى وكيف لآءَمَ المأخذَ الدقيق الذي لا ينتبه له إلا المطلعُ الحاذقُ بصناعة الكلام، كقوله:

إِذَا مَا صَدِيقٌ عَقْنِي^(٢) بِعَدَاوَةٍ وَفَوَّقْتُ يَوْمًا فِي مَقَاتِلِهِ سَهْمِي
تَعَرَّضَ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَكَسَرَ سَهْمِي فَأَنْشَيْتُ وَلَمْ أَرِمِ
فهذا ينظر إلى قول الحارث بن وعله:

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أَمِيمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ؛ فَإِنَّ أَسَاسَ الْمَعْنَى قَوْلُهُ: «تَعَرَّضَ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ» وهو من قول العباس بن الأحنف:

وَإِذَا مَدَدْتُ طَرْفِي^(٣) إِلَى غَيْبِ رِكَ مُثَلَّتْ دُونَهُ فَأَرَاكَ
فتأمل كيف أبدع في انتزاع المعنى وكيف جعل له معرضاً جديداً وكيف أداه أحسن تادية في اللفظ وجه كانه شيء مخترع.

ومن شعره السائر قوله في العناق وتلازم الحبيبين:

وَلَمَّا أَلْتَقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جُهْدَهُ شَجِيئِينَ^(٤) فَاضَالُوهُ وَعَتَابَا
كَأَنَّ صَدِيقًا فِي جِلَالِ صَدِيقِهِ تَسَرَّبَ أَثْنَاءَ الْعِناقِ وَغَابَا
وهذا المعنى على إبداعه فيه متداول، وأصله لِبشار - أَظُنُّ - في قوله:

وَبِشْنَا جَمِيعًا لَوْ تُرَائَى زَجَاجَةٌ مِنْ الْخَمْرِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرُبِ^(٥)
فأبدع صبري في أخذه وجعل من هذه الزجاجة المنصدة جوهرة تتألق؛

(١) شطط العقول: خروجها ومغاللتها وبعدها عن المألوف.

(٢) عَقْنِي: تركني وأنكر صحبتي وحقي عليه.

(٣) الطَّرْفُ بتسكين الراء: النظر.

(٤) شجيين: مشغولين.

(٥) لم تسرب: لم تسل لتلاصقهما.

على أنني لا أستحسنُ قوله: «كأنَّ صديقاً...». فما هذا بِعِناقِ الأصدقاء، ولو كان الصديقُ راجعاً من سفرٍ الآخرة؛ وإذا غابَ واحدٌ في الآخر، فالآخرُ حاملٌ به... وقد أخذتُ أنا هذا المعنى منه، ولولاهُ ما أهديتُ إليه، فقلتُ في ذلك:

ولَمَّا التَقَيْنَا ضَمْنَا الْحُبَّ ضَمَّةً بها كلُّ ما في مهجَتِنَا مِنَ الْحُبِّ
وشدَّ الهوى صدرًا لِصَدْرِ كائِنَا يُريدُ الهوى إنْفَادَ قَلْبٍ إِلَى قَلْبٍ

وأحسنُ ما تجددَ شعري في الغزلِ والنسبِ والوصفِ والجُحمة، فهي عناصرُ قلبه وذوقه، ولا يتصرفُ معه أقوى ما يتصرفُ إلا في هذه الأغراض، ولعلهُ إن جاوزها^(١) قصرَ معه شيئاً ما وضعفتُ أداته ضعفاً ما، لِأنَّه يكونُ شاعرَ الصنعة وهو يأبأها ويكرهُ أن يكونَ شاعراً من أجلِها؛ وقلَّما يُجاريه أحدٌ في تلك الأغراض، وهو الذي فتحَ أبوابها؛ وحسبكُ أنَّه المِثالُ الذي أخذتُ^(٢) عليه شوقي بك؛ وقد ينقسمُ المعنى الواحدُ في رجلين حينَ يقدر، فإذا لم يُوجدْ أحدهما لم يوجدِ الآخر، وأنا أرى وأعلمُ أنَّه لولا صبري لَمَّا نبغَ شوقي، وكانَ هذا يختلفُ إليه يعرضُ عليه شِعرُهُ ويرجعُ بآثارِ ذوقه فيه، وكذلك كانَ يفعلُ خليفةُ البارودي حافظُ بك إبراهيم: وأسترفدُ شوقي من صبري باشا هذا أليبت السائر

صوني جَمَالِكَ عَنَّا إِنَّا بَشَرٌ مِنَ التُّرابِ وهذا الحسنُ روحاني

فهو لصبري باشا، والمرافدةُ سُنَّةٌ معروفةٌ من قديم، وهي غيرُ الانحلالِ وغيرُ السُرقة وما يُسمَّى إغارةً وغَضباً؛ وقد استرقدَ النابغةُ زهيراً فأمرَ أبْنه كعباً فرفدَهُ، والحكايةُ في ذلك مشهورةٌ عنه وعن سواه.

ولم يكنِ في مضرٍ مثنٍ يُحسنُ ذوقَ ألبیانِ وتمييزَ أقدارِ الألفاظِ بعضها من بعضِ والوإن دلاليتها كالبارودي وصبري وإبراهيم المويلحي والشيخ محمد عبده، رحمهم الله جميعاً...؛ والبارودي يذوقُ بالسليقة، وصبري بالعاطفة، والمويلحي بالظرف، والشيخُ بالبصيرةِ النَّفاذة؛ وذلك شيءٌ رَكِبَهُ أَلَهُ في طبيعةِ صبري لم يُحصله بالدرسِ أكثرَ ممَّا حصله بالحس، ومن أجلِهِ كانَ يفضلُ البحتريَّ على غيره، وهو بلا نزاعٍ بحتريُّ مضر، كما لقبوا أبْنَ زيدون بحتريِّ المغرب؛ وإنَّك لتجدُ بعضَ الألفاظِ في شعرِ الرجلِ كأنَّها شِعرٌ معَ الشعر، فتقفُ على العبارةِ منها

(٢) أخذتُ: قلَّد ونحا نحوه

(١) جاوزها: تخطاها.

وَقَلْبُكَ يَتَنَفَّسُ عَلَيْهَا كَأَنَّمَا وُضِعَتْ لِقَلْبِكَ خَاصَّةً، فَهِيَ تَغْمَزُ عَلَيْهِ غَمَزاً وَكَأَنَّهَا نَفْثَةُ مَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَاءَتْكَ فِي نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْجَنَّةِ.

وَيَمْتَارُ نَسِيبُهُ بِأَنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ فِي طَهَارَتِهِ وَعَقَّتِهِ ضَوْءٌ مِنْ جَمَالِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَهُوَ عِنْدِي أَنْسَبُ مِنَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ الَّذِي صَرَفَ كُلَّ شَعْرِهِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ وَلَوْ أَنَّ عَصْرَهُ كَانَ عَصْرَ أَدَبٍ صَحِيحٍ لَأَخْمَلَ كُلَّ شَعْرَاءِ هَذَا الْبَابِ، مِنْ أَبِي رُبَيْعَةَ إِلَى طَبَقَةِ عُشَاقِ الْعَرَبِ إِلَى أُنْمَةِ الطَّرِيقَةِ الْغَرَامِيَّةِ لِأَخْرِ الْقَرْنِ السَّابِعِ. وَمِنْ غَزَلِهِ الْبَدِيعِ قَوْلُهُ:

يَا مَنْ أَقَامَ فُؤَادِي إِذْ تَمَلَّكْتُهُ مَا بَيْنَ نَارَيْنِ مِنْ شَوْقٍ وَمِنْ شَجَنِ^(١)
تَفْدِيكَ أَعْيُنُ قَوْمٍ حَوْلَكَ أَزْدَحَمَتْ عَطَشِي إِلَى نَهْلِهِ مِنْ وَجْهِكَ الْحَسَنِ
جَرَذَتْ كُلَّ مَلِيحٍ مِنْ مَلَاحَتِهِ لَمْ تَنْتَقِ فِي ظَبْيِي وَلَا عُضْنِي
وَقَوْلُهُ:

أَقْصَرَ فُؤَادِي فَمَا أَلْذَكْرَى بِنَافِعَةٍ وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدِّ مَا كَانَا
سَلَا أَلْفُؤَادَ الَّذِي شَاطَرْتَهُ^(٢) زَمْنَا حَقَّقَ الصَّبَابَةَ فَأَخْفَقَ وَخَذَكَ أَلَانَا

وَيَا رَحْمَةَ اللَّهِ لِلْقَلْبِ الَّذِي يَفْهَمُ هَذَا الْبَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيُجْنُبُ بِهِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ اسْتِعْدَادٌ لِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْجَنُونِ. وَمِنْ قَلَائِدِهِ الْغَرَامِيَّةِ قَوْلُهُ:

يَا أَسَى الْحَيِّ هَلْ فَتَّشْتَ فِي كَبْدِي وَهَلْ تَبَيَّنْتَ دَاءً فِي زَوَايَاهَا
أَوَاهُ مِنْ حُرْقٍ أَوْدَتْ بِمُعْظَمِهَا وَلَمْ تَزَلْ تَتَمَشَّى فِي بَقَايَاهَا
يَا شَوْقُ رِفْقاً بِأَضْلَاعٍ عَصَفَتْ بِهَا فَالْقَلْبُ يَخْفُقُ دُعْرًا^(٣) فِي حَنَائِيهَا^(٤)

وَلَهُ قَصِيدَةٌ (تَمَثَّلُ جَمَالاً) وَقَدْ نَظَمَهَا لِتُنْقَلَ إِلَى الْفَرَنْسَوِيَّةِ، وَمِنْ عَيُونِهَا قَوْلُهُ:

وَأَبْتَسِمِي، مَنْ كَانَ هَذَا ثَغْرُهُ يَمْلَأُ الدُّنْيَا ابْتِسَاماً وَأَزْدِهَاءَ
لَا تَخَافِي شَطَطاً مِنْ أَنْفَسِ تَعَثَّرُ الصَّبُوءُ فِيهَا بِالْحَيَاءِ
رَاضٍ أَلْنَخْوَةُ مِنْ أَخْلَاقِنَا وَأَرْتَضَى آدَابِنَا حَسَنُ الْوَلَاءِ^(٥)

(١) شجن: حزن.

(٢) شاطرته: شارحته.

(٣) دُعْرًا: رعبًا.

(٤) حناياها: جنباتها وأضلاعها.

(٥) الولاء: الصحبة.

فلو امتدّت أمانينا إلى ملك ما كدّرت ذاك أَلصفاء

والشعراء من أول تاريخ الأدب إلى اليوم يقولون في معنى قوله «لا تخافي شططا» الأبيات، وما منهم من وفّق إلى مثل هذا البيّات الأخير، وإن كان بعضهم بلغ الغاية، كابن نباتة السعديّ والسري أرقاء وغيرهما.

ومن أبدع ما اتّفق له في الوصف أبيات في الدواوة تخلّص في آخرها إلى مدح النبي ﷺ، وهو تخلّص ليس في الشعر العربي كلّهُ مثله في الإبداع وحسن الاختراع، يقول فيها:

أكرمي العِلْمَ وأمنحي خادميه ماءك الغالي النفيس الثميناً
وأبذلي الصافي المطهر منه لهداة السرائر المُرشدِينا
وإذا الظلمُ والظلامُ استعانا يوم نخس بأجهل الجاهليّنا
وأستمدّا من الشرور مداداً فأجعليه من قِسْمَةِ الظالمِينا
وأقدفي النقطة التي بات فيها غضبُ القاهر المذلّ كميناً
ليراع^(١) أمرى إذا خط سطرأ نبذ الحقّ وأزّضى الميّن^(٢) ديناً
وإذا كان فيك نقطة سوء كوّنت من خبائث تكويننا
فأجعلها قِسْطَ الَّذِينَ استباحوا في السياساتِ حُرْمَةَ الأضعفينَا
وإذا خفت أن يكون من الصخ ر جلاميد ترجم السامعينَا
فأبخلي بالمداد بخلاً وإن أعطى فيهِ الممينُ ثمّ المئينَا
فإذا أغورّ المداد طبيباً يصف الداء دائباً مستعينَا
فأمنّحيه المراد مناً وعزفاً وأستطبي معونة المُخسينِينا
وإذا مهجة الحمائم أسدت^(٣) نُقْطَةَ سرّها الزكيّ المصوننا
فأجعلها على المودات وقفاً وقبّيتها رسائل الشّيقينَا
فإذا لم يكن بقلبك إلا ما أعدّ للإخلاص للمخلصينَا
فأجعليه حظي لأكتب منه شرح حالي لسيّد المرسلينَا
هذا والله هو الشعر، وما وفّق إلى مثله أحد كائناً من كان في هذا العصر.

(١) البراع: القلم.

(٢) أسدت: قدّمت.

(٣) المين: الظلم.

ولا نُطِيلُ بِالنَّقْلِ مِنْ شَعْرِهِ وَتَتَّبِعُ أَغْرَاضَهُ، فَهُوَ كَالْأَلْمَاسِ فِي الشَّمْسِ: يَشِعُّ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ ضَوْؤُهُ إِلَّا فِي بَعْضِ أَلْوَانٍ مِمَّا يَكُونُ الْأَجْمَلُ فِيمَا كُلُّهُ جَمَالٌ، وَيَمِجُّ^(١) مِنَ الشَّعَاعِ مَا لَا تَجِدُ حُسْنَهُ فِي الشَّعَاعِ نَفْسِهِ، وَأَحْيَانًا يَرِقُّ كَبَعْضِ الْبَلُورِ فَيَمْتَصُّ حَرَارَةَ الشَّمْسِ وَيَسْتَوْقِدُ بِهَا فِي ذَاتِهِ لِضَرْمٍ مَا وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَمَا وَرَاءَهُ إِلَّا قُلُوبُنَا الْحَزِينَةُ عَلَيْهِ - رَحْمَةُ اللَّهِ - !.

* * *

(١) يَمِجُّ: يَحْتَسِي مَجًّا.

حافظ إبراهيم

فرغتُ الآنَ من قراءةِ شِعْرِ حافظٍ بعدَ أنْ لم يَعدْ حافظٌ بَينَنا إلاَّ شِعْرُهُ ونشْرُهُ،
فبِأَلَلِهِ أَحْلَفُ ما نَظَرْتُ في صَفْحَةٍ مِمَّا بَينَ يَدَيَّ إلاَّ وَأَحْسَسْتُ أَنَّ ذَلكَ الشَّاعِرَ
العَظِيمَ يَقولُ في بَيَانِهِ أَلْوَاعٍ وَصِناعَةٍ أَلْبَدِيَّةِ: أنا هُنا!

ولَغةُ هَذا الشَّعْرِ المَتَدَفِّقَةُ بِالحِياةِ كَأَنَّ كَلِماتِها أَلْقَوِيَّةُ عِروْقٍ في جِسمِ حَيٍّ
مَتَوَثِّبٍ - لم تَخْرُجْ عَن أَنَّ تَكونُ هِيَ العَرَبِيَّةُ المُبِينَةُ في جِزاليها وَنُصاعَتِها وَدِقَّةُ
تَركِيبِها أَلْبَيانيِّ، وَمَعَ ذَلكَ فَلَيسَ في هَذا العَصْرِ كُلِّهِ مَن يَكابِرُ أو يُمارِي في أَنَّها هِيَ
لَغةُ حَافظٍ وَحدَهُ، كَأَنَّهُ أَرغَمَ التَّارِيخُ أَنَّ يَحْتَفِظَ بِهِ في أَجَمَلِ آثارِهِ.

وأنا أَعَرُفُ في شِعْرِهِ مَواضِعَ مِן الاضطرابِ وَالضَّغَفِ وَالنَّقْصِ سَاشِيرٍ إلى
بَعْضِها، وَلَكِنِّي عَلى ما أَعَرُفُهُ أَجدُ هَذا الشَّعْرَ كَالثَّيَّارِ يَعبُ عُبَابُهُ^(١) لا يُبالي ما تَنائَرُ
مِنهُ وما رَكَدَ وما وَقَعَ في غَيرِ مَوقِعِهِ، إِذْ كَانَتْ عَظَمَتُهُ في أَجتماعِ مادِيهِ لا في أَجْزاءِ
مِنها، وفي أَلَسْرِ الَّذِي يَدْفَعُها في كُلِّ مَوْضِعٍ لا في المَظْهَرِ الَّذِي تَكونُ بِهِ في
مَوْضِعٍ دونَ مَوْضِعٍ؛ فَهو أبدأ يَقولُ لِمَن يَتَصَفَّحُ عَلَيهِ أو يَتَقَدَّه: أَنظُرْ لِمَا بَقِيَ.



تَرجَعُ صِداقتي لِحَافظٍ - رَحِمَهُ اللهُ - إلى سَنَةِ ١٩٠٠، أَوَّلِ عَهِدِي بِالْأَدَبِ
وطلَبِهِ، وَقَدْ شَهِدْتُ مَن يَومئِذٍ بِنِشاءِ الأَدَبِيِّ عَالِياً فَعَالِياً إلى الذُّرُوءِ الَّتِي أَنتَهى إِلَيها،
وَأَخْلَصَ لي بَنتُهُ وَأَصْفاي مَوَدَّتِهِ، وَكانَ هَمَّكَ مَن أَخ كَريمٍ، وَلَهُ في نَفْسي مَكانٌ
لَم يَنكَرُهُ مَذ عَرَفْتُهُ، وَلَم يَضُقْ بِمَحبَّتِهِ مَنذُ اتَّسَعَ لَها. وَكُنْتُ وإِياهُ يَرى أَحَدُها الأَخَرَ
مِن هَذهِ اللُّغَةِ كَالجَانِبَيْنِ لِصُورَةٍ واحِدَةٍ: لا يَتَهايَا في الطَّبيعَةِ أَنَّ يَخْتَلِفَا وَالصُّورَةُ بَعْدَ
قائِمَةٍ، ولا أَنَّ يَضْطَرِبَ ما بَينَهُما وَالصُّورَةُ مَناهما عَلى وَزَنِ وَتَقْدِيرِ.

وَلَكِنُّ هَذا لا يَمْنَعُنِي أَنَّ أَقرَّرَ أَنَّهُ كانَ عِنْدِي أَكْبَرَ مَن شِعْرِهِ - وَلَعَلَّهُ كَذلكَ
عِنْدَ كُلِّ مَن خَلَطُوهُ بِأَنفُسِهِمْ - فَإِنَّهُ يَتَعاظَمُكَ بِنَفْسِهِ أَلْقَوِيَّةُ وبِالْمَعْنَى الَّذِي تُحْسُهُ في

(١) العباب: اليم.

العبقري ولا تدري ما هو؛ وذلك من سيخِرِ العبقريين وأثرهم في نفس من يتصل بهم، فيتسوق لهم أمران من أمر واحد، وحظان يحظ، ونصيبان ينصيب؛ لأنَّ مع الإعجاب بآثارهم إعجاباً آخر بالقوة التي أبدعت هذه الآثار؛ ففي ذواتهم المحبوبة يستمرُّ الإعجاب كالتسائر على طريق لا موقف عليه، وفي آثارهم يكون الإعجاب في موقف قد انتهت الطريق به فوقف على حدٍّ إنَّ بعد وإنَّ قرب.

لا جرمَ كان شاعرنا عبقرياً عجيب الصنعة قوي الإلهام بليغ الأثر في عصره، يشبه تحولاً وقع في صورة من صور التاريخ، ولكنه كذلك في مذاهب^(١) من الشعر دون غيرها، فلم يكن معه من التمام في فنون الشعر ما يكون به الشاعر أكتام أو الأديب الكامل الأداة؛ وكم من مرة كلمته في ذلك ونبهته إلى أنه كالنمط الواحد، وأنه يجب أن يترسل شعره بين النفوس الإنسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة، فإذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هي السياسة، ولا ينبغي أن يكون شعره كله كشمس الصيف، فإنَّ للربيع شمساً أجمل منها وأحبَّ كأنها مجتمعة من أزهاره وعطره ونسيمه.

ولقد كان يفخر بأنه (الشاعر الاجتماعي)، وهذا لقب مئز به صديقنا الأستاذ محمد كرد علي أيام كان في مصر قديماً، فتعلق به حافظ ورأه تعبيراً صحيحاً لما في نفسه وللملكة التي اختص بها، قال لي يوماً في سنة ١٩٠٣: أنا لا أعُدُّ شاعراً إلا من كان ينظم في الاجتماعيات. فقلت له: وما لك لا تقول بالعبارة المكشوفة: إنك لا تعدُّ الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد.

ولا بد لي أن أبسط هذا المعنى في هذا الفصل، فإنه كان يُخيل إلي دائماً أن شاعرنا (حافظ) خلِقَ للتاريخ في أصل طبيعته، ثم زيدت فيه موهبة الشعر ليكون مؤرخاً حيّ الوصف بليغ التأثير قوي التصرف؛ ومن ثم جاء أكثر ما نظم وأساسه التاريخ والسياسة، وصحَّ له بهذا الاعتبار أن يقول إنه الشاعر الاجتماعي، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر، فإذا كان في المادة اجتماعي وسياسي فليس في الروح إلا الشاعر على إطلاقه؛ والاجتماعيات ليست كل حقائق الحياة، وهي بعد ذلك معانٍ خاصة محصورة في زمنها ومكانها؛ على أن الحقائق ليست هي الشعر، وإنما الشعر تصويرها والإحساس بها في شكل حي تلبسه الحقيقة من النفس، فالشاعر

(١) مذاهب: ضروب، أنواع.

الاجتماعي شاعر في حيزٍ محدودٍ من وجوه الشعر ومذاهبه، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يُسمى شعره فنّاً، إذ كان الفنّ إنسانياً وكان شاملاً عاماً؛ والمقاييس التي يطرّد عليها الفنّ الأدبي لا تكون في الزمن ولا في الموضوع، بل في النفس الإنسانية التي لا تُخصّ بوقت ولا مكان، فإذا لم يكن الشعر إنسانياً عامّاً يولد كل جيل من الناس فيجده كائناً وضع له وأرتهن^(١) بأغراضه وحقائقه، فهو شعر (كالأخبار المحلّة)، وهذا وجه الشبه بينه وبين ما أشرت إليه آنفاً من نظم مقالات الجرائد.

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالأشياء التي نحن منها في الإنسانية والطبيعة والجمال وحقائق الحياة والموت، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنه يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا... فإذا مات اليوم ماتت الجريدة، ثم تولّد ثم نموت؛ وقد أدرك الممتني سرّ الشعر وأنه قائم على تحويل الشعور الإنساني إلى معرفة إنسانية، فخلّد شعره، فلا يمكن أن يمحي من العربيّة ما بقيت. وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض والنقص، وعلى أن الممتني كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحُبّ ضعفاً ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ في هذا المعنى، ولكنّ حكمته الإنسانية ودقّة أوصافه وإقامته الفضائل والرذائل في كمالها الفنيّ مقام تماثيل بارعة من الجمال، كل ذلك ترك شعره مستمراً باستمرار الحياة وباستمرار الإنسانية وباستمرار الذوق.

إنّ هذا الكون مبنيّ في نفسه ممّا يعلم العَلَمُ تركيّه ولا يعلم سرّ تركيّه إلا الله وحده، ولكنه مبنيّ في أنفسنا من عمل الحواس، ثم من التعليل والتفسير؛ أمّا الحواس ففي كل حيّ، لا تُخلَقُ بصناعة ولا عمل؛ وأمّا التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والأديب، فكلاهما يُخلَقُ لإتمام الخلق في الحقيقة، وهي منزلة لا أدري كيف يمكن أن تمسح حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعي أو السياسي، فنرجع به نمطاً واحداً، مع أنّ الآثار الأدبيّة وفي جملتها الشعر - إن هي إلا قوى الفكر وإلهام النفس وبصيرة الروح مسجلة كلّها في بواعثها وأسبابها من نفس عالية مُمتازة؛ وهذه القوى كثيرة التحوّل، فيجب ضرورة أن تكون آثارها كثيرة التّنوُّع، وتنوُّع الصور الفكرية في آثار الشاعر أو الأديب ومعيتها متوافرة مُتتابعَة هو معيار أدبه وقياس بُرغفه عالياً أو نازلاً، ومُتبعاً أو مُبتكراً، وفيما يُضيء من نواحيه وما ينطفئ.

على أن شاعرنا الاجتماعي (كما كان يجب أن يوصف - رحمه الله -) وإن

(١) ارتهن: ارتبط وتقيّد.

كَانَ قَدْ نَفَخَ فِي رُوحِ الشَّعْبِ أَنْفَاساً إلهِيَّةً، وَأَحْسَنَ فِي وَصْفِ حَوَادِثِهِ وَآلَامِهِ وَعِيبِهِ، وَأَبْلَغَ أَلْبَانٍ فِي كُلِّ ذَلِكَ - فَإِنَّهُ نَزَلَ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ عَنْ وَضْعِهِ الصَّحِيحِ، فَكَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ بِمَكَانِ الشَّرْطِيِّ فِي الطَّرِيقِ: يَقِفُ لِلْجَرَائِمِ وَالْحَوَادِثِ، عَلَى حِينِ أَنَّ مَقَامَهُ أَلْجَتَمَاعِيَّ مِنَ الشَّعْبِ مَقَامُ الْمُعَلِّمِ فِي مَدْرَسَتِهِ: يَجْلِسُ لِلطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ. لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تَجِدَ فِي شِعْرِ الشَّاعِرِ حَوَادِثَ عَصْرِهِ أَكْثَرَهَا أَوْ أَقْلَهَا، فَإِنَّ فَوْقَ هَذِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْهَا، وَهِيَ أَنْ تَوْجَدَ حَوَادِثَ النُّهْضَةِ بِشِعْرِ الشَّاعِرِ، وَأَنْ يَكُونَ فِي شِعْرِهِ الْعَنْصَرُ النَّارِي مِنَ اللَّغَةِ الشَّعْبِيَّةِ.

عَلَى أَنَّ (حَافِظَ) - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَدْرَكَ كُلَّ هَذَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ، فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُمِيتَ دِيوَانَهُ وَيَسْتَخْرِجَ مِنْهُ جِزْءاً صَغِيراً يَخْتَارُ فِيهِ أَلْفَ بَيْتٍ وَيُسْقِطُ مَا عَدَاهَا وَإِنْ كَانَ فِيهِ شِعْرٌ أَجْتَمَاعِيٌّ... وَمَعَ هَذَا النِّقْصِ الَّذِي بَعَثَ عَلَيْهِ طَبِيعَةُ الزَّمَنِ وَطَبِيعَةُ الشَّاعِرِ مَعاً، فَإِنَّ تَمَامَ حَافِظٍ فِي مَذْهَبِهِ الْأَجْتَمَاعِيَّ الَّذِي نَبَغَ فِيهِ جَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْقُوَّةِ وَفَوْقَ الطَّاقَةِ، لَا يُجَارِيهِ فِيهِ شَاعِرٌ آخَرُ، بِحَيْثُ دَلَّ عَلَى أَنَّ أَلْبَانَةً قَدَرُ إلهِيٍّ لَا يَنْقُصُ مِنْ عَظَمَتِهِ أَنْ يَكُونَ حَادِثَةً وَاحِدَةً تَدْوِي دَوْنَهَا فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ مُبَسَّرٌ مِنْذُ نَشَأَتِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَحْكَمَتْهُ الْمَدْرَسَةُ الْحَرَبِيَّةُ، ثُمَّ قَيْدُهُ الْجَيْشِ، ثُمَّ تَفَادُّهُ السُّودَانَ، ثُمَّ قَذْفُ بِهِ الْكُظْلَمِ، ثُمَّ تَوَلَّاهُ إِمَامَ عَصْرِهِ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي غَايَتِهِ الْوَعْرَةِ وَمَقَاصِدِهِ الْعُمَرَانِيَّةِ وَمَعَانِيهِ لِإِصْلَاحِ - مَدْرَسَةِ حَرَبِيَّةٍ وَجَيْشٍ وَفَلَاةٍ، فَلَمْ يَكُنْ حَافِظٌ إِلَّا أَلْصِقَ الْإِنْسَانِيَّ الَّذِي أَعَدَّ بِخَصَائِصِهِ لِلتَّبْعِيَّةِ عَنْ حَوَادِثِ أُمَّتِهِ وَخَصَائِصِهَا، وَكَأَنَّهُ فِي نَفْلَتِهِ مِنَ السُّودَانِ إِلَى مِصْرَ قَدْ أُنْتَقَلَ مِنْ جَيْشٍ يُحَارِبُ الْأَقْوَامَ الْأَعْدَاءَ لِأُمَّتِهِ، إِلَى جَيْشٍ آخَرَ يُحَارِبُ الْمَعَانِي الْأَعْدَاءَ لِأُمَّتِهِ.

وَلَدَ حَافِظٌ إِبْرَاهِيمَ سَنَةَ ١٨٧١، وَكَانَ أَلْكِتَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي هَدَاهُ إِلَى سِرِّ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَأَرْهَفَ ذَوْقَهُ وَأَحْكَمَ طَبِيعَتَهُ، هُوَ كِتَابُ «الْوَسِيلَةِ الْأَدَبِيَّةِ» لِلشَّيْخِ حَسَنِ الْمُصْرَفِيِّ، الْمَطْبُوعُ فِي مِصْرَ لِخَمْسٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً؛ فَفِي هَذَا الْكِتَابِ قَرَأَ حَافِظٌ خِلَاصَةً مَخْتَارَةً مُحَقَّقَةً مِنْ فَنُونِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِي عَصُورِهِ الْمُخْتَلَفَةِ وَدَرَسَ ذَوْقَ الْبَلَاغَةِ فِي أَسْمَى مَا يَبْلُغُ بِهَا الذَّوْقُ، وَوَقَفَ عَلَى أَسْرَارِ تَرْكِيبِهَا، وَعَرَفَ مِنْهُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي نَبَغَ بِهَا أَلْبَارُودِي، وَهِيَ قِرَاءَةُ دَوَائِنِ فَحُولِ الشُّعْرَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَجَفَظَهُ الْكَثِيرُ مِنْهَا؛ فَبَنَى شَاعِرُنَا مِنْ يَوْمَئِذٍ قَرِيبَتَهُ عَلَى الْجَفَظِ، وَلَمْ يَرُكْ يَحْفَظْ إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ؛ إِذْ كَانَتْ قَرِيبَتُهُ كَالَّةِ التَّصْوِيرِ: لَا تُنْبِئُ لِشَيْءٍ إِلَّا غَلِظَتُهُ وَهَذَا

سبب من أسباب ضعف خياله، ولكنه رد عليه من القوة في اللغة ما تناهى فيه إلى الغاية.

واتَّفَقَ لذلك العهد أن طُبِعَتْ لزوميات المعري في مِصْرَ، فتناولها حافظ وأستظهر أكثرها، فكانت باعثة ميله ونزعتيه إلى الشعر الاجتماعي؛ والفرق بين حافظ وبين المعري في الموهبة الفلسفية هو الذي نفذ بالمعري إلى أسرار كثيرة ووقف بحافظ عند الظاهر وما حوله، يطير هناك ويقع.

وقد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه الناحية، فاستصعبت عليه أسرار واستغلقت أخرى من أسرار الخبير والشّر في الحياة، والجمال والخسَن في الخليفة، والجلال والإبداع في الكون، والإقرار والشك في كل ذلك؛ وقد بلغ المعري من هذا مبلغاً لا بأس به، إلا أنه لم يُصَفْ كما تُصَفَّى الأشياء في عين مُبْصِرة؛ فخطأ وخطأ؛ ووضع من أغراض نفسه المريضة على الصحيح والمريض جميعاً. وتابعه حافظ في طريقة أخرى سنشير إليها بعد.

وَقُنَّ شاعرنا بما قرأ في «الوسيلة» من شعر أبارودي، فأصبح من يومئذ تلميذه، وسار على نهجه في قوة اللفظ وجزالة السبك ومتانة الصنعة وجودة التأليف على نغم الألفاظ وأجرام الحروف، ولكنه لم يدرك شأواً أبارودي في ذلك؛ لأن هذا جمع من دواوين الشعراء وكتب الأدب ما لم يتفق لغيره في عصره، وأدخل في شعره أحسن ما صنعت الدنيا في ألف سنة من تاريخ البلاغة العربية؛ ولذا انتقل عنه حافظ إلى طريقة مسلم بن الوليد في التصنيع ولزمها إلى آخر مدته.

وأبتدأ يعالج الشعر في السودان وينظم في جنس ما هو بسبيله من وصف ألهم المستولي عليه من جميع جهاته؛ إذ كان يتيماً فقيراً مُشْرَداً، ويرى نفسه شاعراً تصدّه الحياة عن منزلة الشاعر وعن أمكنة الشعر، كالذي غصّب ميراثه من عرش ومُلْك، ونُفي إلى غير أرضه، ووضع روحه بإزاء روح الفقير وقيل لها: عدو ما من صداقته بذاً.

ثم جاء إلى مِصْرَ واتَّصل بالامام الشيخ محمد عبده، واستقال من الجيش وفرغ للأدب؛ فبدأ من ثم تكوينه الأدبي المندمج المُحْكَم، أما قبل ذلك إلى سنة ١٩٠١ التي طبع فيها الجزء الأول من ديوانه، فكان شعره قليلاً ظاهر التكلّف، وأكثره يدل على طريقة مضطربة لم تستحكم، وفكر لم ينضج، وموهبة في التوليد الشعري بينها وبين الاستقلال أمد قريب.

ودرسَ في مدرسة الشيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٥، وهذا الإمام - رحمه الله - كانَ من كلِّ نواحيه رجلاً فذاً، وكأنَّه نبيٌّ تأخَّرَ عن زمنه؛ فأعطى الشريعة، ولكن في عزمته، وهبَ ألوحى ولكن في عقله، واتَّصلَ بالسرِّ القدسيِّ ولكن من قلبه؛ ولولا هو ولولا أنَّه بهذا الخصائص، لكانَ حافظُ شاعراً من الطبقة الثانية، فإنَّه من الشيخ وحده كانت له هذه القوَّة التي جعلته يُصيب الإلهام من كلِّ عظيم يعرفه، وكانَ له من أثرها هذا الشعرُ المتينُ في وصفِ العظماءِ والعظماءِ وهو أحسنُ شعره.

ولم يجدَ حافظٌ من قومه ما يجعله لسانهم حتى تُنطقه بالوحي نفسيتهم التاريخية الكبرى، ولا تولاهُ ملكٌ أو أميرٌ يرغب في أدبه رغبةً أدبٍ ملك، أو أدبٍ أمير، ليظهرَ منه عبقريةٌ جديدةٌ في التاريخ؛ ولا عرفَ الحبُّ الذي يجعلُ للشاعر من سخرِ الحبيبِ ما يجمعُ النفسيةَ التاريخية والملكبةَ معاً ويزيدُ عليهما؛ وهذه الثلاثة التي لم تتفقَ لحافظ، هي التي لا ينيغُ الشاعرُ نبوغاً يُفردُه ويميزُه إلا بواحدٍ منها أو بأثنين أو بها كلها؛ غيرَ أن (حافظ) وجدَ في الإمام ما هو أسمى من كلِّ هؤلاء في النفس والجاذبية، وعرفَ فيه من ذوقِ الأدبِ والبلاغة ما لم يعرفَ شاعرٌ في ملكٍ ولا أمير؛ وقد حضرَ درسه في المنطقي وأسرارِ البلاغة ودلائل الإعجاز، وخرجَ منها بذوقه الدقيق وأسلوبه المتمكَّن، وحضرَ مجالسه وخرجَ منها بمواضيعه الاجتماعية وأغراضه الوثابة، وحضرَ نظراتِ عينيه وخرجَ منها بروحانيَّة قوَّة هي التي تنزرمُ في شعره إلى الأبد؛ فحافظٌ إحدى حسناتِ الشيخ على العالم العربيِّ، وهو خُطة من خُطوطه في عمله للإصلاح الشرقيِّ الإسلاميِّ والنهضة المِصريةِ الوطنيَّة وإحياءِ العربيَّة وآدابها؛ وإذا ذُكرتِ حسناتُ الشيخ أو عُدتْ للتاريخ، وجبَ أن يُقالَ: أصلحَ وفعلَ وفعلَ وفَسَّرَ القرآنَ وأنشأَ حافظُ إبراهيم . . .

ومضى شاعرنا موجَّهاً بفكرة الإمام وروجه، واستمرَّ في ذلك بعد موت الشيخ كما يستمرُّ النهرُ إذا احتضرَ مجراه: لا يستطيعُ أن يخرجَ عنه ما دامَ يجري إلى مَقارِه^(١)

وكانَ حافظٌ في بديعه وصناعته على مذهبِ مسلم بن الوليد كما قلنا، وهو مثله إبطاء في عمل الشعر، وتلوُّماً على خزكهِ^(٢)، وأنفراداً بكلِّ لفظة منه، وتقليباً

(٢) خُزكه: صياغته.

(١) مَقارِه: حيث يصل إلى نهاية رحلته.

للنظر فيما بين الكلمة والكلمة، وأعتبر كل بيت كالعروس: لها مغرض وجليّة وزينة؛ فإذا عمل شعراً أثبتت خواطره في كل وجه، وذهب وراء الألفاظ والمعاني، وترك حاجسه (العقل الباطن) يعمل عمله فيما أتوى عليه أو أستصعب، وهو واثق أنه سينقاد ويتسهّل بقوة إن لم تكن فيه الآن فتكون فيه؛ ثم ينظم ما يتسمّح إن جاء في موضعه من القصيدة أو في غير موضعه، فلا يتبع فيها نسقاً بعينه، وإنما القصيدة عنده كل سيجتمع من بعد، تهياً أجزاؤه متسقة ومبعثرة كما يجيء بها الإلهام وأسباب الاتفاق؛ فالقصيدة أولاً في أبياتها، ثم تكون أبياتها فيها، أي ثم ترتب الأبيات وتنزل في منازلها، ولا ينظم إلا متغنياً، يروض^(١) الشعر بذلك، لأن النفس تفتتح للموسيقى فتسمع وتتقاد، وهو يتبع في ذلك طريقة معروفة ذكرها ابن حجة الحموي في كتابه «خزانة الأدب»، وهي من وصية أبي تمام البحتري، وكان المتنبي يعمل عليها؛ وبالأجملة فإن (حافظ) يرتهن فكره بالقصيدة التي ينظمها ويتوقر عليها وعلى أسبابها، لا كما يفرغ الشاعر للشعر، ولكن كما يتوقر المؤلف العظيم على كتاب يؤلفه؛ وهو كذلك يطيء في نثره أكثر مما يطيء في الشعر، دلني بنفسه - رحمه الله - على صفحة في الجزء الثاني من ترجمة البؤساء، وقال: إنه ترجمها بخمسة عشر يوماً.

وحضرته مرة يترجم أسطراً من الجزء الأول (في قهرة الشيشة) يخطها في دفتر صغير دون حجم الكف، فأجتمعت له ثلاثة أسطر في ثلاث ساعات، وهذا لا يعيبه ما دام يريد قسط الفن، وما دام يحاول أن يخرج الكلمات من عالمها إلى عالمه هو المتموج من الألفاظ والعبارات بمثل الكواكب في الاستواء والأجاذبية والشعاع والروني والجمال.

ويرى مع الصناعة أن يكون سبك شغره سبك البدوي المطبوع: جزلاً سهلاً مشرقاً مُنتلياً متعادلاً الأجزاء والتقاسيم، يرن رنيناً كأنما قدفت به سليقة أعرابي فصيح، تحت ضوئه كواكب أبداية، على بزد الرمل، في سمات الليل، حين تمتلئ تلك النفس البدوية بحنين الحب، أو شوق الجمال، أو عظمة القوة؛ وهذا هو الأصل الذي أتبعه، وقفني عليه هو بنفسه في سنة ١٩٠٢، وقرظني به في الجزء الأول من ديواني فقال:

أنت وألله كاتب حضري إن عدّ ذلك شاعراً بدوياً

(١) يروض: يجعله سهلاً ليناً.

ولو أنك أجريتَ شعرَ حافظٍ في أبلغ ما قاله المطبوعون من الأعرابِ وشعراءِ القرنِ الأولِ، ألنَّامُ بهِ وزادَ عليه في الصَّناعةِ وبعضِ المعنى؛ وقلَّ أن تجدَ في شعرِهِ كلمةٌ ينبو بها مكانها، إلَّا ألفاظاً قليلةً كانَ يستكرِّهها، يحسبُ أنَّه يستطِفُ منها ويرى في غرابتها شيئاً جديداً؛ وهذا من خطأ رأيهِ في الأسلوبِ لأنَّه مع بلاغيِّه كانَ ينقصُه أن يكونَ فيلسوفاً في البلاغة، وأنا أرى أنَّه لو تمَّتْ لَهُ الموهبةُ الفَلَسَفيَّةُ لَمَّا جاراهُ شاعرٌ آخر، ولكنَّ الكمالَ عزيزٌ^(١) في البشريَّة؛ وقد عرفتُ رأيهُ في الأسلوبِ في سنة ١٩٠٦، إذ نشرتُ لَهُ مجلةَ الأقلامِ التي كانَ يُصدرُها صاحبنا الأديبُ جورج طنوس كلماتٍ كانَ يريدُ أن يضمنَها كتابَهُ (آبالي سطيح)، أظهرَ فيها رأيهُ في الشعراءِ، فقال في إسماعيل صبري: يقولُ الشعرُ لِنَفْسِهِ لا لِلنَّاسِ. وفي شوقي: أرقُّ الشعراءِ، طبعاً وأسماهم خيالاً وفي مطران: أسرعُهم بديهةً وأقدرُهم ابتكاراً. وقال في - ولم يكن مضى عليَّ إلَّا ستُّ سنينَ في طلبِ الأدبِ - مكثرًا راقِي الخيالِ بعيدَ الشَّوْطِ في ميادينِ الأدبِ، غيرَ ناضجِ الأسلوبِ. فلَمَّا اجتمعَتْ بِهِ فاتحتُهُ في ذلك وسألتُهُ رأيهُ في الأسلوبِ الناضجِ، فلم أرَ عنده طائلاً، وكلُّ ما قاله في ذلك: أنَّ الشَّيخَ عبدَ القاهرِ الجرجاني قرَّرَ أنَّ البلاغةَ ليستُ في اللفظِ ولا في المعنى، ولكنَّها في الأسلوبِ. وعبدُ القاهرِ لم يقلْ هذا ولا قاله غيره، فإنَّ الأسلوبَ عنده «طريقةٌ مخصوصةٌ في نسقِ الألفاظِ بعضها على بعضٍ لترتيبِ المعاني في النَّفسِ وتنزيلِها»، وأنَّ المَنزِلَةَ من حيزِ المعاني دونَ الألفاظِ، وأنَّها ليستُ لك حيثُ تسمعُ بأذنِكَ، بل حيثُ تنظرُ بِقَلْبِكَ وتستعينُ بِفكرِكَ».

وقد قررتُ لَهُ أنَّ لِلألفاظِ ما يُشبهُ الألوانَ، فليستَ كُلُّها زرقاءَ ولا صفراءَ ولا حمراءَ، ورُبَّ لفظَةٍ رقيقةٍ تقعُ ضعیفةً في موضعٍ فيكونُ ضَعْفُها في موضعٍها ذاك هو كُلُّ بلاغيِّها وقوتُها، كفترةِ السَّكوتِ بين أنغامِ الموسيقى: هي في نَفْسِها صَمْتُ لا قيمةَ لَهُ؛ ولكنَّها في موضعِها بينَ الأنغامِ نغمٌ آخرُ ذو تأثيرٍ بِسُكُونِهِ لا بِرِنينِهِ؛ وهذا من رُوحِ الكفنِ في الأسلوبِ.

وأدركَ شاعرنا من يومئذٍ ما سميَّتْهُ «قوَّةُ الضَّعفِ»، ولعلَّ هذا هو السَّببُ في أنَّ طبعَهُ رجعَ يعدلُ بِهِ إلى التَّسهيلِ، حتَّى إنَّه لَتَقَعُ في شعرِهِ أبياتٌ مُتَهافِتَةٌ فبأني بها ولا يُنكرُها؛ ولقيني مرةً فأنشدني قولَ الشَّاعر:

أنا لم أرزُقْ محبَّتها إنما لعبدٍ ما رزقا

(١) عزيز نادر صعب المنال.

وَجَعَلَ يُعْجِبُنِي مِنْ بَلَاغَةِ قَوْلِهِ (لَمْ أَرْزُقْ) وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ ضَعِيفَةٌ مُبْتَدَلَةٌ تَجْرِي فِي مَنْطِقِ كُلِّ عَامِي، قُلْتُ: وَلَكِنْ (مُحِبَّتَهَا) جَعَلْتُهَا كَمُحِبَّتِهَا..



وضَعُفُ المَوْهَبَةِ الفَلَسَفِيَّةِ فِي حَافِظِ عَوْضَةِ نَاحِيَةٍ أُخْرَى مِنْ أَقْوَى الْقُوَّةِ فِي الشَّعْرِ، وَهِيَ اهْتِدَاؤُهُ إِلَى حَقِيقَةِ الْغَرَضِ الَّذِي يَنْظُمُ فِيهِ، وَتَرْكُهُ الْحَوَاشِي وَالْزِيَادَاتِ، وَأَنْصَرَفَ قُوَّاهُ إِلَى دِقَّةِ الْوَصْفِ حِينَ يَصِفُ، وَتَعْوِيلُهُ عَلَى إِحْسَاسِهِ أَكْثَرَ مِنْ تَعْوِيلِهِ عَلَى فِكْرِهِ؛ فَرَادَ ذَلِكَ فِي رَوْنِ شَعْرِهِ وَمَائِهِ، وَنَحَا بِهِ مِنْحَى الْمَطْبُوعِينَ، فَخَرَجَ يَتَدَقَّقُ سَلَاسَةً وَحِلَاوَةً، مُمْتَلِكًا مِنْ صَوَابِ الْمَعْنَى وَبِلَاغَةِ الْأَدَاءِ وَقُوَّةِ التَّأْثِيرِ؛ وَبِهَذَا نَبَغَ فِي الرِّثَاءِ وَوَصَفِ الْفَجَائِعِ نَبوغًا أَفْرَدَ بِهِ، حَتَّى لَأَحْسَبُ أَنَّ هُنَاكَ رُوحًا يُجِدُّهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاقِفِ، وَأَنَّ الْحَقِيقَةَ تَبْرِجُ^(١) لَهُ فِي هَذِهِ الْعِظَامِ خَاصَّةً لِيَرَى مِنْهَا مَا لَا يَرَاهُ غَيْرُهُ؛ وَهُوَ يَتَّحِدُ بِالْعَظِيمِ الَّذِي يَرِثِيهِ فَيُجِئُ فَيَمُنُّ يَعْرِفُهُ إِجَادَةً مُنْقَطِعَةً النُّظَرِ، تَتَبَيَّنُ الْفَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شَعْرِهِ فَيَمُنُّ لَا يَعْرِفُهُ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ؛ وَأَحْسَبُهُ يَسْأَلُ رُوحَ الْعَظِيمِ الَّذِي يَصِفُهُ أَوْ يَرِثِيهِ: أَيْنَ الْمَعْنَى الَّذِي فِيهِ حَقِيقَتُكَ؟ وَأَيْنَ الْحَقِيقَةُ أَتَى فِيهَا مَعْنَاكَ؟

وَالْفَلَسَفَةُ الشَّعْرِيَّةُ كُلُّهَا أَنْ يَحُلَّ فِي الشَّاعِرِ الْمُلْهَمُ ذَلِكَ السَّرُّ الْجَمِيلُ الْجاذِبُ
وَالْمُنْجَذِبُ مَعاً، الْمُسْتَقَرُّ وَالْمُتَحَوِّلُ جَمِيعاً، الْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ فِي وَقْتٍ؛ فَيَكْتَنِبُهُ
الشَّاعِرُ مَا لَا يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ، فَيَقِفُ عَلَى الْجَمَالِ وَالْحَسَنِ وَالرَّقَّةِ، وَيُلْهِمُ الْحِكْمَةَ
وَالْبَصِيرَةَ، وَيَتَنَاوَلُ الْأَغْراضَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ، وَيُوَثِّقُ التَّعْبِيرَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ فِي
طَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ هِيَ أَسْلُوبُهُ، وَهَذَا لَمْ يَتَّفَقْ عَلَى اتِّمِّهِ وَأَحْسِنِهِ فِي حَافِظٍ، فَقَضَرَ بِهِ
فِي تَوَلِيدِ الْمَعَانِي الْمُبْتَكِرَةِ، وَنَزَلَ بِهِ فِي الْغَزْلِ وَوَصَفِ الْجَمَالِ؛ بَيَدَ أَنَّهُ اتَّفَقَ لَهُ
مِثْلُ هَذَا الْجَلَالِ بِعَيْنِهِ فِي (الْجَانِبِ الْمُتَالِمِ مِنْ شَعْرِهِ)، أَيْ الرِّثَاءِ وَالشُّكْوَى وَوَصَفِ
الْفَجِيعَةِ؛ وَلَوْ ذَهَبَتْ تَسْتَعْرِضُ الْمَرَاتِي فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ، وَمَثَلَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رِثَاءِ
حَافِظٍ لِلْعُظَمَاءِ الَّذِينَ خَالَطَهُمْ، كَالْأَسَاطِذِ الْإِمَامِ، وَالْبَارُودِيِّ، وَمُصْطَفَى كَامِلٍ،
وَشُرُوتٍ، لَرَأَعَكَ^(٣) أَنْتَ وَاجِدٌ لِلشُّعْرَاءِ مَا هُوَ أَسْمَى مِنْ مَعَانِيهِ وَأَقْوَى مِنْ خِيَالِهِ،
وَلَكِنَّكَ لَا تَجِدُ الْبَتَّةَ مَا هُوَ أَفْخَرُ وَأَدْقُ مِمَّا جَاءَ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ، كَأَنَّهُ مُنْفِرِدٌ فِي
الْعَرَبِيَّةِ بِهَذِهِ الْخَاصَّةِ.

(٢) لراعك : لأدهشك .

(۱) تبصرہ: تشریح.

وهذا المعريُّ يقول:

وَلَوْ لَا قَوْلُكَ الْخَلَاقُ رَبِّي لَكَانَ لَنَا بِطُلْعَتِكَ أَفْتَتَانُ

ويقولُ في شعرٍ آخر:

أَسْهَبَ فِي وَصْفِهِ عِلَاكَ لَنَا حَتَّى خَشِينَا أَنْفُسَ تَعْبُدْهَا

وهذان البيتانِ تَراهما صعلوكينِ إذا قَسَتَهُمَا بقولِ حافظٍ في رثاءِ الشيخِ محمد

عبدِه:

فَلَا تَنْصِبُوا لِلنَّاسِ تِمْنَالٌ (عبدِه) وَإِنْ كَانَ ذِكْرِي حِكْمَةً وَثَبَاتٌ

فإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ يَضِلُّوا فَيُؤْمِنُوا إِلَى نَوْرِ هَذَا الْوَجْهِ بِالسُّجْدَاتِ

مَعَ أَنَّ معنَى حافظٍ مأخوذٌ منهما، ولكنْ أَنْظِرْ كَيْفَ جَاءَ بِهِ؟ ويقولُ المعريُّ في رثاءِ أبيه

وَلَوْ حَقَرُوا فِي دُرَّةٍ مَا رَضِيَتْهَا لِجَسْمِكَ إِبْقَاءَ عَلَيْكَ مِنَ الدَّفْنِ

ويقولُ في رثاءِ غيره:

وَاحْبُوهَا أَلَا كِفَانٌ مِنْ وَرَقِ الْمَصَدِّ حَفِ كِبَرًا عَنْ أَنْفُسِ الْأَبْرَارِ

وهذانِ أيضاً كَالصَّعَالِكِ عِنْدَ قَوْلِ حافظٍ في الْبَارُودِي:

لَوْ أَنْصَفُوا أَوْ دَعَوْهُ جَوْفَ لَوْلُؤَةٍ مِنْ كَنْزِ حِكْمَتِهِ لَا جَوْفَ اخْدُودِ

وَكُفُّوهُ بِدَرْجٍ مِنْ صَحِيفَتِهِ أَوْ وَاضِحٍ مِنْ قَمِيصِ الصُّبْحِ مَقْدُودِ

مع أن (حافظ) أَلَمْ يَقُولِ المعريُّ. وَمِنْ بَدِيعِ مَا اتَّفَقَ لَهُ فِي قَصِيدَةِ (الْأَمْتَانِ) تَتَصَافِحَانِ قَوْلُهُ يَصِفُ السُّورِيَّ:

رَادَا^(١) الْمَنَاهِلَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ وَجَدُوا إِلَى الْمَجْرَةِ رَكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا

أَوْ قِيلَ فِي الشَّمْسِ لِلرَّاجِيْنَ مُتَجَعِّعٍ مَدُّوا لَهَا سَبَبًا فِي الْجَوِّ وَأَنْتَدَبُوا

فَاقْرَأْ هَذِينَ وَاقْرَأْ بَعْدَهُمَا قَوْلَ الْمُتَنَبِّي فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ:

وَصُورٌ إِلَى الْمُسْتَضْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ فَلَوْ كَانَ قَرْنُ الشَّمْسِ مَاءً لَأُورِدَا

فإنَّكَ تَجِدُ بَيْتَ الْمُتَنَبِّي صَعْلُوكًا عَلَى بَيْتِي حَافِظٌ، مَعَ أَنَّهُ الْمُبْتَدِعُ السَّابِقُ.

وَأَعْجَبُ مَا عَجِبْتُ لَهُ هَذَا الْبَيْتُ مِنْ شَعْرِ صَاحِبِنَا فِي مَقْطُوعَةٍ يُخَاطَبُ

(١) رَادَا: سَلَكَوا.

بها الأمريكان، نشرها في المقطم من ثلاث سنوات أو نحوها، قال:

وَتَخَذْتُمْ مَوْجَ الْأَثِيرِ بَرِيداً حين جَلُثْتُمْ أَنَّ الْبَرُوقَ كَسَالِي

وَاتَّفَقَ يَوْمئِذٍ أَنْ كُنْتُ جَالِساً فِي زِيَارَةِ الصَّدِيقِ الْأَسَاتِذِ فَوَادٍ صُرُوفِ مُحَرَّرِ
الْمَقْتَطَفِ، فِجَاءَ حَافِظٍ، فَلَمْ يَكْذِبْ صَافِحُنِي حَتَّى قَالَ: كَيْفَ تَرَى هَذَا الْبَيْتَ:
وَتَخَذْتُمْ مَوْجَ الْأَثِيرِ بَرِيداً... إلخ؟ فَأَنْثَيْتُ عَلَيْهِ الَّذِي يَهْوَى، وَهَنَأْتُهُ بِهَذَا الْمَعْنَى،
وَأَظْهَرْتُ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْإِعْجَابِ، وَلَكِنِّي أَضْمَرْتُ عَجَبِي مِنْ حُسْنِ مَا اتَّفَقَ لَهُ فَإِنَّ
الْجَمَالَ الشَّعْرِيَّ فِي الْبَيْتِ إِنَّمَا هُوَ فِي اسْتِعَارَةِ الْكَسَلِ لِلْبَرُوقِ، وَهَذَا بَعِينُهُ مِنْ قَوْلِ
أَبْنِ نَبَاتَةَ السَّعْدِيِّ فِي سِفِّ الدَّوْلَةِ.

وما تمهل يوماً في ندى وردى^(١) إلا قضيت للمح البرق بالكسل

غَيْرَ أَنَّ (حَافِظَ) نَقَلَ الْمَعْنَى إِلَى حَقِّهِ، وَمَكَّنَ لَهُ أَحْسَنَ تَمْكِينٍ فِي صَدْرِ
كَلَامِهِ، وَأَنْتَمَّ جَمَالُهُ فِي قَوْلِهِ (حين جَلُثْتُمْ)، فَأَقْطَعْتَ الْمَعْنَى وَأَنْفَرَدَ بِهِ، وَعَادَ مَعْنَى
السَّعْدِيِّ كَالصَّلُوكِ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ؛ وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُقَابَلَةُ فِي الْمَقْتَطَفِ آخِرَ عَهْدِي
بِحَافِظٍ، فَلَمْ أَرَهُ مِنْ بَعْدِهَا؛ رَحِمَهُ اللَّهُ!

وما مر بك إنما كان من صناعة الشاعر في غير الجزء الأول من ديوانه بعد أن
استفحل وتخرج في مدرسة الإمام، أمّا في الجزء الأول فله هو صعاليك... كقوله
في الخمر:

خمرٌ قِيلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوهَا من خدود الملاح في يوم عرس
فهذا أبيت صعلوك عند قول ابن الجهم:

مُسْغَسَعَةٌ مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كَأَنَّمَا تناولها من خدّه فأدازها

وقول حافظ (عصروها من خدود الملاح) كلام من لم ينضج في البيان ولا
الذوق، لا يكاد يتوهم معه إلا أن في خدود الملاح (خراجات) عُصرت...
وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خدّه)، فهي كلمة أكثر نعومة من
ذلك الخد وأجمل نضرة:

وقول حافظ في مدح الخديو:

يا من تنافس في أوصافه كلمي تنافس العرب الأماجد في التسب

(١) ردی: موت.

فهو صعلوك على بيت أبي تمام:

تَغَايَرَ الشَّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهَرْتُ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيَهُ سَتَقْتَتِلُ

ولا نُطِيلُ الْأَسْتِقْصَاءَ، فَإِنَّمَا تُرِيدُ التَّمْثِيلَ حَسْبُ.

وكانَ الشاعِرُ أَوَّلَ نَشَأَتِهِ يَأْخُذُ فِي طَرِيقَةِ المَعَرِيِّ الَّذِي عَمِيَ عَنِ الطَّبِيعَةِ فَجَعَلَ يَخْلُقُهَا مِنْ فِكْرِهِ وَمَحْفُوظِهِ بِمُبالِغَاتٍ كاذِبَةٍ يُغْرِقُ فِيهَا يَحْسِبُ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَعْظُمُ الْحَقَائِقَ فَتَخْرُجُ لَهُ الْأَخْيَلَةُ الْكَبِيرَةُ، وَمَا يَدْرِي أَنَّهُ بِهَذَا الْغُلُوِّ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالْأَبَاطِيلِ الْكَبِيرَةِ. . . وَلَكِنْ حَافِظٌ فِي مَزَاجِهِ وَتَرْكِيبِهِ وَنَشَأَتِهِ كَانَ رَجُلًا مَبْنِيًّا عَلَى الْوُضُوحِ وَالْقَصْدِ. فَلَمْ يُفْلِحْ فِي طَرِيقَةِ المَعَرِيِّ؛ وَوُضُوْحُهُ كَذَلِكَ بَاعِدُهُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ وَابْهَامِهَا، وَمِنْ الطَّبِيعَةِ وَالْغَايِهَا، وَمِنْ الْغَزَلِ وَوَسَاوِسِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي أَدَاهُ إِلَى الشَّغْفِ بِالْحَقِيقَةِ وَأَسْتَخْلَاصِهَا فِي كُلِّ أَغْرَاضِهِ الَّتِي أَجَادَ فِيهَا؛ وَمِنْ ثَمَّ خَلَا شَعْرُهُ أَوْ كَأَنَّهُ خَلَا مِنْ أَوْصَافِ الطَّبِيعَةِ فِي جَمَالِهَا بِلُغَةِ الْفِكْرَةِ الْمَتَامِلِ، وَمِنْ أَوْصَافِ الْجَمَالِ فِي سِحْرِهِ بِلُغَةِ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ.

وَأَنْتَ فَلَا تَحْسِبَنَّ الشاعِرَ يُجِيدُ فِي الْغَزَلِ وَالنَّسِيبِ مِنْ أَنَّهُ شاعِرٌ يَحْسُنُ الصَّنْعَةَ وَيُجِيدُ الْأَسْلُوبَ، فَيَكُونُ غَرَضٌ مِنَ الشَّعْرِ سَبِيلًا إِلَى غَرَضٍ، وَفَنٌّ عَوْنًا عَلَى فَنٍّ، وَتَكُونُ رَقَّةُ الْأَلْفَاظِ وَهَلْهَلَةٌ^(١) النَّسَجِ، وَقَلْبِي، وَكَبِدِي، وَبَا لَيْلَةً وَبَا قَمْرًا، وَبَا غَزَالًا. . . وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ - غَزَالًا وَنَسِيًّا؛ كَلَّا ثُمَّ كَلَّا، وَالثَّالِثَةُ كَلَّا أَيْضًا.

إِنَّ الْغَزَلَ وَأَوْصَافَ الْجَمَالِ مُوهِبَةٌ فِي الشاعِرِ أَوْ الْكَاتِبِ تُسَخَّرُ لَهَا قُوَى هِيَ أَشْبَهُ فِي مُعْجَزَاتِهَا بِمَا تُسَخَّرُ لِإِسْلِمَانٍ مِنْ قُوَى الْجَنِّ وَالرَّيْحِ، غَيْرَ أَنَّهَا قُوَى أَلَامٍ وَلِذَلِكَ وَوَسَاوِسَ؛ تِلْكَ عَظَمَةٌ فِي بَعْضِ النُّفُوسِ الشاعِرَةِ كَعَظَمَةِ الْمُلُوكِ وَالْأَبْطَالِ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَكْمَلُ إِلَّا خَائِبَةً أَوْ مَغْلُوبَةً، فَإِذَا أَنْتَصَرَتْ سَقَطَتْ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَارِيخٍ وَحَوَادِثٍ وَمِزَاجٍ عَصَبِيٍّ يُهَيِّئُ لَهَا بِرُوحَانِيَّةٍ شَدِيدَةٍ الْحِسَّ شَدِيدَةَ الْقُوَّةِ ثَائِرَةً أَبَدًا لَا تَهْدَأُ إِلَّا عَلَى تَوَلِيدٍ مَعْنَى بَدِيعٍ فِي جَمَالٍ مَن تَحِبُّهُ أَوْ كَجَمَالِهِ؛ ثُمَّ إِذَا هَدَأَتْ بِذَلِكَ أَثَارَهَا أَتَتْهَا هَدَأَاتُ، فَتَعُودُ إِلَى التَّوَلِيدِ، فَلَا تَزَالُ تَبْتَدِعُ وَتَصِفُ كَأَنَّهَا أَلَةٌ تَعْبِيرٍ تَدُورُ بِقَلْبٍ وَعَصَبٍ؛ هُنَاكَ قُوتَانِ: إِحْدَاهُمَا تُؤْتِي الْحُبَّ كَمَا يَصْلُحُ غَرَامًا وَعِشْقًا، وَالْأُخْرَى فَوْقَ هَذِهِ تُؤْتِي الْحُبَّ كَمَا يَصْلُحُ فِكْرًا وَتَعْبِيرًا؛ وَالْأَوَّلَى تَجْعَلُ صَاحِبَهَا

(١) هليلة: ركاكة.

عاشقاً يُحِبُّ ويُدْرِكُ ليس غير، والثانية تجعله مُجَبّاً عمله أن ينقلَ من لغة ما في نفسه إلى ما حوله، ومن لغة ما حوله إلى ما في نفسه؛ فهو مترجمُ النفسِ إلى الطبيعة، ومترجمُ الطبيعة إلى النفس؛ والذي أعرفُه أن (حافظ) لم يُرزقَ لا هذه ولا تلك، فلا طبيعة فيه لِلْغزلِ وفلسفة الجمال؛ ثُمَّ إِنَّ التاريخَ حصره في (الشاعرِ الاجتماعيِّ) الذي اختارَ أن يمتازَ به، فهو في أكثرِ شعره كانَ ليسَ فيه شخص، بل فيه شعبٌ مأسورٌ غفلَ عن الجمالِ وعن الطبيعة وعن النشوةِ بهما؛ إذ يعيشُ في مُعاناةٍ الحرية لا في التأملِ الجميل، وفي أسبابِ القوة لا في أسبابِ الرقة، ويُريدُ أن يعملَ لِيُوجِدَ حقيقته قبلَ أن يعملَ لِيُدعِ خياله.

ومع ذلك فقد جاء في ديوانِ حافظ غزلٌ قليلٌ كانَ كلُّه متابعةً وتقليداً في فنِّ يحسُنُ التقليدُ إلا فيه خاصّة؛ عملٌ صدرأً لِقصيدَةٍ مدَحَ بها الخديو مطلعها:

كَمْ تَخَتِ أَذْيَالِ الظُّلَامِ مُنَيَّمٌ دامي الفؤادِ وليلة لا يعلم.
وقلّدَ ابنُ أبي ربيعةَ في حكايةِ حُبٍ لَفَقَها تلفيقاً ظاهراً، ثُمَّ زعمَ أن الحبيبةَ قالتَ لَهُ في آخرِها:

فأذهَبَ بِسِحْرِكَ قد عرفتُكَ وأقتصدُ فيما تُزِينُ لِلْجِسَانِ وتوهمُ
وكلمة صاحبةِ ابنِ أبي ربيعة:

أهَذَا سِحْرُكَ أَلَسُوا نَ قَدْ عَرَفْتَنِي الْخَبِرَا

أهَذَا سِحْرُكَ أَلَسُوا؟ .. هذه كلمة لا تخرجُ إلا من فم حبيبتهِ آية في الظرف، وفيها تجاهلُها وعِزْفانُها وأبتسامُها وإشراقُ وجنتيها، وأكاذُ - والله - أرى فيها تلكَ الجميلةَ وهي تدقُ بيدها على صدرِها دَقَّةً ألاسفهامِ المندلِ المتظاهِرِ بالدهشةِ لِيَتَنَهَّدَ فيه الكلامُ والتمكُّلُ معاً، أمّا قولُ حبيبةِ حافظِ الخشبيّة، أو الحجرية ... أذهب. قد عرفتُكَ وأقتصد. فهذا خليفٌ أن يكونَ من فم قاضٍ وهو ينصحُ المتهمَ بعدَ الأمرِ بالإفراجِ عنه. أو مأمورٍ قسمٍ عندَ ضبطِ الحادثة!

أكبرُ ظني أن روحَ حافظٍ نفسه هي التي أوحتَ إليَّ الآنَ هذه (النكتة)، فإنّه - رحمه الله - كانَ آيةً في آلباب، وله مِنَ النوادرِ محفوظة ومختَرعة ما لا يُلْحَقُ فيه؛ ولو كانَ كاتباً على قدرِ ما كانَ شاعراً، وزاولَ النقدَ وأستظهرَ لِلكتابةِ فيه بتلكَ المَلَكَةِ المُبدِعةِ في التندرِ والتهكّم، مع ما أُوتِيَ مِنَ القوّةِ في اللغةِ والبيان - لكانتِ

النعمة قد تمت به على الأدب العربي، ولقلنا في شعره وكتابته وأدبه ما قال هو في الأستاذ الإمام، فأطلعت نوراً من ثلاث جهات.

وما دُمنّا قد ذكرنا النقدَ فمنَ الكوفاءِ للتاريخِ الأدبيّ أن نذكرَ مذهبَ شاعرنا فيه: فلم يكن عنده منه إلا ذوقُ الكلام، وإدراكُ الثِّقَرَةِ والثَّبَوَةِ في الحرف، والغِلْطُ والجَسَاةُ^(١) في اللفظ، والضعفُ والتهافتُ في التركيب، ثم ما يجيشُ في الخاطرِ أو يتلجّجُ في الفكرِ من ذوقِ المعنى وإدراكِ كُنْهِهِ والنفاذِ إلى آثارِ النفسِ الحيّةِ فيه؛ فكانَ النقدُ هو الجِسْ بِالكلامِ كما تلمسُ الحارَّ والباردَ وما بينهما؛ ووصفَ لي مرةً إسماعيل صبري باشا وأرادَ أن يُبالغَ في دِقَّةِ تمييزهِ وحُسنِ بصرهِ بالشعرِ وإدراكِهِ دقائقَ المعاني، فقال: «ذَوّاقُ يا مصطفى» ولم يزد.

ومذهبُ الجِسْ بِالكلامِ هذا وإنْ صلَحَ أن يكونَ من بعضِ معاني النقدِ، فلا يتهيأُ أن يكونَ هو النقدُ بِمعناهِ أفلِسَفيٍّ أو الأدبيِّ، وهو في جملةِ أمرِهِ كقولِكَ حسنٌ حسن؛ ورديءٌ رديء، أمّا كيف كانَ حسنًا أو رديئًا، وبِمَاذا ولِمَاذا، فذلك ما لا سبيلَ إليه من مذهبِ (ذَوّاق). . . . ولا وسيلةَ لَهُ إلا العِلْمُ المستفيضُ، والأطلاعُ الكواسعُ، والجِسْ المُزَهَّفُ، والقُدْرَةُ المتمكّنة، مُضافةٌ كُلُّهَا إلى الأدبِ البارعِ وفلسفَتِهِ الدّقيقة؛ ولا نعرفُ لحافظِ كتابَةِ في النقدِ البتّة، وقد كانَ حاولَ شيئاً من هذا في مقدّمةِ كتابِهِ (ليالي سطّيح)، فتناولَ بعضَ خصومِهِ بِكلماتٍ رأى هو أنْ يحوِّها بعدَ أن طُبِعَتِ الكُراسَةُ الأولى، فأسقطَها وأعادَ كتابَةَ المقدّمةِ وطبعَها مرّةً ثانية، وكانتْ عندي النسخَةُ التي محاها، وهذا ما لا أظنُّ أحداً يعرفُهُ الآن؛ رَحِمَ اللَّهُ شاعراً كانَ أصفى مِنَ الغمامِ، وكانَ شعرُهُ كأنَّهُ البرقُ والرعد. . .

(١) الجَسَاةُ: القسوة والغظ.

كلمات عن حافظ

ذهبت بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكنة الأشياء ولم أجد مكان قلبي؛ أيها القلب المسكين، أين أذهب بك؟

هذا ما أجبت به (حافظ) حين سألتني مرة: مالك لا ترضى ولا تهدأ ولا تستقر؟ وكان يُخيل إلي أنه هو راضٍ مستقر هادئ، كأنما قضى من الحياة مهمته^(١) ولم يبق في نفسه ما تقول نفسه ليت ذلك لي!. وكنت أعجب لهذا الخلق فيه ولا أدري ما تعليله إلا أن يكون قد خلق مطبوعاً بطابع اليثم فلم يعرف منذ أدرك إلا أنه ابن القدر: تأتيه الأفراح والأحزان من يد واحدة مُقبلة كما تنال الصبي الطاف أبيه ولطماث أبيه...

وقد قلت له مرة: كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام! فضحك وقال: أو كأنني أحلم بغير نوم...

ولقد عزفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لحق بربه في سنة ١٩٣٢، فما كنت أراه على كل أحواله إلا كاليتم: محكوماً بروح القبر، وفي القبر أوله؛ ولما أزمع السفر إلى اليونان قلت له: ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانياً. فقال: أو تراني لم أمث بعد في مصر؟. إن الذي بقي هين!

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قوي الملكة في فن الضحك، كأن القدر عوضه به ليؤجده في الناس عطف الآباء ومحبة الإخوة. ولم يخل مع فقره من ذريعة قوية إلى الكجاء، ووسيلة مؤكدة إلى ما هو خير من الغنى؛ فكانت أسبابه إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ثم جشمت باشا، ثم سعد باشا زغلول؛ وهذا نظام عجيب في زمن (حافظ) يقابل الاختلال العجيب في نفس حافظ؛ فالرجل كالفنينة المتكفئة: تميل بها موجة وتغلبها موجة، وهي بهذه وبهذه تمر وتسير.

(١) نهمة: جوعه.

وأولئك الرؤساء العظماء الذين جعلهم القدر نظاماً في زمنٍ حافظ، كانوا من أفقر الناس إلى الفكاكة والندارة، فكان لهم كالثروة في هذا الباب، ووقع إصلاحاً في عيشتهم وكانوا إصلاحاً في عيشه؛ ولو أن الأقدار تشبه بالمدارس المختلفة، لقُلنا إنَّ (حافظ) تخرج منها في مدرسة التجارة العليا... فهو كان أبرع من يتاجر بالندارة.

وهذه النوادر كأنها هي أيضاً صنعت (حافظ) في شكلٍ نادرة؛ فكان فقيراً، ومع هذا كان للمال عنده متمم، هو إنفاقه وإخراجُه من يده؛ وكان يتيماً، ولكنه دائماً متودد؛ وكان حزيناً، ولكنه أنيس الطلعة؛ وكان بائساً، ولكنه سليم الصدر، وكان في ضيق، ولكنه واسع الخلق؛ وتماهى الندارة^(١) فيه أنه كان طوال عمره متبسّطاً مهترأ كأن له زمناً وحده غير زمن الناس، فتتراكم عليه الهموم وهو مُستَنِيم إلى الراحة، ويعتريه من الجوع مثل مكسلة السبع ويسترسل إلى البطالة وكأنه مُشْمَرٌ للجد، ويستمكن الحزن منه في ساعة فيتهدّد حزنه بالساعة التالية..

رائته في أحد أيام بُؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشه، وكان يعدّ قروشاً في يده، فقلت: ما هذه القروش؟

قال: كنتُ أفايرُ الساعة فأضعتُ ثلاثين قرشاً ولم يبق لي غير هذه القروش الملعونة، فهلتم نتعش. ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية، فزعمت له أنني تعشيت... فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش؛ وكنتُ أطلع في وجهه وهو يأكل، فما أتذكره الآن إلا كما طالعتُه بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ حين دعاني (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أنامله ذهباً وفضة، وكان - رحمه الله - قد أصدر الجزء الثاني من (البؤساء) ورأني في القاهرة فأمسك بي حتى قرأت معه الكتاب كله فيما بين الظهر والمغرب؛ وربّنا في الأصل عربة وخرجنا ننتزه، أي خرجنا نقرأ...

وكان على وجه (حافظ) لونٌ من الرضى لا يتغيّر في بؤس ولا نعيم، كبياض الأبيض وسواد الأسود؛ وهذا من عجائب الرجل الذي كان في ذات نفسه فناً من ألفوضى الإنسانية، حتى لكأنه حلم شعري بدأ من أبويه ثم انقطع وترك لتتمه الطبيعة! ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فنٌ من ألفوضى الإنسانية رآه جميلاً

(١) الندارة: النكتة.

جمال الأشياء الطبيعية لا جمال الناس؛ ففيه من الصحراء والجبال والصخور والغياض والبرق والرعد وأشباهها؛ وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله، ويبدو لي جزلاً مطهماً، وأرى في شكله هندسة كهندسة الكون؛ تَتَمُّمُ محاسنها بمقايحها وكم قلت له: إنك يا حافظ أجمل من الفقير.

أما هو فكان يرى نفسه دميماً شنيع المرأة متفاوت الخلق كأنه إنسان مغلوط في تركيبه...

وقد سألتُه مرة: هل أحب؟

فقال: النساء اثنتان: فإما جميلة تنفر من قبحي، وإما دميمة أنفر من قبحها! ولهذا لم يفلح في الغزل والنسب، ولم يحسن من هذا الباب شيئاً يُسمى شيئاً؛ وبقي شاعراً غير تام، فإن المرأة للشاعر كحواء لآدم: هي وحدها التي تُعطيه بحبها عالماً جديداً لم يكن فيه، وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلاً

وتهذم حافظ في أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك، فلم يرني حتى بادرنى بقوله: ماذا ترى في هذا البيت في وصف الأميركيان:

وَتَخَذْتُمْ مَوْجَ الْأَثِيرِ بَرِيداً حينَ جِلْتُمُ أَنَّ الْبُرُوقَ كُسَالِي
فنظرتُ إلى وجهه المعروفِ أمتغضنِ وقلتُ له: لو كان فيك موضعُ قبلةٍ
لقبَلْتُكَ لهذا البيت! فضحك وأدار لي خدّه؛ ولكن بقي خدّه بلا تقبيل.

وشهرة هذا الأديب العظيم بنوادره ومحفوظاته من هذا الفن أمرٌ مُجمع عليه؛ وكان يتقصص النوادر وألفكاهات ومطارحات السمر من مظانها^(١) في الكتب ورجال الأدب وأهل المجون، فإذا قصّها على من يجالسُه زاد في أسلوبها أسلوبه هو، وجعل يُقلِّبها ويتصرف فيها ويبين عنها أحسن الإنابة بمنطقه ووجهه ونبرات في لسانه ونبرات في يده.

وهو أصمعي هذا الباب خاصة، يروي منه رواية عريضة، فإذا أستهلَّ سَحَّ^(٢) بالنوادر سخاً كأنها قوافي قصيدة تدعو الواحدة منها أختها التي بعدها.

(٢) سَحَّ: انهمر وسال.

(١) مظانها: أماكنها.

وقد أذكرتني (ألقوافي) مجلساً حَضَرْتُهُ قديماً في سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠، وكان (مصباحُ الشرق) قد نشرَ قصيدةَ رائيةَ لآلِينِ الرومي، فتعجَّبَ المرحومُ الشيخُ محمدُ المهديُّ من بسطةِ آبنِ الروميِّ في قوافيه، فقالَ لَهُ (حافظ): هلمَّ نتساجلُ في هذا الوزنِ حتى ينقطعَ أحدُنا؛ وكانتِ القافيةُ من وزن: قَدَرَهَا، أَحْمَرَهَا، أخضَرَهَا... إلخ، وجعلتُ أنا أحصي عليهما؛ فلما ضاقَ الكلامُ كانَ الشيخُ المهديُّ يُفكرُ طويلاً ثُمَّ يَنطِقُ بِاللَفْظِ، ولا يكادُ يفعلُ حتى يرميه حافِظٌ على ألبديهِ، فيعودُ الرجلُ إلى الإِطراقِ والتفكيرِ؛ ثُمَّ انقطعَ أخيراً وبقيَ حافظٌ يسرُّدُ لَهُ من حِفْظِهِ الغريبَ.

أما في النوادرِ فَالْعَجِيبَةُ الَّتِي اتَّفَقَتْ لَهُ في هذا البابِ أَنَّهُ جاءَ إلى طنطا في سنة ١٩١٢ ومديرُها يومئذٍ المرحومُ «محمدُ محبِ باشا»، وكانَ داهيةً ذكياً وظريفاً لَبِيقاً، وكُنْتُ أَخالِطُهُ وَأَتَصَلُّ بِهِ، فدعا (حافظ) إلى العشاءِ في دارِهِ؛ فلما مُدَّتْ الأيدي قالَ ألباشا: لي عليك شرطٌ يا حافظ. قال: وما هو؟ قال: كُلْ لُقْمَةً بِنادرة! فتَهَلَّلَ حافظٌ وقال: نعم، لك علي ذلك، ثُمَّ أَخَذَ يَقْصُ وَيَأْكُلُ، وَالْعِشَاءُ حافِلٌ، وحافظٌ كانَ نَهْماً، فما انقطعَ ولا أَخَلَ حتى وُفِيَ بِالْشرطِ؛ وهذا لا يَمْنَعُ أَنَّ ألباشا كانَ يتغافلُ ويتغاضى ويتشاغلُ بِالضَّحْكِ، فيسرَّعُ حافظٌ وَيُغَالِطُ بِنِمْهِ...

ولكنَّ هذه المَضْحَكَاتِ أَضْحَكْتُ من (حافظ) مرةً كما أَضْحَكْتُ بِهِ؛ فلما كانَ يُترجمُ (مكبث) لِشَكْسبير - وهي كَأَعْمَالِهِ الناقصةُ دائماً - دَعَوُهُ لِإِلْقَاءِ (محاضرة) في ناديِ المِدارِسِ العُليا، وَالنادي يومئذٍ يَجْمَعُ خَيْرَ الشَّبَابِ حَمِيَةً وَعِلْماً وكانَ صاحِبُ السَّرْفِ فِيهِ (السكرتير) زينةَ شَبَابِ الْوِطَنِيَّةِ المَرحومِ أمينِ بكِ الأرفاعي؛ فقامَ حافظٌ فَأَنشَدَهُمْ بعضَ ما تَرَجَمَهُ نَفْلاً عن شكسبير، ومثَّلَهُ تَمثِلاً أَفْرَغَ فِيهِ جُهْدَهُ، فأطربَ وأعجب: ثُمَّ سألوه (المحاضرة) فأخَذَ يُلقي عليهم من نوادرِهِ، وبدأ كلامَهُ بِهذه الأندادة: عُرِضَتْ على المَعْتَصِمِ جاريةٌ يَشْتريها، فسألها: أنتِ بَكْرٌ أم ثِيَبٌ؟ فقالت: كَثُرَتْ الْفُتُوحُ على عَهْدِ المَعْتَصِمِ...

ونظرَ حافظٌ إلى وجوهِ القومِ فَأَنكَرَها. وبقيتِ هذه الوجوهُ إلى آخرِ المَحاضِرَةِ كأنَّها تقولُ له: إِنَّكَ لم تُفْلِحْ!

ولقد كانَ هذا من أقوىِ الأسبابِ في تَنَبُّهِ (حافظ) إلى ما يَجِبُ لِلشَّبَابِ عَلَيْهِ إِنْ

أراد أن يكون شاعره، فأقبل على القصائد السياسية التي كتبهم بها من بعد؛ ونادرة المعتمصم كالعورة المكشوفة؛ ولست أدري أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا؛ فقد عرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها: أنت بكر أم إيش؟ فقالت: أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين...

وفن (الشعر الاجتماعي) الذي عرف به حافظ، لم يكن فنه من قبل، ولا كان هو قد تنبأ له أو تخراه في طريقته؛ فلما جاءت إلى مصر الإمبراطورة (أو...بني) نظم قصيدته التوثية التي يقول فيها:

فأعذرينا على القصور، كلانا غيرته طواريء الحداث^(١)

ولقيته بعدها فسألني رأيي في هذه القصيدة، وكان بها مدلاً معجباً، شأنه في كل شعره؛ فانتقدت منها أشياء في الفاظها ومعانيها، وأشرت إلى الطريقة التي كان يحسن أن تحاطب بها الإمبراطورة؛ فكأنني أغضبه؛ فقال: إن الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين - أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر، وقالوا لي: إذا نظمت فأنظم مثل هذا «الشعر الاجتماعي»، ثم كانه تنبأ إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها، إن كل قصائد شوقي الآن غزل ومدح، ولا أثر فيها لهذا الشعر، على أنه هو الشعر.

وتابعت قصائده الاجتماعية، فلقيني بعدها مرة أخرى فقال لي: إن الشاعر الذي لا ينظم في الاجتماعيات ليس عندي بشاعر. وأردت أن أغيطه فقلت له: وما هي الاجتماعيات إلا جعل مقالات الصحف قصائد؟...

فألاستأذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين: أحد هؤلاء أو جميعهم أصل هذا المذهب الذي ذهب إليه حافظ، وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التي تعرض في مجلس الشيخ محمد عبده، من حديثه أو حديث غيره، فيبني عليها أو يدخلها في شعره، وهو أحياناً رديء الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفياً؛ إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطلة، وإنما هي في الشاعر من ملكة الحب، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بإبهايتها وثرثرتها...

(١) الحداث: المصائب.

وكنْتُ أولَ عهدي بالشعرِ تَظَنُّتُ قصيدةً مدخْتُ فيها أَلَسْتَادَ أَلِإِمَامَ وَأَنفَذْتُهَا
إليه، ثُمَّ قَابَلْتُ حَافِظَ بَعْدَهَا فَقَالَ لي: إِنَّهُ هُوَ تَلاها على أَلِإِمَامَ، وَإِنَّهُ أَسْتَحَسَّنَهَا؛
قُلْتُ: فَمَازَا كَانَتْ كَلِمَتُهُ فِيهَا؟ قَالَ: إِنَّهُ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهَا...

فَأَضْطَرَبَ شَيْطَانِي مِنَ الْغَضَبِ، وَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ أَلَشَيْخَ لَيْسَ بِشَاعِرٍ، فَلَيْسَ
لِرَأْيِي فِي أَلشعرِ كَبِيرُ مَعْنَى! قَالَ: وَيَحْك! إِنَّ هَذَا مَبْلُغُ أَلِاسْتِحْسَانِ عِنْدَهُ.

قُلْتُ: وَمَازَا يَقُولُ لَكَ أَنْتَ حِينَ تُنْشِدُهُ؟ قَالَ: أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ قَلِيلًا...
فَارْضَانِي - وَأَلله - أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ حَافِظٍ (قَلِيلٍ)، وَطَمَعْتُ مِنْ يَوْمَئِذٍ.

وَأَنَا أَرَى أَنَّ (حَافِظَ إِبْرَاهِيمَ) إِنَّ هُوَ إِلَّا دِيوَانُ (أَلشَيْخِ مُحَمَّدَ عِبْدِهِ): لَوْلَا أَنَّ
هَذَا هَذَا، لَمَا كَانَ ذَلِكَ ذَلِكَ.

وَمِنْ أَثَرِ أَلشَيْخِ فِي حَافِظٍ أَنَّهُ كَانَ دَائِمًا فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَسْمَعُهُ، فَكَانَ إِذَا
عَمَلَ آيَاتًا رَكَّبَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بَاشَا صَبْرِي فِي أَلْقَصْرِ أَلْعِينِي، وَطَافَ عَلَى أَلْقَهْوَاتِ
وَأَلْأَنْدِيَّةِ يُسْمِعُ أَلنَّاسَ بِأَلْقُوَّةِ... إِذْ كَانَتْ أَذُنُ أَلِإِمَامِ هِيَ أَلَّتِي رَزَبَتِ أَلْمَلَكَةَ فِيهِ؛ وَقد
يَبْنِي هَذَا فِي مَقَالِنَا فِي (أَلْمَقْتَطَفِ).

وَكَانَ تَمَامُ أَلشعرِ أَلْحَافِظِي أَنْ يُنْشِدَهُ حَافِظٌ نَفْسَهُ؛ وَمَا سَمِعْتُ فِي أَلْإِنْشَادِ
أَعْرَبَ عَرَبِيَّةً مِنَ أَلْبَارُودِي، وَلَا أَعَذَبَ عَذُوبَةً مِنَ أَلْكَاضِمِي، وَلَا أَفْخَمَ فَخَامَةً مِنْ
حَافِظٍ - رَحِمَهُمُ أَللهُ جَمِيعًا -.

وَكَانَ أَدِينًا يُجِلُّ أَلْبَارُودِيَّ إِجْلَالًا عَظِيمًا، وَلَمَّا قَالَ فِي مَدْحِهِ:

فَمَزَّ كُلَّ مَعْنَى فَارِسِيٍّ بِطَاعَتِي وَكُلَّ نَفُورٍ مِنْهُ أَنْ يَتَوَدَّدَا

قُلْتُ لَهُ: مَا مَعْنَى هَذَا؟ وَكَيْفَ يَأْمُرُ أَلْبَارُودِيَّ كُلَّ مَعْنَى فَارِسِيٍّ وَمَا هُوَ بِفَارِسِيٍّ؟

قَالَ: إِنَّهُ يَعْرِفُ أَلْفَارَسِيَّةَ، وَقد نَظَّمَ فِيهَا، وَعِنْدَهُ مَجْمُوعَةٌ جَمَعَ فِيهَا كُلَّ
أَلْمَعَانِي أَلْفَارَسِيَّةِ أَلْبَدِيعَةِ أَلَّتِي وَقَفَ عَلَيْهَا؛ قُلْتُ: فَكَانَ أَلْوَجْهَ أَنْ تَقُولَ لَهُ: أَعْرَظِي
أَلْمَجْمُوعَةَ أَلَّتِي عِنْدَكَ..

أَمَّا أَلْكَاضِمِيُّ فَكَانَ يُجَافِيهِ وَيُبَاعِدُهُ، حَتَّى قَالَ لِي مَرَّةً وَقد ذَكَرْتُهُ بِهِ: «عَقَفْتَاهُ
يَا مُصْطَفَى!».

وَمَا أُنْسَى لَا أُنْسَى فَرَحَ حَافِظٍ حِينَ أَعْلَمْتُهُ أَنَّ أَلْكَاضِمِيَّ يَحْفَظُ قَصِيدَةً مِنْ
قَصَائِدِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي سَنَةِ ١٩٠١ - عَلَى مَا أَذْكَرُ - أَعْلَنُوا عَنْ جَوَائِزِ يَمْنَحُونَهَا

مَنْ يُجِيدُ فِي مَدْحِ الْخَدِيوِ، وَجَعَلُوا الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْبَارودِي وَصَبْرِي
وَالْكَاطِمِي، ثُمَّ تَخَلَّى الْبَارودِي وَصَبْرِي، وَحَكَمَ الْكَاطِمِي وَحْدَهُ، فَنَالَ حَافِظُ
الْمَدَالِيَةِ الْأَذهَبِيَّةِ، وَنَالَ مِثْلَهَا أَلْسِدُ تَوْفِيقُ الْبَكْرِي.

وَلَمَّا زُرْتُ الْكَاطِمِيَّ وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ مُبْتَدِئاً فِي الشَّعْرِ وَلَا أزالُ فِي الْعَرْزَمَةِ^(١)
قَالَ: لِمَاذَا لَمْ تَدْخُلْ فِي هَذِهِ الْمُبَارَاةِ؟ قُلْتُ: وَأَيْنَ أَنَا مِنْ شَوْقِي وَحَافِظِ وَفَلَانِ
وَفَلَانِ فَقَالَ: «لِيَهْ تَخْلِي هِمَّتَكَ ضَعِيفَةً؟» ثُمَّ أَسْمَعَنِي قَصِيدَةَ حَافِظٍ وَكَانَ مُعْجَباً
بِهَا، فَتَقَلْتُ ذَلِكَ إِلَى حَافِظٍ، فَكَادَ يَطِيرُ عَنْ كُرْسِيِّهِ فِي الْقَهْوَةِ.

وَكَانَ تَعَنُّتُ حَافِظٍ عَلَى الْكَاطِمِيَّ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُضَرِّيٍّ، فَفِي سَنَةِ ١٩٠٣ كَانَتْ
تَصْدُرُ فِي الْقَاهِرَةِ مَجْلَةٌ أَسَمَهَا (الشُّرْبَا)، فَظَهَرَ فِي أَحَدِ أَعْدَادِهَا مَقَالٌ عَنِ الشُّعْرَاءِ
بِهَذَا التَّوْقِيعِ، وَأَنْفَجَرَ هَذَا الْمَقَالُ أَنْفِجَارَ الْبَرْكَانِ، وَقَامَ بِهِ الشُّعْرَاءُ وَقَعْدُوا، وَكَانَ لَهُ
فِي الْغَارَةِ عَلَيْهِمْ كَرْزِيفٌ^(٢) الْجَيْشِ وَقَفَقَعَةُ السِّلَاحِ، وَتَنَاولَتْهُ الصُّحُفُ الْيَوْمِيَّةُ،
وَأَسْتَمَرَّتْ رَجْفَتُهُ الْأَدْبِيَّةُ نَحْوَ الشَّهْرِ؛ وَأَنْتَهَى إِلَى الْخَدِيوِ؛ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ
فِي مَجْلِسِهِ، وَاجْتَمَعَ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَارِ أَسَاتِذَةِ الْعَصْرِ السُّورِيِّينَ، كَالْعَلَامَةِ سُلَيْمَانَ
الْبُسْتَانِي، وَادِيبِ عَصْرِهِ الشَّيخِ إِبْرَاهِيمَ الْيَازْجِي، وَالْمُؤَرِّخِ الْكَبِيرِ جُورْجِي زِيدَانَ -
إِذْ كَانَ صَاحِبَ الْمَجْلَةِ سُورِيًّا - وَجَعَلُوا يَنْفُذُونَ إِلَى صَاحِبِ الْمَجْلَةِ دَسِيساً بَعْدَ
دَسِيسٍ^(٣) لِيَعْلَمُوا مِنْ هُوَ كَاتِبُ الْمَقَالِ.

وَشَاعَ يَوْمَئِذٍ أَنِّي أَنَا الْكَاتِبُ لَهُ؛ وَكَانَ الْكَاطِمِيَّ عَلَى رَأْسِ الشُّعْرَاءِ فِيهِ؛
فَغَضِبَ حَافِظٌ لِذَلِكَ غَضَباً شَدِيداً، وَمَا كَادَ يَرَانِي فِي الْقَاهِرَةِ حَتَّى أَبْتَدِرَنِي بِقَوْلِهِ:
وَرَبَّ الْكَعْبَةِ أَنْتَ كَاتِبُ الْمَقَالِ، وَذِمَّةُ الْإِسْلَامِ أَنْتَ صَاحِبُهُ!

ثُمَّ دَخَلْنَا إِلَى «قَهْوَةِ الشَّيْشَةِ»، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: إِنَّ الَّذِي يُغِيظُنِي أَنْ يَأْتِيَ
كَاتِبُ الْمَقَالِ بِشَاعِرٍ مِنْ غَيْرِ مُضَرٍّ فَيَضَعُهُ عَلَى رُؤُسِنَا نَحْنُ الْمَصْرِيِّينَ! فَقُلْتُ:
وَلَعَلَّ هَذَا قَدْ غَاظَكَ بِقَدْرِ مَا سَرُّكَ أَلَّا يَكُونَ الَّذِي عَلَى رَأْسِكَ هُوَ شَوْقِي.

وَغَضِبَ أَلْسِدُ تَوْفِيقُ الْبَكْرِيَّ غَضَباً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، فَاسْتَعَانَ بِالْمَرْحُومِ أَلْسِدِ
مُصْطَفَى الْمَنْفِلُوطِيِّ اسْتِعَانَةً ذَهَبِيَّةً. . . وَشَمَّرَ الْمَنْفِلُوطِيُّ فَكَتَبَ مَقَالاً فِي (مَجْلَةِ

(١) الغرزمة: المحاولات الأولى في إنشاد الشعر.

(٢) زفيف الجيش: صوته أثناء تقدمه.

(٣) دسيس: جاسوس.

سرکيس) يُعارضُ بِهِ مقالَ (الشريا)، وجعلَ فِيهِ البكريُّ على رأسِ الشعراء... ومَدَحَهُ مَدْحاً يَرِنُ رَيْنَا.

أَمَّا أَنَا فتناولني بِمَا اسْتَطَاعَ مِنَ الذَّمِّ، وجَرَدَنِي مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي جَمِيعاً، وَعَدَنِي فِي الشُّعْرَاءِ لِيَقُولَ إِنِّي لَسْتُ بِشَاعِرٍ... فَكَانَ هَذَا رَدُّ نَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ.

وتعلَّقَ مقالُ المنفلوطي على المقالِ الأولِ فأشْتَهَرَ بِهِ لَا بِالْمَنْفَلُوطِيِّ؛ وَغَضِبَ حَافِظٌ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَكَتَبَ إِلَيَّ كِتَاباً يَذْكُرُ فِيهِ تَعَسُّفَ هَذَا الْكَاتِبِ وَتَحَامُلَهُ، وَيَقُولُ: قَدْ وَكَّلْتُ إِلَيْكَ أَمْرَ تَأْذِيهِ...

فَكَتَبْتُ مَقَالاً فِي جَرِيدَةِ (المنبر)، وَكَانَ يُصَدِّرُهَا الْأَسْتَاذَانِ مُحَمَّدٌ مَسْعُودٌ وَحَافِظٌ عَوْضٌ، وَوَضَعْتُ كَلِمَةً الْمَنْفَلُوطِيَّ الَّتِي ذَمَّنِي بِهَا فِي صَدْرِ مَقَالِي أَفَاجِرُ بِهَا... وَقُلْتُ: إِنِّي كَذَلِكَ الْفَيْلَسُوفُ الَّذِي أَرَادُوهُ أَنْ يَشْفَعَ إِلَيَّ مَلِكُهُ، فَأَكَبَّ عَلَى قَدَمِ الْمَلِكِ حَتَّى شَفَعَهُ؛ فَلَمَّا عَابُوهُ بِأَنَّهُ أَذَالَ حُرْمَةَ الْفَلَسَفَةِ بِأَنْحَانِهِ عَلَى قَدَمِ الْمَلِكِ وَسَجُودِهِ لَهُ، قَالَ: وَيَحْكُمُ! فَكَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا كَانَ الْمَلِكُ قَدْ جَعَلَ أُذُنِيهِ فِي رِجْلِيهِ...

وَلَمْ يَكُنْ مَضَى لِي فِي مَعَالِجَةِ الشُّعْرِ غَيْرُ سَنَتَيْنِ حِينَ ظَهَرَ مَقَالُ (الشريا)، وَمَعَ ذَلِكَ أَصْبَحَ كُلُّ شَاعِرٍ يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيِي فِيهِ؛ فَمُرَرْتُ ذَاتَ يَوْمٍ (بِحَافِظٍ) وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ لَا أَعْرِفُهُمْ، فَلَمَّا أَطْمَأَنَّ بِي الْمَجْلِسُ قَالَ حَافِظٌ: مَا رَأَيْكَ فِي شُعْرِ أَلْيَازَجِي؟ فَاجَبْتُهُ، قَالَ: فَالْبَسْتَانِي؟ فَجَنِّبِ الْحَدَادَ؟ فَفَلَانَ؟ فَفَلَانَ؟ فَدَاوُدَ عَمُونَ؟ قُلْتُ: هَذَا لَمْ أَقْرَأْ لَهُ إِلَّا قَلِيلاً لَا يَسُوعُ مَعَهُ الْحُكْمُ عَلَى شُعْرِهِ. قَالَ: فَمَاذَا قَرَأْتَ لَهُ؟ قُلْتُ: رَدَّهُ عَلَى قَصِيدَتِكَ إِلَيْهِ:

شَجَنَّا مَطَالِغُ أَقْمَارِهَا

قَالَ: فَمَا رَأَيْكَ فِي قَصِيدَتِهِ هَذِهِ؟ قُلْتُ: هِيَ مِنَ الشُّعْرِ الْوَسْطِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ وَلَا يَنْزِلُ.

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: أَنْصَفْتُ - وَاللَّهِ! - فَقَالَ حَافِظٌ: أَقَدَّمَ لَكَ دَاوُدَ بَكَ عَمُونَ!... رَحِمَ اللَّهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ!

شوقي

هذا هو الرجل الذي يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ مِضَرَ أَخْتَارَتَهُ دُونَ أَهْلِهَا جَمِيعاً لَتَضَعَ فِيهِ رُوحَهَا الْمُتَكَلِّمَ، فَأَوْجِبَتْ لَهُ مَا لَمْ تُوجِبْ لِغَيْرِهِ، وَأَعَانَتْهُ بِمَا لَمْ يَتَّفِقْ لِسِوَاهُ، وَهَبَتْهُ مِنْ أَلْفُذَرَةٍ وَالْتِمَكِينَ وَأَسْبَابِ الرِّيَاسَةِ وَخَصَائِصِهَا عَلَى قَدَرِ أُمَّةٍ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَةً، لَا عَلَى قَدَرِ رَجُلٍ فِي نَفْسِهِ؛ وَبِهِ وَحْدَهُ اسْتَطَاعَتْ مِضَرُ أَنْ تَقُولَ لِلتَّارِيخِ: شعري وأدبي!

شوقي: هذا هو الاسم الذي كَانَ فِي الْأَدَبِ كَالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ: مَتَى طَلَعَتْ فِي مَوْضِعٍ فَقَدْ طَلَعَتْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، وَمَتَى ذُكِرَ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ اتَّسَعَ مَعْنَى اسْمِهِ فَدَلَّ عَلَى مِضَرَ كُلِّهَا كَأَنَّمَا قِيلَ الْنِيلُ أَوْ الْهَرَمُ أَوْ الْقَاهِرَةُ؛ مترادفات لا في وَضْعِ الَّلُغَةِ وَلَكِنْ فِي جَلَالِ الَّلُغَةِ.

رجلٌ عاشَ حَتَّى تَمَّ، وَذَلِكَ بَرَهَانُ التَّارِيخِ عَلَى أَصْطِفَائِهِ لِمِصْرَ، وَدَلِيلُ الْعَبْقَرِيَّةِ عَلَى أَنَّ فِيهِ أَلْسَرَ الْمُتَحَرِّكَ الَّذِي لَا يَقِفُ وَلَا يَكِلُ وَلَا يَقْطَعُ نِظَامَ عَمَلِهِ، كَأَنَّ فِيهِ حَاسَّةَ نَحْلَةٍ فِي حَبِيقَةٍ، وَيَكْبُرُ شَعْرُهُ كُلَّمَا كَبُرَ الزَّمَنُ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ دَهْرِهِ، وَلَمْ يَقْعِ دُونَ أَبْعَدِ غَايَاتِهِ، وَكَأَنَّهُ مَعَ الْأَدْهَرِ عَلَى سِيَاقٍ وَاحِدٍ، وَكَأَنَّ شَعْرَهُ تَارِيخٌ مِنَ الْكَلَامِ يَتَطَوَّرُ أَطْوَارُهُ فِي الْنَمُوِّ فَلَمْ يَجْمُدْ وَلَمْ يَرْتَكِسْ^(١)، وَبَقِيَ خَيَالُ صَاحِبِهِ إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ فِي تَدْبِيرِ السَّمَاءِ كَقَرَّاضِ الْعِمَامَةِ، سَحَابُهُ كَثِيرُ الْبَرْقِ مُتَمَلِّئٌ مُنْطَرِظٌ يَنْصَبُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَيَمْتَلِئُ مِنْ نَاحِيَةٍ.

وَالنَّاسُ يُكْتُبُ عَلَيْهِمُ الشَّبَابَ وَالْكَهُولَةَ وَالْهَرَمَ، وَلَكِنَّ الْأَدِيبَ الْحَقَّ يُكْتُبُ عَلَيْهِ شَبَابَ وَكَهُولَةَ وَشَبَابَ؛ إِذْ كَانَتْ فِي قَلْبِهِ أَلْغَايَاتُ الْحَيَّةِ الشَّاعِرَةِ، مَا تَتَفَكَّرُ يَلِدُ بَعْضُهَا بَعْضاً إِلَى مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حَيَاةِ الشَّاعِرِ الَّتِي خُلِقَتْ فِي قَلْبِهِ، وَلَكِنَّهَا مِنْ حَيَاةِ الْمَعَانِي فِي هَذَا الْقَلْبِ.

(١) يرتكس: يتراجع.

أقرّر هذا في شوقي - رحمه الله - ، وأنا من أعرف الناس بِمُيوِّبه وأماكن الغميمة في أدبه وشعره؛ ولكنّ هذا الرجل أنفَلَت من تاريخ الأدب لِمْصَرٍ وحدّها كاتِفلاتِ المطرّة من سحابها المتسايِر في الجوّ، فأصبحتُ مُصْرٍ بِهِ سَيِّدَة الْعَالَم العربيّ في الشعر، وهيّ لم تُذكر قديماً في الأدب إلّا بالنكتة والرّقّة وصناعات بديعيّة مُلقّقة، ولم يَسْتَفِضْ لها ذُكْرٌ بِنايعة ولا عبقرٍ، وكانت كالْمستجديّة من تاريخ الحواضر في الْعَالَم، حتّى إن أبا محمّد الملقّب بولي الدولة صاحب ديوان الإنشاء في مُصْرٍ للظاهر بن المستنصر (وقد توفي سنة ٣٤١هـ)، وكان رِزْقُهُ ثلاثة آلاف دينارٍ في السنة غير رسوم يستوفيها على كلّ ما يكتبّه - سلّم لرسول التّجارِ إلى مُصْرٍ من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها، فيستشيرهم في تخليد هذا الأدب المُصْرِيّ بدارِ الْعِلْمِ إن استجادوه وأرتضّوه، كانّ حِفْظَ ديوانٍ من شعر مُصْرٍ ونشرها في مكتبة بغداد قديماً يُشبه في حوادثِ دهرنا استقلال مُصْرٍ وقبولها في عصبة الأمم.

وهذا أحمد بن عليّ الأسواني إمام من أئمة الأدب في مُصْرٍ (توفي سنة ٥٦٢)، وكان كاتباً شاعراً يجمع إلى علوم الأدب الفقه والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك - أراد أن يُدوّن شعرَ المُصْرِيِّين، فجمع من شعرهم (وشعر من طراً عليهم) أربع مجلدات، كانّ الشعرَ المُصْرِيّ وحده إلى آخِر القرنِ السادس للهجرة، في العهد الذي لم يكن ضاع فيه شيءٌ من الكتب والدواوين لا يملأ أربع مجلدات. . على اختلافهم في مقدارِ المجلّدة، فقد تكون جزءاً لطيف الحجم؛ والأسوئي نفسه يبلغ ديوانه نحو مئة ورقة.

وأخوه الحسن المعروف بالمهذب (الأسواني المتوفى سنة ٥٦١) قال العماد الكاتب إنّه لم يكن بِمْصْرٍ في زمنه أشعرُ منه، وسارت له في الناس قصيدة سمّوها النواحية، وصف فيها حنينه إلى أخيه وقد رحل إلى مكة وطالت غيبته بها وخيف عليه؛ فألّرجل أشعرُ أهلِ مُصْرٍ في زمنه، وحادثه النواحية تجعله في هذا المعنى أشعرُ من نفسه، على أنّه مع هذا لم يقلّ إلّا من هذا:

يا ربّع أن تَرى الأَجَبَة يَمُمُّوا هل أنجدوا من بعلدنا أم أتَهَمُّوا
رَحَلُوا وفي القَلْبِ المعنى^(١) بعدهم وَجَدَ^(٢) على مَرِّ الزمانِ مُخَيِّمٌ

(٢) وجد: حب.

(١) المعنى: المقيّد

وتعوّضَتْ بِالْأَنْسِ نَفْسِي وَخِشَّةً لَا أَوْحَشُ أَلَلُهُ الْمَنَازِلَ مِنْهُمْ .

ولولا أَيْنُ الْفَارَضِ وَالْبِهَاءِ زَهِيرٌ وَأَبْنُ قَلَاقِسِ الْإِسْكَندَرِيِّ وَأَمْثَالُهُمْ، وَكُلُّهُمْ أَصْحَابُ دَوَاوِينٍ صَغِيرَةٍ، وَلَيْسَ فِي شِعْرِهِمْ إِلَّا طَائِعُ النَّيْلِ، أَيْ أَلْفَرَقَةُ وَالْحَلَاوَةُ - لولا هَؤُلَاءِ فِي الْمَتَقَدِّمِينَ لِأَجْدَبِ تَارِيخِ الشَّعْرِ فِي مِصْرَ؛ وَلولا أَلْبَارُودِيُّ وَصَبْرِي وَحَافِظُ فِي الْمَتَأَخِّرِينَ؛ وَكُلُّهُمْ كَذَلِكَ أَصْحَابُ دَوَاوِينٍ صَغِيرَةٍ، لَمَّا ذُكِرَتْ مِصْرُ بِشِعْرِهَا فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ؛ عَلَى أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ وَكُلُّ أَوْلَئِكَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَضَعُوا تَاجَ الشَّعْرِ عَلَى مِفْرَقِ مِصْرَ، وَوَضَعَهُ شَوْقِي وَحْدَهُ!

وَالْعَجَبُ أَنَّ دَوَاوِينَ الْمُجِيدِينَ مِنْ شِعْرَاءِ الْمَصْرِيِّينَ لَا تَكُونُ إِلَّا صَغِيرَةً، كَأَنَّ طَبِيعَةَ النَّيْلِ تَأْخُذُ فِي الْمَعَانِي كَأَخْذِهَا فِي الْمَادَّةِ، فَلَا فِیْضَ وَلَا خِصْبَ إِلَّا فِي وَقْتٍ بَعْدَ أَوْقَاتٍ، وَفِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ كُلِّ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا؛ وَمِنْ جَمَالِ الْفَرَاشَةِ أَنْ تَكُونَ صَغِيرَةً، وَحَسْبُهَا عِنْدَ نَفْسِهَا أَنْ أَجْنَحَتْهَا مِنْقَطَةً بِالذَّهَبِ، وَأَنَّهَا هِيَ نَكْتَةٌ مِنْ بَدِيعِ الطَّبِيعَةِ!

عَلَى أَنَّكَ وَاجِدٌ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ عَجِيبَةً مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا لَا تُذَكِّرُ مَعَهَا إِلَّا لِبَادَةً وَلَا الْإِنْبَادَةَ وَلَا الشَّاهِنَامَةَ وَلَا غَيْرُهَا، وَلَكِنَّهَا عَجِيبَةٌ مَلَأَتْهَا رُوحُ الصَّحْرَاءِ إِنْ كَانَتْ تِلْكَ الدَّوَاوِينُ الصَّغِيرَةُ مِنْ رُوحِ النَّيْلِ؛ وَهِيَ قَصِيدَةُ نَظْمِهَا أَبُو رَجَاءٍ الْأَسْوَانِيُّ الْمَتُوفَى سَنَةَ ٣٣٥هـ، وَكَانَ شَاعِرًا فَقِيهًا أَدِيبًا عَالِمًا كَمَا قَالُوا، وَزَعَمُوا أَنَّهُ أَقْتَصَّ فِي نَظْمِهِ أَخْبَارَ الْعَالَمِ وَقَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، قَالُوا وَسَتَلَّ قَبْلَ مَوْتِهِ كَمْ بَلَغَتْ قَصِيدَتُكَ؟ فَقَالَ: ثَلَاثِينَ وَمِائَةً أَلْفَ بَيْتٍ. وَمَا أَشْكُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَقَعَ لَهُ تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ وَكُتِبَ الْسِيرُ وَقَصَصُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فَنَظَّمَهَا مُتُونًا مُتُونًا... وَأَفْنَى عَمْرُهُ فِي ١٣٠ أَلْفِ بَيْتٍ حَوْلَهَا التَّارِيخُ إِلَى خَبَرِ مُهْمَلٍ فِي ثَلَاثَةِ أَسْطُرَا

كُلُّ شَاعِرٍ مِصْرِيٍّ هُوَ عِنْدِي جِزْءٌ مِنْ جِزْءٍ، وَلَكِنَّ شَوْقِي جِزْءٌ مِنْ كُلِّ؛ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجِزْءَيْنِ أَنَّ الْأَخِيرَ فِي قُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَتَمَكُّنِهِ وَاتِّسَاعِ شِعْرِهِ جِزْءٌ عَظِيمٌ كَأَنَّهُ بِنَفْسِهِ الْكُلُّ؛ وَلَمْ يَتْرِكْ شَاعِرٌ فِي مِصْرَ قَدِيمًا وَحْدِيًا مَا تَرَكَ شَوْقِي، وَقَدْ أَجْتَمَعَ لَهُ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِسِوَاهُ؛ وَذَلِكَ مِنَ الْأَدَلَّةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمُخْتَارُ لِبِلَادِهِ، فَسَاوَى الْأَمْتَنَازِينَ مِنْ شِعْرَاءِ دَهْرِهِ وَارْتَفَعَ عَلَيْهِمْ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ هِيَ رِزْقُ تَارِيخِهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمَدْبُورَةِ الَّتِي لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا لَا تُعْطِي، أَوْ يَزِيدَ مَا تُنْقُصُ، أَوْ يُنْقِصُ

ما تَزِيدُ؛ وقد حاولوا إسقاط شوقي مراراً فأراهم غِبَارَهُ ومضى متقدماً، ورجع مَنْ رَجَعَ منهم ليُغْسَلَ عينيه . . . ويرى بهما أَنَّ شوقي مِنْ أَلْفَسِ الْمِصْرِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْمَجْدِ الْمَكْتُوبِ لَهَا فِي أَلْتَارِيخِ بِحَرْبٍ وَنَصْرٍ، وما هو بِمَنْزِلَةِ شَاعِرٍ وَشِعْرِهِ .

وُلِدَ شَاعِرُنَا سنة ١٨٦٨ في نعمة الخديو إسماعيل باشا، ونشَرَهُ الخديو الذهب وهو رضيعٌ في قصة ذَكَرَهَا شوقي في مقدمة ديوانِهِ الْقَدِيمِ، ثُمَّ كَفَّلَهُ الخديو توفيق باشا وَعَلَّمَهُ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ مِنْ سَعَةٍ، وَأَنْزَلَ نَفْسَهُ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَبْ غَنَى كَمَا يَقُولُ شوقي في مقدمته، ثُمَّ تَوَلَّاهُ الخديو عباس باشا وجعلهُ شاعِرَهُ وَتَرْكَهُ يقول:

شاعرُ العزیز وما بِالْقَلِيلِ ذَا الْقَلْبِ

وَإِذَا أَنْتَ فَسُرْتَ لِقَبِّ شَاعِرِ الْأَمِيرِ هَذَا بِالْأَمِيرِ نَفْسِهِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ، خَرَجَ لَكَ مِنْ أَلْتَفْسِيرِ: شَاعِرٌ مُزَهَّفٌ مُعَانٌ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ، لِيَكُونَ أَدَاةً سِيَاسِيَّةً فِي الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ، تَعْمَلُ لِإِحْيَاءِ أَلْتَارِيخِ فِي أَلْفَسِ الْمِصْرِيَّةِ، وَتَبْصِيرِهَا بِعَظَمَتِهَا، وَإِفْحَامِهَا فِي مَعَارِكِ زَمَنِهَا، وَتَهْيِئَتِهَا لِلْمَدَافِعَةِ، وَتَصُلُّ الشَّعْرَ بِالسِّيَاسَةِ الْأَدْبِيَّةِ الَّتِي تَوَجَّهَتْ لَهَا الْخِلَافَةُ يَوْمَئِذٍ لِتَضْرِبَ فِكْرَةَ أُرُوبَا فِي تَقْسِيمِ الدَّوْلَةِ بِفِكْرَةِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ وَلَا يَخْرُجُ لَكَ شوقي مِنْ هَذَا أَلْتَفْسِيرِ عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ فِي قَدْرِ نَفْسِهِ، بَلْ فِي قَدْرِ أَمِيرِهِ ذَلِكَ؛ وَكَانَ مُمْتَلِئًا شَبَابًا بَغْلِي غَلِيَانًا، وَمُعَدًّا يَوْمَئِذٍ لِمَطَامَعٍ بَعِيدَةٍ مَلْفُفَةٍ حُشُوهَا أَلْدِنَامِيَّةُ السِّيَاسَةِ . . .

كُنْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ أَكَلِمُ صَدِيقِي الْكَاتِبَ الْعَمِيقَ فَرَحَ أَنْطُونِ صَاحِبَ (الجامعة) وَكَانَ مُعْجَبًا بِشوقي إِعْجَابًا شَدِيدًا، فَقَالَ لِي: إِنَّ شوقي الْآنَ فِي أَفْقِ الْمُلُوكِ لَا فِي أَفْقِ الشُّعْرَاءِ! قُلْتُ: كَأَنَّكَ نَفَيْتَهُ مِنَ الْمُلُوكِ وَالشُّعْرَاءِ مَعًا؛ إِذْ لَوْ خَرَجَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا، وَلَوْ نَفَذَ إِلَى أَوَّلِنَا لَمْ يُعَدَّ شَيْئًا، إِنَّمَا الرَّجُلُ فِي السِّيَاسَةِ الْمَلْتَوِيَّةِ الَّتِي تَصُلُّهُ بِالْأَمِيرِ، هُوَ مَرَّةً كُوزِيرُ الْحَرِيَّةِ، وَمَرَّةً كُوزِيرُ الْمَعَارِفِ.

وهذه السِّيَاسَةُ الَّتِي أَرْتَاضَ بِهَا شوقي وَلَا تَسْهَى مِنْ أَوَّلِ عَهْدِهِ، وَأَتَجَّهَ شِعْرُهُ فِي مَذَاهِبِهَا، مِنَ الْوَطَنِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ، إِلَى أَلْتَرْعَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، إِلَى الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَكَانَتْ بِهَذَا سَبَبٌ تَبَوَّغِهِ وَمَادَّةٌ مَجْدِهِ الشَّعْرِيِّ - هِيَ بِعَيْنِهَا مَادَّةُ نِقَائِصِهِ؛ فَلَقَدْ أَبْتَلَنُهُ بِحُبِّ نَفْسِهِ وَحُبِّ الثَّنَاءِ عَلَيْهَا، وَتَسْخِيرِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ بِمَا وَسِعَتْهُ قُوَّتُهُ، إِلَى غَيْرَةِ أَشَدِّ مِنْ غَيْرَةِ الْحَنَاءِ تَقْشِيرُ كُلِّ شَعْرَةٍ مِنْهَا إِذَا جَاءَهَا الْحُسْنُ بَثَانِيَّةً، وَهِيَ غَيْرَةُ وَإِنْ كَانَتْ مَذْمُومَةً فِي صَلَهِهِ بِالْأَدْبَاءِ الَّذِينَ لَدَّعُوهُ بِالْجَمْرِ . . . وَنَحْنُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهَا

ممدوحة في موضعها من طبيعته هو؛ إذ جعلته كالجواري العتيق الكريم يُنافس حتى ظله، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه، ونافس ذاته أيضاً ليجعل شوقي أشعر من شوقي؛ وعندي أن كل ما في هذا الرجل من التناقضات فمرجعه إلى آثار تلك السياسة الملتوية التي رذت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة، فجعلت تضطرب في وجوه من الحيل والأسباب مذبرة مقلبة، مُتهَدية في كل مجاهلها بآيرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها في الطبيعة إلا أنف الثعلب المتجّه دائماً إلى رائحة الدجاج.

ومورخ الأدب الذي يريد أن يكتب عن شوقي لا يصنع شيئاً إن هو لم يذكر أن هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديو توفيق والخديو عباس لِمِصر، كالذئب بين فرعي النيل؛ وما أصابه المتنبي من سيف الدولة مما أبتعث قريحته وراش أجنحته السماوية وأضفى ريشها وأثرى بها على الغايات البعيدة في تاريخ الأدب - أصاب - شوقي من سمو الخديو عباس أكثر منه، فكان حقيقاً أن يساوي المتنبي أو يتقدمه، ولكنه لم يبلغ منزلته، لأن الخديو لم يكن كسيف الدولة في معرفته بالأدب العربي ورغبته فيه؛ وسر المتنبي كان في ثلاثة أشياء: في جهازه العصبي العجيب الذي لا يقل في رأيي عما في دماغ شكسبير، وفي ممدوحه الأدب المملوك الذي ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائي من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية، ثم في أفعى عصره المتألت بنجوم الأدب التي لا يمكن أن يظهر بينها إلا ما هو في قدرها، ولا يتميز فيها إلا ما هو أكبر منها، ولا يتركها كالمُنطفئة إلا شمس كشمس المتنبي تنفجر على الدنيا بمعجزاتها النورانية.

ولقد وألله كان هذا المتنبي كأنه يُورعُ الشرف على الملوك والرؤساء؛ وهل أدل على ذلك من أن أبا إسحاق الأصبلي شيخ الكتاب في عصره يرأسه أن يمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم، فيرسل إليه المتنبي: ما رأيت بالعراق من يستحق الممدح غيرك، ولكني إن مدحتك تنكر لك الوزير (يعني المهلب) لأنني لم أمدحه، فإن كنت لا تبالي هذا الحال فانا أجيبك ولا أريد منك مالاً ولا من شعري عوضاً! فإين في دهرنا من تشميره عزة الأدب مثل هذا الشعور ليأتي بالشعر من نفس مستيقنة أن الدنيا في انتظار كلمتها؟

على أن شوقي لم يكن ينقصه باعتبار زمنه إلا (الجمهور الشعري)، وكل بلاء الشعر العربي أنه لا يجد هذا الجمهور، فالشاعر بذلك مُنصرف إلى معانٍ فردية من

ممدوح عظيم أو حبيب عظيم أو سقوط عظيم . . . حتى الطبيعة تظهر في الشعر العربي كأنها قطع مبتورة من الكون داخل في الحدود لابس الثياب؛ ومن ذلك ينبع الشاعر وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه لا قدر جمهوره، وإلا ملء حاجاته لا ملء الطبيعة؛ فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول، ويسقط شعره على صور فردية ضيقة الحدود، فلا تجد في طبعه قوة الإحاطة والتبسط والشمول والتدقيق، ولا ثوابه طبيعته أن يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها، فإذا هو على المخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يؤغل^(١) فيه، وإذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها نظره، وإذا نفسه تمر على الكون مرّاً سريعاً، وإذا شعره مقطّع قطعاً، وإذا آلامه وأفراحه أوصاف لا شعور، وكلمات لا حقائق، وظل طامس ملقى على الأرض إذا قابلته بتفاصيل الجسم الحي السائر على الأرض.

وأجتمع لشوقي في ميراث دمه ومجاري أعراقه عنصر عربي، وآخر تركي، وثالث يوناني، ورابع شركسي؛ وهذه كثرة إنسانية لا يأتي منها شاعر إلا كان خليفاً أن يكون دولة من دول الشعر، وإلى هذا شاعرنا باختلافه العصبي في عينيه، كأذ هذا دليل طبيعي على أن وراءهما عينين للمعاني تراحمان عيني البصر؛ وما لم يكن التركيب العصبي في الشاعر مهيأً للنمو، فأعلم أنه وقع من تقاسيم الدنيا في غير الشعر، وليس في الطبيعة ولا في الصناعة قوة تجعل خنجرة البلبل في غير البلبل؛ ومع كل ما تقدم فقد أعين شوقي على الشعر بفراغه له أربعاً وأربعين سنة، غير مشترك العمل، ولا متقسم المخاطر، على سعة في الرزق وبسطة في الكفاي وعلو في المنزلة، وبين يديه دواوين الشعر العربي والأوربي والتركي والفارسي؛ وإن تنس فلا تنس أن شاعرنا هذا خصر بنشاط الحياة، وهو روح الشعر لا روح للشعر بدونه، فسافر ورحل وتقلب في الأرض، وخالط الشعوب وأستعرض الطبيعة يتخللها بصره ما بين الأندلس والأستانة، وظهيره على ذلك ماله وفراغه؛ وإنما قوة الشعر في مساقط الجز، ففي كل جو جديد روح للشاعر جديدة؛ والطبيعة كالناس: هي في مكان بيضاء وفي مكان سوداء، وهي في موضع نائمة تحلم وفي موضع قائمة تعمل، وفي بلد هي كالأنثى الجميلة، وفي بلد هي كالرجل

(١) يؤغل. يدخل إلى أقصى ما يمكن.

المُصارع ؛ ولن يجتمع لك روحُ الجِهازِ العَصبيِّ على أقواه وأشدّه إلا إذا أطعمته مع صنوفِ الأَطعمةِ اللذيذةِ المفيدة، ألوانِ الهوائِ اللذيذِ المفيد.

وعندي أنّه لا أملَ أن ينشأ لِمِصْرَ شاعرٌ عظيمٌ في طبقةِ الفحولِ من شعراءِ العالم، إلا إذا أُعيدَ تاريخُ شوقي مُهدَّباً مُتَّفَحاً في رجلٍ وهبهُ اللهُ مواهبه، ثُمَّ تهبهُ الحكومةُ المصريَّةُ مواهبها.



وَالْكِتَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي رَاضَ خَيَالُ شَوْقِي وَصَقَلَ طَبَعُهُ وَصَحَّحَ نَشَأَتُهُ الْأَدَبِيَّةَ، هُوَ بَعِينُهُ الَّذِي كَانَتْ مِنْهُ بَصِيرُهُ حَافِظٌ وَذِكْرَانُهُ فِي مَقَالِنَا عَنْهُ، أَيِ كِتَابِ «الْوَسِيلَةِ الْأَدَبِيَّةِ» لِلْمَرْصُفِيِّ ؛ وَلَيْسَ الْكُتُبُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا فِيهِ مِنْ فَنُونِ الْبَلَاغَةِ وَمَخْتَارَاتِ الشُّعْرِ وَالْكِتَابَةِ، فَهَذَا كُلُّهُ كَانَ فِي مِصْرَ قَدِيمًا وَلَمْ يُغْنِ شَيْئًا وَلَمْ يُخْرِجْ لَهَا شَاعِرًا كَشَوْقِي، وَلَكِنْ الْكُتُبُ مَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شُعْرِ الْبَارُودِيِّ لِأَنَّهُ مُعَاصِرٌ، وَالْمُعَاصِرَةُ اقْتِدَاءٌ وَمُتَابَعَةٌ عَلَى صَوَابٍ إِنْ كَانَ الصَّوَابُ، وَعَلَى خَطَأٍ إِنْ كَانَ الْخَطَأُ؛ وَقَدْ تَصَرَّهَتْ^(١) الْقُرُونُ الْكَثِيرَةُ وَالشُّعْرَاءُ يَتَنَاقَلُونَ دِيْوَانَ الْمُتَنَبِّي وَغَيْرِهِ، ثُمَّ لَا يَجِثُونَ إِلَّا بِشُعْرِ الصَّنَاعَةِ وَالتَّكَلُّفِ، وَلَا يُخَلِّدُ الْجَيْلُ مِنْهُمْ إِلَّا لَمَّا رَأَى فِي عَصْرِهِ، وَلَا يَسْتَفْتَحُ غَيْرَ الْبَابِ الَّذِي فَتَحَ لَهُ، إِلَى أَنْ كَانَ الْبَارُودِيُّ، وَكَانَ جَاهِلًا بِفَنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَعُلُومِ الْبَلَاغَةِ، لَا يُحِسُّ مِنْهَا شَيْئًا، وَجَهْلُهُ هَذَا هُوَ كُلُّ الْعِلْمِ الَّذِي حَوَّلَ الشُّعْرَ مِنْ بَعْدِ؛ فَيَا لَهَا عَجِيبَةٌ مِنَ الْحِكْمَةِ! وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ النَّاسِ لَيْسَتْ إِلَّا خُضُوعًا لِقَوَائِنَ نَافِذَةٍ عَلَى النَّاسِ. وَأَكْبَ الْبَارُودِيُّ عَلَى مَا أَطَاقَهُ، وَهُوَ الْجَفْظُ مِنْ شُعْرِ الْفُحُولِ؛ إِذْ لَا يَحْتَاجُ الْجَفْظُ إِلَى غَيْرِ الْقِرَاءَةِ، ثُمَّ الْمَعَانَةِ وَالْمَزَاوِلَةَ؛ وَكَانَتْ فِيهِ سَلِيْقَةٌ، فَخَرَجَتْ مَخْرَجَ مِثْلِهَا فِي شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْجَفْظِ وَالرَّوَايَةِ، وَجَاءَتْ بِذَلِكَ الشُّعْرَ الْجَزَلَ الَّذِي نَقَلَهُ الْمَرْصُفِيُّ بِالْهَامِ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - لِيُخْرِجَ بِهِ لِلْعَرَبِيَّةِ حَافِظٌ وَشَوْقِي وَغَيْرَهُمَا، فَكُلُّ مَا فِي الْكِتَابِ أَنَّهُ يَنْقُلُ رُوحَ الْمُعَاصِرَةِ إِلَى رُوحِ الْأَدِيبِ الْكَتَائِبِيِّ، فَتَبِعْتُهُ هَذِهِ الرُّوحُ عَلَى التَّمْيِيزِ وَصِحَّةِ الْاِقْتِدَاءِ، فَإِذَا هُوَ عَلَى مِيزَةٍ وَبَصِيرَةٍ، وَإِذَا هُوَ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي تَنْتَهِي بِهِ إِلَى مَا فِي قُوَّةِ نَفْسِهِ مَا دَامَ فِيهِ ذِكَاؤٌ وَطَبِيعٌ؛ وَبِهَذَا أَبْتَدَأَ شَوْقِي وَحَافِظٌ مِنْ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَانْتَهَى كِلَاهُمَا إِلَى طَرِيقَةٍ غَيْرِ طَرِيقَةِ الْآخَرِ، وَالطَّرِيقَتَانِ مَعًا غَيْرُ طَرِيقَةِ الْبَارُودِيِّ.

(١) تَصَرَّهَتْ: انْقَضَتْ.

تحوّل شوقي بهذا الشعر لا إلى طريقة البارودي، فإنه لا يطبقها ولا تنهياً في أسبابه، وخاصة في أول عهده، وكأنّ لغة البارودي فيها من لقيبه، أي فيها البارود... ولكنّ تحوّل نابغتنا كان عن طريقة معاصريه من أمثال الليثي وأبي النصر وغيرهما، فترك الأحياء وأنطلق وراء الموتى في دواوينهم التي كان من سعادته أن طبع الكثير منها في ذلك العهد: كالمتنبي وأبي تمام والبحرني والمعري: ثمّ أهل الرقّة أصحاب الطريقة الغرامية: كابن الأحنف وألبهاء زهير والشّابّ الظريف والتّلعفري والحاجري، ثمّ مشاهير المتأخرين: كابن النّحاس والأمير منجك والشرقاوي. وقد حاول شوقي في أول أمره أن يجمع بين هذا كله، فظهر في شعره تقليدٌ وعملٌ في محاولة الابتكار والإبداع وإحكام التوليد، مع السهولة والرقّة وتكليف الغزل بالطبع المتدفّق لا بالحُبّ الصّحيح.

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون همّي إلاّ البحث في طريقة ابتداعه لِمعانيه، وكيف ألم وكيف لحظ، وكيف كان المعنى منبهةً له، وهل أبدع أم قلّد، وهل هو شعر بالمعنى شعوراً فخالط نفسه وجاء منها، أم نقله نقلاً فجاء من الكتب؛ وهل يتّسع في الفكرة الفلسفيّة لمعانيه، ويدقّق النظرة في أسرار الأشياء، ويُخبّر أن يستشِف هذه الغيوم التي يسبح فيها المجهول الشعري ويتّصل بها ويستصحب للناس من وحياها؛ أم فكره أترسّال وترجيم في الخيال وأخذ للموجود كما هو موجود في الواقع؟ وبالجملّة هل هو ذاتيّة تمرّ فيها مخلوقات معانيه لِشُخْلُوق فتكون لها مع الحياة في نفسها حياة من نفسه، أم هو تبعيّة كالسمسار بين طرفين: يكون بينهما، وليس منهما ولا من أحدهما؟ في هذه الطّريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر، ولا يوديك إلى هذا التاريخ إلاّ ذلك المذهب إليه إن أطلقته، أمّا تاريخ الشاعر نفسه فما أسهله؛ إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره، وليس في تاريخ ما كان إلاّ نقله كما كان.

وإذا عرضنا شوقي بتلك الطّريقة رأيتاه نابغة من أول أمره، ففيه تلك الموهبة التي أسمىها حاسةً أَلحُو؛ إذ يتلخّص بها التّوابغ معاني ما وراء المنظور، ويستزلون بها من كلّ معنى معنى غيره.

انظر أبياتهُ التي نظمها في أول شبابه وسنّه يومئذ ٢٣ سنة على ما أظن، وهي من شعره السائر:

خَدَعَهَا بِقَوْلِهِمْ حَسَنَاءَ وَالْغَوَانِي يَغْرُهُنَّ الشُّنَاءَ

ما تراها تَنَاسَتْ أَسْمِي لَمَّا كَثُرَتْ فِي غَرَامِهَا الْأَسْمَاءُ
إِنْ رَأَيْتَنِي تَمِيلُ عَنِّي كَأَنْ لَمْ تَكُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ
نَظْرَةً قَابَسَامَةً قَسَلَامَ فَكَلَامَ فَمَوْعِدَ قَلِيقَاءُ

دَغْ غَلَطَتْهُ فِي قَوْلِهِ (تميل عني)، فَإِنَّ صَوَابَهَا: تَمِيلُ؛ إِذْ هِيَ جَوَابُ إِنْ
الْشَرْطِيَّةِ؛ وَلَكِنْ تَأْمَلْ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ مَعَانِيَهُ؛ وَأَنَا كُنْتُ دَائِمًا وَمَا أَزَالَ مُعْجَبًا بِالْبَيْتَيْنِ
الْثَانِي وَالرَّابِعِ، لَا إِكْبَارًا لِمَعْنَاهُمَا، فَهَمَا لَا شَيْءَ عِنْدِي، وَلَكِنْ إِعْجَابًا بِمَوْهِبَةِ
شَوْقِي فِي التَّوْلِيدِ، فَإِنَّهُ أَخَذَ أَلَيْتَ الثَّانِي مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامَ:

أَتَيْتُ فَوَادَهَا أَشْكُو إِلَيْهِ فَلَمْ أَخْلُصْ إِلَيْهِ مِنَ الزَّحَامِ
فَمَرُّ الْمَعْنَى فِي ذَهْنِ شَوْقِي كَمَا يَمُرُّ الْهَوَاءُ فِي رَوْضِهِ، وَجَاءَ نَسِيمًا يَتَرَفَّقُ
بَعْدَمَا كَانَ كَالرَّيْحِ السَّافِيَةِ بِتَرَابِهَا؛ لِأَنَّ الزَّحَامَ فِي بَيْتِ أَبِي تَمَامَ حَقِيقٌ بِسَوْفِي قَائِمَةٌ
لِلْبَيْعِ وَالْإِشْرَاءِ، لَا يَقْلَبُ أَمْرًا يُحِبُّهَا، بَلْ هُوَ يَجْعَلُ قَلْبَ الْمَرْأَةِ شَيْئًا غَرِيبًا كَأَنَّهُ لَيْسَ
عَضْوًا فِي جَسْمِهَا، بَلْ غَرَفَةً فِي بَيْتِهَا. . . . وَقَدْ سَبَقَ شَاعِرُنَا أَبَا تَمَامَ بِمَرَا حَلِّ فِي
إِبْدَاعِهِ وَذَوْقِهِ وَرِفَّتِهِ.

وَأَلَيْتُ الرَّابِعُ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ الظَّرِيفِ:

قِفْ وَاسْتَمِعْ سِيرَةَ الْأَصْبَ الَّذِي قَتَلُوا قَمَاتَ فِي حُبِّهِمْ لَمْ يَبْلُغِ الْغَرَضَا
رَأَى فَحَبَّ قَسَامَ^(١) الْوَصْلَ فَأَمْتَمَعُوا فَرَامَ^(٢) صَبْرًا فَأَعْيَا نَيْلُهُ فَقَضَى

وهذه «فَاءات» تَجَرُّ إِلَى الْقَبْرِ وَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا. . . . وَمِمَّا كُنْتُ أَعِيبُهُ عَلَى
شَوْقِي ضَعْفُهُ فِي فَنُونِ الْآدَبِ، فَإِنَّ الْمُوِيلِحِيَّ الْكَاتِبَ الشَّهِيرَ أَنْتَقَدَ فِي جَرِيدَتِهِ
«مِصْبَاحُ الشَّرْقِ» أَبْيَاتَ (خَدَعُوهَا) عِنْدَ ظَهْوَرِ الشُّوْقِيَّاتِ فِي سَنَةِ ١٨٩٩، فَأَرْتَاغَ
شَوْقِي وَتَحَمَّلَ عَلَيْهِ لِيُثْبِتَ عَنِ النِّقْدِ، مَعَ أَنَّ كَلَامَ الْمُوِيلِحِيَّ لَا يُسْقَطُ ذِبَابَةً مِنْ
أَرْتِفَاعِ نَصْفِ مِتر. . . . وَمِنْ مُصِيبَةِ الْآدَبِ عِنْدَنَا، بَلْ مِنْ أَكْبَرِ أَسْرَارِ ضَعْفِهِ، أَنَّ
شُعْرَاءَنَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِالنِّقْدِ، وَأَنَّهُمْ يَفْرُؤْنَ مِنْهُ فِرَارًا وَيَعْمَلُونَ عَلَى تَفَادِيهِ وَأَنَّهُمْ لَا
يُحْسِنُونَ غَيْرَ الشُّعْرِ؛ فَلَا أَلْبَارُودِي وَلَا صَبْرِي وَلَا حَافِظُ وَلَا شَوْقِي كَانَ يُحْسِنُ
وَاحِدَ مِنْهُمْ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ يَكْتُبَ فَصْلًا فِي النِّقْدِ الْآدَبِيِّ، أَوْ يُحَقِّقَ مَسْأَلَةً فِي
تَارِيخِ الْآدَبِ.

(١) سام: طلب وعانى في الحصول على ما أراد.

(٢) رام: طلب وقصد.

ومن معاني شوقي السائرة:

لَكَ نُضْحِي وَمَا عَلَيْكَ جِدَالِي آفَةُ النَّصِيحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالَا
وكررَه في قصيدة أخرى فقال:

آفَةُ النَّصِيحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالَا وَأَذَى النَّصِيحِ أَنْ يَكُونَ جِهَارَا
وَالْبَيَانُ مِنْ شَعْرِ صِبَاةٍ أَيْضَا، وهما من قولِ أَبِي الرَّومِي:

وَفِي النَّصِيحِ خَيْرٌ مِنْ نَصِيحِ مُوَادِعٍ وَلَا خَيْرَ فِيهِ مِنْ نَصِيحِ مُوَابِ
فَصَحَّحَ شَوْقِي الْمَعْنَى وَأَبْدَلَ الْمُوَابَّةَ بِالْجِدَالِ، وذلك هو الذي عَجَزَ عَنْهُ أَبُو
الرَّومِي؛ وَمِنْ إِبْدَاعِهِ فِي قَصِيدَتِهِ (صَدَى الْحَرْبِ) يَصِفُ هَزِيمَةَ الْيُونَانِ:

يَكَادُونَ مِنْ دُخْرِ تَفْرِ دِيَارِهِمْ وَتَنْجُو الرُّوَاسِي^(١) لَوْ حَوَاهُنَّ مَشْعَبُ
يَكَادُ الْثَرَى مِنْ تَحْتِهِمْ يَلِجُ^(٢) الْثَرَى وَيَقْضِمُ بَعْضُ الْأَرْضِ بَعْضًا وَيَقْضِبُ

وهذا خيالٌ بديعٌ في الغاية، جعلَ هزيمَتَهُمْ كأنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ هَوْلِ الْتُرْكِ، بَلْ
مِنْ هَوْلِ الْقِيَامَةِ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُوَلَّدٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ كَرَمٍ مَمْدُوجِهِ أَبِي
دُلْف:

تَكَادُ مَغَانِيهِ تَهْتَشُّ عِرَاصُهَا^(٣) فَتَرْكِبُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى كُلِّ رَاكِبٍ

فَقَاسَ شَاعِرُنَا عَلَى ذَلِكَ؛ وَإِذَا كَادَتْ الدَّارُ تَرْكِبُ إِلَى الرَّاكِبِ إِلَيْهَا مِنْ
فَرَجِهَا، فَهِيَ تَكَادُ تَقْرُ مَعَ الْمُنْهَزَمِ مِنْ دَعْرِهَا؛ وَلَكِنَّ شَوْقِي بَنَى فَأَحْكَمَ وَسَمَّا عَلَى
أَبِي تَمَّامٍ بِالزِّيَادَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي:

وَمِنْ أَحْسَنِ شَعْرِهِ فِي الْغَزَلِ:

حَوَتْ الْجَمَالَ فَلَوْ دَهَبَتْ تَزِيدُهَا فِي الْوَهْمِ حُسْنًا مَا اسْتَطَعْتَ مَزِيدَا

وهو من قولِ القائل:

ذَاكَ حُسْنٍ لَوْ اسْتَرَادَتْ مِنَ الْحُشْدِ نِي إِلَيْهَا لَمَّا أَصَابَتْ مَزِيدَا

غَيْرَ أَنَّ شَوْقِي قَالَ: لَوْ دَهَبَتْ تَزِيدُهَا فِي الْوَهْمِ. وَالشَّاعِرُ قَالَ: لَوْ
اسْتَرَادَتْ هِيَ؛ فَلَوْ خَلَا بَيْتُ شَوْقِي مِنْ كَلِمَةِ (فِي الْوَهْمِ) لَمَّا كَانَ شَيْئًا، وَلَكِنَّ هَذِهِ
الْكَلِمَةُ حَقَّقَتْ فِيهِ الْمَعْنَى الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهِ كُلُّ فَلَسَفَةِ الْجَمَالِ؛ فَإِنَّ جَمَالَ الْحَبِيبِ

(١) الرُّوَاسِي: الجبال.

(٢) يَلِجُ: يَدْخُلُ.

(٣) عِرَاصُهَا: مفردة عرصة وهي الربوة.

ليس شيئاً إلا المعاني التي هي في وهم مجبه؛ فالزيادة تكون من ألوههم، وهو بطبيعته لا ينتهي؛ فإذا لم تبق فيه زيادة في الحُسن فما بعد ذلك حُسن. وقد بسطنا هذا المعنى في صور كثيرة في كتبنا: «رسائل الأحرار»، و «السحاب الأحمر»، و «أوراق الود»؛ فانظره فيها.

ويمما يتم ذلك البيت قول شوقي في قصيدة النفس:

يا دمية لا يستزاد جمالها زيديه حُسن المُحسِن المُتَبَرِّع
وهذا المعنى يقع من نفسي مَوْقِعاً وَلَهُ من إعجابي محل؛ فهذه الزيادة التي فيه كزيادة العمر لو أمكنت، وهي في موضعها كما ينقطع الحظ ثم يتصل، وكما يستحيل الأمل ثم يتحقق ويسهل؛ وقد علمت مأخذ الشطر الأول، أما الثاني فهو من قول أبي الرومي:

يا حَسَنَ ألوجه لقد شِنتَه فَأَضْمَمُ إلى حُسْنِكَ إِحْسَانًا
وفي القصيدة التي رثى بها ثروت باشا وهي من أحسن شعره تجد من أبياتها هذا البيت النادر:

وقد يموت كثير لا تحسُّهمو كأنهم من هوانِ الخُطْبِ ما وُجِدُوا
وشوقي يعارض بهذه القصيدة أبا خالد ابن محمد المهلب في دليته التي رثى بها المتوكل، وكان المهلب حاضراً قتله هو والبحتري، فرثاه كلُّ منهما بقصيدة قالوا: إنها من أجود ما قيل في معناها؛ وبيت شوقي مأخوذ من قول المهلب:

إِنَّا فَقَدْنَاكَ حَتَّى لَا أَضْطَبَّارَ لَنَا وَمَاتَ قَبْلَكَ أَقْوَامٌ فَمَا فُقِدُوا
أي لم يحس موتهم أحد؛ ولكن البيت غير مستقيم، لأن الذي يموت فلا يفقد هو الخالد الذي كائنه لم يمُت؛ فأستخرج شوقي المعنى الصحيح وجعل العدم الذي هو آخر الوجود في الناس، أول الوجود ووسطه وآخره في هؤلاء الذين هانوا على الحياة فوجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وجدوا.

* * *

وإلى ما علمت من قوّة هذه الشاعريّة، ودقيقتها فيما تتأثى له، ومجيئها بالمعاني النادرة مستخرجةً استخراج الذهب، مصفولةً صقل الجواهر، معدلةً بالفكر، موزونةً بالمنطق - تجد لها تهافتاً كتهافت الضعفاء، وغرّة كغرّة الأحداث؛ حتى لتحسب أن طفولة شوقي كثيراً ما تنبعث في شعره لآعبة هازلة، أو كأن

للرجل شخصيتين كما يقول الأطباء، فهما تتعاورانِ شعرَهُ كمالاً ونقصاً، وعلوّاً ونزولاً، أو قل هي العربيّة واليونانيّة في ناحية من نفسه، والتركّيّة والشركسيّة في ناحية أخرى: لتلك ألاتكارّ وأبلاغة والمنطق، ولهذه التهوّل والمبالغة والخلط؛ وشوقي هو بهما جميعاً؛ تفتنه القويّة منهما فيعجب بها إعجاب القوّة، وتخدعه الضعيفة فيعجب بها إعجاب الرقّة؛ ما أعجب ببيته الذي قاله في الحنين إلى الوطن من قصيدته الأندلسيّة الشهيرة:

وطني لو شغلّت بالخلد عنه نازعثنى إليه في الخلد نفسي

وهذا أليث ممّا يتمثّل به الشبان وكتاب الصحافة، ولم يفظن أحد إلى فسادِهِ وسخافة معناه؛ فإنّ الخلد لا يكون خُلداً إلّا بعد فناء الفاني من الإنسان وطائعه الأَرْضِيّة، وبعد أن لا تكون أرض ولا وطن ولا حنين ولا عصبية؛ فكأن شوقي يقول: لو شغلّت عن الوطن حين لا أرض ولا وطن ولا دول ولا أمم ولا حنين إلى شيء من ذلك - فإني على ذلك أحن إلى الوطن الذي لا وجود له في نفسي ولا في نفسه... وهذا كله لغو. وألعمنى بعد من قول ابن الرومي:

وحبّ أوطان الرجال إليهمو مآرب^(١) قضّاهم الشباب هنالكما

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمو عهد الصبي فيها فحنوا لذلّكما

ومنازعة النفس هي الحنين، ومعنى ابن الرومي وإن كان صحيحاً غير أنّه لا يصلح لفلسفة الوطنيّة في زمننا.

وإن في شوقي عيبين يذهبان بكثير من حسناته: أحدهما المبالغات التركّيّة الفارسيّة ممّا تنزعه إليه تركيّته ولا مبالغة في الدنيا تقاربها، كقول بعض شعرائهم إنّ النملة بزفرتها جففت الأبحر السبعة... وهو إغراق سخيف لا يأتي بخيال عجيب كما يتوهّمون، بل يأتي بهذيان عجيب؛ وإذا كان الصدق بأنف من الكذب، فإنّ الكذب نفسه بأنف من هذا الإغراق؛ ومن هذه التركّيّة في شوقي إضافات وهميّة، هي من تلك المبالغات كذيل الحمار من الحمار: قطعة فيه ودليل عليه وآخر لأوله ولا محل لها في ذوق أبلاغة العربيّة، كقوله:

(عيسى الشعور) إذا مشى رذ الشعوب إلى الحياة

(١) مآرب: غايات ومقاصد.

وقوله في سعد باشا في حادثة الاعتداء عليه :

ولو زُلْتُ غُيِّبَ (عمرُ الأمور) وأخلى المنابرَ سَخْبَانَهَا

ويدخلُ في جنَايَاتِ هذه التَرْكِيبَةِ على شعرِهِ تَكَرُّرُهُ الْأَسْمَاءِ الْمُقَدَّسَةِ وَالْأَعْلَامِ
التَّارِيخِيَّةِ : كِيُوشَعَ وَعِيسَى وَمُوسَى وَخَالِدٍ وَبَدْرٍ وَسَيْنَاءَ وَحَاتَمَ وَكُغْبٍ وَغَيْرَهَا مِمَّا هُوَ
شَائِعٌ فِي نَظْمِهِ وَلَا تَجْدُهُ أَكْثَرَ مَا تَجْدُهُ إِلَّا السَّحَرَ كُلَّهُ وَالْبَلَاغَةَ كُلَّهَا ، عَلَى شَرْطِ أَنْ
يَكُونَ الْقَلْبُ هُوَ الَّذِي وَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا ، وَأَنْ لَا يَضَعَهَا إِلَّا عَلَى هَيْئَةٍ قَلْبِيَّةٍ ، فَيَكُونُ
كَأَنَّهُ وَضَعَ نَفْسَهُ فِي الشَّعْرِ لِيَخْفِقَ خَفَقَاتُهُ الْحَيِّ فِي بِضْعَةِ الْأَفَاطِ ، وَهَذَا مَا لَمْ يُحْسِنُهُ
شَوْقِي - وَالْعَيْبُ الثَّانِي أَنَّ الْأَفَاطَ شَاعَرْنَا لَا يَثْبُتُ أَكْثَرُهَا عَلَى النِّقْدِ ؛ لِضَعْفِهِ فِي الْأَصْنَاعَةِ
الْبَيَانِيَّةِ ، ثُمَّ لِضَعْفِ أَلْمُوهَبَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ فِيهِ وَاعْتِبَارِهِ اَلْتَهْوِيلَ شِعْراً وَالْمَبَالِغَةَ بِلَاغَةً وَإِنْ
فَسَدَتْ بِهِمَا الْبَلَاغَةُ وَالشَّعْرُ ؛ انْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَتِهِ الشَّهِيرَةِ ٢٨ فَبَرَايِرَ :

قالوا : الْحِمَايَةُ زَالَتْ قُلْتُ لَا عَجَبٌ قَدْ كَانَ بَاطِلُهَا فِيكُمْ هُوَ الْعَجَبَا
رَأْسُ الْحِمَايَةِ مَقْطُوعٌ فَلَا عَدَمْتُ كِنَانَةُ أَلَلِّهِ حَزْماً يَقْطَعُ الدُّنْيَا

قُلْنَا : فَإِذَا قُطِعَ (رَأْسُ الْحِمَايَةِ) وَبَقِيََتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مَا ذَنْبٌ أَوْ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ ؛ فَإِنَّ
هَذِهِ أَلْبَقِيَّةً فِي لُغَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي تَنْقُذُ الْأَلْفَاظَ وَحُرُوفَهَا وَنَقْطَ حُرُوفِهَا . . . لَنْ تَكُونَ
ذَنْباً وَلَا بَدْأً وَلَا رِجْلاً ، بَلْ هِيَ (رَأْسُ الْحِمَايَةِ) بِعَيْنِهِ . عَلَى أَنَّ شَوْقِي إِذَا عَكَسَ
قَوْلَ الشَّاعِرِ

لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتُرْسَلَهَا إِنْ كُنْتُ شَهْماً فَاتَّبِعْ رَأْسَهَا الدُّنْيَا

وَهَذَا كَلَامٌ عَلَى سِيَاقِهِ مِنَ الْعَقْلِ ، فَمَا غِنَاءُ قُطْعِ ذَنْبِ الْأَفْعَى إِذَا بَقِيَ رَأْسُهَا ،
وَإِنَّمَا الْأَفْعَى كُلُّهَا هِيَ هَذَا الرَّأْسُ .

وَلَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ دَرَسِ شَوْقِي فِي دِيَوَانِهِ أَمْرٌ عَجَبْتُ لَهُ ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْخُذُ مِنْ أَبِي
تَمَامٍ وَالْبَحْتَرِيِّ وَالْمَعْرِيِّ وَأَبْنِ الْأَرْوَمِيِّ وَغَيْرِهِمْ ؛ فَرُبَّمَا سَاوَاهُمْ وَرُبَّمَا زَادَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى
إِذَا جَاءَ إِلَى الْمُتَنَبِّي وَقَعَ فِي الْبَحْرِ وَأَدْرَكَهُ الْغُرْقُ ؛ لِأَنَّهُ نَشَأَ عَلَى رَهْبَةٍ مِنْهُ كَمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ
عِبَارَتُهُ فِي مَقْدَمَةِ دِيَوَانِهِ الْأَوَّلِ ؛ وَقَدْ وَصَفَ خَيْلَ أَكْثَرِكَ فِي قَصِيدَةِ أَنْقَرَةَ بِقَوْلِهِ :

وَأَلْصَبُ فِيهَا وَفِي فِرْسَانِهَا خُلُقٌ تَوَارَثُوهُ أَبَا فِي الْأَرْوَعِ بَعْدَ أَبِ
كَمَا وَلَدْتُمْ عَلَى أَعْرَافِهَا وَلَدْتُ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ لَا فِي بَاحَةِ الرَّحْبِ
وَشِعْرُهُ هَذَا كَأَنَّهُ يَرْتَعِدُ أَمَامَ قَوْلِ الْمُتَنَبِّي :

أَقْبَلْتُهَا غُرَّرَ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا أَيْدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبْهَاتِهَا

السابتين فروسة كجلودها في ظهرها، وألطنعن في لبائها
فكأنها نجت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها
فأنظر أين صناعة من صناعة وأين شعر من شعر؟ وقال في (صدى الحرب)
يصف مدافع الدردنيل:

قذائف تخشى مهجة المشي كلما علت مضعدات أنها لا تصوب
إذا هب حاميتها على السفن أنشئت وغانمها الناجي فكيف المخيب

وهذا ألاستفهام (فكيف المخيب) استفهام مضحك؛ لأنه إذا كان الناجي
غانماً، فالمخيب خاسر بلا سؤال ولا فلسفة؛ والكلمة الشعرية في هذا كله هي
قوله (وغانمها الناجي)، وهي كالأهاربة تتوارى^(١) خوفاً من بيت أبي الطيب:

أغر أعداؤه إذا سلبسوا بالهرب استكبروا الذي فعلوا

فهذا هو الشعر لا ذاك؛ على أنني أشهد أن في قصيدة (صدى الحرب) أبياتاً
هي من أسمى الشعر، وكان شوقي - رحمه الله - كان ينظم هذه القصيدة من إيمانه
ومن دمه ومن كل مطامع دنياه وآخرته، يبتغي بها الشهرة الخالدة في الناس،
والمنزلة السامية عند الخديو، ونباهة الشأن عند الخليفة، والثواب عند الله تعالى؛
ولو هو في أثناء عملها أسقط نصفها أو أكثر لجاءت فريدة في الشعر العربي، غير
أن الحزص كان يغتره، وكان طول عمره مفتوناً بشعره؛ فجاء في هذا الشعر بالطم
والزم^(٢) كما يقولون؛ وله كثير من الكلام الرذل الأساقط بضعفه وتهافته؛ ولولا تلك
التركبة الفارسية وضعفه البياني، لما رضي أن يكون ذلك في شعره؛ وليت شعري
كيف غاب عن مثله أن التهويل والإغراق والإحالة مما يهجن^(٣) الشعر ويذهب
بأنره في النفس ويحيله إلى صناعة هي شر من الصناعة البدعية؛ لأن هذه تكون في
الالفاظ؛ والالفاظ تحتل العبت البدعي ويخرج بها الأمر إلى أن تكون ضرباً من
الرياضة كمعاناة بعض المسائل في الجبر والهندسة تركياً وحلاً؛ ولكن المعاني لا
تحتل ذلك؛ إذ هي تفكير لا يلتوي إلا فسد، والمعاني التي يأتي بها الشاعر يجب
أن تكون فيها مزية بخاصتها من الجمال والبيان، وأن تكون أخيلتها هي الحقائق
التي أول مواضعها فوق حقائق البشر.

(١) تتوارى: تخفي.

(٢) الطم والرم: بقايا ما يتج من الدمار.

(٣) يهجن: يكره ولا يقبل.

وهناك ضرب آخر من المبالغة يجيء من سقوط الخيال؛ لأن في الأسفل مبالغة كما في الأعلى، وإن كانت مبالغة الأسفل زيادة في السخرية منه والهزاء به؛ وهذه المبالغة تأتي من جمع أشتات مختلفة وإدماجها كلها في معنى واحد، كهذا الذي حاول أن يدمج الطبيعة كلها في حبيته فزعم أن فيها من كل شيء، ونسي أن كل قبيح وكل بغض هو من كل شيء...

إن الخيال الشعري يزيع^(١) بالحقيقة في منطق الشاعر لا ليقلبها عن وضعها ويجيء بها ممسوخة مشوهة، ولكن ليعتدل بها في أفهام الناس ويجعلها تامة في تأثيرها؛ وتلك من منجزاته؛ إذ كانت فيه قوة فوق القوة عملها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوح مرة وبغموض أخرى.

ولعلماء الأدب العربي كلمة ما أراهم فهموها على حقها ولا نفذوا إلى سرها؛ قالوا: أعذب الشعر أكذبها! يعنون أن قوام الشعر المبالغة والخيال: ولا ينفذون إلى ما وراء ذلك، وما وراءه إلا الحقيقة رائعة بصدقها وجلالها؛ وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذب على الحواس الإنسانية، وأن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هي عمل شعري في الحقيقة؛ إذ تنقل الشيء على غير ما هو في نفسه ليكون شيئاً في نفوسنا، فيؤثر فيها أثره جمالاً وقبحاً وما بينهما؛ وما هي خمرة الشعر مثلاً؟ هي رضاب الحبيبة؛ ولكن العاشق لو رأى هذا الرضاب تحت المجهر لراى. لراى مستنقعا صغيراً. ولو كان هذا المجهر أضعاف الأضعاف مما يجهر به لرايت ذلك الرضاب^(٢) يعج^(٣) عجيجاً بالهوام والحشرات التي لا تخفى بنفسها ولكن أخفاها التدبير الإلهي بأن جعل رتبته في الوجود وراء النظر الإنساني، رحمة من الله بالناس؛ فأعذب الشعر ما عمل في تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسر الحياة؛ ولهذا المعنى كان الشعراء النوابع في كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع.

ومن سخيـف الإغراق في شعر شوقي قوله في رثاء مصطفى باشا كامل، وهي أبيات يظن هو أنه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعاً من الإغراب:

فلو أن أوطاناً تُصوّر هيكلًا دفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يُحمل في الجوارح ميت حملوك في الأسماع والأجفان

(١) يزيع: يحيد ويميل.

(٢) الرضاب: الريق.

(٣) يعج: يمتلىء.

أو كَانَ لِلذَّكْرِ الْحَكِيمِ بَقِيَّةٌ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ - رُئِيتُ فِي الْقُرْآنِ
هذه فروض فوق المستحيل بأربع درجات. وتصور أنت ميتاً يُحمَلُ في
الجوارح فيترمَّمُ فيها ويبلَى... وما زالَ الشَّاعِرُ في أبياتِهِ يخرجُ من طائفة^(١) إلى
طائفة، حتى قال: رُئِيتُ فِي الْقُرْآنِ، ولو سئَلْتُ أنا إعراب (لو) في هذه الأبياتِ
لقلْتُ: إِنَّهَا حَرْفُ نَقْصٍ وتلفيقٍ وعجز... وكيف يَسُوغُ في الفرض أن تكونَ
لِلْقُرْآنِ بَقِيَّةٌ لَمْ تَنْزَلْ، وَأَلَلَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِيهِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ وَالْأَمْرُ أَمْرُ
دِينٍ قَدْ تَمَّ، وَكِتَابٌ مَقْدَسٌ خُتِمَ، وَنَبْوَةٌ أَنْقَضَتْ؛ وَالشَّاعِرُ ماضٍ فِي غَفْلَتِهِ لَمْ يَتَنَبَّهُ
لِشَيْءٍ وَلَمْ يَدِرْ أَنَّهُ يَقْرَضُ فَرْضاً يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ كُلَّهُ، بَلْ حَسِبَ أَنَّهُ جَاءَ بِخِيَالٍ وَبِلَاغَةٍ
فَارْسِيَّةٍ؛ وَشَوْقِي فِي الْحَقِيقَةِ كَامِلٌ كَنَاقِصٍ، وَإِنْ مِنْ مَعْجَزَاتِ هَذَا الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ
نَاقِصاً هَذَا النِّقْصُ كُلُّهُ وَيُكْمَلُ.

وَفِي الشُّوقِيَّاتِ صَفَحَاتٌ تَكَادُ تُغَرِّدُ تَغْرِيداً، وَفِيهَا صَفَحَاتٌ أُخْرَى تَبْقُ نَفِيقُ
الضَّفَادِعِ؛ وَفِي هَذَا الدِّيَوَانِ عِمُودٌ لَا تُرِيدُ أَنْ نَقْطِعُهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى كِتَابٍ
بِرَأْسِهِ إِذَا ذَهَبْنَا نَاتِي بِهَا وَنَشْرَحُ أَلْعَلَّةَ فِيهَا وَنُخْرِجُ الشُّوَاهِدَ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ مِنْ غُيُوبِهِ
فِي التَّكْرَارِ أَنَّ لَهُ بَيْتاً يَدُورُ فِي قِصَائِدِهِ دُورَانِ الْجِمَارِ فِي السَّاقِيَةِ، وَهُوَ هَذَا الْبَيْتُ:

وَأِنَّمَا الْأَمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا
بَلْ هَذَا الْبَيْتُ:

وَأِنَّمَا الْأَمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ تَوَلَّتْ مَضَوْا عَلَى آثَارِهَا قُدَمَا
بَلْ هُوَ هَذَا:

كَذَا النَّاسُ بِالْأَخْلَاقِ يَبْقَى صِلَاخُهُمْ وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ حِينَ تَذْهَبُ
بَلْ هُوَ هَذَا الْبَيْتُ:

وَلَا الْمَصَائِبُ إِذْ يُرْمَى الرِّجَالُ بِهَا بِقَابِلَاتٍ إِذَا الْأَخْلَاقُ لَمْ تُصَبِّ

وَقَدْ تَكَرَّرَ (فِيمَا قَرَأْتُهُ مِنْ دِيَوَانِهِ) ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً، فَعَادَ الْمَعْنَى كَطِيلِسَانَ أَبْنِ
حَرْبٍ الَّذِي جَعَلَ الشَّاعِرُ يُرْقِعُهُ ثُمَّ يُرْقِعُهُ حَتَّى ذَهَبَ الطَّلِيلِسَانُ وَبَقِيَ الرُّقْعُ.
وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ مِنَ الْعَيْنِ النَّادِرِ، وَلَكِنْ أَفْسَدَهُ فِي الْبَاقِي سَوْءُ مَلَكَةِ الْجِرَاحِ فِي
شَوْقِي، أَوْ ضَعْفُ الْجِسِّ الْبَيَانِيِّ، أَوْ ابْتِدَاؤُهُ الشَّحَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ وَهْنُ فِكْرِهِ

(١) طائفة: مصيبة.

أَلْفَلَسِيَّةٌ مِنْ جَوَانِبَ كَثِيرَةٍ؛ وَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ هِيَ الْأَبْوَابُ الَّتِي يَقْتَحِمُ مِنْهَا الْنَقْدُ عَلَى شَعْرِ صَاحِبِنَا، وَلَوْ هُوَ كَانَ قَدْ حَصَّنَهَا بِأَضْدَادِهَا لَكَانَ شَاعِرَ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ، وَلَكَانَ عَسَى أَنْ يَنْقَلَ الشَّعْرُ إِلَى طَوْرِ جَدِيدٍ فِي التَّارِيخِ؛ وَلَكِنْ الْفَوْضَى وَقَعَتْ فِي شَوْقِي مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ؛ فَأُرْسِلَ إِلَى أُرُوبَا لِدَرْسِ الْحَقُوقِ وَكَانَ أَلَوْجُهُ أَنْ يُرْسَلَ لِدَرْسِ الْأَدَابِ وَالْفَلَسَفَةِ، وَغَامَرَ فِي سِيَاسَةِ الْأَرْضِ، وَكَانَ الْحَقُّ أَنْ يَشْتَغَلَ بِسِيَاسَةِ أَلْسِمَاءَ، وَتَهَالَكَ فِي مَادَّةِ الدُّنْيَا، وَكَانَ الْأَصَوَابُ أَنْ يَتَهَالَكَ فِي مَعَانِيهَا.

إِنَّ الْفَوْضَى ذَاهِبَةٌ بِنَا مَذَاهِبَهَا فِي الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ، فَكُلُّ شَاعِرٍ عِنْدَنَا كَمُؤَلِّفٍ يَضَعُ رِوَايَةً ثُمَّ يُمَثِّلُهَا وَخَذَهُ وَعَلَيْهِ أَنْ يُمَثِّلَهَا وَحْدَهُ، فَهُوَ يَخْرُجُ عَلَى الْنَظَارَةِ فِي ثِيَابِ الْمَلِكِ فَيُلْقِي كَلَامًا مَلَكِيًّا، ثُمَّ يَنْفَتِلُ فَيَجِيءُ فِي ثَوْبِ الْقَائِدِ فَيُلْقِي كَلَامًا حَرْبِيًّا، ثُمَّ يَقْلُبُ فَيَعُودُ فِي هَيْئَةِ التَّاجِرِ فَيُلْقِي كَلَامًا سَوْقِيًّا، ثُمَّ يَرُوحُ فَيَرْجِعُ فِي مِبَاذِلِ الْخَادِمِ، ثُمَّ . . . يَتَوَارَى فَيُظْهِرُ فِي جِلْدَةِ بَرَبَرِيٍّ . . . وَهَذِهِ الْفَوْضَى الَّتِي أَهْمَلْتُهَا الْحُكُومَةُ وَأَهْمَلَهَا الْأُمَرَاءُ وَالْكَبَرَاءُ هِيَ حَقِيقَةُ مُؤَلِّمَةٍ، وَلَكِنْ هِيَ الْحَقِيقَةُ!

* * *

وَشَوْقِي عَلَى كُلِّ هَذَا هُوَ شَوْقِي: أَوَّلُ مَنْ أَحْتَفَى بِتَارِيخِ مُضَرٍّ مِنَ الشُّعْرَاءِ، وَأَوَّلُ مَنْ تَوَسَّعَ فِي نَظْمِ الرِّوَايَةِ الشَّعْرِيَّةِ فَوَضَعَ مِنْهَا سِتَّ رِوَايَاتٍ، وَهُوَ صَاحِبُ الْأَبْيَاتِ الْبَدِيعَةِ فِي الْوَصْفِ، وَهَذِهِ النَّاحِيَةُ هِيَ أَقْوَى نَوَاحِيهِ، وَلَقَدْ أَلْهَمْتَنِي قِرَاءَةُ الْبَارِعِ مِنْ شَعْرِهِ فِي أَغْرَاضِهِ وَفَنُونِهِ الْمَخْتَلِفَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْعِمُ عَلَى الْأَدَابِ الْجَمِيلَةِ بِأَفْرَادٍ مُمْتَازِينَ فِي جَمَالِ أَرْوَاجِهِمْ وَقُوَّتِهَا، تَجِدُ الْأَدَابَ لَذَّتْهَا فِيهِمْ وَسُمُومَهَا بِهِمْ، كَأَنَّ الْأَمْرَ قِيَاسٌ عَلَى مَا يَقَعُ مِنْ عِشْقِ النَّاسِ لِبَعْضِ الْمَعَانِي، فَيَكُونُ فِي الْمَعَانِي مَا يَعِشُقُ بَعْضُ النَّاسِ، وَمَتَى بَلَغَ عِشْقُ الْمَعْنَى لِإِنْسَانٍ مَبْلَغَ الْأَخْتِصَاصِ وَالْوَجْدِ ظَهَرَ الْفَنُّ أَبَدًا مَا يُرَى، كَأَنَّ الْمَعْنَى الْأَدَبِيَّ يَتَجَمَّلُ وَيَتَحَبَّبُ لِيَسْتَمِيلَ هَذَا الْإِنْسَانُ الْحَاكِمَ عَلَيْهِ حُكْمَ الْحُبِّ.

فِيَا مُضَرُّ، لَقَدْ مَاتَ شَاعِرُكَ الَّذِي كَانَ يُحَاوَلُ أَنْ يَخْرُجَ بِالْجِيلِ الْحَاضِرِ إِلَى الزَّمَنِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ بَعْدَ، فَإِذَا جَاءَ هَذَا الزَّمَنُ الزَّاحِرُ بِفَنُونِهِ وَأَدَابِهِ الْعَالِيَةِ، وَذُكِّرَتْ مَجْدُ شِعْرِكَ الْمَاضِي، فَلْيَقُلْ أَسَانِدُكَ يَوْمَئِذٍ: كَانَ هَذَا الْمَاضِي شَاعِرًا أَسْمُهُ شَوْقِي!

بعد شوقي

كَانَ يَتَوَجَّهَ الظَّنُّ عَلَى شَوْقِي - رَحْمَهُ اللَّهُ - فَيَزَعُمُ الزَّاعِمُ أَنَّ شَوْقِي هُوَ يُحْيِي شِعْرَهُ، وَهُوَ يَرْفَعُ مِنْهُ، وَهُوَ يُشَيِّعُ حَوْلَهُ قُوَّةَ الْجَذِبِ مِنْ مَغْنَاطِيسِ الثَّرْوَةِ وَالْمَكَانَةِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ مَا أَوْفَى عَلَى الشُّعْرَاءِ جَمِيعاً لِأَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ، بَلْ لِأَنَّهُ أَغْنَاهُمْ؛ وَلَا مِنْ أَنَّهُ أَقْوَاهُمْ قُوَّةً، بَلْ لِأَنَّهُ أَقْوَاهُمْ حِيلَةً؛ وَأَنَّ الشَّاعِرَ لَوْ جَاءَ يَوْمُهُ لِبَطْلِ السَّحَرِ وَالْمَاحِرِ، فَتَرَجَعَ الْعَصَا وَهِيَ عَصَا بَعْدَ أَنْ أَنْقَلَبَتْ حَيَّةً، وَيَثْوُلُ هَذَا الشَّعْرُ إِلَى حَقِيقَتِهِ، وَتُسَمَّى الْحَقِيقَةُ بِسَمَتِهَا؛ كَأَنَّ شَوْقِي كَانَ يَعْمَلُ لِشِعْرِهِ بِقُوَّةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا بِقُوَّةِ رَجُلٍ مِنَ النَّاسِ.

فَقَدْ ذَهَبَ الرَّجُلُ إِلَى رَبِّهِ، وَخَلَا مَكَانَهُ، وَبَطَلَتْ كُلُّ وَسَائِلِهِ، وَنَامَ عَنْ شِعْرِهِ نَوْمَةً الْأَبَدِيَّةِ، وَتَرَكَهُ لِمَا فِيهِ يَحْفَظُهُ أَوْ يُضِيعُهُ إِنْ كَانَ فِيهِ حَقٌّ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَاطِلٌ، وَأَصْبَحَ الشَّاعِرُ هُوَ وَمَالُهُ وَجَاهُهُ وَشِعْرُهُ فِي حُكْمِ الْكَلِمَةِ الَّتِي يَقُولُهَا الْزَّمَنُ، وَلَمْ تَعُدْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي حُكْمِهِ؛ فَهَلْ أَثْبَتَهُ الْزَّمَنُ أَوْ نَفَاهُ، وَهَلْ سَلَّمَ لَهُ أَوْ كَابَرَهُ، وَهَلْ رَدَّهُ فِي أَغْمَارِ الشُّعْرَاءِ أَوْ جَعَلَ الشُّعْرَاءَ بَعْدَهُ أُدِلَّةً مِنْ أُدْلِيَّتِهِ؟



أَوَّلُ مَا ظَهَرَ لِي أَنَّ الْزَّمَنَ بَعْدَ شَوْقِي أَصْبَحَ أَقْوَى فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ وَأَصْدَقَ فِي الشَّهَادَةِ لَهُ، كَمَا تَكُونُ الظُّلْمَةُ بَعْدَ غِيَابِ الْقَمَرِ شَرْحاً طَوِيلاً لِمَعْنَى ذَلِكَ الضُّيَاءِ، وَإِنْ سَطَعَتْ فِيهَا الْكَوَاكِبُ وَتَوَقَّدَتْ مِنْهَا شَيْءٌ وَتَلَأَلَا شَيْءٌ؛ فَقَدْ دُلَّ الْزَّمَنُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ أَشْأَنَ لَمْ يَكُنْ لِشَاعِرٍ كَالشُّعْرَاءِ يُقَالُ فِي وَصْفِهِ إِنَّهُ مُفْتَنٌ مُجِيدٌ مُبْدِعٌ؛ وَلَكِنَّهُ لِذَلِكَ يُقَالُ فِيهِ إِنَّهُ صَوْتُ بِلَادِهِ وَصِيحَةُ قَوْمِهِ.

كَانَتْ تَحْدُثُ الْحَادِثَةُ، أَوْ يَتَخَالَجُ النَّاسُ مَعْنَى مِنَ الْكَلِمَةِ الَّتِي يَعْمَلُهَا، أَوْ يَسْتَطِيعُهَا فَرَحٌ مِنَ أَفْرَاحِ الْوَطَنِ، أَوْ يَزُولُ عَظِيمٌ مِنَ الْعَظَمَاءِ فَيَزِيدُ صَفْحَةً فِي التَّارِيخِ، أَوْ يَنْشَأُ كَوْنٌ صَغِيرٌ مِنْ أَكْوَانِ الْحَضَارَةِ فِي الشَّرْقِ كِبَنُكٍ مُضَرٍّ، أَوْ تَرْتَجُّ زَلْزَلَةٌ فِي الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْنَمَا ارْتَجَّتْ، فَإِذَا كُلُّ قَدْ وَقَعَ فِي الدُّنْيَا بِهَيْئَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا

في ذهن شوقي، فيرسل قصيدته الشروء السائرة داوية مجلجلة، فلا تكاد تظهر في مِصْرَ حتى تلتقي حولها الأفكار في العالم العربي كله، فتكون شعراً من أسرى الشعر وأحسبه، ثم تجاوزه فإذا هي صلة من أقوى الصلات الأذهنية بين أدباء العربية وأوثقها، ثم تجاوزها فإذا هي عاطفة تجمع القلوب على معناها، ثم تسمو فوق هذا كله فإذا هي من هذا كله زعامة مِصْرَ على الشعر العربي.

واليوم يقع مثل ذلك فتطير بعض الفقايع الشعرية من هنا وثم ملونة منتفخة ماضية على قانون الفقايع في الطبيعة: من أن لحظة وجودها هي لحظة فناها، وأن ظهورها يكون لتظهر فقد لا لتنع.

ولست أماري في أن بيننا شعراء قليلين يجيدون الشعر، ولهم فكر وبيان ومذهب وطريقة: ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تخزنه كما اختارت شوقي، وأنه في الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يعهد إليه، وأن يخرج له التقليد؛ فهو ينتظر وسيستظر.

وهذا عجيب حتى كأنه سحر من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبري ألفد وبين من يشبهونه أو ينافسونه - بضروب خفية من الصرفة والعوائق، لا هي كلها من قوة العبري، ولا هي كلها من عجز الآخرين.

وأعجب من ذا أن (شوقي) كان في العالم العربي كأنه عمل تاريخي متميز من أعمال مِصْرَ، غير أنه مسمى بأسم رجل؛ وكان على الحقيقة لا على المجاز - كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلبة التي تخلد بأسماء الآثار الفنية وتكسبها العظمة في الوجودين: من محلها ومن نفس الإنسان.

وأعجب من هذا وذلك أنني لم أر شعراً عربياً يحسن في وصف الآثار المصرية ما يحسن في وصفها شعر شوقي، حتى لأسأل نفسي: هل تختار بعض الأشياء العظيمة وصفها ومفسر عظمتها، كما تختار المرأة الجميلة عاشقها ومُستجلي حسيها؟

وما بأن شوقي على غيره إلا بأنه رجل أفرغ في رأسه الذهن الشعري الكبير، فكان في رأسه مصنع عماله الأعصاب، ومادته المعاني، ومهندس الإلهام؛ والدنيا تُرسل إليه وتأخذ منه؛ وعلامة ذلك من كل شاعر عظيم أن تضع دنياه على اسمه

شهادتها له؛ ولهذا ما يكون بعض الشعراء كأن أسمه في وزن اسم مملكة، فإذا قلت: شكسبير وإنجلترا، فهما في العظمة النفسية من وزن واحد، وكذلك المتنبي والعالم العربي، وكذلك شوقي ومصر.

قالوا: كان الفرزدق يُنْفَخ الشعر، وكان جرير يَخْشُب (أي يرسل شعره كما يجيء فلا يتنوّق فيه ولا يُنْفَخه)؛ وكان خَشْب جرير خيراً من تنقيح الفرزدق ولم يتنبه أحد إلى السر في ذلك؛ وما هو إلا السر الذي كان في شوقي بعينه، سرّ الأمتلاء الروحي قد أمدّ بالطبع، وأعين بالذوق، وأوتي القوة أن يتحوّل بآثاره في الكلام؛ فكل ما كان منه فهو منه: يجيء دائماً قريباً بعضه من بعضه، ولا يكاد ينفذ إلى شعور إلا اتّخذ به.

وقد كان عمرو بن دَرّ الواعظ ألبليغ إذا تكلم في مجليه نشر حوله جواً من روحه، فيجعل كل ما حوله يتموّج بأمواج نفسية؛ فكان كلامه يعصف بالناس عصف الهواء بالبحر يقوم به ويقعد، وكان من الوعاظ من يقلّده ويحكيه ولا يدري أنّه بذلك يعرض الغلطة على ردها وصوابها، فقال بعض من جالسه وجالسه: ما سمعت عمرو بن دَرّ يتكلم إلا ذكرث الأنفخ في الصور، وما سمعت أحداً يحكيه إلا تمنيت أن يجلد ثمانين...

فألفرق روحاني طبيعي كما ترى، لا عمل فيه لأحد ولا لصاحبه، وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهوائ وبين نسيم من الريح يرسلان على جهتين في البحر؛ ففي ناحية يلتج الأماء ويثب ويتضرب ويقصف قصف الرعد، وفي الأخرى يترجرج ويتزخف ويقشعر ويهمس كوسواس الحلى.

والشأن كل الشأن للكمية الوجدانية في النفس الشاعرة أو الممتازة؛ فهي التي تُعين لهذه النفس عملها على وجه ما، وتهيتها لما يراود منها بقدر ما، وتقيتها على دأبها إلى زمن ما، وتخصها بخصائصها لغرض ما؛ وإذا أنت حققت لم تجد الفروق بين النوايب بعضهم من بعض إلا فروقاً في هذه الكمية ذاتها مقداراً من مقدار؛ ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظم من أكبر الشعراء؛ فقد يكون الشاعر كأنه تلميذ في العلم، ثم يكون أعلم كأنه تلميذ لقلب هذا الشاعر وعواطفه؛ ولئن عجز أنفد العلمي أن ينال من الشاعر العبقري، لقد يما عجز في كل أمة.

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقي من هو أوسع منه اطلاعاً على آداب

الأمم، وأبصرُ بأغراض الشعرِ وحقيقته، وكانَ مع ذلك حاسداً شائناً قد نُقِبَ في قلبه الجفد، والحاسدُ المبعُضُ هو في اتِّساعِ الكلامِ وطُغيانِ العبارةِ أخو المُحِبِّ العاشقِ؛ فكِلَاهُمَا يدورُ الدَّمُ في كبدهِ معانيِ ووساوسِ، وكلاهما يجري كلامُهُ على أصلٍ ممَّا في سريره، فلا تجدُ أحدهما إلَّا عالياً بَمَنْ يُحِبُّ، ولا تجدُ الآخرَ إلَّا نازلاً بَمَنْ يُبْغِضُ؛ وكانَ هذا الناقدُ شاعراً، فَانصافَ شعرُهُ إلى حبيده، إلى بُغْضِهِ، إلى ذكائه، إلى أَطْلَاعِهِ، إلى جُهدِهِ، إلى طولِ الوقتِ وتراخي الزمنِ؛ وهذه كلها مفرقاتٌ نفسيةٌ . . . بعضها أشدُّ من بعضِ كآبارود، إلى الديناميت، إلى الميلينيت؛ ولكنَّ شوقي كانَ في مرتقى لم يبلغه الناقد، فَانقلبَ جهْدُ هذا عجزاً، وأصبحَ آبارودُ والترابُ في يدهِ بمعنى واحد.



ومن أعجب ما عجبْتُ لَهُ من أمرِ هذا الناقد، أَنِّي رأيتهُ يُقرِّرُ للناسِ صوابَ الحقيقةِ بِزعمِهِ، فإذا هو يُقرِّرُ غلطَهُ وجهلَهُ وتعسُّفَهُ؛ وهو في كلِّ ما يكتبُ عن شوقي يكونُ كالَّذي يرى الماءَ العذبَ وعملَهُ في إنباتِ الروضِ وتَوَشُّيَّتِهِ^(١) وتلويهِ، فيذهبُ يَعيِبُهُ للناسِ بأنَّهُ ليس هو أَلَبْتَرِين . . . الَّذي يُحرِّكُ السياراتِ وَالطَّيَّاراتِ!

تناولَ شوقي بَعْدَ موتهِ فجْرةً^(٢) مِن الشَّخصيَّةِ، أي من حاسَّةِ الشعرِ، ومن إدراكِ أَلْسَرٍ لا يَخْلُقُ الشَّاعرُ الْحَقَّ لإِدْرَاكِهِ وَالْكَشْفَ عن حَقائِقِهِ؛ وكانَ فيما أَسْتَدِلُّ بِهِ على ذلك أَنُّ شوقي لا يُحْيِنُ وَصْفَ الْربيعِ بِمِثْلِ ما وَصَفَهُ أَبْنُ الرُّومِي في قوله:

تجدُ الـوَحْوشُ بِهِ كِفَايَتَهَا وَالطَّيْرِ فِيهِ عَتِيدَةُ الطَّغَمِ
فَظَبَاؤُهُ تُضْحِي بِمُنْتَطِحِ وَحَمَامُهُ يُضْحِي بِمُخْتَصِمِ

وزعمُ أَنُّ أَبْنُ الرُّومِي قد وُلِدَ بِحَاسَّةٍ لم يُولَدْ بِهَا شوقي، ولهذه الْحَاسَّةُ أَنْدَمَجَ فِي الطَّبِيعَةِ فَأَدْرَكَ سِرَّ الرَّبِيعِ، وَأَنَّهُ غَلِيَّانُ الْحَيَاةِ فِي الْأَحْيَاءِ، فَالطَّبَّاءُ تَنْتَطِحُ مِنْ الْأَشْرِ إلَخَ وَبَنَى عَلَى ذَلِكَ نَاطِحَةً سَحَاب . . . لا نَاطِحَةً ظِلَاء.

أما شوقي الشَّاعرُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ لم يُولَدْ بِمِثْلِ تِلْكَ الْحَاسَّةِ، فَلَوْ أَنَّهُ شَهِدَ أَلْفَ ربيعٍ لَمَّا أَحْسَنَ هَذَا الْإِحْسَاسَ، وَلَا أَسْتَطَاعَ أَنَّ يَجِيءَ بِهَذَا الْقَوْلِ الْمُفْجِزِ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ هَذَا النَّاقدِ جَهِلٌ فِي جَهِلٍ، وَأَعَالِيلُ بِأَضَالِيلِ بِأَبَاطِيلِ؛ فَابْنُ الرُّومِي فِي هَذَا الْمَعْنَى لَصٌّ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ، فَلَمْ يُحَسِّنْ شَيْئاً وَلَا أَبْتَدَعَ وَلَا أَخْتَرَعَ.

(٢) جزده: عزاه.

(١) توشيته: تجليه.

قَالَ الْجَاحِظُ: يُقَالُ فِي الْخِصْبِ (أَيِ الرَّبِيعِ): نَفَسَتْ الْعَنْزُ لِأَخِيهَا؛ وَخَلَفَتْ أَرْضاً تَطَالُمُ مِغْزَاهَا (أَيِ تَتَطَالَمُ)؛ قَالَ: لِأَنَّهَا تَنْفُسُ شَعْرَهَا وَتَنْصِبُ رُوقَهَا فِي أَحَدِ شِقَّيْهَا فَتَنْطَحُ أَحْتَهَا، وَإِنَّمَا ذَاكَ مِنَ الْأَشْر، (أَيِ حِينَ سَمِنَتْ وَأَخْصَبَتْ وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا).

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ أَبْنَ الرُّومِيِّ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً إِلَّا أَنَّهُ سَرَقَ الْمَعْنَى وَاللَّفْظَ جَمِيعاً، ثُمَّ جَاءَ لِلْقَافِيَةِ بِهَذِهِ الزِّيَادَةِ الْخَفِيفَةِ الَّتِي قَاسَ فِيهَا الْحَمَامَ عَلَى الطَّيْرِ وَالْمِعْزَى... فَاسْتَكْرَهَ الْحَمَامَ عَلَى أَنْ يَخْتَصِمَ فِي زَمَنِ بَعِيْنِهِ وَهُوَ يَخْتَصِمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ؛ وَإِنَّمَا شَرْطُ الزِّيَادَةِ فِي السَّرْقَةِ الشَّعْرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَى الْمَعْنَى فَتَجْعَلُهُ كَالْمَنْفَرْدِ بِنَفْسِهِ أَوْ كَالْمَخْتَرَعِ.

وَلَعَمْرِي لَوْ كَانَ لِلطَّبِيعَةِ مِائَةُ صُورَةٍ فِي الْخِيَالِ الشَّعْرِيِّ، ثُمَّ قَدَّمَ شَوْقِي لِلنَّاسِ تِسْعاً وَتِسْعِينَ مِنْهَا، لَقَالَ ذَلِكَ النَّاقِذُ أَلْتَمَعْتُ: لَا، إِلَّا الصُّورَةَ الَّتِي لَمْ يَقْدِمْنَهَا...

وَكَانَ شَعْرُ شَوْقِي فِي جِزَالِيهِ وَسِلَاسِيهِ كَأَنَّمَا يَحْمِلُ الْعَصَا لِبَعْضِ الشَّعْرَاءِ يَرُدُّهُمْ بِهَا عَنِ السُّفْسَفَةِ^(١) وَالتَّخْلِيطِ وَالْاضْطِرَابِ فِي الْفَلْظِ وَالْتَرَكِيبِ؛ فَكَثُرَ الْاِخْتِلَالُ فِي الْأَنْشَائِ مِنْ بَعْدِهِ، وَجَاؤُوا بِالْكَلَامِ الْمَخْلُطِ الَّذِي تَبَعْتُ عَلَيْهِ رِخَاوَةَ الطَّبِيعِ وَضَعْفَ السَّلَاقَةِ، فَتَرَاهُ مَكْشُوفاً سَهْلاً وَلَكِنْ سَهْلَتُهُ أَقْبَحُ فِي الذَّوْقِ مِنْ جَفْوَةِ الْأَعْرَابِ عَلَى كَلَامِهِمُ الْوَحْشِيِّ الْمَتْرُوكِ.

وَأَلَّافُهُ أَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الْمَذْهَبِ يَفْرَضُونَ مَذْهَبَهُمْ فَرْضاً عَلَى الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ، كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلنَّاسِ: دَعُوا أَلْفَةً وَخَذُونَا نَحْنُ! وَلَيْسَ فِي أَذْهَانِهِمْ إِلَّا مَا اخْتَلَطَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَقْلِيدِ آدَابِ الْأَوْرُوبِيِّ، فَكُلُّ مِنْهُمْ عَابِدُ الْحَيَاةِ، مَنْدَمِجٌ فِي وَحْدَةِ الْكَوْنِ، يَأْخُذُ الطَّبِيعَةَ مِنْ يَدِ اللَّهِ وَيُجَارِي أَلَلَانِهَايَةَ، وَيَقْنَى فِي أَلَلَدَةِ، وَيُعَانِقُ الْفَضَاءَ، وَيُعْنِي عَلَى قِيَارَتِهِ لِلنَّجْمِ؛ وَبِالْاِخْتِصَارِ: فَكُلُّ مِنْهُمْ مَجْنُونٌ لُغَوِيٌّ...

وَأَنَا فَلَسْتُ أَرَى أَكْثَرَ هَذَا الشَّعْرِ إِلَّا كَالْجَيْفِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْجَيْفَةَ لَا تُعَدُّ كَذَلِكَ فِي الْوُجُودِ الْأَعْظَمِ، بَلْ هِيَ فِيهِ عَمَلٌ تَحْلِيلِيٌّ عِلْمِيٌّ دَقِيقٌ؛ لَقَدْ

(١) السُّفْسَفَةُ: الانْحِطَاطُ.

صدقوا؛ ولكن هل يكذب من يقول: إِنَّ الحَيْفَةَ هِيَ فسادٌ وُنتَنٌ وَقَذَرٌ في أَعْتَبَارِ
وُجُودِنَا الشَّخْصِيَّةِ، وُجُودِ النَّظَرِ وَالشَّمِّ، وَالْأَنْقِبَاضِ وَالْأَنْبِساطِ، وسَلَامَةِ الذُّوقِ
وفسادِ الذُّوقِ!

وكانَ حاسدو شوقي يحسبونَ أَنَّهُ إذا أُزِيحَ من طَرِيقِهِمْ ظَهَرَ تَقْدُمُهُمْ؛ فَلَمَّا
أُزِيحَ مِنَ الطَّرِيقِ ظَهَرَ تَأْخُرُهُمْ... وهذه وحدها من عَجَائِبِهِ - رحمه الله -.

وقد كان هذا الشاعِرُ العَظِيمُ هِبةً ثَلَاثَةً ملوكٍ للشَّعْبِ، فهِبَاتٌ بِنِيعِ مِثْلِهِ إِلَّا
إذا عَمَلَ الشَّعْبُ في خِدْمَةِ الشَّعْرِ وَالْأَدَبِ عَمَلٌ ثَلَاثَةٌ ملوكٍ. وهِيبَاتُ!

الشعرُ العربيُّ في خمسين سنة

إذا أعتبرتَ الشعرَ العربيَّ قبلَ خمسينَ سنةَ خَلَّتْ (أي قبلَ إنشاءِ المقتطفِ) وتأمَلْتَ جِلْيَتَهُ ومَعْرِضَهُ، ونظَرْتَ في منْهَاجِهِ وطَرِيقَتِهِ، وتَصَفَّحْتَ مَعَانِيَهُ وأَغْرَاضَهُ - لم تَرَ مِنْهُ إِلَّا شَبِيهَا بِمَا تَرَاهُ من بَقَايَا الْوَرَقِ الْأَخْضَرِ في شَجَرَةٍ ثَقُلَ عَلَيْهَا الظَّلُّ فهو جَامِدٌ مُسْتَوْحَمٌ، وَحُمٌ في ظِلِّهَا شِعَاعُ الشَّمْسِ فهو بَارِدٌ يَرْتَعِدُ^(١)، فَالْحَيَاةُ فِيهَا ضَعِيفَةٌ مَتَهَالِكَةٌ، لَا هِيَ تَمُوتُ كَالْمَوْتِ وَلَا هِيَ تَحْيَا كَالْحَيَاةِ، وَمَا تَمَّ إِلَّا مَاءٌ نَاشِفٌ وَرَوْنَقٌ عَالِيلٌ وَمَنْظَرٌ مِنَ الشَّجَرَةِ الْوَاهِنَةِ كَأَنَّهُ جِسْمُ الرَّبِيعِ الْمَعْتَلِّ بَدَتْ عُرُوقُهُ وَعِظَامُهُ.

وَكَانَ ذَلِكَ الشَّعْرُ فَاسِدَ السَّبْكِ، مُتَخَلِّفَ الْمَنْزَلَةِ، قَلِيلَ الطَّلَاوَةِ، بَيْنَ مَدِيحٍ قَدْ أُعِيدَ كُلُّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ فِي تَارِيخِ هَذِهِ اللُّغَةِ بِمَا لَا يُخَصِّصُهُ^(٢) إِلَّا أَلْمَلَانِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِإِحْصَاءِ الْكَذِبِ، وَبَيْنَ هَجَاءٍ سَاقِطٍ هُوَ بَعْضُ الْمَوَادِّ الَّتِي تَشْتَعِلُ بِهَا نَارُ اللَّهِ يَوْمَ تَطْلُبُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ، وَبَيْنَ غَزَلٍ مَسْرُوقٍ مِنَ الْقُلُوبِ الَّتِي كَانَتْ تُحِبُّ وَتَعْشَقُ، وَبَيْنَ وَصْفٍ لَا عَيْبَ لِمَوْصُوفِهِ سِوَاهُ، وَشِكْوَى مِنَ الدَّهْرِ يَشْكُو الدَّهْرُ مِنْهَا، وَتَحْزِينٍ وَيَأْسٍ وَنَدَبٍ تَجْعَلُ دِيوَانَ الشَّاعِرِ كَمَا سَمَى أَحَدُ ظُرَفَاءِ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ لِلْهَجْرَةِ دِيوَانَ أَحَدِ أَصْحَابِهِ «بِالْمَلْطَمَةِ».»، وَرِثَاءٍ كَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي جَنَازَاتِ الْمَوْتَى، لَا فِيهَا عِظَةُ السُّكُوتِ وَلَا فَائِدَةُ الْنَطْقِ، وَتَغْمُرُ كُلَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ مِنَ الصَّنَاعَةِ بَيْنَهُ التَّنْعُفُفُ، ضَعِيفَةُ التَّقْلِيدِ، لَا تَرَى الْمَتَأَخَّرَ فِيهَا مَعَ الْمَتَقَدِّمِ إِلَّا قَرِيباً مِمَّا يَكُونُ عَمَلُ أَلِصٍّ فِي اخْتِذِ أَلَمَالٍ، مِنْ عَمَلِ صَاحِبِ أَلَمَالٍ فِي جَمْعِهِ؛ وَالْعَجِيبُ أَنَّكَ إِذَا أَعْتَرَضْتَ الشَّعْرَ مِنَ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ لِلْهَجْرَةِ إِلَى الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ (السَّادِسَ عَشَرَ لِلْمِيلَادِ إِلَى الثَّانِي عَشَرَ) رَأَيْتَهُ نَازِلاً مِنْ عَصْرِ إِلَى عَصْرِ بِتَدْرِيجٍ مِنَ الضَّعِيفِ إِلَى الْأَضْعَفِ، حَتَّى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ بِقُوَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ كَقُوَّةِ الْجَذْبِ، كُلَّمَا هَبَطَتْ شَيْئاً أَسْرَعَتْ

(٢) يحصيه: بعده.

(١) يرتعد: يرتجف.

شيئاً إلى أن تلتصق بالأرض، وبعضهم يُسمي هذه العصور بالعصور المظلمة، ولم يتنبه أحد إلى أن في الأدب ناموساً^(١) كنamos رد الفعل، يخرج أضعف الضعف من أقوى القوة، وأن انحطاط الشعر في تلك العصور - على أنه لم يكن إلا صناعة بدعيّة - إنما سببه القوة الصناعيّة العجيبة التي كانت للشعر منذ القرن السادس إلى العاشر، بعد أن نشأ القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م)؛ وكان رجلاً من الرجال الذين يخلقون حدوداً للحوادث تبدأ منها أزمّة وتنتهي عندها أزمّة؛ ففتن الناس بأدبه وصناعته، وصرف الشعر والكتابة إلى أساليب النكتة البدعيّة؛ وظهرت من بعده عصابته التي يسمونها العصابة الفاضليّة، وما منهم إلا إمام في الأدب وعلومه، فكان في مضر القاضي ابن سناء الملك، وسراج الدين الوراق، وأبو الحسين الجزار، وأضرابهم؛ وكان في الشام عبد العزيز الأنصاري، والأمير مجير الدين بن تميم، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، وأمثالهم؛ فهذه العصابة هي التي تقابل في تاريخ الأدب العربي عصابة البديع الأولى: كمسلم، وأبي تمام، وأبن المعتز، وغيرهم؛ وكلتا الفئتين استبدت بالشعر وصرفته زمناً، وأحدثت فيه انقلاباً تاريخياً متميزاً؛ بيد أن العصابة الفاضليّة بلغت من الصنعة مبلغاً لا مطمع في مثله لأحد من بعدها، حتى كأنهم لم يدعوا كلمة في اللغة يجرى فيها نوع من أنواع البديع إلا جاؤوا بها وصنعوا فيها صنعة؛ وكان بعضهم يأخذ من بعض ويزيد عليه، إلى آخر المائة الثامنة، فلم يتركوا باباً لم ين يأت بعدهم إلا باب السرقّة بأساليبها المعروفة عند علماء الأدب.

ولهذا لا تكاد تجد شعراً عربياً بعد القرن التاسع إلى أول النهضة الحديثة، إلا رأيته ضوراً ممسوخة مما قبله؛ وكل شعراء هذه القرون ليسوا ممن وراءهم إلا كالأظلم من الإنسان: لا وجود له من نفسه، وهو ممسوخ أبداً إلا في الندرة حين يسطع في مرآة صافية؛ ومتى كان الشعراء لا يشنون إلا على فنون البلاغة وصناعاتها، وكانت هذه كلها قد فرغ منها المتقدمون؛ فما تمّ جديد في الأدب والفن إلا ولادة الشعراء وموتهم، وإلا تغير تواريخ السنين. وهذا إذا لم نعد من الأدب تلك الصناعات المستحدثة التي ابتدعها المتأخرون مما سنشير إلى بعضه: كالتاريخ الشعري وغيره.

(١) ناموساً: قانوناً.

إِنَّ الْفَكْرَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَسِيرُ التَّارِيخَ، وَلَا يَقْدَرُ قَدْرًا فِيهِ، وَلَا يَنْقَلِبُ مِنْ رَسْمٍ إِلَى رَسْمٍ؛ لِأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ كَمَا خُلِقَ مُضْلِحًا خُلِقَ مُفْسِدًا وَكَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوجَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْنَى، وَكَمَا تَطَّرَدُ بِهِ سَبِيلٌ تَلْتَوِي بِهِ سَبِيلٌ أُخْرَى؛ وَمَا أَشْبَهَ هَذَا الْفَكْرَ فِي رَوْعِهِ بِقَطَارِ الْحَدِيدِ: يَطِيرُ كَالْعَاصِفَةِ وَيَحْمِلُ كَالْجِبِلِّ وَيُدْهِشُ كَالْمَعْجَزَةِ، وَهُوَ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ لَا شَيْءَ لَوْلَا الْقَضِيَّانِ الْمَمْتَدَّانِ فِي سَبِيلِهِ، يَحْرِفَانِهِ كَيْفَ أَنْحَرَفَا، وَيَسِيرَانِ بِهِ أَيْنَ ارْتَمِيَا، وَيَقِفَانِ بِهِ حَيْثُ أَنْتَهِيَا؛ ثُمَّ هُوَ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَلِبُ لِأَوَّلِهِ أَخْتِلَالٍ يَقَعُ فِيهِمَا.

لَا جَزَمَ كَانَتْ الْعَصُورُ مَرْسُومَةً مَعِينَةً أَلْهَمَتْ ذَاهِبَةً إِلَى الْكَمَالِ أَوْ مُنْخَدِرَةً إِلَى النَقْصِ، حَسَبَ الْغَايَاتِ الْمَحْتَمَةِ الَّتِي يَسِيرُ بِهَا الْفَكْرُ فِي طَرِيقِ الْقَدْرِ الَّذِي يَقْوَدُهُ. فَهَذِهِ عُلُومُ الْبَلَاغَةِ الَّتِي أَحْدَثَتْ فَنَاءً طَرِيفًا فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، وَأَنْشَأَتْ الذُّوقَ الْأَدَبِيَّ نَشْأَتُهُ الرَّابِعَةَ فِي تَارِيخِ هَذِهِ الَّلُغَةِ، بَعْدَ الذُّوقِ الْجَاهِلِيِّ، وَالْمُحَدَّثِ، وَالْمَوْلُودِ - هِيَ بَعِيْزُهَا الَّتِي أَضْعَفَتْ الْأَدَبَ وَأَفْسَدَتْ الذُّوقَ وَأَصَارَتْهُ إِلَى رَأْيَانَا فِي شَعْرِ الْمَتَأَخِّرِينَ، كَأَنَّمَا أَتَقَلَّبْتُ عَلَيْهِمْ عُلُومًا مِنَ الْجَهْلِ، حَتَّى صَارَ أَلْهَمُ الْعَالِي مِنَ الشَّعْرِ كَأَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لَهُ؛ إِذْ لَا رَغْبَةَ فِيهِ، وَلَا حَفْلَ بِهِ؛ لِمُبَايَنَتِهِ لِمَا أَلْفَوْا وَخُلُوهُ مِنَ الْنَكْتَةِ وَالصَّنَاعَةِ؛ وَحَتَّى كَانَ فِي أَهْلِ الْأَدَبِ وَمُدْرِسِيهِ مَنْ لَا يَعْرِفُ دِيْوَانَ الْمُتَنَبِّي!

وَلَا يَصِفُ لَكَ مَعْنَى الشَّعْرِ فِي رَأْيِ أَدْبَاءِ ذَلِكَ الْعَهْدِ كَقَوْلِ الشَّيْخِ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ١٨٧١

مَلَلْتُ مِنَ الْقَرِيضِ وَقَلْتُ يَكْفِي
لِأَمْرِ شَابٍ قُوَّتُهُ بِضَعْفٍ
أَحَاوَلْتُ نَكْتَةً فِي كُلِّ بَيْتٍ
وَذَلِكَ قَدْ تَقَصَّرَ عَنْهُ كَفِّي
أَجَلْتُ الشَّعْرَ مَا فِي الْبَيْتِ مِنْهُ
غَرَابَةُ نَكْتَةٍ أَوْ نَوْعُ لُطْفٍ

يُرِيدُ النُّكْتَةُ الْبَلَاغِيَّةَ وَأَنْوَاعَ الْبَدِيعِ، وَذَلِكَ مَا قَصَّرَتْ عَنْهُ كَفُّهُ وَكَفُّ غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ شَيْءٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ، حَتَّى لَا يَأْتِيَ الْمَتَأَخِّرُ بِمِثَالٍ فِيهِ إِلَّا وَجَدَتْهُ بِعَيْنِهِ لِمَنْ تَقَدَّمُوهُ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ يَنْظُرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَمَا يَأْتِي اخْتِلَافُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْجَذْقِ^(١) فِي إِخْفَاءِ السَّرْقَةِ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ، وَالْإِلْمَامِ وَالْمَلَاخِظَةِ وَالتَّعْرِيضِ وَالتَّنَصْرِيحِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَعْرِفُهُ أُمَّةُ الصَّنَاعَةِ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَيْهِ بِأَقْوَى أَسْبَابِهِ إِلَّا مِنْ رِزْقِ الْقُوَّةِ عَلَى التَّوَلِيدِ وَالْإِخْتِرَاعِ.

(١) الحذق: المهارة.

إذا عرفت ذلك السر في سقوط الشعر واضطرابه وسفسفته^(١)، لم تر غريباً ما هو غريب في نفسه، من أن بدء النهضة الشعرية الحديثة لم يكن العلم الذي يصحح الرأي، ولا الأطلاع الذي يؤتي الفكر، ولا الحضارة التي تهذب الشعور، ولا نظام الحكم الذي يحدث الأخلاق؛ وإنما كان ضرباً من الجهل وقف حذاء منيعاً بين زمن فنون البلاغة وبين زماننا؛ وكان كالمساحل لذلك الموج المتدفع الذي يتضرب على مذئمانمائة سنة من القرن السادس إلى الرابع عشر للهجرة؛ ولله أسرار عجيبة في تقليب الأمور وخلق الأحداث ودفع الحياة الفكرية من نمط إلى نمط، وإخراج العقل المبتدع من هيئة إلى هيئة، وجعل بعض النفوس كالينابيع للتيار الإنساني في عصر واحد أو عصور متعاقبة، وإقامة بعض الأشخاص حدوداً على الأزمنة والتواريخ؛ فكان الذي أحدث الانقلاب الرابع في تاريخ الشعر العربي، وأنشأ الذوق نشأته الخامسة، هو الشاعر الفحل محمود باشا البارودي، الذي لم يكن يعرف شيئاً البتة من علوم العربية أو فنون البلاغة؛ وإنما سمّت به الأهمية لأنه حادثه مرسله للقلب والتغيير، فأبعده الله من تلك العلوم، وأخرجته لنا من دواوين العرب، كما نشأ مثل أبي المظفر والجاحظ من فصحاء الأعراب، ويسر له من أسباب ذلك ما لم يتفق لأحد غيره مما لا محل لبسطه هنا، ولا تكاد تجد شعر أديب متأخر يستقيم له أن يذكر في شعر كل عصر من لدن زماننا إلى صدر الإسلام ثم لا تنحط مرتبته - غير كلام البارودي هذا؛ وهو وحده الذي يقابل القاضي الفاضل في أدوار التاريخ الأدبي، على بعد ما بينهما؛ لأن شعره هو الذي نسخ آية الصناعة، ودار في السنة الرواة، وكان المثل المحتذى في القوة والجزالة ودقة التصوير وتصحيح اللغة؛ ولم يشأ الله أن يسبقه إلى ذلك أحد؛ لأن النهضة الاجتماعية في هذا الشرق العربي كانت في علم الله مرهونة بأوقاتها وأسبابها؛ ولولا ذلك لسبقه شاعر القرن الحادي عشر الأمير منجك المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م)؛ فقد اتفقت لهذا الأمير نشأة كنشأة البارودي، فكان كثير الحفظ من دواوين العصور الأولى، وكان يقلد أبا فراس الحمداني ويحتذي على مثاله؛ ولكن عصره كان في العصور الهالكة، فخرج الشاعر ضعيفاً كما يخرج كل شيء في غير وقته ولغير تمامه وبغير وسائله الطبيعية.

(١) سفسفة: انحطاط.

ونشأت العصابة الباروديَّة وفيها إسماعيلُ صبري وشوقي وحافظ ومطران وغيرهم، وأدركوا ما لم يُدرِكهُ الباروديُّ وجاؤوا بما لم يَجِءْ به، وأتصلَ الشعرُ بعضُه ببعض، وسارت به الصحف، وتناقلتهُ الأفواه، وأنسى ذكرُ البلاغةِ وفنونها بالنشأة المَدرسيَّة الحديثة التي جعلت من تركِ البلاغةِ بلاغة؛ لِأنَّها صادقت أوائلَ الانقلابِ ليسَ غير؛ وبذلك بطلَ في مَضَرَّ عصرِ أبي النضرِ والليثي والساعاتي والنديم وطبقتهم، وفي الشَّامِ عصرُ اليازجيِّ والكستي والأنسي والأحذب وأضرابهم، وفي العراق عهدُ الفاروقيِّ والموصليِّ والتميميِّ وسواهم؛ وأستقلَّ الشعرُ عربيّاً وخرَجَ كما يخرجُ الفُكرُ المَختَرُ ماضياً في سبيلِ غيرِ محدودة.

لا ريبَ في أنَّ الطُرقَ التي تُتَّبَعُ في تربيةِ الأُمَّةِ وتكوينِ رُوحها العالَميَّة لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لها أثرٌ بَيِّنٌ في شعرِ شعرائها؛ فَإِنَّمَا الشعرُ فُكْرٌ يَنْبُضُ وعاطفةٌ تَخْتَلِجُ، وما أرى الشاعِرَ الحَقَّ من أُمَّةٍ إِلَّا كَالزَّهْرَةِ الصَّغِيرَةِ من شَجَرَتِهَا: إِنْ لَمْ تَكُنْ خُلَاصَةً ما فيها مِنَ القُوَّةِ، فهي خُلَاصَةٌ ما في الشَّجَرِ من معنى الجمالِ ولَوْنِهِ وملمِيسِهِ، ولا تَعْدُمُ مَعَ هذه الصِّفَةِ أَنْ تَكُونَ وحدها الكوكبُ الساطِعُ في هذا الأفقِ الأخضرِ كُلِّهِ. ولقد أَطْرَدَتِ النَهْضَةُ منذُ خَمْسِينَ سَنَةً أو حَوْلَها، في الأدبِ والعِلْمِ؛ وفي الفِكرِ والفنِّ والصَّنَاعَةِ؛ وَاسْتَوَى لَنَا من ذلك ما لَمْ يَتَّفِقْ لِهَذِهِ الأُمَّةِ في عَصْرِ مِنْ عَصُورِها، حتَّى بَلَّغْنَا من ذلك أَنَّ صِرْنا كَأَنَّمَا فَتَحْنَا أَرْضاً من أوربا وتغلَّبْنَا عليها، أو أَنشَأْنَا أوربا عربيَّةً وما نزالُ نَعْمُرُها وننقلُ إليها العلومَ والفنونَ والآدابَ، ونستخرجُ لها الأُمثلةَ والأساليبَ؛ غَيْرَ أَنَّ الشعرَ العربيَّ مع هذا كُلِّهِ لَمْ يَوْفَ قِسْطَهُ ولم يبلُغْ مَبْلَغَهُ في مُجَاراةِ هذه النَهْضَةِ قُوَّةً أَبْتِكَارَ وسلامةً أَخْتِراعَ وحُسْنَ تنوُّعٍ، لسببين: الأولُ أَنَّهُ لا يزالُ كما كانَ منذُ فَسَدَتِ اللُّغَةُ العربيَّةُ: شعرٌ قِئَّةٌ لا شعرٌ أُمَّةٌ، فهو يُوَضِّعُ لِلْخَاصَّةِ لا لِلشَّعْبِ. ويدورُ مَعَ الأغراضِ والحاجاتِ لا مَعَ الطُّبائِعِ والآذواقِ؛ وذلك لو تَأَمَّلْتَ، هو من بعضِ الأسرارِ في سَمَوْ هذا الشعرِ وقُوَّةِ إِيحْكامِهِ وإبداعِ تَنسيقِهِ وجمالِ تَوْشِيحِهِ منذُ الدَّولَةِ العباسيَّةِ إلى القرنِ الخامسِ؛ ثُمَّ أَنَحْطاطِهِ بعدَ ذلك وتَدَنِّيهِ شيئاً فشيئاً حتَّى بَلَغَ الدَّرَكَ الأسفلَ في العصورِ المَناخِرَةِ؛ إِذْ كَانَتْ أَكْفَنَةُ التي يُوَضِّعُ لها ويصِفُ أهواءَها وأغراضَها وتَقَبَّلُهُ وتُثِيبُ^(١) عليه وتُحَسِّنُ وزْنَهُ ونقَدَهُ، هي في الناحيتينِ كما ترى من طرفي المَنظارِ الَّذي يُقَرِّبُ

(١) تُثِيبُ: تكافئ.

البعيد، فهي بالنظر في أوله واضحة جلية مُترامية إلى الجهات، وبالنظر في آخره ضئيلة منسوخة لا تكاد تُعرف. وما أفضى العجب من غفلة بعض الكتّاب في هذا الزمن إذ يُناهضون العربيّة ويَزرون على الفصاحة ويعملون على أنكماش سواها وتقليل أهلها. وما يدرون أنهم بذلك يُسقطون الشعر قبل الكتابة على خطٍ أو عنيد وقلمًا تجد واحدًا من هؤلاء يُحسّن معالجة الشعر، فإن أصبت له شعراً وجدته لا غناء فيه أو في أكثره، وأين وضعت يدك منه لم تُخطيء أن تقع على مثلٍ مما يُمثل به لعيب من عيوب البلاغة.

وهذه النهضة التي نحن في صدد الكلام عنها أوسع مدى وأوفر أسباباً من تلك التي كانت في الدولة العباسية، بما دخلها من أدب كل أمة، وما اتصل بها من أساليب الفكر ولكن أين رجال الفصاحة المتمكنون منها، المتعصبون لها العاملون على بثها في الألسنة، مع أن عصرهم أوسع من عصر الرواة، بكثرة ما أخرجت المطابع من أمهات الكتب والدواوين، حتى أغنت كل مطبعة أدبية عن رواية من أئمة الرواة.

والسبب الثاني الذي من أجله لا يزال الشعر متخلفاً عن منزلته الواجبة له - سقوط فن النقد الأدبي في هذه النهضة؛ فإن من أقوى الأسباب التي سمّت بالشعر فيما بعد القرن الثاني وجعلت أهله يُبالغون في تجويده^(١) وتهذيب، كثرة النقد والحفاظ. وتنبعهم على الشعراء، واعتبار أقوالهم، وتدوين الكتب في تقديمهم، كالأذي كان في دروس العلماء وحلقات الرواية ومجالس الأدب، وكالأذي صنفه مهمل بن يموت في نقد أبي نواس وأحمد بن طاهر، وابن عمار في أبي تمام، وبشر بن تميم في البحري، والآمذي في الموازنة، والحاتمي في رسالته، والجرجاني في الوساطة، وما لا يحصى من مثل هذه الكتب والرسائل، وأنت من النقد في هذه النهضة بين اثنين: صديق هو الصديق أو عدو هو العدو... فإن أبتغيت لهما ثالثاً فكانت لا تعادل وسائل النقد فيه فلا خير في كلامه، أما الناقد الذي استعرض علم العربية وآدابها، وكان شاعراً كاتباً قوي العارضة^(٢)، دقيق الحس ثاقب الذهن، مستوي الرأي بصيراً بمذاهب الأدب متمكناً من فلسفة النقد مبرزاً في ذلك كله - فهذا الخيال يُذكرني كلمة قلتها يوماً للبارودي إذ قلت له: إن

(١) تجويده: تحسينه وإتقانه.

(٢) قوي العارضة: متمكن من ملكته الشعرية الفنية وحجته.

الشاعر لا يكون لسانَ زمنه حتى يُوجَدَ معه الناقدُ الَّذي هو عقلُ زمنه؛ فقال: وَمَنْ
 ناقدُ الشعرِ في رأيك؟ قُلْتُ: الكاتبُ وهو شاعر، والأديبُ وهو فيلسوف،
 والمُصلِحُ وهو موفق؛ فكأنَّما هوَّلْتُ عليه حتى قال - رحمه الله - «فين دا كلّه؟»
 قُلْتُ: فلعلّه لا يَنشِئُ لنا هذا العقلَ الملتهبَ إلَّا العصرُ الَّذي يُوجَدُ لنا أسطولا
 كأسطول إنجلترا.



وعلى ما نزلَ بالشعرِ العُصريِّ من هذين السَّبين فقد استقلتُ طريقته وظهرَ
 فيه أثرُ التحولِ العِلْمِيِّ وَالْاِتِّقَالِ الفكري، وعدَلَّ به أهلُه إلى صُورِ الحياة بعد أن
 كان في أكثرِهِ صُوراً مِنَ اللغة، وأضافوا به مادةً حسنةً إلى مجموعةِ الأفكارِ العربيَّةِ،
 ونوَّعوا منه أنواعاً بعد أن كان كَالشَّيْءِ الواحدِ، واتَّسَعَتْ فيه دائرةُ الخيالِ بما نقلوا
 إليه مِنَ المعاني المترجمة من لغاتٍ مختلفة، وهو من هذه الناحية أوسعُ من شعرِ
 كلِّ عصرٍ في تاريخِ هذه اللغة: إذ كان الأولون إنما يأخذون مِنَ اليونانيَّةِ وَالْفارسيَّةِ،
 ثُمَّ أَخَذَ الْمُتَأَخَّرُونَ قليلاً قليلاً مِنَ التُّركيَّةِ؛ أمَّا في العهدِ الأخيرِ فيكادُ العقلُ
 البشريُّ كُلُّهُ يكونُ مادةَ الشاعرِ العربيِّ، لولا ضعفُ أكثرِ المُحدثينَ من النشءِ
 الجديدِ في البيانِ وأساليبه، ويُعَدُّهُمْ من ذوقِ اللغةِ واعتِباسِ^(١) مرايها عليهم،
 حتى حَسِبُوا أنَّ الشعرَ معنًى وفكر، وأنَّ كلَّ كلامٍ أدَّى المعنى فهو كلام، ولا
 عليهم مِنَ اللغةِ وصناعاتها، والبيانِ وحقيقته؛ وَحَتَّى صِرْنَا - واللَّهِ - من بعضِ
 الفُشاةِ وَالرَّكَاكَةِ وَالْاِخْتِلَالِ في شَرٍّ من توَعَّرِ نظمِ الجاهليَّةِ وجفاءِ الفاظِهِ وكِزازَةِ
 معانيهِ؛ وهلْ ثُمَّ فرقٌ بين أن تنفِرَ النفسُ مِنَ الشعرِ لِأَنَّهُ وعزُّ الالفاظِ عسيرُ
 الاستخراجِ شديدُ التعسُّفِ، وبين أن تمجُّهُ لِأَنَّهُ ساقطُ اللفظِ، متسَوِّلُ المعنى،
 مضطربُ السَّياقِ؟ ثُمَّ تَراهم يُنجزون الشعرَ كُلَّهُ على اختلافِ أغراضِهِ نمطاً واحداً
 من تسهيلِ اللفظِ ونزوله، حتى كأنَّ هذه اللغةَ لا تنوُّعُ في ألفاظِها وأجْراسِ
 الفاظِها^(٢)، مع أنَّ هذا التَّروُّعَ من أحسنِ محاسنها وأخصَّ خصائصها دونَ غيرها من
 اللُّغاتِ، كما أنَّ كلَّ تنوُّعٍ هو من أبداعِ أسبابِ الجمالِ والقوَّةِ في كلِّ فنٍّ؛ ولا
 يدري أصحابنا أنَّ كلَّ ذلكَ من عملِهِمْ عبثٌ في عبثٍ^(٣) إذا هم لم يُعطوا الشعرَ
 حقَّهُ من صناعةِ اللغة؛ وهذا شاعرُ الفُرسِ الشهيرُ مصلِحُ الدينِ السَّعديُّ الشيرازيُّ

(١) اعتِباس: صعوبة.

(٢) أجْراسُ الفاظِها: موسيقاها.

(٣) عبث: لعب، لا طائل منه.

إمام من أئمة البلاغة في قومه لا يدفع مكانه وشعره مثل من أسمى الأمثلة في جمال المنطق الروحي، وليس في الناس إلا من يسلم له هذا المحل من النبوغ، وهو مع ذلك حين نظم أشعر لم تنفعه نافعة من حكمة أو خيال أو فكر، وذهب في التعمق كل مذهب، وحمل على كلامه من العيوب ما لم يسلم معه إلا صحة الوزن، كقوله في وصف نكية بغداد وتخريبها:

فَقَدْ تُكِلْتُ أُمَّ الْقُرَى^(١) وَلَكُغْبَةِ مَدَامُ فِي الْمِيزَابِ^(٢) تُشَكَّبُ فِي الْحَجَرِ
عَلَى جُدُرِ الْمُسْتَنْصِرَةِ نَدْبَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ ذَوِي الْحَجَرِ
نَوَائِبُ^(٣) ذَهَرٍ لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَهَا وَلَمْ أَرِ عَدَوَانَ السَّفِيهِ عَلَى الْخَبَرِ
مَحَابِرُ تَبْكِي بَعْدَهُمْ بِسَوَادِهَا وَبَعْضُ قُلُوبِ النَّاسِ تَأَلَّفُ بِالْغَدْرِ
لَحَى اللَّهَ^(٤) مَنْ تُسَدِّي^(٥) إِلَيْهِ بِنِغْمَةٍ وَعِنْدَ هُجُومِ الْيَأْسِ أَخْلُكُ مِنْ حَبْرِ

فانظر أي شعر هذا في الركاكة والهديان والسُخْف، وفي خمود الفكر وضعف الروح وذهاب الروق^(٦)، وتأمل كيف هوى به السعدي من مكانته التي بؤاه إياها أدبه العالي، وكيف سقط إلى حيث ترى، مع أنه في محراب الفكر إمام وراءه صفوف من عصور البلاغة.

ومن ههنا نشأ في أيامنا ما يُسمونه «الشعر المنثور»، وهي تسمية تدل على جهل واضعها ومن يرضاها لنفسه؛ فليس يضيّق أنثر بالمعاني الشعرية، ولا هو قد خلا منها في تاريخ الأدب؛ ولكن سرّ هذه التسمية أن الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لأوهي علّة ولايسر سبب، ولا يوفق إلى سبك المعاني فيها إلا من أمده الله بأصح طبع وأسلم ذوق وأفصح بيان؛ فمن أجل ذلك لا يحتمل شيئاً من سخف اللفظ أو فساد العبارة أو ضعف التأليف، ولا تستوي فيه أسمى المعاني مع شيء من هذه العلل وأشباهها، وتراه يلقي بمثل (السعدي) من ألفلك الأعلى إلى الحضيض، لا يقيم له وزناً ولا يرمي له محلاً ولا يقبل فيه عذراً ولا رخصة؛ غير أنثر يحتمل كل أسلوب، وما من صورة فيه إلا ودونها صورة إلى أن تنتهي إلى العامي الساقط والسوقي البارد؛ ومن شأنه أن ينسط ويتقبض على ما

(١) أم القرى: مكة.

(٢) الميزاب، جمعه ميازب، وهو أنبوب تجري فيه المياه.

(٣) نواب: مصائب.

(٤) تُسَدِّي: تقدم.

(٥) تُسَدِّي: تقدم.

(٦) الروق: الطلاوة.

شئت منه، وما يتفق فيه من الحسن الشعري فإنما هو كَالَّذِي يَتَّفِقُ فِي صَوْتِ
الْمَطَرِ حِينَ يَتَكَلَّمُ لَا حِينَ يُغْنِي: فَمَنْ قَالَ: «الشعرُ المثور» فأعلم أن معناه عجزُ
الكتاب عن الشعر من ناحية وأدعأؤه من ناحية أخرى.

وَالَّذِي أَرَأَى جَدِيداً فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِمَّا أَبْدَعَتْهُ هَذِهِ الْهَضَةُ أَشْيَاءُ:

أولاً: هذا النوع القصصي الذي توضع فيه القصائد الطوال، فإن الآداب
العربية خالية منه؛ وكان العرب ومن بعدهم إذا ذكروا القصة الثواب بها اقتضاباً^(١)
وجاءوا بها في جملة السياقي على أنها مثل مضرِب أو حكمة مرسلَة أو برهان قائم
أو احتجاج أو تعليل وما جرى هذا المجرى ممّا لا ترد فيه القصة لذاتها ولا
لتفصيل حوادثها، وهو كثير في شعر الجاهليين والإسلاميين، والجيد منه قليل حتى
في شعر الفحول؛ فإن طبيعة الشعر العربي تأباه؛ والذين جاءوا به من العصرين لا
يجدون منه إلا قطعاً تعرض في القصيدة وأبياتاً تتفق في بعض معانيها وأغراضها
ممّا يجري على أصله في سائر الشعر طال أو قصر؛ والسبب في ذلك أن القصة
إنما يتم تمامها بالتبسط في سردها وسياقة حوادثها وتسمية أشخاصها وذكر
أوصافهم وحكاية أفعالهم وما يداخل ذلك أو يتصل به، وإنما بُني الشعر العربي في
أوزانه وقوافيه على التأثير لا على السرد، وعلى الشعور لا على الحكاية؛ ولا
يريدون منه حديث اللسان ولكن حديث النفس؛ فهو في الحقيقة عندهم صناعة
روحية يصنعون بها مقادير من الطرب والاهتزاز والفرح والحزن والغضب والحمية
والفخر والاستطالة ونحوها من المعاني التي هي بسبب من أسباب الانفعال
والنزعة؛ فلا جرم كان سبيلهم إلى ذلك هو التحديد لا الإطلاق، وضبط المقادير
لا الإسراف؛ إذ كان من شأن هذه الأمور في طبيعة النفس أن ما زاد منها عن
مقداره تحول وأنقلب في تأثيره، وذلك هو السبب أيضاً في أن هذا الشعر ما لم
يكن قائماً على اختيار اللفظ وصنعة العبارة وتصفياتها وتهذيبها واختيار الوزن
للمعنى وإدارة الفكر على ما يلفت من ضروب المجاز والاستعارة ونحوها - سقط
ورك بمقدار ما ينقصه من ذلك؛ وليس الشأن في إطالة القصيد؛ فمن الشعراء من
نظم رويّاً واحداً في أربعة آلاف بيت، ومنهم من نظم تفسير القرآن كله؛ ولكن

(١) اقتضاباً: اختصاراً.

عيبٌ مثل هذا الشعرِ في العربيَّةِ أنَّه شعرٌ . وما أحمَلُ ابنَ الرومي على جلالَةِ محلِّهِ إلاَّ طولُ قصائِدِهِ وسياقُهُ الكَلَامِ فيها مع ذلك على ما يُشَبِّهُ أسلوبَ الحِكَايَةِ وخروجُها مخرجَ المَقَالَةِ يتحدَّثُ بها، فلم تحيَ لَهُ إلاَّ مقطعاتٌ وأبياتٌ ومات سائرُ شعرِهِ وهو حيٌّ وميتٌ على السواء، حتى قالَ فيه صاحبُ الوساطَةِ: «ونحن نستقرئُ القصيدةَ من شعرِهِ وهي تُناهِزُ المائةَ أو تُربي أو تضعفُ، فلا نعثرُ فيها إلاَّ بالبيتِ الَّذي يروقُ أو البيتينِ، ثُمَّ قد تنسلخُ قصائدُ منه وهي واقفةٌ تحتَ ظلِّها جاريةٌ تحتَ رَسْلِها لا يحصلُ منها السامعُ إلاَّ على عددٍ القوافي...».

وَالْعَجِيبُ أَنَّ بَعْضَ الْكُتَّابِ فِي عَصْرِنَا مَن لا تحقيقَ لَهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ، يَعْدُونَ أَحْسَنَ مُحَاسِنِ ابْنِ الرُّومِيِّ مَا هُوَ أَقْبَحُ عِيوبِهِ، وَقَاتِلُ أَلْفِهِ صِنَاعَةُ الْكِتَابَةِ، فَكَمَا أَنَّهَا لِمَلَأِ الْفَرَاغَ هِيَ كَذَلِكَ لِإِفْرَاقِ الْمَلَأِ . .

ثَانِيًا: صِنَاعَةُ بَعْضِ الشَّعْرِ عَلَى أَصْلِ الْفِكْرِ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ أَوْ الْفَرَنْسِيَّةِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ لُغَاتِ الْأُمَمِ، فَيَخْرُجُ الشَّعْرُ عَرَبِيًّا وَأَسْلُوبُهُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى أَجْنَبِيًّا؛ وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي هَذَا النُّوعُ مِنْ أَمْرِيكَا، وَأَنَا أَعْجَبُ بِكَثِيرٍ مِنْهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْغَرَابَةِ وَالْحُسْنِ .

وَمَا زَالَتْ أَجْنَاسُ الْأُمَمِ يَضِيقُ بَعْضُهَا بِأَشْيَاءَ وَيَتَّسِعُ بَعْضُهَا بِأَشْيَاءَ فَلَسْنَا مُقْبِدِينَ بِالْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ وَلَا بِطَرِيقَتِهِ، وَعَلَيْنَا أَنْ نُضَيِّفَ إِلَى مُحَاسِنِ لُغَتِنَا مُحَاسِنَ أَلْفَاظِ الْآخَرَى؛ وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ نُفْسِدَهَا أَوْ نُحِيفَ عَلَيْهَا أَوْ نَبِيعَهَا بِيَعِ الْوُكُوسِ^(١)؛ وَمَتَى كَانَ هَذَا النُّوعُ مِنَ الشَّعْرِ رَصِينًا مُحْكَمًا جَيِّدَ السَّبكِ رَشِيقَ الْمَعْرُضِ، كَانَ فِي الْنَهَايَةِ مِنَ الرِّفْقَةِ وَالْإِبْدَاعِ؛ وَلَمْ يَأْتِ التَّجْدِيدُ فِي هَذِهِ أَلْفَاظِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ أَلْنَا حِيَةٍ، كَالَّذِي تَرَاهُ فِيمَا أَخَذَ عَبْدُ الْحَمِيدِ وَابْنُ الْمُقَفَّعِ مِنْ نَمَطِ الْأَدَاءِ فِي أَلْفَاظِ الْفَارْسِيَّةِ .

ثَالِثًا: الْأَنْصِرَافُ عَنْ إِفْسَادِ الشَّعْرِ بِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَالرِّثَاءِ، وَذَلِكَ بِتَأْثِيرِ الْحَرِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ؛ وَالْمَدْحُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَابًا مِنَ الْتَارِيخِ الْأَصْحَحِ لَمْ يَدُلَّ عَلَى سُمُو نَفْسِ الْمَمْدُوحِ، بَلْ عَلَى سَقُوطِ نَفْسِ الْمَادِحِ؛ وَتَرَاهُ مَذْحًا حِينَ يُتْلَى عَلَى سَامِعِهِ، وَلَكِنَّهُ دُمٌّ حِينَ يُغَزَى إِلَى قَائِلِهِ! . وَمَا أَتَيْتَ لُغَةً مِنْ لُغَاتِ الدُّنْيَا بِالْمَدِيحِ وَالرِّثَاءِ وَالْهَجَاءِ مَا أَتَيْتَ هَذِهِ الْعَرَبِيَّةَ؛ وَلِذَلِكَ أَسَابُ لَا مَحَلَّ لِتَفْصِيلِهَا .

(١) الرُّوسُ: القَصَانِ وَالْتَفْصِيرُ .

رابعاً: الإكثارُ مِنَ الوصفِ وَالإبداعِ في بعضِ مناحيه وَالتفتُّنِ في بعضِ أغراضِهِ الْحديثة: وذلك من أسمى ضروبِ الشعرِ، لَا تَتَّقُ الإِجَادَةُ فِيهِ وَالْإِكْثَارُ مِنْهُ إِلَّا إِذَا كَانَ الشَّعْرُ حَيًّا، وَكَانَتْ نَزْعُهُ أَلْعَصِرَ إِلَيْهِ قَوِيَّةً، وَكَانَ النَّظَرُ فِيهِ صَحِيحاً؛ وَلَمَّا وَصَفَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْكَرْدِيُّ (من شعراءِ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ) أَلْسَفِينَ وَأَسْتَهْلُ بهذا الوصفِ مدحَ الْوَزِيرِ رَاغِبٍ بَاشَا، عَدُوا ذَلِكَ حَادِثَةً مِنْ حَوَادِثِ الْأَدَبِ فِي عَصْرِهِ، فَتأمل!

خامساً: إهمالُ الصِّنَاعَاتِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي كَانَ يُبْنَى عَلَيْهَا الشعرُ، فَيُنْظَمُ أَلْبَيْتُ لِيَكُونَ جَنَاساً أَوْ طِبَاقاً أَوْ اسْتِخْدَاماً أَوْ توريةً الْخ، أَوْ ضَرْباً آخَرَ مِنْ صِنَاعَةِ الْعَدِيدِ وَالْجِسَابِ، كَالتَّارِيخِ الشَّعْرِيِّ بِأَنْوَاعِهِ؛ أَوْ صِنَاعَةِ الْحَرْفِ، كَالْمَقْلُوبِ وَالْمَهْمَلِ وَغَيْرِهِمَا؛ أَوْ صِنَاعَةِ الْفِكْرِ، كَاللِّغْزِ وَالْمَعْمَى؛ أَوْ صِنَاعَةِ الْوَضْعِ كَالْتَشْجِيرِ وَالنَّظْرِيزِ، إِلَى مَا يَلْتَحِقُ بِهَذَا أَلْبَابِ الَّذِي ذَهَبَ أَهْلُهُ فَلَا يَتَيَسَّرُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعِيدِهِمْ أَنْ يُجَارِيَهُمْ فِيهِ، وَكَانَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ عَجَائِبُ اسْتَقْصَيْنَاهَا بِالتَّدْوِينِ فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ (تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ)؛ يَبْدُو أَنَّ إهمالَ صِنَاعَةِ الْبَدِيعِ شَيْءٌ وَإهمالُ فُنِّ الْبَدِيعِ نَفْسُهُ شَيْءٌ آخَرُ؛ وَمِنْ هُنَا جَاءَ مَا نَرَاهُ فِي بَعْضِ الشَّعْرِ الْحَدِيثِ «وَالشَّعْرُ الْمُنْثَوْرُ» مِنْ الْأَغْرَاقِ السَّخِيفِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ عَلَى أَصْلٍ، مِنْ أَلْتَعْدِي فِي ضُرُوبِ الْاسْتِعَارَةِ، وَالْعَبْدُ فِي الْمَجَازِ، وَالْإِحَالَةِ فِي الْوَضْعِ، وَنَحْوِهَا مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْجَهْلِ بِطَبِيعَةِ الْبَلَاغَةِ، وَمِمَّا لَا نَعُدُّهُ إِلَّا ضَرْباً مِنَ الْفَسَادِ يَلْتَحِقُ بِمَا كَانَ فِي الْعُصُورِ الْأَمَاضِيَةِ وَإِنْ كَانَ عَلَى الْأَضْدَ مِنْهُ.

سادساً: انْظُمُ فِي الشُّنُونِ الْوُطَنِيَّةِ وَالْحَوَادِثِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ، مِمَّا يَجْعَلُ الشَّعْرَ مُحِيطاً بِرُوحِ الْعَصْرِ وَفِكْرِهِ وَخِيَالِهِ، وَهُوَ بَابٌ لَا يَنْهَضُ بِهِ إِلَّا قَلَاتِلٌ، وَلَا يَزَالُ ضَعِيفاً لَمْ يَسْتَحْكَمْ^(١)؛ وَقَدْ قَالُوا: إِنَّ لِلْقَاضِي الْأَفَاضِلِ أَثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ فِي مَدْحِ الْوُطَنِ وَالْحَنِينِ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ لَا أَحْسَبُ أَنَّ فِيهَا مِائَةً مِنْ نَحْوِ مَا يُنْظَمُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِمَّا أَذَى بِالشَّعْرِ إِلَى أَنْ يَدْخَلَ فِي بَابِ السِّيَاسَةِ وَيُعَدُّ مِنْ وَسَائِلِهَا، وَفِي طَرَفِ الْأَثَرِيَّةِ وَيُعَدُّ مِنْ أَسْبَابِهَا.

سابعاً: اسْتِخْرَاجُ بَعْضِ أَوْزَانِ جَدِيدَةٍ مِنَ الْفَارْسِيَّةِ وَالتَّرْكِيَّةِ، وَهُوَ قَلِيلٌ، جَاءَ بِهِ شَرْقِيٌّ فِي قَصِيدَتَيْنِ وَلَمْ يَتَابَعُهُ أَحَدٌ، لِإِفْرَاطِ ذَلِكَ الْوِزْنِ فِي الْخِفَّةِ حَتَّى رَجَعَ إِلَى

(١) لم يستحكم: لم يقن ويقو.

الشفل . . . ثُمَّ نَظَمَ بَعْضَ الشَّعْرِ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِفَةٍ قَرِيبَةٍ اَلْتَّنَاسِقِ عَلَى قَاعِدَةٍ اَلْمَوْشَحِ، وَلَكِنَّهُ شَعَرَ لَا تَوْشِيحَ، كَمَا يَنْظُمُ بَعْضُ شُعَرَاءِ أَمْرِيكََا وَسُورِيَا؛ وَلَمْ يَحْدُثْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي اَلْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّ اَلْقَصِيدَةَ كَانَتْ تُنْظَمُ مِنْ بَحْرِ وَاحِدٍ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهُ وَزْنٌ آخَرُ: وَلَا نَعْرِفُ فِي تَارِيخِ اَلْأَدَبِ قَصِيدَةً تَتَأَلَّفُ مِنْ وَزْنَيْنِ إِلَّا اَلَّذِي، قَالُوا إِنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَبْدِ اَلصَّمَدِ اَلْمُتَوَفَى سَنَةَ ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) قَدْ اخْتَرَعَهُ وَنَظَمَ فِيهِ أَبْيَاتُهُ اَلَّتِي مَطَّلَعُهَا:

فَاحَ عَزَفُ اَلصَّبَا وَصَاحَ اَلدِيكَ وَأَنْشَى اَلْبَانُ يَشْتَكِي اَلتَّحْرِيكَ
قُمْ بِنَا نَجْتَلِي مَشْعَشَعَةً تَاهَ مِنْ وَضْفِهِ بِهَا اَلنِّسْيَكُ^(١)

وعارضها ولده الإمام الشهير بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول بأبيات قالوا: إنها سارت في عصره مسير المثل، ونسج عليها شعراء ذلك العصر، كالتابلسي وغيره، ومطلعها:

يَا نَدِيمِي بِمُهْجَتِي أَفْدِيكَ قُمْ وَهَاتِ اَلْكُثُوسَ مِنْ هَاتِيكَ
خَمْرَةٌ إِنْ ضَلَلْتُ سَاحَتَهَا فَمَنَا^(٢) نَوْرَ كَاسِهَا يَهْدِيكَ

على أن هذا الوزن بشطريه مستخرج من الخفيف، فليس بأختراع كما زعموا، وإنما هو ابتداء في التأليف الشعري؛ وقد اجتزأنا بما مرّت الإشارة إليه، فإنه كل ما تغيّر به الرسم في هذه الصناعة؛ وتركنا الأمثلة تفادياً من الإطالة.

وبعد فلا ريب أن النفس البشرية في حاجة أبداً مع دينها الروحي إلى دين إنساني يقوم على الشعور والرغبة والتأثير، فيفسر لها حقائق الحياة، ويكون وسيلة من وسائل تغييرها؛ ليجعلها الطيف ممّا هي في اللطف، وأرق ممّا تكون في الرقة، وأبدع ممّا تتفق في الإبداع؛ ذلك الذي يصل بظهوره وإبهامه بين الواضح والغامض، والخالد والفاني؛ ذلك الذي لا يجمّل الجمال إلا به، ولا تسكن النفس إلا إليه؛ ذلك هو الشعر!

صروف اللغوي

كَانَ شَيْخُنَا هَذَا رَجُلًا حَصِيْفًا^(٣) جَيِّدَ اَلْمُتَزَعَةِ حَسَنَ اَلرَأْيِ، مُمَكِّنًا لَهُ فِيمَا كَانَ

(١) النسيك: العابد.

(٢) منا: ضوء.

(٣) حصيفاً: ذكياً أريباً.

يعترضه من مسائل اللغة، قوياً على الأحوال التي تجري له من أوضاعها فيما يعانیه من النقل ويزاوله من الترجمة على اختلاف مناحيها وكثرة فنونها، وعلى أنها لا تزال كل يوم تنبعث من علم وتحتفل من رأي وتمد مد الأسيل كأنها دنيا عقلية لا يبرح عقل الإنسان دائماً يحلق فيها وبينها من معاني الكون وأسراره، فلا أكون ينفذ لستم، ولا هي تيم قبل أن ينفذ أكون.

وثبت شيخنا على ذلك عمر دولة من الدول في خمسين سنة ونيف، يضرب قلمه في السهل والصعب، وفي الممكن والممتنع؛ وإنه ليمر في كل ذلك مرأ لا ينشئ، ويحذو حذوا لا يختلف، كأن الصعب عنده نسق السهل، والممتنع صوغ الممكن؛ فلو قلنا: إنه بني في أصل خلقه وتركيبه على أن يكون قوة من قوى التحويل لتحقيق المشابهة العقلية بين الشرق والغرب لما أبعدت، ولو زعمت أن ذلك ألقم الحي لم يكن إلا عزفاً في جسم الإنسانية لكان عسى...

وانتهى شيخنا في العهد الأخير إلى أن صار يعدّ وحده حجة اللغة العربية في دهر من دهورها العاتية، لا في الأصول والآبسة والشواذ وما يكون من جهة الحفظ والضبط والانتقان، بل فيما هو أبعد من ذلك وأرد بالمنفعة على اللغة وتاريخها وقومها، بل فيما لا تنتهي إليه مطمعة أحد من علمائها وكُتّابها وأدبائها؛ إذ وقع الإجماع على أنه أنفرد في إقامة الدليل العملي على سعة العربية وتصرفها وحسن أنقيادها وكفائتها، وأنها تواتي كل ذي فم على فم، وتماد كل عصر بمادته؛ وأنها من دقة التركيب ومطاوعته مع تمام الآلات والأدوات بحيث ينزل منها رجل واحد بجهد وعمله منزلة الجماعات الكثيرة في اللغات الأخرى، كأنها آخر ما أنتهت إليه الحضارة قبل أن تبدأ الحضارة.

ولا يذهب عنك الفرق بين رجل حافظ والكتاب أحفظ منه، وهو من الكتاب خرج وإلى الكتاب يرجع؛ وبين رجل يكون ترجماناً من ترجمة العقل الإنساني المعني^(١) بناويل الكون وتفسيره، والظاهر بالآلغاز الإنسانية على أجنحة العلوم والفنون والمخترعات والمعاني؛ فإن ذاك ينقل عن الواقع ثم لا يتعدى هذه المنزلة ولا يتجاوز متون الآلغاز، وأما هذا فلا يزال يضطرب مع الآلغاز ومعانيها يجاذبها ويدافعها، ثم لا يزال يضع يده في النسيج اللغوي يسدي ويلجم، فهو مدفوع إلى

(١) المعني: المهم.

المسالك الدقيقة من مذاهب الوضع وطرقه، وأساليب الأخذ والانتزاع؛ وهو مُقيّد أبداً بِخاصّ المعنى وخاصّ اللفظ على التّعيين والتّحديد، لا يجدُ فُسحةً من ضيقٍ؛ فإنّ لم يكن مثلُ هذا في منزلة الواضع فهو في المنزلة بعده ولا ريب.

إنّما اللّغويّ الأكبرُ عندي هو هذا الكونُ، وما العالمُ بالّلغة وفنونها إلّا وسيلةٌ لِتهذيبِ الطّريقة تهذيباً عقليّاً، فيجبُ من ثَمَّ أن يكونَ للّغويّ رأيٌ وعِلْمٌ وذكاءٌ وبصر، ويجبُ أن يُطابقَ النّواميس، فلا يتعادى ما بيّنه وبينها، لأنّه وسيلةٌ إنطاقيها ليسَ غير؛ ومن ذلك أرى الدّكتور صرّوف في الغاية، فقد كان ينزِعُ في مذهبه للّغويّ منازِعَ عِلْمِيَّةٍ دَقِيقَةٍ تُورِثُ وثقاسٌ وتُختبر، في حين لا تريغُ ولا تَهِنُ ولا تخلُ، وتراها تنطلقُ وهي مقيّدة، وتتقيّدُ وهي مطلّقة؛ إذ كان لا يعتدُّ اللّغة عربيّةً للعرب، بل عربيّةً للحياة؛ وما تهديمُه وتبنيه وما تُحدِثُه وتنسخُه فهي على أصولها فيمَن قبلنا، ولكنّ فروعها فينا نحن وفيمَن يلينا وفيمَن بعدَ هؤلاء، فلنا أن نتولاها على تلكَ الأصولِ وعلى ما يشبهها في الطّريقة حين تنتقلُ الحالُ ويتغيّرُ الرّسم، وليعلّةٌ إن وجبت، وليقياسٌ إن جاز. والدّكتورُ بهذا الاعتبارِ يشتدُّ في التّمسّكِ بالقواعدِ والضوابطِ ولا يترخّصُ^(١) في شيءٍ منها غيرَ أنّه لا يكونُ كافِواً يروُنُ الفروعَ مِنَ الجذوعِ قد خرجت، فيحسبون الثمراتِ سبيلها مِنَ الجذوعِ أيضاً. وإنّ لم تجيء منها فستجيء منها.

عرض لي يوماً أحدُ هؤلاء اللّغويّين فأنّقدَ في المقطعِ قصيدةً مِنَ القصائدِ التي رفعناها إلى المليكِ فؤاد، وتمحّل في نقديهِ ودلّل بِبعضِ ما نقلَهُ من كتبِ اللّغة، فكانَ فيما تكلمَ فيه لفظاً (الأزاهر والورود)، فقالَ إنهما ليسا مِنَ اللّغة ولم يجريا في كتبها؛ وكانَ من رذيّ عليه أن قلتُ له: إنّ العربَ جَمَعُوا الجملَ ستّةَ جموع، وجمعوا الناقةَ سبعةً لأنّها أكرمُ عليهم منه، وإنّ لكلِّ حيّاةٍ صُورَها الدّائرةُ في ألفاظها، فالزهرُ والوردُ عندَ المولّدين والمحدثينَ أكرمُ مِنَ الجملِ والناقةِ عندَ العرب، أو هذان كهذين؛ ثمّ هما من خاصّ الألفاظِ المولّدة، فلنا أن نجمعهما على كلّ صُورِ الجمعِ التي يُسوِّغها القياسُ، لأنّ ههنا العلّةُ المُوجِبَةُ التي لم تكنْ مَعَ العربِ فيهما؛ فمنّ الصحيحُ أن تقولَ: زهور، وأزهار، وأزاهير الخ، فلما لقيتُ الدّكتورَ بعدَ نشرِ هذا الرّدِّ هتّاني به، ثمّ قالَ فيما قالَ: يحسبون أنّ

(١) يترخّص: يسمع ويتساهل.

أَلْعَرَبُ هُمُ الْجَمَلُ وَالنَّاقَةُ وَلَيْسَ غَيْرُ مَا أَسْتَجْمَلُ وَمَا أَسْتَنُوقُ . أَمَّا هَذَا أَلْدَهْرُ
 أَلطَّوْبِلُ أَلْعَرِيضُ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْئاً ، وَهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُنْكِرُوا عَلَى أَلْمَوْلَدِينَ أَلْفَ
 كَلِمَةٍ ، وَلَكِنْ هَلْ فِي أَسْتَطَاعَتِهِمْ أَنْ يُنْكِرُوا عَلَى أَلتَّارِيخِ أَلْفِ سَنَةٍ ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ
 أَلْأَصْلَ أَلَّذِي قَرَّرَهُ أَبُو عَلِيٍّ أَلْفَارِسِيُّ فِي أَلْعَرَبِيِّ أَلصَّحِيحِ نَفْسِهِ : مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا
 يَجُوزُ فِي أَلْقِيَّاسٍ يَجِبُ أَنْ يَخْرُجَ بِهِ سَمَاعٌ ، فَإِذَا أَخَذَ إِنْسَانٌ عَلَى طَرِيقَةِ أَلْعَرَبِ وَأَمَّ
 مَذْهَبَهُمْ فَلَا يُسْأَلُ مَا دَلِيلُهُ وَمَا أَسْمَاعُهُ وَمَا رَوَايَتُهُ ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ،
 حَتَّى قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : لَوْ شَاءَ شَاعِرٌ أَوْ مَثْنَعٌ أَنْ يَبْنِيَ بِأَلْحَاقِ أَلْأَلَامِ أَسْمَاءً وَفِعْلاً وَصِفَةً
 لَجَازَ لَهُ ، وَلَكَانَ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ أَلْعَرَبِ ؛ وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِكَ : خَرَجَجَ أَكْثَرُ مِنْ
 دَخَلَلٍ ، وَضَرَبَبَ زَيْدٌ عَمْرًا ، وَمَرَزَتُ بَرَجِلَ ضَرْبِبٍ وَكُرْمَمٍ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ . قَالَ
 تَلْمِيذُهُ أَبْنُ جَنِيٍّ : فَقُلْتُ لَهُ : أَتُرْتَجِلُ أَللُّغَةَ أَرْتَجَالًا ؟ قَالَ : لَيْسَ بِأَرْتَجَالٍ لَكُنْهُ مَقِيسٌ
 عَلَى كَلَامِهِمْ فَهُوَ إِذَا مِنْ كَلَامِهِمْ .

وَسَأَلَنِي مَرَّةً عَنْ وَجْهِ أَلْخِلَافِ بَيْنَ مَا يُسَمُّونَهُ أَلْقَدِيمَ وَأَلْجَدِيدَ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ
 أَلْخِلَافَ لَيْسَ عَلَى جَدِيدٍ وَلَا قَدِيمٍ ، وَلَكِنْ عَلَى ضَعِيفٍ وَقَوَّةٍ ؛ فَإِنْ قَوْمًا يَكْتُبُونَ
 وَيَنْظُمُونَ وَلَكِنْ لَمْ تُقَسِّمِ أَلْفَصَاحَةَ وَأَلْبَلَاغَةَ عَلَى مَقْدَارٍ مَا يُطَبِّقُونَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا
 يَتَّبِعُ أَلصَّحِيحَ لِأَرَاتِهِمْ فِي أَللُّغَةِ وَأَلْأَدَبِ ، وَقَدْ أَرَادُوا أَنْ يَسْعُوا كُلُّ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ
 ضَاقُوا ، وَيَطَاوُلُوهُ مِنْ حَيْثُ تَقَاصَرُوا ، وَيَنَالُوهُ مِنْ حَيْثُ عَجَزُوا ؛ فَظَنُّوا بِأَلْأَمْرِ مَا
 يَظُنُّ إِنْسَانٌ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَيَعْرِفُ أَنَّهَا تَدُورُ ، فَيُؤَوِّلُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ هُوَ يُدِيرُ الْأَرْضَ
 عَلَى مَخَورِهَا بِحَرَكَةِ قَدَمَيْهِ . . . نَحْنُ نَقُولُ : أَسْلُوبُ رَكِيكٍ ، فَيَقُولُونَ : لَا بَلْ
 جَدِيدٌ ، وَنَقُولُ : لُغَةٌ سَقِيمَةٌ ، فَيَقُولُونَ : بَلْ عَصْرِيَّةٌ ، وَنَقُولُ : وَجْهٌ مِنْ أَلْخَطَا ،
 فَيَقُولُونَ : بَلْ نَوْعٌ مِنَ أَلْصَوَابِ ، وَهَلُمَّ جَرَا أَوْ سَخَبًا . . . ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : أَفَتَجِدُ أَنْتَ
 أَلرَّكَائَةَ وَأَللَّحْنَ وَأَلْخَطَا وَالْعَثَاثَةَ^(١) وَإِنْ وَأَخَوَاتِهَا بَابًا جَدِيدًا أَوْ أَمْرًا مُبْتَدَعًا أَوْ شَيْئًا
 يَحْتَاجُ إِلَى أَسْمٍ جَدِيدٍ غَيْرِ أَسْمِهِ أَلْعَرَبِيِّ ؟ قَالَ : لَا ، وَأَنَا مَعَكَ فِي هَذَا ، وَطَرِيقَتِي
 فِي الْمَقْتَضِبِ أَنَّ أَللُّغَةَ فِي قَوَاعِدِهَا عَرَبِيَّةٌ ، وَلَكِنْ مِنْ قَوَاعِدِهَا أَنْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا ،
 فَنَحْنُ نَكْتُبُ كِتَابَةً صَحِيحَةً وَنُرِيدُ بِهَا أَنْ تَرْفَعَ أَلْعَامَةُ وَلَا تَنْزِلَ بِأَلْخَاصَّةِ ، فَنَخْدُمُ
 أَلْعَرَبِيَّةَ مِنْ أَلْجَهْتَيْنِ .

ثُمَّ نَشَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عَدَدِ شَهْرِ مَآيُو سَنَةِ ١٩٢٧ مَقَالًا جَعَلَ عُنْوَانَهُ (أَسْلُوبُنَا

(١) العثاثة : التفاهة والركاكة .

في الترجمة والتعريب) وأبتدأ بهذه العبارة: «اللغة جسم حي نام، وشأن من يحاول منعها من النمو شأن الصينيين الذين يربطون أقدام بناتهم لكي لا تنمو وتبلغ حدّها الطبيعي، ولكن إذا كان النمو مشوهاً فلا بد من تقييده وتهذيبه»؛ وكل ما نقوله نحن هو التقييد والتهديب وبقاء الشوهة أن تلبم باللغة وأسايلها فتترادف على محاسنها بمعاييرها، وتطمس^(١) مفاتيحها بمقاييحها^(٢)؛ فإن هذه المعايير والمقايح إذا هي استجمعت وأنساغت في لغة من اللغات لبستها بأشكالها فلا تزال تنكر منها حتى لا تبقى لها وصفاً يُعرف، والحسن وحده هو الذي يُحدّ بالأوصاف والتعاريف، وهو الذي يدقّق فيه ويبالغ في قياسه وتقديره، فإن وقع فيه الفضول وأختلط الحدود وضعفت الكفاءة وجرى الوصف ناقصاً وزائداً فقد خرج إلى القبح، وإن خرج إلى القبح لم يعد الناس يحدثون له حداً أو يعاينون^(٣) له بقاعدة، ووجدوا فيه كل الأوصاف الجميلة مقلوبة منكّرة، لأنّه هو جمال مقلوب؛ (فتقييد التشويه وتهذيبه) كلمتان فيهما الكلام كله، أو هما المصراعان لهذا الباب؛ ومن أجل ذلك كنّا نعدّ الدكتور من حجّتنا على أصحاب الجديد، لأنّه أوسّعهم إحاطة وأكثرهم علماً وأمدّهم عملاً، ثمّ لن يدانيه أحد منهم إلا إذا جمع لنفسه عمريّن، وهل في الجديد رجل ذو عمريّن؟...

قلنا: إن الشيخ كان في المنزل التي تلي منزلة الواضع، وقد دفعته العلوم إلى ذلك دفعاً، لأنّه مقيّد بخاصّ المعنى في كل ما يترجم أو يُعرّب، ثمّ بالخصائص العلميّة الدقيقة التي لا تحتمل في أدائها ما تحتمل المعاني الأدبيّة؛ وقد تصدّر للكتابة والترجمة منذ شاب هذا العصر، ومنذ بدأ الناس يقرأون العلوم الحادثة في الشرق؛ فلا جرّم لم يكن لغويّاً كأبي عمرو وأبي زيد والخليل والأصمعيّ وأبي حاتم وأبي عبيدة وأضرابهم ممّن يحملون عن العرب ويؤدّون ما حملوه، ولا كان لغويّاً في طريقة سيبويه والكسائيّ والزجاج والأخفش واليزيديّ وأشباههم ممّن ينظرون في اللغة وعملها وأقيستها وشواذها؛ ولكنّه لغويّ فيما يعمر بين الشرق والغرب، يحمل بلسان ويؤدّي بلسان غيره ويوافق بين المعاني الجديدة والألفاظ القديمة، ويُسابق بين خيوط التاريخ في هذه وهذه، ويأخذ اللغة للاستعمال لا

(١) تطمس: تغطى وتمحي.

(٢) مقايحها: بشاعتها.

(٣) يعاينون: يهتمون.

لِلحِفْظِ وَلِلتَّعْلِيمِ لَا لِلتَّدْوِينِ وَلِلْمَنْفَعَةِ لَا لِلْمَبَاهَةِ وَلِلْفَائِدَةِ لَا لِلتَّنْيَلِ؛ وَيُتْرَجَّمُ وَإِنَّ فِي خِيَالِهِ أَلْعَالَمَ الْأَوَّاسِعِ الَّذِي يَنْقُلُ عَنْهُ بِعِلْمَانِهِ وَأَدْبَانِهِ وَكُتُبِهِ وَمَجَلَّاتِهِ وَمَصْطَلَحَاتِهِ، وَيَكْتُبُ وَإِنَّ لَهُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي كَوَّنَتْهَا أَلْعُلُومُ الْإِبْرَاهِيمِيَّةُ وَالطَّبِيعِيَّةُ وَالْفَلَسَفِيَّةُ وَغَيْرُهَا؛ فَلَمْ يَكُنْ بَدُّ مَنْ أَنْ يَتَدَلَّعَ، وَأَنْ تَكُونَ لَهُ طَرِيقَةٌ يُوَافِقُ فِيهَا وَيُخَالِفُ، وَقَدْ بَسَّطَ هُوَ الْقَوَاعِدَ الَّتِي أَخَذَ بِهَا وَجَرَى عَلَيْهَا، فَكُتِبَ فِيهَا مَقَالًا فِي «الْمَقْتَضَف» شَهْرَ يُولْيُو لِسَنَةِ ١٩٠٦، وَأَعَادَ نَشْرَهُ فِي عَدَدِ شَهْرِ مَآيُو لِسَنَةِ ١٩٢٧، وَهُوَ يُوَافِقُ فِيهِ أَكْثَرُ أَلْعُلَمَاءِ، وَخَاصَّةً أَلْإِمَامَ أَلْجَاحِظَ؛ وَمَعَ أَنَّ قَاعِدَةَ أَلْجَاحِظِ لَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ مَعْرُوفَةً، وَلَكِنْ كِلَا الشَّيْخَيْنِ حَصِيفُ الرَّأْيِ^(١) تَأَمَّ الْإِدَارَةَ فِي عَمَلِهِ، قَوِيَّ الْحِجْسَةِ وَالتَّدْبِيرِ فِيمَا يَأْخُذُ وَمَا يَدَعُ؛ وَخِلَاصَةً رَأْيَ الدَّكْتُورِ أَنَّهُ يَنْظُرُ فِي أَلْكَلِمَةِ الْأَعْجَمِيَّةِ، فَإِنَّ أَصَابَ لَهَا مُزَادَفًا فِي أَلْعَرَبِيَّةِ يَحْدُذُهَا وَيُفِي بِهَا فَذَاكَ، وَإِلَّا أَمْرُهَا فِي كِتَابَتِهِ وَهُوَ مُقَيَّدٌ بِقَاعِدَةِ الْقَارِئِ وَمَا هُوَ أَخْفُ عَلَى قَارِئِهِ فِي أَلْمَثُونَةِ وَأَبْيُنُ لَهُ فِي أَلدَّلَالَةِ، فَإِنَّ كَانَتْهُ أَلْفَلْظَةُ الْأَعْجَمِيَّةُ أَوْفَى وَأَشْيَعُ فِي أَلِاسْتِعْمَالِ عَدَلٍ إِلَيْهَا^(٢)، قَالَ: وَغَنِيَّ عَنْ أَلْبَيَانِ أَنَّنَا أَلْتَرْمِزْنَا أَنَّ تُجَارِي أَلْعُلَمَاءُ فِي أَلْمَصْطَلَحَاتِ أَلْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَفْقَدُ دَلَالَتَهَا بِتَعَرُّبِهَا: كَأَلْحَامِضِ أَلْكَبْرِيتُوسِ وَأَلْكَبْرِيتِيكَ الْخِ، فَإِنَّ لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ أَلْمَلْحَقَاتِ وَأَلزَوَائِدِ الَّتِي فِيهَا، مَعْنَى خَاصًّا يَدُلُّ عَلَى تَرْكِيبِ أَلْحَامِضِ أَلْمُرَادِ كَمَا يَعْلَمُ دَارِسُو أَلْكِيمِيَاءِ؛ قَالَ: فَمَنْ يُسَمِّي أَلْحَامِضَ أَلْكَبْرِيتِيكَ بِأَلْحَامِضِي أَلْكَبْرِيتِي كَمَنْ يُسَمِّي أَلْفَرَسَ حِمَارًا لِأَنَّ لِكُلِّ مِنْهُمَا رَأْسًا وَذَنْبًا.

وَأَلْجَاحِظُ يَقُولُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ: إِنَّ رَأْيِي فِي هَذَا أَلضَرْبِ مِنْ هَذَا أَللَفْظِ أَنْ أَكُونَ مَا دُمْتُ فِي أَلْمَعْنَى الَّتِي هِيَ عِبَارَتُهَا وَأَلْمَادَةُ فِيهَا عَلَى أَنَّ أَلْفِظَ بِأَلشَّيْءِ أَلْعَتِيدِ أَلْمَوْجُودِ (يَعْنِي أَللَفْظَ أَلْعِلْمِيَّ الْأَصْطِلَاحِيَّ) وَأَدْعُ أَلتَّكَلُّفَ لِمَا عَسَى أَلَّا يَسْلَسَ وَلَا يَسْهَلُ إِلَّا بَعْدَ أَلرِّيَاضَةِ أَلطَّوِيلَةِ. وَلِكُلِّ صَنَاعَةِ أَلْفَاظٍ قَدْ جُعِلَتْ لِأَهْلِهَا بَعْدَ أَمْتِحَانٍ سِوَاهَا، فَلَمْ تَلْزُقْ بِصَنَاعَتِهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَعْنَى تِلْكَ أَلصَّنَاعَةِ مَشَاكِلَاتُ.

فَأَنْتَ تَرَى أَلْجَاحِظَ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ أَلْأَلْفَاظِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَأَلْعَامِيَّةِ كَمَا هِيَ مَا دَامَتْ أَلْمَعْنَى قَائِمَةً، وَقَاعِدَتُهُ هِيَ أَلْأَخْفُ وَأَلْأَدْلُ وَأَلْأَفْهَمُ وَأَلْأَشْيَعُ، وَهَذَا بِعَيْنِهِ يَقُولُ أَلدَّكْتُورُ فِيهِ: «يُسْتَرْطُ فِي حَسَنِ أَلتَّعْبِيرِ أَنْ يُؤَدِّي أَلْمَعْنَى أَلْمُرَادِ إِلَى ذَهْنِ أَلْسَامِعِ بِأَقْلٍ مَا يَكُونُ مِنْ أَلْوَقْتِ وَأَلْكَلْفَةِ وَأَلْإِسْرَافِ فِي أَلْقُوَّةِ أَلْعَصِيَّةِ».

(١) حَصِيفُ الرَّأْيِ: صَانِهِ.

(٢) عَدَلٌ إِلَيْهَا: مَالٌ إِلَيْهَا.

وقد كَلَّمَنِي بَعْضُهُمْ فِي خَطَأِ الدُّكْتُور مِنْ نَاحِيَةِ الْأَلْفَاظِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَإِقْحَامِهَا^(١) فِي كِتَابَتِهِ، وَأَنَّهُ يَجْنَحُ إِلَى ذَلِكَ بِأَوْهَى سَبَبٍ؛ وَلَا أَرَاهُ خَطَأً، بَلْ أَنَا أَرُدُّ ذَلِكَ إِلَى مَا بَيَّنَّتُهُ آنَفًا مِنْ أَمْرِ الْأَنْقَالِ وَالْوَضَاعِ وَلَا يُعْجِزُنَا أَنْ نَجِدَ لِصَنِيعِ الدُّكْتُورِ نَصًّا يَقُومُ بِهِ وَيَنْهَضُ بِحُجَّتِهِ؛ فَقَدْ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ: إِنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَشْتَقَّتْ مِنَ الْأَعْجَمِيِّ خَلَطَتْ فِيهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْأَشْتِقَاقِ وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَصْلٍ، فَكَيْفَ بِالْعَرَبِ؟ عَلَى أَنَّهُ لَا خَلْطَ وَلَا أَضْطِرَابَ، إِنَّمَا هُوَ سَبِيلُ الْوَضْعِ، وَحِكْمَةُ الدَّلَالَةِ وَأَنَّ الْلُغَةَ هَكَذَا تَجِيءُ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ النَّحْوِيُّ يَقُولُ لِمَاذَا وَلَآنَ . . .

وقد أعجبنى حسن تقسيم الدكتور لقواعده التي بَسَطَهَا فِي مَقَالِهِ الْمُسْتَفِيزِ^(٢)، حَتَّى إِنِّي لَأَرَاهُ بَابًا جَدِيدًا فِي التَّقْسِيمِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ وَاللُّغَةِ لَابْتِدَالِ الْأَلْفَاظِ وَغَرَابِئِهَا، إِذْ لَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا غَرِيبٌ وَمُبْتَذَلٌ وَلَا بَيْنَا عَرَبٌ وَمُحَدَّثُونَ.

بيد أن من تلك القواعد أن الأستاذ يترخص في الألفاظ العامية وهو يجد فصيحها، ويقول في ذلك: «إِذَا أَسْمَعْتُ أَفْلَاحَ الْمِصْرِيِّ كَلِمَةً بِذَاكَ مَرَّةً فِي الْأُسْبُوعِ أَوْ فِي الشَّهْرِ، سَمِعْتُ كَلِمَةً (تَقَاوَى) مِائَةً مَرَّةً وَالْفَ مَرَّةً، فَرَأَيْنَا أَنْ مُحَاوَلَةَ تَغْيِيرِ لُغَةِ الْعَامَةِ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَمْثَالِهَا ضَرْبٌ مِنَ الْعَبَثِ وَإِضَاعَةٌ لِلْوَقْتِ وَتَضْيِيعٌ لِلْفَائِدَةِ، فَجَارَيْنَاهُمْ فِيمَا نَكْتُبُهُ لَهُمْ». وَهَذَا مَا كُنْتُ أَجَادِلُهُ فِيهِ وَلَا أَسْلَمُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، لِأَنَّهُ أَغْفَلَ أَصْلًا اجْتِمَاعِيًّا عَظِيمًا، فَإِنَّ عَامِيَّتَنَا غَيْرُ مَنْقُطَةٍ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصْحَى، وَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مِيرَاثُهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ، وَهَذِهِ هِيَ وَسَائِلُ مَرْجِعِهِمْ بِالْفَصِيحِ وَرَدِّهِمْ إِلَيْهِ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الْوَسَائِلُ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُهُ الْكُنُومَائِسُ الْمَحْتَوَمَةُ وَلَوْلَاهَا لَمَا بَقِيَ لِلْفَصْحَى بَقِيَّةٌ بَعْدَ.

وقد كَانَ جَاءَ إِلَى مِصْرَ مِنْ بَضْعِ سَنِينَ رَجُلٌ مِنْ أَمْرِيكََا هُوَ مِنْ تَلَامِيذِ الدُّكْتُورِ الْقَدَمَاءِ، فَتَرَحَّضَ إِلَى ذَلِكَ الْكَبِيرِ فَأَتَجَرَّ فَأَتَرَى وَفَشَّتْ لَهُ نِغْمَةٌ عَظِيمَةٌ؛ وَلَمَّا لَقِيْنَاهُ لَقِيتُ فِي يَدِهِ صَحِيفَةً وَضَعَ فِيهَا مَسَائِلَ فِي الْلُغَةِ وَالنَّحْوِ، وَكَانَ أَعَدَّهَا لِيَسْأَلَ عَنْهَا؛ وَفِي أَوَّلِهَا هَذَا السُّؤَالُ: لِمَاذَا يُقَالُ فَصَحُّ الرَّجُلِ فَصَاحَةٌ فَهُوَ فَصِيحٌ، ثُمَّ يَقُولُ: شَعَرَ شَعْرًا فَهُوَ شَاعِرٌ؟ أَلَمْ يَكُنِ الْقِيَاسُ أَنْ يُقَالَ شَعَرَ شَعْرَةً فَهُوَ شَعِيرٌ، وَالْفَصَاحَةُ وَالشَّعْرُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ؟

وهذا السؤال وإن كَانَ فِي ظَاهِرِ الرُّأْيِ لُغَوًا وَعَبْنًا وَلَكِنَّهُ دَقِيقٌ فِي تَارِيخِ الْلُغَةِ

(٢) المستفيضة: المشيع بحثاً ودراسة.

(١) إقحامها: حشرها.

وأقنستهما، ولا محلّ لِيَسْطِ الكَلَامِ عليه في هذا الموضع، غير أنني أنهيتُ الخبرَ للدكتورِ صُرُوفٍ وقلتُ لَهُ: إنَّ صاحبَكَ هذا يضعُ قواعدَ اللُّغةِ في المِيزَانِ الَّذِي فِي حَانُوتِهِ... وأنتَ كذلكَ تُعالِجُ بعضَ الألفاظِ أحياناً ببعضِ العَلاجاتِ والحوامِضِ.

قلتُ هذا لِأَنِّي لَمْ أَسْلَمْ لَهُ قَطُّ فيما كانَ يراءُ في مثلِ الأبدارِ والتقاوي، على أَنَّهُ قَيَّدَ الكَلَامَ بِقَوْلِهِ (فيما نكتبهُ لهم)، وهذا احتِراسٌ يُدافعُ عَنْهُ بِقُوَّةٍ كما ترى.

ولا يمتري أَحَدٌ في أَنَّ هذهَ النّهضةَ اللُّغويَّةَ الَّتِي أدرَكناها وعمَلنا فيها لَمْ تَكُنْ سوى نموٍّ طَبِيعِيٍّ لِعَمَلِ رِجالٍ أَفْذاذٍ نَظُنُّ الدُّكتورَ صُرُوفَ في طَلِيعَتِهِمْ، لِأَنَّهُ كَانَ أَطولَهُمْ جِهاداً وأكثرَهُمْ عَمَلاً وأَظْهَرَهُمْ أثراً؛ وكانَ المَقْتطفُ يَجِيءُ لَهَا كُلَّ شَهرٍ كائِنَ قِطْعَةً زَمَنِيَّةً مُسلَّطَةً بِناموسِ كِناموسِ النِّشْوءِ، حَتَّى لَأَلَمَ هَذَا المَقْتطفُ أَن يَكُونَ عَصراً مِنَ العَصُورِ قَدْ خَرَجَ في شَكْلِ الكِتابَةِ؛ ولقد كاشفني الدُّكتورُ في آخِرِ أَيامِهِ أَنَّهُ كَانَ يَودُّ لو خَتَمَ عَمَلَهُ بِوضعِ معْجَمٍ في اللُّغةِ يَصْلُحُ أَن يُقالَ فِيهِ إِنَّهُ معْجَمُ الشَّعبِ، وفَصَّلَ لي طَريقَتَهُ، إِذْ كُنْتُ أَكَلِّمُهُ في كِتابِ لُغَوِي أَفتَحْتُ العَمَلَ فِيهِ مِن زَمَنِ ولا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِن أَمْرِهِ خِبراً فقالَ لي: خُذْ بَيْنَ طَريقَتِي وطَريقَتِكَ، وَأَمْضِ أَنتَ في هَذَا العَمَلِ؛ فَإِنِّي لو وَجَدْتُ فِراغاً لَمَّا عَدَلْتُ بِهِذا الأَثَرِ شَيْئاً، وما كُلُّ سَهْلٍ هُوَ سَهْلٌ...

على أَنَّ شِخْناً هذا لو قَدْ كَانَ تَفَرَّغَ لِلُّغةٍ وَتَوَفَّرَ عَلَيْهَا وَاجْتَمَعَ لَهَا بِذلكَ العَمْرِ وتلكَ العِلْمِ والأدواتِ، لَكَانَ فِيهَا بِأَمَّةٍ مِنَ الأَشْيَاخِ المَاضِينَ مِن لَدُنْ أَبِي عَمْرٍو بْنِ العِلاءِ إِلَى الدُّكتورِ يَعْقُوبَ صُرُوفٍ، وَلَكِنْ لَعَلَّ الأَدَهْرَ أَضِيقُ مِن أَنْ يَتَّبِعَ أَوْ هُوَ أَوْسَعُ مِن أَنْ يَضِيقَ. لِإِمَامِ آخَرَ كَأَبِي عَلِيِّ الفارِسيِّ، يُفَرِّغُ سَبْعِينَ سَنَةً لِفِرْعٍ واحِدٍ مِن عِلْمِ اللُّغةِ هُوَ عِلْمُ القِيَّاسِ وَالِاشْتِقاقِ وَالِإِعلالِ الصَّرْفِيَّةِ وَيَجْعَلُهُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ على ما قالَ تَلْمِيزُهُ ابْنُ جَنِّي: «لا يَعتاقُهُ عَنْهُ وَلَدٌ، ولا يُعارِضُهُ فِيهِ مُتَجَرٌّ، ولا يَسُومُهُ بِهِ مُطَلِّباً، ولا يَخْدُمُهُ بِهِ رَئيساً؛ فَكأنَّهُ إِنَّمَا كانَ مَخْلُوقاً لَهُ».

وَكَانَتْ لِلدُّكتورِ طَريقَةٌ جَريئةٌ في رَدِّ الألفاظِ العَرَبِيَّةِ إِلَى أَصُولِها وَالرَّجُوعِ بِها إِلَى أَسبابِ أَخْذِها وَاشْتِقاقِها وَتَصاريفِها مِن لُغةٍ إِلَى لُغةٍ، وَأَعانَهُ على ذَلِكَ ثَقُوبُ فِكْرِهِ^(١) وَسَعَةُ عِلْمِهِ وَدَقَّةُ تَمييزِهِ وَميلُهُ الغالبُ عَلَيْهِ في تَحْقِيقِ ناموسِ النِّشْوءِ وَتَبَيُّنِ آثارِهِ في هَذِهِ المَخْلُوقاتِ المَعنَوِيَّةِ المَسْمُوءَةِ بِالألفاظِ؛ وَكانَ مُعْجَباً بِكُلِّ ما جَاءَهُ مِن هَذَا

(١) ثَقُوبُ فِكْرِهِ: سَدادُهُ.

أَبَابٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ خَطَا؛ لِأَنَّهُ إِلَى الرَّأْيِ يَقْصِدُ وَلِلطَّرِيقَةِ يُمَكِّنُ وَمَعَ الْحَاضِرِ يَجْرِي .

وهذا بابٌ يحتاجُ إلى التَّسْمِيحِ وَالتَّسَاهُلِ؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ تَحْقِيقَهُ، وَلَا تَتَّفِقُ الْحَبِيطَةُ فِيهِ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَتَلَوَّحَ شَيْءٌ مِنْهُ وَيَسْنَحَ شَيْءٌ وَتَتَلَامَحَ عِلَّةٌ وَيَعْرَضَ سَبَبٌ؛ ثُمَّ هُوَ فِي الدُّكْتُورِ فِي بَعْضِ الدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِحْكَامِ مَلَكََةِ الْوَضْعِ فِيهِ، وَنَزْوَعِهِ إِلَى أَنْ يَقْتَسَنَ بِقِيَاسِهِ وَيَسْتَخْرِجَ مِنْ عِلَلِهِ؛ وَقَدْ تَرَاهُ يَبْعُدُ فِي ذَلِكَ فَيَنْصَبُ لَكَ الدَّلِيلَ مِنْ وَرَاءِ بَضْعَةِ آلَافِ سَنَةٍ، وَأَنَا السَّاعَةَ أَعَانُ ذَاكَرَتِي وَأَذِيرُهَا مِنْ هَهْنَا وَهَهْنَا لِأَجْدٍ، كَلِمَةً، قَالَ لِي مَرَّةً فِي تَارِيخِهَا: إِنَّ الْعَرَبَ أَخَذُوهَا عَنِ الْيُونَانِ حِينَ كَانَتْ مَكَّةَ نَفْسُهَا جَارِيَةً فِي حَكْمِهِمْ، وَلَكِنْ أُنْسِيتِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، إِذْ لَمْ أُرْتَبِطْهَا، وَإِذْ كُنْتُ لَا أَرَى هَذَا الْمَذْهَبَ وَلَا أَحْسِنُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ قَوْلًا، وَأَعُدُّ كُلَّ مَا يُقَالُ فِيهِ مِنْ بَابٍ تَلْفِيحٍ الْآدِلَةَ، كَأَنَّهُ ذُنْبٌ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ فِي النَّاسِ مِنْهُ مِثْلَ غَرَائِرِ الْغَنَمِ . فيقول: «إِلَّا تَرَاهُ تَنْظَنَّهُ» .

وَالدُّكْتُورُ صُرُوفُ رَجُلٌ مَالِيٌّ فِي الْأَمَالِ وَفِي الْلُغَةِ جَمِيعًا . فَمَذْهَبُهُ الْقَضْدُ^(١) فِي الدَّلَالَةِ وَالْقَضْدُ فِي الْوَقْتِ وَالْقَضْدُ فِي الْقُوَّةِ، وَقَدْ صَرَفْتُهُ ثَلَاثَتَهَا عَنِ الشَّعْرِ وَعَمَّا كَانَ فِي حَكْمِهِ مِنْ تَحْبِيرِ النَّثْرِ وَتَوْشِيَتِهِ، عَلَى أَنَّهُ يُحَسِّنُهَا لَوْ أَرَادَ وَلَوْ سَخَتْ نَفْسُهُ بِالْوَقْتِ يُفْقَهُ وَلَا يَتَعَرَّفُ قَدْرَ مَا مَضَى مِنْهُ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ، بَلْ فِي سَاعَةِ الْكِبَرِ الْكِبَرِ الَّتِي يَتَعَاقَبُ فِيهَا عَقْرَبَا النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، كَمَا كَانَ يُفْنِقُ الْبَارُودِيُّ يَوْمًا فِي بَيْتِ أَوْ بَيْتَيْنِ .

وَكَانَ شَيْخُنَا فِي آخِرِ مَجَالِسِي مَعَهُ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِشَهْرٍ أَوْ تَحْوِ، أَطْلَعَنِي عَلَى كُلِّ مَا نَشَرَهُ فِي مَجْلَدَاتِ «الْمَقْتَطَفِ» مِنْ شَعْرِهِ، فَأَعْجَبْتُ بِأَشْيَاءَ مِنْهُ، وَأَشْرَزْتُ عَلَى صَدِيقِنَا الْأَسْتَاذِ فُؤَادِ صُرُوفٍ أَنْ يُعِيدَ نَشْرَ قَصِيدَةِ الرَّفَاشِ الَّتِي تَرَجَمَهَا الدُّكْتُورُ عَنِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ فِي نَسْقِ سَلِسٍ مَوْشَّحٍ الْقَوَافِي، وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا صَاحِبُهَا يَصِفُ مَخَازِي الْمَدِينَةِ:

مَخَازٍ تَوَالَتْ قَصَالَتْ وَصَارَتْ عَلَى اللَّحْمِ دُودًا وَفِي الْعَظْمِ سَوْسًا

وَسَأَلَنِي الدُّكْتُورُ بَعْدَ أَنْ فَرَعْتُ مِنْ شَعْرِهِ: فِي أَيِّ طَبَقَةٍ تَعْدُنِي مِنْ شَعْرَائِهِمْ؟ فَفَكَّرْتُ قَلِيلًا ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: فِي طَبَقَةِ الدُّكْتُورِ صُرُوفِ! فَضَحَكَ لَهَا كَثِيرًا .

وَكَانَتْ لَهُ آرَاءُ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ غَيْرَ بَعْضُهَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ، وَمِمَّا قَالَهُ لِي مَرَّةً: إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَخْلُدَ ذِكْرَهُ فِي هَذَا الشَّرْقِ فَلَا يُنْسَى، لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْمَعَ

(١) القصد: الاعتدال والاقتصاد .

في هذا إلا إذا بنى هَرماً كهَرَمِ الجيزة! . وهي كلمة فلسفية كبيرة تنطوي على شرح طويل يعرفه مَنْ يعرفه .

وقد كادت قاعدة القصد التي أومأت^(١) إليها تنتهي به في آخر مُدَّته إلى القول بإسقاط الإعراب بته، وأظن ذلك خاطراً سَخَّ لَهُ فَأَخَذَ بِأَوَّلِهِ وترك أن ينظر في أعقابه، فزرتُه مرة في شهر يناير لسنة ١٩٢٧، وكان يُصحِّح تسويدة جواب كتبه عن سؤال ورد عليه في هل يُمكن الرجوع إلى اللغة الفصحى في القراءة والتكلم وما الفائدة من ذلك؟ فلمّا أمر بالجواب على نظره دفعه إليّ فقرائه، فإذا هو يرى أن كل حركة من حركات الإعراب والبناء تهوّر فيها وقت ما؛ قال: فإذا قضينا على أبناء العربية ألا يتكلموا إلا كلاماً معرباً نكون قد أضعنا عليهم تلك الوقت الذي يقضونه في التكلم من غير فائدة تُجنى .

ولقد جادلته في ذلك ولججت^(٢) في الخلاف معه، وقلتُ له: إن هذه قاعدة مالية، ثم إنك أغفلت أمر العادة وما تيسره، وفي الكلام إيجاز يقوم مع الإعراب، هذا المقام حين لا يكون من الإيجاز بُد، وفي اللهجات العامية من الحشو ومطأ الأصوت وفساد التركيب ما يذهب بأكثر من ثلث الوقت؛ فأحسبه اقتنع وإن كث رأيتُه لم يقتنع .

وإنه ليحضرني بعد هذا كلام كثير في فضائل الدكتور وآدابه وشمائل نفسه الزكية ومنزعه في الأخلاق الطيبة الكريمة، ولو ذهبتُ أفضل لخرجتُ إلى الأفاضة في فنون مختلفة، ولكني أجتريء من كل ذلك بأنه كان يظهر لي دائماً كأنه في ظلّ من محبة الله .

(١) أومات: أشرت .

(٢) لججت: ألححت إلى آخر حد ممكن .

الشيخ الخضرى

تحوّل الكاتب إلى كتاب، ورجع المُفكر إلى فكرة، وأصبح من كان يُدارس الناس فإذا هو درسٌ يُذكر أو يُنسى، وتناول التاريخ عالماً، من علمائه فجعله نبأ من أنبائه، وكان يبينه فوضعه في بنائه، وقيل: مات الشيخ الخضرى!

آه لو يرجع إنسانٌ واحدٌ من طريق الموت التي أولها هذه النقطة الصغيرة المسماة بالكرة الأرضية، وآخرها حيث تجد كلمة: «الآخرة» بلا معنى لا محدود ولا مظنون! وآه لو أستطعنا أن نتكلّم عن الميّت كأنه حيٌّ بيننا، ونحن كثيراً ما نتكلّم عن الحيّ كأنه مات من زمن! إنّي لأكتب هذه الكلمات وكأنني أنظر إلى وجه أبي - رحمه الله - وأشهد ذلك السمّت العجيب، وذلك الوقار الذي يغمر النفس هيباً وجلالاً، وأستروح ذلك الحبّ الذي هو أحد الطرق الثلاث المنتهية من الأرض إلى السماء، ومن المخلوق إلى الخالق، والمبتدئة من السماء إلى الأرض، ومن الخالق إلى المخلوق: طريق الأمّ، وطريق الأب، وطريق الإنسانية؛ أكتب وكأنّ يداً من وراء المادة تمسح على قلبي فأجد ثقله وقتره، وأستشعر حنيناً وشوقاً، وأحسّ هذا القلب يُنازعني إلى قوم ذهبوا بلا رجعة، وفارقوا بلا وداع، وغابوا عنا بلا خبر؛ دخلوا إلى أنفسنا ولا تحويهم، وخرجوا منها ولا تخلو منهم؛ فما دخلوا ولا خرجوا، وهذه هي الحيرة التي يتركها الميّت العزيز للحي المتفجع كما يعرف بأمواته ما هو الموت!.

كنا منذ بضع وثلاثين سنة في مدينة المنصورة، وكان أبي يومئذ كبير قضاة الشرع في ذلك الأقليم، فإنّي لألعب ذات يوم في بهو دارنا إذ طرّق الباب، فذهبت أفتح فإذا أنا بشيخ لم يبلغ سنّ العمامة، ولم أميز من هيئته أهو طالب علم أو هو عالم، فكان حديثاً لكنّه يتسمّ بِسِمَةِ الجِدِّ؛ ورأيتُه لا تموجُ بهُ الجَنَّة كَالْعِلْمَاء، غير أنّها لا تمجّه كَالطَلَبَةِ؛ وكان في يده مجلدٌ ضخّم لو نطق لقالَ له: دعني لمن هو أسنُّ منك! فما قدّرتُه يزِرْ عشرين مجلداً من مثله، ونظرَ إليّ نظرةً كأنّي لا أزال

أزاهَا فِي عَيْنِهِ إِلَى السَّاعَةِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: أَيْنَ الشَّيْخُ؟ يَعْنِي - الْوَالِد - قُلْتُ:
خَرَجَ أَنْفًا؛ قَالَ: فَادْفَعْ إِلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ، وَقُلْ لَهُ جَاءَ بِهِ الْخَضِرِيُّ.

ثُمَّ أَغْلَقْتُ الْأَبَابَ وَانْتَحَيْتُ جَانِبًا وَفَتَحْتُ الْمَجْلَدَ، فَإِذَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ التَّفْسِيرِ
الْكَبِيرِ لِلْفَخْرِ الرَّازِي، كَانَ قَدْ اسْتَعَارَهُ مِنْ مَكْتَبَتِنَا؛ وَعَرَفْتُ الشَّيْخَ مِنْ يَوْمئِذٍ، وَكَانَ
أَسَاتِذًا لِلْعَرَبِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ الْأَصْنَاعِ، يَضَعُ كِتَابَ النُّحُوِّ وَالْأَصْرَفِ مَعَ الْمَطْرِقَةِ
وَالْمَشَارِ وَالْقُدُومِ، فَيَذْهَبُ شَيْءٌ فِي شَيْءٍ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا؛ وَقَلَّمَا كُنَّا نَذْكُرُهُ
فِي مَدْرَسَتِنَا، إِذْ كَانَ لَنَا شَيْخٌ فَخْلٌ ثَقَّةٌ مِنْ رِجَالِ الْأَزْهَرِ، غَيْرَ أَنَّ الْخَضِرِّيَّ كَانَ لَهُ
مَوْضِعٌ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ، وَكَانَ يُدَاخِلُ قَوْمًا مِنَ الْأَخَصَّاصَةِ يُعْنَوْنَ بِالْمَسَائِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ
وَفَلَسْفَتِهَا وَتَقْرِيبِهَا مِنْ أَعْمَاءِ الْدَهْمَاءِ، وَبِإِشَارَةٍ مِنْ بَعْضِ هَؤُلَاءِ وَضَعَ أَوَّلَ كِتَابِهِ:
«نُورُ الْيَقِينِ فِي سِيرَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ»^(١)، وَكَأَذْ هَذَا الْأَسْمُ يَدُلُّ عَلَى وَزْنِ الْأَسَاتِذِ
فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ وَرَاءَ السَّجْعَةِ الْآتِيَةِ مِنَ الْقُرُونِ الْآخِرَةِ لَمْ يَمْضِ عَلَى
وَجْهِهِ لَمْ يُعْرِفْ بِمَذْهَبٍ.

إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ: قَوْلًا صَحِيحًا فِي هَذَا الْفَقِيهِ الْعَالِمِ الْمُؤَرِّخِ الْأَدِيبِ
الْمَرْبِيِّ، يَجِبُ أَنْ يَرْجِعَ بَتَارِهِ إِلَى مَنَبِعِهِ لِيَعْرِفَ مَبْلَغَ أَنْبَعَاثِهِ وَقُوَّةَ جَرِيَّتِهِ وَمَدَّ عُبَايَةِ؛
فَمَا كَانَ الْخَضِرِّيُّ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَدَارِ ذَلِكَ النُّجْمِ الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي أَهْدَتْهُ
السَّمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ وَسُمِّيَ، فِي أَسْمَائِهَا «مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ»، لَقَدْ أَخْرَجَتْهُ دَارُ الْعُلُومِ كَمَا
أَخْرَجَتْ الْكَثِيرِينَ، وَلَكِنَّ دَارَ عُلُومِهِ الْكُبْرَى كَانَتْ أَخْلَاقَ الْأَسَاتِذِ الْإِمَامِ وَشِمَائِلُهُ
وَأَرَاءُهُ وَبِلَاغَتُهُ وَهِمَّةُ نَفْسِهِ. أَلَا إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ يَكُونُ هُوَ الْوَاحِدَ الَّذِي
يَبْدَأُ مِنْهُ الْعَدَدُ فِي كُلِّ عَصْرِ، وَأَنْتَ فَكَيْفَ تَأْمَلْتَ الْخَضِرِّيَّ فَأَعْلَمْتَ أَنَّكَ بِإِزَاءِ مَعْنَى
مِنْ مَعَانِي الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ، عَلَى فَرْقٍ مَا بَيْنَ النَّفْسَيْنِ، بَلْ أَنْتَ مِنَ الْخَضِرِيِّ
كَأَنَّكَ تَرَى الشَّيْخَ سَارِيًّا فِي مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الزَّمَنِ.

كَانَ يَحْضُرُ دُرُوسَ الشَّيْخِ، وَيَخْتَلِفُ إِلَى نَادِيهِ، وَيُنَاقِلُهُ بَعْضَ الرِّأْيِ،
وَيُعَارِضُ^(٢) مَعَهُ بَعْضَ الْكُتُبِ الَّتِي كَانَ يُرْجِعُ إِلَى الشَّيْخِ فِي تَصْحِيحِهَا أَوْ الْإِشْرَافِ
عَلَى طَبْعِهَا؛ فَنفَذَ الشَّيْخُ إِلَى نَفْسِهِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى الْاسْتِقْرَارِ فِيهَا، فَهُوَ مِنْ بَعْدِ
حَرِيصٍ عَلَى وَقْتِهِ، مُجِدِّ فِي عَمَلِهِ، دَائِبٌ عَلَى طَرِيقِهِ، أَخَذَ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ،

(١) الدَّهْمَاءُ: الرِّعَاقُ وَالسُّوقَةُ.

(٢) يِعَارِضُ مَعَهُ بَعْضَ الْكُتُبِ: يَقْرَأُ عَلَيْهِ.

مُضْلَحُ مُرَبِّ غُيُور؛ وَكُلُّ ذَلِكَ فِي سَمْتٍ وَهَيْبَةٍ، وَجَزَالَةٍ رَأْيٍ، وَشَرَفِ هِمَّةٍ،
وَإِخْلَاصِ حَقِّ الْإِخْلَاصِ؛ وَمَا أَرَى فَوْضَى عَصْرِنَا هَذَا وَأَنْحِطَاطَهُ وَإِسْفَافَهُ وَسَخَافَةَ
قَوْلِهِمْ: جَدِيدٌ وَقَدِيمٌ، وَجَرِيءٌ وَرَجْعِيٌّ، وَحَرٌّ وَجَامِدٌ - إِلَّا مِنْ خِلَاءِ الْعَصْرِ وَفِرَاغِهِ
مِنْ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ، وَحَاجَتِهِ إِلَى إِمَامٍ عَظِيمٍ؛ وَمَتَى أَصْبَحْنَا نَضْرِبُ فِي دَائِرَةِ لَا
مَرْكَزَ لَهَا، فَهِيَ الْمَرْبِيعُ وَهِيَ الْمُسْتَطِيلُ وَهِيَ كُلُّ شَكْلٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ؛ وَالَّذِينَ
رَأَوْا طَاغُورَ الشَّاعِرِ الْهِنْدِيِّ الْمَتَّصِفِ حِينَ نَزَلَ بِمِصْرَ، وَرَأَوْا سَحْرَهُ وَتَحْوِيلَهُ كُلَّ
جَدِيدٍ مَدَّةَ أَيَّامٍ إِلَى قَدِيمٍ، وَإِخْرَاسَهُ هَذِهِ الْأَلْسِنَةَ عَنْ نَقْدِهِ وَمَعَارَضَتِهِ، وَعَنْ
مُعَانَدَةِ الْحَقِّ طَيْشًا وَنَزَقًا وَضَلَالًا وَتَجْدِيدًا. يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُدْرِكُوا مَا أَوْمَأْنَا
إِلَيْهِ، وَيَتَبَيَّنُوا الْكُسرَ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ، وَيَتَمَثَّلُوا مَا كَانَ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ فِي
عَصْرِهِ، بَلْ فِي خَلْقِ عَصْرِهِ.



وَأَنْتَهَى الْخَضِرِيُّ إِلَى مَدْرَسَةِ الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ، فَالَفَ كِتَابَهُ فِي الْأَصُولِ،
أَخْتَصَرَ فِيهِ وَهَذَّبَ وَقَارَبَ، فَهُوَ كِتَابٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ لَا كِتَابٌ هَذَا الْعِلْمِ، وَأَسَاتِذَةُ
الْأَصُولِ قَوْمٌ آخَرُونَ لَوْ أَنْتَ مِنْهُمْ مِثْلُ الشَّيْخِ الرَّافِعِيِّ الْكَبِيرِ، لَرَأَيْتَ الْبَحْرَ الَّذِي
يَذْهَبُ فِي سَاحِلِهِ نِصْفُ طَوْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ بَعَثَ الْخَضِرِيُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً
يَوْمَئِذٍ كَانَتْ مِنْهَا صَدِيقُنَا الْمَرْحُومُ حَفْنِي نَاصِفٌ، وَالشَّيْخُ الْمَهْدِيُّ، وَغَيْرُهُمَا،
اجْتَمَعُوا عَلَى إِبْدَاعِ نَهْضَةٍ فِي التَّأْلِيفِ، فَذَهَبَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ بِخُصَّةِ الْأَدَبِ، وَفَرَّغَ
الْخَضِرِيُّ لِلْأَصُولِ؛ أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ حَفْنِي بِكَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ثُمَّ لَمَّا اخْتَارَ الْقَائِمُونَ
عَلَى الْجَامِعَةِ الْمَصْرِئَةَ الْقَدِيمَةَ صَدِيقُنَا الْعَلَامَةُ الْمُؤَرِّخُ جُورْجِي زِيدَانُ لِيَدْرِسَ
التَّارِيخَ الْإِسْلَامِيَّ فِيهَا. طَارَ الْخَبْرُ فِي الْأُمَّةِ بِأَنَّهُمْ اخْتَارُوا الْقُنْبِلَةَ... وَشَعَرَ النَّاسُ
بِمَعْنَى الْكُهدَمِ قَبْلَ أَنْ يَتَهَدَّمَ شَيْءٌ، فَأَضْطَرَّتْ الْجَامِعَةُ إِلَى أَنْ تُنَحِّبَهُ، وَعَهْدَتْ فِي
الْدَّرْسِ إِلَى الْأَسَاتِذِ الْخَضِرِيِّ، فَالْقَى دُرُوسَهُ الَّتِي جَمَعَهَا فِي كِتَابِهِ (تَارِيخُ الْأُمَمِ
الْإِسْلَامِيَّةِ). وَقَالَ فِي مَقْدَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ: «أَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ وَقَفْتُ لِتَذْلِيلِ صَعُوبَةِ
كِبَرِي. وَهِيَ صَعُوبَةٌ اسْتِفَادَةِ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ مِنْ كِتَابِهِ»؛ نَقُولُ: وَعَلَى أَنَّ الشَّيْخَ
أَحْسَنَ فِي كِتَابِهِ، وَجَاءَ بِمَادَّةٍ غَزِيرَةٍ مِنْ فِكْرِهِ وَرَأْيِهِ، وَبَسْطَ وَأَخْتَصَرَ، وَبَاعَدَ
وَقَرَّبَ، فَإِنَّ كَلِمَتَهُ هَذِهِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ أَكْبَرَ مِنْ التَّارِيخِ أَوْ أَكْبَرَ مِنْ كِتَابِهِ.

وَرَدَّ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ عَلَى كِتَابِ «الشَّعْرُ الْجَاهِلِيُّ» لِلدَّكْتُورِ طَهْ حَسِينٍ،
وَكَانَ رَدُّهُ خُطَابًا أَرَادَ أَنْ يُحَاضِرَ بِهِ طَلِبَةَ الْجَامِعَةِ، لِأَنَّهُ أَسَاتِذُ اسْتَاذِهِمْ؛ فَكَأَنَّهُ أَرَادَ

جعلَ أستاذِهِم هذا تلميذاً مَعَهُم، وأبَتَ عَلَيْهِ الجامعةُ ما أراد، ولعلَّها فَطِنَتْ^(١) إلى هذا الغرض؛ ولَمَّا عَلِمَ أَنِّي شرَعْتُ في طبع رَدِّي على الدكتور طه، كَلَمَنِي في استلحاقِ مقالِهِ وجعلهُ ذيلًا^(٢) في أَلِكتاب، وقدَرَناهُ يومئذٍ في نحوِ خمسينَ صفحةً أو دونها، وقد سألْتُهُ أَنْ يَنْفِي مِنْهُ ما كَانَ في مقاديرِ الرصاصِ ويقتصرَ على ما هو في وزنِ القنابل، فقال: «كُلُّهُ قنابل»! . ثُمَّ اتَّسَعَ كِتابي وجاورَ مقدارُهُ إلى الضعف، فوسَّعَ هو رَدَّهُ وزادَ فيه وطبَعَهُ في قَريبٍ من ضِعْفِهِ على جِدة.

دُعِ كِتابُهُ المَشهورُ (مُهَذَّبُ الأَغانِي)، فهذا لا يُقالُ: إِنَّ الشَّيخَ أَلْفَه، بل أَلْفَتُهُ خمسَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ وأَظُنُّ كُلَّ ذَلِكَ لا يُذكرُ في جنبِ الكِتابِ الَّذي كَانَ يَعْمَلُ فِيهِ أخيراً، وهو كِتابُ «الأَدبِ المِصريِّ»، أَخْبَرَنِي أَنَّهُ في جِزَينِ ودعاني إلى دارِهِ لِأَرى (المَكْتَبَةَ الخُضْريَّةَ)؛ ولِأُطَلِّعَ على هذا الكِتابِ، فوَعَدْتُهُ ولم يُقدِّرْ لي؛ وقد حَدَّثَنِي أَنَّهُ معنِي أَشدَّ العِنايةِ بِاستِجماعِ الأَفْروقي الَّذي يَتمارُ بِها الأَدبُ المِصريُّ عَنِ الأَدبِ الأَلِجَازِيِّ وَالشَّامِيِّ وَالْعِراقِيِّ وَالأَندلسِيِّ، وَأَنَّهُ أَصابَ مِنْ ذَلِكَ أَشياءَ مَتمِيزَةً مِنْذُ الأَدولَةِ الطُولونِيَّةِ، يَحَقُّ لِمِصْرَ أَنْ تَقولَ فِيها: هذا أَدبي؛ وَكانَ يَكْتُمُ خَبرَ هذا الكِتابِ، حَتى إِنَّ صَديقنا الأَسَطاذَ حافِظَ بكَ عَوضَ صاحِبِ جَريدةِ «كوكَبُ الشَّرقِ»، اقترحَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتَبَ فَصلاً في الأَشْعراءِ المِصْريِّينَ وَأَدبِهِم يَعْقِدُهُ لِكِتابِ حَفلَةٍ تَكرِيمِ شوقي بِكَ؛ ثُمَّ لَقِيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقالَ لَهُ الشَّيخُ: إِنَّ الأَبْحَثَ سائِرَ على أَحْسَنِ وَجوهِهِ!

كَانَ الخُضْريُّ يَفْرَحُ لِلِقائِي وَيَهْشُرُ لي، وَكُنْتُ أَتَبَيَّنُ في وَجْهِهِ أَشْعَةَ رَوحِهِ الأَصافيَّةِ، وَلَعَلَّهُ كانَ يَرى بي في نَفْسِهِ ذَلِكَ الشَّيخَ الَّذي أَعْطاني المَجلَدَ، كما كُنْتُ أَرى بِهِ في نَفْسِي ذَلِكَ التَّلميذَ الَّذي أَخَذَ المَجلَدَ مِنْهُ! على أَنَّ مَرجَعَ ذَلِكَ في الحَقِّ إلى سَعَةِ صَدْرِهِ، وَفُسْحَةِ رَأْيِهِ، وَبَسْطَةِ ذِرْعِهِ، وَسَمُوْ أَدبِهِ وَإِنْصافِهِ؛ فلا يَحْقِدُ ولا يَحْسُدُ، ولا يَتجاوَزُ قَدْرَهُ، ولا يَنزِلُ بِأَحَدٍ عَنِ قَدْرِهِ، ولا يَدْعِي ما لا يُحْسِنُ؛ وقد عَرَفَ قُرَّاءُ «المَقْتَطَفِ» مِثْلاً مِنْ أَخلاقِهِ هَذِهِ أو أَكثَرِها حَتى اتَّعَدَّ صَديقنا الأَسَطاذَ عَبْدُ الرَّحيمِ بَنُ مُحَمَّدٍ، وَتناوَلَ الجِزَةَ الأَوَّلَ مِنْ كِتابِهِ (مُهَذَّبُ الأَغانِي) وَراحَ يَتَقَلَّلُ لَهُ كَجَلْمودِ صَخْرٍ... فوسَّعَهُ الشَّيخُ وَعَنِي بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ في «المَقْتَطَفِ»، وَنَعَتَهُ بِالْأَسَطاذِ الجَهِيدِ وَأَنصَفَ مِنْهُ^(٣)، وَأَنصَفَهُ مَعاً. وَلَقَدْ اقترحْتُ عَلَيْهِ مَرَّةً أَنْ

(١) فَطِنَتْ: تَذَكَّرَتْ وَانْتَبَهَتْ.

(٢) ذَيْلاً: تَعلِيقاً تالِياً.

يضع كتاباً في حكمة التشريع الإسلامي وفلسفته، فقال لي: «مثن قَدَّه» يعني أن العمل أكبر منه، ولكن هذا نبهه إلى وضع كتابه في تاريخ التشريع الإسلامي.

ولما أصدرت الجزء الأول من (تاريخ آداب العرب) في سنة ١٩١١، لم أهديه إلى الشيخ، فاشترأه وقرأه، ثم لقيته وسألته رأيه فيه، فقال: (جداً كويس) فكان تقديم (جداً) تقريباً، و(كويس) تقريباً آخر؛ وهو يقول هذا على حين كان بعض إخوانه الشيوخ يكاد يموت غمًا بهذا الكتاب وما كُتِبَ عنه، وعلى حين كلمني بعضهم مرتين في ترك هذا العمل ونقض يدي منه، لأنه - زعم - عمل شاق بلا فائدة...

وقد زرت الأستاذ الأخضر في وزارة المعارف في السنة الماضية، فبعد أن جلست إلى جانبه نهض مرة ثانية وجعل يثبتني بقوة في الكرسي، كأنه لم يطمئن بعد إلى أنني جلست، ثم فاض بكلام كثير، فكان فيما قاله: «أنا الآن أعيش في غير زمي!»، وكأنما كان يعني إلي نفسه بهذه الكلمة من حيث لا يدري ولا أدري، وقال لي: إنه يجلس إلى مكتبه في كل يوم ست ساعات، يقرأ ويؤلف أو ينسخ؛ لأن كل كتبه المخطوطه هو ناقلاً وناسخاً ومصححاً، وأنه يتلو كل يوم أربعة أجزاء من القرآن الكريم. قال: ولا يتعريه البرد ولا مرض من أمراضه، لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التلاوة، وقال: إن كل ما هو فيه إنما هو من بركة القرآن.

ولنمسيك عند هذا الحد؛ فإن للذكرى غمراً على القلب؛ وبالأجملة فقد كان - رحمه الله - عالماً كالكتاب، وكاتباً كالعلماء؛ فهو من هؤلاء وأولئك يلف الطبقتين، وهو وحده منزلة بين المنزلتين؛ وبذلك تميّز وظهر، فإنه في إحدى الجهتين عقل جريء تمدّه رواية واسعة في علوم مختلفة، فتراه يبعث من عقله الحياة إلى الماضي حتى كأنه لم يمض، وهو في الجهة الأخرى علم مستفيض لا يقف عند حدّ الصحيفة أو الكتاب، بل لا يزال يلتبس له عقلاً يُخرجه ويتصرف به، حتى يكبر عن أن يكون قديماً بحتاً فيتنظّم الحاضر إلى ماضيه ويطلقهما إطلاقاً واحداً. لم يكن الشيخ جديداً إلا بالقديم، ولا قديماً إلا بالجديد؛ فإننا لا نعرف قديماً مخضاً ولا جديداً صرفاً، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سُنّة الحياة؛ وانت لَن تجد حياً منقطعاً ممّا وراءه، بل أنت ترى الطبيعة قيّدت كل حي جديد إلى أصليين من القديم لا أصل واحد هما أبواه فمنهما يأتي ومنهما

يَسْتَمِدُّ وَهُمَا أَبَدًا فِيهِ وَإِنْ كَانَ عَلَى حَذِّهِ؛ وَبَعْدُ، فَلَوْ جَارَيْتَ أَلْسَخَافَةَ الْعَصْرِيَّةِ
 الْمَشْهُورَةَ لَقُلْتَ: إِنَّ الْمَذْهَبَ الْقَدِيمَ... قَدْ أَنْهَدَ رَكْنَ مِنْ أَرْكَانِهِ، وَنَقَصَ قِنْطَارُ
 كِتَابٍ مِنْ مِيزَانِهِ؛ وَلَكِنَّ هَذِهِ أَلْسَخَافَةٌ فِي رَأْيِي كَمَا تَرَى مِنْ جَمَاعَةٍ أَتَتَلَوُا^(١) أَنْ
 يُطْفِئُوا نَجْمًا فِي السَّمَاءِ لِأَنَّهُ قَدِيمٌ، فَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ وَأَجْمَعُوهُ بَيْنَهُمْ وَفَرَّغُوا مِنْ
 أَمْرِهِ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ كَيْفَ يُهَيِّتُونَ الْعَرَبَاتِ وَالْمُضَخَّاتِ الَّتِي
 تَحْمِلُ إِلَى السَّمَاءِ بِضْعَةَ أَبْحَرٍ لِيَصِيبُوهَا عَلَى النُّجُومِ... .

(١) اتلوا: أجهدوا أنفسهم.

رأي جديد في كتب الأدب القديمة

أدب الكاتب لابن قتيبة من الدواوين الأربعة التي قال ابن خلدون فيها من كلامه على حد علم الأدب: «وسمنا من شيخوختنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانها أربعة دواوين: وهي «أدب الكاتب» لابن قتيبة، و «كتاب الكامل» للمبرّد، و «كتاب البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «النوادر» لأبي علي الفالي البغدادي؛ وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها».

وقد يظنُّ أدباء عصرنا أن كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلحَ لزمينه وقومه، وأنها تتوجّه على طريقة من قبلهم في طبقة بعد طبقة إلى أصول هذه السلسلة التي يقولون فيها: حدثنا فلان عن فلان إلى الأصمعي أو أبي عبيدة أو أبي عمرو بن العلاء وغيرهم من شيوخ الرواية ونقل اللغة. ولكنها لا تستقيم في آدابنا ولا تُعدُّ من آلتنا ولا تقع من معارفنا؛ بل يكاد يذهب من يتغرّد منهم بالآراء الأوربية التي يُسميها علمه. ومن ينسزل إلى التقليد الذي يسميه مذهبه... إلى أن تلك الكتب وما جرى في طريقتها هي أموات من الكتب، وهي قبور من الأوراق، وأنه يجب أن يكون بيننا وبينها من الإهمال أكثر مما بينها وبيننا من الزمن، وأن بعث الكتاب منها وإحياءه يوشك أن يكون كبعث الموتى: علامة على خراب الدنيا...

فأما أن يكون ذلك علامة على خراب الدنيا، فهو صحيح إذا كانت الدنيا هي محرر جريده. من أمثال أصحابنا هؤلاء، وأما تلك الكتب فانا أحسبها لم توضع إلا لزميننا هذا ولأدبائه وكتّابه خاصة، وكان القدر هو أثبت ذلك القول في مقدمة ابن خلدون لينتهي بنصه إلينا فنستخرج منه ما يقيمنا على الطريقة في هذا العصر الذي وقع أدباؤه في متسع طويل من فنون الأدب ومضطرب عريض من مذاهب الكتابة وأفق لا تستقر حدوده من العلوم والفلسفة. فإن هذه المادة الحافلة من المعاني تحيي آداب الأمم في أوربا

وأمریکا، ولكنها تكاد تَطْمَسُ آدابنا وَتَمَحُّنُ^(١) مَحَقاً تذهب فيه خصائصنا ومقوماتنا، وتُحِيلُنَا عن أوضاعنا التَّارِيخِيَّةِ، وتُفْسِدُ عَقولَنَا ونزعاتنا، وترمي بنا مَرَامِيهَا بَيْنَ كُلِّ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ، حتى كَانَ لَيْسَتْ مِمَّا أُمَّةٌ فِي حَيَازِهَا الْإِنْسَانِي الْمَحْدُودِ مِنْ نَاحِيَةِ التَّارِيخِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْبَلْصَفَاتِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْعُلُومِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْآدَابِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَتَبَلَّى أَكْثَرُ كُتَّابِنَا بِالْانْحِرَافِ عَنِ الْآدَبِ الْعَرَبِيِّ وَالْعَصِيَّةِ عَلَيْهِ أَوْ الزَّرَايَةِ لَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحَسُّهُ قَدْ رُمِيَ فِي عَقْلِهِ لَهْوِيَّةٌ وَحَمَاقَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَتْ فِي حِفْظِهِ سُلْخٌ قَلْبُهُ، وَمِنْهُمْ أَلْمَقْلُدُ لَا يَذَرِي أَعْلَى قَصْدٍ هُوَ أَمْ جَوْرٍ، وَمِنْهُمْ الْحَائِزُ يَذْهَبُ فِي مَذْهَبٍ وَيَجِيءُ مِنْ مَذْهَبٍ وَلَا يَتَّجِعُ لِقَصْدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مِنْهُمْ وَكُفَى...

وَقَلَّمَا تَنَبَّهَ أَحَدٌ إِلَى السَّبَبِ فِي هَذَا؛ وَالسَّبَبُ فِي حَقَارَتِهِ وَضَعْفِهِ «كَالْمَكْرُوبِ»: بِذَرَّةٍ طَامِسَةٍ لَا شَأْنَ لَهَا، وَلَكِنْ مَتَى تُثَبِّتَ ثُبُتَ أَوْجَاعاً وَآلِماً وَمَوْتاً وَأَحْزَاناً وَمَصَائِبَ شَتَّى.

السَّبَبُ أَنَّ أَوْلَئِكَ الْأَدَبَاءَ كُلَّهُمْ ثُمَّ مَنْ يَتَشَيَّعُ^(٢) لَهُمْ أَوْ يَأْخُذُ بِرَأْيِهِمْ، لَيْسَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ تُرَى فِي أُسَاسِهِ الْأَدَبِيِّ تِلْكَ الْأَصُولُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُحَضَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى دِرَاسَةِ اللُّغَةِ وَجَمْعِهَا وَتَصْنِيفِهَا وَبَيَانِ عِلَلِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَمَطَارِحِ الْأَلْسَانِ فِيهَا، وَالْمَتَادِيَةُ بِذَلِكَ إِلَى تَمَكِينِ الْأَدِيبِ الْإِنشَاءِ مِنْ أَسْرَارِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَتَطْوِيرِهَا لَهُ، فَيَكُونُ قِيَمًا بِهَا وَتَكُونُ هِيَ مُسْتَجِيبَةً لِقَلْبِهِ جَارِيَةً فِي طَبِيعَتِهِ مُسَدِّدَةً فِي تَصَرُّفِهِ، حَتَّى إِذَا نَشَأَ بِهَا وَاسْتَحْكَمَ فِيهَا أَحْسَنَ الْعَمَلِ لَهَا وَزَادَ فِي مَادَّتِهَا وَأَخَذَ لَهَا مِنْ غَيْرِهَا وَكَانَ خَلِيقاً أَنْ يَمُدَّ فِيهَا وَيُخَسِّنَ الْمَلَأَمَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْآدَابِ الْأُخْرَى وَيَجْعَلَ ذَلِكَ نَسْجاً وَاحِداً وَبَيَاناً بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِهِ، فَيَنْمُو الْآدَبُ الْعَرَبِيُّ فِي صَنِيعِهِ كَمَا تَنْمُو الشَّجَرَةُ الْحَيَّةُ: تَأْخُذُ مِنْ كُلِّ مَا حَوْلَهَا لِيُغْنِصَهَا وَطَبِيعَتِهَا وَلَيْسَ إِلَّا عِنَصُهَا وَطَبِيعَتُهَا حَسْبُ.

إِنَّ «أَدَبَ الْكَاتِبِ» وَشَرْحَهُ هَذَا لِلْإِمَامِ الْجَوَالِيْقِيِّ وَمَا صُنِّفَ مِنْ بَابِهِمَا عَلَى طَرِيقَةِ الْجَمْعِ مِنَ اللُّغَةِ وَالْخَبَرِ وَشُعْرِ الشَّوَاهِدِ وَالِاسْتِقْصَاءِ^(٣) فِي ذَلِكَ وَالتَّبَسُّطِ فِي الْوُجُوهِ وَالْعِلَلِ الْخَوَرِيَّةِ وَالْكَسْرِ فِيهِ وَالِإِمْعَانِ فِي التَّحْقِيقِ، كُلُّ ذَلِكَ عَمَلٌ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ عَلَى حَقِّهِ فِي زَمَانِنَا هَذَا؛ لَهُوَ لَيْسَ أَدَباً كَمَا يُفْهَمُ مِنَ الْمَعْنَى الْفَلَسْفِي لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، بَلْ هُوَ أَبْعَدُ الْأَشْيَاءِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى؛ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ فِي كِتَابٍ مِنْ هَذِهِ

(١) تَمَحُّنًا: تَسَحُّنًا.

(٢) يَتَشَيَّعُ: يَتَحَزَّبُ.

(٣) الْإِسْتِقْصَاءُ: الْمَتَابَعَةُ.

الكتبِ إِلَّا التَّأْلِيفَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، أَمَّا الْمُؤَلَّفُ فَلَا تَجِدُهُ وَلَا تَعْرِفُهُ مِنْهَا إِلَّا كَالْكَلِمَةِ الْمَحْبُوسَةِ فِي قَاعِدَةٍ . . . وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ رُوحُ إِنْسَانٍ بَلْ رُوحُ مَادَّةٍ مُضْمَنَةٍ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْشَأْ لِيَعْمَلْ فِي عَصَرِهِ بَلْ لِيَعْمَلَ عَصَرُهُ فِيهِ، وَكَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكِتَابِ جِهَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ مُتَعَيِّنَةٌ، فَتَمَّ تَأْلِيفٌ وَلَكِنْ أَيْنَ الْمُؤَلَّفُ؟ وَهَذَا كِتَابُ أَتْنِ قَتِيْبَةٍ، وَلَكِنْ أَيْنَ أَتْنِ قَتِيْبَةٍ فِيهِ؟

وَمَا أَخْطَأَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي تَسْمِيَّتِهِمْ هَذِهِ الْكُتُبَ أَدْبًا؛ فَذَلِكَ هُوَ رِسْمُ الْأَدَبِ فِي عَصَرِهِمْ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الرِّسْمَ قَدْ انْتَقَلَ فِي عَصَرِنَا نَحْنُ، فَإِنَّا نَحْنُ الْمَخْطُوتُونَ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ، كَمَا لَوْ ذَهَبْنَا نُسَمِّي الْجَمَلَ فِي الْأَبَادِيَةِ «الْأَكْسَبْرِيس»، وَالْهَوْدَجَ عَرَبَةً «بُولْمَان».

وَمِنْ هَذَا الْخَطَأِ فِي التَّسْمِيَةِ ظَهَرَ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ لِقَصَارِ النَّظَرِ كَأَنَّهُ تَكَرَّرَ عَصَرٌ وَاحِدٌ عَلَى امْتِدَادِ الزَّمَنِ، فَإِنْ زَادَ الْمَتَأَخَّرُ لَمْ يَأْخُذْ إِلَّا مِنَ الْمُتَقَدِّمِ؛ وَصَارَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ كَأَنَّهَا فِي جَمَلِهَا قَانُونٌ مِنْ قَوَانِينِ الْجَنَسِيَّةِ نَافِذٌ الْجَنَسِيَّةِ نَافِذٌ عَلَى الْدَّهْرِ، لَا يَنْبَغِي لِعَصْرِ يَأْتِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ جَنْسِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ.

هَذِهِ الْكُتُبُ مِنْ هَذِهِ الْأَنَاحِيَةِ كَالْخَلِّ: يُسَمَّى لَكَ عَسَلًا ثُمَّ تَذَوُّقُهُ فَلَا يَجْنِي عَلَيْهِ عِنْدَكَ إِلَّا الْأَسْمُ الَّذِي زَوَّرَ لَهُ؛ أَمَّا هُوَ فَكَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ وَفِي فَائِدَتِهِ وَفِي طَبِيعَتِهِ وَفِي الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، لَا يَنْقُصُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَتَغَيَّرُ.

الْحَقِيقَةُ الَّتِي يَعْنِيهَا الْوَضْعُ الصَّحِيحُ أَنَّ تِلْكَ الْمُؤَلَّفَاتِ إِنَّمَا وُضِعَتْ لِتَكُونَ أَدْبًا، لَا مِنْ مَعْنَى أَدَبِ الْفِكْرِ وَفَنِّهِ وَجَمَالِهِ وَفَلَسَفَتِهِ، بَلْ مِنْ مَعْنَى أَدَبِ النَّفْسِ وَتَثْقِيفِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا وَإِقَامَتِهَا، فَهِيَ كِتَابُ تَرْبِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ قَائِمَةٌ عَلَى أَصُولٍ مُحْكَمَةٍ فِي هَذَا الْبَابِ، حَتَّى مَا يَقْرُؤُهَا أَعْجَمِيٌّ إِلَّا خَرَجَ مِنْهَا عَرَبِيًّا أَوْ فِي هَوَى الْعَرَبِيَّةِ وَالْمِيلِ إِلَيْهَا؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بُنِيَ عَلَى أَوْضَاعٍ تَجْعَلُ الْقَارِءَ الْمُتَبَصِّرَ كَأَنَّمَا يُصَاحِبُ مِنْ الْكِتَابِ أَعْرَابِيًّا فَصِيحًا يَسْأَلُهُ، فَيُجِيبُهُ وَيَسْتَهْدِيهِ فَيُرْشِدُهُ؛ وَيُخْرِجُهُ الْكِتَابُ تَصَفْحًا وَقِرَاءَةً كَمَا تَخْرِجُهُ الْأَبَادِيَةُ سَمَاعًا وَتَلْقِينًا؛ وَالْقَارِءُ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُسْتَدْرَجٌ^(١) إِلَى التَّعَرِيبِ فِي مَدْرَجَةٍ مَدْرَجَةٍ مِنْ هَوَى النَّفْسِ وَمَحَبَّتِهَا، فَتَصْنَعُ بِهِ تِلْكَ الْفُصُولَ فِيمَا دُبِّرَتْ لَهُ مِثْلَمَا تَصْنَعُ كِتَابُ التَّرْبِيَةِ فِي تَكْوِينِ الْخَلْقِ بِالْأَسَالِيبِ الَّتِي أُدِيرَتْ عَلَيْهَا وَالشَّوَاهِدِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا وَالْمَعَالِمِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي فَصَّلَتْ فِيهَا.

(١) مُسْتَدْرَجٌ: مَدْفُوعٌ بِإِعْرَاضَاتٍ مَا.

ومن ثَمَّ جاءت هذه الكتبُ العربيَّةُ كُلُّها على نَسَقٍ واحدٍ لا يختلفُ في الجملة، فهي أخبارٌ وأشعارٌ ولغةٌ وعربيَّةٌ وجمعٌ وتحقيقٌ وتمحيصٌ، وإنَّما تتفاوتُ بالزيادةِ والنقصِ والاختصارِ والتبسُّطِ والتخفيفِ والتثقيبِ ونحو ذلك ممَّا هو في الموضوع لا في الوضع، حتى لَيُخَيَّلُ إليك أنَّ هذه كتبٌ جغرافيَّةٌ لِللغةِ والألفاظِ وأخبارِها؛ إذ كانتْ مثلَ كتبِ الجغرافيةِ: متطابقةٌ كُلُّها على وصفِ طبيعةٍ ثابتةٍ لا تتغيَّرُ معالمُها ولا يخلُقُ غيرها إلَّا الخالقُ - سبحانه وتعالى - .

وإذا تدبَّرتَ هذا الذي بيَّناه لم تُعجب كما يُعجبُ الْمُتَطَفِّلُونَ على الأدبِ العربيِّ والْمُتَخَبِّطُونَ فيه من أنَّ يَرَوْا إيمانَ الْمُؤَلِّفِينَ مُتَّصِلًا بكتبِهِم ظاهرٌ الْأَثَرِ فيها، وأنَّهُم جميعاً يَفَرُّونَ أنما يريدون بها الْمُنزلةَ عندَ اللَّهِ في الْعَمَلِ لِحِياطَةِ هذا اللسانِ الَّذي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وتَأديتِهِ في هذه الْكتبِ إلى قومِهِم كما تُؤدِّي الْأمانةُ إلى أهلِها، حتى لولا الْقُرْآنُ لَمَّا وُضِعَ من ذلك شيءُ الْبَتَّةِ .

وأنا أَتَلَمَّحُ دائماً الْعاملَ الْإلهيَّ في كُلِّ أَطوارِ هذه اللُّغةِ، وأراه يُدِيرُها على حفظِ الْقُرْآنِ الَّذي هو معجزَتُها الْكبرى، وأرى من أثرِهِ مجيءَ تلكِ الْكتبِ على ذلك الوضعِ، وتسخيرَ تلكِ الْعقولِ الْواسعةِ مِنَ الرِّوَاةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْحَفَاطِ جِلاً بعدَ جيلٍ في الْجَمْعِ وَالشرحِ والتعليقِ بِغيرِ ابتكارٍ ولا وضعٍ ولا فلسفةٍ ولا زِينٍ عن تلكِ الْحُدُودِ الْموسومةِ الَّتِي أومأنا إلى حِكْمَتِها؛ فلو أَنَّهُ كَانَ فيهِم مجدِّدون من طِرازِ أَصحابِنا من أَهلِ التخليطِ، ثُمَّ تَرَكَ لها هذا الشَّأنَ يُتولَّونه كما نرى بِالنَّظَرِ الْقَصِيرِ وَالرَّايِ الْمَعَايِدِ وَالْهوى الْمُنحَرِفِ وَالْكَبرياءِ الْمُضْمَمَةِ وَالْقولِ على الْهَاجِسِ وَالْعِلْمِ على التَّوَهُّمِ ومجادلةِ الْأستاذِ حيضَ لِلأستاذِ بيبص . إذَنْ لَضَرَبَ بَعْضُهُمْ وَجْهَ بَعْضٍ وجاءَتْ كُتُبُهُم مُتدابرةً، ومُسيخُ التَّاريخِ وضاعتِ الْعربيَّةُ وفسدَ ذلك الشَّأنُ كُلُّه، فلم يَسَقُ منه شيءٌ .

وممَّا تَرَدُّه على قارئِها تلكِ الْكتبُ في تَرْبِيَتِهِ لِلعربيةِ، أَنَّها تُمَكِّنُ فيه لِلصبرِ وَالْمُعاناةِ وَالْتَحْقِيقِ وَالْتَوَرُّكِ في الْبَحْثِ وَالْتَدْقِيقِ في التَّصْفُحِ، وهي الْأَصْفَاتُ الَّتِي فَتَدَّها أَدْبَاءُ هذا الزَّمنِ، فأصبحوا لا يَتَشَبَّهُونَ ولا يَحْقُقُونَ، وطالَ عَلَيْهِمُ أَنْ يَنْظُرُوا في الْعربيَّةِ، وَثَقُلَ عَلَيْهِمُ أَنْ يَسْتَبْطِنُوا كُتُبَها؛ ولو قد تَرَبَّوا في تلكِ الْأَسفارِ، وبذلكِ الْأَسلوبِ الْعربيِّ لَتَمَّتِ الْمُلَامةُ بَيْنَ اللُّغةِ في قُوَّتِها وَجَزَالَتِها وَبَيْنَ ما عسى أَنْ يُنَكِّرَهُ مِنْها ذوقُهُم في ضَعْفِهِ وَعَامِّيَّتِهِ وَكانوا أَحَقَّ بها وَأَهْلُها .

وذلك بعينه هو السرُّ في أنَّ من لا يقرون تلك الكتب أول نشأتهم، لا تراهم يكتبون إلا بأسلوب منحط، ولا يجيئون إلا بكلام سقيم غث، ولا يرون في الأدب العربي إلا آراءً مُلتوية؛ ثم هم لا يستطيعون أن يقيموا على درس كتاب عربي. فيساهلون أنفسهم ويحكمون على اللغة والأدب بما يشعرون به في حالتهم تلك، ويتورطون في أقوال مضحكة، وينسَوْنَ أنه لا يجوز القطع على الشيء من ناحية الشعور ما دام الشعور يختلف في الناس باختلاف أسبابه وعوارضه، ولا من ناحية يجوز أن يكون الخطأ فيها؛ وهم أبدأ في إحدى الناحيتين أو في كليهما.

وهذا شرح الجوالقي من أمتع الكتب التي أشرنا إليها، وصاحبه هو الإمام أبو منصور موهب الجوالقي المولود في سنة ٤٦٥ للهجرة، وألتوفى سنة ٥٤٠، وهو من تلاميذ الإمام الشيخ أبي زكريا الخطيب التبريزي؛ أول من درس الأدب في المدرسة النظامية ببغداد وقرأ الجوليقي على شيخه هذا سبع عشرة سنة، أستوفى فيها علوم الأدب من اللغة والشعر والخبر والعربية بفنونها، ثم خلف شيخه على تدريس الأدب في النظامية بعد علي بن زيد المعروف بالفصيح.

وما نشك أن هذا الشرح هو بعض دروسه في تلك المدرسة، فانت من هذا الكتاب كأنك بإزاء كرسي التدريس في ذلك العهد، تسمع من رجل أنتهت إليه مما هو بسبيله من الشرح، معني بالتصريف ووجهه مما أنتهى إليه من أثر الإمام ابن جني فيلسوف هذا العلم في تاريخ الأدب العربي، فإن بين الجوالقي وبينه شيخين كما تعرف من إسناده في هذا الشرح.

وقد قالوا: إن أبا منصور في اللغة أمثل منه في النحو، على إمامته فيهما معاً؛ إذ كان يذهب في بعض علي النحو إلى آراء شاذة ينفرد بها، وقد ساق منها عبد الرحمن الأنباري مثلي في كتابه «نزهة الألباء»، ولكن هذا الشذوذ نفسه دليل على استقلال الفكر وسعته ومحاولته أن يكون في الطبقة العليا من أئمة العربية وهو على ذلك رجل ثقة صدوق كثير الضبط عجيب في التحري^(١) والتدقيق؛ حتى كان من أثر ذلك في طبعه أن اعتاد التفكير وطول الصمت فلا يقول قولاً إلا بعد تدبر

(١) لا يند: لا يقلت.

(٢) التحري: التفيش والتفصي.

وَفِكْرٍ طَوِيلٍ، فَإِنْ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى شَيْءٍ قَالَ: لَا أَدْرِي، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُسْأَلُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا يُجِيبُ إِلَّا بَعْدَ أَيَّامٍ.

وَكَانَ وَرِعًا قَوِيًّا الْإِيمَانِ، انْتَهَى بِهِ إِيْمَانُهُ وَعِلْمُهُ وَتَقْوَاهُ إِلَى أَنْ صَارَ أَسْتَادَ الْخَلِيفَةِ الْمُقْتَضِي لِأَمْرِ اللَّهِ، فَاخْتَصَّ بِإِمَامَتِهِ فِي الصَّلَوَاتِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْمُقْتَضِي شَيْئًا مِنْ الْكِتَابِ، وَانْتَفَعَ بِذَلِكَ وَبَانَ أَثَرُهُ فِي تَوْقِيعَاتِهِ كَمَا قَالُوا.

وَالَّذِي يَتَأَمَّلُ هَذَا الشَّرْحَ فَضْلَ تَأَمُّلٍ يَرَى صَاحِبَهُ كَأَنَّمَا خَلَقَهُ اللَّهُ رَجُلًا إِحْصَاءً فِي اللُّغَةِ، لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِمَّا عُرِفَ إِلَى زَمَنِهِ، وَهُوَ لَا رَيْبَ يَجْرِي فِي الطَّرِيقَةِ الْفِكْرِيَةِ الَّتِي نَهَجَهَا أَبْنُ جُنَيْ وَشَيْخُهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ؛ وَمِنْ أَثَرِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَتَحَجَّرُ وَلَا يَمْنَعُ الْقِيَاسَ فِي اللُّغَةِ، وَيُلْحِقُ مَا وَضَعَهُ الْمُتَأَخَّرُونَ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْعَرَبِ، وَيُرْوِي ذَلِكَ جَمِيعَهُ وَيَحْفَظُهُ وَيُلْقِيهِ عَلَى تَلَاتِيهِ؛ وَمِنْ أَمْتَعِ مَا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ فِي شَرْحِهِ قَوْلُهُ فِي صَفْحَةِ ٢٣٥، وَهُوَ بَابٌ لَمْ يَسْتَوْفِهِ غَيْرُهُ وَلَا تَجَدُّهُ إِلَّا فِي كِتَابِهِ، وَهَذِهِ عِبَارَتُهُ:

قَوْلُهُمْ: يَدِي مِنْ ذَلِكَ فَعِلَةٌ: الْمَسْمُوعُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْفَاطَظُ قَلِيلَةٌ، وَقَدْ قَاسَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا: يَدِي مِنَ الْإِهَالَةِ سَنِخَةٌ، وَمِنْ الْبَيْضِ زَهْمَةٌ، وَمِنْ التُّرَابِ ثَرَبَةٌ، وَمِنْ التِّينِ وَالْعَنْبِ وَالْفَوَاكِهِ كَيْتَةٌ وَكَيْدَةٌ وَلَزَجَةٌ، وَمِنْ الْعُشْبِ كَيْتَةٌ أَيْضًا، وَمِنْ الْجَبَنِ نَيْسَمَةٌ، وَمِنْ الْجَصِّ شَهْرَةٌ، وَمِنْ الْحَدِيدِ وَالشَّيْبِ وَالصُّفْرِ^(١) وَالرَّصَاصِ سَهْكَةٌ وَصِدْيَةٌ أَيْضًا، وَمِنْ الْحَمَاءِ رَدِغَةٌ وَرَزْغَةٌ، وَمِنْ الْخَضَابِ رَدِغَةٌ، وَمِنْ الْجَنْطَةِ وَالْعَجِينِ وَالْخَبِزِ نَيْسَمَةٌ، وَمِنْ الْخَلِّ وَالنَّبِيذِ خَمِطَةٌ، وَمِنْ الدُّبْسِ وَالْعَسَلِ ذِبْقَةٌ وَلَزِقَةٌ أَيْضًا، وَمِنْ الدَّمِ شَحِطَةٌ وَشَرِيفَةٌ وَمِنْ الدَّهْنِ زَنْخَةٌ، وَمِنْ الْرِيَّاحِينَ ذَكِيَّةٌ، وَمِنْ الزَّهْرِ زَهْرَةٌ، وَمِنْ الزَّيْتِ قَيْمَةٌ، وَمِنْ السَّمَكِ سَهْكَةٌ وَصَمِيرَةٌ، وَمِنْ السَّمَنِ دَسِيمَةٌ وَنَيْسَمَةٌ وَنَيْسَمَةٌ، وَمِنْ الشَّهْدِ^(٢) وَالطِّينِ لَيْثَةٌ، وَمِنْ الْعِطْرِ عَطْرَةٌ، وَمِنْ الْغَالِيَةِ عَقِيَّةٌ، وَمِنْ الْغَسَلَةِ وَالْقَدْرِ وَجِرَةٌ، وَمِنْ الْفِرَاصِدِ^(٣) قَيْتَةٌ، وَمِنْ اللَّبَنِ وَضِرَةٌ، وَمِنْ اللَّحْمِ وَالْعَرَقِ سَمِيرَةٌ، وَمِنْ الْمَاءِ بَلَلَةٌ وَسِيرَةٌ، وَمِنْ الْمَسَكِ ذَفِرَةٌ وَعَقِيَّةٌ، وَمِنْ اللَّثَنِ قَيْمَةٌ، وَمِنْ الْكَفِّ جَعِدَةٌ. انتهى.

فَالْمَسْمُوعُ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَافِظِ عَنِ الْعَرَبِ لَا يَتَجَاوَزُ سَبْعًا فِيمَا نَرَى، وَالْبَاقِي

(١) الصُّفْرُ: النحاس.

(٢) الشَّهْدُ: العسل.

(٣) الْفِرَاصِدُ: القصدير.

كلُّه أجراه علماء اللغة وأهل الأدب على القياس، فأبدع القياس منها أربعاً وثلاثين كلمة: ولو تدبَّرتَ كيفيةَ استخراجِها ورجعتَ إلى الأصولِ التي أخذتَ منها لأيقنتَ أنَّ هذه العربيةُ هي أوسعُ اللغاتِ كافةً، وأنها من أهلِها كالنبوةِ الخالدةِ في دينِها القوي: تنتظرُ كلُّ جيلٍ يأتي كما ودَّعتُ كلَّ جيلٍ غَبرَ لأنها للإنسانيةِ، لهؤلاءِ وهؤلاءِ.

إنَّ ظهورَ مثلِ هذا الشرحِ كالتوبيخِ لأكثرِ كُتَّابِ هذا الزمَنِ أنْ أقرءوا وأدرسوا وخصُّوا لغتكم بشطَرٍ من عنايتكم، وترَبُّوا لها بتربيتها في مدارسكم ومعاهدكم، وأصبروا على معاناتها صبرَ المُجِبِّ على حبيته، فإنَّ ضَعْفُكُمْ فَصَرَ الْبَارُّ على مَنْ يُلْزِمُهُ حَقُّهُ؛ فإنَّ ضَعْفُكُمْ عن هذا فَصَرَ الْمُتَكَلِّفِ الْمُتَجَمِّلِ على الْأَقْل!

أمير الشعر في العصر القديم

الوجه في إفراذ شاعرٍ أو كاتبٍ منَ الماضين بالتأليف، أن تصنعَ كأنك تُعيدُهُ إلى الدنيا في كتابٍ وكانَ إنساناً، وترجمهُ درساً وكانَ عمراً، وتردُّهُ حكايةً وكانَ عملاً، وتنقلُهُ بزمينه إلى زمنك، وتعرضهُ بقومِهِ على قومك، حتى كأنَّهُ بعد أن خلقهُ اللَّهُ خلقَهُ إيجادٍ يخلقُهُ العقلُ خلقَةً تفكيرٍ.

من أجل ذلك لا بُدَّ أن يتقصَّى^(١) المؤلِّفُ في الجمعِ من آثارِ المترجمِ وأخبارِهِ، وأن يحملَ في ذلك من الغنِّ ما يحمله لو هو كأن يجري وراءَ ملكيٍّ من يُترجمُهُ لقراءةِ كتابِ أعمالِهِ كتابَ في يديهما. ولا بُدَّ أن يُبالغَ في التمهيصِ والمقابلة، ويُدقِّقَ في الاستنباطِ والاستخراجِ، ويضيفَ إلى عامَّةٍ ما وجدَ من العلمِ والخبرِ خاصَّةً ما عندهُ من الرأيِ والفكرِ، ويعملَ على أن يُنقِّحَ ما أنتهى إليه الماضي في أدبِهِ وعلمِهِ بما بلغَ إليه الحاضرُ في فنِّهِ وفلسفَتِهِ؛ وذلك من عملِ العقلِ المتجدِّدِ أبداً والمترادفِ على هذه الحياةِ بمذاهبِهِ المختلفةِ، يشبهُ عملَ الدهرِ المتجدِّدِ أبداً والمترادفِ بالليلِ والنهارِ على هذه الأرضِ، كلُّ نهارٍ أو ليلٍ هو آخرُ وهو أولُ، وكذلك العقولُ كلها آخرُ من ناحيةٍ وأولُ من ناحيةٍ.

والتجديدُ في الأدبِ إمَّا يكونُ من طريقتين: فأما واحدةٌ فإبداعُ الأدبِ الحيِّ في آثارِ تفكيرِهِ بما يخلقُ من الصورِ الجديدةِ في اللغةِ والبيانِ، وأما الأخرى فإبداعُ الحيِّ في آثارِ الميِّتِ بما يتناولُها به من مذاهبِ النقدِ المستحدثةِ وأساليبِ الفنِّ الجديدةِ وفي الإبداعِ الأولِ إيجادُ ما لم يوجد، وفي الثاني إتمامُ ما لم يمتِّمْ؛ فلا جرمَ كانتَ فيهما معاً حقيقةُ التجديدِ بكلِّ معانيها، ولا تجديدٍ إلا من ثمة، فلا جديد؛ إلا مع القديم.

وإذا تبينَتَ هذا وحَقَّقَتَهُ أدركتَ لماذا يتخبطُ متحلُّو الجديدِ بيننا وأكثرُهُم يذعِبُهُ سَفاهاً ويتقلَّدُهُ زوراً، وجملةُ عملِهِم كوضعِ الزنجيِّ الذَّرُورِ الأبيضِ (البودرة)

(١) يتقصَّى: يتحرَّى ويتابع التمهيص: التقضي والتحرِّي.

على وجهه ثم يذهب يدعي أنه خرج أيضاً من أمه لا من العلبة... فإن منهم من يصنع رسالة في شاعر وهو لا يفهم الشعر ولا يحسن تفسيره ولا يجده في طبعه، ومنهم من يدرس الكاتب البليغ وقد باعده الله من البلاغة ومذاهبها وأسرارها، ومنهم من يجدد في تاريخ الأدب، ولكن بالتكذب عليه والتفحم فيه والذهاب في مذهب المخالفة، يضرب وجه المستقبل حتى يجيء مذبراً، ووجه المذبر حتى يعود مقبلاً، فإذا لكل فريق جديد، وينسى أن جديده بالصفة لا بالطبيعة وبالزور لا بالحق.

ألا إن كل من شاء استطاع أن يطب لكل مريض، لا يكلفه ذلك إلا قولاً يقوله وتلفيقاً يدبره، ولكن أذكلك كل من وصف دواء استطاع أن يشفى به؟

وبعد؛ فقد قرأت رسالة أمريء القيس التي وضعها الأديب السيد محمد صالح سمك، فرأيت كاتبها - مع أنه ناشئ بعد - قد أدرك حقيقة الفن في هذا الوضع من تجديد الأدب، فأستقام على طريقة غير ملتوية، ومضى في المنهج السديد ولم يدع التثبث وإنعام النظر وتقليب الفكر وتحصين الرأي، ولا قصر في التحصيل والأطلاع والاستقصاء، ولا أراه قد فاته إلا ما لا بد أن يفوت غيره مما ذهب في إهمال الرواة المتقدمين وأصبح الكلام فيه من بعدهم رجباً بالغيب وحكماً بالظن.

فإن أمراً القيس في رأيي إنما هو عقل بياني كبير من العقول المفردة التي خلقت خلقتها في هذه اللغة، فوضع في بيانها أوضاعاً كان هو مبتدعها والسابق إليها، ونهج لمن بعده طريقتهما في الاحتماء عليها والزيادة فيها والتوليد منها؛ وتلك هي منقبة التي انفرد بها والتي هي سر خلوده في كل عصر إلى دهرنا هذا وإلى ما بقيت اللغة؛ فهو أصل من الأصول، في أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما، حتى لكأنه مصنع من مصانع اللغة لا رجل من رجالها؛ وكما يقال في أيامنا في أمم الصناعة: سيارة فورد وسيارة فيات، يمكن أن يقال مثل ذلك في بعض أنواع البلاغة العربية: استعارة أمريء القيس، وتشبيه أمريء القيس.

ولكن تحقيق هذا الباب وإحصاء ما انفرد به الشاعر وتاريخ كلماته البيانية مما لا يستطيعه باحث وليس لنا فيه إلا الوقوف عند ما جاء به النص.

ولقد نبهنا في (إعجاز القرآن) إلى مثل هذا؛ إذ نعتقد أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم كان جديداً في اللغة، لم يوضع من قبله ذلك الوضع ولم يجز في

أستعمال العرب كما أجراءه، فهو يَصُبُّ أَلْغَةً صَبًّا في أَوْضَاعِهِ لِأَهْلِهَا لا في أَوْضَاعِ أَهْلِهَا؛ وبذلك يُحَقِّقُ من نحو ألفٍ وأربعمائة سنة ما لا نظَرُ فلسفةً أَلْفَنُ قد بَلَغَتْ إليه في هذا الْعَصْرِ؛ إذ حَقِيقَةُ أَلْفَنٍ على ما نرى أن تكونَ الْأَشْيَاءَ كَأَنَّهَا نَاقِصَةٌ في ذاتِ أَنْفُسِهَا لَيْسَ في تَرْكِيبِهَا إِلَّا أَلْقُوَّةٌ أَلَّتِي بُنِيتَ عَلَيْهَا، فإذا تَنَاولَهَا الصَّنْعُ الْحَادِثُ أَلْمَلَهُمْ أَضَافَ إليها من تَعْبِيرِهِ ما يُشْعِرُكَ أَنَّهُ خَلَقَ فِيهَا الْجَمَالَ الْعَقْلِيَّ، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ في الْخِلْقَةِ نَاقِصَةً حَتَّى أَتَمَّهَا.

وهذا أَلْمَعْنَى الَّذِي بَيَّنَّاهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَحُومُ عَلَيْهِ أَكْرَؤُهُ وَالْعُلَمَاءُ بِالشَّعْرِ قَدِيمًا، يُحَسِّنُونَهُ وَلَا يَجِدُونَ بَيَانَهُ وَتَأْوِيلَهُ، فَتَرَى الْأَصْمَعِيَّ مَثَلًا يَقُولُ في شَعْرِ لَبِيدٍ؛ إِنَّهُ طَلِيسَانٌ طَبْرِي. أَيِ مُحْكَمٍ مَتِينٍ، وَلَكِنْ لَا رَوْنَقَ لَهُ؛ أَيِ فِيهِ أَلْقُوَّةٌ وَلَيْسَ فِيهِ الْجَمَالُ؛ أَيِ فِيهِ التَّرْكِيبُ وَلَيْسَ فِيهِ أَلْفَنٌ.

وَالْعَقْلُ أَلْبَيَانِيُّ كَمَا قُلْنَا فِي غَيْرِ هَذِهِ أَلْكَلِمَةِ، هُوَ ثَرَوَةُ أَللُّغَةِ، وَبِهِ وَبِأَمْثَالِهِ تَعَامَلُ التَّارِيخُ، وَهُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ فِيهَا فَنَ الْأَفَاضِهَا وَصُورِهَا؛ فَهُوَ بِذَلِكَ أَمْتَدَادُهَا أَلزَّمْنِي وَأَتَنَقَّلُهَا أَلتَّارِيخِيَّ وَتَخَلَّقُهَا مَعَ أَهْلِهَا إِنْسَانِيَّةً بَعْدَ إِنْسَانِيَّةٍ فِي زَمَنِ بَعْدَ زَمَنِ، وَلَا تَجْدِيدَ وَلَا تَطَوُّرَ إِلَّا فِي هَذَا أَلتَّخَلُّقِ مَتَى جَاءَ مِنْ أَهْلِهِ وَالْجَدِيدِينَ بِهِ؛ وَهُوَ أَلْعَقْلُ أَلْمَخْلُوقُ لِلتَّفْسِيرِ وَالتَّوْلِيدِ وَتَلَقَّى أَلْوَحْيَ وَأَدَائِهِ وَأَعْتَصَارِ أَلْمَعْنَى مِنْ كُلِّ مَادَّةٍ وَإِدَارَةِ أَلْأَسْلُوبِ عَلَى كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ أَلْمَعَانِي وَالْآرَاءِ، فَيَتَنَقَّلُهَا مِنْ خِلْقَتِهَا وَصِيغِهَا أَلْعَالِيَةِ إِلَى خَلْقِ إِنْسَانٍ بِعَيْنِهِ، هُوَ هَذَا أَلْعَبْقَرِيُّ الَّذِي رَزَقَ أَلْبَيَانَ.

وَلِلْسَبَبِ الَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ بَقِيَ أَمْرُ أَلْقَيْسٍ كَأَلْمِيزَانِ أَلْمَنْصُوبِ فِي أَلشَّعْرِ أَلْعَرَبِيِّ بَيِّنٌ بِهِ أَلنَاقِصُ وَأَلْوَافِي؛ قَالَ أَلْبَاقَلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ (الإعجاز): وَقَدْ تَرَى أَلْأَدْبَاءَ أَوَّلًا يُوَازِنُونَ بِشَعْرِهِ (يُرِيدُ أَمْرًا أَلْقَيْسٍ) فَلَانًا وَفَلَانًا وَيَضُمُّونَ أَشْعَارَهُمْ إِلَى شَعْرِهِ، حَتَّى رُبَّمَا وَازَنُوا بَيْنَ شَعْرِ مَنْ لَقِينَاهُ (تُوفِيَ أَلْبَاقَلَانِيُّ سَنَةَ ٤٠٣ لِلهِجْرَةِ) وَبَيْنَ شَعْرِهِ فِي أَشْيَاءَ لَطِيفَةٍ وَأُمُورٍ بَدِيعَةٍ، وَرُبَّمَا فَضَلُوهُمْ عَلَيْهِ أَوْ سَوَّاهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَوْ قَرَّبُوا مَوْضِعَ تَقْدَمِهِ عَلَيْهِمْ وَبَرُوزَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، اهـ.

وَمَعْنَى كَلَامِهِ أَنَّ أَمْرًا أَلْقَيْسٍ أَصْلٌ فِي أَلْبَلَاغَةِ، قَدْ مَاتَ وَلَا يَزَالُ يُخْلَقُ، وَتَطَوَّرَتِ أَلدُّنْيَا وَلَا يَزَالُ يَجِيءُ مَعَهَا، وَبَلَغَ أَلشَّعْرُ أَلْعَرَبِيُّ غَايَتَهُ وَلَا تَزَالُ عَرَبِيَّتُهُ عِنْدَ أَلْغَايَةِ.

وَعَرَّضَ أَلْبَاقَلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ طَوِيلَةً أَمْرِيَّ أَلْقَيْسٍ فَانْتَقَدَ مِنْهَا أَيْبَاتًا كَثِيرَةً، لِيَدُلَّ

بذلك على أن أجودَ شعرٍ وأبدعُهُ وأفصحَهُ وما أجمعوا على تقدُّمِهِ في الصَّنَاعَةِ
وَأَلْبِيَانِ، هو قَبِيلٌ آخَرُ غَيْرُ نَظْمِ الْقُرْآنِ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ آفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَنَقْصِهَا وَعَوَارِهَا؛
فَرَكِبَ فِي ذَلِكَ رَأْسَهُ وَرَجَلِيهِ مَعًا... فَأَصَابَ وَأَخْطَأَ، وَتَعَسَّفَ وَتَهَدَّى، وَأَنْصَفَ
وَتَحَامَلَ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِمَكَانَةِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ فِي ابْتِكَارِهِ أَلْيَانِي الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْفَعَ
عَنهُ؛ وَلَمَّا أَنْتَقَدَ قَوْلَهُ:

وَبِيضَةُ خُذَرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمْتَنَعُ مِنْ لَهْوِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ
قال: «فقد قالوا: عَنَى بِذَلِكَ أَنَّهَا كَبِيضَةُ خُذَرٍ فِي صِفَاتِهَا وَرَقَّتِهَا، وَهَذِهِ كَلِمَةٌ
حَسَنَةٌ وَلَكِنْ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا بَلٌّ هِيَ دَائِرَةٌ فِي أَفْوَاهِ الْعَرَبِ». أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ كَانَ
أَلْبَاقِلَانِي يَسْمَعُ مِنْ أَفْوَاهِ الْعَرَبِ فِي عَصْرِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ (وَبِيضَةُ خُذَرٍ)؟
على أن الْكِنَابَةَ عَنِ الْحَبِيبَةِ (بِيضَةُ الْخُذَرِ) مِنْ أَوَّلِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنُ مَا يَوْثِي
الْعَقْلَ الشَّعْرِيَّ، وَلَوْ قَالَهَا الْيَوْمَ شَاعِرٌ فِي لَنْدُنْ أَوْ بَارِيسَ بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ أَمْرُؤُ
الْقَيْسِ - بِمَا فَسَّرَهَا بِهِ أَلْبَاقِلَانِي - لَأَسْتَبَدَّعَتْ مِنْ قَائِلِهَا وَلَأَصْبَحَتْ مَعَ الْقَبْلَةِ عَلَى
كُلِّ فَمٍ جَمِيلٍ؛ بَلٌّ هُمْ يَمْرُونَ فِي بَعْضِ بَيَانِهِمْ مِنْ طَرِيقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، فَيَكُونُونَ عَنِ
أَلْبَيْتِ الَّذِي يَتَلَاقَى فِيهِ الْحَبِيبَانِ (بِالْعُشِّ)، وَمَا يُتَّخَذُ الْعُشُّ إِلَّا لِلْبِيضَةِ. إِنَّمَا عَنِ
الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ أَنَّ حَبِيبَتَهُ فِي نُعُومَتِهَا وَتَرْفِهَا وَلِيْنٍ مَا حَوْلَهَا، ثُمَّ فِي مَسْهَا وَحِرَارَةِ
الشَّبَابِ فِيهَا، ثُمَّ فِي رَقَّتِهَا وَصَفَاءِ لَوْنِهَا وَبَرَقَّتِهَا، ثُمَّ فِي قِيَامِ أَهْلِهَا وَذَوِيهَا عَلَيْهَا
وَلَزُومِهِمْ إِيَّاهَا، ثُمَّ فِي حَذَرِهِمْ وَسَهَرِهِمْ، ثُمَّ فِي أَنْصِرَافِهِمْ بِجَمَلَةِ الْحَيَاةِ إِلَى شَأْنِهَا
وَبِجَمَلَةِ الْقُوَّةِ إِلَى حِيَاطَتِهَا^(١) وَالْمُحَامَاةِ عَنْهَا - هِيَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَمِنْ نَفْسِهَا
كَبِيضَةُ الْجَارِحِ فِي عَشِّهِ، إِلَّا أَنَّهَا بِيضَةُ خُذَرٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ هَذَا أَلْبَيْتِ:

تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعْشَرًا عَلَيَّ حِرَاصًا لَوْ يُسْرُونَ مَقْتَلِي

فتلك بعضُ معاني الْكَلِمَةِ وَهِيَ كَمَا تَرَى، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفَسَّرَ أَلْبِيَانِ...

(١) حِيَاطَتُهَا: حِمَايَتُهَا.

البؤساء

ترجم حافظ هذا الجزء الثاني من البؤساء فطوى به الأول، وكانوا يحسبون الأول قد عَقِمَتْ بمثلِهِ ألبلاغَةُ فلا ثانيَ لَهُ. وبين الجزئين زمنٌ لو اتَّسعَ بِهِ أديبٌ في قراءةِ كُتُبِ الأدبِ لاسْتَوْعَبَهَا كُلَّهَا، فكانَ أرتفاعُ السَّنِ بِحافظٍ في هذه المدةِ جعلَ منه في قوَّةِ الأدبِ حافظينِ يترجمانِ معاً.

وما البؤساءُ في ترجمتهِ إلَّا فكرٌ فيلسوفٍ تعلَّقَ في قلمِ شاعرٍ فَأَنعَطَفَتْ عليهِ حواشي ألبیانِ من كلِّ نواحيه، وجاءَ ما تدري أشعراً مِنَ النَّثرِ أم نثراً مِنَ الشعرِ، وخرجَتْ بِهِ الْكِتَابَةُ في لَوْنٍ مِنَ الْأَصْفَاءِ وَالْإِشْرَاقِ كأنَّما تنحلُّ عليهِ أشعةُ الضُّحَى.

ترجم حافظُ فوضَعَ اللُّغَةَ بين فكرِهِ ولِسَانِهِ، ووقفَ تحتِ سحابةٍ مِنَ السُّحُبِ الَّتِي خَفَقَ عَلَيْهَا جَنَاحُ جبريلَ، فما تَخَلَّوْا كِتَابَتُهُ مِنْ غُلٍّ يَتَنَفَّسُ عَلَيْكَ بِرَائِحَةِ الْإِعْجَازِ؛ وتراه يتحدَّرُ مَعَ الْكَلَامِ ويتناولُ منه ويدعُ، فما نَزَعَ بِهِ الْكَلَامُ مِنْزَعاً إِلَّا وَجَدَهُ مَتَمَكِّناً مِنْهُ وَأَصَابَهُ حَيْثُ أَصَابَهُ كَالْتِيَّارِ جَمْلَةً وَاحِدَةً تَلَفَ أَوَّلَ النَّهْرِ وَآخِرُهُ عَلَى مَدٍّ مَا يَجْرِي؛ فهو حَيْثُ كَانَ فِي السَّهْلِ وَفِي الصَّغْبِ، غَيْرَ أَنَّهُ يَسْتَمِيرُ فِي مَوْضِعٍ وَيَسْتَعْلِنُ فِي مَوْضِعٍ، وَيَجِيئُ وَيَهْدُرُ وَيَتَرَامِي فِي الْعَمَقِ فِيدُوِي دَوِيًا.

ومن هنا يحسبُهُ بعضُهُم يَجْنَحُ إِلَى مَا يَسْتَجْفِي مِنَ الْكَلَامِ، وَإِلَى اسْتِكْرَاهِ بَعْضُ الْأَلْفَاظِ وَالتَّكَلُّفِ لِبَعْضِهَا؛ وَإِنَّمَا ذَاكَ وَضْعٌ مِنْ أَوْضَاعِ اللُّغَةِ وَمَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ أَلْبَلَاغَةِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَدَّ الْقَوْلُ وَلِيلِينَ، وَأَنْ يَكُونَ فِي أَجْرَاسِ الْحُرُوفِ مَا فِي نَغَمِ الْإِيْقَاعِ؛ وَمَا أَشْبَهَ هِنْدَسَةَ أَلْبِيَانِ بِهِنْدَسَةِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَعْمُرُ النَّهْرَ وَتَرْمِي بِالْبَحْرِ وَتَقْدِفُ بِالْجِبَلِ الْأَشْمَ؛ وَمَا الْجِبَلُ لَوْ حَقَّقَتْ فِي وَجْهِهِ التَّنَاسُبِ الطَّبِيعِيِّ إِلَّا بِحَرٍّ قَدْ تَحَجَّرَ فَانْتَشَرَتْ أَمْوَاجُهُ مِنْ صَخُورِهِ، وَكَلَّا أَتْنِيهِمَا عَلَى مَا بَيْنَ الصَّلَابَةِ وَاللَّيْنِ تَعْبِيرٌ فِي أَسَالِيبِ الْقُوَّةِ عَنِ الْقُوَّةِ، وَتَوْضِيحٌ لِأَقْوَى مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَظْهَرَ، بِأَقْوَى مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْفَى.

يُخْطِئُ الضَّعَافُ مِنَ الْكُتَّابِ وَبِخَاصَةِ فِي آيَاتِنَا هَذِهِ . إِذَا حَاسِبُوا الْفَصَاحَةَ

العربية قبلاً واحداً من اللفظ الرقيق المأنوس؛ ولقد تجد بعض هؤلاء الضعفاء وإنه يرى في الكلام الجزل المتفصح ما يرى في جمجمة الأعاجم إذا نطقوا فلم يبينوا؛ وإنما هي العربية، وإنما فصاحتها في مجموع ما يطرد به القول؛ والفصاحة في جملتها وتفصيلها إحكام التناسب بين الألفاظ والمعاني، والغرض الذي يتجه إليه كلاهما؛ فمتى فصل الكلام على هذا الوجه وأحكم على هذه الطريقة، رأيت جماله واضحاً بيناً في كل لفظ تقوم به العبارة، من النسيج المهلهل الرقيق، إلى الخبث المحكم الدقيق، إلى الأسلوب المندمج الموثق الذي يسرد في قوة الحديد؛ إذ يكون كل حرف لموضعه، ويكون كل موضع لحرفه، ويكون كل ذلك بمقدار لا يسرف، وقياس لا يخطئ، ووزن لا يختلف؛ وهذه هي طبيعة الفصاحة العربية دون سائر اللغات، وبها أمكن الإعجاز في هذه اللغة ولم يمكن في سواها.

ومترجم البؤساء أحد الأفراد المعدودين الذين أحكموا هذه الطريقة ونفذوا إلى أسرارها، ففي كل موضع من كتابته موضع روعة، حتى ما تدري أكتب أم يصوغ أم يصور، وكأنه لا ينقل من لسان إلى لسان، بل من فكر إلى فكر، فترى أكثر جملة كأنها نضى فيها المصاييح.

ومن الخواص التي انفرد بها حافظ أنه ظاهر في صناعة ألفاظه ظهور هيجو في صناعة معانيه؛ إذ لا تجد غيره من المترجمين يتسع لهذا الأسلوب أو يطيقه؛ وأكثر الكتب المترجمة إلى العربية إنما تطمس على اسم المترجم قبل أن تكشف عن اسم المؤلف، فلا يحيا الميت إلا بموت الحي؛ وهم في أكثر ما يصنعون لا يعدون أن يصححوا العامة أو يفصحوا بها قليلاً، فيستوي في صناعة البيان أن يكون ناقل الكتاب هذا أو ذاك أو ذلك، لأنهم سواسية، ولا تؤتيك كتبهم أكثر مما يؤتيك الاسم المعلق على مسماه.

غير أنك في البؤساء ترى مع الترجمة صناعة غير الترجمة، وكأنما ألف هيجو هذا الكتاب مرة وألفه حافظ مرتين، إذ ينقل عن الفرنسية؛ ثم يفتن في التعبير عما ينقل، ثم يحكم الصناعة فيما يفتن، ثم يبالغ فيما يحكم؛ فانت من كتابه في لغة الترجمة، ثم في بيان اللغة، ثم في قوة البيان؛ وبهذا خرج الكتاب وإن ترجمه لأحق به في العربية من مؤلفه، وجاء وما يستطيع أحد أن ينسى أنه لحافظ دون سواه.

وتلك طريقة في الكتابة لا يستعان عليها إلا بالأدب العزيز، والذوق الناضج،

وَالْبَيَانِ الْمَطْبُوعِ؛ ثُمَّ بِالصَّبْرِ عَلَى مُطَاوَلَةِ التَّعَبِ وَمَعَانَاةِ الْكَدِّ فِي تَخْيِيرِ الَّلَفْظِ وَتَجْوِيدِ الْأَسْلُوبِ وَتَصْفِيَةِ الْعِبَارَةِ؛ فَلَقَدْ يُنْفِقُ الْكَاتِبُ وَقْتًا فِي عَمْرِ اللَّيْلِ لِيُخْرِجَ مِنْ آخِرِهِ سَطْرًا فِي نَوْرِ الْفَجْرِ، وَبِهَذَا الصَّنِيعِ جَاءَتْ صَفَحَاتُ الْبُؤْسَاءِ عَلَى قِلَّتِهَا كَشَبَابِ الْهَوَى؛ لِكُلِّ يَوْمٍ مِنْهُ فَجْرُهُ وَشَمْسُهُ، وَلِكُلِّ لَيْلَةٍ قَمَرُهَا وَنَجْوُهَا.

وَالَّذِي نَعْتَمِزُهُ^(١) فِي هَذِهِ التَّرْجُمَةِ أَنَّ الصَّجَرَ يَسْتَبِدُّ أحيانًا بِصَاحِبِنَا فَيَسْتَكْرِهُهُ عَلَى غَيْرِ طَبْعِهِ، وَيُرِدُّهُ إِلَى غَيْرِ مَأْلُوفِهِ؛ وَمَنْ ثُمَّ يَضْطَرُّ ذَوْقُهُ وَسَلِيقَتُهُ أَوْ يَذْهَبُ بِهِ عَنْهُمَا، فَيَعْدِلُ بِالْمَعْنَى عَنْ لَفْظِهِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ الْأَدَبَاءُ فِيهِ، كَاسْتَعْمَالِهِ قَارَنَ بَيْنَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُونَ مَثْلَ بَيْنَهُمَا، أَوْ يُخْلُ بوزنِ الْكَلِمَةِ فِي مِيزَانِ الذَّوْقِ، فَتَرَى الْعِبَارَةَ الْيَابِسَةَ فِي الْجُمْلَةِ الْخَضِرَاءِ الَّتِي تَرَفُّ؛ وَذَلِكَ مَا لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَثَرُ الضَّعْفِ الْإِنْسَانِيِّ فَيَمْنِ ارْتَهَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِمُلَابَسَةِ الْقُوَّةِ الْعَلِيَا فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

وَلَمْ يُنْتَزَ عَنْهُ كِتَابٌ إِلَّا ذَلِكَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ الَّذِي أَهْتَرَّتْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ.

(١) نَعْتَمِزُهُ: نَجِدُهُ مَغْمَزًا لِلانْتِقَاصِ مِنْ قُدْرِهِ.

الملاح النَّاه

إذا أردت أن أكتب عن شعرٍ فقرأته، كان من دأبي^(١) أن أقرأه متنبهاً أتصفح عليه في الحرف والكلمة، إلى البيت والقصيدة، إلى الطريقة والنهج، إلى ما وراء الكلام من بواعث النفس الشاعرة ودوافع الحياة فيها، وعن أي أحوال هذه النفس يصدر هذا الشاعر، وبأيها يتسبب إلى الإلهام، وفي أيها يتصل الإلهام به، وكيف يتصرف بمعانيه، وكيف يسترسل إلى طبعه، ومن أين ألمأت في رديئه وسقطه، وبماذا يسلك إلى تجويده وإبداعه.

ثم كيف جذة قريحته وذكاء فكره والمملكة النفسية البانية فيه، وهل هي جارة متعسفة تملك ألبان من حدود اللغة في اللفظ إلى حدود الإلهام في المعنى، ملكة استقلال تنفذ بالأمر والنهي جميعاً، أو هي ضعيفة رخوة ليس معها إلا الاختلال والاضطراب، وليس لها إلا ما يحمل الأضعيف على طبعه المكدود كلما عثف به سقط به؟

أتبين كل هذا فيما أقرأ من الشعر، ثم أزيد عليه انتقاده بما كنت أصنعه أنا لو أنني عالجته هذا الغرض أو تناولت هذا المعنى، ثم أضيف إلى ذلك كله ما أثبتته من أنواع الامتزاج التي يحدثها الشعر في نفسي؛ فإني لأطرب للشعر الجيد الوثيق أنواعاً من الطرب لا نوعاً واحداً، وهي تشبه في التفاوت ما بين قطرة الندى الصافية في ورق الزنبقة وقطرة الشعاع المتألقة في جوهر الماسة وموجة النور المتألهة في كوكب الزهرة.

وأكثر الشعر الذي في أيامنا هذه لا يتصل بنفسي ولا يخف على طبعي، ولا أراه يقع من الشعر الصحيح إلا من بعد، وهو مني أنا كالجمل يمر بي في الطريق لا أعرفه: فلا ينظر إلي ولا أنظر إليه، فما أبصر منه رجلاً وإنسانيةً وحياةً أكثر مما أراه ثوباً وجذاءً وطربوشاً! والعجيب أنه كلما ضعف الشاعر من هؤلاء قوي على

(١) دأبي: عادي.

مِقْدَارٍ فِي الْأَحْتِجَاجِ لِضَعْفِهِ، وَاللَّهْمَ مِنَ الشَّوَاهِدِ وَالْحُجَجِ مَا لَوْ أَلْهِمَ بَعْدَهُ مِنَ
الْمَعْنَى وَالْخَوَاطِرِ لَكَانَ عَسَى . . .

فَإِذَا نَافَرَتِ الْمَعْنَى أَلْفَظُهَا وَاخْتَلَفَتِ الْأَلْفَظُ عَلَى مَعْنَاهَا قَالَ: إِنَّ هَذَا فِي
الْفَرْقِ . . . هُوَ الْأَسْتَوَاءُ وَالْأَطْرَادُ وَالْمُلَامَةُ وَقُوَّةُ الْحَبْكِ؛ وَإِذَا عَوَّضَ وَخَانَهُ الْأَلْفَظُ
وَالْمَعْنَى جَمِيعاً وَأَسَاءَ لِيَتَكَلَّفُ وَتَسَاقَطَ لِيَتَحَذَنُقَ وَجَاءَكَ بِشَعْرِهِ وَتَفْسِيرِ شَعْرِهِ
وَالطَّرِيقَةُ لِفَهْمِ شَعْرِهِ قَالَ: إِنَّهُ أَعْلَى مِنْ إِدْرَاكِكَ مُدَاصِرِيهِ، وَإِنْ عَجَزَتْ مَعْنَاهُ هَذِهِ
آتِيَةٌ مِنْ أَنَّ شَعْرَهُ مِنْ وَرَاءِ الْكَلِمَةِ، مِنْ وَرَاءِ الْحَالَةِ الْنَفْسِيَّةِ، مِنْ وَرَاءِ الْعَصْرِ، مِنْ
وَرَاءِ الْغَيْبِ: كَأَنَّ الْمَوْجُودَ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ النَّاسِ هُوَ ظِلُّ شَخْصٍ لَا شَخْصَهُ، وَالظِّلُّ
بِطَبِيعَتِهِ مَطْمُوسٌ مَبْهَمٌ لَا يُبَيِّنُ إِبَانَةَ الشَّخْصِ . وَإِذَا أَهْلَكَ الشَّاعِرُ الْأَسْتَعَارَةَ وَأَمْرَضَ
الْتَشْبِيهَ وَخَنَقَ الْمَجَازَ بِحَبْلِ - قَالَ لَكَ: إِنَّهُ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْعَصْرِيَّةِ وَإِنَّمَا سَدَّدَ وَقَارَبَ
وَأَصَابَ وَأَحْكَمَ . وَإِذَا سَمِيَ الْمَقَالَةُ قَصِيدَةً . وَخَلَطَ فِيهَا خَلَطَهُ وَجَاءَ فِي أَسْوَأِ
مَعْرَضٍ وَأَقْبَحِهِ وَخَرَجَ إِلَى مَا لَا يُطَاقُ مِنَ الْكَرَاكَةِ وَالْغَثَاثَةِ - قَالَ لَكَ: هَذِهِ هِيَ
وَحْدَةُ الْقَصِيدَةِ، فَهِيَ كُلُّ وَاحِدٍ أَفْرَعٍ إِفْرَاعَ الْجَسْمِ الْحَيِّ: رَأْسُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي
مَوْضِعِ رَأْسِهِ وَرِجْلَاهُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي مَوْضِعِ رِجْلَيْهِ . . .

تلك طبقات من الضعف تظاهرت الحُجَجُ من أصحابها على أنها طبقات من
القوة، غير أن مضدائق الشهادة للأقوياء عظامهم المشبوحة، وعضلاتهم المفتولة،
وقلوبهم الجريئة، أما الأليسة فهي شهود الزور في هذه القضية خاصة .

هناك ميزان للشاعر الصحيح وللآخر المتشاعر فالأول تأخذ من طريقته
ومجموع شعره أنه ما نظم إلا ليثبت أنه قد وضع شعراً، والثاني تأخذ من شعره
وطريقته أنه إنما نظم ليثبت أنه قرأ شعراً . وهذا الثاني يُشْعِرُكَ بِضَعْفِهِ وَتَلْفِيقِهِ أَنَّهُ
يَخْدُمُ الشَّعْرَ لِيَكُونَ شَاعِراً، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ يَرِيكَ بِقُوَّتِهِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ إِلَى الشَّعْرِ نَفْسِهِ
يَخْدُمُهُ لِيَكُونَ هُوَ شَاعِرَهُ .

أما فريق المتشاعرين فليمثل له القاريء بمن شاء وهو في سعة . وأما فريق
الشعراء ففي أوائل أمثله عندي الشاعر المهندس علي محمود طه . أشهد: أنني
أكتب عنه الآن بنوع من الإعجاب الذي كتبْتُ بِهِ فِي «الْمَقْتَطَفِ» عَنْ أَصْدِقَائِي
أَقْدَمَاءَ: محمود باشا البارودي، وإسماعيل باشا صبري، وحافظ، وشوقي -

رَحْمَهُمُ اللَّهُ وَأَطَالَ بَقَاءَ صَاحِبِنَا - فِهَذَا الشَّابُّ الْمُهَنْدِسُ أُوتِيَ مِنْ هَنْدَسَةِ الْبِنَاءِ قُوَّةَ التَّمْيِيزِ وَدِقَّةَ الْمُحَاسَبَةِ، وَوَهَبَ مَلَكَةُ الْفَضْلِ بَيْنَ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ فِي الْأَشْكَالِ بِمَا عَلَّمَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَمَا عَلَّمَهُ مِنَ الذَّوْقِ وَهَذَا إِلَى جِلَاءِ الْفُطْنَةِ وَصِقَالِ الطَّبْعِ وَتَمْوُجِ الْخَيَالِ وَأَنْفَسَاحِ الذَّاكِرَةِ وَأَنْتِظَامِ الْأَشْيَاءِ فِيهَا؛ وَبِهَذَا كُلِّهِ اسْتَعَانَ فِي شَعْرِهِ وَقَدْ خُلِقَ مُهَنْدِسًا شَاعِرًا، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ خُلِقَ شَاعِرًا مُهَنْدِسًا؛ وَكَأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَمْ يَقْدِرْ لِهَذَا الشَّاعِرِ الْكَرِيمِ تَعَلَّمَ الْهَنْدَسَةَ وَمُزَاولَتَهَا وَالْمَهَارَةَ فِيهَا إِلَّا لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَتَّبِعُ نُبُوغَهُ لِلْعَرَبِيَّةِ فِي زَمَنِ الْفُوضَى وَعَهْدِ التَّقَلُّلِ، وَحِينَ فَسَادِ الطَّرِيقَةِ وَتَخَلُّفِ الْأَذْوَاقِ وَتَرَاوُجِ الطَّبْعِ وَوُقُوعِ الْعَلَلِ فِي هَذَا الْمُنْطَقِ لِانْتِعَكَاسِ الْقَضِيَّةِ، فَيَكُونُ الْبِرْهَانُ عَلَى أَنَّ هَذَا شَاعِرٌ وَذَلِكَ نَابِغَةٌ وَذَلِكَ عِبْقَرِيٌّ - هُوَ عَيْنُهُ الْبِرْهَانُ عَلَى أَنَّ لَا شَعْرَ وَلَا نُبُوغَ وَلَا عِبْقَرِيَّةَ؛ وَهَذِهِ فُوضَى تَحْتَاجُ فِي تَنْظِيمِهَا إِلَى (مَصْلُحَةِ تَنْظِيمِ) بِالْهَنْدَسَةِ وَأَلَاتِهَا وَالرِّيَاضَةِ وَأَصُولِهَا وَالْأَشْكَالِ وَالرُّسُومِ وَفُتُونِهَا، فَجَاءَ شَاعِرُنَا هَذَا وَفِيهِ الطُّبُّ لِمَا وَصَفْنَا؛ فَهُوَ يَنْظُمُ شَعْرَهُ بِقَرِيحَةٍ بَيَانِيَّةٍ هَنْدَسِيَّةٍ، أَسَاسُهَا الْأَنْزَانُ وَالضَّبْطُ، وَصَوَابُ الْجِسْمِيَّةِ فِيمَا يَقْدِرُ لِلْمَعْنَى، وَابْدَاعُ الشَّكْلِ فِيمَا يُنْشِئُ مِنَ الْلَفْظِ، وَالْأَيُّ يَتْرُكُ الْبِنَاءَ الشَّعْرِيَّ قَائِمًا لِيَقَعَ إِذْ يَكُونُ وَاهِنًا فِي أَسَاسِهِ مِنَ الصَّنَاعَةِ، بَلْ لِيَثْبِتَ إِذْ يَكُونُ أَسَاسُهُ مِنَ الصَّنَاعَةِ فِي رَسُوخٍ وَعَلَى قَدَرٍ.

وَدِيْوَانُ «المَلَاخِ التَّانِهِ» الَّذِي أَخْرَجَهُ هَذَا الشَّاعِرُ لَا يَنْزِلُ بِصَاحِبِهِ مِنْ شَعْرِ الْعَصْرِ دُونَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَوْثَقْنَا إِلَيْهِ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَقْرَأَهُ وَتَعْتَبِرَ مَا فِيهِ بِشَعْرِ الْآخَرِينَ حَتَّى تَجِدَ الشَّاعِرَ الْمُهَنْدِسَ كَأَنَّهُ قَادِمٌ لِلْعَصْرِ مُحَمَّلًا بِذَهَبِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَأَلَاتِهِ وَمَقَابِيصِهِ لِيُضْلِحَ مَا فَسَدَ، وَيَقِيمَ مَا تَدَاعَى، وَيُرْمِمَ مَا تَخَرَّبَ، وَيَهْدِمَ وَيَبْنِي.

دِيْوَانُ الشَّاعِرِ الْحَقِّ هُوَ إِثْبَاتُ شَخْصِيَّتِهِ بِبِرَاهِينٍ مِنْ رُوحِهِ، وَهَهُنَا فِي «المَلَاخِ التَّانِهِ» رُوحُ قُوَّةِ فِلْسَافَتِهِ بَيَانِيَّةٍ، تُوْتِيكَ الشَّعْرَ الْجَيِّدَ الَّذِي تَقْرُؤُهُ بِالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَالذَّوْقِ، وَتَرَاهُ كَفَاءَ أَغْرَاضِهِ الَّتِي يَنْظُمُ فِيهَا؛ فَهُوَ مُكْثِرٌ حِينَ يَكُونُ الْإِكْثَارُ شَعْرًا، مُقِلٌّ حِينَ يَكُونُ الشَّعْرُ هُوَ الْإِفْلالُ؛ ثُمَّ هُوَ عَلَى ذَلِكَ مَتِينٌ رَصِينٌ، بَارِعُ الْخَيَالِ، وَاسِعُ الْإِحَاطَةِ، تَرَاهُ كَالدَّائِرَةِ: يَصْعَدُ بِكَ مَحِيطُهَا وَيَهْطِلُ لَا مِنْ أَنَّهُ نَازِلٌ أَوْ عَالٍ، وَلَكِنْ مِنْ أَنَّهُ مُنْتَفٍ مُتَدَمِّجٌ، مُوزُونٌ مُقَدَّرٌ، وَضَمٌّ وَضَعَهُ ذَلِكَ لِيَطْوَحَ^(١) بِكَ.

(١) يَطْوَحُ بِكَ: يَأْخُذُكَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ.

هو شعرٌ تعرف فيه فنية الحياة، وليس بشاعرٍ من لا ينقل لك عن الحياة نقلاً
فنياً شعرياً؛ فترى الشيء في الطبيعة كأنه موجودٌ بظاهره فقط، وتراه في الشعرِ
بظاهره وباطنه معاً؛ وليس بشعرٍ ما إذا قرأته، وأسترسلت إليه لم يكن عندك وجهاً
من وجوه ألفهم والتصوير للحياة والطبيعة في نفس ممتازة مذكورة مصورة.

ولهذا فليس من الشرط عندي أن يكون عصرُ الشاعرِ وبيئته في شعره، وإنما
الشرط أن تكون هناك نفسُ الشاعرة على طريقتها في الفهم والتصوير، وأنت تثبت
هذه النفس بهذه الطريقة أن لها أن تقول كلماتها الجديدة، وأنها مَحْوَلَةٌ لَهُ الْحَقُّ في
أن تقولها، إذ هي للعقول والأرواح أخت الكلمة القديمة: كلمة الشريعة التي
جاءت بها النبوة من قبل.

وليس في شعر علي طه من عصرياتنا غير القليل، ولكن العجيب أنه لا ينظم
في هذا القليل إلا حين يخرج المعنى من عصره ويلتحق بالتاريخ، كراء شوقي،
وحافظ، وعدلي باشا، وفوزي المعلوف، والطيارين دوس وحجاج، وألملك
العظيم فيصل؛ فإن يكن هذا التدبير عن قصد وإرادة فهو عجيب، وإن كان اتفاقاً
ومصادفة فهو أعجب؛ على أنه في كل ذلك إنما يرمي إلى تمجيد الفن والبطولة في
مظاهرها، متكلمة، وسياسية، ومغامرة، ومالكة.

أما سائر أغراضه إنسانية عامة، تتغنى النفس في بعضها، وتمرح في بعضها،
وتصلي في بعضها؛ وليس فيها طيش ولا فجور ولا زندقة إلا... ظللاً من الحيرة
أو الشك، كتلك التي في قصيدة «الله والشاعر»، وأظنه يتابع فيها المعري؛ ولست
أدري كم ينخدع الناس بالمعري هذا، وهو في رأيي شاعر عظيم، غير أن له بضاعة
من التلفيق تعديل ما تخرجه «لا نكشير» من بضائعها إلى أسواق الدنيا.

وبما يعجبني في شعر علي طه أنه في مناحي فلسفته وجهات تفكيره يوافق
رأيي الذي أراه دائماً، وهو أن ثورة الروح الإنسانية ومعركتها الكبرى مع الوجود -
ليست في ظاهر الثورة ولا العراك مع الله كما صنع المعري وأضرابه في طيشهم
وحماقتهم، ولكنهما في الهدوء الشعري للروح المتأمل، ذلك الهدوء الذي يجعل
الطبيعة نفسها تبتسم بكلام الشاعر كما تبتسم بأزهارها ونجومها، ويجعل الشاعر
أداة طبيعة متخذة لكشف الحكمة وتغطيتها معاً؛ فإن العجيب الذي ليس أعجب
منه في التدبير الإلهي للنفوس الحساسة - أن زخرفة الشعر وما يجري مجراه في

أَلْفَنَ إِنَّمَا هِيَ ضَرْبٌ مِنْ زُخْرِفِ الطَّبِيعَةِ حِينَ تَبْتَدِعُ الشَّكْلَ الْجَمِيلَ لِتُنْتَمَّ أَغْرَاضُهَا مِنْ وَرَائِهِ؛ وَلَوْ ثَارَتْ الْأَزْهَارُ - مَثَلًا - عَلَى الْوُجُودِ وَخَالَفَتْ ثَوْرَةَ أَوْلَئِكَ الشَّعْرَاءِ لَمَّا صَنَعَتْ شَيْئًا غَيْرَ إِفْسَادِ حِكْمَتِهَا هِيَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِذِهِ الْحِكْمَةُ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ، وَلَنْ تَنْتَصِرَ إِلَّا بِبَقَائِهَا أَزْهَارًا، فَذَلِكَ حَرْبُهَا وَسِلْمُهَا مَعًا.

وَأَسْلُوبُ شَاعِرِنَا أَسْلُوبُ جَزَلٍ، أَوْ إِلَى الْجَزَالَةِ، تَبْدُو أَلْفَغَةُ فِيهِ وَعَلَيْهَا لَوْحٌ خَاصٌّ مِنْ أَلْوَانِ الْنَفْسِ الْجَمِيلَةِ يَزْهَوُ زَهْوَةً فَيَكْثُرُ مِنْهُ فِي الْنَفْسِ تَأْثِيرُهَا وَجَمَالُهَا، وَهَذِهِ هِيَ لَفْظَةُ الشَّعْرِ بِخَاصَّتِهِ؛ وَلَا بُدَّ أَنْ تُنَبَّهَ هُنَا إِلَى مَعْنَى غَرِيبٍ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ بَعْضَ النَّظَامِينَ يُحْسِنُونَ مِنَ اللَّغَةِ وَفَنُونِ الْأَدَبِ، فَإِذَا نَظَّمُوا وَخَلَا نَظْمُهُمْ مِنْ رُوحِ الشَّعْرِ - ظَهَرَتْ الْأَلْفَاظُ فِي أَوْزَانِهِمْ وَكَأَنَّهَا فَقَدَتْ شَيْئًا مِنْ قِيَمَتِهَا، كَأَنَّ مَوْضِعَهَا ثُمَّ هُوَ الَّذِي أَعْلَنَ إِفْلَاسَهُ، إِذْ أَقَامَهُ مَقَامَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَ ثُمَّ هُوَ إِذَا وَقَفَ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَعْتَذِرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَا يُعْطِيهِ. فَهَذَا كَانَ رَجُلًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ فِي سِتْرِ وَعَافِيَةٍ، فَلَمَّا وَقَفَ مَوْقِفَهُ انْقَلَبَ مُدْلَسًا كَاذِبًا مُدْعِيًا فَاخْتَلَفَتْ بِهِ الْحَالُ وَهُوَ هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ.

وَمَا الْأَسْلُوبُ أَلْبَانِيٌّ إِلَّا وَسِيلَةٌ فَنِيَّةٌ لِمُضَاعَفَةِ التَّعْبِيرِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مَا يُعْطِيهِ كَانَ وَسِيلَةً فَنِيَّةً أُخْرَى لِمُضَاعَفَةِ الْخَبِيَةِ؛ وَهَذَا مَا تُحْسِنُهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ شُعْرِ النَّظَامِينَ أَوْ أَلْبَدِيِّينَ فِي الْعَصُورِ الْأَمِيَّةِ، وَتُحْسِنُهُ فِي الشَّعْرِ الْأَمِيَّةِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُنْشَرُ بَيْنَنَا.

وَعَلِي طَه إِذَا حَرَّصَ عَلَى أَسْلُوبِهِ وَبَالَغَ فِي إِتْقَانِهِ وَأَسْتَمَرَّ بِجَرِيهِ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْجَيِّدَةِ مُتَقَدِّمًا فِيهَا، مُتَعَمِّقًا فِي أَسْرَارِ الْأَلْفَاظِ وَمَا وَرَاءَ الْأَلْفَاظِ، وَهِيَ تِلْكَ أَلْرُوعَةُ أَلْبَانِيَّةِ الْكُنَى تَكُونُ وَرَاءَ التَّعْبِيرِ وَلَيْسَ لَهَا أَسْمٌ فِي التَّعْبِيرِ، مُغْتَبِرًا أَلْفَغَةَ الشَّعْرِيَّةِ - كَمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ - تَأْلِيفًا مُوسِيقِيًّا لَا تَأْلِيفًا لُغَوِيًّا. . . فَإِنَّهُ وَلَا رَيْبَ سَيَجِدُ مِنْ إِسْعَافِ طَبْعِهِ الْقُرْئِيِّ، وَعَوْنِ فِكْرِهِ الْمَشْبُوبِ، وَإِلْهَامِ قَرِيحَتِهِ الْمَوْلُودَةِ - مَا يَجْمَعُ لَهُ النُّبُوغُ مِنْ أَطْرَافِهِ، بِحَيْثُ يُعَدُّهُ الْوُجُودُ مِنْ كِبَارِ مَصُورِيهِ، وَتَتَّخِذُهُ الْحَيَاةُ مِنْ بُلْغَاءِ الْمَعْبُرِينَ عَنْهَا فِي الْعَرَبِيَّةِ؛ وَمَنْ ثُمَّ تُنْظَمُ الْعَرَبِيَّةُ فِي سِمْطٍ^(١) جَوَاهِرُهَا أَلْتَارِيخِيَّةُ الْأَثْمِينَةِ، وَيَصْلُهُ أَلْسَلُوكُ بِشَوْقِي وَحَافِظُ أَلْبَارُودِي وَصَبْرِي، إِلَى أَلْمَتْنَبِيِّ وَأَلْبَحْتَرِيِّ

(١) سِمْط: عقد.

وأبن الرومي وأبي تمام، إلى ما وراء ذلك، إلى الجوهرة الكبرى المسماة جبل
النور البياني، إلى أمرى أقيس.

وليس هذا يبعد على من يقول في صفة القلب:

| | |
|-------------------------|--|
| يا قلب عندك أي أسرار | ما زلن في نشر وفي طي |
| باثورة مشبوبة النار | أثقلت جنم الكائن الحي |
| حملته العبد الذي فرقت | منه الجبال وأشفت ^(١) رهبا |
| وأثرت منه الروح فأنطلقت | تحسو ^(٢) الحميم ^(٣) وتأكل اللَّهبا |
| وعجبت منك ومن إبتاك في | أسر الجمال وربقة الحب |
| وتلفت المتكبر الصلف | عن ذلة المفهور في الحرب |
| وهنت نارا ذات إيماض | فبسطت كفك نحوها فزعاً |
| مرت بعينيك لمحة الماضي | فوثبت ثمسك بارقاً لمعاً |
| والأرض ضاق قضاؤها الرخب | وخلت فلا أهل ولا سكن |
| حال الهوى وتفرق الصخب | وبقيت وحدك أنت والزمن |

ولو ذهبنا نختار من هذا الديوان لأختارنا أكثره، فقصائده ومقاطيعه تتعاقب،
ولكن تعاقب الشمس على أبايها: تظهر جديدة الجمال في كل صباح، لأن وراء
الصباح مادة الفجر، وكذلك تأتي القصائد من نفس شاعرها.

(١) أشفت: خافت.

(٢) تحسو: تتجرع وتشرب.

(٣) الحميم: الملهب.

المقتطف والمتنبى

المقتطف شيخ مجلاتنا؛ كلهن أولاده وأحفاده؛ وهو كالجَد الأكبر: زمنٌ يجتمع، وتاريخٌ يتراكم، وأنفرادٌ لا يلحق، وعِلْمٌ يزيدُ على العِلْمِ بآئه في الذات التي تفرض إجلالها فرضاً وتجب لها الحرمة وجوباً ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق.

وهل الجد إلا أبوة فيها أبوة أخرى. وهل هو إلا عرشٌ حيٌّ درجاته الجيل تحت الجيل، وهل هو إلا امتداد مسافاته العصر فوق العصر؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم، ويتقدم في الزمن تقدم المخترعات ماضية بالنواميس إلى النواميس، مقيدة بالمبدإ إلى الغاية؛ وهو كالعقل المنفرد بعقليته: واجبه الأول أن يكون دائماً الأول؛ فلقد أنشئ هذا المقتطف وما في المجلات العربية ما يغني عنه، ثم طوى في الدهر سبعة وثمانين مجلداً أقامها سبعة وثمانين دليلاً على أن ليس ما يغني عنه؛ ثم أسفت^(١) الدنيا حوله بأخلاقيها وطباعها، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الرقاصات والمغنيات والممثلات. وبقي هو على وفائه لمبدئه العلمي والسمو فيه والسمو به، كأنما أخذ عليه في العلم والأدب ميثاق كميثاق الأنبياء في الدين والفضيلة؛ فبين يديه الواجب لا الغرض، وهمه الإبداع بقوى العقل لا الاحتيال بها، وهديه الحقيقة الثابتة في الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا، وطريقه في كل ذلك طريق الفيلسوف، من هدوء نفسه لا من أحوال الدهر، فهو ماضٍ على اليقين، نافذ إلى الثقة، متنقل في منزلة منزلة من يقينه إلى ثقته، ومن ثقته إلى يقينه.

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعدد ضخم أفرده للمتنبى. ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف.

(١) أسفت: انحطت.

ولستُ أغلو إذا قلتُ: إِنَّ هذه الروحَ المتكبِّرة قد أظهرت كبرياءها مرّةً أخرى، فأعزت المشهورين من الكُثَّابِ والأدباء، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذَ محمود شاكر مدةَ كتابته هذا البحثَ النفيسَ الذي أخرجه المقتطفُ في رُهاً ستينَ ومائةَ صفحة، تدلُّ في تفكيره، وتُوحى إليه في استنباطه، وتُنبه في شعره، وتُبصرُ أشياء كانت خافية، وكان الصّدقُ فيها، ليردُّ بها على أشياء كانت معروفة، وكان فيها الكذب، ثم نُعيته بكلِّ ذلك على أن يكتبَ الحياةَ التي جاءت من تلك النفس ذاتها، لا الحياةَ التي جاءت من نفوس أعدائها وحسادها.

ولقد كان أول ما خطرَ لي بعد أن مضيتُ في قراءة هذا العدد - أن المؤلفَ جاء بما يصحُّ القولُ فيه إنّه كتبَ تاريخَ المتنبي ولم ينقله؛ ثم لم أكدُ أمعن في القراءة حتى خيلَ إليّ أنّه قد وضعَ لشعرِ المتنبي بعد تفسيرِ الشراح المتقدِّمين والمتأخِّرين تفسيراً جديداً من المتنبي نفسه؛ وما الكلمةُ الجديدةُ في تاريخِ هذا الشاعرِ الغامضِ إلا الكلمةُ التي نشرها المقتطفُ اليوم.

إنّ هذا المتنبي لا يفرغ ولا ينتهي، فإنّ الإعجابَ بشعره لا ينتهي ولا يفرغ وقد كان نفساً عظيمةً خلقها الله كما أراد، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت، فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتدُّ في الزمن.

وكان الرجلُ مطوّباً على سرِّ ألقي الغموضُ فيه من أولِ تاريخه، وهو سرُّ نفسه، وسرُّ شعره، وسرُّ قوّته؛ وبهذا السرُّ كان المتنبي كالمَلِكِ المغمُوصِ الذي يرى التاجَ والسيفَ ينتظرانِ رأسه جميعاً، فهو يتقي السيفَ بالحذرِ والتلفُّفِ والغمُوضِ، ويطلبُ التاجَ بالكتمانِ والحيلةِ والأملِ.

ومن هذا السرُّ بدأ كاتبُ المقتطفِ، فجاء بحثّه يتحدّرُ في نسقٍ عجيبٍ، متسلسلاً بالتاريخِ كأنه ولادةٌ ونموٌ وشبابٌ؛ وعرضَ بين ذلك شعرَ أبي الطيّبِ عرضاً خيلاً إليّ أنّ هذا الشعرَ قد قيلَ مرّةً أخرى من فم شاعره على حوادثٍ نفسه وأحوالها؛ وبذلك أنكشفَ السرُّ الذي كان مادّةَ التهويلِ في ذلك الشعرِ الفخمِ، إذ كانت في واعيهِ الرجلِ دولةٌ أضخمُ دولة، عجزَ عن خلقها وإيجادها فخلقها شعراً أضخمَ شعر، وجاءت مبالغاته كأنها أكاذيبُ آماله البعيدة متحققة في صورةٍ من صورِ الإمكانِ اللغوي.

ومن أعجبٍ ما كشفه من أسرارِ المتنبي سرُّ حبه، فقال: إنّه كان يُحبُّ خوّلة

أَخَذَ الْأَمِيرُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ، وَكَتَبَ فِي ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ صَفْحَةً كَبِيرَةً، وَكَأَنَّهَا لَمْ تَرْضِهِ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ يُؤْمَلُ أَنْ يَكْتُبَ هَذَا الْفَصْلَ فِي خَمْسِينَ وَجْهًا مِنْ الْمَقْتَطَفِ؛ وَهَذَا أَلْبَابٌ مِنْ غَرَائِبِ هَذَا الْبَحْثِ، فَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ فِي الدُّنْيَا الْمَكْتُوبَةِ (أَيِ التَّارِيخِ) يَعْلَمُ هَذَا السَّرَّ أَوْ يَظُنُّهُ، وَالْأَدْلَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْمُؤَلِّفُ تَقِفُ الْبَاحِثَ الْمَدْقُقَ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ؛ وَمَتَى لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَرْءُ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا فِي خَبَرٍ جَدِيدٍ يَكْشِفُهُ الْبَاحِثُ وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهِ غَيْرُهُ، فَهَذَا حَسْبُكَ إِعْجَابًا يُذَكِّرُ، وَهَذَا حَسْبُهُ فَوْزًا يُعَدُّ.

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنْتُ أَنَا فِي مَكَانِ الْمُتَنَبِّيِّ مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لَقُلْتُ إِنَّ الْمُؤَلِّفَ قَدْ صَدَقَ... فَهَنَّاكَ مَوْضِعُ لَا بُدَّ أَنْ يَبْحَثَ فِي الْقَلْبِ الشَّاعِرِ الَّذِي وَضَعْتَ فِيهِ الدُّنْيَا حِكْمَتَهَا، وَطَوَّتَ فِيهِ الْقُوَّةَ سِرًّا، وَبَثَّ فِيهِ الْجَمَالَ وَحْيَةً؛ وَأَصْغَرُ هَذِهِ الثَّلَاثِ أَكْبَرُ مِنْ الْمُلُوكِ وَالْمَمَالِكِ، وَلَكِنَّ الْحَبِيبَةَ أَكْبَرُ مِنْهَا كُلِّهَا...

محمد

عملُ الأستاذِ توفيقِ الحكيمِ في تصنيفِ هذا الكتابِ أشبهُ شيءٍ بعملِ «كريستوف كولمب» في الكشفِ عن أمريكا وإظهارها مِنَ الدُّنيا لِلدُّنيا: لم يخلق وجودها، ولكنه أوجدها في التاريخِ البشري، وذهبَ إليها فقبلَ جاءَ بها إلى العالمِ، وكانتْ معجزتهُ أَنَّهُ رآها بِالْعَيْنِ الَّتِي فِي عَقْلِهِ، ثُمَّ وَضَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا الصَّبْرَ وَالْمُعَانَاةَ وَالْجَدْقَ وَالْعِلْمَ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَيْهَا حَقِيقَةً مَائِلَةً.

قرأ الأستاذُ كُتُبَ السيرةِ وما تناولها من كتبِ التاريخِ والطبقاتِ والحديثِ والأسمائلِ، بِقَرِيحَةٍ غَيْرِ قَرِيحَةِ الْمُؤَرِّخِ، وَفِكْرَةٍ غَيْرِ فِكْرَةِ أَفْقِيهِ، وَطَرِيقَةٍ غَيْرِ طَرِيقَةِ الْمُحَدِّثِ، وَخِيَالٍ غَيْرِ خِيَالِ أَقْصَاصٍ، وَعَقْلٍ غَيْرِ عَقْلِ الزُّنْدَقَةِ، وَطَبِيعَةٍ غَيْرِ طَبِيعَةِ الرَّأْيِ، وَقَصْدٍ غَيْرِ قَصْدِ الْجَدَلِ؛ فَخَلَصَ لَهُ الْفَنُّ الْجَمِيلُ الَّذِي فِيهَا، إِذْ قَرَأَهَا بِقَرِيحَتِهِ الْفَنِّيَّةِ الْمَشْبُوبَةِ، وَأَمْرَها عَلَى إِحْسَابِهِ الشَّاعِرِ الْمُتَوَثِّبِ، وَأَسْتَلَهَا^(١) مِنَ التَّارِيخِ بِهَذِهِ الْقَرِيحَةِ وَهَذَا الْإِحْسَاسِ كَمَا هِيَ فِي طَبِيعَتِهَا السَّامِيَةِ مُتَّجِهَةٌ إِلَى غَرَضِهَا الْإِلَهِيِّ مُحَقِّقَةٌ عَجَائِبِهَا الرُّوحَانِيَّةَ الْمُعْجَزَةَ.

وقد أمدَّتهُ السيرةُ بِكُلِّ مَا أَرَادَ، وَتَطَاوَعَتْ لَهُ عَلَى مَا أَشْتَهَى، وَلَانَتْ فِي يَدِهِ كَمَا يَلِينُ الْذَهَبُ فِي يَدِ صَانِعِهِ؛ فَجَاءَ بِهَا مِنْ جَوْهَرِهَا وَطَبِيعَتِهَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا خِيَالٌ وَلَا رَأْيٌ وَلَا تَعْبِيرٌ، وَجَاءَتْ مَعَ ذَلِكَ فِي تَصْنِيفِهِ حَافِلَةٌ بِأَبْدَعِ الْخِيَالِ، وَأَسْمَى الرَّأْيِ، وَأَبْلَغِ الْعِبَارَةِ؛ إِذْ أَدْرَكَ بِنَظَرِهِ الْفَنِّيَّةِ تِلْكَ الْأَحْوَالَ النَّفْسِيَّةَ الْبَلِيغَةَ، فَنَظَّمَهَا عَلَى قَانُونِهَا فِي الْحَيَاةِ، وَجَمَعَ حَوَادِثَهَا الْمَدَوْنَةَ فَصَوَّرَهَا فِي هَيْئَةٍ وَقَوَّعَهَا كَمَا وَقَعَتْ، وَأَسْتَخْرَجَ الْقِصَصَ الْمُرْسَلَةَ فَأَدَارَهَا حَوَارًا كَمَا جَاءَتْ فِي السَّنَةِ أَهْلِهَا؛ وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ أَعَادَ التَّارِيخَ حَيًّا يَتَكَلَّمُ وَفِيهِ الْفِكْرَةُ وَمَلَانِكَتُهَا وَشَيَاطِينُهَا، وَكَشَفَ ذَلِكَ الْجَمَالَ الرُّوحَانِيَّ فَكَانَ هُوَ الْفَنُّ، وَجَلَا تِلْكَ النَّفُوسَ الْعَالِيَةَ فَكَانَتْ هِيَ الْفَلَسَفَةُ، وَأَبْقَى عَلَى تِلْكَ الْبَلَاغَةَ

(١) استهلها: ابتدأها.

فَكَانَتْ هِيَ الْبَيَانُ . كَانَتْ السِّيرَةُ كَاللُّوْلُؤَةِ فِي الصَّدْفَةِ ، فَاسْتَخْرَجَهَا فَجَعَلَهَا
الْلُّوْلُؤَةَ وَحْدَهَا .

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ يَفْرَضُ نَفْسُهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْفَنِيَّةِ الْبَدِيعَةِ ، فَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ
إِنَّهُ لَا ضَرُورَةَ لَوُجُودِهِ ؛ إِذْ هُوَ الْضَرُورِيُّ مِنَ السِّيرَةِ فِي زَمَنِ هَذَا ، وَلَا يُخْتَمَرُ فِيهِ أَنَّهُ
تَخْرِيفٌ وَتَزْوِيرٌ وَتَلْفِيقٌ ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ حَرْفٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يُرَدُّ بِأَنَّهُ آراءٌ يُخْطِئُ
الْمُخْطِئُ مِنْهَا وَيُصِيبُ الْمُصِيبُ ؛ إِذْ هُوَ عَلَى نَصِّ التَّارِيخِ كَمَا حَفِظَتْهُ الْأَسَانِيدُ ،
وَلَا يُرْمَى بِالْغَثَاثَةِ وَالْكِرَاكَةِ وَضَعْفِ النِّسْقِ ؛ إِذْ هُوَ فَصَاحَةُ الْعَرَبِ الْفُصْحَاءِ الْخُلُصِ
كَمَا رُوِيَ بِالْفَاظِهَا ؛ فَقَدْ حَصَّنَهُ الْمُؤَلِّفُ تَحْصِينًا لَا يُقْتَحَمُ ، وَكَانَ فِي عَمَلِهِ مُخْلِصًا
أَتَمَّ الْإِخْلَاصِ ، أَمِينًا بِأَوْفَى الْأَمَانَةِ ، دَقِيقًا كُلَّ الدَّقَّةِ ، حَذِيرًا بِغَايَةِ الْحَذَرِ .

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنَّهَا هَيَّأَتِ السِّيرَةَ لِلتَّرْجُمَةِ إِلَى اللُّغَاتِ الْأُخْرَى فِي
شَكْلِ مَنْ أَحْسَنَ أَشْكَالِهَا يُرْغَمُ هَذَا الزَّمَنَ عَلَى أَنْ يَقْرَأَ بِالْإِعْجَابِ تِلْكَ الْحِكَايَةَ
الْمُنْفَرِدَةَ فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ كَمَا أَنَّهَا قَرَّبَتْ وَسَهَّلَتْ فَجَعَلَتِ السِّيرَةَ ، فِي نَصِّهَا
الْعَرَبِيِّ كِتَابًا مَدْرَسِيًّا بَلِيغًا بِلَاغَةَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، مُرَبِّيًا لِلرُّوحِ ، مُرْهِفًا لِلذَّوْقِ ،
مُصَحِّحًا لِلْمَلَكَةِ الْبَيَانِيَّةِ .

وَحَسْبُ الْمُؤَلِّفِ أَنْ يُقَالَ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ : إِنَّ أَبْنَ هِشَامَ
كَانَ أَوَّلَ مَنْ هَذَّبَ السِّيرَةَ تَهْذِيبًا تَارِيخِيًّا عَلَى نَظْمِ التَّارِيخِ ، وَأَنْ تَوْفِيقَ الْحَكِيمِ كَانَ
أَوَّلَ مَنْ هَذَّبَهَا تَهْذِيبًا فَنِيًّا عَلَى نَسْقِ الْفَنِّ .

ديوان الأعشاب

أبو الوفاء شاعرٌ ملء نفسه، مافي ذلك شك، مذهبه الجمال في المعنى يُبدعه كأنما يزهر به، والجمال في الصورة يُخرجها من بيانها كما تخرج الغصون والأوراق من شجرتها، وله طبع وفيه رقة، وهو يجري من البيان على عِزق، وسليقته تجعله ألزم لعمود الشعر وأقرب إلى حقيقته، حتى إنه ليعد أحد الذين يعتصم الشعر العربيُّ بهم، وهم قليل في زمننا، فإن الشعر مُحدر في هذا العصر إلى العامية في نسقه ومعانيه، كما انحدر التمثيل، وكما انحدرت أساليب الكتابة في بعض الصحف والمجلات.

وللعامية وجوه كثيرة تنقلب فيها الحياة، ومرجعها إلى روح الإباحة الذي فشا بيننا ونشأ عليه النشء في هذه المدينة التي تعمل في الشرق غير عملها في الغرب، فهي هناك رخص وعزائم، وهي هنا تسخ وترخص، في ظل ضعيف من العزيمة؛ وإهمال البلاغة العربية الجميلة كما هي في قوانينها ليس إلا مظهراً لتلك الروح تقابله المظاهر الأخرى، من إهمال الخلق، وسقوط الفضيلة، وتخثُّ الرجل، وزين الأنوثة، وفساد العقيدة، واضطراب السياسة، إلى ما يجري هذا المجرى مما هو في بلاغة الحياة المبينة كالمردول والمطرح والفساس في بلاغة الكلام ألفصيح؛ كل ذلك في مواضعه، تحلل من القيود وإباحة وتسخ وترخص، وكل ذلك عامية بعضها من بعض، وكل ذلك لحن في البلاغة والخلق والفضيلة والرجولة والأنوثة والعقيدة والسياسة.

والشعر اليوم أكثره (شعر النشر) في الجرائد، على طبيعة الجرائد لا على طبيعة الشعر؛ وهذه إباحة صحافية غمرت الصحف، وأخضعت أذواق كتّابها لقوانين التجارة، فإنهم لينشرون بعض القصائد كما تُنشر (الإعلانات): لا يكون الحكم في هذه ولا هذه لبيان أو تمييز أو منفعة، بل على قدر الثمن أو ما فيه معنى الثمن!

ومن مادية هذا العصر وطغيان العامية عليه، أننا نرى في صدر بعض الجرائد

أحياناً شعراً لا يكون في صناعة الشعر ولا في طبقات النظم أضعف ولا أبرد منه، ولا أدل على فساد الذوق الشعري، ولكثته على ذلك الأصل الذي أومأنا إليه يعدّ كلاماً صالحاً للنشر، وإن يكن صالحاً للشعر.

وهكذا أصبحت العامية في تمكّنها تجعل من الغفلة جذفاً تجارياً، ومن السقوط علواً فلسفياً، ومن الركافة بلاغةً صحفية، ومتى تغير معنى الجذوق، ودخلت الإباحة، ووقع فيه التناويل، وأحيط بالتمويه والشبه - فالريبة حينئذٍ أخت الثقة، والعجز باب من الاستطاعة، والأضعف معنى من التمكن، وكل ما لا يقوم فيه عذرٌ صحيح كان هو بطبيعة التلقي عذرٌ نفسه.

وأكثر ما تنشره الصحف من الشعر هو في رأيي صناعة احتطاب من الكلام. وقد بطل التعب إلا تعب النقش والحمل، فلم تعد هناك صناعة نفسية في وشي الكلام، ولا طبع موسيقي في نظم اللغة، ولا طريقة فكرية في سبك المعاني، وبهذه العامية الثقيلة أخذ الشعر يزول عن نهجه، ويضل عن سبيله، ووقع فيه التورع السهل... والاستكراه الوحشي في أيام الجاهلية؛ فما دام الكلام غريباً، والنظم قليلاً، والمأثى بعيداً، والمعنى مستهلكاً، والنسخ لا يستوي، والطريقة لا تتشابه - فذلك كله مسخٌ وتشويه في الجملة وإن اختلفت الأسباب في التفصيل، وإذا كان المسخ جاهلياً بالغريب من الألفاظ، والنافر من اللغات، والوحشي من المعاني؛ وكان عصرياً بالركيك من الألفاظ، والنازل من التعبير، والهجين من الأساليب، والسخيف من المعاني؛ ثم بالسقوط والخلط والاضطراب والتعقيد - فهل بعض ذلك إلا من بعضه؟ وهل هو في الشعر الجميل إلا كسلخ الإنسان الذي مسخه الله فسلخه من معانٍ كان بها إنساناً، ليضعه في معانٍ يصير بها قرداً أو خنزيراً ليس عليه إلا ظاهر الشبه، وليس معه إلا بقية الأصل؟

فالقرينة الشعرية، والخنزيرية^(١) الشعرية، متحققان في كثير من الشعر الذي يُنشر بيننا؛ ولكن أصحاب هذا الشعر لا يرونهما إلا كملاً في تطور الفن والعلم والفلسفة؛ وأنت متى ذهبت تحتج لزيغ الشعر من قبل الفلسفة، وتدفع عن ضعفه بخجة العلم، وتعتل لتصحیح فساذه بالفن - فذلك عينه هو دليلنا نحن على أن هذا الشعر قردى خنزيرى، لم يستو في تركيبه، ولم يأت على طبعه، ولم يخرج في

(١) الخنزيرية: نسبة إلى الخنزير.

صورته؛ وما يكونُ الدليلُ على الشعرِ من رأيِ ناظرِهِ وأفتانِهِ بِهِ ودفاعِهِ عنه، ولكن من إحساسِ قارئِهِ وأهترازِهِ لَهُ وتأثُّرِهِ بِهِ.

والشاعرُ أبو ألوفاً جيّدُ الطريقة، حسنُ السبك، يقول على فِكْرٍ وقريحة، ويرجعُ إلى طبعٍ وسليقةٍ، ولكنَّ نفسه قليقةٌ في موضعيهِ الشعريِّ مِنَ الحياة؛ وفي رأيي أنَّ الشاعرَ لا يتمُّ بِأدبِهِ ومواهبيهِ حتى يكونَ تمامُهُ بِمَوْضِعِ نفسهِ الشعريِّ الَّذي تضمُّهُ الحياةُ فيه؛ والكلامُ يطولُ في صِفَةِ هذا الموضع، ولكنَّهُ في الجملةِ كمنبتِ الزهرة: لا تزكو زكاءها ولا تبلغُ مبلغها إلَّا في المكانِ الَّذي يصلُ عناصرُها بِعناصرِ الحياةِ وافيةً تامّةً، فلا يقطعُها عن شيءٍ ولا يردُّ شيئاً عنها؛ إذ هي بِما في تركيبها وتهيتها إنَّما تَنِمُّ بِمَوْضِعِها ذاك لِتهيتها وتركيبِها، فإنَّ كانتِ الزهرةُ على ما وصفنا، وإلَّا فما بُدُّ من مرضِ اللون، وهرمِ العطر، وهزالِ اللُصرة، وسقمِ الجمال.

ولولا أنَّ الحِكْمَةَ وقتِ الأستاذِ أبا ألوفاً قَسَطَهُ^(١) مِنَ الألم. وهَبَّتْهُ نفساً متألِّمةً حصرتها في أسبابِ ألمِها خُصراً لا مفرَّ منه - لفَقَدَتْ زهرتَهُ عنصرَ تلويينها، ولَخَرَجَ شعرُهُ نظماً حائلاً مضطرباً منقطعَ الأسبابِ مِنَ الوحي؛ غيرَ أنَّ جِهَةَ الألم فيه هي جِهَةُ السماءِ إليه. ولو هو تكافأت^(٢) جهاتُهُ المعنويَّةُ الأخرى، وأعطيتْ كُلُّ جِهَةٍ حقَّها، وتخلَّصَتْ بِمِا يَلابِسُها - لارتَفَعَ من مرتبةِ الألمِ إلى مرتبةِ الشعورِ بِالْغَامِضِ والمُبْهَمِ، ولكانَ عقلاً مِنَ العقولِ الكبيرةِ المولدةِ التي يحيا فيها كُلُّ شيءٍ حياةً شعريَّةً ذاتِ حِس.

ولكن ما دامت الحياةُ قد وُزِنَتْ لَهُ بِمِقْدَارٍ، وطُفِّقَتْ^(٣) مع ذلك وبُخِستْ^(٤)، فقد كانَ يحسُّ بِهِ أن يقصُرَ شعرُهُ على أبوابِ الزفرةِ والدُمةِ واللَّهفةِ، لا يعدوها، ولا يزاولُ مِنَ الألمانيِ الأخرى ما ضَعُفَتْ أدائُهُ مَعَهُ أن تتصرَّف، أو أنقطعَتْ وسيلتُهُ إليه أن تبلغ؛ ويظهرُ لي أنَّ أبا ألوفاً يحذو على حذوِ إسماعيلِ باشا صبري، وهو شبيهٌ بِهِ في أنَّه لم تفتحْ لَهُ على ألكونٍ إلَّا نافذةٌ واحدة؛ غيرَ أنَّ صبري أقبلَ على نافذتِهِ ونظرَ ما وَسِعَهُ النظرُ، أمَّا أبو ألوفاً فيحاولُ أن ينقُبَ في الحائِطِ ليجعلَهما نافذتين.

(١) قسَطه: خطَّه.

(٢) تكافأت: تساوت.

(٣) طُفِّقَتْ: أخسرت في وزنها.

(٤) بُخِست: أنقصت حقَّها.

أما إنه ليس من الشعر أن تنزل الحيرة الفلسفية عن منزلتها بين اليقين والعقل، أو المشهود والمحجوب، أو الواقع والسبب، أو الرسم والمعنى - فتقلب حيرة معاشية تسم الأشكال والمعاني بسميتها المادية الترابية، وتقع في الشعر فتقحم بين شعر القلب العاشق، وشعر الفكر المتأمل - شعر المعدة الجائعة، وتضع بين أشواق الكون شوقها هي إلى الطعام والثياب والكمال.

على أنه كان الأمثل في التدبير، والأقرب إلى طريقة النفس الشاعرة أن يصرف أبو الوفا هذا الشعور المادي الذي يتلذع^(١) به، فيحوّله فيجعله باباً من حكمة السخر الشعري بالدنيا وأهلها وحوادثها، كما صرفه أبو الرومي من قبل فأخطأ في تحويله، فجعله مرّة باباً من الممدح والنفاق، ومرّة باباً من الهجاء والإقذاع.

ولو بذل الشاعر أبو الوفا مجهوده في ذلك، وأنهم الدنيا ثم حاكمها، ونصّ لها ألقانون، وأجلس القاضي، وأفتح المجلس، ورفعها قضية قضية، ثم أخذها حكماً حكماً، تارة في نادرة بعد نادرة، ومرّة في حكمة إلى حكمة، وآونة في سخرية مع سخرية - إذن لأهتدى هذا المتألم الرقيق إلى الجانب الآخر من سِرّ الموهبة التي في نفسه، فأخرج مكنون هذه الناحية القويّة منها، فكان ولا ريب شاعر وقته في هذا الباب، وإمام عصره في هذه الطريقة.

على أن في صفحات ديوانه أشياء قليلة توميء إلى هذه الملكة، ولكنها مبثوثة في تضاعيف شعره، والوجه أن يكون وجهه في تضاعيفها؛ وإنه ليأتي بأسمى الكلام وأبدعه، حين يعمد إلى ذلك الأصل الذي نبهنا إليه، فيصرف لهفة نفسه إلى بعض وجوها الشعرية، كقوله في «حلم العذارى»، وهي من بدائع ومحاسن شعره:

| | |
|--------------------|------------------|
| ها هما عيناك تغريد | ني على شئى أظنون |
| فيهما بحر وموج | وسهل وحزون |
| ووضوح وغموض | وأضطراب وسكون |
| ومعان بينات | ومعان لا تبين |
| وتهاويل فنون | من رشاد وجنون |

(١) يتلذع: يتألم.

وَأَشِغَاتٌ حَيَارَى مِنْ مُنَى أَوْ مِنْ حَزِينِ
 لَيْتَ شَغَرِي أَيُّ سِرٍّ خَلَفَ هَاتِيكَ الْجُفُونِ
 آهَ إِنَّ السُّرَّ أَنْبَا عَنْهُ ذَانِ السَّطَائِرِ
 حِينَ مَا لَا عَلَى غَصَا نِيهِمَا يَغْتَنِقَانِ .

فهذه أبيات في شعر الجمال كالمحراب ملؤة عابده .

النجاح وكتاب سر النجاح

ما خلق الله ذا عقل من بني آدم إلا أودع في تركيبه شيئين كالمقدمة والنتيجة، وأعطاه بهما القدرة على الوسيلة والغاية، «ليحيا من حيي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة»، ففي تركيب الإنسان قوة الرغبة في النجاح وأن يتأني إلى سبزه أو يبلغ منه أو يقاربه، وفي هذا التركيب عينه ما يهتك به هذا الحجاب ويُفضي^(١) منه إلى هذا السر ويجمع بك عليه، وما أنكر أن النجاح قدر من الأقدار، ولكنه قدر ذو راحة قوية خاصة به يستروحها من تحت السماء وهو لا يزال في السماء وبين الأرض أمداً ودهراً وأسباباً وأقداراً كثيرة؛ ولولا أن هذه الخاصية فيه وفي الإنسان منه لما توفرت رغبة في عمل ولا صح نشاط في الرغبة ولا توجه عزم إلى النشاط ولا توثقت^(٢) عقدة على العزم.

غير أن في الإنسان كذلك ما يفسد هذه الخاصية أو يضعفها أو يعطلها تعطيلاً، فإذا هي تضر ولا تهدي وكانت تهدي ولا تضر، وإذا هي زائغة عن الحق ملتوية عن القصد وكانت هي السبيل إلى الحق وهي الدليل على القصد؛ وما ينال منها شيء إلا واحد من ثلاث: العجز، وضعف الهمة، واضطراب الرأي.

فأما العجز فمنزلة تجعل الإنسان كالنبات يرتفع عن الأرض بموديه ولكنه غائر فيها بأصول حياته، وأما ضعف الهمة فمنزلة الحيوان الذي لا هم له إلا أن يوجد كيفما وجد وحيثما جاء موضعه من الوجود، إذ هو يولد ويكدر ويكف ليكون لهما وعظماً وصوفاً وبراً وشغراً وأثاثاً ومتاعاً، وكأنه ضرب آخر من النبات إلا أنه نوع آخر من المنفعة.

وأما اضطراب الرأي فمنزلة بين المنزلتين ترجع إلى هذه مرة وإلى هذه مرة وتقع من كليهما موقعها، والعجز وضعف الهمة واضطراب الرأي في لغة العقل

(١) يفضي: يوصل، يؤدي.

(٢) توثقت: ارتبطت وقويت.

معاني ثلاثة لِكَلِمَةٍ واحدةٍ هِيَ الْخَبِيَّةُ ، وما أَسْرَارُ النِّجَاحِ إِلَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي تُقَابِلُهَا وَهِيَ الْقُوَّةُ وَالْعَزِيمَةُ وَالثَّبَاتُ .

ولكنَّ في هذا الإنسانِ طفولةً وشباباً ، وهما حالتانِ لا بُدَّ منهما ، وهما مِنَ الضَّعْفِ وَالنَّزَقِ بِطَبِيعَتِهِمَا ، وفيهما يتناقلُ الإنسانُ إلى أَغْرَاضِهِ ، ويرتدُّ عن صِعَابِهَا ، وينخذلُ^(١) دونَ غَايَاتِهَا ؛ وَلَيْسَ يَأْتِي لِلطِّفْلِ أَنْ يُدْرِكَ الرَّجُلَ فِي مَعَانِيهِ ، وَلَا لِلشَّابِّ أَنْ يَبْلُغَ الْحَكِيمَ فِي كَمَالِهِ ؛ فَكَأَنَّ هَذَيْنِ لَيْسَ لِهَما أَمَلٌ فِي أَسْبَابِ النِّجَاحِ ، وكَأَنَّ كليهما لَا يُحِسُّ أَنْ يَطْوِيَ فَوَادَهُ عَلَى شَيْءٍ وَلَا أَنْ يَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَمْرٍ ، غَيْرَ أَنْ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ أَنَّهُ أَرَصَدَ مِنْ نَوَامِيسِهِ الْقُوَّةَ لِضَعْفِ الطُّفُولَةِ وَنَزَقِ الشَّبَابِ مَا هُوَ سِنَادٌ يَمْنَعُ ، وَمَوْتَلٌ^(٢) يَعْصِمُ^(٣) ، وَقُوَّةٌ تُصْلِحُ ؛ وَهُوَ نَامُوسُ الْقُدُورَةِ الَّذِي يَتِمُّثَلُ فِي أَلَابٍ وَالْأُمِّ وَالصَّاحِبِ وَالْعَشِيرِ وَالْمُعَلِّمِ وَالْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ يَبْتُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا إِنَّمَا هِيَ مُمَارَسَةٌ لِفَضِيلَةِ الْإِيمَانِ بِهِ مِنْ حَيْثُ يَدْرِي الْإِنْسَانُ أَوْ لَا يَدْرِي .

و«كِتَابُ سِرِّ النِّجَاحِ» الَّذِي تَرْجَمَهُ أَسْتَاذُنَا الْعَلَمَاءُ الدُّكْتُورُ يَعْقُوبُ صُرُوفُ فِي سَنَةِ ١٨٨٠ ، وَظَهَرَتْ طَبْعَتُهُ الرَّابِعَةُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، هُوَ - وَاللَّهُ - فِي بَابِ الْقُدُورَةِ نَامُوسٌ عَلَى جَدَةِ ، وَمَا رَأَيْتُ كِتَاباً تَلَامُ نَسْجَهُ وَأَسْتَوَتْ أَجْزَاؤُهُ وَوُضِعَ آخِرُهُ عَلَى أَوَّلِهِ وَأَنْصَبُ كُلِّهِ إِلَى الْغَرَضِ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ وَجَاءَ مَقْطَعاً وَاحِداً فِي مَعْنَاهُ وَفَائِدَتِهِ - كَهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُعَلِّمُ الضَّعِيفَ كَيْفَ يَقْوَى ، وَالْعَاجِزَ كَيْفَ يَعْتَمِدُ ، وَالْمُضْطَرَّبَ كَيْفَ يَثْبُتُ ، وَالْمَحْزُونُ كَيْفَ يَأْمَلُ ، وَالْيَائِسَ كَيْفَ يَثِقُ ، وَالْمُنْهَزِمَ فِي الْحَيَاةِ كَيْفَ يَقْبَلُ ، وَالسَّاقِطَ كَيْفَ يَنْتَهِزُ ؛ وَيُعَلِّمُكَ مَعَ ذَلِكَ كَيْفَ تُرِيحُ الْكَذَّ بِالْكَذِّ ، وَكَيْفَ تُسْقِطُ التَّعَبَ بِالتَّعَبِ ، وَكَيْفَ تَمْضِي عَزِيمَتَكَ وَتَعْتَقِدُهَا وَتَضْرِبُ كُرَةَ الْأَرْضِ بِقَدَمِكَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَلِكاً وَلَا قَانِداً وَلَا فَاتِحاً ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ صَمِيمِ السُّوقَةِ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ فَرَكٍ وَرَاءَ عَتَبَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لَا أَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ عِلْمٌ ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَسْقُطُ بِهِ دُونَ مِثْلِهِ وَلَا يَعْدُو فِي وَصْفِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ مَجْمُوعاً مِنَ الْوَرَقِ الْأَصْغَلِ عَلَى طَبْعٍ جَيِّدٍ ، مَعَ أَنَّهُ مَجْمُوعٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ وَالْعَزَائِمِ وَأَعْصَابِ الْقُلُوبِ ؛ وَلَكِنِّي أَقُولُ فِي وَصْفِهِ الْعِلْمِيَّ إِنَّ الْمَدَارِسَ تُخْرِجُ مِنَ الْكُتُبِ تَلَامِيذَ . وَهَذَا الْكِتَابُ يُخْرِجُ مِنَ التَّلَامِيذِ رِجَالاً أَقْوِيَاءَ أَشَدَّاءَ مَعْصُومِينَ عَصِيبَ جَذْوَعِ الشَّجَرِ الْعَاتِي ، مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ

(١) ينخذل : يتراجع وينهزم .

(٢) موئل : يحمي ويمنع .

(٣) يعصم : ملجأ .

وصلابيتها وصِحَّة العزيمة ومضائها، وتصميم الرأْي ونفاذه؛ ومِمَّا يُعطي من قوَّة الصبر والثبات ومطاولَةِ التعبِ إلى أبعدِ حدودِ الطاقةِ الإنسانيةِ.

وما تقرُّؤه حقَّ قراءته وتستوفيه على وجهه من التدبير والإمعانِ إلَّا خرجتَ منه وقد وضعَ في نفسك شيئاً أعظمَ من نفسك كائنًا من كُنْتَ وكيف كُنْتَ، فإنْ تُكُنْ طفلًا خرجتَ رجلاً، وإنْ كُنْتَ رجلاً خرجتَ حكيمًا، وإنْ كُنْتَ حكيمًا استحدثتَ في نفسك ما يجعلُكَ بِالْحِكْمَةِ فوقَ الدُّنيا وكُنْتَ بها في الدُّنيا.

قالَ الأستاذُ المُترجمُ في مقدمته: «أشهدُ لأبناءِ وطني أنني لم أنتفعِ بكتابٍ قدرَ ما أنتفعتُ بهذا الكتابِ». وهذه هي الكلمةُ التي لا يقولُ غيرها من يقرأ «سرَّ النجاح»، ولا يُمكنُ أن يقولَ غيرها؛ إذ هو مبنيٌّ في وضعٍ من فائدةِ النفسِ وما يُرهِفُ حدَّها ويبتغي مَلَكَاتِها ويستنهضُ قُوَّها ويستنفِذُ وسائلَها على ما يُشبهُ القواعدَ التي لا تُؤدِّي إلَّا إلى نتيجةٍ واحدةٍ من أينَ اعتبرتَها، كأثنانٍ وأثنانٍ أربعة، وثلاثةٍ وواحدٍ أربعة، وأربعةٍ وحداتٍ أربعة، وهلمَّ جرا... .

تلكَ شهادةُ المُترجمِ، أمَّا أنا فأشهدُ لقد عرفتُ منذُ زمنٍ طالبا في الأزهرِ، فلما تعرَّفَ إليَّ جعلَ يشكو ويتبرَّمُ^(١) وينفضُ لي نفسه ويقولُ: الأزهرُ وعلومُه وفنونه ومسائلُه ومشاكلُه، والمتونُ وما فيها، والشروحُ وما إليها، والحواشي وما يَرُدُّ ويعترضُ ويُجابُ به ويُقالُ فيه، وكلُّ كلمةٍ يساعةٍ من العمرِ، وكلُّ سطرٍ بيومٍ، وكلُّ جزءٍ بسنةٍ، وتركتُ ورائي كذا وكذا فدانا وأقبلتُ على كذا وكذا علما، فلا حصْدُ من هذه ولا من تلك! قلتُ: وما يُمسكُك والبابُ مفتوحٌ ولا يسألكَ الأزهرُ إلى أينَ ولا تسألكَ الدُّنيا إذا خرجتَ إليها من أينَ؟ قالَ: وأللهُ ما ربطني إلى هذه الأعمدةِ خمسَ عشرةَ سنةً كاملةً على يأسٍ ومُضَضٍ إلَّا كتابُ «سرِّ النجاح» وما أمضيتُ نيتي مرَّةً على وجهٍ من وجوه العيشِ إلَّا رأيتُ هذا الكتابَ قد ضربَ وجهَ هذه النيةِ فردَّها إلى هذا المكانِ وألقاها في هذا المستقرِّ، وما هممتُ بتركِ الأزهرِ إلَّا انتصبَ في وجهي كلُّ الأبطالِ الذين قرأتُ أخبارَهم فيه وأمسكوني، لا من يدي ولا من رجلي، ولكن من اعتقادي وإيماني وأملي!

قلتُ: فواللهُ لا يدعُكَ حتى تنجحَ، وما ربطَ اللهُ على قلبك بهذا الكتابِ وثبتَ فؤادك باليقينِ الذي فيه إلَّا وقد كتبَ لك الخيرَ كله.

(١) يتبرَّم: يظهر الضجر والملل.

أبو تمام الشاعر تحقيق مدة إقامته بمصر

لم يبقَ بُدٌّ من أن نبلغ بالكلام في هذا المعنى إلى مقطع الحق فيه، وأن ننفذ بتحقيقه إلى خاصته، وننتهي من خاصته إلى برهانه؛ فإن علماء الأدياء قديماً وحديثاً ألقوا خبر أبي تمام كلاماً مُرسلاً يجري في الرواية على طرقها المختلفة، لا على التاريخ في وجهه المتعين، ويُؤخذ على أنه خبر كالأخبار إن صدق فقد صدق وإن كذب فهو على ما يجيء، إذ لم يكن يعينهم من الشاعر إلا شعره، يحملونه عنه أو يأخذونه من روايته أو يجدونه في ديوانه؛ أما أخبار الشاعر فهي لا تتصل بالكتاب ولا بالسنة، فتجتمع لهم كما تجتمع ويتناولونها كما اتفقت بما دخلها من الكذب والتزييد والتلفيق، وما يكون فيها مما يظاھر بغيض بعضاً أو ينقض بعضه على بعض؛ والمحقق منهم من يروي الصدق والكذب معاً ليخرج من التبعة، فلا بُدَّ من تبعة في أحد النقيضين؛ وليبرأ بصدق أحدهما من كذب أحدهما كما صنع ابن خلكان في سياقه خبر أبي تمام وهذا نص عبارته:

كانت ولادة أبي تمام... بجاسم وهي قرية بين دمشق وطبرية، ونشأ بمصر، قيل: إنه كان يسقي الماء بالجرّة في جامع مصر، وقيل كان يخدم حائكاً يعمل عنده بدمشق وكان أبوه خماراً بها.

والذين يعرفون طرق الرواية ومصطلحاتها يدركون من هذه العبارة أن ابن خلكان ينتفي من أن تكون عليه تبعة أحد الخبرين أو كليهما؛ فإن الرواية متى أفتتح الخبر (بقيل أو يقال) فقد دلَّ على أن هذا الخبر غير مقطوع به؛ إذ تُسمى هذه الصيغة عندهم صيغة التمرّض، فهي لا تُفيد الصحة ولا العجز بها؛ وظاهر أن أبا تمام لا يمكن أن يكون قد نشأ بمصر وبدمشق في وقت معاً.

وإبن خلكان قد وقف على الكتاب الذي عمله الأصولي في أخبار أبي تمام ونقل عنه، وهو المرجع في هذا الباب؛ فلا بُدَّ أن يكون هذا الكتاب قد خلا من

تحقيق هذه الرواية، بل نحن نرجح أنه قد خلا منها بثة، فلم يذكر أن نشأة أبي تمام كانت بمصر؛ لأن صاحب الأغاني أغفلها ولم يشر إليها بحرف، مع أنه ينقل عن الصولي نفسه ويقول في كتابه (أخبرني الصولي)، وكذلك أهملها صاحب «مروج الذهب»، وهو ينقل أيضاً عن الصولي؛ وهذا يثبت لنا أن الخبر لم يكن معروفاً يومئذ، وإلا هو لتاريخ عند أبي الفرج والمسدودي إن لم يكن هو هذا؟

ولكن ذكرت الرواية في كتاب الأنباري (طبقات الأدباء)، واقتصر ناقلها على أن أبا تمام نشأ بمصر، وأنه كان يسقي ألماء بها، ولم يذكر رواية عمليه بدمشق؛ والأنباري متأخر توفي سنة ٥٧٧، فهو بعد موت أبي تمام بثلاثة قرون ونصف، فلا قيمة لروايته، وشأنه شأن غيره من الناقليين؛ ونحن نرى أن هذه الرواية قد ضمنت في مصر نفسها للغرض^(١) من أبي تمام والزيادة عليه، وبقية مروية فيها ثم حملت كما تحمل كل رواية لذاتها لا لتحقيقها، سواء أكانت موجهة على الحق أم معدولة بها عنه؛ ولا أوضح في المهنة من سقاية ألماء في الجامع بالجرة، ولعمري ما ذكرت (الجرة) هنا عبثاً؛ والغلو في التحقير هو بعينه الدليل على الكذب، فهذه الكلمة كأثر المجرم في جريمته.

وبعد، فإننا نقرر أن هذا الشاعر العظيم لم ينشأ بمصر، وأنه ولد وتادب في الشام ثم قديم إلى مصر شاعراً ناشئاً يتكسب بإديه كما قديم عليها غيره من الأندلس والمغرب والشام، والعراق، وأنه لم يأت إلى مصر إلا في ولاية عبد الله بن طاهر الأديب الشاعر القائد العظيم، وقد جعلت له ولاية مصر والشام والجزيرة في سنة ٢١٠ أو ٢١١ على خلاف بين المؤرخين، وكانت سن أبي تمام يومئذ بين ٢١ و٢٣ سنة؛ وقد كان ابن طاهر مغناطيساً للشعراء في كل مكان ينزل، حتى قال فيه بعضهم وعزم على الهجرة إلى مصر:

يقول رجال إن مصر بعيدة وما بعثت مصر وفيها ابن طاهر
وأبعد من مصر رجال نراهم بحضرتنا معروفهم غير ظاهر
عن أخير موتى ما تبالي أذرتهم على طمع أم رزت أهل المقابر

وقد قصده أبو تمام إلى مصر، كما قصده بعد ذلك إلى خراسان في سنة ٢٢٠، وهي السنة التي وضع فيها أبو تمام أو في التي تليها كتاب «الحماسة» كما حققناه ولا محل لذكره هنا.

(١) للغرض: للاتقاص.

ونحن نسوق أدلتنا على صحّة ما ذهبنا إليه في نفي أن يكون أبو تمام قد نشأ بمِصرَ أو جاءنا طفلاً. أو تكون منها طبيعته في الشعر، أو يكون لها أثر في عبقريته:

١ - المُجمَع عليه بلا خلاف أن الشاعر ولد في الشام، وما دام كذا لقد قالت الطبيعة كلمتها في أصل نبوغه وعبقريته، فإن الأديب يولد ولا يصنع كما يقول الإنجليز؛ وكلّ العلماء يعرفونه بالطائي! ولا يطعن في نسبه إلا من لا يحقّق، وهو نفسه يباهي بطائيته، وذلك كالشرح على كلمة الطبيعة في أسباب نبوغه الوراثية؛ وقد تنقل الرجل بين مِصرَ والشام والعراق وخراسان وأرمينيا وغيرها، فما بلد أولى من بلد بأن يكون مثار عبقريته.

٢ - إن الشاعر إنما يتكسّب من شعره يمدح من يهتزّ له أو يُعطي عليه، ولم يمدح أبو تمام أحداً من أهل مِصرَ؛ فإن كان مدح فيها عبد الله بن طاهر فإنما إليه قصد وله جاء؛ وأبن طاهر ليس مِصرياً، وقد جاء إلى مِصرَ ورجع منها قبل أن يحول عليه الحول، فلو أن نشأة هذا الشاعر كانت بمِصرَ وتادبّه كان فيها لأصبتا له مذحاً كثيراً في أعيانها وعلماؤها؛ إذ هو متى قال الشعر لا يتكسّب إلا منه؛ وفي ديوان الشاعر هجاء لأبن الجلودى نظمهُ في مِصرَ، ولكن أبن الجلودى ليس مِصرياً، بل هو قائد من قوّة المأمون، ولأه محاربة الزط سنة ٢٠٥، ثم أقدم بعد ذلك مصر، ثم ولي عليها في سنة ٢١٤؛ فكل المِصريّة في شعر أبي تمام هي في هجائه للشاعر المصري يوسف السراج، ولعلها في بعض مقاطع أخرى من الغزل أو الوصف.

٣ - ولد أبو تمام في سنة ١٨٨ أو ١٩٠، ومن الثابت أنه كان بمِصرَ في سنة ٢١٤، حين نظم قصيدته الدالية والنونية في رثاء عمير بن الوليد - وعمير هذا ليس مِصرياً، بل هو من خراسان، وكان بمِصرَ عاملاً لأبي إسحاق المعتصم أبن الرشير - فلو كان أبو تمام قد جاء إلى مِصرَ طفلاً كما يُقال لكانت مدّة قوله الشعر فيها لا تُقلّ عن عشر سنوات، مع أن كل ما نظمهُ وهو فيها لا يبلغ عشر قصائد؛ وهذا ديوانه بين أيدينا وإليه وحده المرجع في الدلالة على صاحبه.

٤ - روى المرزباني في «الموشح» عن العباس بن خالد البرمكي قال: أول ما نبع (أي قال الشعر) أبو تمام الطائي أتاني بدمشق يمدح محمد بن الجهم فكلّمته فيه فأذن له؛ فدخل عليه وأنشده، ثم خرج فأمر له بدراهم يسيرة، ثم قال: إن عاش هذا ليخرجن شاعراً.

فهذا نصٌّ على أنَّ الشاعرَ لم يكن يومئذٍ إلا في ابتداءِ الشعر، ولم يكن قد خرجَ شاعراً بعدُ وكانَ شعرُهُ مِنَ الطَّبَقَةِ الَّتِي يَثَابُ عَلَيْهَا (بدرهمَ يسيرة). وأبو تمام بعدَ ذلك هو نفسه الَّذِي نثرَ عليه عبدُ الله بنُ طاهرٍ ألفَ دينارٍ فترقَّعَ أنَّ يمسخها وتركُ الخَدَمَ ينتهبونها، وكانَ ذلك سبباً في تغيُّرِ أبين طاهرٍ عليه.

٥ - نقلَ أبْنُ خَلِّكَانَ في ترجمةِ ديكِ الأجنِّ الشاعرِ الحمصيِّ المشهورِ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ الملكِ الزبيديِّ قال: كُنْتُ جالِساً عندَ ديكِ الأجنِّ، «يعني بِحُمْصٍ»، فدخلَ عليه حدثٌ فأنشدَهُ شِعْراً عملَهُ، فأخرجَ ديكُ الأجنِّ من تحتِ مصلاه دُرْجاً كبيراً فيه كثيرٌ من شعرِهِ، فسَلَّمَهُ إِلَيْهِ وقال: يا فتى تكسِبُ بهذا وأستعينُ بِهِ على قولك. فلما خرجَ سألتُهُ عنه فقال: هذا فتى من أهلِ جاسمٍ، يذكُرُ أَنَّهُ من طيءٍ، يُكنى أبا تمامٍ، وأسمُهُ حبيبُ بنِ أوسٍ، وفيهِ أدبٌ وذكاءٌ ولَهُ قريحةٌ وطبعٌ. فهذا نصٌّ آخرٌ على أنَّ أبا تمامٍ كانَ يومئذٍ حَدَثاً - أي غلاماً - وكانَ لا يزالُ يطلبُ الأَدبَ، وقد أعانَهُ أستاذه بِشُحٍّ من قصائِدِهِ يتخرَّجُ بِهَا ويحذو عليها؛ فهو قد نشأَ في الكُشَامِ وتأدَّبَ فيها.

٦ - نظمَ أبو تمامٍ قصيدَتَهُ الأَلَامِيَّةَ «أصب بحميا كأسها مقتل العذل» يصفُ تقشيراً الرزقِ عليه بِمِضْرٍ وخيبةَ أمله الَّذِي أمله مِنَ المالِ، وفي هذه القصيدةِ يحنُّ إلى الكُشَامِ ويستسقي لها ويذكرُ أرضَ البقاعينِ وقرى الجولانِ الَّتِي نشأَ فيها: ولا يحنُّ الشاعِرُ لأَرْضٍ إِلَّا إذا كانَ فيها حُبُّهُ أو شبابهُ وأدبه، أمَّا الطفولةُ فمُنْسِيَةٌ بِآثارها، إذ لا آثارَ لها في النفسِ متى شُبَّ المرءُ إِلَّا بعيداً بعيداً، وإنَّما الحنينُ لَمَّا تتعلَّقُ بِهِ الغريزةُ المميَّزةُ.

٧ - في هذه القصيدةِ يقولُ أبو تمامٍ يُخاطِبُ أحبابَهُ:
عدتني عنكم مكرهاً غزبةُ النَّوى لها وطرٌ^(١) في أن تمرُّ ولا تُخلِي
وَأَلْنوى في لغةِ الشاعرِ هي رحيلُهُ لِلتكسِبِ بِشعرِهِ؛ ولَمَّا رجعَ عوفُ بنُ مُحَلَمٍ الشيبانيُّ إلى وطنِهِ بعدَ وفادَتِهِ على عبدِ اللَّهِ بنِ طاهرٍ في خُرَاسَانَ؛ سئلَ عن حالِهِ فقال: رجعتُ من عندِ عبدِ اللَّهِ بِالْعَنِي (والراحةُ مِنَ النَّوى)؛ وَيُؤَيِّدُهُ قولُ أبي تمامٍ في قصيدَتِهِ تلكَ:

نَأَيْتُ^(٢) فَلَا مَالاً حَوَيْتُ وَلَمْ أَقْمِ فَأَمْتَعْتُ، إِذْ فُجِغْتُ بِالْمَالِ وَالْأَهْلِ

(١) طر: غابة وثية.

(٢) نأيت: بعدت.

يعني أنه اغترب مكرهاً يطلب الكسب لا غير، ولا كَسَبَ للشاعر إلا من شعره، فهو بنص كلامه عن نفسه قدم إلى مضر شاعراً يتكسب ويتعرض للغنى كما يصنع غيره.

٨ - في هذه القصيدة الألامية يُقدم لنا أبو تمام - رحمه الله - دليلاً يأكل الأدلة، كأنما ألهم من وحي الغيب أننا سنحتاج إلى هذا الدليل يوماً لندفع به عنه؛ فهو يَجْنُ إلى حبيب له في الشام، ويقول: إنَّ غربة النوى ألتي وصفها:

أنت بعد هجر ابن حبيب فحركت صباة ما أبقي الصدود من الوصل
أخمس أحوال مضت لمغيبه؟ وشهران بل يومان تكل من الشكل!

يعني أنه قال هذا الشعر وقد مضى على إقامته في مضر خمس سنوات، وكان قد جاء من الشام عاشقاً ذلك العشق الذي فيه (الصدود والوصل)، والطفل لا يحب مثل هذا الحب ولا يَجْنُ ذلك الحنين؛ فإذا كان الشاعر قدِمَ إلى مضر في سنة ٢١٠، كما رجحناه، وسنه بين ٢١ و ٢٣ سنة، فيكون قد نظم هذه القصيدة في سنة ٢١٥، وعمره يومئذ بين ٢٦ و ٢٨ سنة؛ فلو أن أبا تمام جاء من الشام طفلاً صغيراً فكيف للطفل أن يقول مثل هذا الشعر بعد خمس سنوات؟ وما هجر الحبيب «وصباة ما أبقي الصدود من الوصل»؟

٩ - مدح شاعرنا محمد بن حسان الضبي بقصيدة نونية يذكر فيها ثقلة في البلاد فقال فيها:

بالشام أهلي، وبغداد الهوى، وأنا بالرقمتين، وبالفسطاط^(١) إخواني
وما أظن أنوى^(٢) ترضى بما صنع، حتى تُشافى بي أقصى خراسان!

فأنت ترى أنه جعل أهله بالشام، وجعل أصدقاءه بمصر؛ فلو أنه كان قد نشأ بها لجعل بها أهله؛ إذ لا ينشأ إلا مع أبيه وأمه؛ وألبت الثاني دليل منه هو على أنه لم ينزل بمصر مقيماً ولا متوطناً، بل متقللاً كما نزل غيرها.

١٠ - تقول كتب الأدب في مدارس الحكومة: إنَّ أبا تمام نُقِلَ إلى مضر صغيراً فنشأ بها (وقد بينا فساد ذلك)، ثم خرج إلى مقر الخلافة فمدح المعتمد؛ وهذا غير صحيح؛ فإنَّ أبا تمام خرج من مضر قبل أن يدخلها أئامون في سنة

(٢) النوى: البعد.

(١) الفسطاط: مصر القديمة.

٢١٦، حين جاءها وقتل بها عبدوساً الفَهْرِيّ؛ فلو كانَ الشاعِرُ يُوْمِئِدُ لَمَدَحَ الْمَأْمُونِ
وذكرَ هذه الواقعة؛ والمعتصمُ وليَ الخلافة سنة ٢١٨، وديوانُ أبي تَمَّامٍ يُشِيرُ أَنَّهُ
في سنة ٢١٧، كانَ بِالعِراقِ، وقد مدَحَ الْمَأْمُونُ بِقصيدَتِهِ المِيميَّة، وذكرَ في مدحِهِ
وقعةَ الرومِ، وهذه كانت في تلك السنة.

يُخَلِّصُ من كلِّ ما تقدَّم أنَّ أبا تَمَّامٍ وُلِدَ في الشَّامِ وتأدَّب فيها، وقَدِمَ إلى
مِصْرَ كبيراً يتكسَّبُ بالشعر، فأقامَ بها بينَ خمسِ سنينَ وسِتٍّ، ولم يجدْ لَهُ عيشاً بها
بعدَ قتلِ عميرِ بنِ الوليدِ الَّذي قُتِلَ في سنة ٢١٤؛ فَإِنَّهُ كانَ يعيشُ في كنفِهِ، وقد
صرَّحَ في قصيدَتِهِ النونيةِ الَّتِي رثاهُ بها أَنَّهُ يَأْمُلُ من بعدهُ في أبْنِهِ محمدَ.
فقدومُ الشاعِرِ إلى مِصْرَ كانَ في سنة ٢١٠ أو حواليها، وخروجُهُ منها كانَ في
سنة ٢١٥ أو حواليها، واللَّهُ أعلم.

القديم والجديد

أقول للأستاذ الفاضل الدكتور طه حسين «في رقي ولين» وفي عجلة أيضاً: إنني في هذه الأيام ضنين^(١) بما أملك من وقتي أشد الضن، أحسب السماء تنفجر من يومي في ساعة كالفجر، فلا يصرفني عن تلك الساعة شيء ولا يصرفها عني شيء؛ إذ بين يدي كتاب في الرسائل أعمل فيه وأستعين الله على الفراغ منه في وقت معين، وقد أظلل أو كاد؛ فلا يرى الأستاذ أنني أستطير هذه المرة كالبطيرة الأولى، فإن جناحي في فضاء آخر، وإن هذا الكتاب الذي أعالجُه لا يجشمني^(٢) عرقاً من الغربة كما قالوا قديماً، بل لعله في ألمه أشبه «بعمليّة» تشريح في القلب، وستذهب الدقائق التي أكتب فيها هذه الكلمة مأسوفاً عليها، لأنها ذاهبة بصفحتين من كتابي.

وأما بعد، فلا أرى من الإنصاف أن يعمد الدكتور إلى جمل يقتضيه^(٣) من مقالتي في مجلة أهلال ثم يهدفها للرد، وكان عسى أن يدفع عنها شيء مما قبلها أو ما بعدها أو يشد منها بعض جهاتها أو يأتي بها في سياق يبين عن معناها.

وزعم الأستاذ أنه لا يفهم من كلامي هذه الجملة «وأنت تعلم أن الذوق، الأدبي في شيء إنما هو فهمه، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه، وأن التقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً...»، ثم دار بهذه الكلمات دورة العاصفة وجعلها مسألة كمسألة الدور والتسلسل المشهورة، بل جعلها من قبيل «قصة وقضية»... فتراها يقول: ذوق هو الفهم، وفهم هو الذوق، وفهم ليس بالذوق، وذوق ليس بالفهم، وهلم صاعداً ونازلاً؛ وضرب لنا مثلاً بالموسيقى فقال: «ما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً». وأنا أفسر كلامي بهذا المثل نفسه، أقصر عليه ولا أعدوه.

(١) ضنين: بخيل.

(٢) يجشمني: يرهقني وتعني.

(٣) يقتضيه: يقتطع.

نأتي الآن باستاذٍ قد برع في الموسيقى وخالطت أعصابه ولحمه ودمه، وندفع إليه قطعة ملحنة ونقول له: اسمع وأفهم وأحكم وانتقد؛ يسمعها مرة بعقله أو لعقله يتبين ما يكون فيها صواباً وما يكون خطأ، ثم ما يعلو عن الصواب من الإجابة والانتقاد، وما ينحط عن الخطأ من الإساءة والتخليط؛ فهذا هو ألفهم.

ويسمعها مرة ثانية بحسه أو لجسه، فيرى أثر ما فهم، ويديرها في ذوقه ليعرف كيف موقعها من الغرض الذي وضعت له، فإنها لم توضع لتكون أصواتاً، بل لتخلق من الأصوات شيئاً؛ فهذا هو الذوق، وهو كما تراه بعد ألفهم، وناشيء عنه. ومثل الأستاذ طه حسين لا يخفى عليه أن من يقول: إن الذوق في شيء إنما هو فهمه، أو إنما هو عن فهمه، أو إنما ينشأ عن فهمه، فالعبرة في باب المجاز واحدة لا تختلف.

ثم إن أستاذ الموسيقى وقد سمع القطعة مرتين، أو مرة كمرتين إن بلغ أن يكون له في كل أذن واحدة أذان، يستفتي ذوقه الفني ويحكم للقطعة أم عليها؛ فهذا هو أثر الذوق.

الآن قد حكم الأستاذ وانتقد وجزم برأيه، فثبث له فلان يقول: أخطأت وأسأت وجهلت وغفلت، أو تعصبت وحططت في هوى صاحب اللحن؛ فمن أين جاء هذا الخلاف وكيف وقع هذا القول؟ بل كيف ساع للثاني أن يجهل الأول ويرى غير رأيه ويحكم غير حكمه، إلا إذا كان قد فهم غير فهمه فانشأ له ألفهم ذوقاً وأحدث له الذوق حكماً وجاءت من هذه المقدمات تلك النتيجة التي نسميها النقد، وما هي في الحقيقة إلا الذوق والفهم جميعاً. فالذين يذوقون الموسيقى ويظربون لها ولا يفهمونها فقد فهموها على مقدار ما استقر في نفوسهم من أساليب التطريب وما فيهم من المطاوعة لهذه العاطفة؛ أو لا تراهم يقولون في أمثال هؤلاء: إن لهم آذاناً موسيقية؟ فهذه الأذن هي ألفهم بعينه، لأنها حاسة اجتمعت من مران طويل، وقد تقوّم في بعض الناس على جهله بالموسيقى مقام علم برأيه.

ويقول الأستاذ طه: إنه قد يقرأ كلامي ويفهمه ولا يذوقه، ولكن عدم الذوق هنا هو الذوق؛ وليت شعري ما معنى قول المتنبّي: «ومن يك ذا فم مر».

ولو كان الأستاذ وأمثاله هم في هذا القياس المتر والكيلومتر، لوجب ألا أجد من يذوق كلامي ويعجب به ويغالي فيه ويكون ذنباً من ذنوبي عند الله بإسرافه في

المُغَالاة، وأنا واجدٌ بِكُلِّ واحدٍ مِثْلِ الأستاذ طه عشرةً ومائةً من غيره، ولو خرج هو إلى العالم لَرَأَى وَسَمِعَ، وفيهم مَنْ هم أعلى منه كعباً وأمدَّ عُتْقاً وأضخُم هامةً وأبدع بديعاً وأبلغ وأزكى وأعلم إلى عددٍ من هذه الواوات .

وعَجِيتُ للدكتورِ يريدُ أن لا يفهم من عبارتي كما يقولُ إلا أن «الذوق هو نفسُ ألفهم»، فاللفظانِ يدلّانِ على معنى واحد، وإذن وإذن وإذن...» .

فهلْ يرى إذا قلْتُ له: رأيتُ القمرَ وفلانةَ ليلةَ كذا فكانتِ إنَّما هي القمر - أني أقصدُ بهما معنى واحداً فيقولُ لها: «إذن» فليسا شيئينِ مختلفين وإنَّما هو شيء واحد، وإذن فكيف صارَ لها وجهٌ في السماءِ ووجهٌ في الأرضِ وبقيتِ مع ذلك امرأةٌ مِنَ الإنس؛ وإذن فهذا كلامٌ لا يفهم... .

قالَ بعضهم إنَّ «لو» تفتحُ عملَ الشيطان، يُريدُ أنَّها أداةُ التمني، والمذهبُ الجديّدُ سيضمُّ «إذن» إلى «لو»، ثُمَّ ما هي الكلمةُ الثالثةُ يا ترى؟

أنا - معَ إعجابي بالدكتورِ الفاضل - أرى أنَّه مُستهترٌ بأشياء، وأنَّ من خُلِقَ أن ما لا يرضى عنه وما لا يفهمه «ليسا شيئينِ مختلفين». فإذا لم يكن مِنَ ألفهم بُدٌّ قالَ: إنَّه لا يقتنع، فإذا ضايقتهُ وضيقَتْ عليه لم يبقَ إلا ما يقولُ النحاةُ في «أي» التي حيرهم إعرابها وبنائها: أي كذا خُلِقْتُ... .

وأنا وأمثالي إنَّما نحِرُصُّ أشدَّ الحِرْصِ على هذه اللُغةِ لأنَّها أساسُ الأُمّةِ الإسلاميّةِ فلا نرضى إلا أن يكون هذا الأساسُ ثابتاً متيناً لا يُزعزَعُه شيءٌ ولا يثلمُه شيءٌ ولا يُضعِفُه شيءٌ؛ والدكتورُ وأمثاله لا يبالون أن تكونَ هذه الأُمّةُ كبيوتِ أمريكا المتحركة... .

لستُ أنكرُ التّجديدَ، بل لعلَّ الدكتورَ يذكرُ مناقشتي إِيَّاهُ في (الجريدة) وإصراره يومئذٍ أن ليسَ لِأحدٍ أن يُدخلَ في اللُغةِ كلمةً، وأنَّ قولَ الناسِ تنزّهٌ ومُتنزّهٌ ونزّهةٌ إلخ كُلُّها مِنَ الكلامِ العاميِّ، وتعلّقُهُ بِنصِّ أبْنِ سِيْدَةٍ في ذلك، وأستخراجي له نصَّ أبْنِ قُتَيْبَةَ وكلاماً كثيراً مِنَ أَسْتَعْمَالِ الْعُلَمَاءِ، ثُمَّ قوله أحسنت، ولكن لو جِئْتَنِي بِاللُفْظَةِ في كلامِ أَلْمَبْرِدِ وَالْجَا حِظِّ وَفَلانٍ وَفَلانٍ ما أَقْتَنَعْتُ .

إنَّما أنكرُ شيئاً واحداً، وهو أن يُقالَ مذهبٌ قديمٌ ومذهبٌ جديدٌ؛ فقد وسَّعَ اللَّهُ على الناسِ فيما عَلموا وفيما جَهِلوا، ولكنَّ أصحابنا يُريدونَ ألا نكتبَ إلا نمطاً بعينه، ولا نذهبَ إلا مذهباً بعينه؛ لِأَنَّ كُلَّ ذلك هُوَ الجديّدُ؛ فأيُّهُما خيرٌ لنا ولهم

وللذين سيخرجون تاريخهم من قبورنا: أن نعتد اللغة والآدب كل ما أجمع من قديم وجديد ونحكم هذه اللغة ونحفظها وندفع عنها ونجعل تجديدها كتجديد الحسناء في أثوابها وفي ألوانها دون تشويه ولا مسخ ولا من الجسم الجميل، أم نقول: هذه الشفة وهذا الأنف وهذا الموضع الممتليء الخلد وهذا الموضع الهضم الناجل وتعال يا دكتور هات المينضع والمشرط والمقص والمنشار والإبرة والخيطة وإذن . . . ؟

لقد أذكر أنني رأيت في بعض مقالات الأستاذ طه حسين أو في بعض ما يُقرظ^(١) به الكتب أنه قال: إن القديم قد أثبت دائماً أنه أقوى وأمتن وأصح؛ فهل رحل عن هذا الرأي أم ظهر له في الجديد ما هو أقوى وأمتن وأصح؟ ثم يا أيها المملأ افتوني ما هو هذا الجديد؟ أهو ذاك الخيال الشارد المجنون، أم تلك الشهوات المتوتبة المتلهفة، أم ذلك الأسلوب ألفج المستوخم، أم العامية السقيمة الملحونة؟ أم هو في الحقيقة بين رغبة في النبوغ قبل أن تيم الأداة وتستحكم الطريقة، كما هو شأن فريق من الكتاب، فيختصرون الطريق بكلمة واحدة هي المذهب الجديد - وبين رغبة في التعصب للأدب الأجنبية كما هو شأن فريق آخر - وبين رغبة في الحط من قيمة بعض الناس ورميهم بالجهل والسخف وأنه لا قيمة لما يجيئون به، كل ذلك في تعبير علمي يصح أن يكون نظرية علمية . . . وقبلهم قالها العرب في القرآن الكريم: «لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين!» فقد شاءوا فلم يقولوا؛ ولو أن المذهب الجديد فسّر القرآن يوماً . . . لقال في معنى أساطير الأولين إنهم أرادوا المذهب القديم . . .

ويقول الدكتور طه: إن هناك قوماً ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور؛ ثم طلب رأيي في هؤلاء وما أصل مذهبي الجديد؛ فأقول: إنني أعرف بعضهم، وأعرف أن أدمغتهم لا يشبهها شيء إلا جلود بعض الكتب التي ليس فيها إلا متن وشرح وحاشية: جلد ملفوف على ورق، وورق ينطوي على قواعد محفوظة، وهم أفقر الناس إلى الرأي؛ وهذه علّة خبهم للأساليب الجديدة القائمة على الترجمة ونقل الآراء من الغرب إلى الشرق، وبالمعنى الصريح المكشوف: من الأدغة المملوءة

(١) بقرظ: يني ويمدح ما يراه جيداً.

إلى الأدمغة الفارغة، وفيهم بعض أذكياء، ولكن ذكاءهم في حواسهم، فإن لم يكن هذا فليقولوا هم لماذا؟

ولو أنك سألت العنكبوت: ما هي الظبية الحوراء العيناء التي تطمعين فيها وتنصبين لها كل هذه الأشرار والحيائل؟ لقالت لك: مهلاً حتى تقع فتراها! فإذا وقعت رأيتها ثمّة ورأيتها ذبابة...

ولكن ماذا يقول الدكتور في الأستاذ الإمام الكبير الشيخ محمد عبده؟ أكان يدعو إلى مذهب جديد في اللغة والأدب ويفتني بالروايات الغرامية وبأسلوب «إميل زولا» في روايته المعروفة وبمثلي رواية (ألا جرسون).

إن كان الناس عند الدكتور من بعض الحجج فإن الشيخ وحده بأمة كاملة ممن يعنيهم.

وأختم هذه الكلمة بالشكر للأستاذ طه حسين والثناء عليه، ثم إنني مرسلاً في عملي، وهذا عذري إليه.

المرأة والميراث

قرأتُ في «المقطم» كلمة ألكاتب المعروف سلامة موسى فيما يزعمه إجابات مختصرة عن اعتراضات تهافت^(١) بها رأيه في الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث، وهو ينصح لمن يريد أن يناقشه أن يقرأ نص محاضراته في «السياسة الأسبوعية».

وقد رجعتُ إلى نص المحاضرة فإذا ألكاتب هو هو في ضعف تفكيره وسوء تقليده، يكاد لا يُمَيِّز بين الرأي الصحيح الثابت في نفسه لأنه قائم على حكمته الباعثة عليه، وبين الرأي المتغير في كل نفس بحسبها لأنه قائم على منزع أو غفلة أو مرض في النفس.

ترى ألكاتب لا يدعو إلا إلى تقليد أوروبا، وتكاد عباراته في ذلك لا تُحصى ويقول: إن «المُصلِح المثمر عندنا هو مُقلِّد لأوروبا لا غش في تقليده»، فليس إلا أوروبا وتقليدها وإذا لم يكن في أوروبا قرآن ولا إسلام فالإصلاح المثمر عند ألكاتب ألا يبقى من ذلك شيء...

«مُقلِّد أوروبا لا غش في تقليده»، وما هو الغش في التقليد؟ هو أن تستعمل رأيك وفكرَكَ فتدع وتأخذ على بينة في الحالين، وأن تأبى أن تحمل على طبيعتك الشرقيّة ما لا تصلح عليه ولا تقوم به؛ وإذا أنقلبَت أوروبا شيوعيّة أو إباحيّة رجب ألا نغش في التقليد... وإذا كانت الشمس لا تطلع ستة أشهر في بعض جهات أوروبا وتطلع في مضر كل يوم وجب أن يكون المضرّي أعمى ستة أشهر...

والظاهر أن ألكاتب يقول بالتقيد لأنه طبيعي فيه... ورأيه في الميراث أنما هو ترجمة... لعمل مصطفى كمال؛ وإن كان مصطفى كمال قد أصلح الترك في سنوات كما يقولون: فبرهان التاريخ لا يخضع للمشتقة ولا لمحاكم الاستقلال ولا يأتي إلا في وقته الذي سيأتي فيه، وسيرى الناس يومئذ ما يكون وهما مما يكون حقيقة.

(١) تهافت: تهاوى ضعفاً.

ويردُ الكاتبُ على رأي الأستاذ الأخلاقيّ رئيس تحرير «المقطم» في خشيته أن يقتصرَ الإصلاحُ على القشورِ دونَ اللُّبِّ، فيقولُ: إِنَّهُ «معتقدُ أنَّ الأُمَّةَ الَّتِي تُشرعُ في اتِّخاذِ المَدِينَةِ، الحَدِيثَةِ يجبُ أنْ تبدأَ بالقشورِ... لِأَنَّها أسهلُّ عليها مِنَ اللُّبِّ بل هي لا تستطيعُ غيرَ ذلك». أَكذلكِ بدأتِ أليابانُ؟ وهل كلُّ أطباعٍ كطبيعةِ بعضِ الناسِ، تستطيعُ أنْ تعتَلِفَ^(١) قشورَ المَدِينَةِ... وتتصرفُ إلى مذاقيها وسفاسفها؟

ولا ريبَ أنَّ حضرتَه لا يفهمُ الدينَ الإسلاميَّ لِأنَّهُ ليسَ من أهله، فهو يُقرئنا على ذلك، وهو بذلك يُقرئنا على أَنَّهُ مُتَطَفِّلٌ في اقتراحه؛ وإنَّ الَّذِي يقرأُ في مُحاضرتِهِ قولَه: «إِنَّ الطَّبَقَةَ الغَنِيَّةَ في الأُمَّةِ هيَ الَّتِي تُقرِّرُ دِيانَةَ الأُمَّةِ...» يستيقِنُ أَنَّهُ لا يفهمُ ديناً مِنَ الأديانِ، وَأَنَّهُ قصيرُ النظرِ في أمورِ الاجتماعِ وأبوابِ السياسةِ؛ وأنَّ يمينَه وشمالَه وأمامَه ووراءَه إنَّ هيَ إلَّا جِهاتُ الزمامِ الَّذِي ينقادُ فيه، فلا شخصيَّةَ له، ولأَمَّا يُتابعُ وينقادُ لِلآراءِ الَّتِي يُترجِمُ منها بلا نقدٍ ولا تمييز.

إنَّ ميراثَ أَلِنَبِّ في الشريعةِ الإسلاميةِ لم يُفصِّدْ لَذاته، بل هو مُرتَّبٌ على نظامِ الزواجِ فيها، وهو كعمليَّةِ الطرحِ بعدَ عمليَّةِ الجمعِ لإخراجِ نتيجةٍ صحيحةٍ مِنَ العَمَلينِ معاً، فإذا وَجِبَ لِلْمَرْأَةِ أنْ تأخُذَ من ناحيةٍ وَجِبَ عَلَيْها أنْ تدعَ من ناحيةٍ تُقابِلُها؛ وهذا الدينُ يقومُ في أساسِهِ على تربيةِ أخلاقِيَّةٍ عاليةٍ ينشأُ بها طِباعاً ويعدِلُ بها طِباعاً أخرى، كما بيَّناهُ في مقالنا المُنشورِ في «مقتطف» هذا الشهر - فهو يربأُ بِالرَّجُلِ أنْ يطمَعَ في مالِ الْمَرْأَةِ أو يَكُونُ عالةً عَلَيْها؛ فَمِنْ ثَمَّ أوجبَ عَلَيْهِ أنْ يمهَرَّها وأنْ يُنفَقَ عَلَيْها وعلى أولادِها، وأنْ يدعَ لها رَأْيَها وعَمَلُها في أموالِها، لا تُحَدُّ إرادَتُها بِعَمَلِها ولا بِأطماعِها ولا بِأهوائِها؛ وكلُّ ذلكِ لا يُقصدُ منه إلَّا أنْ ينشأَ الرَّجُلُ عاملاً كاسباً معتمداً على نَفْسِهِ مشاركاً في محيطِهِ الَّذِي يعيشُ فيه، قوياً في أمانَتِهِ، منزهاً في مطامِعِهِ، متهيئاً لِمَعاليِ الأُمورِ، فَإِنَّ الأخلاقَ كما هو مقررٌ يدعو بعضها إلى بعضٍ، ويُعينُ شَيْءٌ منها على شَيْءٍ يُمانِلُهُ، ويدفعُ قوَّيها ضَعِفَها، ويأنفُ عاليها من سافلِها؛ وقد قلنا مراراً إِنَّهُ لا يجوزُ لِمُتَكَلِّمٍ أنْ يتكلَّمَ في حِكْمَةِ الدينِ الإسلاميِّ إلَّا إذا كانَ قوَّيَ الخَلْقِ، فَإِنْ مَنْ لا يَكُونُ الشَّيْءُ في طَبْعِهِ لا يفهمُهُ إلَّا فَهْمَ جَدَلٍ لا فَهْمَ اقْتِناعٍ.

لِلْمَرْأَةِ حَقٌّ واجبٌ في مالِ زَوْجِها، وليسَ لِلرَّجُلِ مثلُ هذا الحَقِّ في مالِ

(١) تعتلف: تجعله علفاً تأكله.

زوجهِ؛ وَالْإِسْلَامُ يَحْتَ عَلَى الزَّوْجِ، بَلْ يَفْرُضُهُ؛ فَهُوَ بِهَذَا يُضَيَّفُ إِلَى الْمَرْأَةِ رَجُلًا وَيُعْطِيهَا بِهِ حَقًّا جَدِيدًا، فَإِنَّ هِيَ سَاوَتْ أَخَاهَا فِي الْمِيرَاثِ مَعَ هَذِهِ الْمِيزَةِ الَّتِي أَنْفَرَدَتْ بِهَا أَنْعَدَمَتْ الْمُسَاوَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ، فَتَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛ إِذْ لَهَا حَقُّ الْمِيرَاثِ وَحَقُّ الْنَفَقَةِ وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا مِثْلُ حَقِّهَا فِي الْمِيرَاثِ إِذَا تَسَاوَا.

فَإِنْ قُلْتَ كَمَا يَقُولُ سَلَامَةُ مُوسَى: إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تُنْفِقَ الْمَرْأَةُ عَلَى الرَّجُلِ وَأَنْ تَدْفَعَ لَهُ الْمَهْرَ ثُمَّ تُسَاوِيَهُ فِي الْمِيرَاثِ، قُلْنَا: إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا وَأَصْبَحَ أَصْلًا يُعْمَلُ عَلَيْهِ بِطُلِّ زَوَاجٍ كُلِّ الْفَقِيرَاتِ وَهُنَّ سَوَاءُ النِّسْوَةِ، إِذْ لَا يَمْلِكُنَّ مَا يَمْهَرْنَ بِهِ وَلَا مَا يُنْفِقُنَّ مِنْهُ؛ وَهَذَا مَا يَتَحَامَاهُ الْإِسْلَامُ لِأَنَّ فِيهِ فُسَادَ الْأَجْتِمَاعِ وَضَيَاعَ الْجِنْسَيْنِ جَمِيعًا؛ وَهُوَ مُفْضٍ^(١) بِطَبِيعَتِهِ الْقَاهِرَةِ إِلَى جَعْلِ الزَّوْجِ لِلْسَّاعَةِ وَلِلْيَوْمِ وَلِلْوَقْتِ الْمَحْدُودِ... وَإِلْجَادِ لُقْطَاءِ الشَّوَارِعِ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الزَّوْاجُ لِلْعُمْرِ وَلِلْوَجِبِ وَلِتَرْبِيَةِ الرَّجُلِ عَلَى أَحْتِمَالِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ بِإِلْجَادِ الْأُسْرَةِ وَإِنْشَائِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهَا.

مِنْ هُنَا وَجِبَ أَنْ يَنْعَكَسَ الْقِيَاسُ إِذَا أُريدَ أَنْ تَسْتَقِيمَ النَتِيجَةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي هِيَ فِي الْغَايَةِ لَا مِنْ حَقِّ الرَّجُلِ وَلَا مِنْ حَقِّ الْمَرْأَةِ بَلْ مِنْ حَقِّ الْأُمَّةِ؛ وَمَا نِسَاءُ الشَّوَارِعِ وَنِسَاءُ الْمَعَامِلِ فِي أَوْرُبَا إِلَّا مِنْ نَتَائِجِ ذَلِكَ الْنِظَامِ الَّذِي جَاءَ مَقْلُوبًا، فَهُنَّ غُلَطَاتُ الْبُيُوتِ الْمُتَخَرِّبَةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْمُتَهَدِّمَةِ، وَهُنَّ الْوَاجِبَاتُ الَّتِي الْقَاهَا الرِّجَالُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَوَقَعَتْ حَيْثُ وَقَعَتْ!

وَإِذَا أَنْزَاخَتْ مَسْئُولِيَّةَ الْمَرْأَةِ عَنِ الرَّجُلِ أَنْزَاخَتْ عَنْهُ مَسْئُولِيَّةَ النِّسْلِ، فَأَصْبَحَ لِنَفْسِهِ لَا لِأُمَّتِهِ؛ وَلَوْ عَمَّ هَذَا الْمَنْعُخُ الْأَجْتِمَاعَ وَأَسْرَعَ فِيهِ الْهَرَمُ وَأَتَى عَلَيْهِ الضَّعْفُ، وَأَصْبَحَتْ الْحُكُومَاتُ هِيَ الَّتِي تَسْتَوْلِي النَّاسَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي تُسْتَنْجَجُ بِهَا الْبَهَائِمُ، وَقَدْ بَدَأَ بَعْضُ كُتَّابِ أَوْرُبَا يَدْعُونَ حُكُومَاتِهِمْ إِلَى هَذَا الَّذِي أَبْتَلَوْا بِهِ وَلَا يَدْرُونَ سَيِّئُهُ وَمَا سَيِّئُهُ إِلَّا مَا بَيْنَا أَنْفَاءً.

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ حِكْمَةً سَامِيَةً، وَهِيَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَدْعُ بِضَفِّ حَقِّهَا فِي الْمِيرَاثِ لِأَخِيهَا يَفْضُلُهَا بِهِ - بَعْدَ الْأَصْلِ الَّذِي نَبَّهْنَا إِلَيْهِ - إِلَّا لِيُعَيَّنَ بِهَذَا الْعَمَلُ فِي الْبِنَاءِ الْأَجْتِمَاعِيِّ؛ إِذْ تَرَكْنَا مَا تَرَكْنَاهُ عَلَى أَنَّهُ لِمَرْأَةٍ أُخْرَى، هِيَ زَوْجُ أَخِيهَا؛ فَتَكُونُ قَدْ أَعَانَتْ أَخَاهَا عَلَى الْقِيَامِ بِوَجِبِهِ لِلْأُمَّةِ، وَأَسَدَتْ لِلْأُمَّةِ عَمَلًا آخَرَ أَسْمَى مِنْهُ بِتَيْسِيرِ زَوَاجِ امْرَأَةٍ مِنَ النِّسَاءِ.

(١) مُفْضٍ: مُؤَادٍ.

فأنت ترى أَنَّ مسألة الميراث هذه متغلَّغلة في مسائل كثيرة لا منفردة بنفسها،
وأنَّها أحكم الحُكْمِ إذا أُريدَ بالرجل رجلٌ أمُّه وبألمراة أمراة أمُّها، فأما إذا أُريدَ
رجلٌ نفسه وأمرأة نفسها، وتقرَّرَ أَنَّ الاجتماعَ في نفسه حماقة، وأنَّ الحكومةَ
خُرافة، وأنَّ الأُمَّةَ ضلالة، فحينئذٍ لا تتقلَّبُ آيةُ الميراثِ وحدها بل تتقلَّبُ الحقيقة.

ومِمَّا نعجبُ له أَنَّ سلامة موسى يتكلَّمُ في مُحاضراتِهِ كأنَّ كلَّ أوالدين ذو
مالٍ وعقار، فنِصفُ الأُمَّةِ على هذا محرومٌ نصفَ حقِّه وكأنَّه لا يعرفُ أَنَّ السَّوادَ
الأعظمَ مِنَ النَّاسِ لا يتركُ ما يورث، لا على الربع ولا على النِّصف؛ وأنَّ كثيراً
مِمَّنْ يموتون عن ميراثٍ لا يحيا ميراثهم إلَّا أياماً من بعدهم، ثُمَّ يذهب في
الديون، إذ لا تركة مع دين، وكثيرون لا يُسمِنُ ميراثهم ولا يُغني، فلم تبقَ إلَّا
فئاتٌ معيَّنة من كلِّ أمةٍ لا يجوز أن تتقلَّبَ من أجلها تلك الحُكْمُ الاجتماعيةُ التي
هي من حظِّ الأُمومةِ كُلِّها لإقيام بعضِ الأخلاقِ عليها كما بسطناه.

ومِمَّا تشمَّرُ له النفوسُ الكريمةُ قولُ المُترجمِ في مُحاضراته: فلو كانتِ ألفتياتُ
يرثُنَ مثلَ إخوانهنَّ الذكور، لكانَ (في ثروتهنَّ) إغراءٌ للشبانِ على الزواج.

إنَّ الدينَ الإسلاميَّ لا يعرفُ مثلَ هذا الإسفافِ ^(١) في الخُلُقِ ولا يُقرُّه، بل
هو يهدمُه هدماً ويوجبُ على كلِّ رجلٍ أن يحملَ قِسطه ^(٢) مِنَ المسؤوليةِ ما دامَ
مُطيقاً إنَّ كَرَةً أو رَضِي، ولَعَمْرِي، إنَّ تلكَ الكلمةَ وحدها من كاتبها لَهي أدلُّ من
أسمِ المحلِّ على بضاعةِ المحلِّ...

(١) الإسفاف: الانحطاط.

(٢) قسطه: حظه.

كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة

تلقيتُ كتاباً هذه نسخه :

أكتبُ إليك متعجلاً بعد أن قرأت «كلمة كافرة» في «كوكب الشرق» الصادر مساء الجمعة ٢٧ من أكتوبر؛ كتبها متصدراً من نوع قولهم؛ حبذا الإمارة ولو على الحجارة. وسمي نفسه «السيد»، فإن صدق فيما كتب صدق في هذه التسمية.

طعن القرآن وكفر بفصاحته، وفصل على آية من كلام الله جملة من أوضاع العرب، فعقد فصله بعنوان «العثرات» على ذلك التفصيل، كأن الآية عشرة من عثرات الكتاب يُصححها ويقول فيها قوله في غلط الجرائد والناشرين في الكتابة؛ وبرق وجهه وجبن أن يستغلن، فأعلن بزندقته أنه حديث في الضلالة.

على ألدّم في رأسي حين رأيت الكاتب يلج في تفضيل قول العرب: «القتل أنفى للقتل» على قول الله - تعالى - في كتابه الحكيم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حُكْمٌ﴾، فذكرت هذه الآية الفائلة: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ وَرَدٌ إِلَىٰ أُولِيَ الْبُيُوتِ﴾ وهذه الآية: ﴿شَيْطَانٌ الْإِنْسِ وَالْإِنِ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ ثم هممت بالكتابة فأعترضني ذكرك، فالتفت ألقم لأتناوله بعد ذلك وأكتب به إليك.

ففي عنقك أمانة المسلمين جميعاً لتكتبن في الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها؛ فإن هذه زندقته إن تركت تأخذ مأخذها في الناس؛ جعلت البئر فاجراً، وزادت الفاجر فجوراً: ﴿وَأَنْتُمْ وَفِتْنَةُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةٌ﴾.

وأعلم أنه لا عذر لك. أقولها مخلصاً، يملها علي الحق الذي أعلم إيمانك به، وتفايك في إقراره والمدافعة عنه والدود عن آياته؛ ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم

به المؤمنون حين تناوشهم^(١) ذناب الزندقة الأدبية التي جعلت همها أن تلغ ولو عنها في البيان القرآني.

ولست أزيدك، فإن موقفي هذا موقف المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين وأذكر حديث رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عِلْمًا عِلِمَهُ فَكْتَمَهُ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا»^(٢) بلجام من نار! أو كما قال . . .
والسلام عليكم ورحمة الله.

٢٠٠٢ ش

قرأت هذا الكتاب فأقشعر جَنَمِي لوعيد النبي صلى الله عليه وسلم، وجعلت أردد الحديث الشريف أستكبر منه وأملأ نفسي بمعانيه، وإنه ليكثر في كل مرة، فإذا هو أبلغ تهكم بالعلماء المتجاهلين، والجهلاء المتعالمين؛ وإذا هو يؤخذ من ظاهره أن العالم الذي يكتُم علمه النافع عن الناس يجيء يوم القيامة مُلْجَمًا، ويؤخذ من باطنه أن الجاهل الذي يبث جهله الضار في الناس يجيء يوم القيامة مُلْجَمًا مُبَرِّدًا . . . أي: فهذا وهذا كلاهما من حمير جهنم!

والتمنت عدد «الكوكب» الذي فيه المقال وقراءته، ولم أكن أصدق أن في العالم أديباً مميراً يضع نفسه هذا الموضع من التصفح على كلام الله وأساء الأدب في وضع آية منه بين عشرات^(٣) الكتاب، فضلاً عن أن يسمو لتفضيل كلمة من كلام العرب على الآية، فضلاً عن أن يلج في هذا التفضيل، فضلاً عن أن يتهوس^(٤) في هذه اللجاجة؛ ولكن هذا قد كان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولعمري وعمر أبيك - أيها القارئ -، لو أن كاتباً ذهب فأكل فخلط فتضلع فنام فاستنقل فحلّم . . . أنه يتكلّم في تفضيل كلمة العرب على تلك الآية، وأجتهّد جهده وهو نائم ذاهب الوعي فلم يأل تخريفاً وأستطالة، وأخذ عقله الباطن يكنس دماغه ويخرج منه (الزبالة العقلية) ليلقيها في طريق النسيان أو في طريق الشيطان - لما جاء في شأوه بأسخف ولا أبرّد من مقالة «السيد» فسواء أوقع هذا التفضيل من جهة الهذيان والتخريف كما فعل كاتب النوم، أم وقع من جهة الخلط والخبث ما فعل كاتب الكوكب - فهذا من هذا، طباق سخافة بسخافة.

(١) تناوشهم: تناقشهم وتجادلهم وتصارولهم.
(٢) ملجماً: مربوطاً بلجام في رأسه كالذابة.
(٣) عشرات: أخطاء.
(٤) يتهوس: يتجنن.

نعم إنَّ مقالة «الكوكب» أفضل من مقالة الكاتبِ الحالمِ . . . ولكن قليل
الزيت في الزجاجَةِ التي أُهديت لِجُحا لا يُعَدُّ زيتاً ما دامَ هذا القليلُ يطْفؤُ على ملءِ
الزجاجَةِ من . . . مِنَ البول!

ولقد تنبأ القاضي أباقلانيُّ قبلَ مئاةِ السنينِ بِمقالةِ الكوكبِ هذه فأسفلها الرَّدُّ
بقوله :

«فإنَّ أَشْبَهَ على مُتأدِّبٍ أو مُتَشاعِرٍ أو ناشيءٍ أو مُرشدٍ فصاحةُ القرآنِ وموقِعُ
بلاغَتِهِ وعجيبُ براعَتِهِ فما عليك منه، إنَّما يُخْبِرُ عن نفسه، ويدلُّ على عجزِهِ،
ويُبينُ عن جهله، ويُصرِّحُ بِسَخافَةِ فهمِهِ وركاكَةِ عقلِهِ» ما علينا . .

يقول كاتبُ الكوكبِ بِالنَّصِّ :

قالتِ العربُ قديماً في معنى القصاصِ : (القتلُ أنفي للقتل)، ثُمَّ أَقبلَ القرآنُ
الكريمُ على آثارِ العربِ (هكذا) فقال : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ﴾ ، وقد مضتْ سُنَّةُ العلماءِ من أساطينِ ألبیانِ أنْ يعقدوا المُوازنةَ بينَ مقالةِ
العربِ هذه وبينَ الآيةِ الحكيمةِ أيُّهما أشبهُ بِالفصاحةِ (هكذا)، ثُمَّ يخلصون منها إلى
تقديمِ الآيةِ وألبیانِ القرآني . . . ثُمَّ قال : من رأي كاتبِ هذه الكلمةِ تقديمِ الكلمةِ العربيَّةِ
على الآيةِ الغراءِ ، (اللهم غفراً) على ثلجِ الصَّدْرِ بِإِعجازِ القرآنِ (كلمة لِلوقايةِ مِنَ
النِّبابةِ . . . وإلّا فماذا بقي مِنَ الإِعجازِ وقد عجزتِ الآيةُ؟ زَهْ زَهْ يا رجل . . .) .

ثُمَّ قال : إنَّ فيما تَقَدَّمَ بِهِ الكلمةُ العربيَّةُ على الآيةِ الحكيمةِ (اللهم غفراً)
مزايا ثلاثاً: أُولى هذه المزايا الثلاثِ ، هذا الإيجازُ السَّاحرُ فيها ؛ ذلك أنَّ :
«القتلُ أنفي للقتل» ثلاثُ كلمات لا أكثرَ ، أمَّا الآيةُ فَإِنَّها سبعُ كلماتٍ (كذا)
وعلى تلكِ فهي أقدمُ عهداً وأسبقُ ميلاداً من آيةِ التَّنزيلِ (تأمل) حاشا كلامَ اللَّهِ
القديمِ ، والإيجازُ ميزةُ أيةٍ مميزة ؛ الميزةُ الثانيةُ لِلْكلمَةِ الاستقلالُ الكتابيُّ وفقدُ
التعاقبِ بينها وبين شيءٍ آخرٍ سابقٍ عليها ، حتى إنَّ التَّمَثُّلَ بِها المُستشهِدُ يتبدى
بها حديثاً مستمِماً ويختتمُ في غيرِ مزيدٍ ولا فضل ، فلا يتوقَّفُ ولا يستعينُ
بغيرها ، أمَّا الآيةُ فَإِنَّها منسوقةٌ معَ ما قبلها بِالوِاوِ ، فهي متعاقدةٌ مترابطةٌ معه ، لا
يتمثَّلُ بِها التَّمَثُّلُ حتى يستعينَ بِشيءٍ سِواها ، وليسَ الَّذي يعتمدُ على غيره فلا
يستقلُّ كالَّذي يعتمدُ على نفسه فيستقلُّ ؛ الميزةُ الثالثةُ أنَّ الكلمةَ لَيْسَتْ مُتَّصِلةً
في آخرتها بِفضلٍ مِنَ القولِ تُغني عنه ، على حينِ تَتَّصِلُ الآيةُ بما تُغني عنه مِنَ

القول . ويُعتدُّ كالفصل وهو كلمتا ﴿يَتَأَوَّلِي الْأَلْتَبِ﴾ و﴿لَمَلَكُم تَتَفُون﴾، وإن كان لا زيادة في القرآن ولا فصول .

ثم قال : إن مدرساً جاءه بالفصل الذي عقده الإمام السيوطي في كتابه «الإتقان» لتفضيل الآية على الكلمة وفيه قرابة خمسة وعشرين حجة؛ قال : إنها أنحطت بعد أن رماها ينظره العالي إلى أربع : «أما الباقيات فمن نسج الاتحال والتزيد»، قال : وأولاهما أن الآية أوجز لفظاً، والكاتب يرى الآية : «سبع كلمات في تحديد ودقة»، قال : إذا لقد بطلت حجة الإيجاز في الآية «(اللهم غفراً)»، قال : والثانية : «أن في الكلمة العربية تكراراً لكلمة القتل سلبت الآية منه»، ورد الكاتب أن هذا التكرار : «يتحلل طلاوة ويقطر رقة، (قال) : وهذا فمي فيه طعم العسل»، (قلنا : وعليه الذباب يا سيدنا . . .)، والثالثة أن في الآية ذكراً للقصاص بلفظه على حين لا تذكر الكلمة إلا القتل وحده، وليس كل قتل قصاصاً؛ ودفع الكاتب هذا بأن الكلمة أنطوت على قتلين أحدهما ينفي صاحبه، فذاك هو القصاص؛ قال : «إذن فالكلمة والآية في قصد القصاص يلتقيان فرسي رهان»؛ والرابعة أن القصاص في الآية أعم يشمل القتل وغيره . وأقر الكاتب أن لآية فضلاً على الكلمة من هذه الناحية، ولكن الكلمة حكمة لا شريعة، وهي من قضاء الجاهلية، فليس عليها أن تُبين ما لم يعرفه العرب ولم يُخلق بعد، قال : «إذن فليست الكلمة مقصورة عن بيان، متبلدة عن إحسان» .

هذا كل مقال به حروفه بعد تخليصه من الكراكرة والحشو وما لا طائل تحته، ونحن نستغفر الله ونستعينه ونقول قولنا، ولكنا نقدم بين يدي ذلك مسألة، فمن أين للكاتب أن كلمة : «القتل أنفي للقتل» مما صحت نسبته إلى عرب الجاهلية، وكيف له أن يثبت إسنادها إليهم وأن يؤثّق هذا الإسناد حتى يستقيم قوله : إن القرآن أقبل على آثار العرب؟ . . .

أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت من الآية، والتوليد بين فيها، وأثر الصنعة ظاهر عليها؛ فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية؛ ولقد جاء أبو تمام بابدع وأبلغ من هذه الكلمة في قوله :

وأخافكم كي تُغمدوا أسيافكم إن الدّم المُغبرَّ يحرسه الدّم

(الدمَ يَحْرُسُهُ الدَّمُ)، هذه هِيَ الصَّنَاعَةُ وهذه هِيَ الْبَلَاغَةُ لَا تِلْكَ، وَمَعَ هَذَا فَكَلِمَةُ الشَّاعِرِ مُوَلَّدَةٌ مِنْ آلَايَةٍ، يَدُلُّ عَلَيْهَا الْبَيْتُ كُلُّهُ؛ وَكَأَنَّ أَبَا تَمَّامٍ لَمْ يَكُنْ سَمِعَ قَوْلَهُمْ: «الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ»، وَأَنَا مُسْتَقِرٌّ أَنَّ الْكَلِمَةَ لَمْ تَكُنْ وَضِعَتْ إِلَى يَوْمِئِذٍ.

وَلَوْ أَنَّ مُتَمَثِّلًا أَرَادَ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فَانْتَرَعَ مِنْهُ هَذَا الْمَثَلُ «الدمَ يَحْرُسُهُ الدَّمُ»، أَيْكُونُ حَتَمًا مِنَ الْحَتَمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: كَلَا يَا هَذَا فَإِنَّ الْبَيْتَ سَبْعُ كَلِمَاتٍ فَلَا يَصُحُّ انْتَرَاعُ الْمَثَلِ مِنْهُ وَلَا بُدَّ مِنْ قِرَاءَةِ الْبَيْتِ بِمِصْرَاعِيهِ كَمَا يَقُولُ كَاتِبُ الْكُوكِبِ فِي آلَايَةِ الْكَرِيمَةِ لِيَزَعِمَ أَنَّهَا لَا تُقَابِلُ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ فِي الْإِيجَازِ؟

إِنَّ الَّذِي فِي مَعَانِي آلَايَةِ الْقَرَأْنِيَّةِ مِمَّا يَنْظُرُ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ» كَلِمَتَانِ لَيْسَ غَيْرَ، وَهُمَا «الْقِصَاصُ، حَيَاةٌ»؛ وَالْمُقَابَلَةُ فِي الْمَعْنَى الْمَتَمَثِّلَةِ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُؤَدِّي هَذِهِ الْمَعْنَى دُونَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ أَوْ تَعَلَّقَ بِهَا مِمَّا يَصِلُ الْمَعْنَى بِغَيْرِهِ أَوْ يَصِلُ غَيْرُهُ بِهِ؛ إِذِ الْمُؤَاوَزَةُ بَيْنَ مَعْنِيَيْنِ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي صِنَاعَةِ تَرْكِيبِهِمَا، وَيُخِيلُ إِلَيَّ أَنَّ الْكَاتِبَ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ بَاقِيَ آلَايَةِ الْكَرِيمَةِ لَغَرٌّ وَخَشَوُ، فَهُوَ حَمِيلَةٌ عَلَى الْكَلِمَتَيْنِ: الْقِصَاصُ حَيَاةٌ، يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهَا، وَلَكِنَّهُ غَضَّ بِهَا، وَإِلَّا فَلِمَ آذَى بِلُجٍّ فِي أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْمَثَلِ، أَيْ لَا بُدَّ فِي الْمُقَابَلَةِ، مِنْ رَدِّ آلَايَةِ بِالْأَلْفَاظِ جَمِيعًا؟

فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَغَيَّرَ الْإِعْرَابُ فِي آلَايَةِ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ مُنْتَزَعًا مِنْهَا عَلَى التَّلَاوَةِ، قُلْنَا: فَإِنَّ مَا يُقَابِلُ الْكَلِمَةَ مِنْهَا حِينَئِذٍ هُوَ هَذَا. «فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»، وَجَمَلْتُهَا اثْنَا عَشَرَ حَرْفًا، مَعَ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ؛ فَالْإِيجَازُ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ هُوَ فِي آلَايَةِ دُونَ الْكَلِمَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿يَتَأَذَى الْأَلْبَابُ لِآلَيْبِ لِمَلِكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لَوْ كَانَ الْكَاتِبُ مِنْ أَوَّلِي الْأَلْبَابِ لَفَهِمَهَا وَعَرَفَ مَوْقِعَهَا وَجَكَمَتَهَا، وَأَنْ إِعْجَازَ آلَايَةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا، إِذْ أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مُعْجَزَةً زَمْنِيَّةً كَمَا سَنَشِيرُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ أَتَى لَهُ وَهُوَ مِنَ الْفَنِّ الْبَيَانِيِّ عَلَى هَذَا الْبَعْدِ الْكَاسِحِ، لَا يَعْلَمُ أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَالزَّمَنِ فِي نَسْقِهَا: مَا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ يُظْهِرُهُ إِلَّا وَمِنْ وَارِثِهِ سَرٌّ يُحَقِّقُهُ.

ثُمَّ إِنَّ الْإِيجَازَ فِي الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَيْسَ مِنَ «الْإِيجَازِ السَّاحِرِ» كَمَا يَصِفُهُ الْكَاتِبُ، بَلْ هُوَ عِنْدَنَا مِنَ الْإِيجَازِ السَّاقِطِ؛ وَلَيْسَ مِنْ قِبَلِ إِيجَازِ آلَايَةِ الْكَرِيمَةِ وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُشَبِّهَهُ، إِذْ لَا بُدَّ فِي فَهْمِ صِغَةِ التَّفْضِيلِ مِنْ تَقْدِيرِ الْمُفْضَّلِ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى «الْقَتْلُ أَكْثَرُ نَفْيًا لِلْقَتْلِ مِنْ كَذَا»، فَمَا هُوَ هَذَا «الْكَذَا» أَيُّهَا الْكَاتِبُ أَلْتَمَعْتُ؟

أليس تصوُّرُ معنى العبارة وإحضاره في الذهب قد أسقطها ونزل بها إلى الكلام السوقي المبتذل وأوقع فيها الاختلال؟ وهل كانت إلا صناعةً شعريَّةً خياليَّةً مُلفقةً كما أومأنا إلى ذلك آنفاً، حتى إذا أجزئتها على منهجها من العربيَّة رأيتها في طريقة هذا الكلام العربيّ كأنني كقول القائل: «الفرح أعظم من الترح»، «الحياة هي التي تُعطى للحياة»...؟

بهذا الرد الموجز بطلت الميزات الثلاث التي زعمها الكاتب لئلا تكون الكلمة، وإن الكلمة نفسها لتبرأ إلى الله من أن تكون لها على الآية ميزة واحدة فضلاً عن ثلاثة. ولنفرض «فرضاً» أن الكلمة وثيقة الإسناد إلى عرب الجاهليَّة وأنها من بيانهم، فما الذي فيها؟

١ - إنها تُشبه قول من يقول لك: إن قتلَ خصمك لم يقتلك. وهل هذا إلا هذا؟ وهل هو إلا بلاغة من الهذيان؟

٢ - يخرج لِشأيه إلا مُقرراً في نفسه أنه إما قاتل أو مقتول، ولذلك تكرر فيها القتل على طرفيها، فهو من أشنع التكرار وأفظعه.

٣ - إن فيها الجهل والظلم والهمجية، إذ كان من شأن العرب ألا تُسلم القبيلة العزيزة قاتلاً منها، بل تحميه وتمنعه، فتقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية؛ فمن ثم لا ينفي عار القتل عن قبيلة المقتول إلا الحرب والاستتصال قتلاً قتلاً وأكل الحياة للحياة، فهذا من معاني الكلمة: أي القتل أنفي لعار القتل، فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب.

٤ - إن القتل في هذه الكلمة لا يمكن أن يُخصَّص بمعنى القصاص إلا إذا خصصته الآية فيجيء مُفترناً بها، فهو مُفتقر إليها في هذا المعنى، وهي تلبس الإنسانية كما ترى، ولن يدخله العقل إلا من معانيها؛ وهذا وحده إعجاز في الآية وعجز من الكلمة.

وقبل أن نبيِّن وجوه الإعجاز في الآية الكريمة ونستخرج أسرارها، نقول لهذا الطفيلي: إنه ليس كل من استطاع أن يطير في الجو ورقة في قصبة في خيط - جاز له أن يقول في تفضيل ورقته على منطاد زبلين، وأن فيما تتقدم به على المنطاد الكريم ميزات ثلاثاً: الذيل، والورق الملوّن، والخيط...

يقولُ اللهُ - تعالى - : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ .

١ - بدأ الآيةَ بقوله (ولكم)، وهذا قيدٌ يجعلُ هذه الآيةَ خاصَّةً بِالْإِنْسَانِيَّةِ المؤمنةِ التي تطلبُ كمالها في الإيمان، وتلتبسُ في كمالها بنظامِ النفس، وتُفَرِّزُ نظامَ النفسِ بنظامِ الحياة؛ فإذا لم يكنْ هذا مُتَحَقِّقاً في الناسِ فلا حياةَ في القصاص، بلْ تصلحُ حينئذٍ كلمةُ الأهمجيةِ: القتلُ أنفى للقتل، أي أقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً، فهذا هو الذي يُبقيكم أحياءً وينفي عنكم القتل؛ فالآيةُ الكريمةُ بدلالةِ كلمتها الأولى موجَّهةٌ إلى الإنسانيةِ العاليةِ، لِتُوجَّهَ هذه الإنسانيةُ في بعضِ معانيها إلى حقيقةٍ من حقائق الحياة .

٢ - قال: ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ ولم يقلْ في القتل، فقيدهُ بهذه الصيغةِ التي تدلُّ على أنَّه جزاءٌ ومُؤاخَذةٌ، فلا يُمكنُ أن يكونَ منه المبادأةُ بِالْعُدْوَانِ، ولا أن يكونَ منه ما يخرجُ عن قدرِ المُجازاةِ قلَّ أو كَثُرَ .

٣ - تُفيدُ هذه الكلمةُ «القصاص» بصيغتيها (صيغةُ المُفاعلة) ما يُشعرُ بِوجوبِ التحقيقِ وتمكينِ القتالِ مِنَ الْمُنَازَعَةِ والدِّفاعِ، وألَّا يكونَ قِصاصٌ إلَّا بِاستحقاقٍ وعدلٍ؛ ولذا لم يأتِ بِالكلمةِ مِن أَقْتَصَّ معَ أنَّها أكثرُ استعمالاً، لِأَنَّ الْأَقْتِصَاصَ شريعةُ الفردِ، وَالْقِصاصُ شريعةُ المجتمعِ .

٤ - من إعجازِ لفظَةِ الْقِصاصِ هذه أنَّ اللهُ - تعالى - سَمَّى بها قتلَ القتالِ، فلم يُسمِهْ قَتْلًا كما فعلتِ الكلمةُ العربيَّةُ، لِأَنَّ أَحَدَ الْقَتْلَيْنِ هو جريمةٌ واعتداءٌ، فترَّةٌ - سبحانه - العَدْلُ الشرعيُّ حتى عن شَبَّهِهِ بلفظِ الجريمةِ؛ وهذا منتهى السُّموِّ الأدبيِّ في التعبيرِ .

٥ - ومن إعجازِ هذه اللفظةِ أنَّها بِاختيارِها دونَ كلمةِ الْقَتْلِ تُشيرُ إلى أنَّه سيأتي في عصورِ الإنسانيةِ ألعالمِ الْمُتَحَضَّرَةِ عصرٌ لا يرى فيه قتلَ القتالِ بِجنايتهِ إلَّا سُرا من قتلِ المقتولِ؛ لِأَنَّ المقتولَ يهلكُ بِأسبابٍ كثيرةٍ مختلفةٍ، على حينِ أنَّ أَحَدَ الْقَاتِلِ لِقَتْلِهِ ليسَ فيه إلَّا نِيَّةُ قَتْلِهِ؛ فعَبَّرَتِ الآيةُ بِاللُّغَةِ التي تَلَانِمُ هذا العصرَ القانونيَّ الفَلَسَفيَّ، وجاءتِ بِالكلمةِ التي لن تَجِدَ في هذه اللُّغَةِ ما يُجْزِئُ عنها في الْأَنْسَاعِ لِكُلِّ ما يُرَادُ بِها من فلسفةِ العقوبةِ .

٦ - ومن إعجازِ اللفظةِ أنَّها كذلك تحمِلُ كلَّ ضروبِ الْقِصاصِ: أَلْتَتْلِي فما دونَه، وعجيبٌ أن تكونَ بِهذا الإِطلاقِ مع تقييدها بِالْقِيودِ التي سَرَّتْ بك فهي

بذلك لُغَةُ شريعةِ إلهيةٍ على الحقيقة، في حين أَنَّ كلمةَ القتلِ في المثلِ العربيّ تنطقُ في صراحةٍ أنَّها لغةُ الغريزةِ البشريَّةِ بأقبحِ معانيها؛ ولذلك كانَ تكرارُها في المثلِ كَتكرارِ الغلطةِ؛ فالآيةُ بلفظةِ (القصاص) تضَعُك أمامَ الألوهيةِ بِعَدْلِها وكمالِها، وأَلمثلُ بلفظةِ (القتل) يَضَعُك أمامَ البشريَّةِ بِنقصِها وظُلُمِها.

٧ - ولا تنسَ أَنَّ التعبيرَ بِالقصاصِ تعبيرٌ يدعُ الإنسانيةَ محلَّها إذا هي تخلَّصتَ من وحشيتها الأولى وجاهليَّتها القديمة، فيشملُ القصاصُ أخذَ الديةِ والعفوَ وغيرَهما؛ أمَّا المثلُ فليس فيه إلا حالةٌ واحدةٌ بعينِها كأنَّهُ وحشٌ ليس من طَبْعِهِ إلا أن يفترس.

٨ - جاءتَ لفظةُ القصاصِ مُعرَّفةً بأداةِ التعريفِ، لِئَدلَّ على أنَّه مقيدٌ بِقيوده الكثيرةِ؛ إذ هو في الحقيقة قوَّةٌ من قوَى التدميرِ الإنسانيةِ فلا تصلُحُ الإنسانيةُ بِغيرِ تقييدها.

٩ - جاءتَ كلمةُ (حياة) منزَّنة، لِئَدلَّ على أنَّ ههنا ليستَ حياةٌ بعينِها مُقيَّدةٌ بِاصطلاحٍ معيَّن؛ فقد يكونُ في القصاصِ حياةٌ اجتماعيَّةٌ، وقد يكونُ فيه حياةٌ سياسيَّةٌ، وقد تكونُ الحياةُ أدبيَّةً، وقد تعظُمُ في بعضِ الأحوالِ عن أن تكونَ حياةً.

١٠ - إنَّ لفظَ (حياة) هو في حقيقتهِ ألفلسفيَّةٌ أعمُّ مِنَ التعبيرِ (بنفي القتل)، لِأَنَّ نفيَ القتلِ إنَّما هو حياةٌ واحدةٌ، أي تركُ الروحِ في الجسمِ، فلا يحتملُ شيئاً مِنَ المعاني الساميةِ، وليس فيه غيرُ هذا المعنى الطَّبِيعيِّ الساذجِ؛ وتعبيرُ الكلمةِ العربيَّةِ عن الحياةِ (بنفي القتل) تعبيرٌ غليظٌ عاميٌّ يدلُّ على جَهْلِ مُطبِّقِ لا محلَّ فيه لِلعلمِ ولا تفكيرٍ، كَالَّذِي يَقولُ لك: إنَّ الحرارةَ هي نفيُ البرودةِ.

١١ - جعلُ نتيجةِ القتلِ حياةً تعبيرٌ من أعجبِ ما في الشعرِ يسمو إلى الغايةِ مِنَ الخيالِ، ولكنَّ أعجبَ ما فيه أنَّه ليسَ خيالاً، بل يتحوَّلُ إلى تعبيرٍ علميٍّ يسمو إلى الغايةِ مِنَ الدقَّةِ، كأنَّهُ يَقولُ بِلسانِ العِلْمِ: في نوعٍ من سَلْبِ الحياةِ نوعٌ من إيجابِ الحياةِ.

١٢ - فإذا تأملتَ ما تقدَّم أنعمتَ فيه تحقَّقتَ أَنَّ الآيةَ الكريمةَ لا يَتِمُّ إعجازُها إلا بِما تَمَّتْ بِهِ من قولهِ: ﴿يَأْخُذُ الْآلَتِيبَ﴾، فهذا نداءٌ عجيبٌ يسجدُ لَهُ مَنْ يفهمُهُ، إذ هو موجَّهٌ للعربِ في ظاهرِهِ على قدرِ ما بلغوا من معاني اللَّبِّ^(١)، ولكنَّهُ في

(١) اللَّب: العقل والقلب.

حقيقته موجّه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع، هم هؤلاء الذين يزّون إجرام المجرم شذوذاً في التركيب العصبي، أو وراثته محتومة، أو حالة نفسية قاهرة، إلى ما يجري هذا المجرى؛ فمن ثمّ يزّون أن لا عقاب على جريمة، لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى؛ وهذه فلسفة تحملها الأدمغة والكتب، وهي تحوّل القلب إلى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع، فتبهمهم الله إلى ألبابهم دون عقولهم، كأنه يُقرّر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأي، بل هي قبل ذلك باللب والبصيرة، وفلسفة اللب هذه هي آخر ما أنتهت إليه فلسفة الدنيا.

١٣ - وَأَنْتَهتِ آيَةُ يَقُولِهِ - تعالى -: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهي كلمة من لغة كل زمن، ومعناها في زمننا نحن: يا أولي الألباب، إنّه برهان الحياة في حكمة القصص تسوقه لكم، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه، فأجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد.

وبعد، فإذا كان في الآية الكريمة - على ما رأيت - ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة.

القتل أنفى للقتل

ليست مترجمة

بعد أن نُشرَت مقالة (الكلمة المؤمنة) في (البلاغ)، كتب الأديب الفلسطيني الأستاذ إسعاف النشاشيبي: إن هذه الكلمة مترجمة عن الفارسية، وقد نقلها الثعالبي في كتابه (الأيجاز والإعجاز)، فنشرنا في «البلاغ» هذا التعليق:

* * *

قال الأستاذ الكبير محمد إسعاف النشاشيبي في كلمته للبلاغ إن عبارة «القتل أنفى للقتل»، ليست بعربية ولا مولدة، بل هي مترجمة؛ أي فهي مطموسة الوجه من كونها أعجمية وقع الخطأ في نقلها إلى العربية، فكانت غلطة من جهتين.

وإنه ليسرني أن تكون فوق ذلك زنجية نُقلت إلى المالمطية، ثم تُرجمت إلى العربية، فتكون غلطة من أربع جهات، لا من جهتين فقط... ولكن هذه الكلمة لم يُشر إلى أصلها غير (الثعالبي)، وهو مع ذلك لم يقطع فيها برأي، بل أشار إلى ترجمتها في صيغة من صيغ التمريض المعروفة عند الرواة فقال: «يُحكى أن فيما تُرجم عن ازدشير...» (ويحكى) هذه ليست نصاً في باب الرواية، وقد يكون هذا الإمام أتقى الله فابتعد بالكلمة وطوّح بها إلى ما وراء بلاد العرب، أو تكون الكلمة أُلقيت إليه على أنها مُشتبة في نسبتها؛ ولو كانت العبارة مترجمة لتناقلها الأئمة معزوة إلى قائلها أو لُعنتها لتي قيلت فيها.

ولقد ذكرها العسكري في كتابه (الصناعتين) على أنها (من قولهم)، أي العرب أو المولدين؛ ونقلها الرازي في تفسيره، فقال: إن للعرب في هذا المعنى كلمات منها «قتل البعض إحياء للجميع»، وأحسنها «القتل أنفى للقتل»؛ وكذلك جاء بها ابن الأثير في كتاب «المثل السائر» ولم يغزها؛ وقال مفسر الأندلس أبو حيّان في تفسيره: إنها تُروى برواية أخرى وهي: «القتل أوقى للقتل»، وكل ذلك صريح في أن خبر الترجمة قد انفرد به الثعالبي.

ولا يقوم الدليل على ترجمتها إلا بظهور أصلها الفارسي، فإن كان علم ذلك عند أحد فليفضل به مشكوراً مأجوراً.

(تنبيه): نشرنا هذه الكلمة ومضت بعدها سنوات ولم يقف أحد على أن للعبارة أصلاً فارسياً، فلم يبقَ عندنا ريب^(١) أنها من صنيع بعض الزنادقة وقد ولّدها من آية الكريمة لتجريحها في مجرى المعارضة^(٢)؛ وقد كتب الأستاذ الكبير عبد القادر حمزة صاحب جريدة (البلاغ) أن تلك العبارة حكمة مصرية قديمة؛ ولا نمنع أن يكون هذا، فإن بعض الحكم مما تتوارد عليه العقول الإنسانية النابغة؛ إذ كانت الطبيعة البشرية كأنها تُفليه؛ غير أن العبارة ليست في كلام الجاهلية القديمة ولا الحديثة، وألفاظ المصرية غير ألفاظ العربية، فلم يبقَ إلا توارد الخواطر، وآله أعلم.

(١) ريب: شك.

(٢) المعارضة: المقارنة.

القتل أنفى للقتل

ليست جاهلية

وبعد كلمتنا تلك عن الترجمة نشر أديب في البلاغ أن الكلمة جاهلية، فتعقبناه بهذا التعليق:

أثبت الأستاذ عبد العزيز الأزهرى فيما نشره في «البلاغ» أن هذه الكلمة عربية في دعواه، واحتج لذلك بحجج، أقواها زعمه: «أنها وردت بين ثنانيا عهد القضاء الذي بعث به سيدنا عمر إلى أبي موسى الأشعري؛ ولا ندري أين وجد الكاتب كلمة: «القتل»، فضلاً عن: «القتل أنفى للقتل» - في ذلك العهد المشهور المحفوظ، وقد رواه الجاحظ في «البيان والتبيين»، وجاء به المبرّد في «الكامل»؛ ونقله ابن قتيبة في «عيون الأخبار». وأوردّه ابن عبد ربه في «العقد الفريد»، وسأفه القاضي أبقلائي في «الإعجاز»؛ وفي كل هذه الروايات الموثقة لم تأت الكلمة في قول عمر، بل لا محل لها في سياقها، وإنما جاء قوله: «فإن أحضر بيته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشكك».

أما سائر حجج الكاتب فلا وزن لها في باب الرواية التاريخية وقد أصبح عليها سافلها كما رأيت.

والذي أنا واثق منه أن الكلمة لم تُعرف في العربية إلى أواخر القرن الثالث من الهجرة، وهذا الإمام الجاحظ يقول في موضع من كتابه (البيان والتبيين)، في شرح قول علي - كرم الله وجهه -: «بقية السيف أتمى عدداً وأكثر ولداً»، ما نصه: «وجد الناس ذلك بالعيان للذي صار إليه ولده من نهك السيف وكثرة الذرء وكرم النحل؛ قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وقال بعض الحكماء: «قتل البعض إحياء للجميع».

ولم يزد الجاحظ على هذا، ولو كانت الكلمة معروفة يومئذ لما فاته كما هو

صنيعه في كتبه، خصوصاً وهي أوجز وأعذب مما نسبته لبعض الحكماء؛ وهذه العبارة الأخيرة (قتل البعض...) هي التي زعم الرازي في تفسيره أنها للعرب. فلا عبرة في هذا الباب بكلام المفسرين ولا المتأخرين من علماء أبلالة، وإنما الشأن للتحقيق التاريخي.

ونص الجاحظ في كتاب «حجج النبوة» على أن قوماً منهم ابن أبي العوجاء، وإسحاق بن أكرت، والنعمان بن المنذر: «أشباههم من الأراجاس الذين استبدلوا بالعرز ذلاً، وبالإيمان كُفراً، وبالسعادة شقوة، وبالحجة شبهة، كانوا يصنعون الآثار، ويولدون الأخبار، ويبثونها في الأمصار، ويطعنون بها على القرآن»؛ فهذا عندنا من ذلك.

وإن لم ينهض الدليل القاطع على أن الكلمة مترجمة عن الفارسية بظهور أصلها في تلك اللغة ورجوعه إلى ما قبل الإسلام، فهي ولا ريب مما وُضِعَ على طريقة ابن الرواندي الزنديق المُلجِد الذي كان في منتصف القرن الثالث وألف في أطلعن على هذه الطريقة: «إنا نجد في كلام العرب شيئاً أبلغ من ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾».

وهؤلاء المتطرفون على القرآن الكريم إنما يريدون بما يصنعونه من مثل هذه الكلمة أن يوجِّدوا للعامة وأشباههم من الأحداث والأغرار وأهل الزيف والضعفاء في العلم - سبيلاً إلى القول في نقض الإعجاز، ومساعاً إلى التهمة، في أن القرآن تنزيل؛ والخطأ في مثل هذا يتجاوز معنى الخطأ في البيان إلى معنى الكفر في الدين، وذلك ما يرمون إليه؛ وهذه بعينها هي طريقة المبشرين اليوم، فكان إبليس من عهد أولئك الزنادقة إلى عهد المبشرين لم يستطع إن يتغير، ولا أن يكون... أن يكون مُجَدِّداً...



فهرس المحتويات

| | |
|-----|--|
| ٥ | السُّمو الروحيُّ الأعظمُ والجمالُ الفنيُّ في البلاغةِ النبويةِ |
| ٢٥ | قرآنُ الفجر |
| ٢٨ | اللغةُ والدينُ والعاداتُ باعتبارِها من مقوماتِ الاستقلال |
| ٣٤ | تجديدُ الإسلامِ رسالةُ الأزهرِ في القرنِ العشرين |
| ٤٠ | الأسد |
| ٤٧ | أمرء للبيع |
| ٥٤ | العجوزان ١ |
| ٦٠ | العجوزان ٢ |
| ٦٥ | العجوزان ٣ |
| ٧١ | العجوزان ٤ |
| ٧٨ | السطر الأخيرُ من القصة |
| ٨٥ | عاصفةُ القدر |
| ٩٦ | القلبُ المسكين ١ |
| ١٠٢ | القلبُ المسكين ٢ |
| ١٠٧ | القلبُ المسكين ٣ |
| ١١٢ | القلبُ المسكين ٤ |
| ١١٧ | القلبُ المسكين ٥ |
| ١٢٢ | القلبُ المسكين ٦ |
| ١٢٨ | القلبُ المسكين ٧ |
| ١٣٣ | القلبُ المسكين ٨ |
| ١٤٢ | القلبُ المسكين تتمة |
| ١٤٨ | انتصارُ الحب |
| ١٥٢ | قنبلةُ البارود لا بالماءِ المقطر . . |

| | | |
|-----|-------|--|
| ١٥٦ | | شيطان وشيطانة . . . |
| ١٦٣ | | نهضة الأقطار العربيّة |
| ١٦٩ | | لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على فتيّه |
| ١٧٦ | | صعاليك الصحافة ١ |
| ١٨١ | | صعاليك الصحافة ٢ |
| ١٨٦ | | صعاليك الصحافة ٣ |
| ١٩٢ | | صعاليك الصحافة تنمة |
| ١٩٧ | | أبو حنيفة ولكن بغير فقه! |
| ٢٠٢ | | الأدب والأديب |
| ٢١١ | | سير النبوغ في الأدب |
| ٢٢٢ | | نقد الشعر وفلسفته |
| ٢٣٤ | | فيلسوف وفلاسفة . |
| ٢٣٨ | | شيطاني وشيطان طاغور . . . |
| ٢٤٣ | | فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها . ؟ |
| ٢٤٥ | | شعر صبري |
| ٢٥٧ | | حافظ إبراهيم |
| ٢٧١ | | كلمات عن حافظ |
| ٢٧٩ | | شوقي |
| ٢٩٦ | | بعد شوقي |
| ٣٠٢ | | الشعر العربي في خمسين سنة |
| ٣١٣ | | صروف اللغويّ |
| ٣٢٣ | | الشيخ الخضرّي |
| ٣٢٩ | | رأي جديد في كتب الأدب القديمة |
| ٣٣٦ | | أمير الشعر في العصر القديم |
| ٣٤٠ | | البؤساء |
| ٣٤٣ | | الملاح ألتائه |
| ٣٤٩ | | المقتطف والمتنبّي |
| ٣٥٢ | | محمد |

| | |
|-----|--|
| ٣٥٤ | ديوانُ الأعشاب |
| ٣٥٩ | النجاحُ وكتابُ سرِّ النجاح |
| ٣٦٢ | أبو تمامُ الشاعرُ تحقيقُ مدّةِ إقامتِهِ بِمِصْرَ |
| ٣٦٨ | القديمُ وَالجديد |
| ٣٧٣ | المرأةُ وَالْمِيراثُ |
| ٣٧٧ | كلمةُ مؤمنةٍ في ردِّ كلمةٍ كافرة |
| ٣٨٦ | القتلُ أنفى للقتل |
| ٣٨٦ | ليست مترجمة |
| ٣٨٨ | القتلُ أنفى لِلقتل |
| ٣٨٨ | ليست جاهلية |